



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>





PRINCETON UNIVERSITY LIBRARIES



32101 020748701

Princeton University Library

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or re-
new by this date.

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

PAIR>



32101 020748701

كتاب الحلة

كتاب الرحلة

الموسومة

بالواسطة الى معرفة ما لطرة

وكشف المخبا عن فنون اوربا

تأليف

العالم العلامة والشهم الفهامة * النافع البارع * وحائز

خصل السباق بلا منازع * فارس ميادين البيان

ومجلي مخدرات المعاني على مصان العرفان

سن لم تنزل صحائف افادته تجوب

الافاق * وينعقد على لاقبال عليها

نظامي لاتفاق * ابي العباس

الشيخ احمد فارس افندي

الشديساق * دام

بحفظ الباري

السزاق

*

طبعة اولي

بمطبعة الدولة التونسية بحاضرتها الحمية

١٢٨٣

سنة

تنبیه

يقول المكلف بطبع هذا التأليف الفريد اني كنت عزمت على اضافة
بعض حواش اليه تاريخية وتفسيرية شرحا لما ورد فيه من الاسماء
والالفاظ العجمية التي ليست مشهورة عند اهل العربية كاسم السسترس
ومارس وغيرهما ورسمت في الاصل اعدادا بين هلالين علامة لما اردت ان
احشي عليه ولكن لما استاذنت المؤلف كما كان من الواجب علي لم يستحسن
ذلك مني ولم ياذن لي به بل اعلن انه شرع في شرح ما يلزم وانه ينشرها
فيما بعد فعدلت عن عزمي ولم اتساف لانني على يقين بانه هو اجدر
بالتحشية على تأليفه ممن سواه * فالله المستول ان يطيل بقاءه ويقدره على انجاز
ما اكثر من ذلك افادة للجميع *

مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي احصى كل شيء كتابا * واعد للمتقين جزاء حسابا * والهم
ابن آدم ان يضرب في الاوض ويكدح لنفسه كدحا * ويجوب مناكب البلاد
ويسعى ليدرك نجحا * والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهرت
آيات فضله الناظرين * وبزغت شمس دينه فافل منها سها الكافرين *
ونادى بالحق فرشق الباطل واحصى طلله * وانذر فارهب * وبشر فارغب *
وطاب مقيله ومقوله ومقولته * خبر من دعا وامر * ونهى وزجر * ووعد فأنجز
وقال اظنن او اوجز * وارشد فهدى * واجدى سن اجتدى * صلاة وسلاما
دائمين متلازمين متلائمين * وعلى آله وعترته واصحابه وعشيرته * ما
سرى الساري * وطلعت الدراري *

أما بعد فان الاسفار طالما ذكرها الذاكرون * وبالغ في وصفها الواصفون *
فمدحها من علت مروءته * وسمت همته * وذمها من قصر عنها * ولم يحسن
منها * فمنهم من شبه صاحبها بدر ان لم ينقل لم يكن في التيجان منصودا *
وبهلال ان لم يسولم يصير بدرا مشهودا * ومنهم من زعم انها الحافلة على
الذل * المصيبة لحسب المرء والموقعة له في الضل * والحمول وعدم الشكل *
وان الشيء انما يرزى اذا كان في مستقرة * حتى عرفوا الظلم انه وضع
الشيء في غير مقره * ومعلوم ان محل العرب مباين لمحل العجم * فكان احد
الفريقين اذا جاوز محله فقد ظلم * لك غير ذلك من تناقض العبارات
والاعتبارات * كما جرت بذلك عادة البلغاء في العجائز * اذ كل حكم
وقضية من القضايا الجارية اطالوا فيها المقال * وجالوا فيها من حيث لا
يجال * كاعتزال الناس والانفراد عنهم * والخطاظة لهم والاخذ منهم * فبعضهم

2274

87678

395
Digitized by Google

أمر لأول * وود ان يقضي عمرة على قمة جبل * وبعضهم شبه الزحام * بمنهل
عذب لذي الاوام * وامثال ذلك لا تحصي * ولا تنقيد ولا تستقصى * فكان
الركون الى ما قالوا * والمعول على ما فيه جالوا واطالوا * غير هاد وحده سبيلا
قويما * ولا شاف كليما * إلا اذا امتحن الناقد الليب بنفسه اي الفريقين
اصدق قيلا * واهدى سبيلا * واطلع على ماذا جلمهم على الذم والقدح * والثناء
والمدح * وماز المعلم من الممحمل * والحالي من المعطل * فهو حينئذ خير واي
خير * غير مفتقر الى ناصح منهم ومشير * والحاصل ان لكل امرء شانا يعنيه *
ومطلبا هو مقتفيه * وان ما قضى الله يكون * سواء ذم الذامون او مدح
المادحون * هذا وقد كنت في عنفوان شبابي * وجددة جلابي * وازهار سنى
وازدهار ذهني * لهجما بالسفر والاشتراب * والترحل عن الوطن والاصحاب
الى بلد ينصرف فيه غرسى * وتطيب فيه نفسى * واقتبس فيه من مصايح
العلم قبسا * والقي اذ الدهر لي موحش خليلا يصادقني مونا * حتى ادتني
اعمال حابطة * الى جزيرة مالطة * فالفيتها لا كما املت * وكابدت منها
ما لا يقي بما عنه ترحلت * فعن لى ان اظهر ما بطن منها * واكشف
مخبائها لمن رغب فيها او عنها * فالفت فيها كتابا سميت «الواسطة الى
معرفة مالطة» . ثم لما رايت ان هذا الشرح لا يروي غليلا * ولا يشفي عيلا .
لكونه مقصورا على وصف الجزيرة * وهي من الصغر بحيث لا تمكن الوصف
من ان يطيل فيها من القول ماثورة * او يضيف اليه فواتد تاريخية خطيرة .
ظل خاطري حاثما على مورد التاليف * وقلبي هائما بسفر طريف * الى ان
مكتني التقادير الممكنة * بعد لبثي على تلك الصخرة الدرنه * نحو اربع
عشرة سنة * من السفر الى بلاد الانكليز المتدنية * فاغتمت هذه الفرصة
عجلا . وظننت اني ادركت املا * وعليت على ان اشفع تاليف الواسطة برحلة يعظم
وقمها * ويعم نفعها * فصرت اقيد ما عن لي من الخواطر في وصفهم وسنج *
وتارة انقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح * وللطرف اليه مطمح * فان
شؤونهم متشعبة * واحوالهم مستغربة * وانحاءهم شتى * ومقاصدهم تستغرق
وصفا ونعتا * ويعلم الله اني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب *

وادرکت فيها من الرغائب * كنت ابدا منقص العيش مكدره * کمن ففقد
وطره * ولزمته معسره * لا يروقني نضار ولا نصرة * ولا نعمة ولا مسرة * ولا
طرب ولا لهو * ولا حسن ولا زهو * لما اني كنت دائم التفكير في خلو بلادنا
عما عندهم من التمدن * والبراءة والتفنن * ثم تعرض لي عوارض من السلوان *
بان اهل بلادنا قد اختصوا باخلاق حسان * وكرم يغطي العيوب ويستر ما
شان * ولا سيما الغيرة على الحرم * وصون العرض عما من هذا الصوب يذم *
ثم اعود الى التفكير في المصالح المدنية * والاسباب المعاشية * وانتشار المعارف
العمومية * والى انتقان الصنائع * وتنعيم الفوائد والمنافع * فيجفل ذلك
السلوان * واعدو الى الاشجان * وكذا كانت حالة سيدي الاكرم المونس *
امير الامراء السيد حسين رئيس المجلس البلدي بتونس * فانه لبث في
باريس مدة طويلة * وخوطره ببلاده ابدا مشغولة * فكان يلزمه الارق *
والهم والقلق * حتى مكنه اليوم الباري تعالى من تحسين تلك المحاضرة *
وامدادها بالمرافق الوافرة * فله الحمد على بلوغ اربه * وحصول مطلبه *
فان تبهية الامصار الاسلامية * اشهى الي والله من كل امنية * كيف لا وعن
المسلمين كان اخذ التمدن والفنون في العصر الغوابر * وكانوا قدوة في جميع
المناقب والمفاخر * والمحامد والمآثر * وهذا التفكير والسف * والتفكير المتسائف
كثيرا ما جلني على الاضراب عن التأليف * لعلمي ان كلامي فيه لا يكون إلا
دون التاريف والتعريف * وانى لمثلي ان يدرك جميع ما عند اولئك الناس
من الاختراع * والاحداث والابداع * إلا ان رغبتني في حث اخواني على
الاقتداء بتلك المفاخر * هي التي مهلت علي هذا الخطب واطالت بابي
القاصر * فامسكت القلم من بعد الغائمه مرارا * وتوكلت على الباري المعين
ان يكشف لذهني ما عنه توارى * ويدني الى فكري ما شط عنه مزارا *
وحررت هذه الرحلة وسميتها « كشف الغبا » عن فنون اوربا * وذلك لاني
لم اقتصر فيها على شرح ما عند الانكليز وحدهم من الفنون * بل استطردت
الى وصف غيرهم ايضا والحديث ذو شجون * وليكن معلوما عند القاري *
والسامع والداري * اني في كل ما وصفت به الانكليز والفرنسيين وغيرهم

من اهل اوربا * لم يمل بي هوى ولا غرض بغضا او حبا * اذ ليس لي حذل
مع احد منهم ولا ضاع * ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع * وانما رويت
عنهم ما رويت * وحكى ما حكى * بحسب ما ظهر لي انه الصواب *
فلا ينبغي ان يحمل قولى على ضغن او اغصاب * واعوذ بالله من ان ابخس
الناس اشياءهم * فاعتمد القول فيما شانهم وسأهم * إلا انه لا ينكر ان
لانسان محل النقص والمعيب * وانه قل من ينظر الى نفسه بغين المصيب *
وكذا كنت اقول للانكليز * فلم يكن احد منهم ينكر قولى او ينسبه الى التعجيز *
ثم اني بعد الفراغ من تحرير الرحلة المشار اليها عرضت عوارض كثيرة *
واحوال خطيرة * كحرب امريكا وبولاند مثلا * وكزيادة في عدد سكان
الممالك او في اعمالهم مما استعظمه الناس وصار لهم شغلا * من جملة ذلك
ما جرى في الممالك الاسلامية من التحسين والتنظيم * والترتيب والتعميم *
إلا اني رايت ايداعها في الرحلة نصبا مستانفا * وشغلا لا ينتهي ولا يستوفى *
فصرفت عنه صفحا * وصدفت كشحا * اذ حوادث الدهر * أكثر من ان
يجصرها ذكر * او يحيط بها ذبر * هذا ولما تم ما قصدته من الفوائد * التي
جعت منها في هذا المولى الصادر والوارد * والصادر والشارد * وبرزت فيه
ما عند القوم من المذاق والحمد * كما سبقت اليه الاشارة * وافضحت به
العبارة * هذان في الجمد الجديد * والطالع الرشيد * الى ان اخدم به حضرة
حاتم اوانه * واحنف زمانه * المتوشح بالفضل والفضائل * والمتوج بالحمد
فكل في مدحه وظله قائل * سيدي رفيع الذرى * رقيب العرا * امير الامراء
السيد خير الدين * ادام الله عليه العز والتمكين * فتقبله من حسن شيمه *
واستجاده بحلمه وكرمه * واجازني عليه جائزة سنية * لا توجد إلا في
التصور الملكية * وهي خاتم من الماس الفائق * يتالق تالق مناقبه في
المغارب والمشارق * فقلت فيه مترنما * وانشدت متنعما *

اذا كان خير الدين عني راضيا * فما ضائري ان اغضب الدهر والوسعا
هو البحر جودا والصبح صباحة * ونور الدجى نغما ولطف الصبا طبعنا
جلا فضله كشف الخبايا الورى * فلولا لم يبرز بحليته طبعنا

هو الاوحد الفرد الذي من نواله * يلاقى المرجى حين يقصده جميعا
 كريم لو ان الدهر ابصر جودة * لعاوده لاحسان واستهجن المنع
 همام متى يوعد يعف وان يعد * فغيث العطايا سابق برقه همعا
 اذا رمت سعدا فارغ مطلعهم وما * عليك اذا ما كنت للنجم لا ترى
 وقل للذي ينحو سوى باب فضله * لعمرك قد ضيعت في غيره المسعى
 تغربت بين العجم اطلب نده * فلم ار من ذا الضرب اصلا ولا فرعا
 فعدت الى رايتي القديم بانسه * علاكل سن فوق الشرى بالندى فرعا
 ومهما نجد في الارض مناي ومرتعا * فانا الى نادي نداه لنا الرجعى
 تقرر بمرآة العيون وتنجلي * كما ان راوي مدحه يطرب السعيا
 اذا حل في فيفاء ارض ركا به * فياطيب ما ماوى ويا خصب ما مرى
 نصبت لواء خافقا في مديحه * فسكن من روي واواني الرفعا
 اذا كنت لا ارجوه في معني رجا * فاني اذا لا اعرف الضر والنفع
 تعودت منه الفصل في كل حاله * فيما انا الا بابه قارع قرعا
 ولكنما جدواه تطوى سبابا * الي وابحارا فلا ابرح الربعا
 على انني منه لا قنع بالرضى * فكيف وعندي الماس يحكي اسمه لعا
 الا هكذا سن شاد مجدا موثلا * وسن صنع لاحسان او حسن الصنعا
 تنزه عن ذام سوى ان فرط ما * حبانى به اشقى حسودي ولا بدعا
 رايت جيع الناس تقصد بابه * بما طاب من اقوالها وله تسعى
 فالقيت دلوي مع دلائهم فلم * تكن نهزة حتى علي طفت ترمي
 وقلت لغيري من نضار ومن جنى * وفوز واقبال كما نلت شرعا
 كسانى فخرا ماسه وجوابه * وشهرة ذا التاليف لا يقبل الخلعا
 فحق علي اليوم واجب شكره * فشكر لا يادي واجب ابداء شرعا
 وهكذا برز الكتاب المذكور من زاوية الخمول * الى قنسة القبول * ونشر
 مطبوعا في مطبعة تونس لتعظيم فوائده * واطلاق عوائده * فالمرجو ممن
 تصفحه وتامله * وامعن النظر فيما اجمله وفصله * ان يغضي عما يراه فيه
 من الخلل * او ينسبه الى سقط الكلام والزلل * اذ قلما يخلو مولف من القصور

وان يكن من اهل الصروح والتصور * فكيف بمن يولف وافكاره من عدم
وجود المشكل مكدره * وخواطره من هموم الغربة متحيرة * وشؤونه
تتجاذبه يميناً وشمالاً * وحسراته على قصور همم اهل بلاده تسد
عليه للقول بجمالاً * وتعسر عليه في التأليف مقالاً *
جيرلولا ان الباري تعالى اراد بهذا التأليف نفع
اخواني * لما قدرت عليه بسعة امكاني
فجيب علي والحالة هذه ان احده عز
شانه على الختام * وان اعيد الشكر
والثناء على سيدي الامير المشار
اليه على نشر فوائده بين
الانام * مما سجع
حسام * ونجع
كلام *



كتبه العبد الفقير الى ربه الرزاق * احمد فارس الملقب بالشدياق
رئيس مصححي دار الطباعة السلطانية بالاستانة العلية
ومحرر الجواب
في اواخر شهر رجب الاصب

١٢٨٣
نته

الجزء الاول

* فصل في تخطيط مالطة معربا *

اعلم ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة و ٤٤ دقيقة من الطول وفي ٢٥ درجة و ٥٤ دقيقة من العرض اما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين الحقبة بافريقية بالنظر الى المكان وبعضهم الحقبة بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات اهل مالطة واحوالهم وديانتهم والمراد بذلك انها من اوربا فممن الحقها بافريقية بثلومي وممن الحقها باوربا بليوس وسترابوس ودليلهما على ذلك كونها على بعد ستين ميلا من راس باسرو و على مائتين من كلبسية او مينا اركولى والمحل الاول اقرب الى اوربا والثاني اقرب الى افريقية * قال فاما عرضها فاثنا عشر ميلا وطولها عشرون ودورتها ستون وقاعدتها لان هي المدينة المسماة فاليتة فاما في الاعصر السالفة فكانت نوتاييلي ويقال لها لان المدينة وموقعها في وسط الجزيرة في ارفع موضع منها وكان الجزيرة منقسمة بها الى شطرين احدهما يمتد جهة الشرق والاخر جهة الغرب والذي بنى فاليتة كان احد امرأه لافرنج وسماها باسمه وذلك سنة ١٥٦٦ وهي على رية بقرب البحر يقال لها شيراس * قلت زعم بعض المالطيين ان اصل هذه الكلمة شير الراس وبعضهم انها جبل راس وعندي انها شعب الراس قال في الصحاح شعب الراس شانه الذي يضم قبائله وهو كناية عن اصل الشيء وجمعه كما ان قبائل الراس مرجعها الى الشعب ويحتمل انها سميت بشيب الراس لان اهل مالطة اذ ذلك كانوا ينامون المسلمين الحرب والثار وكل فريق ملاق من فريقه هولا يشيب الراس * وذكر بوليت المؤلف الفرنساوي ان قاعدة هذه الجزيرة سميت باسم الامير لافاليت رئيس طريقتهم الفرسان ولد في سنة ١٤٩٤ ومات في سنة ١٥٦٨ وكان شهيرا بالبأس والاقدام واول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرتها المسلمين بها برج ستالموث قوى عليهم واخرجهم منها * قال المؤلف ثم خلفه باولو دل مونتي فاتم بناءها في الثامن عشر من ايار وذلك في سنة ١٥٨١ وقبل بنائها كان مقام الولا المتتبعين الى طريقتهم مار يوجنا في بوملة والبريد

بشرقي فاليتة ويقال للثانية فيتوريزا اي المنصورة لحرب انتصر فيها اهل
مالطة على المسلمين وذلك في سنة ١٥٥٦ . قال وفي ضواحي هذه المدينة
قرية اسمها القلوريانته وهي امر جمع قرى الجزيرة وجمعتها اربع وعشرون
قرية وهي جديرة بان تسمى اصناما لكثرة سكانها وحسن بنائها وكنائسها .
وعدد اهل الجزيرة كلهم نحو مائة وعشرين الف نفس . ولفاليتة مرسيان
احدهما كبير يعد من اعظم المراسي وذلك لسعة عدة بوارج مع الامن
ولكونه في وسط بحر الروم فمن ثم كانت الجزيرة بهذا الاعتبار اعظم محل
للتجارة على ان تلك الخزائن العديدة والشئون الرحبة البنيّة عند هذا
لمرسى تغري الظامن والقيم يتعاطى التجارة فيها والثاني صغير وهو مرسى
المراكب التي ترد من البلاد المشوبة بلوباء ويقال له مرسا موشيطو محرفة عن
مرسى الشط) اما هواء الجزيرة فالغالب عليه الاعتدال غير ان ارضها صخرة
لا تصلح من اصلها للحرث ومع ذلك فان السبلّة الواحدة تخرج في
تربتها التي ليست بالطيبة ولا الرديئة ست عشرة سبلّة او عشرين وفي
عام الحصب ثمانين وثلاثين وفي الجيدة احدى وعشرين واخص اصناف
غلالها التي يتجر بها القطن وقد يبعث منه الى جهات مختلفة في اوربا مقدار
جزيل الا ان بخص ثمنه رغب لاهلين عنه الى غير فصاروا يصرفون همهم
في تربية التوت فان فيه نفعا كبيرا وقد علم بالتجربة انه يتحصل منه
حرير اعلى من حرير ايطالية - قلت وقد علم بالتجربة ايضا ان دود
القر لا يعيش في هذه الجزيرة والمولف انما كتب هذا عند الشروع في
تربية التوت . اه . قال وفي هذه الجزيرة تسمى الاشجار المثمرة لاصناف
الفاكهة الطيبة كالرمان والتفاح والعناب والاجاص واعطيتها الاترج . فاما
عدد لاهلين لان بالنظر الى صغر الجزيرة فانه عظيم جدا ولم يعهد من
قبل قط انها كانت تحوي هذا المقدار وانما يعلم انها كانت مأهولة باسرها
الا ان بعض جهات منها خلت عن السكان كما يستدل على ذلك من
الافار الباقية وما وصل اليها من اسماء بعض قرى لا وجود لها وسبب ذلك
فيما قيل ان الماطليين حين كانوا تحت ولاية الارجونييين وجدوا انفسهم

عرضة لغزو المسلمين المتتابع والمجروح لصوم افريقية فجعلوا مقرهم شرقي المدينة صيانة لعرضهم ومالهم واخلو الجهة الغربية * وذكر بعض الجغرافيين ان مالطة كانت تسمى في القديم هيسيرية وقال بعض انه لم يوجد في بلاد اوربا جزيرة عرفت بهذا الاسم وانما هو اسم مدينة قديمة في صقلية ثم عرفت اخيرا باسم كامرينة ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سموها اوجاجية وسماها اليونانيون ماليتة واشتهر ذلك في سنة ٨٢٢ قبل الميلاد وسماها المسلمون مالطة ومعنى ميليتة او ميليتة في لغة اليونان النحل وزعم قوم انها سميت باسم ميليتة ابنة دوريس على جهة التعظيم وهو مشتق من ميلت في السريانية وهو اسم اله ويعرف في غيرها بجونوا ولا يبعد ان يكون ذلك ايضا في اللغة الفينيقية قال وروي بعض المؤرخين ان بناء مدينة نوتاييلي كان بعد الطوفان بنحو الف واربعمائة سنة واعظم ما فيه عمرة من مبانيها قبل تاريخ المصاري هياكل جونوا وبروسربين وهركوليس وابولون . فموقع الاول هو بين فيتوريوزة وستانجلو ويحكي ان ملك نوميديا الذي كان داهم غزو مالطة كان قد اخذ منه قطعة بديعة من العاج واحداها الى استاذة ففرح بها اولا غاية الفرح ولكن لما علم انها اخذت من الهيكل ردها الى الملك والشمس منه ان يعيدها في محلها . وموقع هيكل ابروسربين في قلعة تسمى مطرفة وقد وجد فيه آثار . وموقع هيكل هركوليس في جهة الجزيرة الجنوبية بالقرب من مرسى سيروكو (اي مرسى الشرق) وهو من بناء الفينيقيين وقد وجد فيه آثار كثيرة . وموقع هيكل ابولو عند نوتاييلي وهو من بناء لاغريقيين وكان ذا رونق عظيم ويقال ان جلته ما انفق في بنائه بلغ سبعمائة وتسعين سستوسيا (١) وقد علم ذلك من وجود صنم نصبه له مجلس عام ووجد ايضا آثار جام في محل اسمه قرطين * ومن ذكر حكومة مالطة من الشعراء الاقدمين اوميروس واوفيدوس ويفهم من كلام الاول ان القبيلة التي يقال لها الفياكنس هم اول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوي قوة وبأس ثم خلفهم الفينيقيون وهم من جهات صور وصيدا وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد وكانوا اهل سعي وكسب وتجارة

فلبثوا فيها نحو اربع مائة وخمسين سنة حتى تغلب عليهم الاغريقسون ثم
سلموا للقرطاجيين وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ثم جاء من بعدهم
الرومانيون في سنة ٢٨٤ من التاريخ المذكور فاقروا فيها احكامهم وسنتهم
واعظم ما حدث في دولة الرومانيين مما لا ينبغي ان يهمل ذكره قدم
مار بولس وانكسار السفينة به وبمن كان معه وذلك سنة ٥٨ في عهد
القيصر طيباريوس في موضع يقال له لان خليج مار بولس ومنذ ذلك
الوقت نصر اهل الجزيرة ثم بعد انقراض دولة الرومانيين منها استولت
عليها قبيلة الفندلس ثم القوات ثم تغلب على هولاء البليساويون وطردوهم
منها والحققوا بحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فاخذوا
في هضم الرعية فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين قلت ذكر في كتاب
الجمع والبيان في اخبار القيروان ان مالطة فتح في ايام ابي الفرائيق
محمد بن احمد ابن محمد بن لاغلب توفي سنة احدى وستين ومائتين
وانما لقب بالفرائيق لانه كان مشغولاً بالصيد روي انه بنى قصراً على
السهلين لصيد الفرائيق انفق فيه ثلثين الف دينار ففُتِحَ بهذه الكنية
وكان في غاية الجود إلا انه غلب عليه اللهو والطرب والاكل والشرب ولم
يزل مقيماً على لذاته طول عمره * انتهى فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف
وسلموا الجزيرة للمسلمين * قال ثم قام الامير روجر النورماني بعدها بمائتي
سنة واسترد الجزيرة والحققها بصقلية بقيت كذلك نحو سبعين سنة ولما
تزوج القيصر هنري السادس سلطان جرمانية وليه عهد صقلية دخلت
مالطة في حكمه وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة
وفي اثنتي عشرة ملكاً ولى اخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معاً وبعد
سنتين تغلب عليه الامير بطرس لارايجوني ثم آل امرها الى الملك
كارليس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام مار يوحنا برصى لاهلين
واتفلق دول اوربا وكان قد جرى هذا النظام عندهم اولاً ثم لما نبغ نابوليون
واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على ان يرخص للاهليين في التصرف
بحقوقهم إلا ان الفرنسية لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة

وانتهكوا حرمة الكنائس فتعرب عليهم المالطيون تحزباً لم يخل عن سفك دم كثير منهم وعن تلف اموالهم الى ان اتت الانكليز فسلموها لهم وكان ذلك في سنة ١٨٠٠ * قلت لما دخلها نابوليون وجد فيها الف ومائتي مدفع ومائتي الب رطل من البارود واربعين الف بندقية وعدة بوارج و ٤٥٠٠ اسير من المسلمين فاطلقهم وذلك في سنة ١٧٩٨ * قال فاما اخذ المسلمين لها فانه كان من باب المصادقة اولى منه من المغالبة وعاملوا الالهيين اولاً بالرفق والمياسرة ووقروا سنتهم واحكامهم وامتزجوا بهم للغاية حتى كان الجيلين واحد كما يتبين ذلك من بقاء لغتهم فيهم * قال اما لغة مالطة فذهب بعضهم الى انها عربية فاسدة وذهب آخرون الى انها فينيقية لان اليونانيين بعد ان فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمينين محافظين على لغتهم وما برحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وانها لم تتغير في مدة القرطاجنيين لان لغة هؤلاء ايضاً كانت فينيقية ومع ان داب الرومانيين كان حل الناس على التخلي باخلاقهم والسلوك بسنتهم اينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم والدليل على ذلك ان الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس (٢) سموا المالطيين بربرا ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية قال ثم بقيت في دولة المسلمين ايضاً ولم تتغير وانما دخل فيها بعض الفاظ اجنبية ويوجد كونها فينيقية مشابهة بعض الفاظ منها للغتنا نحو بنير وصيد فانهما في الفينيقية بروصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد في كلتا اللغتين والحاصل ان ماخذ اللغة المالطية من الفينيقية ارجح من ان يكون من العربية وان كانت قريبة من هذا ايضا * قلت دليله هذا هو هسي من بيت العنكبوت فان البير والصيد يطلق بهما في لغتهم كما في لغتنا سواء ما عدا موافقة ما في تعريف الافعال والاسماء وفي الضمائر وغير ذلك من اساليب الكلام كما سيأتي بيان ذلك . ومن الغريب ان المؤلف لا يعرف الفينيقية ولا العربية ولا المالطية وان كانت لغته يتعرض للحكم والاستدلال فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله وكيف يقول اولاً ان لغة

المسلمين بقيت في اهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريتين ثم يقول لان انها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها وانما جله على هذا بغضته وبغضته اهل بلاده للعرب وتبرئة انفسهم انهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين اذ كان هؤلاء كما ذكر ارباب جد وتجارة والعرب عد اهل مالطة كناية عن الهمج وذلك لجهلهم التواريخ ولا نهم لا يرون لان الا صعايك المغاربية والظاهر ان المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من اهل العلم والتهنن كالذين كانوا في صقلية وغيرها فاني لم اجد فيما قرأت قط من كتب الادب والتواريخ قال المالطي والسيوطي رحمه الله لم يفادري في كتاب الانساب الذي سماه لب الباب احدا من اهل العلم الا وذكره ما خلا المنسوب الى مالطة * قال اما جزيرة غودش وتسمى بالافرنجية كوتزو فزعم بعض ان هذه اللفظة يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كانها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر ميلا في عرض ستة واهلها نحو خمسة عشر الفا وجملة قراها ست ومدینتها تسمى الربط (كانه محرف عن الربض) وفيها اثار قلعة قديمة ويقول الجزيرة وفاكمتها طيبة جدا وكذا عساها حتى ان الاقدمين كانوا يفضلونه على سهل جبل جبلا ويرد منها الى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهة والبقل والسمك وحكومتها ملحقة بمالطة وكذا كانت في الزمن القديم وزعم بعض ان مالطة وغودش وكمرنة كانت في لاصل جزيرة واحدة وحدث لها من الزلازل ما فرقها *

(انتهى النقول من كتاب مختصر الفه مكلف في تاريخ مالطة) *
واقول قد رايت جزيرة غودش غير مرة اما اسمها فاطنه محرفا عن لفظته الهودج سماها به المسلمون لشدة شبهها به كما سماوا الجزيرتين الاخرين كونة ولفلة لصغرهما الا ان اهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق به اهل مالطة ولا اعلم في لغتهم كلمة غيرها قلبت فيها الهاء غينا فاما قلب الجيم شيئا فكثيرا اما ارضها فاحسن من ارض مالطة ولا سيما كون حقولها مكشوفة للنظر كحقول فرنسا وانكثرة لا كحقول اهل مالطة كما ياتي وهي ازكى ثمرات ونباتات واهلها اخلص طوية وفيها الخبير والبغال ضليعة

لكنها غير فارغة وربما بيع الحمار منها بأربعين ليرة أما شجرها فإن التفاح لا يكاد يكون اكبر من العليق في الشام وشجر التين منبسط على الأرض وليس فيها من شجر الجوز سوى شجرة واحدة وفيها أيضا نخلة لكنها لا تثمر وأساء عراها وموضعها كلها عربية محصنة وما استحكني من خرق أهلها أنهم يدرسون القمح على البهائم من دون نورج وذلك بأن يربطوا مثلاً كل زوج منها في قرن ويمشوها على السنابل فيشور هذا ناحية وذلك أخرى وكذا هي في مالطة ومن غرابة أرض غودش أن جميع محالها مزروعة بحروثة إلا ما قابل مالطة فكانه من قبيل مراعاة النظر إما كموتة فليس فيها سوى بيت واحد وكنيسته وأرضها قليلة المجدوى *

* فصل في هواء مالطة ومنازلها وغير ذلك *

إنما قدمت هذا الفصل من كلامي لاهيته فإن العافية خير ما ملك للإنسان وإن أرضاً لتاكل من نازلها لجديرة بأن لا يؤكل منها فأقول قد تقدم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة وبقية لأن الكلام على هوائها من حيث هو هو فإن الهواء لا يعرف غالباً من مجرد نسبة الموقع أما اشتقاق اسمها إن كان عربياً فمن ملط ومعظمه يدل على التجرد والخلو والتجريد والاختلاء فتكون قد سميت بذلك لخلوها عن الغياض والجبال والأنهار وغيرها وفي القاموس ومالطة كصاحبة (أي بلد) وكان عليه أن يذكر خصوص كونها جزيرة فانه كثيراً ما يتعقب الصحاح بمثل ذلك فاما قوله أولاً ملط شعرة حلقه ثم قوله بعد فاصل والاملط سن لا شعرة على جسد وقوله في أول المادة الملط الخبيث لا يرفع له شيء إلا سرقه ثم قوله عند الآخر واملطه اختلسه فمن اختلاط الترتيب في التركيب ومن ذكر مالطة أيضاً المطران جرمانوس فرحات في كتابه المسمى باب الأعراب عن لغة الأعراب قال ومالطة جزيرة عاصية متقاصية قرب صقلية سكانها لصوص البحر قلت لعل تأليقه هذا الكتاب كان قبل سفره إلى رومية وإلا لما قال متقاصية أو انه جاء بها للجانسة أما قوله سكانها لصوص البحر فينبئ بها كان لأهلها حيث من الشهرة الذميمة عند أهل المشرق وكان هذه الصفة كانت غالبية عليهم حتى

انسته ان يقول لغتهم العربية ودينهم النصرانية فاما الصحاح فذكر ملطية في بلاد ارمنية والان تعد من البلاد التركية * اما هواء ملطية فلا يحمل من الـف البرور الواسعة لانه كثير القلب فيختلف في الليل والنهار عدة مرار فقد يكون في الصباح صحو فلا تشعر إلا والغيم قد طبق اعنان السماء فيكفهر الجو ويهيج البحر وتثور الزواجع وتزهر الرياح فتقرص لها الابواب بل قد يكون في النهار برد وفي الليل حر هذا في الشتاء فاما في الصيف فلا ترى في الجو لطخة سحاب ولا غادية اصلا وفصل الشتاء يستدئ فيها من شهر تشرين الاول وينتهي الى ايار والباقي صيف شديد وان وقع في خلال ذلك يوم معتدل فتاتي فيه نفحة من الريح باردة واخرى حارة او تكون العور وهي من الرياح ما فاجاك ببرد وانت في حر او عكسه وفي الجملة فانها جديرة بان تسمى سحرن الرياح فهي لا تخلو منها باردة كانت او حارة واكثر رياحها في الصيف السافيا تأتي بغبار وتراب وديس تطيرة على وجوه الناس وتدخله في الديار من خصاص الزجاج * ومن الغريب ان الريح الشرقية التي تكون في الشتاء زمهيرا تصير في الصيف سموما فتتشقق بها اخشاب المنازل وهي مصبوغة وتصرصر بها روافد السقوف ويحف بها الزجاج ويتصلب فيكسر بادنى مس ويترمد بها الجلد والورق بل يتاثر بها الحديد والنحاس والعظم ونحوه وينتن شمع الشمع فتكون الشمعة في البيت كالجيفة وقد تبلغ درجات الحرفها فرق المائة (٣) فيقتضي الومدح باللباس الخفيف من الكتان والنوم من دون غطاء واكثر اهل ملطية ينامون ليلا على السطوح لكون ديارهم غير مسنمة بخلاف ديار فرنسا وانكثرة واذا مشى الانسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه ثم لا يلبث ان تلغمه لفحة من الريح فينبغي ان يكون احذر من غراب هذا ولما كانت ارض الجزيرة خالية عن الاجم والغياض والجبال والانهار اذ هي عبارة عن صحن في وسط البحر فمضى اصابتها الشمس مسحتها على السواء فلا ملط فيها من شيء وربما زاد حرها ايضا بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية ومع قربها من ايطالية فليس في

ديارها رخام كديار تونس وليس في شيء منها مياه جارية كديار الشام *
ومن جملة الاسباب التي تجعل شتاءا عارما مكروها كون بنائها من حجر
رطب لو جعل في مقداة بضع سنين لاكلها وحين يستخرج اولاً من مقطعه
يكون اخضر مائيا ولا يبيض إلا اذا نصب للذواء والشمس سنين ومن
خواصه انه قابل للقتل فلماذا ترى منه في الديار والكائنات صرحت
شقي وقد يبعث منه على سبيل التجارة الى جميع البلاد وكثيرا ما تتوازي
الشمس في هذا الفصل فلا تطل فيه ولا من شبك فاين هذا من شتاء
مصر حين يترحب بالشمس طالعة وتشتيع غاربة وفي الصيف يطفونيلها
فيرطب الارض ويتنظم به شمل الاحباب وعقود المسرات * واذا اتفق في
مالطة يوم صحوي الشتاء رايت الناس جميعا يعددون بحاسنه ويصنونه
ويلهون عن سوء ايامهم الاخرجين اذ الرياح تأخذ بناصية السافر والمياه
تهطل من انف كل سحاب والزكام ملازم للانوف والسعال قابض على
الحلقوم واشد ما يسوء منها استمرار الرياح اباما متواليه من دون مطر فانه قد
ياتي عابها من السنين ما لا يغزر فيه المطر والرياح مع ذلك لا تهدأ اصلا
وقد احتاجوا في بعض السنين الى الغيث غاية الاحتياج حتى فرض عليهم
استقهم دعاء للاستمطار في الكنائس مع الصيام والريح مع ذلك تزيد عسفا
فقلت *

ولما لم يطق كانون قطرا * تولى وهو يحق بالرياح
فيا قوم اغسلوا بالدمع فيه * وجوهكم وصوموا عن سفاح
وفي الجملة فان صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان بهجمان بغتة فآخر
ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف فليست كمصر والشام فان الانسان
فيهما يتعود على تخالف الفصول شيئا فشيئا وليس من علامات الربيع شيء
بمالطة سوى تكاثر البراغيث فهي آفة من الافات ولا من علامات
الخريف سوى تنثر اوراق الشجر المعدودات ومع ذلك فان كثيرا من
الانكليز ياتون اليها ليقضوا فيها الشتاء اما في المطر فيها في الصيف فسيبه
قلة الشجر والغياض فان السحب اذا مزت فوقها لم تجد ما تجذب منه

رطوبة ولعل الادوية والعقاقير التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية ويزول ما بها من الخاصة فان الشبغ والسوق والخمر اذا بقيت فيها زمانا يزول طيبها راسا لان مبلط الديار وحيطانها يسقونها من حجر ندى كما مر فاذا وضعت مثلا مالحا في خزنة لا يلبث ان يندى كأنه خلط بالماء وكذلك تعفن الما = ولات والمشروبات اذا وضعت في مخدع من خشب مصبوغ فان الندارة تسري الى الصبغ ولذلك كان البديل وهو داء ا. مفصل شاعرا في مالطة وقل من يسلم منه وقد اصبحت به اول سنة فكنت اقوم في الصباح موجع الاعضاء لا انشط الى شيء وما زال ذلك يتزايد بي حتى لزمتم الفراش فلما عادني الطيب وراى مبلط المنزل اخبرني بالسبب فعظم علي ذلك ثم لما سمعت بان اكثر الناس مميون به هان علي ما لاقيت وتاسيت بهم ودراء هذا الداء الاقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها وقد كان يعلو كتيبي من اثر الندارة عطن يلتصق به بعض الررق ببعض ومن جعل مرقا قرب حائط فلا يامن غائلة صداع او وجع اسنان ومن يكن ذا علة في صدره فاعظم خطر عليه التعرض للري بعد ان يكون في محل دفي مع ان الغالب على اهل مالطة الشدة والقوة انهم ولدوا على هك الحال فلا تؤثر فيهم ردة المكان ولا الزمان ومما توصي به الاطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلابل صيفا وشتاء اما في الشتاء فللدوى واما في الصيف فلتشيف العرق ومنعها صرر الرياح النافذة في المسام حتى انهم يخشون من الرياح على الحيوانات فانهم اذا اوقفوا الحصان في سيرة اداروا وجهه الى غير جهة الرياح وقس على ذلك * اما ارض مالطة فانها مالطة صخرة جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات ودائرها كد صخر لا ينبت فيه شيء الا انه لشدة اجتهاد اهلها وفرط كدحهم ينبت فيها اكثر اصناف البقول والفاكهة لكن غلتها لا تكفيهم اكثر من اربعة اشهر والباقي يجلب اليهم من بلادهم فيجلبون القمح والقطن من مصر ومن بلاد الترك والروم ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية والبقرة والضان والزيت من فريقية وهم جرا وزعم بعض ان ترابها مجلوب في الاصل من صقلية وترى

شجر والخروب والصبار التي لا تتوقف على كثير من الشرى اعز من شجر
 المجوز في الشام اما شجر الخروب فيكون لاصقا بالارض كأنها هوارز او مكينة
 واما الصبار فتراه محوطا بالجدران العالية كأنها هو حديقة وينوطون بكل
 منها ورقة من الثوم منعنا لاصابة العين مع انها مما تنبوعه العين واذا
 سألت احدهم عن قلة الغياض عندهم قال نحن معاشر الافرنج لا نصرف
 هنا إلا إلى زرع الارض فما اقل ظلمهم واكثر ظلمهم * واذا صحبت إلى
 الخلاء وجدت بين كل حقلين جدارا عاليا لهجز روية ما دونه فاين هذا
 من سهول فرنسا واتكثرة البادية للعين على نصرتها وربعا وعلى كشرة
 ما فيها من اكاديس الغلال والعشب من دون ناطور يحفظها او حائط
 يسترها * ويوجد في مالطة اكثر اصناف الاشجار المثمرة والبقول المأكولة
 وفاكهتهم طيبة في الجملة إلا الليبون الحلو وقصب السكر والخيار فاما الصبا
 فاكثرة نوى وكذا الرمان واكثر الفاكهة يباع فجاء قفلا يدعونها تنضج
 خوفا من اللصوص ان تسرقها وجميع اصنافها ارضص منها ببصر والتين على
 اصناف متنوعة والعنب لا يدوم اكثر من ثلاثة اشهر اما الاترنج فانه
 يدوم نحو سبعة اشهر ويرسل منه إلى بلاد الانكليز وغيرها كالطرفة فاما
 مما ياتيها من الثمر من صقلية فانما هو سداد من عوز وعندهم من الفاكهة
 اصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولى وهو حب اجر صغير
 بقدر ثمر العليق حامض يصلحه السكر و آخر يقال له نصلي وهو شبيه
 بالشمش او بعين البقر ونواه كبير وآخر اسمه زربي (٢١) وهو اشبه بالزعور
 شديد الفجوة يجعلونه اعداكا كعذاق التمر فينضج منه كل يوم حبات
 ويدوم العذق بجملة اشهر ولا يعرفون حفظ الفاكهة إلى اوان الشتاء كما
 يفعل في بلاد الافرنج فان العنب والتفاح في فرنسا وانكثرة لا ينقطعان
 اصلا اما بقولهم غير طيبة وذلك لكثرة مايتها فاذا رايتها في السوق سركت
 نصارتها ولكن متى طبخت جاءت مسيخة حتى ان البصل والفجل وما
 اشبههما مما طبعه الحرافة لا طعم له عندهم لا بل اذا جلبت من بلاد
 اخرى يتغير طعمها وكذا الكرنب والباذنجان ونحوه ولا يكاد يبدو نوع منها

إلا وبغاط وبحبو ومن الغريب ان نباتها مع كونه بهذه الصفة فوسلها في غاية الجودة وما لا يوجد عندهم من الخضرة الكوسى والنبأ والملوخية ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن وانما يجلبونه نفاية هذا الحيان من طرابلس العرب واهل مالطة جميعا يتقززون منه ويطبخون ادامهم بشحم الخنزير * اما ماؤها فانه ماء المطر مخزون في الابار غير سئع فما شربه ذوتعب او ظما الا واصابه سعال وكثيرا ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم فشتان بينه وبين ماء النيل الذي يطيب شربه على التعب والظما ولا يزيد الشارب الا صحة ونماء جسم فلا ينبغي لاحد ان يشرب من ماء مالطة الا ترشقا ونقل عن ارسطران الماء الراكد الذي لا تنقع عليه الشمس لا يكون الا ثقيل وتولد فيه مادة طينية * اما حداثتها فشهرها حديقة صانت انطونيومقر الحاكم في الصيف وهي التي نزل بها الامير بشرشهاب باهله اخلاها له الحاكم اجلالا لشانه وهي نصيرة حسنة الوضع الا انها في منخفض من الارض ولس فيها مقاعد او مواضع لياكل فيها المتفرج او يشرب وليس الماطيين عادة ان ياخذوا الى مثل هذه المنزهات طعاما لا في الاعياد ولا في غيرها اتباعا لعادة الانكليز اذ لا يمكن لهم الجلوس الا على كرسي فغاية حظهم من ذلك انها هو المشي او ان يضع احدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان الخلاء او ان يمشي وحك وهو يصفر ويمكو وعلى تقدير وجود رصف عندهم او روضة فلا يعرفون كيف ينسبون عندهما سوى بالمشي واعرف رصفا يسمى البيانا انيقا جدا ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا مثلج ولا مطعم ولا آلة طرب ولا كرسي يجلس عليه ولو كان مثله في باريس او في مصر او الشام لرأيتهم من اوله الى اخره مرصوفا بالكراسي والبتكات ومشتتلا على كل ما تطيب به النفس وفي الجملة فان الانكليز والمالطية جميعا لا ذوق لهم في مثل هذه الامور * ثم البوسكيت ومعناه الغضة وهو على بعد ثلث ساعات من فاليتة وهو سيئ المخدر قليل الجدوى فانه عبارة عن شجرات معدودات وزهرات شعث لا صنعت في تنبيتها الا ان فيه قوة فيها عين نضاجة وحولها مائدة ومقاعد من حجر يقعد عليها لاء كلون *

فهذا الموضع اثره موضع في الجزيرة وذلك الماء اعذب ماء بها . وبقره برج
كان في القديم سجن يعذب فيه سن يخالف الكنيسة كما كانت العادة
ايضا في اسبانية وغيرها * ثم المطحلب وهو انصر من البوسكيت وابتعد لكونه
عند اقصى ماطة طولاً . وفيه بركة يغلو ماء ما طحلب وكان الموضع سمي به .
ونواعيرهم نحو نواعير الشام ومصر . واول تونس وطرابلس يستعملون السانبة
وهي في اللغة النافقة يستعملونها على البستان * والحاصل ان
جيرة ماطة لا تعجب من الافرنج الا القليل وذلك لانهم اذا جاورها لم
يجدوا فيها شيئا غريبا لا يوجد في بلادهم فان كل ما فيها ان هو الا نفاية
ما عندهم . هذا وليس منهم من يرغب في علم اللغة المايطية اذ كانوا يفعلون
انها عربية فاسدة وليس فيها من الصنائع والفنون ما يجعله اهل الرستاق
منهم فضلا عن المتمدنين وانما هي مجاز يجوزون منها الى الشرق . نعم ان
بعض من المظلومين في ايطاليا وخصوصا صقلية ياتون اليها للاستئمان وانها
لما كان موقعها بين عدة برور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة ولا
سيما الآن فانه قد يتعذر السفر الى بعض جهات الشرق من دون المرور
بها . فاما العرب فربما لا تعجب منهم احدا وذلك لان اهل ماطة جميعا
يكرهون جنس العرب والمسلمين على الاطلاق ومنتهى الذم عندهم ان يقولوا
عربي بسكون الراء على انها في جميع لغات الافرنج بالفتح . ولا يمكن ان
يخطر ببالهم ان من العرب من هو ذواب وكياسة بل لا يكادون يظنون
ان اللغة العربية يتكلم بها غير المسلمين . وحيث كانوا يعلمون ان الافرنج
ينسبونهم الى العرب زادت بغضتهم له . فما احد ممن التى الحظ في الحمام
والبساتين والغياض والمواسم والتائق في المطاعم يترك بلاده ويأتي الى هذه
الصخرة الصماء . هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق ان
يسمع الكلام المايطي على فسادة ومع كون هذه الجزيرة قريبة جدا من تونس
وطرابلس فما بها احد منهما سوى عابر طريق * قال الشاعر :

* واصعب ما يلقي الفتى في زمانه * اذا حل نجم السعد في برج نحسه *

* افاسته في ارض سن لا يسوده * وصحبته مع غير اباء جنسه *

فصل

في فالية قاعدة جزيرة مالطة

هذه المدينة هي مقر الحاكم الانكليزي واعجب ما فيها حصانة اسوارها وحسن مرسيتها . اما الاسوار فربما كان نصف احدها من صخر وتمامه مبني بناءً . واما المرسى فقد مر ذكره . والغالب عليها الرونق والبهجة حيث كان بناءها من الحجر كما مر وطبقانها مزججة ولاسيما اذا عرضتها من بعد . غير انها خالية من المناير ونحوها فهي بدونها كالهامة القرعاء . واحسن ما يستحب من ديارها كونها مبنية من الحجر على صف مستو فلا ترى فيها دارا خارجة من الخط اصلا غير انها متفاوتة الارتفاع وليست مرتبة في وضع الغرف والمساكن . فان الدار الكبيرة تكون عبارة عن عليّة واسعة طويلة ثم صف حجرات متنافذة المدخل فلا يمكن للانسان ان ينفرد بواحدة منها دون اخرى . فاما الديار الصغيرة ولاسيما القديمة فهي خالية عن الترتيب اصلا ومنجورها يصنع غالبا في كل سنة . وحيطانها ملبسة بالورق المنقوش كما في بلاد اوروبا . إلا ان طاقاتها لا تنفي بالمراد فان بين الاهلين حقوقا في المطال فلا يمكن فتح الطيقان في جميع الحيطان . وما عدا ذلك فان لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمنع النور والهواء وهي عالية لا يمكن لمن يكون في الحجرة ان يرى منها شيئا إلا اذا كان واقفا فيها او جالسا على كرسي وهي اشبه بما يسميه اهل الشام كشكا . ويقال ان وجود هذه الرواشن بمالطة هو احد الدلائل على كونهم عربا اذ هي لا توجد في بلاد لا فرنج إلا في ما فتحته العرب منها . وربما كان في الدار الواحدة ثلثة درواشن . وقد ان تجد دارا ذات ثلث طبقات صالحة للسكنى والاغلب اثنتان وان وجد فالثالثة انما تكون للوازم الدار وقد ان ترى فيها دارا مبلطة بالرخام حتى ان قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه وانما يستعمل في ديار كبارهم البلاط المعروف ولكن يدهنونه بالزيت مرارا بعد ان يكشط وجهه فيصير له لون كالكهرباء وكذلك قل ان ترى في الديار التي تكثر خزائن او مخادع او رفوف وانما يلزم شراء ذلك على حدته وليس فيها ولا

في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق ولا اسطبلات ومن كان
عنه فرس اربطه في الخارج واقل من ذلك الممارات فانهم يشترون منهم
يوما فيوما بل ربما اذا ادخروها فسدت كما تقدم ويرون ذلك تخفيفا
للكلفة فان صاحب العيلة اذا ربي في منزله الحيوان وخزن المونة واتخذ
الحبز كان له ولاهله شغل شاغل واعل سبب ذلك في الاصل عدم انتقال
الاسعار . وما يقيم ذكره هنا ان اكثر البيوت الصغيرة ليس فيها مراحيض
فيرفع اهلها اقدارهم في وعاء ويقذفون بها في الطرق ليلا فياتي الكناسون
للطرق صباحا ويزيلونها . وقد كانت العادة من قبل ان العبوسين لجرارهم
هم الذين ينظفون الطرق بان يخرج بهم شرطي وهم مقيدون والطاهر ان
المالطيين قبل مجي الانكليز الى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيض وانما كانوا
يستغنون عنها بثقوب يتقونها في اسفل الدار وكانوا غير محتاجين اليها اصلا
كما قال الشاعر :

* من يكن عيشه كعيشك هذا * فلتكن دارة بغير كيف * (٥)
وقل ان توجد دار باثاثها وفرشها كما في مدن الافرنج ومن شروط الايجار
ان يستاجر الانسان الدار على ثلاثة اشهر فما فوق ذلك ويعطى الاجرة
سلفا وقبل انقضاء المدة بايام يوزن المستاجر ربحا بانه يريد ان ينتقل
منها او يحدد استجارها فاذا انقضت المدة ولم ينتقل لزمه اعطاء الاجرة
غير انه لا يسوغ للمالك ان يرمي بامتعة المستاجر او يخرجها كرها وانما
عليه ان يضرب له اجلا او شهرا واذا عرضت دار للكرأ كتب صاحبها ووقه
توزن بذلك والصقها ببابها اذ ليس عندهم شيء حارة تتجمع عنده المفاتيح
كما في مصر . ومن استاجر دارا فلا بد وان يدخلها مبيضة مصبوغة المنجور
وصنع الخشب عادة جيدة فانه ابهى للظر وأبقى للخشب وقد تظهر به
الدار ببيتة في الخارج وربما كان داخلها بخلاف ذلك وهي عكس العادة
عندنا فان خارج ديار مصر والشام مظنة للهجة مع ان داخلها منقوش مزخرف
وسبب ذلك ان الحكام في السابق كانت ايديهم ممتدة لاخذ اموال الناس
فلم يكن احد من الرعية يتظاهر بالفنى لا في بناء ولا في لباس . اما صنع

الزجاج في مالطة غير مستعمل . ثم ليس على عزب اراد ان يسكن بين
 المتزوجين من حرج ولا حرج عليه ايضا في الصعود الى سطحه ولا يطلب
 منه ضمان من حيث ادبه وحسن تصرفه ولكن من حيث كونه قادرا على
 الاداء . وللديار آبار يجتمع فيها الماء من المطر فاذا نفذ الشمس صاحب
 الدار من ناظره الاقنية فامك بماء من عين جارية وسواء في ذلك القريب
 والغريب . ومن لا يثر له استسقى من العين المشاعة . وكثيرا ما تجعل
 لطاينهم تحت الارض ولها خروق في سطح الطريق ليدخل منها الضوء
 فتكون شتوفها مساوية لسطح الطريق وكذا هي مطاين لندرة غالها . ولا
 تخلو كل دار عن فسحة صغيرة لقوارير الزهور ومن ملك الزور ما لا رائحة
 له ولا وجود له في بلادنا . وفي الديار الكبيرة بلا سيما التي يتوأمها الانكليز
 اجراس صغيرة مدلاة بأسلاك حديد نافذة في الغرف ويتصل بها شرائط من
 حرير فاذا اراد الخدم احضار الخادم جبد الشريطة فسمع الخادم صوت
 الجرس من كل جهات الدار وهذا اوفى من التصفيق باليدين وربما كتبوا
 على صفحة الباب اقرع الباب او اطن الجرس وكذا العادة في بلاد الانكليز
 ولكن ليس في الابواب هنا خروق لوضع المكاتب كما في ديار لندرة . اما
 طريق المدينة فان الماشي فيها ابدا يصعد ويهبط كحيزوم السفينة في الامواج
 غير ان لها درجا يهون من صعبها ويمكن المشي على حافاتها تحت المطر
 ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لممر الناس ومرور الخيل والعجلات
 في الوسط . وقد كانت جميعها سابقا مبلطة فكانت قرعة العجلات عليها لا
 تظاق فاقتلعت الانكليز بلاطها من الوسط وجعلوا بدله ترابا وحصى فقال
 اهل مالطة ان الانكليز دابهم ان يحربوا بلادهم كما حربهم من قبل في
 اخذهم مدافع الحاس ووضعهم مكانها اخرى من حديد والحق يقول ان
 فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في الصيف مثارا للدغ وفي الشتاء
 مناقع للوحل وانما فعلت الانكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الاعيان الذين
 لهم عواجل فلنفع هؤلاء وحدهم اغضبوا عن نفع العامة وهذا دابهم من انهم
 يراعون خاطر العلية دون الجمهور والباقي من الحجر على الحافتين متى تصبه

الشمس في الصيف يصر مسدرا . هذا ولما كان اهل مالطة احرص الناس على ملابسهم واحذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيما في الشتاء قليلا فتبقى الطرق دائما نظيفة فاما في لندرة فان النساء يخرجن صيفا وشتاء ويلبسن نحو قباقيب تقيهن من الوحل فلهذا تكون طرقها وسخة جدا . وقد رايت كثيرا من الافرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة ويفضلونها على كثير من طرق المدن العظيمة باوروبا غير ان زوايا كل منها ممتلئة قذرا ونجاسة ومنها ما لا يمكن لاثنين ان يمشيا فيه معا وفي كل زاوية فانوس مركوز على دعائم من حديد يوقد الليل كله ومثل هذه الفوانيس لا يوجد في لندرة وباريس إلا في اضيق الطرق وارداها وقد بلغني بعد تحرير هذا الكتاب ان انوار فاليته تستعمل الان من الغاز ثم لا يخفى ان الافرنج دايمهم ان يشنعوا على العرب والتترك ان بلادهم غير نظيفة الطرق ولا مرتبة الاسواق وقد ملأوا الكتب بذلك ولم ار منهم من مدح مدينته ما إلا انهم قد افراطوا في ذلك فان اكثر هؤلاء يذهب الى بلادنا مستوفزا ويرقد في الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما فيها من الديار الرحبة والمنازة الفسيحة النظيرة فيتأذى مما عانى ويحمل ذلك على مناكب البلاد جزافا ويغض النظر عن سيئات بلاده فان حوانيت اهل الحرف والصنائع في فاليته وغيرها ايضا متفرقة في جميع اطراف المدينة فربما كان دكان الحداد تحت دار قاض او مطران ولا تزال اصوات المطارق بالغة مسامعه وكذا الزواني ففي كل طريق هنا ترى منهم جلة حتى قدام قصرى الحاكم والمطران وكثيرا ما يتفق ان صاحب العيلة يستاجر دارا بجانب زانية تكون اذ ذاك غائبة فلا يدري بها حتى اذا تبوا بحله اقبلت تجر ذيول عهرا فمتى قدمت البحرية سمعت لهم ولهم ضجيجا منكرا ولا تزال تسمع سفلة اهل البلد هنا يغنون في الليالي ويزاطون ولا وازع لهم فهل هذا يعد من الترتيب اما اصوات الاجراس من الكنائس فليته كبرى وبالمجملته فانه قلما يتهنأ الانسان هنا في سكنى دار . ثم انه ليس في فاليته حمام منظور يتطهرون به من نجاستهم فاذا اضطروا الى كشط الوسخ عن ابدانهم استحموا في البحر . نعم انه يوجد محل اطلق عليه لفظ الحمام ولكنه

ليس في صفة الحمامات التي في بلاد المسلمين اذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تكسيس ولا تنكيس ولا هرق على انه غال جدا ونحو حمامات سائر بلاد الافرنج من حيث الكيفية لا من حيث الغلاء والمتنكزون من المالطين يقلدون مواليمهم في اتخاذهم مغاطس من قصدير او خشب في ديارهم ويودعون ان ذلك اسلم للجسم وانظف ولعمري ليس السبب في عدم الحمامات هنا الا رداءة الهواء فان من كان في محل دفي وخروج منه مقابلا للريح لا يامن ان يعنى بداءة وكنت قد ذكرت يوما لبعض الاطباء عادتنا على الحمام وتنصت لفقده فقال لي لو كان عندنا حمامات لما كان من يستحم فيها وقوله هذا يحتمل معنيين فاما ان يكون قد اراد ان المالطين لا يستعملون ذلك او ان الحمام يبيت الناس حتى لا يعود احد يدخله وهذا داب هولاء في الاعتذار عما لا يوجد في بلادهم فانهم يقولون انه غير نافع او غير موافق كجواب آخر وقد سألته عن وجود رفائين للبحر في (الاي الملق) والशल الكشميري فقال نحن الافرنج لا نعنى بمثل هذه الصنائع (٦١) مع انهم اعظم الناس اقتصادا وتوفيرا واكبرهم هنا يرفع سراويله من دبر ويمشي كذلك من دون رداء يستتر رقعته . وليس في هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها فلا يمكن للانسان الجلوس الا في بيته او في محل قهوة . نعم انه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم ولكن لا يقعد عليها الا الاوباش فان القعود عند الانكليز على هذه الصفة عيب وتابعهم المالطيون على هذا . ويقال انه كان في المدينة سابقا عدة مصاطب فازالها الانكليز الخافا لها بلندرة . فاما محال القهوة في فاليته فانها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يطل على البحر او على حديقة واذا اطلت الجلوس جاك الساق ومسح المائدة قدامك اشارة الى انه ينتظر غيرك او كانه يقول بلسان الحال لقد ابرمت بي فمتى تتفارق . ولا يمكن لاحد ان يقعد ناحية البحر ساعة واحدة لانها جميعها قدرة ولا يمكن له في المطال المرتفعة الكاشفة على البحر ان ياكل او يشرب او يدخن احتراما لنساء الانكليز . وفي شواطئ البحر حيث يدوم الناس مدة خمسة اشهر لن ترى كنا او عرشا او خيمة وانما ينصب السابح

حر وجهه للشمس فيحترق قبل طلوعه من الماء . وفي الحقيقة فان الانكليز جعلوا مالطة خالية عن المنازة والمسابات السارة اصلاً * ومن اعظم اسباب الحظ عند المالطيين الذهاب في القوارب ليالى الصيف ليغتسلوا في البحر فتذهب الرجال والنساء معا ويقضون هزيعاً من الليل بالسباحة والغناء . والقوارب في مرسى فالتية كثيرة جداً وكلها مصبوغ ظريف ولكن ليس فيها مقاعد كقنج مصر ولا زرايبي او زخرفة كقوارب اسلامبول إلا ان هك خطر على رايها فانها لختفتها تميد من ادنى شيء . ولقاتل ان يقول ان المالطيين هم مثل الانكليز في كونهم لا يلاحظون في لوازمهم سوى مجرد المصاحبة بقطع النظر عن الترفه والطلاوة فان متكآتهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسروج خيلهم ليست بجعولة إلا للقضاء الحاجة فقط . واغرب من ذلك حوايتهم فان التاجر لا يزال واقفاً من الصباح الى المساء وقل من كان عنك كرسي له او للمشتري وفي هذا الاخير خالفوا الانكليز . ويقولون للقارب « دعيصة » وكأنه تصغير دعيصة الرمل شبهة بها لاستدارته وصغره وهذا داب العرب في انهم يسمون الاشياء الغريبة عنهم بما القوة في بلادهم . فان قلت اذا كان هذا داب العرب فمن اين المالطيين ذلك قلت لا ينسك احد ان اللغة المالطية هي عربية وان المسلمين حين استولوا عليها (اي الجزيرة) كما مرهم الذين سموهاك الاشياء وانما لم يقولوا قارباً مع كونها عربية فصيحة لان في اللغة المالطية اشياء كثيرة عدل بها عن استعمالها الاصلي واستعير لها اسماء مشابهة لها او مجاورة فيقولون مثلاً للقليل « قتيث » (بسكون الفاء) وكسر التاء الاولى وسكون الياء والتاء الثانية) وللثير « وسق » (بكسر الواو وسكون السين والقاف) وللحصان « زامل » بالامالة وهو ما كانه يطلع من الدواب لنشاطه وللقرية « رحل » (بل حل بفتح الحاء وسكون اللام) وهو في اللغة مسكن الرجل وما يستصحبه من الاثاث وغير ذلك * ومن ذلك اي الحظ عندهم التماشي امام قصر الحاكم حين يعزف بالآلات الطرب العسكرية فيذهب الى هناك جميع التشيعين المتكيسين فترنو الرجال الى النساء وتدل النساء على الرجال . ومن ذلك الاعياد الكنائسية وهي كثيرة

جدا فان لكل قديس عيداً مختصاً به في زمن مخصوص ومكان معلوم فيرجل اليه عند اقترابه المتلهون ويقضون ما تيسر لهم من اللذات وسماع الموسيقى وروية لعب النار وما اشبه ذلك ولا بد للاباش في هذه الاعياد ان يسكروا ويفحشوا ما امكن . ومن ذلك حلبة السباق وقد تكون في الخيل والحمير والقوارب والسابق يفوز بالخطر . ومن ذلك زحلوقة لهم يحضرها الوف من الناس وهي انهم يربطون خشبة طويلة كصاري المركب الى سفينة ويدهنونها بما تزل عنه القدم وينصبون امامها غرضاً ثم يمشون اليه . على تلك الخشبة فمن زل عنها وقع في البحر . ومن ذلك ثلاثة ايام في المرفع (اي الكرنيفال وهي الاحد والاثنين والثلاثاء) يلبس فيها الرجل كالمراة والمراة كالرجل ويتزيون بهيئات متنوعة واشكال مختلفة ويغطون وجوههم بجلود على هيئة الوجه (او الحيوان) ويطوفون في المدينة حيارى سكارى . ويسمون هذا التشكل مسكرة وانه يحرف عن المسخرة ولا يتحاشون في هذه المدة شيئاً من الخلاعة والقصف والمنكرات ويومئذ تنقص الطرق بالناس والمواكب فاذا اصبحت يوم الاربعاء ذهبوا الى الكنائس ونثروا الرماد على رؤسهم اشعاراً بالانابة ومن ثم يقال لهذا اليوم اربعاء الرماد وهذا الاسم باق عند الانكليز مع الغاء هذه العادة عندهم ومعنى الكرنيفال رفع اللحم اي ازالته (٧) . ومما جرت به العادة في هذه الايام ان الحاكم يولم وليمة فاخرة ويدعو اليها وجوه اهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدمهم بملابس مسخرية فيلبونهم ويستاجرون هذه الثياب من الحوانيت فيقف لهم في غرفة في قصرة وكلما قدمت عليه عيلته انحنت له فاحتفل بها فاذا انقضى السلام شرعوا في الرقص وكلما رقصت النساء قليلاً اخذهن الرجال الى المائدة ليأكلن او يشربن ما شئن ثم يعدن الى الرقص حتى مطلع الفجر فتتفرق الاصحاب . وربما اتخذ بعض جشعي المالطين من تلك المائدة خبنة وهي ما يحمل من الطعام في الكم وكنت اذهب الى تلك الدعوى بزبي المالوف فيخالوني من الساخرين وكانوا يسالوني هل في بلادكم مثل ذلك فاجيب مغالطاً ان لم يكن هذا فخير مني ولعمري قبيح بالرجل الفاضل ان يرى راقصاً كالولد (٨) ومن اعظم مواضع الحظ واللذات

الملمهى وهو المسمى مندهم بلفظة الشياطين او التياطرو (بسكون الطاء الثابتة وليس في ثاليتة كلها سوى ملمهى واحد وجل اللاعبين فيه من ايطاليا ولكن ليسوا من الطراز الاول وسياتي الكلام بالتفصيل على ذلك ان شاء الله تعالى فاني التزمت ايجاز الكلام على هذه الامور في مالطة ليكون مناسباً لاجوالها اذ جميع ما فيها ان هو الا مختصر من بلدان اوروبا والظاهر ان المسلمين كانوا يطلقون على هذا الموضع اسم الملمهى فقد كتب عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب ما نصه : اني فتحت مدينة المغرب ولا اقدر ان اصف ما فيها غير ان فيها اربعة آلاف جام واثني عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر واربعة آلاف يهودي يودون الجزية واربعمائة ملمهى . اهـ . غير ان هذا القدر كثير على اي مدينة كانت فان باريس وما ادراك ما باريس لا تحوي ثلثين ملمهى ويحتمل ان المراد بالملمهى هنا كل موضع يكون للهو فيدخل فيه موضع الحكايات والمشي والاجتماع ونحو ذلك واما قوله بقال ففي القاموس في بقل والبقال لبيع لاطعمة عامية والصحيح البدال ونحوه قوله في بدل غير انه فسر القربق في باب القاف بانه دكان البقال فليحذر . ومن الغريب ان احد المشعوذين الطليانين ابدى في ملمهى ثاليتة من التمثيل والتخييل امورا غريبة ثم اراهم ايضا منشورا من البابا بالرخصة له في هذه الحرفة فصدقه كل من رآه فهلا كان هذا المشعور ايضا من جملة شعذاته * ومن المباني العظيمة في هذه المدينة الكنائس وهي حسنة البناء متينة مزخرفة بالنقوش والدق والتمائيل والصور مزينة بالارجوان والاستبرق وادوات الفضة والذهب . وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق واعظمها كنيسة صان جوان وهي مبلطة كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور اعيان مالطة الاقدمين المدفونين فيها . وفي صدر الكنيسة تغثالان للمسيح واصان جوان رافعا يده فوق راسه (اي راس المسيح) يعبده وهما من الحجر يراهما الداخل من الباب اكبر من الرجل المجسيم . وبخارج الكنيسة صفحة ساعة يعلم منها الساعات والايام والشهور والسنون واذا ضرب جرسها سمع صوته كل من في المدينة فيضطربون ساعاتهم عليها . وفي هذه

الكنائس من الذهب والفضة والتحف ما يفني جميع مصاليتك مالطة
ولكل يوم من الاسبوع بدلت للقسيس خصوصية وقس على ذلك ايام الاحاد
والاعياد والاحوال الطارئة كالزواج والمعمودية والموت وفي الحقيقة فان كثرة
الكنائس الحسنة في جزيرة مالطة على نحبها لما يعجب منه وفي كل قرية
تروى ثلث كنائس فاكثروا اول افتخار المالطيين انما هو بكثرة كنائسهم اذ
ليس عندهم شيء آخر يتباهى به والتفاخر صفة قائمة في النفوس واذا سرت
الى قرية ما متبزه فلا تصاد تصل الا وتصدق بك جامعة ليروك كنائسهم
وجلت ما يصرف على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلثين الف ليرة في العام
ولا يعرفون ضرب الاجراس بالجهال كما يفعل الانكليز وانما يصعدون الى
قبة الجرس ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمتر الطبع *
ومن ذلك مدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات وفيها كنت اعلم اللغة
العربية الا ان المالطيين يتعلمون كل شيء ما عدا لغتهم وفي مدة الصيف
يعطل المعلمون نحو ثلثة اشهر واجرمهم غير ممنون وعند انقضاءها يعين يوم
لا اجتماع التلامذة ومشائخهم في جرة في المدرسة وفي الصدر مائدة عليها
كتب ثم يقوم احد المشائخ وهو في الغالب صاحب المعاني والبيان فيلقى
على الحاضرين خطبة ثم تقرأ اسماء من نبغوا في العلم من الطلبة ويعطون
من تلك الكتب ما يليق بهم وربما حضر الحاكم بنفسه اهذا ولا بد من ان
يعطى لكل معلم دفتر يكتب فيه اسماء الطلبة وما حصلونه من الفنون
ويشترط عليه ان لا يعلم تعليما مغايرا للديانة الكاثوليكية الرومانية . ومن
الغريب ان اهل مالطة مع كون لغتهم فرها عن العربية فلمس منهم من
يحسن قراتها والتكلم بها واذا شاء احد ان يفتح مكتبا بمالطة تمتحنه علماء هذه
المدرسة اولا فاذا راوه اهلا لذلك اعطى رخصته من الديوان فيه وجلة ما
يصرف على هذه المدرسة وعلى مكاتب اخرى في القرى في كل سنة نحو ثلثة
آلاف وثلثمائة ليرة * ومن ذلك دار كتب موقوفة باللغات الافرنجية فمن
شاء ان يطالع كتابا منها ذهب الى هناك واستوعبه وان كان من الوجوه
يحضره الى منزله وعدة ما فيها ثلثة وثلثون الف سفر وليس فيها من الكتب

العربية ما تحتم طائل . وفي المدينة ايضا عدة حوانيث مشحونة باصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان ويمكن ان يقال ان الكتب باوروبا رخص ما يكون ولا جرم ان المولع عندهم بالعلوم مع سعة ذات اليد لا سعد الناس لانه اذا شاء ان يتعلم اي فن كان وجد له فيه شيئا ولان الكتب والادوات اللازمة لذلك الفن حاضرة عديدة يجدها باهون سعي ولا يخشى في الكتاب جرما صكما ذكرنا ولا تحريفا فكل كتبهم مصححة ولان المدارس الوقفية تعلم فيها العلوم بجانا او يعطى في مقابلة ذلك شيء زهيد فطالب العلم في مالطة يعطى في الشهر شلينين ونصفا وطالب اللغة شلينا واحدا ولعمري ان طالب العلم في لغتنا لو لم يصده عن المطالعة إلا تهذر وجود نسخة صحيحة لكفاه ذلك عذرا فضلا عن نصبه وحرمانه وحمله . وعفي فالتيت سبع مطابع احداها للمبوري تطبع فيها الاوامر والنواهي التي تصدر من ديوان الحكم والباقي للاهلين وفيها ايضا دار لصحف الاخبار الواردة من اوربا وداران للصرف توضع فيها الاموال ومنازة فيها فانوس كبير لهداية السفن وعدة مكاتب للصبيان والبنات يعلم فيها القراءة والكتابة والحساب والتطريز والحياطة وغير ذلك غير ان الاولاد تغلب عليهم لغتهم وتمنعهم عن التكلم بغيرها اذ كانت هي اللغة الغالبة ولكل لان لم يعلم من نساء مالطة سن نبغت في المعارف والتأليف فغايت ما يتعلمن انما هو ان يتحررن بعض كتب كنائسيتها وقد كان في السابق دار معدة لتلقي الغول وتربيتهم وقد بطلت الدار وبقيت عادة الغول وعادة الشيني من اليتامى وفيها ثلثة مستشفيات احدها للعسكر والثاني للرجال والثالث للنساء وسن لم يكن لها ماوى قنوي الى هذا المستشفى وتمكنت فيه ما شاعرت ، وبخارجها ايضا اربعة اخرى احدها للجهانين واكثر جنون اهل مالطة يكون عن وساوس في الدين وقد رايت فيه هجورا تهزج وتقول اليوم عيد كما امر بذلك القسيس والغاضي للمرضى من العساكر البحرية والثالث للفقراء والرابع للطاعنين في السن الغاجزين عن تحصيل معاشهم الماديين لوداع الدنيا يندا والمفطحين عن درزها ونعيمها عينا قد اصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم

اللبيب ويتعظ بهم المستهتر في حب هذه الدنيا الغرور اذ تراهم كالاغرار من الاولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعي الاجل واطلمت منهم الابصار بعد ان اضاء فيهم صبح المشيب وانحلت منهم القوى بعد ان غلت منهم الافكار والتهى فثم يقضون ما بقى من ظمء حياتهم بكان وصار * وفي فاليتة عدة فنادق للمسافرين بهيئة ذات حجرات مفروشة عديدة اجرة كل منها في اليوم نصف شلين في الاقل . وفيها من الذكور اكثر من اثنتى عشر الفا وخمسائة نفس ومن الاناث اكثر من احد عشر الفا وثمانمائة وسبعين جلة ذلك اربعة وعشرون الفا وثلثمائة وسبعون نفسا ومن القناصل اربعة عشر ومن القسيسين نحو مائتين وخمسين وسبعة اديار للرهبان والراهبات . وجلة ما في الجزيرة كلها من الكنائس الكبار سبع وسبعون ومن الصغار مائتان واربع واربعون ومن الاديار واحد وعشرون ومن الاطباء مائة وتسعة وعشرون ومن الدوائية والعقاقيرية تسعة واربعون ومن كتاب الصكوك والعقود مائة واربعون ومن اصحاب الموسيقى مائة وثلاثة وستون ومن المعلمين في المكاتب مائة واثنان واربعون ومن المصورين مائة وثلاثة وتسعون ومن المتوظفين في خدمته الميري خمسائة وواحد وثلثون ومن المرتب لهم عمريات ولا يشغل لهم ثلثمائة وستون ومن التجار ستمائة وستة وثلثون ومن السماسرة مائة واثنان وسبعون ومن اصحاب الحوانيت الفان وستمائة واربعون ومن المزارعين ثلاثة آلاف وثلثمائة وستة وعشرون ومن الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ومن صاغرة الفضة والذهب مائتان واثنان وثلثون ومن التجارين الف ومائتان وثلاثة وثمانون ومن الاساكفة الفان واربعمائة ومن الغزالين والغزلات ثمانمائة واربعون ومن النساجين والنساجات ثلثة عشر الفا وستون ومن الخياطين تسعمائة واثنان وثمانون ومن لفافي ورق التبغ تسعمائة وثلثون ومن الخدام ثلثة آلاف ومائة وعشرون ومن اصحاب القوارب ستمائة واثنان واربعون ومن الساعاتية ستة وعشرون ومن المتعلمين في المدرسة الجامعة وفي غيرها ثلثة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلثون ومن الديار الكبار احدى وعشرون الفا ومائتان واثنان وستون ومن البيوت الصغار

الغان ومائتان وواحد وسبعون ومن الحجرات على حدتها ثمانية آلاف وثلاث وأربعون ومن الدكاكين ثلاثة آلاف وخمسة وعشرون ومن المخازن خمسمائة وستون ومن الشون للقمح خاصة مائة وسبع وعشرون ومن الذهب لا يصل لهم من الأعيان ستة آلاف ومائتان وتسعة وستون ومن العامة نحو أربعين ألفاً ووجلة سن يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمائة وثلاثة وسبعون ووجلة ما يولد فيها في السنة أربعة آلاف وأربعمائة ووجلة أهل الجزيرة نحو مائة ألف نفس منهم أحد عشر ألفاً وخمسون من الإنكليز وسبعمائة وسبعون من الغرباء :

كثيرون أن عدوا قليلون أن رجوا * فهم دون عد العشران تنوخي (٩) واقسم أنني صرت للمال سكارها * لأن صار لي اسم الماطيين مذكرا ووجلة ما يولد فيها في السنة من المسافرين ثمانية آلاف ومائتان وستة عشر وما يصدر عنها تسعة آلاف وخمسمائة وثلاثون * وفي قاليتة نسوق تباع فيها سائر أصناف المأكول فتجد فيها جميع أنواع السمك واللحم كالبقر والضأن والعجل والدجاج والطيور . أما السمك فإنه لذيذ جدا وأما اللحم فطيب أنواعه الخروف الصغير يذبحونه وهو دون ثلاثة أشهر فيكون الذ من لحم الطير : هذه الطريقة النفيسة لا وجود لها في لندرة ولا في باريس . أما الطير فإنه قليل جدا ولا عيب على من يشتري نصف دجاجة بل ربعها أو جناحها أو رأسها بل مزاربها كل ذلك من اقتصادهم فانهم أعظم الخلق خبرة به ولا عيب أيضا على من يذهب بنفسه ويشتري مونة يومه وإن يكن قاضيا بل النساء السيدات يفعلن ذلك أيضا متى اشترت شيئا تحمله أحد الأولاد الذين مهنتهم الحمل وهم صكثيون وكذلك لا عيب على من يشتري من البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط (١٠) . وليس في المدينة حمير فارة للركوب كحمير مصر وإنما يذهب الناس في عواجل وهي ليست كعواجل لا فرنج وليس لسانقها مقعد فيها وإنما يمشي بجانبيها على رجله الحافيتين ومتى رأى أصحابها أحدا مقبلا ازدحوا عليه ولا ازدحام حمارة مصر * وليس في مالطة كلها مصانع للساعات أو الزجاج أو الأدوات الحربية ولا قنشة

وغيرها فاشتهر الصنائع عندهم النجارة والخياطة والسكافة والمجدادة والنساجة والصياغة وأخص أعمال التجارين الكراسي والتكاآت والموائد والخزائن والمصنایق والاصنوتة ونحو ذلك وقد يحسنون أيضا إنشاء المراكب وعمل المجدادة مقصور على سبرر النوم وما يلزم للبناء وعمل الصياغة من الذهب انما هو المشنوف والخواتم والسلاسل والاسورة واشكال طيور وزهور والابازيم والابر ونحوها ومن الفضة الملاحق والغارف واباريق القهوة واليهاي ولاقداح والاطباق والاسارج واوعية السكر ونحوه فاما النساجة فلا تتعدي شقي القوط واغطية الفرش وقلوع المراكب ومن هذا لاخير يبعث الى بلاد المسلمين مقدار جزيل وليس من اهل هذه الصنائع من يصل الى درجة الانكليز والفرنسيس في الجودة ولايقان الا ان عمل الماظية وثيق متين فاذا اشتريت مثلا حذاء او ثوبا صجطا بقي مدة لا يحتاج الى تصليح اما عمل الانكليز منها فحسن في الظاهر لكنه لا يثبت على الاستعمال وعمل الفرنسيات منها بينهما (١١) * ومن الرسوم الحسنة في مالطة انه اذا اراد احد شراء شيء من الفضة والذهب ذهب الى قيم الصنعة وساله عن قيمته فيزدرك ويكتب له تذكرة بذلك فاما المجعل فمكول الى التواصي والغالب في مشتري الجواهر ان يكون انقص من الثمن * ومما يكره بمالطة كثرة التسولين والخافهم بالسؤال حتى انهم يقرعون الابواب وقت العداة ويجرون مع الماشي ولا يتركون مستجدين حتى يفوزوا بشيء وهم يرون ان حقا على الموسرين ان يواسوهم باموالهم واذا اعطيت احدهم ميرة فكلما قد دون ذلك عليك شيء الدستور فائنها يركب يلزمك . واول كلامهم في الاحتذاء قولهم « عن روح ميرك » اي ايسك او « عن ارواح الثورغوريو » اي المطهر (١٢) وكان بعضهم يقول « عن روح المجدد تيمك » والتوسل في باريس ولندرة مفعول * وهذا يكون ايضا ما عدا طبخة اجراس الكنائس المتتابعة لصوات الباعة الذين يطوفون على الاشواق لبيع الخاكية والبقول والسمك والحليب والماء فان ضر افواههم وطه اصولهم وقطاعة لحمهم على اختلاف معيشتهم لئلا يستعد منهم . كيف لا وهم يقولون للشحاح « تفيح » وللزمان « زمين » والمطبخ « ميشي » (بالحماء

الهملة) والخيار « خيار » (بالحاء الهملة ايضا) وللإحسان « لتجاس » (بكسر
واللام وتشكون التون) وللدلاع « دليع » والخبز « حبس » وللماء « لما » (بكسر
اللام الأولى وتشكون الثانية وقصر الالف) والخوخ « مخوخ » (بالحاءين المهملتين)
وما أشبه ذلك . فلا يمكن للعربي استماع ذلك ولا سيما اذا كان في اليوم
مرارا من اشخاص ذوي شراسته وفظاظته * وعلى ذكر الخوخ يحسن هنا ايراد
ما قاله بعض الأدباء * « وفي الناس من يبدل الحاء المعجمة حاء مهملة
فيقول في خوخ خوخ وفي خالخال خالخال وهي مستحسنة من الغلمان
والجواني وكذلك ابدال السين ثاء * وعليه قول الشاعر :

« وأهيف كاللؤلؤ شكوت وجدي * اليه بحسنه وأطقت بسنني
وقلت له فدا تلك النفس مبني * تحزيف الثواب فتال بنت »
قلت هذه اللفظة ذكرها صاحب القاموس بالضم فقال « ومن بمعنى حسب »
وأهل المطعة يبدلون ثنيها زاياء ويكسرون أولها وأهل تونس وطرابلس لا
يعرفونها ويستعملون بدلها لفظة « بركة » وهي قبيلة جداء . وقلت أنا في
ملاحظة فاطمة :

بدت في الثياب السود والوجه زاهر * وماست بقدر يخجل العنصر الغضا
لها منطلق غدت على قبح لحسنه * وفي حسن من تهواه عن لحمه أضما
إلا أن هؤلاء النباة ليسوا من هذه الطراز ولا جزم أن النطق يورث في ذي
الذوق التسليم أكثر من الحسن وأنه من خصصيات الإنسان والحسن يوجد
في جميع المخلوقات : ولقائل أن يقول أن النظر إلى ذي جمال رائع بغته
يدهش له ويتأثر به أكثر من استماع متكلم بليغ من أول وهلة قلنا هذا على
اعتقاد الساطية فيه . فلو فرضنا أن الناظر يرى جيلا معتقدا أنه أخرس وقبحا
منطقيا لتأثر بالتأني دون الأول * وأشد ما يكره في هذه الجزيرة هو أن الأرواش
والأوقاد يترددون بحيث تتردد الخاصة وذوو الفضل فقها رأيت مكانا خاليا
منهم وإذا لقوا أحدا من الوجوه سلقوه بالسنتهم ولزوه قفلي الكريم أن يحسب
محضرهم ويتباعد عنهم مثابتهم وأسوا من ذلك أن القصاة يغضبون هؤلاء
الأنجاس عند التحاق والتخاضم اعتبار المحيرين من الناس وهذا الذي

جواهرهم على التبادي في القبايح ، وهؤلاء لا راذل اذا شربوا قدحاً واحداً من
الخمر طافوا الاسواق وهم زانطون صاجون يظهرون بذلك طاعتهم على الاتفاق
وفي ليالى الاحاد ولا عياد تنص بهم المسالك فلا يطيق احد سماع غنائهم
ولغتهم ، هذا وكثيرا ما ترى الملاحين والبحريين سكارى في الاسواق حيارى
واذا مررتهم الخمر في الطريق يمر الناس بهم ولا يبالون وربما سرق منهم
وهم على هذه الحالة ما بقى لهم من الحانة او جردوا عن ثيابهم وهم لا
يشعرون وربما تقاى احدهم ثم عاد الى الشوب إلا ان منزلة السكارى
من عسكر المدينة اجل من العسكر البحرية فان اولئك يجبرون الى مقامهم
تجبروا وهؤلاء يغادرون صرعى عرضة للناهبين * ومما يحد في مالطة
عدم العقارب والحيات وسائر الهوام المضرة وان وجدت فلا سم لها واهل
مالطة يزعمون ان ذلك من كرامة ماربولس حين القى الثعبان من يده
في النار واخبرني ثقة ان الحيات في جزيرة جريد ايضا لا سم لها ، واهل
إيطاليا يقولون ان ماربولس ازال السم من افواه الحيات فانتقل الى افواه
اهل مالطة وزعم بعض من الانكليز ان ماربولس لم يمر بمالطة وانما كان مروءة
بساطية (١٣) إلا انه يكثر عندهم البق والذباب وهذا يوسخ كل شيء ابيض
والعناكب تلقي لعابها بين كل شئين اما العثة فانها لا تلتحم الصوف
لحسها كما يقول صاحب القاموس وانما تسترطه استراطا . وفي معسني
العناكب قلت :

غدا بيتي كثير الفرش لما * تهلhel فيه نسج العنكبوت

فلا عجب اذا ما قلت يوما * لكيد الناس اني ذو هيموت

فصل

في عادات المالطيين واحوالهم واخلاقهم واطوارهم
عادة اهل مالطة التشبعين في اللباس كمادة لافرنج إلا ان نساءهم
يلبسن وشاحا من الحرير الاسود وعلى رؤسهن غطاء منه ايضا من دون برنطة
واقبح شئ في الصيف روية هذه الثياب السود . وقد يحاكي بعضهم
نساء الانكليز في الزي ولكن متى ذهبن الى الكنيسة لبسن زيهن الاصلي

توهم ان اللون الاسود البق بالكنيسة واولى بالقنوت وهو كوههم الجبهة من نصارى الشام ان من يلبس سراويل فوق ثيابه لا يليق به ان يتقدم الى محراب الكنيسة . اما اهل القرى فان الرجال منهم يثقبون آذانهم ويتقروطون باقراط من الذهب ويرخون سواك مجموعة من افودهم كظلهم وحائتان صفتان من صفات الاناث ويلبسون طرابيش مختلفة الالوان مسدلة على اكتافهم وهي شبيهة بالاجربة ويمشون حفاة ويتحزمون باحزمة ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب ويجعل ازرار صدره منه او من الفضة ويحمل عنقه على كتفه ويمشي حافيا مشية المفراج البطران الجزار منهم او الحمار ونحوهما ليخرج في الاعياد وفي اصابعه عشرة خواتم من الذهب ومقلها في سلسلة ساعته وفي صدره ازوار كثيرة من الذهب او الفضة . اما النساء فان من كان لها حذاء لا تلبسه الا اذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى اذا خرجت منها تابطته . وجميع الاعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون اردية تستر ادا بهم خلافا لعادة الافرنج في اوروبا والتكيس القيساني منهم هو الذي يزنق سراويله على فخذه واليتيد حتى لا يعود يمكنه التقاط شيء من الارض فاذا صعد في درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنفذ من دبرواكشرهم بشحم فخذه وموخره بحشوف السراويل ويستركل عظم ناتئ في بدنه ويبدي ما ينبغي ان يستر فاذا مشى احدهم على حاك الصفة نظر الى عطفيه كالزورك والى سراويله وحذائه معجبا بما لديه . وللنساء زهر وشجب اذا مشين اكثر من زهر الرجال فشرى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة الى بعلها وهي مسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء راسها باليمنى فتصكون على هذا الحالة اشغل من ذات النعسين فمتى اوين الى بيوتهم لبس اخلق ما عندهن من الثياب وسواء في ذلك الفقراء ولاغنياء والرجال والنساء وهذا هو احد الاسباب التي حببت الى المايطيين تجنب المعاشرة والمخالطة وربما عدت المرأة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات . واذا زرت احدهم فلا يستحي ان يقول مهلا فان زوجتي تبدل ثيابها لتخضو بين يديك . ومنهن من تبقى في حشوها بغير حذاء ثم اذا

هوجت في يوم الأحد لبعثت جوارب من حرير وكفوفها منه وتبرجت غاية ما يمكن فإن المايطيين يفتخون في الأعياد كل الشغل بخلاف الأنصاريين هذا فانهم يتفنون على خاتمة واحدة . وفي الجملة فان هم هؤلاء الناس كله مضرووف في التفاخر بالرياش والظاهر شان حديث النعمة ، ومتى كانت إحدى نساء عاتمة جاملا مشئت الحياء ورفعت بطنها ليواها كل من مر بها وهي البصرت ذات شوهة رستت شكل الصليب على بطنها تعودا من سريان البصرة الى الجنتين واذا شمت في الطريق والحة طيخ وتخرجت عليه بعثت تستهدي حمر : اما حلي النساء فالذهب غالبا للاغنياء والفضة للفقراء إلا انه قل ان ترى امرأة من دون حلي من ذهب وامتناع الحلي الشئوف ويقولون لها « حشالت » وفي لغة الغرب « حشالت » والاسوة يليقها فوق الاكمام والامر والخواتم والسلام والساعات ويندر جدا تحليهن بالمجوهر الغضيفة وانما تتحلى بها الخواتم في الرقص والولائم وقد يجرى عنها الجزع وفي الجملة فليس لنساء عاتمة ولا لنساء الافرنج جيعا كثير من الحلي كذا لنساء مصر والشام وانما اعجابهن مقصور على نظافة الثياب واتخاذها بحسب الزمى وكما ان لباس رجال الافرنج لا يخلو من الخلل بالحياء كذلك كان لباس نساءهم ادعى الى الحشمة والتضاد من لباس نساءنا ، فاما تغيير الزمى عندهم فانه نافع لا مضجبات التجارة ومضرب بعامية الناس فانه يقضي بمصاريف محدودة غير ضرورية ومنشأ هذا التغيير يكون في باريس فتنطبع معقودته على اوراق وترسل الى جميع البلاد وهذا ذاب الناس من انهم اذا رغبوا عن رذيلة اقبلوا على غيرها فان الافرنج لما رغبوا عن المزركش والمزركش من الثياب وعدوها من ذاب الصبيان اولعوا بتغيير الشكل . هذا ولما كان لباس الافرنج في الشتاء لا يتعدى اللون الاسود من الجوخ وغيرها وفي الصيف لا يجعدي الثياب البيض لم يكن لأسواقهم ومواسمهم نفحة وليس ما تسر رؤسهم إلا ملابس العسكر وبعض النساء ولا شك ان حب الالوان الزهية طبيعي لاننا نراه في الاولاد وهم يقولون ان الميل اليه من طبع الهنج : وانما ميلهم الى الالوان مقصور على فرش ذيابهم واثائها والحق يقال ان ملابس

للافرنج اوفق للعمل وادعى الى قلة المصروف فانها ما عدا كونها منققة
وهو اصل في الاقتصاد فهي عارية عن كلفة الرقم والشوي وربما كانت
ادعى الى النظافة ايضا . ومن عادة الانكليز هنا الاكثر من الثياب البيض
والاقلال من الجوخ ونحوه فان الغني منهم لا يكون له اكثر من ثلث
جبات او ارجع ولكن قد يكون له بنتون قميصا وصشرون سروالا من الكتان
وصشرون ملالة للفرش وقس على ذلك : وقد رايت كثيرا من لاعيان هنا
لهم جب قد تلبد على ازيائها البسخ والعرق لاسيما وان منهم من يزجي
بشعر راسه حتى يصل الى قداله فتراه اذا نزع برنيطته تتطاير هريته على
كتفيه ومع ذلك فهم يحلقون شواربهم بدعوى النظافة . ومن الانكليز
من يلبس كل يوم قميصا ويحلق في كل صباح وربما فعل ذلك في النهار
مرتين وذلك مطرد سواء كانوا في البر او البحر . ومنهم من يجعل صخر
القميص او طوقه واطراف كميته منفصلة عنه فيغيرها في كل يوم . ومما
يحمد عند الافرنج استعمال المشا في الثياب البيض حين تغسل فانها تاتي
بنا جديدة . والغسلات في مالطة لا تغسل الا بالماء البارد فبان وضع اليد
في الماء المسخن ومقاومة الريح بعده يعقب ضررا . وصابونهم احسن من
صابون قرانسا ودونهما صابون الانكليز . وعندني ان احسن صابون في بلاد
اوروبا هو صابون قسطنطينية في اسبانية والظاهر انه من صنعة العرب فلان
اهل تونس لا يزالون يصنعون شيئا منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما
واجرة غسل القمص بمالطة صلدي واحد وفي باريس ثلثة وفي لوزة لربعة
او خمسة . اما عادة المالطيين في اكل الفلوسرين الشوربة في الغداء والاحم
والخضر والخمر وفي العشاء السمك والسلطة واختر شي عندهم لحم الخنزير
الا انهم لا يكفرون منه ومن غيره كما يكفرون من اكل الخبز بخلاف عادة
الانكليز . اما الفقراء فان احدثهم لياكل رطلا من الخبز من اوطالهم بخمسي
جبات من الزيتون او بقطعة من الجبن او بصحبة . والرطل المالطي هو
نحو رطلين من اوطال مصر وثمنه نحو قرش ولهذا كان المالطيون جميعا
كثيري اللهمة بذكر الخبز فاذا زارك احد مثلا وسأله عن اهله قال لك « كلمه

طيبون ياكلون الخبز» او كان يقول الطيب هو من ياكل الخبز، واذا اردت ان تفتري شيئا من احد التجار ولم توفه ثمنه قال لك انا قائم بموتة عيلة تاكل الخبز واذا رايت احدا ياكل بعيدا عنك رفع اليك ماسحة يده وقال «ك يعجبك» اي ان يك يعجبك وان كان يعلم ان اقترباك منه محال، ثم لا يخفى ان خبز الافرنج يكون كبيرا جاحضا يقطعونه بالسكين والحكمة في ذلك لاقتصاد فان الاء كل اذا قطع منه شيئا وابقى منه ما ابقى فلا يكون المحرص على الباقي عيبا وربما جوي بالفضلة منه الى المائدة سرات بخلاف مادة الشرقيين فان الرغبة اذا قطع منه شيء فلا يوقى به الى السفرة وهو ناقص فذلك يعد لوما وبخلا، غير ان جعل الرغبة كبيرا يوجب عدم نصيب ليه فخبز اهل مالطة يكاد ليه وهو الجزء الاكبر منه ينصرف فلا يمكن اكله الا بعد يوم وهو اردا خبز في بلاد الافرنج فانه ما عدا كونه معجونا بالارجل حامض وغير مريوي غير انه فيما اظن ليس مخلوطا باجزاء كثيرة كخبز الانكليز، وعندهم نوع من الخبز مستدير مثل خبزنا يسمونه الفطايير وياكلونه على نوع الشفكة وقد سالت عن سبب قلته وعدم بيعه في جميع المحوانيت فقولوا انه موجب لزيادة المصروف لطيبته وهم اذا جاعوا اكلوا منه ما يكسر الجوع فقط، وعامة المالطيين يطبخون الدم ويستيقنون الى اكله وكنا اذا اردنا ان نذبح ذباجة اخذ الذابح دمه وهو لنا من الشاكرين وهم جميع الافرنج ياكلون السلاحف البحرية وحيوانات اخر ما تفرز نحن منه، وقد بلغني ان من المالطيين من اذا فجع بشيء فجاءة اكل فارا او صفدا لزالة الدخشة وكيفي كان فان اخس الفلاحين بمالطة يعرف من انواع الطبخ ما لا يعرفه اكبر تاجر في بلاد الانكليز فانهم يطبخون اللحم مع جميع البقول والغالب ان الافرنج لا نظافة لهم في الطبخ من حيث كانت خداماتهم ابدا مكشوفات الرؤوس فيتناثر شعرهن في الطبخ ولانهم قليلا ما يبيضون آنية الطبخ حتى ان هذه الصنعة في مالطة تكاد ان تعد من المفقود واكثر آنية الطبخ عند الانكليز من الحديد وهو اسلم عاقبة، واهل مالطة مثل غيرهم من الافرنج في كونهم ياكلون المخنوق

وزادوا عليهم في اكلهم الميتة من الدجاج ونحوها واذا دعوت احدا منهم الى مائدة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه الا الشئ على نفسه بانه قليل لاكل وعلى ذلك قولي :

لشام اذا ما زرتهم في بيوتهم * كرام اذا زاروك ما امكن اللحس
ولو وسعت افواههم غير ما بها * لكان لكل بين انيابه فاس
وقلت ايضا :

لجاري ثغر للهم القـرى * وذم الورى منتهى حـ
فلا شيء اسهل من فتحه * ولا شيء اصعب من سـ
وكاهم ياكلون الثوم والبصل نيتا فلا تزال رائحة افواههم منتشرة . اما مراقدهم فانهم يرقدون غالبا على سرر من حديد والتنكزون منهم يتخذون في الصيف سرا منه وفي الشتاء من الحشب وفرشهم متعددة وثيرة . وقد سمعت ان غير الاغنياء يتخذون فرشاً عالية ولكن لا يرقدون عليها وانما ينصدهونها للمفاخرة والمباهاة . والاطباء هنا يقولون ان الرقود على فرش القطن مضعف للجسم وان حبل الليف او الثبن اذا نفش كان خيرا منه وفرش لاغنياء من الصوف . وعامة المالطين يجعلون اقدارهم في وعاء تحت السرير فلا طاقة لاحد على ان يدخل مراقدهم في الصباح ولا بد من ان يرقد الرجل مع زوجته وان تقادم عليهما الزواج وهرما فيه واروحا . فاما الارباش والسفلة فتراهم راقدين في الهاجرة على حافات الطرق كبا على وجوههم وقد جاء في الحديث نوم الشياطين على وجوههم . واذا زرت موسرا منهم بادر الى ان يريك ما عنك من الفرش والاثاث وقبل كل شيء يريك فراشه ولم تجر العادة عندهم ان يتخذوا فرشاً للزائرين كما في بلادنا * ومما حرم منه اهل مالطة من اسباب الترفه والاستراضة الاستواء على الارائك والزرايب الوثيرة فلا يقعدون الا على الكراسي . نعم انهم يتخذون متكئات من خشب ولكن من دون نمرة عليها ولا حشية وناهيك بمن يقعد يومه كله على كرسي خارج منزله او يظل واقفا كالتجار ثم ياتي منزله ليقعد على كرسي فكانما لسان حالهم يقول ما قال ابو نواس : « وداوني بالتي كانت هي الداء » او

ما قال الإصمبي : « وكأس شربت على لذة * وأخرى تداويت منها بها »
أو ما قال ابن دريد في مقصورته :

« حينما هي الداء وأحيانا بها * من دائها اذا يهيج يشفى »

أو ما قاله البحري :

« تداويت من ليلي بليلى في الهوى * كما يتداوى شارب الخمر بالخمر »

فائدة يحسن استظهارها هنا وهي : ان مداواة الشيء بنظيره لا ينقيضه ليس من مخترعات أطباء النحسا كما شاع فقد ذكر العلامة الدميري في كتاب حياة الحيوان عند ذكر النحل ما نصه : « روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابي سعيد الخدري رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي استطلق بطنه فقال اسقه عسلا فسقاه ثم جاءه فقال يا رسول الله اني سقيته عسلا فلم يزد إلا استطلاقا فقال عليه السلام اسقه عسلا ثم جاءه الثانية والثالثة والرابعة فقال عليه السلام اسقه عسلا فقال قد سقيته فلم يزد إلا استطلاقا فقال صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فبرئ » قال الدميري : « اعلم انه قد اجتمعت للأطباء في مثل هذا العلاج على ان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على الاسهال اعينت ما دامت القوة باقية واما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض » اهـ .
اما عادتهم في الزواج فهو ان يعاشر الرجل المرأة قبل ان يتزوجها مدة طويلة وربما اقام على ذلك ثلث سنين فاكثر . وعندى ان الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة احوالها من اضر ما يكون ولا سيما عند النصارى لعدم اباحتهم الطلاق عندهم غير ان طول العشرة ايضا لا خير فيه لان البنت لا تزال مع خطيبها على احسن الاخلاق حتى اذا تزوجت وعرفت ان لا فراق تخلقت بالاخلاق التي تعجبها . ولا يخفى ان النساء في بلاد الافرنج هن اللواتي يمهرن الرجال فلا غنىء من المالمطين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة والذين هم من الوسط يوثقون له منزله من فرش وكراسي وموائد وآلات الطبخ وينقدونه شيئا من الدراهم والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضاً ونحو ذلك وعلى الزوج ان يهادي جاءه باحذية . وعندى ان لكل من الغربيين

الذين يمهرون الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرون المرأة وحدها وذلك ان الشرقيين ينهون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم فيحتاج ابو البنت الى ان ياخذ من الزوج مهرا ثقة بانه قادر على القيام بما تعرض له ولان الرجال هم قوامون على النساء ، اما الافرنج فلان رجالهم غالبا يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة لان موتهم غالية ونساءهم متشبهات بالرجال اخلاقا ولاستغنائهم عنه بكثرة الموجرات فوجب على المرأة في ذلك الحال ان تساعد الرجل * واهل مالطة اشد الخلق تهافتا على الزواج فان الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان (اي نصف ريال وتسعة نواصر) وهما لا يشبعانه خبزاً واداما وانما يثق بان زوجته تساعد على الشغل وتكسب مثله . وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق فان المرأة تجري وراء سن به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهمها كون الرجل فقيرا او جاهلا او شريرا غير ان النساء هنا لا يحترمن ازواجهن فكثيرا ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفه بحضرة الناس وكلهن اذا تكلمن يرفعن اصواتهن الى حد يبقى الغريب عنك مبهوتا . وكانت عاداتهن في القديم ان لا يتبرجن للشبان ولا يخطرن في الطرق ولا يتعلمن القراءة والكتابة ومتى خطبن احتجبن عن الاخطاب وربما كان الرجل يخطب بنتا بواسطة امه واخته من دون ان يراها اما الان فقد تخلشن باخلاق نساء الانكليز في مخالطة الرجال ومماشاتهم والذهاب معهم الى المراقص والملاهي وكثيرا ما تهرب البنت من حجر والديها وتمكث مع سن تهوى وكثير من النساء الغنيات الطاعنات في السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع زوجته طامعا كاسيا والذي عليه حكمة النساء هنا ايتار الاقارب على الزوج فانهم يقلن ان الزوج اذا مات يعوض بمثله ولا كذلك الاقارب ومن كنساء الانكليز في انهن لا يتزوجن الا سن كان في سنهن الا انهن يخالفهن في كونهن يتزوجن على صغر . واذا مشى الرجل مع زوجته مشيا متحاذيين لا متعامكين بالاذرع كالافرنج اذ لا بد للمرأة ان تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفا ، وكثيرا ما تخرج الرجال وحدهم ويفادرون نساءهم في البيوت . واكثر

اهل المحانات بمالطة متزوج واللييب منهم سن يتزوج حسناء لتسقي الشرب
وتناديهم فيجتمع عندها من العساكر البحرية والبرية زمر شتى . والفجار
من اهل مالطة الذين دابهم كسب المال باي وجه كان يتظاهرون بانهم
طالبون للاحصان حتى اذا حصلوا على المهر فروا به الى البلاد البعيدة .
ثم ان المتعة او التسري امر مستفيض عند جميع اهل مالطة . وقد تترك
المرأة المتزوجة بعلمها وتهفو في اثر سن تهوى وكذا الرجال . واعرف كثيرا
من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته واقام مع اخرى واقامت هي مع
آخر وتسرى ابوه بنساء واقامت بناته مع رجال او صرن بغايا . والبغايا في
هذه الجزيرة لسن ذوات ثروة ولا جال رائع الا ما ندر فلا تجد لاحداهن
دارا على حدتها او خادما لكنهن في الغالب غير واقحات ولا متهاففات
على الرجال بل هن لعمرى اصون لسانا من المتزوجات واكثر ماء وجه
اذ لا يحدقن في الرجال كالمزوجات ولا ينتقدن السحنة والزى ولا يتشبن
مثلهن بالنميمة ويترددن على الكنائس كثيرا وليس منهن من تريد ان تموت
في الذنوب كما هي عبارتهن وحين ياتين الفاحشة يغطين وجوه صور
القدسين التي في جرحهن او يقلبها تادبا وتورعا . وفي الجملة فان اهل
مالطة جميعا رجالا ونساء يغلب عليهم الشبق والسفاح . اما عادتهم في
اداب المجازاة فكعادة الافرنج في انهم لا يقيمون المأتم على الميت فلا
تعرف ان احدا من الاهلين مات الا من صحف الاخبار وهي عادة جيدة
فان العويل والنحيب فضلا عن كونهما لا يهييان مائتا ولا يردان فائتا او
كما قال الشاعر « ولم يرجع الموتى حنين المأتم » يلتقيان الهم والرعب في
قلوب السامعين وانما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة ويدفونه بعد
اربع وعشرين ساعة . وربما ارسلت الجيران الى اهل الميت وصيمة كما
في ير الشام . اما علية لانكليز هنا فلا يدفنون الميت الا بعد اسبوع في
الاقل كما في بلادهم . واذا مات لاحد المالطين طفل صغير اقبلت عليه
الاصحاب تهنئته قائلين « نفرح لك بالجنة » . ومتى ولد لهم ولد وضعوا
تحت التبن ليكون سقوطه عليه تشبيها بالمسيح . واذا مات احد من صباط

العساكر شيعت جنازته وءالات الموسيقى معزوف بها وراءها والمجنّد
مصاحبة لها فاذا فرغوا من دفنها اطلقوا البنادق دفعة واحدة اشارة الى اذ
مات بعز دولته وسلطانه * اما خلق المالطية فالغالب عليهم السمرة والربعية
في القوام وسواد الشعر والعيون وغلظ الحواجب وشدة البنية وهم في الغالب
اجل من النساء . وكثير من النساء هنا لهن شوارب او عوارض او عناقف
ومنهن من تحلقها ومن لا فرنج من يستحب ذلك فيهن . وقد اسلفت لك
زهون وعجبهن بما يتحلى به من اللباس والحلي * اما اخلاقهم فالغالب
على اعيانهم لين الجانب والبشاشة فاذا سالت احدا منهم عن شيء اجابك
وهو باش بك مستانس اليك . ومن طبعهم جميعا الكدح والتدبير والاقتصاد
فلا يتحملون صنك العيش محافظة على عادات قديمة صارة . ولا يتجشم
احدهم استخدام نفر اظهارا لشانه ورفعته ولا النفقات الزائدة في الاعياد
والزواج ولا يتقلد نساء لاغنياء منهم فلا تدم من الماس وثيرة وان الماخذ منهم يزور
صاحبه بدون احتفال والغني يذهب الى السوق صباحا ويشتري مونة
يومه وان الماخذة تزور صاحبها ولا تلهي احداها عن الشغل وذلك بان
تاخذ معها شيئا تشتغل به وهي التي تقوم بتدبير البيت فلا تكل امورة الى
الخادمة واكبرهم من عند خادم وخادمة . وقد شاهدت رئيس اطباء المستشفى
غير مرة ينصب الحبال على سطحه وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة
ومتى نشفت الثياب حلوا الحبال ووضعوها في محل مصون ورايت ايضا بعض
القناصل ينصب رايتهم ببيك . والفقراء منهم لا يوقدون سراجا في الليالي
المقمرة واكثر الرجال يسهلون مصروفهم بيد نسائهم حتى انهم يحتاجون
بعدها الى ان يطلبوا منهم ثمن التبغ ونحوه . وجميع نسائهم مقصودات
ونشيطات الى العمل وقل منهم من تتعاطى التجارة * ومن طبعهم جلّة
وتفصيلا الفصول والتلهي بالاسفاف من القول والعمل فاذا اكب احد مثلا
لالتقاط شيء من الارض ازدحت عليه زمرو ولا يزال احدهم يجري من جهة
واخر من اخرى حتى تنص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشيء
يحدث اياما حتى يجد غيره ومتى جرى امر عرفت اصله ومبداه وغايته

من الجائنين والذاهبين ولا يد لكل من طغاهم ان يقص قبل رقوده كل ما جرى له اثناء النهار وربما اخبر به غير مرة وزور ورقش حتى يخال نفسه بعد ذلك صادقا وان يتطلع وهو سائر في الطريق على كل من يمر به فتراه كأنما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال . وكثير منهم دأبهم الحضور في المحكمة لاستماع الدعاوي فاذا خرجوا بشوها في كل موضع . ولا يمكن ان ينقلوا حديثا الا ويزيدون فيه فاذا لم يعين انسان قذى قال انه عمي ويدهون الرجل بان يقولوا له قد راينا زوجتك تنظر من الشباك او تحدث فلانا او فلانة ويقولون المرأة في حق زوجها مثل ذلك . واذا اشترت من احدهم شيئا يجبر اهلك به ومتى راوا غريبا نظروا اليه متفريسين وتنصتوا لاستماع كلامه ليعرفوا باي لغة يتكلم ويصفون حاله في وجهه بان يقول احدهم للآخر « هذا الرجل من بلد كذا وقد اطال المكث هنا ولعله لا يمكث بعد فانه كان اولاً سليماً وكأنه الآن مريض » فيقول الآخر « والى اين يذهب امساء يجعد بلدا خيرا من بلدنا وقد صار مقصد الواردين والصادرين » وربما دعت احدى النساء صواحبها لرويته وهي تلکهن وتومي اليه . ولا تكاد تتخاطب احدا في الطريق الا وترى زمرة قد احدثت بك ولا يكاد احد ياتي امرا الا وتناقله الرواة . ويسيتون الظن في متزوج عاشر عزبا او في مزب دخل دار متزوج ولا غرو فان هذا شأن من لا يرى في بلده شيئا يشغل الخاطر من الامور الخطيرة ويكون محصورا في صخرة قرعاء راسبة في البحر فان حصر الفطن يكون من حصر العطن * ومن طبعهم التكشف وبث ما هم فيه من الاحوال والاستقصاء عن حال المخاطب فاذا صحبت منهم احدا لا يلبث ان يطلعك على كمية دخله وخرجه وكيفية عمله ويقول « ليت لي مالا فاتعم به ولو كنت من المشرين لاكلت اطاييب الماكول ولبست افخر الملبوس فيا سعد من عاش عيش الترفهين فاخبرني انت ما دخلك وكيف عيشك ومن اين تشتري ثيابك وحاجتك ومن يزورك » وهلم جرا * فاما حبهم لكسب المال فهو بحيث لم يغادر لشيء سواه قيمة ومنهم من يسافر الى البلاد الشاسعة ويعرض نفسه للامتهان والابتذال حتى

إذا أحرز المال رجع إلى وطنه متبذخا متشبعاً يبرح في الأسواق مروح من
أزدهته النعمة وبطوره الحظ . ولا شيء يعجبهم في الدنيا مثل بلادهم ولا تزال
تسمعهم يتجسسون بها وبأحوالها وإذا سألت أحدا منهم عنها أجابك بلسان
ذلق عما كانت عليه من الغبطة والسعادة وعالت إليه من سوء الحظ وهم
في محبتها كاليهود في محبة صهيون . ومن الغريب مع هذا التفاخر أنك إذا
ذكرت لأحدهم أفراد قومه لم تلقه راضيا عن أحد منهم فأول نعت ينعت
به قوله « هو ابله » أو « هو شحيح » فكان قوله « نحن المالطيون شائنا كذا »
يريد به وحدة نفسه . أما مفاخرتهم بالالقب فأكسى لهم من اللباس فقل
أن ترى أحدا منهم ممن يقرأ ويكتب إلّا وله لقب طيب أو فقيه أو
« بارون » أو « مركيز » أو « دتور » (١٣) على أنهم لا يملكون به مسكة من
العيش . ومن طبعهم التعقب للزلات والتعنت والاعتياب فيتعقبون الناس
في مشيتهم ولبستهم ولمحبتهم وسحتهم فلا يكاد يعجبهم شيء وما من خصلة
حيدة إلّا ويجعلونها قبحة فإذا كان الإنسان كريما قالوا أنه مبذوران كان
مقتصدا قالوا أنه شحيح . ولا يبرحون مبررين على الانكليز ومتظلمين منهم
ويدعون بانهم من بعد قدومهم إلى جزيرتهم ضاقت عليهم مذاهب المعيشة
وغلّت الأسعار حتى اضطروا إلى أن يهاجروا من بلادهم التي يصفونها بانها
حينئذ مع أن لدولة الانكليز في هذه الجزيرة عدة سفائن حربية نفقة كل
منها في اليوم نحو مائتي ليرة وترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة
ويدخلون أخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم حتى صار معلوما عند الجميع
أن الأسعار انما تغلوا بوجود هذه السفن ثم إذا سافرت أخذ الذين الفوا البيع
لها في الدمدمة والتسخط من كساد ما عندهم فإن الأهلين كلهم لا ينفقون
ما تنفق سفينة واحدة منها . هذا وإن الانكليز قد أنشأوا فيها جلة مصالح ومعالم
لم تكن للمالطيين في حسابان فقد كان بعض اصحابي بالاسكندرية كلفني
بان اسأل ناظر الديوان عن تركة والدك وقد توفي بمالطة وهل كان تحت
حماية الانكليز أو لا فلما سألته أجابني بعد البحث بان ديوان مالطة قبل
قدوم الانكليز لم يكن له دفاتر صحيحة يرجع إليها وإنما كانت عبارة من

اوراق يومية غير منظومة على ان المالمطين انفسهم يقررون بان حكامهم في
 القديم كانوا يتالون من عرضهم لانهم كانوا قد حرموا الزواج على انفسهم حتى
 انه تجتمع في دار معدة للنفل نحو الف ولد يزن في كونهم اولادهم فكانوا
 يقولون فيهم انهم على قسيسين يورون بذلك ان الحكام المتشبهين بالقسيسين
 يكفلونهم لكونهم اباؤهم او ان الاولاد يصيرون قسيسين ولكن داب اهل
 الجهالة ان يستطيعوا الماضي على الحاضر ويطمعوا في ان الاتي يكون خيرا
 منها * ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيما العرب ولن يقدر احد ان
 يستخلص منهم شيئا وما يكون له بين ظهرانهم صديق الا اذا كان يربي
 جرو كلب . ولعمري لو ان مالطيا افترى على غريب وخاصمه لثالبوا على
 الغريب من كل ارب من دون ان يعطوا السب . وهم مائلون بالطبع الى
 البطش والقتل وان كثيرا منهم لا يمشون الا ومعهم سكاكين يخفونها في
 ثيابهم . ومدخل العتاب بينهم مسدود فلول سبهم قولهم « يحرق دين
 القديس تبعك » ومن جهلهم انهم لا يفهمون ما المراد بالدين هنا فان مراده
 عندهم في غير السب منقول من الطلياني والظاهر ان المسلمين حين ولايتهم
 عليهم كانوا يتلقونهم بهذه التحية فتداولوها هم من بعدهم . ومنهم قوم يتنصتون
 الى ما يجرى بين المرء وصاحبه او زوجته من الحديث فاذا صح لهم جر
 منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فورا واختلقوا عليه اكدوبة . وللمالمطين
 جميعا لهجة واحدة واشارات واحدة فالرجال اذا وقفوا يهزون افخاذهم من
 الورك الى القدم واذا وصفوا احدا بالكحول رفعوا السبابة وامالوها يمينا وشمالا
 واذا اشاروا الى امر معتدل سوي رفعوا الكف اليمنى ورجفوها واذا ارادوا
 الكثرة ضمو الاصابع على الابهام وحركوها عليه واذا ارادوا النفي امرو الانامل
 من تحت الذقن واذا اشاروا الى حسن امرأة جعوا الكف وامروها على
 الصدغ اشارة الى تعجيد لسوالفها واذا ارادوا وصف شي بالطيبة ارخوا اليد
 اليمنى ونفضوها مرات واذا سالوا الرجل عن زوجته قالوا له « كيف المرة »
 واذا زار احدهم صاحبه فاول ما يحيي به صاحب المنزل ويجعل تحية
 الست الاخيرة واذا ذكروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه واذا اوقدوا

المصباح في المساء قالوا تحية المساء والفلاحون لا يصرحون بعدد سني سنهم فيقولون مثلا اربعون وعشرة ولعل ذلك واصل اليهم من اليهود فان العدد عندهم فيما اعلمه مكروه . ومن العجب هنا ان الناس يحبون التكاثر في كل شيء حتى في القبائح والزنايل إلا في العمر ولا يتحاشى احدهم اذا زارك ان يجي مع يواحد او اثنين جريا على عادة العرب ويبادرون الى تهنيئة النفساء حال وضعها وتزدهم عليها الجيرة حتى العذارى وتاتي اصحاب الالات ويعرفون امام البيت وهي آخذة في الطلق ويضاطون عندها كما يضاطون في الاعراس . اما تحمسهم في الديانة ففوق تحمس اهل ارلاندة وقد مر بك عدد الكنائس والقسيسين وثروتهم وملابسهم الكنائسية . وكما ان اهل ارلاندة يسكرون ويفحشون في عيد صان باطرك كذلك المالطيون يسكرون ويفحشون في عيد صان باولو بل في سائر الاعياد . واذا استاجر مالطي دارا كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها إلا اذا رش عليها القسيس المساء المبارك وكذا لو انتقل مثلا مركب ونحوه من ملك مسلم او انكليزي فلا بد وان يعمد وهم يعمدون ايضا اجراس الكنيسة جميعها وكذا الاجراس الصغيرة التي ينقش بها امام القربان ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء مما عرف بالاشابين . وقد عمدوا مرة جرسا في كنيسة صان باولو وكان كفيه الحاكم وزوجته لكونه كان كاتوليكي . ويقولون ان دعوة الجرس مستجابة فاول ما يحدث رعد او برق يبادرون الى الضرب بها . ويعمدون المولود من اول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهرير ولا بد من ان يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت . ومن يقف ينظر الى القربان وهم طائفون به من دون ان يسجد له فقد عرض نفسه للخطر وقيل انهم قتلوا مرة رجلا من بحرية الانكليز وكان قد مر بهم ولم يسجد له فتناولوه ضربا وخزوا فحمل قتيل . ومرة اخرى وقف بهم احد ضباط العسكر وظل واقفا فهم عليه قسيس ورمى بغطاء راسه فشكاه للحاكم فاخبر الحاكم الاسقف بذلك فحبس القسيس في دارة مدة ثم اطلقه فذهب القسيس الى رومية فاكرمه البابا واعاده الى الاسقف وامره بلاء درجته فلما بلغ الحاكم ذلك نفاه من البلد . ويقولون ان شكل

الضليب مخاوق في جثة كل انسان وذلك بان يسط يديه وهو رافع رأسه وان اسم مريم العذراء مرسوم ايضا في كل كفى فان خطوط الكف لاصليته تشبه حرف الميم باللاتينية ونحو من «هذا ما وجدت فيه بعض الكتب العربية من ان اسم النبي صلعم مكتوب في كل جثة فان الميم تشبه الراس والحماء تشبه الصدر والميم تشبه الصرة والدال تشبه الساق * وفي ايام الصيام وفي يومي الاربعاء والسبت لا تصرح باعة الحليب باسم ما يبيعونه وانما يقولون «هون تا الابيض» ولفظة «تا» محرفة عن متاع بمعنى مناحب كما يستعملها اهل تونس وطرابلس . وفي غير هك الايام يقولون «حليب» ومع شدة تحمسهم هذا فانهم يبيعون ويشتررون ايام الاحاد والاعياد كما في غيرها والدين منهم من يفتح فيها دكانه الى الظهر فقط . وقد رايت كثيرا من مدن ايطالية ولم ار فيها تماثيل عديدة في الطريق كما يروى في مدينة فاليتة . وقد كانت هك التماثيل في الزمن القديم ملاذا يعتمص به اهل الجنايات فكان القاتل اذا قر وطى تحت تمثال منها ينجو من قصاص الشرع وقد بطلت الان هك العادة . وينبغي هنا ان نذكر ان المالطيين يانغون من ان يطلقوا اسم النصارى على الانكليز واذا تزوج انكليزي مالطية على يد قسيس انكليزي فان زواجه غير شرعي *

فصل

في الانكليز وحكومتهم بمالطة

لما كانت هك الصخرة البحرية عزيزة على الانكليز لموقعها في بحر الروم كما لا يخفى كان لهم في حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما لم يكن في بلادهم ويمكن ان يقال ان الحكم هنا مالطي وان يكن الحاكم انكليزيا فان القضاة وفقهاء الشرع وكتاب الصنوك والمتوظفين في الدواوين وشروطه الديوان جميعهم مالطيون وليس على الناس مكس ولا ضريبة ولا يدفع مكس في ديوان المكس إلا على الخنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جدا . ومن اقتنى مركبا او خيلا او استخدم خدمة فلا يودي على ذلك شيئا وكذا الذين يبيعون بقول الارض وثمرها وليس لخزنة الدولة من ايزاد هك الجزيرة ولا

فلس واحد وانما يصرف جميعه في لوازمها وجلته تبلغ تقريبا مائة واربعة
آلاف ومائتي ليرة وتفصلها من ديوان المكس نحو خمسة وستين الفا
وسبعمائة ومن الدكاكين الف وستمائة ومن المحاكم الفان وسبعمائة
ومن المولك اي بسطة الكنايب مائة وثمانون ومن تقييد الصكوك مائة
وثلاثون ومن خراج الارض ثلثة وعشرون الفا وسبعمائة ومن المزداد مائتان
ومن المعتزل اي الكرنينة ثلثة آلاف وثلثمائة وخمسون ومن المراكب
ثلثة آلاف وتسعمائة ومن مصالح اخر الف وسبعمائة * يصرف منها مرتب
وطائف وسنويات ثلثة واربعون الفا للمحاكم منها خمسة آلاف ولجديته
اربعمائة ولكاتب سره وهو من الانكليز الف وللكتاب الثاني خمسمائة ولناظر
الخزنة ثلثمائة وخمسون ول مدير الحسابات ستمائة ولستوفي الاموال خمسمائة
ولناظر ديوان المكس مثلها وكبير القضاة ستمائة وكبير الشرطة اربعمائة
وخمسون ولناظر المرسى اربعمائة ولناظر المعتزل ثلثمائة ولقيس المحاكم
خمسمائة ولاسقف مالطة الفان والمصروف على المستشفيات وغيرها من
الافعال الخيرية اربعة آلاف واربعمائة وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدم
ذكرها الفان وسبعمائة وعلى المرتزقين والمتقاعدين ثلثة عشر الفا ومائتان
وخمسون * اما مصاريق عسكر الانكليز وهم ثلث كئائب فمن خزنة الدولة
وللعسكري في اليوم نحو شلين . ويقال ان ايراد مالطة منقسم الى ثلثة
اثلث الثلث الاول للميري والثاني للكنائس من الوقف والتسبيل والثالث
للاصحاب الاملاك * فقد تبين لك رفق دولة الانكليز بحمال المالطين
جبر ولو ان جزيرتهم كانت اكبر مما هي لان بمائة مرة لما كان ايرادها
كله مكافئا لمكس صنف واحد في انكلتيرة . وحسبك ان مكس الملط (١٤)
وحل هناك ينيف على خمسة ملايين ليرة * ومن تساهلهم معهم انهم يرخصون
لهم في التطواف بالقربان وتمائيل القديسين سواء كانت من خشب او
جن او غير ذلك مع انه مغاير لعقائد كنيسة الانكليز لا بل يطوف معهم
جوقة من العسكر وهم عازفون بالآلات الطرب امام التمثال ولا غرو فان
الدولة فرضت لهنم في بلاد الهند اسمهم جوجرنوت ستة وخمسين الف

روبية وهي عبارة عن ستة وعشرين الف ريال وغيرها ايضا من الاصنام
مرتب وافر ولكهان الهند وظائف يرتزقونها من الديوان في كل عام * قيل
ويوجد في الهند نحو اربعة عشر الفا وثمانمائة وواحد وخمسين محلا مخصوصا
لعبادة الهنود يبلغ مصروفها من طرف الدولة نحو خمسة وثلاثين الف ليرة
وقد صرف مرة على اقامة عيد من اعيادهم اربعم الف روبية معما لزم
لهيكل الصنم (١٥) . وفي هذه الاعياد الكبار تطلق المدافع من السفن والقلاع
ويمشي امام الصنم طائفة العازفين من الجيش . وفي ميد القاء جوز الكوكو
في نهر الهند ينزل ذوا الامر والحكم من الدولة ويأخذونه من الكهنة
بعد ان يصلى عليه ثم يلقونه في النهر وحينئذ تنشر السفن راياتها المتلوثة
وتطلق المدافع منها ومن الابراج وكذلك يفعلون في الالهة اظهارا لشعائر
الاسلام . وكل ذلك دليل على ان الدولة لا تتبالي بعبادة المذاهب والاديان
في ممالكها اذا كانت هذه الاديان غير مانعة من اداء ما يلزم ادوة للخزنة
من المال وللشاج من الطاعة . وقد حاول مرة حاكم مالطة وكان على
مذهب البروتستانت ان يبطل عادة المسخرة يوم الاحد في المرفع على ما تقدم
ذكره فان الانكليز يحترمون هذا اليوم غاية الاحترام كما ستعرفه واذا
بالمالطيين جميعهم تالبوا عليه وماجوا يطوفون وهم يسبونهم ويقبحون عليه
بالقاب سحجة واشارات منكرة حتى ان بعضهم حاكاه في زيهم وهيتته وجعل
على راسه قرونا . ثم احدثوا بكنيسة الانكليز وهم عاكفون على العبادة وزاد
صخبهم ولغظهم هناك حتى لم يسع الحاكم وحشمه غير الفرار الى حديثته
خارج المدينة وما زالوا منذ ذلك الحين ياحفون في طلب حاكم من مذهبهم
حتى صدر امر من الدولة بعزل الحاكم المذكور فجاءهم حاكم من اهل
ارلاندة اكثر تحمسا منهم وهو الذي وقف شاهدا على معمودية الجرس *
ومن سنن الانكليز في بلادهم ان تغلق جميع المحوانيت في يوم الاحد إلا
دكاكين العقاقيرية والمحانات التي تباع فيها المجعة والشراب إلا ان هذه تغلق
ايضا عند اقامة الصلوة فاما في مالطة فلا حرج على احد منهم ان يبيع
ويشتري فيه اي شيء كان ثم انني لست ممن يتصدون الى تبديل القوانين

والاحكام ولا ممن يتحشرون بالاحكام مخافة ان يعزلوني عن ولاية فلمي
ولا يتأتى لرجل مثلي ان يصلح شريعة دولة قديمة ولا سيما شريعة الانكليز
فانها عندهم لا تقبل التبديل والتخريف وكل عادة من عاداتهم تقوم مقام
سنة إلا ان بيداء اصولهم واحكامهم تظهر لبصري الكليل القاصر في غاية
البعد عن الادراك اما اولاً فلان قصاص كثير من الاسآت والجنايات يقتدى
عندهم بغرامة الميري فاذا افتري مثلاً لثيم على كريمة ولطمه بحضرة الناس
او هتر عرضه غرم شيئاً من الدراهم للخرزنة وخرج من بين يدي القاضي
على اشر خلق مما كان عليه فتكون مصاحبة المحاكم على هذا ازدياد الخصل
والشر بين الناس لان خيرهم انما هو من شر الطغام . فياليت شعري ما
نفع الكريم بعد ان يسب ويفتري عليه ان يرى غريمه . موديا للميري ثمن
عرضه وشرفه ؟ وكيف تصح التسوية بين العباد والله تعالى لم يسو بينهم
بل فضل بعضهم على بعض فجعل اللثام يذلون ماء وجوههم ويمتحنون انفسهم
في تحصيل معيشتهم وجعل ذوي الادب والعرض ينزهون انفسهم عن الشين
والمنكر ؟ فهل من العدل ان لا يجعل بينهما فرق في الاحكام والمعاملة ؟
والأ لزم ان نقول ان من يساوي بينهما وهو الحاكم ينبغي ان يكون مساويا
لن من فرض عليه الحكم . فلو تعدد رجل مثلاً للطم الحاكم على وجهه وهو
جالس على كرسي الحكم افعساة كان يغرم درهيمات لخرزنة الدولة ؟ وهل
من العدل ان ترى لثيماً ينازع كريماً على شيء هو اذنى من ان يخطر بباله
نعم تصح التسوية بين غريمين تجهل حالهما فاما الحاكم الشرعي الذي
يعرف بلاده ويخبر فاضلهم من مفضلهم فلا ينبغي له ان يسوى بين كل
مدع ومدعى عليه كما انه لا ينبغي ان يوزن الذهب في ميزان الخشب
وقضلا عن ذلك فان من ضرب مثلاً مرة لا يصح ان يخبرى عليه حكم من
دابه وديدنه الصرب والأ لزم ان نقول ان اهل اللغة اعتل واحكم من اهل
الشرع حيث فرقوا بين الضارب والضروب والضروب . هذا ولما كان الظاهر
من حكم الانكليز انه مبني على التسوية كانت الاوباش من اهل مالطة
مثل اهل الفصل منهم في انه لا يقبل للفصل كلام على المنحول ولا ينصل

بين اللئيم والكريم منهم غير اليهود وان كان اللئيم معروفا بلومه وذائله وربما طلبت باعة المأكولات في شيء قيمته درهم عشرة دراهم فلا يمكن للمشتري ان يعارضهم بشيء واذا ابى ان يشتري لم يخل من تناول البائع عليه وقس على ذلك اصحاب القوارب والحمالين وغيرهم من السفلة فاي انصاف هنا ان يرخص لهؤلاء في هذا التعدي والطغيان ثم يقال ان ذلك تسوية ؟ ثم اي انصاف ان يرخص للباعة في ان يخطوا المواتع وان يضعوا السمك واللحم الذي نشم في الحموم في الثلج حتى يتطرى وفي ان يشيعوا الفج من الاثمار وان يجعلوا سعر الشيء الواحد متفاوتا على قدر تفاوت الساعات وان تطوف السكارى في الأسواق ضاجين زانطين بالغباء واللفظ ثم يقال ان ذلك حرية ؟ لعربي ان المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية لان الحرية انما تكون جيدة مفيدة ما اذا روعي فيها مصلحة عمومية على اخرى خصوصية لا بالعكس . الا وتبا حرية تفصي الى تسويد اللئيم على الكريم . وهذا الفساد الحاصل في البيع والشراء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سنذكره في محله وسببه انه لما كان ذوا الاحكام هنا وهناك لا ياكلون سوى اطيب المأكول ولا يشربون سوى افخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور وطبوا ان سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله * ومن فساد الاحكام هنا ايضا انه اذا كان لاحد حق على آخر واراد سجنه لزمه ان يقوم بموته وان يكن المدينون لصا او متعديا وكان الحق عادلا فاصلا . ولا يخفى ان في ذلك خطرا للثقة والائتمان لان حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئا وان السجن لكثير من الاشقياء الناحيس خير لهم من خصاصهم . ولما كان هؤلاء السفلة مفرطين في القبايح والشرور على ما ذكرنا كان من اهم الاشياء على الحر ان يتجنبهم ما امكن وليس عليه ان يحترز من الاعيان وذوي الامر والنهي فانهم لا يتناولون على احد لما يعلمون من قضية التسوية بخلاف العادة في البلاد الشرقية فان اصحاب المناصب هم الذين يخشى باسهم وشرمهم . ومن فساد الاحكام ايضا ان القضاة تقبل شهادة اي شاهد كان سواء كان سكيما او شريفا . كذا شهادة النساء والاولاد مقبولة فتي قبل الشاهد الصليب

فصحت شهادته ولا تكليز يحلفون على الانجيل (١٦) . ومتى اقيمت دعوى
 حشد الناس لاستماعها وان تكن من الامور التي كتبها اولى من اذاعتها
 وهنا ايضا انكر التسوية لانهم اذا حدث مثلا امر مرة بين والد وولده او
 رجل وامرأته وكانوا من ذوي الفضل وافضى ذلك الى التحاكم لا ينبغي
 ان يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بانه سرقه او بشتبه . ثم ان من
 الاصول المقررة عند الانكليز ان كل من يدخل ارضا تحت حكومتهم يصير
 حرا وتجري عليه احكامهم . وقد جاء مالطة كثير ممن كان لهم عبيد واماء
 فاجبروا على تحرير رقيقهم . ومن يقسم خمس عشرة سنة ويعلم انه كان في
 خلال ذلك حسن التصرف والساوك حق له ان يطلب الحماية الجنسية
 ولكن يلزمه اداء نحو عشرين ليرة وهذه الحماية هي انفع من حاية الانكليز
 التي تغطي من بلادهم كما سنبين ذلك . وللاحكام عشرة مشيرين من
 اعيان الاهلين يشاورهم في المصالح العائدة الى بلادهم . وفي كل خمس سنين
 يعزل وربما اقام اكثر اذا طلبت الرعية ذلك . وفي قصرة ستة عشر الف
 بندقية (مكحلة) وعشرون الف مزارق واربعه الاف درع والفا غادرية اي
 طينجة * اما اخلاق الانكليز هنا فهي مغايرة لاخلاق جنسهم في بلادهم فلا
 يصح لمن رآهم ان يحكم بان جميع الانكليز مثلهم فان هؤلاء متكبرون صلفون
 مع البخل والشح - وبش الكبر والشح اذا اجتماعا - وما احد منهم الا ويظن
 بانه هو فاتح هذه الجزيرة بياسه وسيفه ولا سيما ضباط العسكر فانهم على قنة
 الصلف والتبذخ . واذا دخلت على احد من هؤلاء الفاتحين وهو ياكل فلا
 يتكلف ان يدعوك الى طعامه بل ربما غضب على جميع اهل دارة على عدم
 منعهم اتيك من الدخول كما قلت

اذا زرت ارحبهم دارة * توهم غولا قد اغتلاها
 يفلق ابوابه ان نوى * فطورا ويحكم افعالها
 ومن كان فيهم له خادم * يظن المعالي قد طالها
 اذا تشبوا كرسينه * وبشك من زوجه حالها
 يرى انه محسن مفضل * وان الماثر قد نالها

واذا زرتهم واقمت عنده الى وقت غدائه وارادت الذهاب فلا يدعوك الى
الطعام معه . ومن طبعهم حب الانفراد والعزلة فان احدهم ربما اقام شهرا
تاما من دون مشاهدة الناس استغناء عنهم بروية ما عنك من فاخر المتاع وبقراءة
صحف الاخبار . اما عندنا فالأخبار لا تعرف إلا بالنقل والرواية فلم يكن
لنا بد من الاجتماع ليلا . ومن سوء ادب بعضهم هنا انهم يجعلون في اعناقهم
شريطة فيها زجاجة فكلما لمحوا امرأة قرعوا الى الزجاجة ليستبثوها بها .
وفي ليالى الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدة زيرة وهو ناظر الى
ذلك بعين شكرى من الابتهاج ولا سيما حين يخاصرونها . وكما ان الرجال
هنا ليسوا براموز حسن على اهل انكليزية كذلك كانت النساء مخالقات لمن
في بلادهن فانهن هنا بمعزل عن الحسن والجمال واكثرهن فقم وشوة . ومن
الغريب انه مع ترفهن وركوبهن الخيل في كل يوم غالبا فلس يرى فيهن
بادنة ولا فضيلة لهن إلا في كونهن يحسن القراءة والكتابة ويوسن العلم
في اولادهن على صغر . فان الولد لا يبلغ هنا خمس سنين إلا ويكون قادرا
على القراءة اما عندنا فيذهب سن الصبا باطلا فمتى اخذ بعد ذلك في التعلم
وجده بعيدا المأخذ صعب المرتقى . واشهد لو ان نساء بلادنا يترشحن في
المعارف على صغر لفصلن نساء جميع الافرنج فضلا باهرا فانهن ارق اذهانا
واسرع فهما . والحاصل ان الانكليز هنا رجالا ونساء ليسوا من خيرة بلادهم
وان كبرهم وعثوم وجشعهم جعلهم مبغضين عند جميع المالطين فما من مالطي
تسبح له فرصة لاذى انكليزي إلا وينتهزها . فاما المتوظفون منهم في خدمة
الدولة فانما هم راضون عن اصحاب السياسة لا عن افراد الانكليز المجاورين لهم *

فصل

في موسيقى اهل مالطة وغيرهم

قبل الدخول في هذا الباب المحرج ينبغي ان استاذن اصحاب اهل
الفن في التطفل على هذا التكر وان كنت لا اعد من جلتهم غير اني علمت
منه ما يمكنني ان اعرف المستقيم منه من غير المستقيم فاقول قال بعض
الفلاسفة ان فن الموسيقى فضلة من المنطق اخرجها العقل بالصوت لما لم

يمكن اخراجها بالقياس فن اول المنطق بالاصطلاحى قال معناه ان اركان
هذا الفن ذهنية بناء على ان المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع والذوق فيرسم
السامع ما يسمعه من الاصوات في مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله
وهكذا يتلقاه التلميذ عن معلمه بالتروسم عن طهر القلب والاتباع مع الملكة
التي ترسخ في مخيلته تلك الترجيعات ولهذا كان المعول عليه في تحصيل
هذا الفن ملكة الذوق . اما لافرنج فقد جعلوا الان ترجيع الصوت وايقاهه
داخلا تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش ورسم معلومة كما دلت
الحروف على المعاني فلم يكن تحصيله متوقفا على ذاكرة وعظيم معاناة كما
في السابق . فمن كان منهم عارفا بخارج النغم وراى تلك العلامات امكن
له ان يخرج عليها اي صوت كان من دون ان تتقدم له سابقة فيه واذا
اجتمع منهم عشرون رجلا وكانت امامهم تلك النقوش رايت منهم متابعة
واحدة . ويرد على هذا التاويل انه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق
لكانت واحدة للاستعمال كما ان المنطق واحد الصواب على ان الناس يتفاريون
فيها تفايرا شديدا . فان الحسان العرب لا تطرب غيرهم بل هؤلاء ايضا
مختلفون فان اهل مصر لا يطربون لالحان اهل الشام والحن لافرنج لا
تطرب احدا من هؤلاء . وعلى تاويل المنطق بالمعنى اللغوي وهو المراد هنا
فقد جاء في شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتادبيين ابن نباتة ما
نصه : « النغم فصل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على اخراجه فاستخرجته
الطبيعة بالالحان على الترجيع لا على التقطيع فلما طهر عشقته وحسن اليه
القلب . . اه . والمراد بالترجيع لا التقطيع ان يكون الصوت متندا ينحى
به لا متقطعا كاصوات الهجاء . فاذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة من
المنطق على هذا التاويل لزم ان نقول ان لكل جيل من الناس محاسن في
الفناء متصورة عليهم فقط فان لكل لغة محاسن وعبرة لا توجد في غيرها والواقع
بمخلاف ذلك فان لغتي الصين والهند مثلا تشتملان على محسنات لا توجد
في غيرها الا ان انغامهم خالية من ذلك . اما الحان لافرنج فلا يطرب لها
منا الا سن الفها وهي عندهم على اربعة انواع الاول وهو احسنها ما يتغنى به

في الملهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعة وخفصه ورفعها وترقيعه وتقخيمه وترجيغه وفيه تدخل حاسة وتحريض وتذمير . والثاني وهو يشبه ما يرتل به في الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيف . والثالث ما يغنى به في المحزنات والبث وفي هذا النوع يستعملون غناء رقيقا اشبه بالنجوى فمن يسمعه يلحن ما المراد به وان يكن جاهلا باللغة كما اذا رايت شخصا يجهاش للبكاء فانك تعلم اجهاشه بالبديهة وان لم تعرف سببه . والرابع ما يغنى به في المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وتطريه انما هو من حيث انهم يصلونه باشياء كثيرة وحركات مضحكة فيضحكون فيه ويقهقهون ويكون ويتشأبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها . وفي كل من هك الانواع يستعملون المساجلة وهي مطربة جدا واكثرها في النوع الاخير ويوفقون عليه الفاظا مولدة غريبة . وكما ان لهم غناء مضحكا كذلك لهم رقص يحمل الشكلى على القهقهة . اما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشج - والسيكاه يفرح والصباء والبيات يحزنان والحجازي ينعش وينفش وهلم جرا . والفرق بين الفريقين من عدة وجوه احدها ان لافرنج ليس لهم صوت مطلق للانشاد من دون تنقييد بتلك النقوش فلو اقترحت على احدهم مثلا ان يغنى بيتين ارتجالا كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات لما قدر وهو غريب بالنسبة الى براعتهم في هذا الفن لان الانشاد على هذا النوع طبعي وقد كان عندهم من قبل ان تكون النقوش والعلامات فياليت شعري كيف كانوا ينشدون قبل ان نبغ غويدو داريتسو في ايطاليا (١٧) . الثاني انه اذا اجتمع من م عشرة مغنين وارادوا اخراج موشح اخذ بعضهم في بعض اركان من مقام وبعض في البعض الاخر من مقام غيره فان كانت لاغنية مثلا من الرصد غنى واحد جزءا من هذا المقام بصوت جهير وآخر جزءا من النوى بصوت رقيق وآخر جزءا من الجواب بصوت عال فيسمعه السامع من عدة مقامات ويسمى ذلك عندهم « هرمني » اي ان الاصوات تتالف على الغناء . وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر . اما الفوائد فلان السامع يسمع في وقت واحد موشحا واحدا

من عدة مقامات باصوات مختلفة فهو يصنع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض . واما المخاسر فلان السمع لا يتمكن كل التمكن من ادراك جميع مخارج تلك الاصوات المتغايرة . وهذا الطريقة عندي على اللالات احسن منها على الاصوات . الثالث ان مناء الافرنج هو مثل قراءتهم في انه لا يخلو من حاسة وتهميج فضلا عن التشويق والتطريب والترقيص . ففساء الحماسة والتهميج هو الذي يكون به ذكر القتال واخذ الثار والذب عن الحقيقة فاذا سمعه الجبان ولا سيما من اللالات العسكرية هانت عليه روحه اما الفناء العربي فكله تشويق وغرامى واجدر به ان يكون جامعاً لمعنى الطرب وهو خفة تصيب الانسان من فرح او حزن . فاذا سمع احد منا صوتاً او آت شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنّت نفسه كما يحسن الالف الى الفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحاً . ولا غرو ان يعد منه الزفرات واذرف العبرات فان السرور اذا تنافق امره وتكامل بدوره دب فيه محاق الشجن واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد ويشتعل بنار من الهيام وعلى ذلك ورد قولهم طربه وشجاء من الاصداد . الرابع ان الافرنج لا يفرار لاصواتهم الا على الرصد . نعم ان جميع الانغام يوجد لها مقامات في آلاتهم بل توجد انصافها وارباعها الا مقامين منها لا انصاف لهما الا انهم لا يعرفون الا على المقام الاول . وقد سمعت منهم الرهاوي والبوسليك والاصفهانى اما غيرها فلم اسمعه قط بل قد سمعت منهم بعض اغاني من اغانينا اوقعوها على آلاتهم فكانت كلها رصداً . وقد والله طالما وقفت السمع على ان اسمع منهم انغامنا فخبث حتى اعترتني الحيرة فاني من جهة كنت ارى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها وافكر في ان العلم انهم اليهم والفنون قصرت عليهم وان عندهم في هذا الفن بدائع كثيرة فاتتنا على ما سبق ذكره ومن جهة اخرى ارى ان براعتهم كلها انما هي من مقام الرصد . نعم ان هذا المقام هو اول المقامات وانه يعنى منه في مصر وتونس اكثر مما يعنى من غيره الا ان فضل الصبا والبيات والحجاري لا ينكر ايضاً . ثم اعود فاقول لا غرو ان يكون قد فاتهم ايضاً بدائع في هذا

الفن كما فاتهم في غيره اشياء اخرى وذلك ككثرة بجموع العروس عندنا
وكبعض محسنات الكلام والسجع في الكلام المتشور اذ ليس عندهم سوى المنظم
وهو في الانشاء كالصوت المطلق في الغناء فان السجع مقدم على النظم
وكمعجزهم ايضا من لفظ لاحرف الحلقية . وقد سالت مرة احد اهل الفن
منهم فقلت ان المقامات موجودة عندكم وعندنا على حد سوى وكذا انصافها
فبقى الكلام على استعمالها فاننا لو استعملنا مثلا نصفنا من الانصاف مع مقامه
وانتم تستعملونه مع مقام اخر بحيث يظهر لنا انه خروج فمن اين تعلم
الحقيقة؟ فما كان منه الا ان قال ان هذا الفن قد وضع عندهم على اصول
هندسية لا يمكن خرمها فلا يصح ان يستعمل مقام الا مع مقام آخر . على
اني كثيرا ما سمعت منهم خروجا فاحشا على شغفي بالحنانهم . وقد شاقني
يوما وصف المادحين في سماع قينة بلغ من صيتها انها غت في مجلس
سلطان الروس فلما سمعتها طربت لزحامة صوتها وطول نفسها في الغناء
الا اني سمعت منها خروجا بحسب ما وصل اليه ادراكي . ولو تيقن ان
الحنان الروم التي يرنلون بها اليوم في كنائسهم هي كما كان يتفنى به في ايام
الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على قصور الحنان للفرنجة فان
انقام الروم مقاربة لانغامنا . الخامس ان اكثر اصحاب الآلات عندهم لا
يحسنون اخراج انصاف النغم وارباعها ما لم تكن مرسومة لهم في الآلة
الا صاحب الكمنجة . فاما الناي ففيه خروج شقي غير السبعة لكل اثنين
منهما طباقا اذا سد منها منخر جاش منخر غير ان الصنعة في احكام سدها
واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الاصابع عندنا . وهذا الانصاف والارباع
في النغم مثل الروم والاشمام في النحو . وفي الجملة فان للفرنجة حركات
في هذا الفن خارجة عن ذوقنا واخرى لا يمكن محاكاةها بها . وما مر
تفصيله علمت ان انشادهم في الحماسة والفخریات غير معروف عندنا وان
مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم . ومن الغريب انه مع كثرة ما عندهم
من الآلات والآلات فقد فاتهم العود على محاسنه والناي من القصب فان
نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا على ان اكثر العلماء قرروا ان اصل الموسيقى مأخوذ

عن صوت الريح في القصب . وقال بعض انه عن صداح الطير وفيه انه
عن خربير الماء وآخرون انه عن اصوات مطارق طوبال قين . واول من
صبط اصول هذا الفن يوبال وذلك في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد وكان اختراع
النابي في سنة ١٥٠٦ . ونسب الى هيجينس (١٨) . وعلى ذكر مطارق القين
فقد ورد في شرح مقامات الحريري في ترجمة الخليل ان اول من استخرج
العروض وحصر اشعار العرب به الخليل بن احمد ابو عبد الرحمان الفراهيدي
الازدي . وكان سببه انه مر بالبصرة في سوق القصارين فسمع الكنديقي
اي المطرقة باصوات مختلفة سمع من دار « دق » وسمع من اخرى « دق دق »
وسمع من اخرى « دق دق » فاعجبه ذلك فقال « والله لاضمن على هذا
المعنى علما غامضا » فوضع العروض على حدود الشعر النج . واشجى آله من
آلات الافرنجية هي « الكنثرتينة » وهي فرع من فروع الارغن ونحوه
من المنفخ يفتح ويطبق وهي من مخترعات ويتسطون (١٩) * ومن المعلوم
انه كلما رقت طباع الناس ولطفت اخلاقهم كانوا الى العاصوة في مصار
الطرب اسبق ولشذا عبيرة انشئ فان المولع بغر المعاني ونكات الكلام لا
يسمع الا لحن الا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به وجدا قبل ان يغير
الغبي بمجرد معرفة كونها غناء ولا سيما اذا كان الانشاد معربا والوقت معجبا
وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدي « تن لم يحركه العود واوتاره
والربيع وارهارة فهو فاسد المزاج بعيد العلاج » * وقال افلاطون « تن حزن
فليسمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خد نورها فاذا سمعت ما
يطربها ويسرها اشتعل منها ما خد » . وقال اسحق بن ابراهيم الموصللي « شر
الفناء والشعر الوسيط لان الاعلى منها يطرب والذني يضحك ويعجب
والوسط فلا يطرب ولا يضحك » اه . ومن الغلط السين ان يقول احد اني لم
اطرب لهذه الا لحن الجملي باللغة فان اصل الطرب انما يكون عن الصوت
لا عن الكلام المتغنى به . اما اهل مالطة فانهم في الفناء مذبذبون حكما في
غيره ايضا فلا هم كالافرنج ولا كالعرب فاحل القرى منهم ليس لهم الا اغاني
قليلة واذا غنوا مطوا اصواتهم مطا فاحشا تنفر السامع منه فمعصاهاتهم للافرنج

هي في اجتماعهم على الرصد والعرب في انهم اذا اجتمع منهم طائفة للفناء لم يخرجوا اصواتهم إلا من مقام واحد ويقوم احدهم ينشد ويرد عليه الباقي . اما الاعيان منهم فانهم يتعلمون الألحان الطليانية . واكثر العيسان بمالطة صنعتهم العزف بالالات فمضى قدم احد من سفر او ولد له ولد او تزوج او عبد ولده او ترقى الى رتبة او كسب مكسبا جزيلا بادروا الى تهنئته . ولا يخفى عنهم شيء مما يحدث في بلدهم ويقال ان احدى بنات الاعيان فحيرت مرة . وكثمت حبلها عن اهلها ثم غابت اياما حتى وضعت ولدها فلما رجعت الى بيتها اقبلت زمرة منهم يعزفون امام الدار فسالهم ابوها ما سبب ذلك فاجابوه بوضع ابنته فظن حينئذ لغيبها . والذي يظهر لي ان الانغام التي كان يتغنى بها في ايام الخلفاء كانت اشبه بغناء المغاربة لان منها بغناء المصارفة واللازمة التي تستعملها المغاربة في غنائهم هي « دي دي » كقول اهل مصر والشام « ياليل » وكقول الترك « امان » وفي القاموس : « ما كان للناس خذآ وضرب اعرابي غلامه . وعص اصابعه فمشى وهو يقول « دي دي دي » اراد يا يدي فسارت الابل على صوته فقال له « الزمنة » وخلع عليه فهذا اصل المخذآء . اه . واسماء الانغام عند المغاربة مخالفة لاسمائها عندنا وهم يزعمون انهم نقلوا هذا الفن عن اهل الاندلس واهل تونس اكثر ترسلا منهم . والظاهر ان الموالي من خصوصيات اهل مصر والشام وكذلك الناي والقانون والغالب في سن غنى صوتا واجاد ان يظن ان لم يبق ذو اذن واعية إلا وسععه واذا لم يجد الفنى لنفسه عذرا وذلك بان يتعجج او يسعل فيحيل القصور على شيء طرا عليه . هذا اذا كان المغني غير متخذ الفناء له صنعة فاما من درب فيه فقل ان يعرض له خروج لان الصوت كالآلة كلما زاد استعمالا زاد جلاء . وكما ان غناء اهل مصر اطرب واعلى من غناء جيع العرب كذلك كان غناء الطليانيين اعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما في لغتهم من الحركات فهي مثل لغتنا صالحة للفناء والعروض ولكون اصواتهم صادرة عن صدورهم . اما لغة الانكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطارع على الغناء الذي فيه مد وترجيع إلا بتحويل الالفاظ

عن وجهها وخبرم قواعد النطق بها وانما يحسن بها لاغاني المصححة .
 واصواتهم كلها من ازوارهم وكان المغني منهم يقني وقد غن بلقمة . وجبوع
 لافرنچ يقولون ان غناء العرب من خياشيمهم وعلى فرض تسليم ذلك فما
 يكون منافيا للاشجاء والتطريب فان اللغة الفرنساوية لا يتكلم بها إلا مع
 الغنة وهي مع ذلك اشجى لغات لافرنچ جميعا وربما طرب لها من سمعها
 اول مرة من عمره . وقد رايت من لافرنچ من كان يطرب للانغام المصرية ولكن
 غب طول مكث فيها وكان في اول امره يأنف منها ويقول انها محزنة ولا
 يخفى ان للعادة تأثيرا في جميع الاحوال وخصوصا في النطق والالحن .
 وناهيك ان الاطفال عندنا وعند لافرنچ ترقد على الغناء فتعتاد عليه مذ الصبي
 فاذا امتزج بامزجتها كان سماع غيره ضد المألوف . واعمل مالطة يوقدون
 اطفالهم على ما هو اشد بهنوح الندابات في بلادنا . واولا العادة لما عجزت
 لافرنچ مع حكمتها عن النطق باحرف الحلق وهي التي وفقت حق نساتهم
 جزافا وبخست نساءنا حقهن *

فصل

في لغة اهل مالطة

اعلم صانك الله عن الزلل وسددك الى صواب القول والعمل ان اللغة
 المالطية فرع من دوحه العربية وشيعة من نمرها وهي يتكلم بها في
 جزيرتي مالطة وغودش وسواك في ذلك العامة والخاصة . غير ان هؤلاء
 يتعلمون ايضا الطليانية والانكليزية لاحتياجهم الى الاولى في المعاملات
 والتجارات وكتب الشرع وغيره ولتنافسهم في الثانية لكونها لغة ارباب
 الحكم . وذلك لان اللغة المالطية لم تدون فيها علوم ولم يشهر فيها كتب
 فهي عبارة عن الفاظ يتداولونها فيما هو من مقتضيات الاحوال الساقطة دون
 ان تفني بحاجتهم فيما يقصدونه من وصف او نسيب او وعظ . فاذا ارادوا
 ذلك فزعوا الى الطليانية وهو دليل على سفالة طبعهم حيث لم يحافظوا من
 اللغة إلا على البتذل . واذا اخذوا من الطليانية ما مست الحاجة اليه
 ملطوه والحقوه بتركيب لغتهم كقولهم مثلا « ما يريشيش » اي ما يوافق

« كونه شيت » أي عرفته فلي الأول يا المضارعة والفين التي يزيديونها
بعد النفي وفي الثانية ضمير المتكلم والغائب وكقولهم « عندي بياشير » أي
سرور فيجعلون الطرف خبرا مقدما والمجبوب وهو نكرة مبتدأ مؤخرا فهو جار
على قواعد العربية وقد قلت فيها في الصبي

تبنا لها لغة بغير قراءة * وكتابة فيمن بلا انسان

تببلب الالباب في تركيبها * ويكل عنها كل حد لسان

اذنابها ورعوسها عربية * فسدت واسطها من الطلياني

فان قيل ان الاذناب والروعوس هنا كناية عن اوائل الالفاظ واواخرها كاداة
المضارعة وال التعريف ونون الوقاية وهذه باقية على الاصل فلم وصفتها
بالمساد قلت ان اداة المضارعة مكسورة عندهم على كل حال وكذا اداة
التعريف والضمير غير ظاهر فانهم يلفظون به كالوار . ويحتمل ايضا ان يكون
« فسدت » دأ في المعنى ومع كثرة ما بقي عندهم من مفردات العربية
وجلبها وتاليها ولا سيما في الامور المتعارفة كما ذكر فقد ذهب عنهم مرادى
الاب وانما يقولون « مسار » بالامالة وكانها محرفة عن « موسيو » بالفرنساوية
فان حق التلفظ بها ان يكون « مونسيور » . وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية
صباها ومسأ فيقولون « بن جرنو عليك » ولعل سبب ذلك ان المسلمين لما
افتتحوا جزيرة مالطة كانت تحيته بينهم « السلام عليكم » وكان استعمالها مقصورا
عليهم كما هو في بلادنا فلم تعرف بين الالهيين . وليس هذا باعجب من
ذهاب تحيات العرب العاربة عن المستعربين وقولهم لان « صباح الخير » الظاهر
انه مولد . ومن الغريب ان بعض اعيان المالطيين يحاكون لا فرنج في
الطوارم وحيثاتهم حتى اذا انطقوا بلفظ انفسهم زال عنهم ذلك الرواء وانجلي
ذلك الالبهام واذا تكلموا خلطوا جلته ايطاليانية باخرى من لغتهم لكن هذه
هي الغالبة فانها لغتهم في الطفولية . وقد اخبرني احد فضلائهم انه اقام
مدة طويلة في ايطالية فكان حينئذ يقدر خواطره وافكاره بلفظ اهلها ثم لما
رجع الى مالطة لم يلبث ان عاد الى تقديرها بلغته . فصدق عليه قول
الشاعر « كل امرء راجع يوما لشيمته » وان تخلق اخلاقا الى حين * .

وأعرب منه أن الماطيين يانفون من تعلم العربية بسبب المثلية بينها وبين لغتهم وهو عين السبب الذي يوجب عليهم كونهم والحالة هذه لا يعانون في تعلمها مشقة وعناء . ومع أن الماطيين الذين يعاملون أهل العربية كثير والقاطنين في بلادهم هم أكثر مما أحد منهم يهمل أن يتعلم لغتهم قراءة وكتابة على أنك تجد في جميع بلدان أوروبا أفرادا يدرسونها حق دراستها . ثم أن آراء الناس لما كان من شأنها التفاوت والتباين في جملة الحقائق ولا سيما إذا كان محل البحث غير منتسق على وثيرة واحدة وكانت اللغة الماطية تشتمل على الفاظ من لغات مختلفة اختلفت فيها الأقوال والاحكام . فزعم بعضهم أنها فينيقية لوجود كلمتين فيها منها وهما « البير والصيد » كما مر بك في أول هذا الكتاب وزعم آخرون أنها حبشية لوجود لفظة واحدة فيها وهي « المنبر » فإن معناها عندهم الكرسي الذي تلد عليه المرأة كما هو في الحبشية وهو وهم على ما تحققته من أهل اللغة المذكورة وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر أحد أن كثيرا من الكلام العربي الذي بقي في أهل مالطة مستعمل بطريقة المجاز أما بذكر اللازم وإرادة المازوم وأما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلا « وحلت » للوقوع في الأمر الصعب وأصله الوقوع في الوحل خاصة . ونحو « الطالب » للكف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب في كل أمر ونحو « معلوب » للتخفيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالبا و « فتيت » أي قليل وهو من فت الشيء إذا كسرتة وصغرت جرمه واشباه ذلك ما لا يحوج إلى برهان . فيكون المنبر على هذا مما عدل به عن وجه استعماله تجوزا كما أنه عدل به أيضا في العربية الفصحى من التعميم إلى الخاص فإن معنى المنبر في اللغة الارتفاع فالمنبر على هذا آلة الرفع أو محله ثم خصص عند قوم بعمل الخطبة وعند غيرهم بكرسي الولادة . وإنما قلت آلة الرفع أو محله فقد قال الأمام الخفاجي على شرح درة الغواص ما نصه : « هذا تحقيق بديع لما فيه من الفرق بين اسم الآلة التي تتناول باليد وغيرها فيتعين كسر أول الأول إلا شذوذاً فيفتح بعض من الثاني كمرقاة أو منارة لأنه من وجه آلة ومن وجه مكان وهو فبرق

لطيف قل سن تنبه له او نبه عليه « اه . والحاصل انه لا شك في كون الماطية عربية ولكنني لست ادري اصل هذا الفرع اشامي هو ام مغربي فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية . غير ان الالفاظ الدينية من الاولى فيقولون مثلاً « القداس » و « القديس » و « التقرين » و « الاسقف » وما اشبه ذلك مما لا يفهمه اهل المغرب . ومن الماطيين من يقر بان لغتهم غير فينيقية ولا حبشية ولكن لا يكادون يقرون بانها فرع العربية مكابرة وعنادا . ولا يخفى ان كل لغة في العالم لا بد وان يدخلها بعض الفاظ اجنبية اما للحاجة اليها او لتقارب اهل اللغتين واختلاطهما كالعرب والفرس مثلاً والرومانيين واليونانيين في الزمن السابق . وهذه اللغة العربية مع سعتها وغزارة موادها وكثرة تضاريفها لم تخل عن الفاظ بعضها من الفارسية وبعضها من اليونانية وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية ولم يقل احد ان العربية فرع عن هذه اللغات . فكيف لعقلاء ماطة ان يقولوا ان لغتهم فينيقية بسبب وجود كلمتين منها فيها ؟ واقبح من ذلك انهم يظنون ان فساد لغتهم وانعكاسها عن اصلها العربي ليس من العيب في شيء قياساً على ان الطليانية انفسخت عن اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بها دون الاصل وهو مدفوع بان العربية لما انتقص دولتها بعدد كما انتقصت اللاتينية حتى تستقل الماطية بقليل موادها وبان الماطية لم يولف فيها شيء الى الان من كتب العلم والادب ولم يتكلم بها اقوام فالفرق واضح . والحاصل انهم لا يرون فسادها ولا يشعرون بقبحها ضرورة انهم لم يطلعوا على محاسن اصلها الذي حلتوا عنه . نعم ان اهل الشام ومصر والحجاز وغيرهم قاصرون عن اللحاق باهل العربية الفصحى ولكن ما منهم الا من يشعر بقصوره عنها ويدري عظم التفاوت بين الطريقتين وكل يود لو يصل الى درجة الكمال في معرفتها . وكنت ذات يوم سائراً مع جماعة منهم فاخذ احدهم يصف لغتهم وجعل من محاسنها اجتماع الالفاظ العجيبة فيها كانه يقول انها انتقت ما شاق وراق فمثلها مثل العجوز التي رأت زوجها يزني * ولشدة تعصب الماطيين على اهل العربية

وتشيعهم عليهم اذ كان منتهى السب عندهم ان يقولوا « عربي » كان الانكليز وسائر الافرنج اقرب منهم الى تعلمها غالبا ولو كان عند اولئك ركن منها عظيم . وذلك ان المالطي العنيد اذا سمع في العربية مثلا لفظة « خرج » وكانت عادته منذ نطق ان يقول « خرج » فلا يرى في ذلك كبير فرق ولا يرى ان نقطة صغيرة تقوم المعنى او تفسده بخلاف من يتعلم من اول الامر ان يقول الكلمة على حقا . وكانوا اذا سمعوني وصاحبي نتكلم قالوا ليس من فرق كبير بين اللغتين إلا عجمة في لغتهم يعنوننا ولا يخطر لهم ببال ان لغة لم تضمن بطون الاوراق ولم تضبطها الاحكام النحوية لا تكفي النوع الانساني . وقد تصدى مرة احد مولفهم الى تأليف كتاب نحو فيها فكتب بعد طالعه « الف بتو اللغة المالطية » ثم ذكر العين بعد الالف فكان خلفا لان جميع اللغات التي تبتدي ابجديتها بهذا العنوان تكتب فيها الباء بعد الالف فلما وقفت على ذلك كتبت له : « يا قاتلا الف بتو وبعدها الف عين » ان كان ذا البدء مينا فكل ذا النحر مين . ويقال ان جميع اللغات القديمة والحديثة تبدأ بالالف إلا الحبشية فانه فيها الحرف السابع عشر والظاهر من ترتيب حروف المعجم في العربية والسريانية والعبرية انها اي العربية لا ارتباط بينها وبينهما . ثم ان اهل مالطة يلفظون الغين اينما وقعت عينا والحاء حاء والفلاحون منهم يلفظون القاف همزة ويشمون الالف في نحو قال وباع الضمة وهو غريب فان هو ايضا عند الهمج من الشام وينطقون بالصاد دالا وبالطاء تاء ولا يلفظون العين اذا كانت متطرفة اصلا فيقولون « تلا » اي طلع و « سما » اي سنع ويقال انهم كانوا في القديم يلفظون التاء على حقا . ومما يضحك منه ان الفلاحين اذا خدموا اهل فاليتة غيروا لهجتهم فلفظوا الغين عينا والحاء حاء توهم ان لغة هؤلاء هي الفصحى . واهل غودش يميلون الالف في نحو فيها ومنها والجميع ينطقون بالميم نطق اهل الشام إلا في قولهم « جدي » فانهم يلفظونها كاهل مصر . والظاهر ان حق النطق به ان يكون قريبا من مخرج الشين كما في لغة اهل الشام . ففي المزهر في الفائدة الخامسة في النوع التاسع وهو معرفة

الفصح ما نضه: « قال الشيخ بهاء الدين في عروس الافراح قالوا التنافر يكون اما لتباعد الحروف جدا او لتقاربها فانها كالطفرة والمشي في القيد نقله الخفاجي في سر الفصاحة عن الخليل بن احمد وتعبه بان لنا الفاظا حروفها متقاربة ولا تنافر فيها كلفظ الشجر والجيش والفم وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم والبعد ثم رأى الخفاجي انه لا تنافر في البعد وان افراط بل زاد فجعل تباعد الحروف شرطا للفصاحة » اه . وقال الاشموني عند ذكر الابدال : « الشين ابدلت من ثلثة احرف الكاف والجيم والسين فالكاف نحو اكرمك قالوا اكرمته وهي كشكشة تميم كما تقدم والجيم كما في قوله اذ ذاك حبل الوصال مدمش اي مدمج قل ابن عصفور ولا يحفظ غيره وسهل ذلك كون الجيم والشين متفتحين في المخرج » اه . إلا انه يظهر ايضا ان الجيم كثيرا ما تبدل من القاف والكاف مما يويد مذهب اهل مصر . فمن ابدالها من القاف قولهم قف العشب و « جف » والمقذاف و « المجذاف » وقلمه و « جلمه » والقشم و « الجشم » وشق و « شج » والقرقس و « الجرجس » وقص و « وجز » وتلف الحوض و « تالجف » والشرق و « الشرج » ونظائر ذلك كثيرة . ومن ابدالها من الكاف قولهم كد و « جد » وكهد و « جهد » واكن و « اجن » وكرع و « جرع » وكلبة الزمان و « جلبته » والمكالحمة و « المجالحة » وعكربه و « عجر » والركس و « الرجس » وما اشبه ذلك . فعلى هذا يكون استعمال اهل مصر له صحيحا ويويدة ما ورد في المزهر في النوع الرابع عشر « المهمل على ضربين ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة وذلك كجيم تولف مع كاف او تقديم كاف على جيم وكعين مع غين او حاء مع هاء » اه . وايضا فانهم يعربون مرة بالجيم واخرى بالقاف مثال الاول « الديزج » و « النبريج » ومثال الثاني « الرستاق » و « الفرزدق » وربما ابدلت من الحرفين معا قولهم « سنجه » و « سهكه » و « سحقه » والذي يظهر لي ان ذلك لغة لبعض العرب غير ان اهل الصعيد والمغاربة واهل الحجاز ينطقون بها كاهل الشام * ثم ان اهل غودش ينطقون بالاحرف الحلقية على حقها إلا انهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون

« قاعد » وهلم جرا ويقولون « منكم » و « عليكم » بكسر الكاف وهي لغة زريعة
وقيم من كلب كما في الزهر في النوع الحادي عشر وتسمى الوكمة ويقولون
« منهم » و « بينهم » وهي ايضا لغة كلب * ومن سفهاء الماطيين تن يدي
النظم بلغتهم هذه الفاسدة ويقال عندهم « التقبيل » فمن ذلك قولهم : « ين
حنينا ساير نساfer * ساير نساfer ما نحدكش معي * مروها بالسلامة * الله
يظملك في المحبة تيغي » * وبقي هنا حل ما اعجم من الالفاظ قوله « ين »
بمعنى انا و « حنينا » بمعنى حبيب منادى محذوف منه حرف النداء
ومن الغريب هنا ان المنادى اذا كان عظيما خطيرا يدخلون عليه اداة النداء
من الطليانية فيقولون « اءمولاي » واذا كان حقيرا اعملوا اداة النداء في
العربية فيقولون « يا تقاح » « يا غنب » وقوله « ساير نساfer » هي مثل قول
عامية مصر والشام « رايح اسافر » وما الطف هنا عبارة لامام الزمخشري في
شرحه لامية العرب اذ قال : « واما المستقبل وان كان معدوما في الحال ولكن
هو مار الى الوقوع » والنون في « نساfer » علامة للمفرد المتكلم لا الجمع فانه
« نساferو » وهي لغة اهل المغرب والشين في « نحدكش » لازمة عندهم بعد
النفي والاستفهام كما في العربية الدارجة ومن اهل الشام تن يراها ايضا
لازمة ولو بعد الجملة فيقولون « ما هو كثيرش » فكان ابرازها ضربة لازب
و « ميغي » اصله معي و « مور » فعل امر من « مار » اي ذهب وهو في اللغة
كذا و « هيا » اسم فعل بمعنى اقبل وذكره صاحب القاموس مكررا وفسره
بانّه زجر وهو غريب ولا يبعد ان يكون اصله حي * ويظهرني ما روى عن
ذلك الاعرابي الذي سمع رجلا يدعو آخر بالفارسية يقول له « زوذ » فقال
لاصحابه ما يقول قالوا يقول عجل فقال الا يقول « حي هلك » وعلى حي
هلك تخرج احمية بديعة و « يظملك » اصله امّا « يزمك » او « يضمك » وما
قبل الضمير المنصوب مضوم وهذا من بعض اثار محاسن العربية القديمة في
هك البلاد والباء من « المحبة » مفتوحة فتحة مشبعة وكذا هي في كل مكان
به علامة التانيث نحو « طيبة » و « كبيرة » وهي ايضا من تلك الآثار واحسن
من لامالته . فاما « تيغي » فقد خبط فيها بصراوهم خبط عشواء وذلك لانهم

يدخلون بين المضاف والمضاف اليه لفظة تا فيقولون مثلاً «الدار تا الطيب»
فمنهم من زعم انها من الطليانية فان المضاف فيها يفصل من المضاف اليه
بلفظة «دي» ومنهم من زعم انها من السريانية فانها فيها كذلك ثم اذا
اصافوا تا الى الضمير برزت معه العين فيقولون «تاعنا» فلهذا لم يدركوا
اصلها والصحيح انها محرفة من «متاع» فان اهل المغرب يدخلونها كثيراً
في الاضافة ويتحدثون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكين
وتتصير اللفظ وربما قالوا «متاع» بالنون ساكنة ايضاً. فاما العين فان
المالطيين لا يكادون ينطقون بها اذا وقعت آخر الكلمة فيقولون «تلا» و«قلا»
في طلع وقلع كما ذكرنا آنفاً ويحذفونها ايضاً فيما اذا اتصل به ضمير
فيقولون «طليت» و«قلت» و«وقيت» جرياً على حذفها بغير اتصال
الضمير. وقلب العين الفا او همزة من اساليب العرب كما في «تفصى»
و«تفصع» و«أقنى» و«أقنع» و«الشا» و«الشمع» و«تكاكا» و«تكتكع»
و«زقأ الديك» و«زقاعه» و«قرا» و«قرع» اي «منع» و«زازا»
و«ززع» اي «حرك» و«بدا» و«بدع» و«امراة خباة» و«خبة» اي
تختبئ تارة وتبدو اخرى و«الخباء» و«الخباع» و«الخب» و«الخبج»
ونظائر ذلك كثير حتى قلبوها ايضاً متوسطة كما في «تارض» و«تعرض»
و«دام الحائط» و«دعمه». فاما تليين الهمزة الفا فاشهر من البينة عليه.
ومن حرف ايضاً لفظة «متاع» اهل مصر فقلبوها الميم «بأء» وهي لغة لبعض
العرب كما في درة الغواص * واعلم ان فصل المضاف عن المضاف اليه
بأداة اسلوب حسن يفيد التخصيص وذلك ما اذا كان المضاف منعوتاً بنعت
ضالِح لان يعود على المضاف اليه ايضاً كما في «عذاب الله العظيم». بخلاف
ما لو كان بينهما فاصل والأرجح رجوعه الى المضاف كما في المغني * ومن
نظم المالطيين ايضاً وهو معنى حسن ولكنه مكسوبيح اللفظ والسبك :
«المحبيب تا قلبي سافر * ليلى ونهاري تبكيح * جعلتلو بدموعي البحر *
وبالتنهيدات تا قلبي الريح ». وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب :
«والبحر قد خفقت عليك ضلوعه * والريح تبلع الزفير وترسل »

ومثله قول القاضي الفاضل : « كان صلوبي والزفير وادعبي * طول وريح عاصف وسيول » . وقول ابراهيم بن سهل الاشبيلي :
 « اذا انست ركبا تنقل شوقها * بنار قسرة والدموع بورد »
 ومثله ما ذكره علي بن طاهر في بدائع البدائة لابن حير : « شرعها من فوادي وبحرها من دموي » . وبقي هنا اصلاح فاسد اللفظ : فنقول قد مر شرح « تا » انها تكون بين المضاف والمضاف اليه و « نكيح » الحاء مبدلة من الها وهي لغة للعرب ايضا فيقولون « اهزف الرجل » و « احرف » و « الهاضوم » و « الحاضوم » و « المدة » و « المدح » و « تاه » و « تاج » و « شقه » التخل و « شقحها » وقوله « البحر » جار على القياس من ان الاسم الثلاثي الذي اوسطه حرف حلق يجوز الفتح فيه نحو « شعر » و « شعر » و « نهر » و « نهر » . قال الامام الخفاجي في شرح درة الغواص : قال ابن جنبي في المحتسب قرا سهيل بن شعيب السهمي جهرة وزهرة في كل موضع محركا ومذهب اصحابنا في كل حرف ساكن بعد فتح لا يحرك إلا على انه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر والشعر ومذهب الكوفيين انه يجوز تحريك الثاني لكونه حرفا حلقيا قياسا مطردا كالبجر والبحر وما ارى الحق إلا معهم « اه » .
 وما انشدنيهم احدهم بحضور جماعة :

« ينا اشتقت نجبي فوق سدتك * نجبي شبيهه تا عصفور

نطفي الصباح بجوانحي * نعطيك بوسه ونرجع نمور » .

فقلت له : لو قلت ناخذ بوسه لكان اولى لان من ياخذ هنا خير ممن يعطي فلم يفهم واستعادنيها فاعدتها عليه فلم يطقن لها لا هو ولا هم ايضا لان المعارض والمطارحات عندهم في كساد عظيم . والمراد بالسدة عند الماطيين نفس الفراش وهو في اللغة باب الدار وعندي ان قدماء الماطيين كانوا همجا يرقدون على الابواب فسموا كل مرقد سدة تجوزا كما انهم سمو كل مكسنة مساحطة وهي في الاصل آلة للسلاح وكذا كانوا يستعملونها ثم اطلقوها على كل ما ينظف به المكان ولهذا نظائر كثيرة . إلا ان اهل طرابلس الغرب يستعملون السدة ايضا بمعنى الفراش . وقد ذكرت يوما لاحد من يتوسم فيه

الادب من اهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصا التورية فقال وكذا هي المالطية وذكر هذه الجملة وهي « عندك تينا تا اللحم » فقال « تينا » هنا يحتمل ان تكون مضارعا من « تينه » يريد من آتيتهم او اعطيتهم و « تا اللحم » يحتمل ان يكون معناها ما يخص اللحم اي ثمنه و « عندك » هنا اغراء وعلى المعنى الثاني يحتمل ان تكون لفظة تينا مفرد التين وتا اللحم مضاف اليها اي « تينة لحم » والمعنى « عندك تينة لحم » كناية عن الاست واغراؤهم بعند ليس على القياس فانهم يدخلونها على الافعال خاصة . ومن تورياتهم ايضا قولهم « علاه من غير ما » يهيمون به من غلاء السعر . ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم « دار ناديت » وحققها نديت ولكنها افصح من قول اهل مصر والشام ناطية و « قابلة » اي داية و « خطر » و « مخاطرة » اي رهان و « غرفة » اي علية وقولهم في الدعاء « عمروا وتمروا » و « بدا لي » اي عن لي و « تطاول » و « يشرف » و « صديد » و « بطحاء » و « تجالدوا » وهو افصح من تعاركوا و « زفن » اي رقص و « بوقال » وهي افصح من قول اهل الشام « شربة » او « نغارة » و « يمارى » اي لا يقنع بالحق و « يشرق بالماء » و « يستقصي » و « فرصاد » للتوت و « سفود » واهل الشام يقولون « سين » و « شيش » وقد ورد في كلام النابغة الذبياني بقوله « سفود شرب نسوة عند مفتاد » و « تفزز » تباعد من الانسان و « عسوج » للتصيب و « جلوز » وهو البندق الذي يوكل . ولكن هذه الالفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يرجح ان اصل المالطيين من المغاربة . ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع احيانا نحو « يحسبك » و « يبدلك » وقولهم « وعدة » و « وزنة » وهما اسمان من وعد ووزن لا مصدران ولذلك سلم فآوهما كما قال الحماسي « واذا اتى من وجهة بطريفة » لم اطلع مما وراء خبائه » قال الشارح ومن روى من وجهه فمعناه من سفره الذي توجه اليه ويروى لم اطلع ماذا وراء خبائه ومعنى البيت لم اعرض نفسي عليه متعرفا ما جاء به من سفره ليشركني في طرفه يجعلني اسوة نفسه * ومما يضحك من كلامهم قولهم هذا رجل من الكلاب

وامرأة من الحميم يعنون ذكرا وانثى لانه ليس عندهم لفظ مرادف للذكر
 فيضطرون الى هذا التعبير القبيح ويقولون « عمل اللحية » اي حلق وجههم
 وكذلك اذا حلق شعر عانتهم ايضا . ويقول احدهم للآخر عند الابانة
 والافضاح « نكلمك بالمالطي » اي ان هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث
 لا يبقى للسامع محل للشك فيه . ويكثرون من جملة قال لي يكررونها في
 انشاء الكلام مرارا . واذا قصدوا توكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فاكثروا
 فيقولون . ما رايتوش قط قط قط قط قط . و « ما كان ليش فلوس خلاف دا بز
 بز بز بز » اي بس و « حادة كله كله كله كله كله » و « ما يسوى شي شي
 شي شي شي » ونحو ذلك . ومن اوزان كلامهم فاعلة المصدر فيقولون « عملته
 بالواقفة » او « بالقاعدة » . قال شارح الشافية : « اعلم ان مجي المصدر على
 وزن فاعلة اقل من مجي المصدر على وزن منقول كالعافية نحو « عافاه الله
 عافية » والعاقبة نحو « عقب فلان مكان ابيه عاقبة » والبقايتة كقوله
 تعالى « فهل ترى لهم من باقية » اي بقاء وكالكاذبة كقوله تعالى « ليس
 لوقعتها كاذبة » اي كذب . اه . واهل الشام يقولون « يطلع بالطالع . » و « ينزل
 بالنازل » . ومن وزن فعل نحو « سدد » و « حرر » وهو نادر والاسماء الثلاثة
 التي اوانلها ضمة يتبعونها ضمة اخرى نحو « عمر » و « شغل » وهو ايضا جار
 على القياس وكذلك التي اوانلها كسرة نحو « عجل » و « رجل » . ومن قبيح
 عادتهم في الكلام هم وسائر الافرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون
 محاشاة فيقولون مثلا « اني احبك ما دمت حيا » و « هذا الحر يقتلك » و « هذا
 النبات يقطع لك مصارنك » اي مصارينك و « هذا التراب يعميك » و « اذا
 مت جاء الطبيب وشرح جسمك عضوا عضوا » او يقول لك العائد « لا تله
 عن دائك فانه قتال » وغير ذلك مما يقتضي فيه الاطلاق . الا ترى ما
 قاله سيد الفصحاء والبلغاء « حبك الشيء يعمي ويصم » ولم يقل « يعميك
 ويصمك » وان يكن المعنى عليه ؟ فاما امالة صوتهم عند الكلام وهي التي
 تسميها الافرنج « امفازس » فغريبة على سن لم يتعود سماعها . فان لهم مدا
 في الصوت وانخفاضا غير مالوف لاهل العربية حتى ان الانكليز الميامدين

الادب من اهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصا التورية فقال
وكذا هي المالطية وذكر هذه الجملة وهي « عندك تينا تا اللحم » فقال
« تينا » هنا يحتمل ان تكون مضارعا من « تيم » يريد من آتيتهم او
اعطيته و « تا اللحم » يحتمل ان يكون معناها ما يخص اللحم اي ثمنه
و « عندك » هنا اغراء وعلى المعنى الثاني يحتمل ان تكون لفظة تينا
مفرد التين وتا اللحم مضاف اليها اي « تينة لحم » والمعنى « عندك تينة لحم »
كناية عن الاسباب واغراءهم بعند ليس على القياس فانهم يدخلونها على
الافعال خاصة . ومن ثوراتهم ايضا قولهم « علاه من غير ما » يهيمون به
من غلاء السعر . ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم « دار نادية »
وحقها ندية ولكنها افسح من قول اهل مصر والشام ناطية و « قابلة » اي
داية و « خطر » و « مخاطرة » اي رهان و « غرفة » اي علية وقولهم في
الدعاء « عمروا وتمروا » و « بدا لي » اي عن لي و « تطاول » و « يشرف »
و « صديد » و « بطحاء » و « تجالدوا » وهو افسح من تعاركوا و « زفن » اي
رقص و « بوقال » وهي افسح من قول اهل الشام « شربة » او « نعارة »
و « يمارى » اي لا يقنع بالحق و « يشرق بالماء » و « يستقصي » و « فرصاد »
للتوت و « سفود » واهل الشام يقولون « سينح » و « شيش » وقد ورد في كلام
الناطقة الذياني بقوله « سفود شرب نسوة عند مقتاد » و « تفزز » تباعد من
الادناس و « عسلوج » للتصيب و « جلوز » وهو البندق الذي يوكل . ولكن
هذه الالفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجح ان اصل المالطيين من
المغاربة . ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع احيانا نحو « يحسبك »
و « يبدلك » وقولهم « وعدة » و « وزنة » وهما اسمان من وعد ووزن لا
مصدران ولذلك سلم فأوهما كما قال الحماسي « واذا اتى من وجهة
بطريفة * لم اطلع مما وراء خبائه » قال الشارح ومن روى من وجهه
فمعناه من سفرة الذي توجه اليه ويرى لم اطلع ماذا وراء خبائه ومعنى
البيت لم اعرض نفسي عليه متعرفا ما جاء به من سفرة ليشركني في طرفه
يجعلني اسوة نفسه * ومما يضحك من كلامهم قولهم هذا رجل من الكلاب

وامرأة من الحمير يعنون ذكرا وانثى لانه ليس عندهم لفظ مرادف للذكر
فيضطرون الى هذا التعبير القبيح ويقولون « عمل اللحمة » اي حلق وجههم
وكذلك اذا حلق شعر عاتبيه ايضا . ويقول احدهم للآخر عند الابانة
والافصاح « نكلمك بالمالطي » اي ان هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث
لا يبقى للسامع محل للشك فيه . ويكثرون من جملة قال لي يكررونها في
اثناء الكلام مرارا . واذا قصدوا توكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فاكثروا
فيقولون « ما رايته قط قط قط قط قط » و « ما كان ليش فلوس خلاف دا بز
بز بز بز » اي بس . و « حادة كده كده كده كده كده » و « ما يسوى شي شي
شي شي شي » ونحو ذلك . ومن اوزان كلامهم فاعلة المصدر فيقولون « عملته
بالواقفة » او « بالقاعدة » . قال شارح الشافية : « اعلم ان مجي المصدر على
وزن فاعلة اقل من مجي المصدر على وزن منفعول كالعافية نحو « عافاه الله
عافية » والمعاقبة نحو « عقب فلان مكان اميه عاقبة » وكالباقية كقولهم
تعالى « فهل ترى لهم من باقية » اي بقاء وكالكاذبة كقوله تعالى « ليس
لوقعتها كاذبة » اي كذب . اه . واهل الشام يقولون « يطلع بالطالع » و « ينزل
بالنازل » . ومن وزن فعل نحو « سدد » و « حرر » وهو نادر والاسماء الثلاثة
التي اوائلها ضمة يتبعونها ضمة اخرى نحو « عمر » و « شغل » وهو ايضا جار
على القياس وكذلك التي اوائلها كسرة نحو « عجل » و « رجل » . ومن قبيح
عادتهم في الكلام هم وسائر الافرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون
محاشاة فيقولون مثلا « اني احبك ما دمت حيا » و « هذا الحر يقتلك » و « هذا
النياب يقطع لك مصارنك » اي مصارينك و « هذا التراب يعميك » و « اذا
مت جاء الطيب وشرح جسمك عضوا عضوا » او يقول لك العائد « لا تله
عن دائك فانه قتال » وغير ذلك مما يقتضي فيه الاطلاق . الا ترى ما
قاله سيد الفصحاء والبلغاء « حبك الشيء يعمي ويصم » ولم يقل « يعميك
ويصمك » وان يكن المعنى عليه ؟ فاما امالته صوتهم عند الكلام وهي التي
تسميها الافرنج « امفازس » فغريبة على سن لم يتعود سماعها . فان لهم مدا
في الصوت وانخفاضا غير مألوف لاهل العربية حتى ان الانكليز المهاديين

بمالطة يجرون هذه الامالة في لغة انفسهم انعذاء من المالطيين وقد يعد هذا النوع عند الافرنج من لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فانهم فيه مشطون . وهو يكاد ان يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى اولعله هو « اللهجة » . وقد لاحظت في اثناء قراءة المشايخ انهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى ترويا فيما يستقبلونه فكان هذا المد ضرب منه . ومما يضحك منه ان المالطيين لازمة في الكلام يكررونها وهي « سميتس » محرفة عن « سمعت » فعلا ماضيا والشين لازمة بعد الاستفهام كما هي بعد النفي . ولما كان الانكليز يسمعونها منهم مرارا اطلقوها علما على من يجهلون اسمه عند النداء كقولك « فلان » ثم سمو بها الولدان الذين يرومون السفرة وجعه « سميتشيات » ثم ان بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن فيمن تصل اليه من الاجيال . الا ترى ان مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون اهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيبا لهم وتبوا محافظين على ما عندهم منهم خلفا بعد خلف ؟ وهؤلاء الانكليز يزعمون ان لغتهم ستكون اعم اللغات جميعا واشهرها وما كان لهم ان يعموها عند المالطيين . نعم ان الخاصة منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبعين فان مكالماتهم ومحاوراتهم بين اهلهم انها هي بالمالطية لا غير . وليس الطبع كالتطبع ولا الكحل كالتكحل . ويقال ان الذي تحصل عند اهل مالطة من العربية مما هو مانوس الاستعمال وغير مانوسه يبلغ عشرة الاف كلمة . مع ان الذي جمع ذلك جرى على طريقة الافرنج من انهم يقيدون في كتب اللغة جميع الالفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والالة والاسم المنسوب . ولا لكان هذا القدر كافيا في المحاورات للانصاح عما في الخاطر . فاما في الكتب فلا . ولا احسب الكلام المستعمل الان في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر . غير ان اهل الشام فيما اظن اكثر مواد من اهل مصر كما ان هؤلاء احسن منهم نسق عبارة والله اعلم *

تم الجزء الاول

المسمى بالواسطة الى معرفة مالطة

الجزء الثاني

المسمى « كشف المخبا عن فنون اوربا »

في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من ايلول سنة ١٨٤٨ سافرنا من مالطة وبعد نحو ساعتين غابت عنا ارضها ولكن لم اقل كما قال الشريف الرضى :

« وتلفتت عيني فمذ خفيت * عنا الطلول تلفت القلب »

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا ارض جزيرة صقلية وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد ارسينا في مرسى مسيني . وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد فكانت تطلق المدافع عليه ويأتيها جوابها من القلعة . فلذلك لم نقم بها إلا بعض دقائق . ويقال ان سكان صقلية الاقدمين كانوا من اسبانية وكان يقال لهم سيكاتي . ثم قدم اليها الاطروسكان من ايطالية في سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد . ثم استوطنها الفينيقيون واليونانيون . ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها الى ان اخرجهم منها الرومانيون . وفي سنة ٨٢١ (للميلاد) فتحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة في بالرمو ولبشوا فيها مائتي سنة الى ان اخرجهم منها الامير روجر النورماني . وفي تاريخ الرومانيين لغهبون انها فتحت في زمن المامون في سنة ٨٢٣ . وزعم بعض المؤرخين انها كانت متصلة بالارض ففصلتها الزلازل المتتالية . وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا نابولي . وهي مدينة طريفة مشهورة بكثرة العواجل واللاهي والحظ والمنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة . وفيها عدة كنائس حسنة . واحسن طرقها حيث الجوانيت العظام الطريق المسمى توليدو . ولولا ان مملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت احسن بقاع الارض لخصبها وهوائها . ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا الى شيفتا فكية في صباح الثلاثاء فاقمنا فيها ساعات . وليس فيها شيء يقر العين . ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا الى ليكورنه في صباح الاربعاء . وظاهر هذه المدينة للنظر دون ظاهر نابولي لكنهما

بمالطة يجرون هذه الامالة في لغة انفسهم انعداء من المالطيين وقد يعد هذا النوع عند الافرنج من لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فانهم فيه مشطون . وهو يكاد ان يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى او لعله هو « اللمجة » . وقد لاحظت في اثناء قراءة المشايخ انهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى ترويا فيما يستقبلونه فكان هذا المد ضرب منه . ومما يضحك منه ان للمالطيين لازمة في الكلام يكررونها وهي « سميتس » محرقة عن « سمعت » فعلا ماضيا والشين لازمة بعد الاستفهام كما هي بعد النفي . ولما كان الانكليز يسمعونها منهم مرارا اطلقوها علما على من يجهلون اسمه عند النداء كقولك « فلان » ثم سمو بها الولدان الذين يروون السفرة وجعه « سميتشيات » ثم ان بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرقة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن فيمن تصل اليه من الاجيال . الا ترى ان مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون اهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيبا لهم وتبوا محافظين على ما عندهم منهم خلفا بعد خلف ؟ وهؤلاء الانكليز يزعمون ان لغتهم ستكون اعم اللغات جميعا واشهرها وما كان لهم ان يعموها عند المالطيين . نعم ان الخاصة منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبوعين فان مكالماتهم ومحاوراتهم بين اهلهم انها هي بالمالطية لا غير . وليس الطبع كالتطبع ولا الكجل كالتكجل . ويقال ان الذي تحصل عند اهل مالطة من العربية مما هو مانوس الاستعمال وغير مانوسه يبلغ عشرة الاف كلمة . مع ان الذي جمع ذلك جرى على طريقة الافرنج من انهم يقيدون في كتب اللغة جميع الالفاظ المشتقة باسم الفاعل والمفعول والالة والاسم المنسوب . ولا لكان هذا القدر كافيا في المحاورات للافصاح عما في الخاطر . فاما في الكتب فلا . ولا احسب الكلام المستعمل الان في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر . غير ان اهل الشام فيما اظن اكثر مواد من اهل مصر كما ان هؤلاء احسن منهم نسق عبارة والله اعلم *

تم الجزء الاول

المسمى بالواسطة الى معرفة مالطة

الجزء الثاني

المسمى «كشف المخبا عن فنون اوربا»

في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من ايلول سنة ١٨٤٨ سافرنا من مالطة وبعد نحو ساعتين غابت عنا ارضها ولكن لم اقل كما قال الشريف الرضى :

« وتلفتت عيني فمدت خفيت * عنا الطلوع تلفت القلب »

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا ارض جزيرة صقلية وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد ارسينا في مرسى مسيني . وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد فكانت تطلق المدافع عليه ويأتيها جوابها من القلعة . فلذلك لم نقم بها إلا بعض دقائق . ويقال ان سكان صقلية الاقدمين كانوا من اسبانية وكان يقال لهم سيكاتي . ثم قدم اليها الاطروسكان من ايطالية في سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد . ثم استوطنها الفينيقيون واليونانيون . ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها الى ان اخرجهم منها الرومانيون . وفي سنة ٨٢١ (الميلاد) فتحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة في بالرمو ولبشوا فيها مائتي سنة الى ان اخرجهم منها الامير روجر النورماني . وفي تاريخ الرومانيين لغهبون انها فتحت في زمن المامون في سنة ٨٢٣ . وزعم بعض المؤرخين انها كانت متصلة بالارض ففصلتها الزلازل المتتالية . وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا نابولي . وهي مدينة طريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمتنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة . وفيها عدة كنائس حسنة . واحسن طرقها حيث الجوانيت العظام الطريق المسمى توليدو . ولولا ان مملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت احسن بقاع الارض لخصبها وهوائها . ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا الى شيفتا فكية في صباح الثلاثاء فاقمنا فيها ساعات . وليس فيها شيء يقر العين . ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا الى ليكورنه في صباح الاربعاء . وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي لكنها

من داخل اكبر (١) وطرقها اوسع وبنائها من الاجر المحكم وديارها شاهقة
إلا انها ليس لطرقها مشى على الجوانب للناس وكذا هي مدينة نابولي
ومرسى لينكورنه حسن وفيها ملهى وعدة اعلام ومدارس لليهود هو اعظم من
سيائر مداريسهم في اوربا ومكتبة موقوفة . وهي ذات اشغال وتجارة واهلها
ستمه وسبعون الفا . وفي القرن الثالث عشر لم تكن إلا قرية حقيرة . ثم
سافرن منها الى جينوى فبلغناها فجر الخميس . وهك المدينة مشهورة بكثرة
الصروح العالية والديار الشاهقة جدا . وفيها قصور كثيرة من المرمرو وبساتين
ناصره وفاكهة طيبة . وهي في نجوة من الارض متفاوتة الوضع وطرقها
اضيق من طرق ليكورنه ولهذا كانت عواجلها اقل من تلك . إلا ان الشمس
لا تستجكم في مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة . فكانها مبنية من اصلها
لحجب الشمس . وفيها حوانيت بهجة ولاسيما حوانيت الصاغة ولها قطرة
قديمة شاهقة جدا اذا نظرت منها الى الحضيض هالك ارتقاها . وفيها الفاكهة
الطيبة والخبز الطيف ومحل قهوة في غيضة مايجت وهي في الحقيقة نزهة
للناظرين وما فيها إلا بدمشق . وليس على سن يدخلها ان يدفع شيئا .
كان تسبعا في سنة ٧٠٧ قبل الميلاد وكانت في زمن دولة الرومانيين حافلة
غناء . وفي القرن الحادي عشر امتدت تجارتها بحرا وبراً وفي مدة الحروب
الصليبية صارت مضاهمة لفينيس (اي البندقية) في الغنى والثروة حيث
كانت موردا للعساكر التي كان يراد تجريدتها الى البلاد المشرقية . ثم وقع
فيها من الفتن والحزب ما اضعف دولتها فدخلت في حماية دولة فرنسا
ثم في عهدة شارلكان (اي كارلوس الخامس الشهير) فاستخلصها من الفرنسيين
وصارت تنحرب مع اسبانيا عليهم . وفي سنة ١٧٩٦ استولت عليها الفرنسيون
وفي سنة ١٨٠٠ حاصروهم فيها الانكليز والروس وعساكر اوستريا حصارا شديدا
فاضطروا الى تسليمها ثم رجعت الى عهدة فرنسا . وفي سنة المهادنة وهي
سنة ١٨١٤ سلمت لملك سردينية . ثم سافرن منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا
مرسيلية في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة . ولهك المدينة مرسى عظيم
يسع الفاومائتي سفينة ولا يزال مشحونا بالسفن النارية وكثرة ورود المراكب

اليها قطعوا خانيجا من البحر ووصلوه به . وفيها عدة مدارس وملهي يعد من احسن ملاهي اوربا وبستان للنباتات ومكتبة موقوفة ومصروف فسيح وفي ضواحيها اكثر من خمسة آلاف دار لها تجارة واسعة مع المشرق وافريقية واميركا وانكلترا والبحر الاسود كان تاسيسها في سنة ٥٩٩ قبل الميلاد وكانت في الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين ومنها توصلوا الى فتح فرنسا . وفي هذه المدينة محال عظيمة للقهوة مغطاة بحيطانها وسقوفها بالموايا والنقوش والتعائيل وامامها مصاطب يقعد عليها الناس وان لم يشترها شيئا منها . واهل المدينة يصرفون فيها اكثر اوقاتهم كل طبقة منهم تتلذذ بحلأ خاصا بها . وفي بعضها ترى قيانا حسنا يغنين وهن كاشفات الصدور . وعند ملهاها عدة ديار تسكنها الموصفات يستدعين بالغادي والرائح . وهي وسخنة الحارات ولاطرافى لكنها بهيئة الحوانيت والديار مبلطة الطرقي وليس في ديارها مراخيص وانما يجمعون اقدارهم في وعاء الى ان ياتي رجل معد عجلة وعليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيقرغه في البرميل وما يجمعه فيه فانه يبيعه لتذميل الارض . ولا اعرف مدينة اخرى بهذا الصفة . ومنهم من يقذف بالاقدار امام البيوت ليلا فلهذا يشم الماشي في اكثر طرقها رائحة كريهة . وماوها في بعض الديار اجاج ولعدم الاكتفاء به نهروا اليها نهرا كبيرا من مسافة نحو ستين ميلا . فاحوج ذلك الى ان ينجبوا له بعض الجبال . ثم بنوا عليه جسرا عظيما يشتمل على نحو ثلثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض وفي كل صف خبسون قنطرة . وارتفاع عليها من الحضيض نحو مائة وعشر اذرع وعرض الماء الجاري فيه تسع اذرع ونصف في علو ملها . وجميع احجار هذا الجسر ضخمة جريئة . وبعد اجراء هذا النهر كثرت عندهم الحياض والعيون ووفرت الفاكهة والبقول وصارت بساكنيها في غاية الربيع والنضارة . وفي هذه المدينة عدة عرصات محفوفة بالشجر يتمشى فيها الناس وتضرب فيها آلات الطرب العسكرية . وفي احد هذه الماشي حوانيت تفتح خمسة عشر يوما في السنة تجمع اليها جميع التحف والطرائف واكثر الباعة فيها بنات حسان فاذا مررت ببخانيوت حوت بين ان تنظر الى البائعة

او الى البيعة . وفيها يوجد ايضا محل للعب والغناء واللهو ومشاهدة غرائب
الاشياء مصورة على خارج العزل دليلا على وجود اعيانها . وقد اخبرني من يوثق
به انه شاهد فيها امرأة ورجلا قد عصب على عينيها بمنديل لكيلا تبصر
الحاضرين ثم جعل ياخذ من بعضهم خاتما ونحوه ويجعله في كفه مطبقة
عليه ثم يسال المرأة عما ييك فتجيبه ولا تخطي . وانه اخذ درهما قيمته
عشرون فرنكا وسالها فقالت في يدك درهم قيمته عشرون فرنكا فقال ويحك
ليس في هذا البلاد درهم على هذا الضرب فقالت انه من ضرب الصين
وكان كذلك . وسالها مرة اخرى عن درهم فرنساوي فاجابته بانه يساوي
كذا وانه ضرب في عام كذا . فلما سمعت ذلك اعظمته لما انه كان اول مرة
طرق مسمعي . ثم لما شاهدته عدة مرار مرأى العين في باريس ولندرة سقط
اعتباره من بالي اذ تحققت ان مع السؤال الذي يلقيه الرجل على المغص
العينين ينهده على نوح ذلك الشي المسئول عنه بلحن من القول لا يدركه
إلا هو وعلى كل حال ففي التلقين والتلقن حذق ودربة . وفي الجملة فان
مرسيلية انما يستحسنها من قدم اليها من البلاد الشرقية لا من باريس
ولندرة . ثم سافرنا من هك المدينة في الساعة الرابعة يوم الاحد في سكة
الحديد فكان البحر عن شمالنا والجبال والغياض عن يميننا فلم يكن منظر اروع
منه . واطن ان بلاد فرنسا اكثر بلاد الدنيا غياضا وحدائق . وكثيرا ما كنا
نسير في المجد نحو ساعة بين الاجم . والسبب في تكثرها احتياجهم الى
الوقيد بخلائي بلاد الانكليز فان اكثرها سهول لاستغنائهم عن الحطب بفحم
الحجر . وفي فرنسا الجنوبية تنبت جميع الاشجار المعروفة عندنا وذلك
كالتين والاترنج والعنب والزيتون والليمون مما هو معدوم في بلاد الانكليز
غير ان كروم العنب عندهم لا تبلغ في النمو والكبر كروم الشام . وفي مسافة
الطريق دخل الرتل في قبوة مظلمة منقورة في الصخور فسار فيها نحو عشر
دقائق فكان امرا عظيما لمن لم ير مثله من قبل . ثم بلغنا مدينة ليون بعد
سفر نحو اربع ساعات لم يغب فيها عن ابصارنا ذلك المنظر السنيع . وهك
المدينة هي وسخة الطرق والاروقة غير انها حسنة الموقع وحوالياتها واسعة.

عظيمة وفيها معامل لثياب الحرير والقماش والاولى لا يعلو عليها شيء . فاما الشريط ونحوه فانه يصنع في صنت اتيان . ولها معاش حسنة . وملهى عظيم ومدارس عديدة ومدرسة سلطانية ومحكمة جليلة هي من فاخر البناء ومكتبة موقوفة ومتحف وبستان للنباتات وعدد اهلها ثلثمائة وثلثون الفا . وفيها يجتاز نهران احدهما يقال له « دون » والثاني « صون » تسير فيهما سفن النار مشحونة بالبضائع وتمر على جلة مدن من بلاد فرنسا . ثم يلتقيان ويصيران نهرا واحدا ممتدا الى بحر مرسيلية . ولا تكاد تقضي سنة من دون ان تزخر شواطئه على الارضين * وقد طغى في هك السنة حتى كانت الناس تسير في شوارع المدينة في قوارب . فهدم كثيرا من البيوت والجسور واهلك كثيرا من الماشية والناس واتلف الغلال فيما جاوره . فانتحى سائر سكان فرنسا الى امدادهم واغاثتهم واقتدى بهم الانكليز ايضا . وعلى هذا النهر جسر من حديد وحجروعدة مغاسل للنساء . ثم سافرنا منها في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء في المجد المعروف بالدجائنس فبلغنا برجا في الساعة السادسة من اليوم الثاني . ومنها سافرنا في سكة الحديد الى باريس فوصلنا اليها في الساعة الرابعة من صباح الخميس . وسياتي وصف هك المدينة بعد فراغي من وصف انكثرة ان شاء الله . ولما وصلنا اليها كانت السياسة بيد الجمهورية اذ كانوا قد خلعوا الملك لوي فيليب عن الملك ففر بنفسه واهله الى بنلاذ الانكليز ملجأ الفارين ومانن القارين . ومعما حصل فيها وقتل من الشعب وسفك الدماء فلم يكد الانسان يتميز المغبوط من اهلها من المبتسفين متزهاتها لم تزل حافلة بالناس . ثم بعد ان لبثنا يومين في باريس سافرنا في سكة الحديد الى كالي او كالبس وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر يوم الاربعاء الواقع في السابع والعشرين من ايلول فبلغناها في الساعة السابعة ونصف مساءً وكالي هك احدى مدن فرنسا المقابلة لانكثرة وهي دون بولون وكانت متاخفا تحت استيلاء الانكليز ايام حروبهم مع الفرنسيين وبقيت في ايديهم مائتين وثلاث عشرة سنة . ثم استرجعها الفرنسيون في صر الملكة ماري سنة ١٥٥٨ . فلما بلغها الخبر اظهرت الحزن الشديد ما قيل انه كان سبب موتها وقالت :

« اموت وفي قلبي اسم كالي مكتوبا » فكانت كالي عندها اخذت حتى عند القراء
وبقيت نورماندي وانجو ومين وطورين وبتوانو وبريشاني وقيرها نحو
سنة ١٢٩٢ ، وافق لنا ان وجدنا سفينة النار معدة للسفر الى لندرة فركبنا فيها
وسارت ماحضة بنا واول ما دخلت في نهر تانس انجبت منا الشمس
واكسى الجو سحابا وكان يوما ماطرا مظلما يقضي بالاسف على شمس فرنسا .
وهذا النهر يمتلئ بالبحر الملح وتسير فيه السفينة نحو خمس ساعات الى لندرة
والسفر فيه بهيج من جهة ان السفينة تسير فيه سيرا خفيفا لا اضطراب
فيه وترى فيه من سفن النار الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر . ويحكى
عن الملك جانس الاول الذي الحق حكومة مملكة سكونلاندي بانكلترة انه
لما نغم على اهل لندرة اشياء انكرها اراد ان ينتقل ديوانه منها فقال له
مهابط البلد الذي يسمونه « مير » اذا كان لابد من ذلك فلا تنقل نهر
التانس نعلك ، وهو كلام بليغ يشير الى ان اهل المدينة ربما يستغنون عن
الملك بوجود هذا النهر لانه من اعظم الاسباب اليسرة للتجارة ولولاها لما
حصلت لندرة على هذه الثروة والسعة . والمأكول والمشروب في هذه السفن
التي تنقل الركاب من فرض بلاد فرنسا الى بلاد الانكليز غاليلان جدا . فان
قنينة الشراب في تلك الفرض تساوي فرنكا وفي السفن ستة فرنكات . ثم
لما بلغنا لندرة اخذت ائقالتا الى ديوان المكس وفتشت فلم يجدوا فيها
ما يوجب الاداء . الا انا ادينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو
نخرج وغيره نصف شلين . ثم تبوانا محلا في احدى الديار وبعد ان استرحنا
سافرنا منها في سكة الحديد الى بلدة « وير » بقصد المسير منها الى القرية التي
يسكن فيها دكتور « لي » الذي اعتمدته الجمعية لان يكون معارضا لترجمتي
بالاصل الذي ترجم منه . وكان للذكور شهرة عظيمة عند الانكليز في
تعرفه اللغات الشرقية . وكان في مبدا اموره نجارا لكنه اكب على العلم وقد
فاز الثلاثين سنة فحصل معلومات غير يسيرة غير انه لم يتمكن من اللغات
التي يحاولها وسياتي ذكره بعد هذا ، وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوبا
على ائقالتا فلما بلغ الرتل اليها وضعوها في الموقف ونحن لم نشعر بذلك وبقينا

سائرين فيها حتى اذا وقف موة ثانية وسالنا عنها اخبرنا باننا تجاوزناها بنحو ثلثة اميال . فرجعنا اليها مشاة فوجدنا حاجتنا سالمة . فسرت في طلب شيء للاكل فلم اجد فيها مطعما فقلت لاحد الوقوف : الا نجد طعاما هنا؟ قال : هلم معي . فاخذني الى الجزار وذلك لان مرادى لفظة الطعام عندهم تستعمل غالبا في اللحم . قلت : اني اريد شيئا اكله . فدلني على حانوت بقربه فتوجهت فلم اجد الا الخبز . قلت : ما الخبز وحك اريد . فدلني على دكان آخر فذهبت فوجدت به الفطير فقط . فعدت خائبا ولقيت بعض الشرطة فقلت له : الا تهديني الى محل للاكل؟ فدلني على موضع زعم انه شيرير يقصصك جميع المسافرين . فتوجهت فوجدت صاحبه امرأة ضخمة فطة تحاول اظهار السيادة والامارة في وجه قاصديها . فسالتها : هل عندك ما يوكل؟ قالت : ما عندي سوى البيض . فبلغنا بما عندها ورجعنا الى الموقف حتى جاء الرتل الذي يسير الى « رويستان » وهي قرية جامعة . وقد ذكرت هذه الحادثة هنا دليلا على ما يرى من الفرق بين بلاد الانكليز وبين فرنسا فان القرى الحافلة في هذه ولاسيما التي يقف فيها المسافرون يوجد فيها كل ما يشتهي الانسان من الماكول والمشروب وحسن كنا نسافر فيها ويقف العبد كنا نرى النساء يتسابقن الينا حاملات لاطباق الفاكهة الطيبة ويعرضنها على السفر . وكنا نجد ايضا في المطاعم كل ما تشتهي لانفس ثم سرنا الى رويستان ومنها الى قرية « باولي » وهي على بعد ثلثة اميال منها . فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلا فتوجهت الى دار دكتور لي فوجدته مستعدا لتلقي الاحلام السعيدة . فقال لي قد كتبت الي الجمعية تخبرني بقدمك فينبغي ان تذهب الليلة لتبيت في حانة القرية . فبتنا فيها وفي الغد كتب المذكور الى الجمعية يخبرهم بانهم اكرم ثواي وعني بانزالنا منزلا مريحا فشكروا على عنايته . وكانت مدة سفري من مالطة الى هذا المنفى في ثمانية وعشرين يوما *

ثم قبل الشروع في الترجمة وفي ذكر شيء من احوالي ينبغي هنا ان اقدم كلاما في احوال انكليزية على وجه الاختصار فان تفصيل ذلك مرجعه الى

كتب التاريخ والجغرافية فاقول ان الرومانيين كانوا يسمونها «بريتانية» وفي اللاتيني المتعارف تسمى «انكليا» وفي لغة اهلها «انكلاند» وحين يذكرون بريتانية فانما يعنون بذلك انكلترا ووالس وارلندة وهي منقسمة الى اثنين وخمسين «كونتى» اي ولاية منها اثنا عشرة ولاية هي الاصول واشهر مدنها دوفر ونروييش وهلفور ونيوكاستل وليفربول وبرستول وفلوث وليموث وبورتسموث واكسفورد وبرمنغهام ومنشستر وشيلد ونيونغهام وكمبريدج ويورك وبات وجلتغهام . وهي كثيرة معادن الحديد والفحم والقصدير والرصاص والنحاس وحيواناتها صليعة حسنة الصورة وبها مراعى واسعة ومروج نصيرة وفيها نحو خمسين نهرا تصلح للسفر اشهرها التامس وجبالها قليلة لا يبلغ اعلاها اكثر من مائة ذراع وطول الجزيرة لا يزيد على ثمانمائة ميل وعرضها ثلثمائة في بعض الجهات وفي بعضها اقل . وقبل فتح الرومانيين لها لم يكن عنها خبر يعتمد على صحته وقد غزوها مرتين وذلك في سنة ٢٦ قبل الميلاد وكان عدد اهلها نحو مليون وفي سنة ١٨٥١ بلغ عددهم سبعة وعشرين مليونا واربعمائة واثنين وخمسين الفا ومائتين واثنين وستين نفسا منهم ثلاثة عشر مليونا وثلثمائة وتسعة وستون الفا واربعمائة وثمانين واربعون نفسا ذكور واربعة عشر مليونا واثنان وثمانون الفا وثمانمائة واربع عشرة نفسا اناث . وعن غيبنون ان الرومانيين كانوا يحسبون بريتانية مغاصا للولو وهو الذي دعاهم الى فتحها وبعد حرب اربعين سنة سلم ليدهم اقصى اطراف الجزيرة . وعدد سن ولد فيها وفي والس في سنة ١٨٥٤ بلغ ستمائة واربعه وثلثين الفا وخمسمائة وست افس وعدد سن مات مائتين وثمانية وثلثين الفا ومائتين وتسع وثلثين . وفيها احد عشر الفا وسبع وسبعون ابرشية . ويقال انها كانت في الزمن القديم متصلة بارض فرنسا *

ثم اني اخذت في ان اذهب الى دكطر لي في كل يوم لا ترجم التوراة ثم اعود الى منزلي ملازما له . فلم تمض علي ايام حتى عيل صبري لان هلك القرية التي قدر الله ان اسعد الناس بترجمتي فيها كانت من انفس قرى الانكليز على ان جميع قراهم لا تليط بقلب الغريب لما سيأتي . ولم يكن فيها

للاكل غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر والخبز والجبن واللبن المذيق والبيض والكرنب وذلك يغني عن ذكر ما هو معدوم فيها على ان هذه اللوازم انما كانت نفاية ما يوجد في المدن . ومن عادة الانكليز ان يكون لهم بالقرب من القرى بليدة يباع فيها ما يلزم لهم من الماكول والمشروب والملبوس ولا ثاقل فيذهب اليها الفلاحون مرة في الاسبوع ويشتررون ما يلزمهم وقد يمر على البيوت ليلا رجل ينفخ في البوق تنبيهها على ذهابه الى تلك المدينة فمن شاء ان يشتري شيئا كلفه به وجزاه على ذلك وقد يمر ايضا تجار بعجلات فيها نحو البن والشاي والسكر او يكون معهم راموز هذه الاشياء ليعثروا منها للمشتري من حوائثهم وبمثل هذه الاسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل للانسان ما لا بد له لشوام عيشه . اما مخاض البحر والسرطان والانكليس وهذا الذي يسمونه « لبستر » وهو اطيى ما يوكل عندهم وهو في شكل البرغوث واكبر من السرطان فلا وجود لها البتة . واما السمك فلا يرد منه الا مرة في كل ثلثة اشهر على ان جميع اصناف سمكهم مسبوخة الا صنفا منها يقال له « سمن » وهو ايضا بالنسبة الى سمك بلادنا لا طعم له . وقد يضعونه في الثلج ليلا ويعرضونه للبيع نهارا فربما كان عمر السمكة بعد صيدها اطول منه قلبها . ولكن ربيب الثلج هذا لا وجود له الا في المدن . ومن قدم الى المدينة ورأى فيها تلك الحوائث العظيمة والاشغال الجمّة والغنى والثروة حكم على جميع الانكليز بانهم اغنياء سعداء ولكن هيهات فان اهل القرى هنا كاهل القرى في الشام بل هم اشد قسفا . وكثيرا ما تقرا حكايات تدل على بوسهم وقشف معيشتهم مما لا يقع في بلاد اخرى . فمن ذلك حكاية عن حائك شكاه حاله الى احدى النساء الخدومات فقال : « يا سيدتي انني حائك وان لي امرأة وثلاثة اولاد بقوا من عشرة فجعت بهم ودخلي من كدي الليل والنهار لا يزيد على سبعة شلينات في الاسبوع ولكن علي ان اعطي منها شلينا واحدا لاجل النول واربعه في الشمع الذي اسهر عليه » فقالت له : وكيف تعيش على هذا الدخل القليل ؟ قال : على قدر الامكان يا سيدتي الا وقد مضى علينا ستة اشهر لم نشتر فيها رطلا واحدا من اللحم ولا نقدر على مشتري الحليب

إلا بالجهد فجل طعامنا انما هو الشعير وحساء الماء وقد يكون لنا في بعض ايام
الاحاد ادم من البطاطة اما انا فلا ابالي فاني قد الفت البوس والصنك
ومذ سنين عديدة لم اعرف شيئا من الدنيا سوى الكد والكدر والمبرح على
قلعة الاجرة ولكن همي بالاولاد وبامهم النحيقة . . اه . فقول له انه لم يقدر
على شراء الحليب مع كونه في الريف ارخص الاشياء بالنسبة الى غيره يغنيك
عن مزيد البيان فيما يكابده هؤلاء الناس . وكثيرا ما تقرا ايضا في صحائف
الاخبار عن اناس تركوا اولادهم من الاملاق او ماتوا من الجوع والبرد او النوم
على الاماكن القذرة او اعتقدوا فماتوا جوعا . نعم انه يوجد مستشفيات وملاجئ
يقوم بها الاهلون امدادا للفقراء إلا انها ربما كان عدد سن فيها لا يقبل الزيادة
او كان الليث فيها صنكا او الدخول اليها صعبا ونحو ذلك . وقد يبلغ من
فقرهم انهم يتركون اطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها . واعرف
في القرية المذكورة اولادا كثيرين لم يتعمدوا مع انهم من رعية الكنيسة المتصلة التي
توجب المعمودية ولا تاذن لمن مات غير معمد ان يدفن في مدافن النصارى
فتنزله منزلة المتحرر . وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها
الله تعالى لان تكون ملك الامراء والاشراف فقط فيستاجروها منهم اناس
مامونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها . فلهذا لن تجد
في القرية احدا ذا رواء وزياش إلا مستاجر الارض . وقسيس القرية المسمى
دكطرا على انه لا يلي شيئا من امور اولاده الروحانيين سوى الخطبة فيهم يوم
لاحد لانه يستخدم تحت يده قسيسا يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة ويلقي
عليه احوال الكنيسة وهذه الوظيفة هي دون وظيفة طباطخ الاسقف في بلاد
لانكليس . فعلى هذا القسيس ان يعمد اولاد الرعية وان يدفن الموتى منهم
ويزوج احداثهم ويعود مرضاهم وغير ذلك . وعدد ملاك الارض في انكلتيرة نحو
ستين الف عيلة لا غير . وقلما يذوق هؤلاء المساكين اللحم فجل اكلمهم الخبز
والجنين . فجزار القرية لا يذبح شاة او بقرة إلا مرة في الاسبوع ولا يبيع من
اللحم الا نصف رطل او ربه . واذا ذبح شاة فلا يساخمها ويجزر لحمها إلا
بعد يوم والبقرة بعد يومين او ثلاثة . نعم انه قد يربي احدهم خنزيرا في

دويرته ويذبحه ويتخذ لحمه كالفورمة التي تتخذ في بر الشام ويطعم منه في ايام الاحاد . ومن كان ذا يسر قليل اشترى قطعة لحم في السبت وطبخها وتبلغ بها عامة الاسبوع باردة . وليس تسخين الطعام مالوفا عندهم فهم احرى ان ياكلوه باثنا مذ ايام من ان يسخنوه . ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلا عندها تسخين طعام بقي لي من الغداء لم تصكد تفهم مني الا بعد شرح وتفسير وراح كل منا يتعجب من صاحبه . وليس في القرى مواضع للهو والمخط واذا ارادوا اللهو عمدوا الى اجراس الكنيسة يضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب * ومن المخط عندهم ان يجلس الرجل مع امراته ينظران الى الخناييص التي يربيانها او الى ما يزرعانه من خسيس البقول . فان لكل منهم في الغالب بضع اذرع من الارض امام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما اشبه ذلك ولولا ذلك لكانت عيشتهم شرا من عيشة البهائم . وقد ترى في القرية دكانا فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر والبن والشاي وبيتا حقيرا يباع فيه شيء من البصل والبطاطة والحلويات السخيفة والتفاح الردي تنظرها من طاعة البيت ولو اشتريت ذلك جميعا لما بلغت قيمته عشرين قرشا . وفي اوان الشتاء لا يمكن للانسان ان يخرج من منزله لاستنشاق الهواء وذلك لكثرة الوحل في الطريق فقد يمكث عدة ايام رهين بيته . وليس في القرى خيل او حير او بغال او عواجل تكري فليس الا مركب النعل . وقد يكون لبعض المشبعين عجلة يحركونها بارجلهم اذا ارادوا ان يذهبوا من قرية الى اخرى فتجري بهم من دون حضان ولا حمار وبعضهم يكون له عاجلة صغيرة مفتوحة يجري بها حصان صغير فمثل ذلك لا يدفع عليه شيء للميري . وكنت كلما اضطررت الى المونة ذهبت الى البلدة ماشيا ومرة اضطررت الى ان اذهب في الثابوت الذي ينقل فيه الزبل لكنه كان فارغا . وعلى فرض ان يسكن غني احدى هذه القرى فلا يمكنه ان يتنعم بغناه اذ لا يجد فيها الا ما يجده الفقير الا ان يجلب مونتته من لندرة وغيرها . ويعلم الله اني مدة اقامتي في تلك القرية المشنومة لم يكن لي هم الا بتكصيل لوازم العيشة فكنت اجلب بعض

القطاني من كمبزيج وبعض النقل من رويستان والمزر من لندرة في سكة الحديد ، ولكن لما وجدته غالبا اقتصررت عن جلبه فاستولى علي ضعف المدة ووهن في ركبتي لم احس به في عمري قط . فان مزر القرى ردي اذ ليس منه . إلا ما ينبت بالمنطقة دون المرحى في زجاج وهو كالدواء سوءا إلا انه غير نافع . وقد غشي علي مرة في دار دكطري وانا اترجم فامر خادمتهم بان تئدركني بكسرة خبز مشوية . اما الصيف فانه وان يكن غير مزهق الا انه منقص لعدم وجود البقول المربطة فيه ولندور الفاكهة كما ستعلم ولا سيما ان اكثر شرب اهل الريف انما هو من مناقع من ماء المطر واكثرها يعلوه الطحلب فاذا نشفت عمدوا الى الابار وهي قليلة يدخرونها الى الحاجة وهي ايضا من المطر . الا ان الانكليز قلما يشربون الماء فانهم يستغنون عنه بالجمعة . وقد مضى علينا في الصيف نحو شهرين لا ندوق فيهما شيئا من الفاكهة والخضرة الا ما ندر . وفي شهر نيسان انقطع عنا المذيق الذي كنا نشتره لاجل القهوة لانهم كانوا يستقونه الخنازير ولا يبيعونه فاضطررنا الى ان نتوسل باحدى النساء لتشفع فينا عند صاحبة البقرة في امدادنا كل يوم بما يكفي للقهوة فقط . ففعلت ثم جاءت بمشقة لنا بقبول خالص شفاعتها في المذيق وان صاحبة البقرة رضيت بان تبيعنا كل يوم بنصف بني تقصلا وتكرما فوسعناها شكرا وثنا ومطاطاة راس وانحاء . وفي هذا الشهر المبارك لم يكن يوجد شيء من الفاكهة ولا من البقول وكانت البصلة الصغيرة تباع ببني . الا ان الحقول كلها كانت ناضرة زاهية فالسار فيها هو كراكب البحر وهو ظامي . واكثر ما يزرع الانكليز في حقولهم انما هو القمح والشعير واللفت والبطاطاة واصل جلب هذه اليهم من اميركا في سنة ١٥٨٦ . فلما البقول فيزرعونها في عرصات الديار لموتهم فقط وهي قليلة جدا . ولما كان جل علف البقر من اللفت كان لحمها ولونها لا ينحلوان من طعمه . واذا زرعوا البقول فلا بد وان يضعوا معها شيئا من الملح والجير ويكثر من تدميلها فهذا لا تكون زكية الا انها تنمو فاحشا فان الفول قد يعلو مقدار قامة الربعة . وكذا اللوبياء والقمح والشعير والرشاد يبلغ اطول من

ذراع . ونحو ذلك الخس والنعناع والسباس . وقد تبلغ الكرنبية قدر الجرة الكبيرة وتكون التفاحة او الاجاصية نحو البطيخة الصغيرة . وقس على ذلك البصل والكراث حتى ان الحيوانات البرية والبحرية تكبر عندهم غاية الكبر . فان السرطان يكون في قدر راس الادمي . وقد وزن مرة ديك حبشي فبلغ اربعين رطلا وكان ارتفاعه ثلث اقدام . واصل جلب الجزر الى هذه البلاد كان من هولاندة ولم ينبت هنا قبل سنة ١٥٤٠ ولكنه لم يكن اولاً في هذا الكبر . واصل جلب القنيط كان من جزيرة قبرس وكان منذ ستين سنة يرسل منه من هنا الى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية والطرفة . ويحرقون على الحبل والبقر جميعا وحين يزرعون القمح وغيره يمدون خيطا من اول الحقل الى آخره حتى تأتي الاتلام مستقيمة . وفي كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من الدود فيزرعون بينه حشيشا سميا ليقتل الدود فاذا حصدوا القمح حصدوا معه الحشيش ايضا وبأعوه على حدته . وربما اغفل فبقي مختلطاً بالقمح وطحن معه فقد قرأت في كثير من صحف الاخبار ان كثيرا ماتوا من الجبذ . وهذا هو ايضا سبب وضعهم الملح مع البقول فاعجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح ويمسحون مزرعاتهم ويسمونها * ومما لا ينبت عندهم شجر الاترنج والليمون . الحلو والحامض وقصب السكر والبوز واللوز والفسق والتين والشمش والخوخ والدراق والصوبر والتمر والرمان وهذا الاخير لا يعرفون ماهيته والصبار والاس والزيتون والقشاة والباذنجان والبايا والملوخية والحمص والعنبد والماش . وقل وجود الخرشوف والخيار والسفرجل . وشجر التوت لا يرى الا للفرجة . والطبيب من فاكهتهم انما هو الاجاص والتفاح وقد يكبران حتى تملأ الواحدة منهما الكف . وهذا الاخير يدوم الشتاء كله في المطامر ولكن يباع في القرى على قلة . واصل جلبه اليهم كان من بر الشام وذلك في سنة ١٥٢٢ وكذا الزنبق . فاما الاترنج فيرد الى المدن الكبيرة من اسبانيا وبرتوغال وكذا العنب . وقد يربون شجرهما في بيوت من زجاج ويسخنونها بالنار لان حرارة شمس قطرم لا تكفي لانباتهما ولكن يكون سعرة اعلى من سعر المطلوب اليهم . وما

ينبت في غير هذه البيوت من العنب فانه يبقى حشرا وهو ما لا يوضع ويبقى حامضا صلبا . وعندهم ثلاثة اصناف من الثمار او اربعة كحب الاس عندنا وهي قليلة المجدوى ولا سيما كونها لا تقوى على الرياح فاقبل نسمة تذهب بها . وكذلك عندهم اصناف ثلاثة او اربعة من البقول لا توجد عندنا وهي ايضا تافهة . ويحق لي ان اقول بعد الاختبار والتحري ان جميع ما ينبت في بلاد الانكليز هودون ما ينبت في فرنسا في الطيبة والزكاء وجميع ما ينبت في هذه هودون ما ينبت في بر الشام . وما ارى العلة في ذلك سوى كثرة السريقين في الارض وقلة الحرارة في السماء . نعم ان جميع ما ينبت عندهم هو اكبر جرما مما ينبت عندنا كما تقدم ولكن شتان ما بين الكبر والطعم الا ان الانكليز يتنافسون في كل شيء ضخم * اما انواع الرياحين والزهور ولاشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم وعنايتهم بها اشد من عنايتهم بالبقول المأكولة على ان جل ازهارهم لا عرف له . غير اني رايت عندهم جملة انواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو في مألظة لارائحة له اصلا . وكثيرا ما يذكرها المؤلفون في كتبهم وتلجج بها النساء في محاوراتهن حتى ان احداهن سجت مرة فكانت صواحبتها يهادينها بباقات من الزهر . وفي اعياد ميلادهن يطرفن به فيغني ذلك عن طرف القماش والجواهر . فهي في الواقع صلة الرحم وسبب الوداد . واذا رقصت امرأة في ملهى واعجبت الحاضرين نقطوها بباقته . وعلى ذكر التنقيط يعجبني قول ابن المعتز في ملبح جدر :

« يا قمر جدر لما استوى * فزاده حسنا فزدا هموم »

« كانه غنى لشمس الصبحى * فنقطته طربا بالنجوم »

قلت واهل اللغة اهلوا هذا الحرف بهذا المعنى والصير في زاده يرجع الى التجدير المفهوم من الفعل وهو رد على الحريري حيث منع ان يقال ذلك لانه ليس للتكثير * اما ارض انكلترة فكلها سهل محروث مزروع تشبه ارض البقاع في الشام فلن ترى فيها بقعة بوار . فكانها جميعها لرجل واحد ذي عيال في كونها لا يغادر منها خط قدم من دون منفعة . فلا ترى الا غياضا وجقولا ومروجا وديارا . والظاهر ان بلاد الانكليز اعظم حرثا واعمر من بلاد

فرنسا . وكل شيء فيها من نام وحيوان تراه في غاية الريع والنمو . وكنت قبل حضوري اليها احسبها كلها جبالا لما كنت اسمع من شدة بردها فاذا هي قاع صنف . وقرات في بعض الاخبار ان قيمة ما تحصل من غلالها في سنة ١٨٤٧ بلغت اربعة وخسين مليون ليرة وقس على ذلك سائر السنين . واحسن بقعة في الارض يغادرونها مرعى للضأن ومسرحا . ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فانهم يحتاجون الى جلب الجلود من الروسية والغرب الاقصى . وثمن ما يجلبونه منها يبلغ في السنة خمسة عشر مليونا يذهب نحو نصفها في عمل الاحذية والباقي في غير ذلك . وفي بعض الصحف ان في كل من انكلترة وفرنسا يربي نحو خمسة وثلاثين مليونا من الغنم ومن كل من العددين يحصل قدر من الصوف متساو الا ان غنم فرنسا يحصل من لحمها اقل مما يحصل من تلك . وقد يبلغ الحاصل من اقليم شستر من الجبن بما قيمته مليون ليرة . وما يحصل من لبن البقر في فرنسا يبلغ مليون لير ثمن كل لتر نحو عشرة من الصنيم (٢) . وما يحصل من لبن البقر في انكلترة يبلغ ضعفي هذا القدر ويبيع بضعفي قيمة ذلك . والانكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية في احد وثلاثين مليون جريب والفرنساوية يربون عشرة ملايين في ثلثة وخسين مليون جريب . وجزاروا فرنسا يذبحون في السنة غالبا اربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلوغرام والانكليز يذبحون مليونين ولا يذبحون من العجل قدرا ما يذبح عند اولئك . والحاصل في فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك ومن اللحم اربعمائة مليون ومن الحرث مائتا مليون . والحاصل في انكلترة من اللبن اربعمائة مليون فرنك ومن اللحم خمسمائة مليون فيكون الحاصل من كل بقرة في انكلترة من الحليب واللحم فقط اكثر من الحاصل من البقرة في فرنسا من اللبن واللحم والحرث معا . ومع خصب ارضهم وكثرة غلالهم كما يبيانه آفا فانهم يجلبون كثيرا من الماكول والمشروب من البلاد الاجنبية . فقد قرأت انه في مدة ستة اشهر جلبوا من البقر اثني عشر الفا ومائتين وسبعة وثلاثين زاسا ومن الغنم تسعة وعشرين الفا ومائتين وثمانية وستين ومن البيض ستة وخمسين

مليوناً واربعمائة واربعة وخسين الفا وسبعمائة وخسا واربعين بيضة . وفي سنة ١٨٥٠ جلب من الجبن سبعة وعشرون الف طن . وفي سنة ١٨٤٦ جلب من ايرلندة من البقر واحد وثمانون الفا وخسمائة واثنان وتسعون راساً ومن الغنم مائة الف وثلثمائة وستة وستون راساً ومن الخنزير ثلثمائة واحد وثمانون الفا وسبعمائة واربعة واربعون راساً . وقيمة ما جلب من البطاطة في العام الماضي بلغ نحو عشرين الف ليرة وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني وبهذا يتبين لك ما يلزم لاعالى هولاء القوم واسافلهم . وفي الحقيقة فان انكثرة قد ضاقت باهلها ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مليونين وخسمائة الف نفس (٣) . وفي سنة ٥٦ هاجر منها ومن ايرلندة مليونان وثمانمائة الف . واحسن اقاليمها في النضارة والريع اقليم « كنت » وفي كثرة اشجار الفاكهة « دفنشر » واذا دخلت حمى « بششر » فهرول * اما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة منها الخيل وهي نوعان ضليع ضخمة وهو ما يستعمل في جردالات فيكون كالبرج المرصوص ويحمل اربعمائة رطل من ارطالهم وثمان مائة ليرة . والثاني خفيف ممشوق وهو للركوب والسباق او لجر عواجل العظماء وربما مشى في الساعة ثمانية عشر ميلاً . ويقولون ان خيلهم اعتق من خيل العرب وان سلالة بعضها من تلك . ويقال انه في زمن الملكة اليبابث لم يكن في جميع مملكة انكثرة اكثر من الفئ فرس . وبقروهم تعظم في عظم جواميس مصر ولحمها طيب إلا انه كثير الدم وهي حسنة الخلقة والشكل وكذلك غنمهم تسمن سمناً فاحشاً وهي ايضا مليحة ولكن ليس لها الايا كغنم الشام ولعلها هي النوع الذي يقال له القهد . والهر عندهم ظريف وهو اخرى بان تحلق الحواجب على فقهه من هر قدماء المصريين . اما الحمير فانها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها ولا وجود للبالغ عندهم ونادر روية المعزى . ومما من الله به على هذا البلاد ان ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلا ولا سوام ابرص ولا ابن آوى يعوى في الليل ولا نمر ياكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ولا براغيث في الريع إلا نادراً . ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها وهي تجري تحت

منحشب البيوت وكذا البق لكثرة الالواح في منازلهم . قال في ابجدية
الاقوات : هذا الجرذ الاسمر الذي يسمى جرذ نوروي غطا هو اعظم رزينة
في ديارنا واصل بجيئه الينا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية في
اسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال انه في سنة ١٧٢٩
زحفت اسراب جرذان لا تحصى من البوادي الغربية الى اسطراخان حتى
لم يمكن ردهم بوجه ما وفي اوسط القرن السادس عشر زحفوا حتى دنوا من
باريس إلا ان كثيرا من جهات فرنسا لم يزل خاليا من هذه البلية (٤٤) *

فائدة في عمر الحيوان

زعم بعض ان الحصان يعمر من ثماني سنين الى اثنتين وثلثين سنة والثور
عشرين والبقرة ثلثا وعشرين والحمار ثلثا وثلثين واصل نتاجه في بلاد العرب
والبغل ثماني عشرة والشاء من الغنم عشر سنين والكبش خمس عشرة والكلب
من اربع عشرة الى خمس وعشرين والخنزير خمس وعشرين والعنز ثماني سنين
والقط عشرا والحمامة ثماني والوزة ثماني وعشرين والبيغا من ثلثين الى مائة
واليمامة من خمسين الى مائتين * وقال بعضهم الدب يعيش عشرين ونحوه
الكلب والذئب والثعلب من اربع عشرة الى ست عشرة والاسد نحو سبعين
والقط في الجملة اربع عشرة والارنب سبع سنين والليل قد يعيش اربعمائة
سنة والخنزير ثلثين والكركدن عشرين والحصان من خمس وعشرين الى ثلثين
والجمل نحو مائة والبقرة خمس عشرة والضأن قلما يجاوز العشرين والوعل
يعمر طويلا والدلفين ثلثين والنسر قد يعيش مائة واربع سنين والغراب مائة
والساحفة مائة وسبعا والبطة ثلثمائة وستين ونوع من الحيتان اسمه والس
يعيش الف سنة (٥) *

اما بناوهم فمن الاجر الاحمر او الابيض وقد يصبغون خارج الديار او
يكلسونه ثم يرسمون عليه خطوطا تبديده كأنه حجارة لا يدركه
إلا سن دنا منه وترسمه ويبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فانها
لما كانت هدفا للدخان والضباب لم تلبث ان يسود كما سنذكر ذلك ان
شاء الله . ولهم في تجديد الابنية مهارة غريبة وذلك انهم اذا ارادوا مثلا

هدم دار هدموا أولا اسفل جدرانها واسندوا القائم منها بعضائد ثم بنوا لاسفل
غربا نجر الهدم والبناء في وقت واحد . وبعض البيوت يبنون خارجها
كالسيفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ثم يطينونها وربما كانت
تلك الاخشاب قديمة . وفي الجملة فان بيوت الفلاحين حسنة مهندمة
غير ان منها ما يكون اصغر من سطحه . فان السطوح عندهم على ثلاثة
انواع الاول من الواح الكتاب وهي للديار الكبيرة والثاني من الخرف وهو
للبوت الوسط والثالث من التبن . فهذا يكون قبيح المنظر وهو يرقع كما
يرقع الثوب . ويقولون انه احسن من غيره شتاء وصيفا فانه في الشتاء يمنع
البرد ويرد الثلج وفي الصيف يمنع الحر . ولا يكون السطح عندهم الا مسنما
والفاصل بين الواح الزجاج في الشبايك اكثره قضبان رصاص بدلا من
الخشب وربما كان الزجاج مربعا او خماسيا فيكون للعين انيقا . وحيث
كان في تلك السنة مكس للهيري على الطيقان اذا زادت على ثمانية كان
الناس يتكاشون من مجاوزة هذا الحد ولكنه لان ابطل وقام مقامه مكس
آخر تمتعا بنور الله وهوائه . وكل بيت لابد وان يكون فيه عدة مواقد للنار .
واسرتهم كلها من خشب لا من حديد . والغالب ان ارض منازلهم تكون
مفروشة بالبد او البسط من الزرابي واثاثهم بين بين . وقل ان ترى عندهم
من الصور الا صورة كبير العائلة وصورة الخيل في السباق او صورة ارانب
وكلاب . اما بيوت الاغنياء والمترفين فلا شيء اجل منها لاحكام مبانيها وحسن
ترتيبها وحيطانها من داخل مغشاة بالورق الفاخر المنقش وطبقاتها محكمة
كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفا والبريق ودرجها وارضيتها
مساكنها من الخشب المشين ولهم اسراف زائد في الاثاث فان اسرتهم
وموائدهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلها من الخشب المسمى بالمهايكون وقد
تبلغ قيمته في الجملة نحو خمسمائة ليرة . ومع ذلك فلن ترى لسيده الدار
جليا من الماس او شالا من الكشميري وهي عكس عادتنا . ومن اسرافهم
ان يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش والزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس
يدوسون عليه . ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب حتى ان الفرنسيين

إذا ذكروا مرحاضا على هذه الصفة. قالوا انه مرحاض انكليزي . وكنت مرة
صيفا لاجد نجلاتهم فلما اصبحت طلبت الكنيف فدللت عليه واذا هو في
غاية الزخرفة والاحكام حتى اني اجمت عن فتحه واستعماله وخطر ببالي
حينئذ ما قاله بعض الطرفا في تحيل انفق على كنيف له سبعمائة درهم قد
استدانها « ليت شعري ما الذي يريد ان يخرأ فيه » واجارة المسكن للغريب
انما تكون بالاسبوع ولا بد ان يخبر اهل المنزل قبل خروجه باسبوع
افذا علوا ذلك تهاونوا في خدمته . واذا استاجر احد مسكنا في دار من
مستاجر الدار وفرشه وكان المستاجر لا يودي غلته الدار الى مالكلها حق
لمالك ان يستولي على كل شيء في الدار . واعلم ان البناء في الاصل كان
من الخشب والطين ثم من الاجر ثم من الحجارة غير المهندمة فلما تمدن
الناس وتبحروا في الصنائع صار من المرمر . والبناء من الحجر عرف عند اهل
صور من القديم ثم شهر عند جميع الاجيال ولم يعرف في انكثرة قبل سنة
٦٧٠ وكان المحدث له راهبا اسمه بناديكت . واول جسر بني منه في هذه
البلاد كان في سنة ١٠٨٧ . اما البناء من الاجر فانما عرف عن الرومانيين
وفي سنة ٨٨٦ امر به الفرد ملك الانكليز وفي سنة ١٥٩٨ استحسن تعميمه
وكان بناء لندرة اذ ذاك من الخشب غالبا . واما الزجاج فيقال ان اول من
تعلم صنعه هم اهل مصر فانهم اخذوها عن هرمس . وقال بلينيوس بل كان
كشفه في سورية وكان له معامل في صور من القديم . وقد ذكره الرومانيون
عهد طيسيريوس . وعلم من انقاص بومباي ان الزجاج وضع في الطيقان
سنة ٧٩ قبل الميلاد (٦) واول ما شهر استعماله في اوربا كان في ايطاليا ثم
عرف في فرنسا ثم في انكثرة وفي سنة ١١٧٧ استعمل في ديار بعض الاعيان
ولكنه كان مجلوبا . ويفهم من كلام فلتير ان اول من شهرة في بلاد الانكليز
رجل من فرنسا وذلك في سنة ١١٨١ . وفي سنة ١٥٥٧ انشيء له معمل وفي
سنة ١٦٣٥ اكسب رونقا وصفاء وفي زمن وليم الثالث اتقن الى الغاية *
ومن سوء التدبير في بلاد الفلاحين انه لا يقام في القرية من الشرطة الا
واحد فلذلك يكثر فيها الحريق والسرقه . فان اهل القرية اذا لم يستخدمهم

مستاجر الارض يتقون معطلين متسرعين الى ارتكاب كل شر فيعمدون الى
احراق اكاديس القمح والحشيش المكدسة في الحقول في ليلة ذات ريح
فتسري النار الى بعض البيوت وليس من يطفئها ثم لا تلبث ان تلاحشيه
بالكلية وتسري الى غيره فربما احترقت القرية كلها في ليلة واحدة . وفي
مدة شهرين من اقامتي بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقه في اكاداس
الغلال وكان سبب ذلك هولاء المعطلون عن الشغل تشفيا من غيظهم من
مستاجر الارض . ورأيت آثار قرية كانت تشتمل على خمسين بيتا احترقت
باجعها في ليلة واحدة . بل ان كثيرا من هولاء الفجار يهبون الكنائس
وقد يدخلون الديار من مداخل المواقد النافذة الى السطح ويسرقون ما
قدروا عليه . وفي كل ليلة قبل النوم توصي المخدمة خادماتها باطفاء النار
والنور . اما العاجزون والسقط فانهم يمكنون في المستشفى ويقوم بنفقتهم
القادرون من الرعية فان الميري لا ينفق شيئا على المستشفيات ولا على تصليح
الطرق ولا على ترتيب الشرطة ايضا . إلا ان اكثر الناس يستنكفون من
المكث في المستشفى لقشف المعيشة فيه . وقد تقرر عند الانكليز جيعا ان
التصدق على الفقراء يحملهم على الكسل والتواني فما يعطون فقيرا اذا مروا به
ولو كان عريانا . ويمكن ان يقال ان اكثر فقرهم هو من انهماكهم في
شرب المسكرات فانك ترى منهم فقراء كثيرين باخلاق من الشيا وبمهما
يكسبه ينفقوه في المجعة ولا يزالون يكرعون منها حتى تجحظ عيونهم وتنعقد
الستهم عن الكلام . ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في الشتاء
للتسخين وفي الصيف للترطيب . ومع ذلك فهم بالنسبة الى اهل المدن
الجامعة اصحى واعف كما انهم اسخى منهم واكرم . وهذه خطة عامة
في جميع البلاد فان اهل المدن لما كان احتياجهم الى اسباب المعيشة والرفاهية
اكثر كان الكرم فيهم اقل . وذكر بوخان انه عرف في زمانه نساء بعض
اولادهن بالمجعة (٧) * ثم ان الانكليز طالما افتخروا بهنساء العيش داخل
ديارهم وهو عبارة عن امرين احدهما التمتع بكل ما يلزم للانسان في معيشته
والثاني ترتيب وضع الاشياء المتمتع بها وهو ان يكون لكل شيء موضع خاص

به ولكل موضع شيء فمن غسل يديه مثلا في طست على مائدة ثم تناول
المنشفة من جانب المائدة من دون ان يغادر موضعه ويفتش عليها فقد
انصف بانه متهني وقس على ذلك . والحق يقال ان الانكليز في ذلك اعظم
الناس ترتيبا واحكامهم وضعا للاشياء وكانهم انما ورثوا هذه الخلة كابرا عن
صاغر وسن تعود على هذه الحال عندهم فلا يمكن ان يتبها في معيشتها في البلاد
الاسلامية ولا يوما واحدا . قالوا وعلى هذا الاصل بنيت بيوتنا بحيث اذا
تبواها احد لا يحب ان يخرج منها ولا سيما وضع مواقدهم فانها تسع من
الفحم ما شئت وبذلك يحصل لهم الدفء في الشتاء وهو من الزم ما
يكون . وعندهم نحو ثمانمائة الف بيت مفرد يقال لها « كوتاج » قالوا لا
يمكن لغيرهم من الناس ان يعيش في مثلها حالة كونها مفردة . فاما دعواهم
بان مبالغتهم مريجة غصية بحيث تكفي لكل ما يلزم لهم وان اثاثهم وادواتهم
وافية بالمراد حتى لا يمكن للشهواني ان يقترح شيئا زائدا عليها فليست في
حلها . فقد مر بك ان كثيرا من البقول والفاكهة لا ينبت عندهم فاما من
جهة الاثاث فان جميع سكان اوربا المتمدنين مشتركون فيه على انهم
محرومون من كثير من الملاهي والفرج * هذا وكما ان ارض انكلترة كلها
محروث عامر كذلك كانت شطوطها باجمعها مرصعة بالمنابر والاعلام لهداية
السفن . فان في سواحلهم مائتي منارة لا تزال انوارها متقدة الليل كله وجلة
المنابر التي في سواحل فرنسا الشمالية والغربية تسع وثمانون والتي في
هولاندة ست وعشرون ، ومصاريف منابرهم تؤخذ من رسم يجعل على السفائن
المشحونة التي تمر بها وهو يختلف . وقد يبلغ في السنة مائتين وخمسين
الف ليرة ينفق نحو ثلثيه في لوازمها ويدخر الباقي لاجل ترميمها . واعظم
منارة بنيت في انكلترة مما يجدر بان يعد من عجائب الدنيا منارة ارستون
وذلك في سنة ١٦٧٠ . ولكن طم عليها الماء في احدى الستين فابادها راسا
فلم يبق منها سوى قطعة سلسلة من حديد . واول منارة عرفت في الزمان
القديم المنارة التي بنيت على صخر فاروس قبالة الاسكندرية وكانت من
المرمر الابيض العجيب الصنعة وذلك في عهد بطليموس فيلادلفوس ملك

مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد فكانت النار توقد في قبتها دائما لهداية السفن
إلى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل انها كانت ترى من مسافة مئة ميل
وهو مظنة للانكار (٨) ويقال ان مصاريها بلغت ثلثمائة الف ليرة انكليزية
بحساب ان الدراهم كانت من ضرب مصر . وقد عدت من عجائب الدنيا
السبع وبلغت من الشهرة والعجب حتى ان اسمها اطلق على كل منارة
بنيت بعدها إلى يومنا هذا تقريبا * قلت وفي تاريخ مصر لعبد اللطيف
البغدادى ان بعض ذوي العناية ذكروا ان طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا
وان بعضهم قاسها فوجدوا مائتي ذراع وثلاثا وثلثين ذراعا وهي ثلث طبقات
الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع والطبقة الثانية مربعة وطولها احدى
وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلثون
ذراعا ونصف ذراع . قال « : وفوق ذلك مسجد ارتقاه نحو عشر اذرع » .
قلت وعجائب الدنيا فيما عدا بعضهم ما عدا ما ذكره اهرام مصر والموزليوم
وهي قبر بنته ارطيميسيا لموزولوس ملك قاريا وهيكل ديانة ابنة جوبيتر في
افسوس واسوار مدينة بابل وحدائقها المتدلية وصنم الشمس من نحاس
في رودس ويقال له قولوسوس وصنم جوبيتر . وقيل ان جوبيتر هو هبل عند
جاهلية العرب . قلت ومن العجب في هذه العجائب انهم لم يعدوا منها
سند الصين فقد قال فليثير ان دورته مسافة الف وخمسمائة ميل مرتفعا على
جبال شامخة ومنحدرا في اماكن وعرة المرتقى وعرضه في جميع هذه المواضع
عشرون قدما وارتفاعه اكثر من ثلثين وهو اعظم من اهرام مصر في القدر
والمنفعة بناه اهل الصين حاجزا بينهم وبين التتر وذلك في سنة ١٣٧ قبل الميلاد *
وبقي لى هنا ان لاحظ معنى في الجنة المذكورة في القرآن فاقول الظاهر انها
على صفة جنان بابل لانه يقول « جنات تجري من تحتها الانهار » وكون
تحت في جميع هذه المواضع بمعنى في على الاستعارة التبعية فيه غرابية
والاولى ان يقال ان المراد تحت قصورها . وفي مشارق الانوار ان الجنة في
السماء كما دل عليه قوله صلعم ان سقفها عرش الرحمن وهو فوق سبع
سموات * امسا هواء انكثرة فانه كثير الثقل يختلف في اليوم الواحد

مرات وبينما يكون الجو مصحيا والسماء نقيّة ساطعة اذا بالغيم قد طبق
الافق وتراكم حتى تحسب انها لم تكن قط . وقد يبلغ درجات الهواء
في يوم ثلثين وفي غده خمسين ومع ذلك فلا يصح ان يحكم عليه بانه وخيم
ولاسيما على من الفه فان الغالب على بنية الانكليز الصلابة والشدة وان
كثيرا منهم يعمرّون فوق المائة سنة . وفي مدة ثلث سنين مات في انكلترة
والس ٢٦٦ شخصا وعمرهم من المائة فصاعدا ومات رجل في خط «هولي
ود» وقد بلغ من العمر مائة وثلث عشرة سنة وبقي متمتعاً بجميع حواسه
واوصى وصيّة بينة ولم يعرف المرض إلّا قبل موته بساعة واحدة * ومتى
تم لهم صحو يوم تام رايت الناس جميعا يلهمجون بهماسه ويذكرون بهجته
فهو عندهم عيد وموسم . وفي الحقيقة فانه اذا انجلي الغيم وظهرت الشمس
في الجو لم يكن شيء ابهج من ذلك فان بلادهم كلها مروج وغياض كما
ذكرنا سابقا وقد ترى في الاشجار المتصادفة الوانا مختلفة وترى الحقول
كانها بسط من سندس اخضر . ولا يخفى ان هواء الرستاق والريف اصح
واسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والغفونات والاقذار إلّا
انه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين تكون المسالك وحلة فلهذا
يمكن ان يقال ان اهل المدن اكثر حركة ورياضة من اهل الارياض
وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هواء هولاء وخامته عند اولئك وقد
سبقت الاشارة اليه . فاما سن ابتلى بالسل والربو وضيق الصدر فلا يصح
له مكان من هذه البلاد ايا كان . وكما ان ليايهم في الشتاء تكون طويلة
جدا فان النهار اذ ذاك عبارة عن ثماني ساعات كذلك تكون في
الصيف قصيرة جدا فان النهار في شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة
ونصفا فيكون الليل كله كالشفق إلّا ان يلبس الغيم والدكنة * ولندكر لك
جملة من الكلام على الهواء هنا لتخذها قانونا تقيس عليه فاقول انه في
الثاني عشر من شهر تشرين الاول احوج البرد الى ايقاد النار وكنا نرى
اهل القرية كلهم يصطلون فحذونا حذوهم وبقيت الشمس اياما عديدة لا
ترى إلّا لمحا وكانت تطلع في الساعة السادسة وتغرب في الخامسة ولا

يكد يكون بعد غروبها شفق . وفي الواقع فان النار عندهم تقوم مقام الشمس فانهم يتشفون عليها الثياب ويتلذذون بالنظر اليها ولا سيما اذا كانت ذات لهب . وقد بلغت منهم الفتن بها حتى انهم اذا جلسوا في الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد وآثروا على الجلوس عند الشبايك . إلا انه من يجلس عند الموقد فلا بد له من ان يغسل يديه ووجهه في اليوم مرارا حتى ان غلاته تنسخ من تحت ثيابه . وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع في الساعة السابعة وتغيب قبل الخامسة . وفي السادس من تشرين الثاني كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعيد الرابعة . وفي هذا الشهر يكثر وقوع الصباب فيأخذ بالكظم اذ المشي فيه لا يحلو من بعض اذى يالحق البصر ويسمون هذا الشهر « نهار الاعناق » لكثرة الانتحار فيه . وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم فكانت الشمس ترى عامة النهار ولم يكن البرد يحوج الى الاصطلاء وانما كنا نوقد النار لجرد الارتياح الى زويتها كما هي عادتهم . وفي السنة الثانية قبل العيد المذكور اصحت السماء مدة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها الى غروبها ولكن وقع برد شديد جدت منه المياه حتى في لانية فلم يكن كب الساجفة كما قال صاحب القاموس مانعا له . وكانت الاولاد تطفر على المناقع والبرك كما تطفر على الصخرة الصماء واذا كسرتها تشققت عن الواح كلوح الباب . والتزلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى ان البرنس البرت زوج الملكة يطفر مع خواصه في موضع خاص به . وحسن يتزلقون يلبسون نعالا كالباقين وهو عندهم من الامور الرياضية * وكنا نرى الصقيع على وجه الارض كأنه ملح موشوش وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان واذا القيت منه على الارض لم يلبث ايضا ان يجمد * اما المطر فلم يقع الى وقت الميلاد إلا رذاذا قلما ينزل سجا كما ينزل في بر الشام ومالطة . واذا انقطع عنهم شهرا فاكثرا لا يستسقون بالايدي كما يفعل المالطيون لان قراهم لا يزال نديا من المطر السابق . واكثر وقوعه في الخريف والربيع . فاما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة وانما سمعناه

في ايار والشمس حارة . وكان شهر نيسان ابرد من اذار وفي اواسطه سقط
ثلج وبرد عارم . وكان آخر اذار ابرد من اوله فقد احتجبت فيه الشمس
اياما متوالية . وللانكليز في محاوراتهم وكتبهم لهج عظيم بحاسن شهر ايار
وبهجة لانكسار حدة البرد فيه إلا انه في الواقع من انحس الشهور
وذلك لانقطاع الفاكهة والبقول فيه إلا ما نذر . وفي اوله تدور الصبيان
والبنات يغنون ويجتدون من اهل البيوت ومن المارين في الطريق . وكان
قدماء الانكليز يرقصون فيه في الحقول والمزارع ويجعلونه يوم مسرة وطرب
حتى انه الى الان يعيده الاوباش في لندرة فيتخذون نحو شجرة ويرقصون
حولها في الشوارع . وفي اواسط شهر شباط يطوفون وهم يغنون لفالتين وهو
عندهم يوم تزواج الطيور وفيه يتهاذى العاشقون والعاشقات بالرسائل والاشعار
على طروس مزخرفة (٩) . وفي اوائل العام الثاني غطي الثلج وجه الارض
والسطوح وروس الشجر ولم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع
ويقال ان كثيرا يهلكون في الطريق حينئذ اذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون
في مهواة على حين غفلة فيعطون . وربما سقط على الشاء في الحقول فنزل
الطريق . وقد سمعت ان امرأة سقط عليها الثلج وهي تحت شجرة تستدري
بها فلم يكتفها السحول من موضعها فلبثت هناك بصع ايام والثلج متماقظ
عليها حتى جاء سن اخرجها منه وقد سقطت اصابع يديها ورجليها وبقيت
يعد ذلك حية . ويقال ان بقاء الثلج في المزارع اياما ينمي الزرع ولا
يضره . ولا شيء اشق على الماشي من المشي عليه حين يذوب بخلاف ما
اذا كان متلبدا . ومن اول شهر حزيران الى العشرين منه حصل حر يقرب
من حر مالطة وكانت الشمس تبدو من اول النهار الى آخره . ثم اكفهر
المجودهم البرد ووقع المطر الغزير . وحين اشتداد الحر يبلغ ثمانين درجة
والبرد عشرين . وابد الرياح عندهم هي الشرقية ثم الشمالية اما الغربية
فلا تكاد تأتي من دون مطر . والغالب حينئذ ان تنكسر سورة البرد ويعقد
دفي مغر بالكسل والعجز حتى يئود الانسان ان تعود الرياح الباردة وان
طارت عنه الثياب . وبما مر بك من تقلب حال الهواء تعلم انه لا يحسن

مليوناً وأربعمائة وأربعة وخسين ألفاً وسبعمائة وخمسة وأربعين بيضة . وفي سنة ١٨٥٠ جلب من الجبن سبعة وعشرون ألف طن . وفي سنة ١٨٤٦ جلب من أيرلندة من البقر واحد وثمانون ألفاً وخمسمائة واثنتان وتسعون رأساً ومن الغنم مائة ألف وثلثمائة وستة وستون رأساً ومن الخنزير ثلثمائة واحد وثمانون ألفاً وسبعمائة وأربعة وأربعون رأساً . وقيمة ما جلب من البطاطة في العام الماضي بلغ نحو عشرين ألف ليرة وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني وبهذا يتبين لك ما يلزم لأعلى هؤلاء القوم وأسافلهم . وفي الحقيقة فإن أنكلترة قد ضاقت بأهلها ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مليونين وخمسمائة ألف نفس (٣) . وفي سنة ٥٦ هاجر منها ومن أيرلندة مليونان وثمانمائة ألف . وأحسن أقاليمها في النضارة والريع أقليم « كنت » وفي كثرة أشجار الفاكهة « دنشر » وإذا دخلت حمى « ششر » فهرول * أما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة منها الخيل وهي نوعان ضليع ضخمة وهو ما يستعمل في جر الأثقال فيكون كالبرج المرفوض ويحمل أربعمائة رطل من الرطالهم وثمان مائة ليرة . والثاني خفيف مشوق وهو للركوب والسباق أو لجر عواجل العظماء وربما مشى في الساعة ثمانية عشر ميلاً . ويقولون أن خيلهم اعتق من خيل العرب وأن سلالة بعضها من تلك . ويقال أنه في زمن الملكة اليمابث لم يكن في جميع مملكة أنكلترة أكثر من ألفي فرس . وبقرة تعظم في عظم جواميس مصر ولحمها طيب إلا أنه كثير الدم وهي حسنة الخلقة والشكل وكذلك غنمهم تسمن سمناً فاحشاً وهي أيضاً مريحة ولكن ليس لها إلا غنم الشام ولعلها هي النوع الذي يقال له القهد . والهر عندهم طريف وهو أخرى بان تحلق الحواجب على فقهه من هر قدماء المصريين . أما الحمير فإنها قيحة وغير فاهرة على قلة وجودها ولا وجود للبالغ عندهم ونذر روية المعزى . ومما من الله به على هذا البلاد أن ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلا ولا سوام أبرص ولا ابن آوى يعوى في الليل ولا نمر ياكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ولا براغيث في الريع إلا نادراً . ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها وهي تجري تحت

مخشب البيوت وكذا البق لكثرة اللواح في منازلهم . قال في ابجدية الاوقات : هذا الجرذ لاسمر الذي يسمى جرذ نوروي غطا هو اعظم رزيمته في ديارنا واصل بجيمه الينا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية في اسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال انه في سنة ١٧٢٩ زحفت اسراب جرذان لا تحصى من البوادي الغربية الى اسطراخان حتى لم يمكن ردهم بوجه ما وفي اوسط القرن السادس عشر زحفوا حتى دنوا من باريس إلا ان كثيرا من جهات فرنسا لم يزل خاليا من هذه البلية (٤٤) *

فائدة في عمر الحيوان

زعم بعض ان الحصان يعمر من ثماني سنين الى اثنتين وثلثين سنة والثور عشرين والبقرة ثلثا وعشرين والحصان ثلثا وثلثين واصل نتاجه في بلاد العرب والبغل ثماني عشرة والشاة من الغنم عشر سنين والكبش خمس عشرة والكلب من اربع عشرة الى خمس وعشرين والخنزير خسا وعشرين والعنز ثماني سنين والقط عشرا والحمامة ثماني والوزة ثماني وعشرين والبيغا من ثلثين الى مائة واليمامة من خمسين الى مائتين * وقال بعضهم الدب يعيش عشرين ونحوه الكلب والذئب والثعلب من اربع عشرة الى ست عشرة ولاسد نحو سبعين والقط في الجملة اربع عشرة والارنب سبع سنين والفيل قد يعيش اربعمائة سنة والخنزير ثلثين والكركدن عشرين والحصان من خمس وعشرين الى ثلثين والجمال نحو مائة والبقرة خمس عشرة والضان قلما يجاوز العشرين والوعمل يعمر طويلا والدلفين ثلثين والنسر قد يعيش مائة واربع سنين والغراب مائة والساحفة مائة وسبعا والبطة ثلثمائة وستين ونوع من الحيتان اسمه والس يعيش الف سنة (٥) *

اما بناوهم فمن لاجر لاجر او لايبض وقد يصغون خارج الديار او يكلسونه ثم يرسمون عليه خطوطا تبديده كأنه حجارة لا يدركه إلا سن دنا منه وترسمه ويقتى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فانها لما كانت هدفا للدخان والصاباب لم تلبث ان يسود كما سنذكر ذلك ان شاء الله . ولهم في تجديد الابنية مهارة غريبة وذلك انهم اذا ارادوا مثلا

هدم دار هدموا أولا اسفل جدرانها واسندوا القائم منها بعضائد ثم بنوا لاسفل
غربا نجر الهدم والبناء في وقت واحد . وبعض البيوت يبنون خارجها
كالسقينة من قطع خشب يعارضون بعضها بعض ثم يطينونها وربما كانت
تلك الاخشاب قديمة . وفي الجملة فان بيوت الفلاحين حسنة مهندمة
غير لان منها ما يكون اصغر من سطحه . فان السطوح عندهم على ثلاثة
انواع الاول من الواح الكنان وهي للديار الكبيرة والثاني من الخرف وهو
للبيوت الوسط والثالث من التبن . فهذا يكون قبيح المنظر وهو يرفع كما
يرقع الثوب . ويقولون انه احسن من غيره شتاء وصيفا فانه في الشتاء يمنع
البرد ويرد الثلج وفي الصيف يمنع الحر . ولا يكون السطح عندهم الا مسما
والفاصل بين الواح الزجاج في الشبايك اكثره قضبان رصاص بدلا من
الخشب وربما كان الزجاج مربعا او خمسا فيكون للعين ايقا . وحيث
كان في تلك السنة مكس الميري على الطيقان اذا زادت على ثمانية كان
الناس يتكاشون من مجاوزة هذا الحد ولكنه لان ابطل وقام مقامه مكس
آخر تمتعا بنور الله وهوائه . وكل بيت لابد وان يكون فيه عدة مواقد للنار .
واسرتهم كلها من خشب لا من حديد . والغالب ان ارض منازلهم تكون
مفروشة بالبد او البسط من الزرابي واثاثهم بين بين . وقل ان ترى عندهم
من الصور الا صورة كبير العائلة وصورة الخيل في السباق او صورة ارناب
وكلاب . اما بيوت الاغنياء والمترفين فلا شيء اجل منها لاحكام مبانيها وحسن
ترتيبها وحيطانها من داخل مغشاة بالورق الفاخر المنقش وطيقانها محكمة
كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفا والبريق ودرجها وارضية
مساكنها من الخشب المتين ولهم اسراف زائد في الاثاث فان اسرتهم
وموائدهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلها من الخشب المسمى بالمهايكون وقد
تبلغ قيمته في الجملة نحو خمسمائة ليرة . ومع ذلك فلان ترى لسيدة الدار
جليا من الماس او شالا من الكشميري وهي عكس عادتنا . ومن اسرافهم
ان يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش والزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس
يدوسون عليه . ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب حتى ان الفرنسيين

إذا ذكروا مرحاضا على هذه الصفة. قالوا انه مرحاض انكليزي . وكنت مرة صيفا لاحد نجلاتهم فلما اصبحت طلبت الكنيف فدللت عليه واذا هو في غاية الزخرفة والاحكام حتى اني اجمت عن فتحه واستعماله وخطر ببالي حينئذ ما قاله بعض الطرفا في نجيل انفق على كنيف له سبعمائة درهم قد استدانها « ليت شعري ما الذي يريد ان يخرا فيه » واجارة المسكن للغريب انما تكون بالاسبوع ولا بد ان يخبر اهل المنزل قبل خروجه باسبوع افاذا علموا ذلك تهاونوا في خدعه . واذا استاجر احد مسكنا في دار من مستاجر الدار وفرشه وكان المستاجر لا يودي غلته الدار الى مالکها حتى للمالك ان يستولي على كل شيء في الدار . واعلم ان البناء في الاصل كان من الخشب والطين ثم من الاجر ثم من الحجارة غير المهدمة فلما تمدن الناس وتبحروا في الصنائع صار من المرمر . والبناء من الحجر عرف عند اهل مصر من القديم ثم شهر عند جميع الاجيال ولم يعرف في انكلترة قبل سنة ٦٧٠ وكان المحدث له راهبا اسمه بناديكت . واول جسر بني منه في هذه البلاد كان في سنة ١٠٨٧ . اما البناء من الاجر فانما عرف عن الرومانيين وفي سنة ٨٨٦ امر به الفرد ملك الانكليز وفي سنة ١٥٩٨ استحسنت تعميره وكان بناء لندرة اذ ذاك من الخشب غالبا . واما الزجاج فيقال ان اول من تعلم صنعته هم اهل مصر فانهم اخذوها عن هرمس . وقال بلينيوس بل كان كشفه في سورية وكان له معامل في صور من القديم . وقد ذكره الرومانيون عهد طيسير يوس . وعلم من انقاص بومباي ان الزجاج وضع في الطيقان سنة ٧٩ قبل الميلاد (٦) واول ما شهر استعماله في اوربا كان في ايطاليا ثم عرف في فرنسا ثم في انكلترة وفي سنة ١١٧٧ استعمل في ديار بعض الاعيان ولكنه كان مجلوبا . ويفهم من كلام فلتير ان اول من شهره في بلاد الانكليز رجل من فرنسا وذلك في سنة ١١٨١ . وفي سنة ١٥٥٧ انشيء له معمل وفي سنة ١٦٣٥ اكسب رونقا وصفاء وفي زمن وليم الثالث انتفن الى الغاية * ومن سوء التدبير في بلاد الفلاحين انه لا يقيم في القرية من الشرطة الا واحد فلذلك يكثر فيها الحريق والسرقة . فان اهل القرية اذا لم يستخدمهم

مستاجر الارض يتقون معطلين متترعين الى ارتكاب كل شر فيعمدون الى
احراق اكاديس القمح والحشيش المكدسة في الحقول في ليلة ذات ربيع
فتسري النار الى بعض البيوت وليس من يطفئها ثم لا تلبث ان تلتشم
بالكلية وتسري الى غيره فربما احترقت القرية كلها في ليلة واحدة . وفي
مدة شهرين من اقامتي بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقه في اكادس
الغلال وكان سبب ذلك هولاء المعطلون عن الشغل تشفيا من غيظهم من
مستاجر الارض . ورايت آثار قرية كانت تشتمل على خمسين بيتا احترقت
باجعها في ليلة واحدة . بل ان كثيرا من هولاء الفجار ينهبون الكنائس
وقد يدخلون الديار من مداخل المواقد النافذة الى السطح ويسرقون ما
قدروا عليه . وفي كل ليلة قبل النوم توصي المخدمه خادماتها باطفاء النار
والنور . اما العاجزون والسقط فانهم يمكثون في المستشفى ويقوم بنفقتهم
القادرون من الرعية فان الميري لا ينفق شيئا على المستشفيات ولا على تصليح
الطرق ولا على ترتيب الشرطة ايضا . إلا ان اكثر الناس يستنكفون من
المكث في المستشفى لقشف المعيشة فيه . وقد تقرر عند الانكليز جيعا ان
التصدق على الفقراء يحملهم على الكسل والتواني فما يعطون فقيرا اذا مروا به
ولو كان عريانا . ويمكن ان يقال ان اكثر فقرهم هو من انهماكهم في
شرب المسكرات فانك ترى منهم فقراء كثيرين باخلاق من الشيب ومهما
يكسبه ينفقوه في الجعة ولا يزالون يكرعون منها حتى تجحط عيونهم وتسعقد
الستهم عن الكلام . ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في الشتاء
للتسخين وفي الصيف للترطيب . ومع ذلك فهم بالنسبة الى اهل المدن
الجامعة اصحى واعف كما انهم اسخى منهم واكرم . وهذا خطه عامه
في جميع البلاد فان اهل المدن لما كان احتياجهم الى اسباب المعيشة والرفاهية
اكثر كان الكرم فيهم اقل . وذكر بوخان انه عرف في زمانه نساء بعض
اولادهم بالجعة (٧) * ثم ان الانكليز طالما افتخروا بهنأ العيش داخل
ديارهم وهو عبارة عن امرين احدهما التمتع بكل ما يلزم للانسان في معيشته
والثاني ترتيب وضع الاشياء الممتنع بها وهو ان يكون لكل شيء موضع خاص

به ولكل موضع شيء فمن غسل يديه عند كل مرة بالبركة من ماء
 المنشفة من جانب المائدة من دون أن يمسها بيده
 انصف بانه متعني وقس على ذلك . وأخبرني
 الناس ترتيبا واحكمهم وصعا للأشياء وكانهم اندرهم
 صاغر ومن تعود على هذه الحال عندهم فلا يمكن أن
 الإسلامية ولا يوما واحدا . قالوا وعلى هذا الأصل بنيت
 تبوأها احد لا يحب أن يخرج منها ولا سيما وضع مواضعهم
 الفحم ما شئت وبذلك يحصل لهم الدفء في الشتاء
 يكون . وعندهم نحو ثمانمائة ألف بيت مفرد يقال لها « كوني »
 يمكن لغيرهم من الناس أن يعيش في مثلها حاله كونها مفردة
 بأن مبالغهم مربعة غصنة بحيث تكفي لكل ما يلزم لهم وأن اثابهم
 وأفية بالمراد حتى لا يمكن للشهواني أن يقترح شيئا زائدا عليها فليست
 محلها . فقد مر بك أن كثيرا من القول والفاكهة لا يثبت عندهم فاما
 جهة الأثاث فإن جميع سكان أوربا المتمدنين مشتركون فيه على أنهم
 محرومون من كثير من الملهي والفرج * هذا وكما أن أرض انكلترا كلها
 محروثة عامر كذلك كانت شطوطها باجعتها مرصعة بالمنابر والأعلام لهداية
 السفن . فإن في سواحلهم مائتي منارة لا تزال أنوارها متقدة الليل كله وجملة
 المنابر التي في سواحل فرنسا الشمالية والغربية تسع وثمانون والتي في
 هولاندة ست وعشرون . ومصاريف منابريهم تؤخذ من رسم يجعل على السفائن
 المشحونة التي تمر بها وهو يختلف . وقد يبلغ في السنة مائتين وخمسين
 ألف ليرة ينفق نحو ثلثيه في لوازمها ويدخر الباقي لأجل ترميمها . وأعظم
 منارة بنيت في انكلترا مما يجدر بأن يعد من عجائب الدنيا منارة ارسطون
 وذلك في سنة ١٦٧٠ . ولكن طم عليها الماء في إحدى الستين فابادها رأسا
 فلم يبق منها سوى قطعة سلسلة من حديد . وأول منارة عرفت في الزمان
 القديم المنارة التي بنيت على صخر فاروس قبالة الاسكندرية وكانت
 المرمر الأبيض العجيب الصنعة وذلك في عهد بطليموس فيلادلفوس .

مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد فكانت النار توقد في قبتها دائما لهداية السفن
إلى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل انها كانت ترى من مسافة مئة ميل
وهو مظنة للانكار (٨) ويقال ان مصاريها بلغت ثلثمائة الف ليرة انكليزية
بحسب ان الدراهم كانت من ضرب مصر . وقد عدت من عجائب الدنيا
السبع وبلغت من الشهرة والعجب حتى ان اسمها اطلق على كل منارة
بنيت بعدها الى يومنا هذا تقريبا * قلت وفي تاريخ مصر لعبد اللطيف
البغدادي ان بعض ذوي العناية ذكروا ان طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا
وان بعضهم قاسها فوجدوا مائتي ذراع وثلاثا وثلثين ذراعا وهي ثلاث طبقات
الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع والطبقة الثانية مثمثة وطولها احدى
وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلثون
ذراعا ونصف ذراع . قال «: فوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع » .
قلت وعجائب الدنيا فيما عده بعضهم ما عدا ما ذكره اهرام مصر والموزليم
وهي قبر بنته ارطميسيا لموزولوس ملك قاريا وهيكل ديانة ابنة جوبيتر في
افسوس واسوار مدينة بابل وحدائقها المتعدية وصنم الشمس من نحاس
في رودس ويقال له قولوسوس وصنم جوبيتر . وقيل ان جوبيتر هو هبل عند
جاهلية العرب . قلت ومن العجب في هذه العجائب انهم لم يعدوا منها
سد الصين فقد قال فليثيران دورته مسافة الف وخمسمائة ميل مرتفعا على
جبال شامخة ومنحدرا في اماكن وعرة المرتقى وعرضه في جميع هذه المواضع
عشرون قدما وارتفاعه اكثر من ثلثين وهو اعظم من اهرام مصر في القدر
والمنفعة بناء اهل الصين حاجزا بينهم وبين الشر وذلك في سنة ١٣٧ قبل الميلاد *
وبقي لي هنا ان لاحظ معنى في الجنة المذكورة في القرآن فاقول الطاهر انها
على صفة جنان بابل لانه يقول « جنات تجري من تحتها الانهار » وكون
تحت في جميع هذه المواضع بمعنى في على الاستعارة التبعية فيه غرابة
والاولى ان يقال ان المراد تحت قصورها . وفي مشارق الانوار ان الجنة في
السجاء كما دل عليه قوله صلعم ان سقفها عرش الرحمن وهو فوق سبع
سموات * اما هواء انكثرة فانه كثير الثقل يخيل في اليوم الواحد

مرات وبينما يكون الجو مصحيا والسماء نقيّة ساطعة اذا بالغيم قد طبق
الافق وتراكم حتى تحسب انها لم تكن قط . وقد يبلغ درجات الهواء
في يوم ثلثين وفي غده خسين ومع ذلك فلا يصح ان يحكم عليه بانه وخيم
ولاسيما على من الفه فان الغالب على بنية الانكليز الصلابة والشدة وان
كثيرا منهم يعمرّون فوق المائة سنة . وفي مدة ثلث سنين مات في انكلترة
والس ٢٦١ شخصا وعمرهم من المائة فصاعدا ومات رجل في خط «هولي
ود» وقد بلغ من العمر مائة وثلث عشرة سنة وبقي متمتعا بجميع حواسه
واوصى وصيّة بينة ولم يعرف المرض إلّا قبل موته بساعة واحدة * ومتى
تم لهم صحو يوم تام رايت الناس جميعا يلهجون بحماسة ويذكرون بجهته
فهو عندهم عيد وموسم . وفي الحقيقة فانه اذا انجلي الغيم وظهرت الشمس
في الجو لم يكن شيء ابهج من ذلك فان بلادهم كلها مروج وغياض كما
ذكرنا سابقا وقد ترى في الاشجار المتصادفة الوانا مختلفة وترى الحقول
كانها بسط من سندس اخضر . ولا يخفى ان هواء الرستاق والريف اصح
واسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والغفونات والاقذار إلّا
انه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين تكون المسالك وحلة فلهذا
يمكن ان يقال ان اهل المدن اكثر حركة ورياضة من اهل الارياق
وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هواء هولاء ووخامة مند اولئك وقد
سبقت للاشارة اليه . فاما سن ابتلى بالسل والربو وضيق الصدر فلا يصح
له مكان من هذه البلاد ايا كان . وكما ان لياليهم في الشتاء تكون طويلة
جدا فان النهار اذ ذاك عبارة عن ثماني ساعات كذلك تكون في
الصيف قصيرة جدا فان النهار في شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة
ونصفا فيكون الليل كله كالشفق إلّا ان يلبس الغيم والدكنة * ولندكر لك
جملة من الكلام على الهواء هنا لتتخذها قانونا تقيس عليه فاقول انه في
الثاني عشر من شهر تشرين الاول احوج البرد الى ايقاد النار وكنا نرى
اهل القرية كلهم يصطلون فحذونا حذوهم وبقيت الشمس اياما عديدة لا
ترى إلّا لحما وكانت تطلع في الساعة السادسة وتغرب في الخامسة ولا

يكاد يصكون بعد غروبها شفق . وفي الواقع فان النار عندهم تقوم مقام الشمس فانهم ينشفون عليها الثياب ويتلذذون بالنظر اليها ولا سيما اذا كانت ذات لهب . وقد بلغت منهم الفتنة بها حتى انهم اذا جلسوا في الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد وآثروا على الجلوس عند الشبايك . إلا انه من يجلس عند الموقد فلا بد له من ان يغسل يديه ووجهه في اليوم مرارا حتى ان لالته تنسخ من تحت ثيابه . وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع في الساعة السابعة وتغيب قبل الخامسة . وفي السادس من تشرين الثاني كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعيد الرابعة . وفي هذا الشهر يكثر وقوع الضباب فيأخذ بالكظم اذ المشي فيه لا يخلو من بعض اذى يلحق البصر ويسمون هذا الشهر « نهار الاعاق » لكثرة الانتحار فيه . وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم فكانت الشمس ترى عامة النهار ولم يكن البرد يحوج الى الاصطلاء وانما كنا نوقد النار لجرد الارتياح الى رويها كما هي عادتهم . وفي السنة الثانية قبل العيد المذكور اصحت السماء مدة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها الى غروبها ولكن وقع برد شديد جدت منه المياه حتى في الانية فلم يكن كب الساجفة كما قال صاحب القاموس مانعا له . وكانت الاولاد تطفر على النافق والبرك كما تطفر على الصخرة الصماء واذا كسرتها تشققت عن الواح كلوح الباب . والتزحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى ان البرنس البرت زوج الملكة يطفر مع خواصه في موضع خاص به . وحين يتزحللون يلبسون نعالا كالبقايب وهو عندهم من الامور الرياضية * وكنا نرى الصقيع على وجه الارض كأنه ملح مرشوش وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان واذا القيت منه على الارض لم يلبث ايضا ان يجمد * اما المطر فلم يقع الى وقت الميلاد إلا رذاذا وقلما ينزل سحبا كما ينزل في بر الشام ومالطة . واذا انقطع عنهم شهرا فاكثرا لا يستسقون بالايدي كما يفعل المالطيون لان فراهم لا يزال ندبا من المطر السابق . واكثر وقوعه في الخريف والربيع . فاما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة وانما سمعناه

في ايار والشمس حارة . وكان شهر نيسان ابرد من اذار وفي اواسطه سقط
ثلج وبرد عارم . وكان آخر اذار ابرد من اوله فقد احتجبت فيه الشمس
اياما متوالية . وللانكليز في محاوراتهم وكتبهم لهج عظيم بحاسن شهر ايار
وبهجتهم لانكسار حدة البرد فيه إلا انه في الواقع من الناحية الشهيرة
وذلك لانقطاع الفاكهة والبقول فيه إلا ما ندر . وفي اوله تدور الصبيان
والبنات يغنون ويحتدون من اهل البيوت ومن المارين في الطريق . وكان
قدماء الانكليز يرقصون فيه في الحقول والمزارع ويجعلونه يوم مسرة وطرب
حتى انه الى الان يعيده الاوباش في لندرة فيتخذون نحو شجرة ويرقصون
حولها في الشوارع . وفي اواسط شهر شباط يطوفون وهم يغنون لفالنيتين وهو
عندهم يوم تزاوج الطيور وفيه يشاهد العاشقون والعاشقات بالرسائل والاشعار
على طروس مزخرفة (٩) . وفي اوائل العام الثاني غطى الثلج وجه الارض
والسطوح وروس الشجر ولم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع
ويقال ان كثيرا يهلكون في الطريق حينئذ اذا لم يكونوا خبيرين بها فيبتعدون
في مهواة على حين غفلة فيعطون . وربما سقط على الشتاء في الحقول فنضل
الطريق . وقد سمعت ان امرأة سقط عليها الثلج وهي تحت شجرة تستدري
بها فلم يمكنها التحول من موضعها فلبثت هناك بضعة ايام والثلج متساقط
عليها حتى جاء سن اخرجها منه وقد سقطت اصابع يديها ورجليها وبقيت
بعد ذلك حية . ويقال ان بقاء الثلج في المزارع اياما ينمي الزرع ولا
يضره . ولا شيء اشق على الماشي من المشي عليه حين يذوب بخلاف ما
اذا كان متلبدا . ومن اول شهر حزيران الى العشرين منه حصل حر يقرب
من حر مالطة وكانت الشمس تبدو من اول النهار الى آخره . ثم اكفهر
الجو ودم البرد ووقع المطر الغزير . وحين اشتداد الحر يبلغ ثمانين درجة
والبرد عشرين . وابد الرياح عندهم هي الشرقية ثم الشمالية اما الغربية
فلا تكاد تأتي من دون مطر . والغالب حينئذ ان تنكسر سورة البرد ويعقبه
دفء مفر بالكسل والعجز حتى ينود الانسان ان تعود الرياح الباردة وان
طارقت منه الثياب . وبما مر بك من تقلب حال الهواء تعلم انه لا يحسن

ان يترجم الـ لغتهم قول الشيخ ناصيف اليازجي من قصيدة يمدح بها الملكة وهو:

« تلوي الرياح مثاني الرمل عاصفة * حتى تصيب اراضيها فتعتدل »
وهو نظير قول المتنبي:

« اذا انتها الرياح الهوج من بلد * فما تهب بها إلّا بترتيب »
اذ لا اعتدال فيها ولا يوما واحدا . وقلت انا من قصيدة طويلة :

ما ان يحيل حول في هوائهم * هوى نفوسهم عن مذهب الخير
اشارة الى ان تقلب الهواء عندهم لا يغير طباعهم عن فعل الخير . و « الخير »
بالكسر الكرم والشرف والاصل والهيئة . وقول الشيخ ناصيف « فتعدل » هو
كقول الحطيمية « يريد ان يعربه فيعجمه » اي « فهو يعجمه » وفي الحقيقة
فانه عند شدة البرد هنا لا يفكر الانسان إلّا في الاصطلاء ولا تزال تسمع من
كل من تلقاه لفظ البرد واذا تقوى بها فرك يديه وتافى ليدل على صدق
ما يقول ولا سيما النساء . حتى انهم ربما قالوا ذلك في يوم لا برد فيه فكان
الستهم مرنت على ذلك . وكثيرا ما تنقرا ذلك ايضا في كتبهم . ويسمون
المرأة « رفيقة الموقد » والاصافة بتقدير « عند » . وما احد يحرك النار عندهم
إلّا من كان من اهل البيت او من طالت الفته وقدم العهد بمعرفته . وفي
الجملة فان النار لا يستغنى عنها مدة ثمانية اشهر في السنة . فلو كان
سكان اهل هذه البلاد مسلمين لما راوا في وصف الجنة نعيما لان الانسان اذا
كان مقرورا لا يشتهي ان يسمع بذكر المياه تجري والظلال تمتد وان تكون
الجنان مدهامة وما اشبه ذلك بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطربة .
ومواقدها محتدمة . وحطبها معتد . وحطبها منضد . وفحمها موبد . ومسعرها
مخلد . فهنيئا للمصطلين . وطوبى للمستدفئين . وما احد ينكر ان عبادة
النيران في بلاد الفرس نشأت عن البرد . قال ابو صارة في المعنى :

« احل لنا ترك الصيام بارضكم * وشرب الحميا وهو شيء محرم »

« فوارا الى نار الجحيم فانها * ارق علينا من شليس وارهيم »

لئن يك ربي مدخلي في جهنم * ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم »

واعلم ان اهل البلاد الحارة يكونون اسرع فهما واذكى ذهنا من اهل البلاد الباردة إلا انهم لا يكون لهم جلد على الاعمال الشاقة لغلبيتة الترهل عليهم ولا عظيم همة لمباشرة المساعي الخطيرة ولا يمكن ان ياحقوا اهل البلاد الباردة في العز والغنى إلا ان يكون لبعض البلاد مزيتة خاصة بوجود المعادن وغيرها كبلاد الهند مثلا . اما سكان البلاد الباردة فيتحملون مشاق الاعمال ويستطيعون على ادمان السعي ويعمرون اكثر ولهذا كان جل الفاتحين والغازين من الشمال . وكان جزيرة العرب مستثناة من هذا الحكم . إلا ان ايامهم في الشتاء تكون قصيرة جدا فلا يمكنهم ان يعملوا فيها على حسب تحملهم فيضطرون الى العمل ليلا . وربما كئبت ايديهم من شدة البرد . وفي كتاب منسوب الى ارسطو ان اهل البلاد الحارة يعملون اكثر من اهل البلاد الباردة لان الحرارة الطبيعية يتأتى حفظها في الاولى اكثر من الثانية ولا ارى قوله مطابقا للواقع إلا ان يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة في البرودة والبلاد الحارة على معنى المعتدلة في الحرارة . ولنختم كلامنا على الهواء بفائدة لا بأس بذكرها فنقول : ان اصل اختراع ميزان الهواء فيما علم كان في ايطالية . وفي سنة ١٦٢٦ طبع صنعوريا الطبيب في بادوة كتابا ادعى فيه انه هو الذي اخترعه وادعى هك الدعوى ايضا رجل هولاندي اسمه كرنيليوس دريل وبعد البحث والتدقيق علم ان الاول وان يكن قد سبق الى الدلالة على استعماله إلا ان الثاني هو الذي عرف خواصه من قبل ان سمع شيئا عن ذلك . اما معادن الانكليز فاشهرها القصدير والصفر والحديد والفحم وهذان الاخيران اقنى وانفع لهم من سائر المعادن النفيسة اذ لولاها لم يتأت لهم انشاء الوف من سفن النار وسكك الحديد والغاز وغير ذلك . وليس كل البلاد التي فيها معادن الذهب والفضة باغنى من غيرها فان من المعادن ما تقوم نفقته استخراجها بفائدته فلا يحصل منه نفع إلا مجرد الافتخار بوجوده وانما العمدة على سهولته استخراجها وقلته مصروفه . واكثر ما يوجد الذهب في افريقية ويا فان وفي جنوب اميركة (٩٩) وفي هذا الاخير عشر عليه الاسبنيول في سنة ١٤٩٢ . ومن ذلك التاريخ

السنه ١٧٣١ جلب منه الى اوربا ستة آلاف مليون شذرة قيمة كل
منها ثمانية ريات . ويكثر وجوده ايضا في جبال اورال بالروسية ويوجد
منه معدن في كورنوال بانكلترة وفي وركو بارلندة . واكثر ما ياتي الانكليز
من الذهب فانها هو من اوستراليا وكاليفورنيا قيل انهم يجلبون منه في كل
سنه عشرين مليون ليرة . واول من كشفه في الاولى ادورد هركافس وذلك
في سنه ١٨٥١ فاطلع ارباب الحكم بذلك طمعا في الجائزة فاجازوه . وولوه
خولية ارض الميري . ومن جلة ما وجد فيها قطعة ذهب ابريز وزنت مائة
وست ليرات . ووجد في تحليل منها الى غاية تشرين الاول سنه ١٨٥٢
مليونان وخسمائة واثنان وثلثون الفا واربعمائة واثنان وعشرون اوقية
انكليزية او مائة وخمسة اطنان وبلغت قيمة الذهب الذي بعث منها
الى الخارج الى ذلك التاريخ ثمانية ملايين وثمانمائة وثلاثة وستين الفا
واربعمائة وسبع وسعين ليرة ومن ذلك الوقت تتابع وروده الى هك البلاد
ويحتمل ان في اوستراليا معادن اخرى وكنوزا جزيلة لم تنكشف الى الان
فمضى كشفت تكون داعية لعجب اهل الدنيا وهك الجزيرة هي اكبر جزيرة
في المسكونة واصغر ارض قارة فانها دون امريكا بنحو ستة اضعاف وكان
استعمار الانكليز لها بعد انفصال تلك عن بلادهم وفي سنه ٥٤ بلغ عدد اهل
اوستراليا مائتين وستة وثلثين الفا وسبعمائة وثمانين وتسعين نفسا وهي اقل
بلاد الدنيا اثنا * امريكا * واول من كشف امريكا رجل من جنوى اسمه
كريبستوفر كولمبس وذلك في سنه ١٤٩٢ . قيل اذا صارت مملكة الدول
المستجدة في امريكا ماهولة كهولاندة فتكون تسع تسعمائة مليون من
الناس وهو نصف سكان المسكونة (١٠) واهلها لان سبعة وعشرون مليونا
وقيمة ثروتهم من نقود واملاك ثلثة بلايين (١١) ولما كان الانكليز يبنون
مجلس المشورة بلندرة انشا لاميريكا نيون في بلادهم سبعة وعشرين الفا وخسمائة
ميل لسكة الحديد كلفت نحو ثلثمائة مليون ليرة . وفي غضون ذلك انشا
لانكليز تسعة آلاف ميل كلفتهم نحو المبلغ المذكور . والذي ورد الى خزنة
الدولة في سنه ١٨٥٧ من جميع موارد بلغ نحو ثمانية وعشرين مليون ريال

ونصف مليون . والمبلغ الذي كان فاصلا فيها نحو عشرين مليونا . وبلغت مصاريف الدولة سبعين مليونا . وكانت بحال البسطة فيها في سنة ١٨٢٧ سبعة آلاف وفي سنة ١٨٣٧ أحد عشر الفا ومائة وسبعة وسبعين وفي سنة ٤٧ خمسة عشر الفا ومائة وستة وأربعين وفي سنة ٥٧ ستة وعشرين الفا وخمسمائة وستة وثمانين وكان طول مواضع البسطة في سنة ٢٧ مائة وخمسة آلاف وثلثمائة وستة وثلثين ميلا وفي سنة ٣٧ مائة واحد وأربعين الفا ومائتين واثنين وأربعين ميلا وفي سنة ٤٧ مائة وثلاثة وخمسين الفا وثمانمائة وثمانية عشر ميلا وفي سنة ٥٧ مائتين واثنين وأربعين الفا وستمائة ميل وميل وفي بلاد الدول المتحدة تسعة آلاف رطل لسكة الحديد وهو عبارة عن رطل واحد لكل ثلاثة اميال . ثم وجدت في بعض الصحف ان طول سكك الحديد في اميركا كان في سنة ٥٧ اربعة وعشرين الفا واربعمائة وستة وسبعين ميلا وأنه في اول سنة انشائها عندهم وهي سنة ١٨٢٨ لم يكن عندهم إلا ثلاثة اميال فانظر الى هذا الفرق . فامسا ما خرج من كاليفورنيا فانه بلغ في السنة خمسة ملايين ليبرة وبلغت قطعة الذهب فيها الى خمس وعشرين ليبرة فكان الرجل يسعد من شغله وقيصر لم يتسبح . وقيل ان الدول المتحدة لما بلغها خبر وجود الذهب في ذلك الاقليم بعثت حاكما اليه فاما كان بعد وصوله إلا ان حل المعركة واقبل يحفر عن الذهب . وكان كشف كاليفورنيا في سنة ١٥٣٥ وكانت في سنة ١٨٤٦ من اعمال مكسيكو تابعة لاسيانيا ثم استولت عليها الدول المتحدة . وكان كشف الذهب فيها في سنة ١٨١٧ وقيل انه كان معروفا قبل ذلك التاريخ لبعض اشخاص ولكنهم كتموه . وهنا اللفظة محرفة عن لفظتين من اللغة الاسبانية معناهما لا تون الحامي ولا يبعد ان يكون ذلك عربيا فان كالي محرف عن قالي من قليت اللحم ونحوه وفورنيا من القرن وانما خطر به الى ذلك لان اللغة الاسبانية مشحونة بالالفاظ العربية . قال في البجدية لاوقات اما معادن انكثرة فكثيرة غنية وان طابخوس عد من جلتها الذهب والفضة . وفي عهد الملك خامس الاول كشف في « كاركانشير » (١٢) معادن رصاص كثيرة

تستخرج منها الفضة ويوجد في « كورن وال » اكثر من خمسين معدن
للنحاس . واعظم معادن هذا الجوهر معدن فحلن في سويدين (١٣) * ونقلت
من بعض صحف الاخبار ولست منه على ثقة ان جلة ما خرج من الذهب
من بلاد لانكيز من سنة ١٨١٦ الى سنة ٢٦ بلغ خمسة وتسعين مليونا . اه *
وعن صاحب الابدية ان اول ما ضرب الدنانير في بلاد لانكيز كان في
سنة ١٢٥٧ واول ما ضربت الدنانير الرائجة المحكمة كان في سنة ١٣٢٤
وكان صرب الجني (١٤) في سنة ١٦٧٣ ومبلغ ما ضرب من النقود في زمان
الملكة اليباب كان خمسة ملايين وثمانمائة واثنين وثلاثين ليرة وفي
زمان جاس الاول مليونين وخمسمائة الف وفي زمان جورج الثاني احد
عشر مليونا وتسعمائة وستة وستين الفا وخمسمائة وست وسبعين وفي
زمان جورج الثالث اربعة وسبعين مليونا وخمسمائة الف والى وخمسمائة
وست وثمانين وفي زمان جورج الرابع عشرة ملايين وثمانمائة وسبعة
وعشرين الفا وستمائة وثلاث وستين وفي زمان الملكة وذلك من سنة ١٨٣٧
الى سنة ٤٨ تسعة وعشرين مليونا وثمانمائة وستة وثمانين الفا واربعمائة
وسبع وخمسين ليرة . وعنه ايضا ان ضرب الدراهم والدنانير من مخترعات
اهل ليديا (من بلاد الاناطول) وذلك في سنة ٨١٢ قبل الميلاد . ولهم ايضا
استنباطات اشياء اخرى . اما الفلوس فذكرها اوميروس في سنة ١١٨٤ قبل
الميلاد . اه * قال والذهب لانكليزي فيه اثنان وعشرون قيراطا من الذهب
وقيراطان من النحاس . ويقال ان حبة الذهب يمكن تقسيمها الى ثمانية
عشر مليون جزء ظاهرة للعين ويمكن ايضا تطريقها ومدها حتى تصير خمسا
ومتين اصبعاً مربعة . وان الورقة منها تصير الى جزء من ثلثائة من
اجزاء الاصبع . ويذهب بها حتى الى جزء من عشرة ملايين (١٥) . واول
استعمال خيوط الذهب كان في ايطاليا سنة ١٣٥٠ * واعلم ان جوهر الذهب هو
البن الجواهر واصفها ولذلك لا يستعمل الا مخلوطا بالصفرة او الفضة . وكان
انشاء السكة التي تضرب بها النقود البخار في لندن في سنة ١٨١١ ويقال
انهم في سنة ١٨٤٨ كان مبلغ الذهب المتداول في الدنيا كلها ستمائة مليون

ليرة وان الامداد السنوي كان من ثمانية ملايين الى تسعة . وانه لاجل
دشف كاليفورنيا واستراليا صار الذهب المتداول الان يبلغ ثمانمائة وعشرين
مليوناً . فمن كاليفورنيا خرج من سنة ٤٩ الى سنة ٥٣ خمسة وستون مليوناً
وتسعمائة الف ومن استراليا خمسة وثلاثون مليوناً وذلك من سنة ٥٤
الى سنة ٥٦ وخرج ايضا منهما ما عدا ذلك نحو سبعين مليوناً * وحكى
كاتب جرنال التيمس في ٢٥ حزيران سنة ١٨٥٢ ان مبلغ نقود الذهب
والفضة في الدنيا باسرها قيمته اربعمائة مليون ليرة منها مائتان وخمسون
مليوناً فضة والباقي ذهب * اما الفضة في بلاد الانكليز فتوجد مختلطة
بغيرها من الجواهر * وفي سنة ١٦٦٠ كشف معدن فضة في لا باز (١٦) وكان
من حسنه يقطع كالبلور . وفي سنة ١٧٤٩ ارسلت قطعة منه الى اسبانية
فبلغت ثمانمائة وسبعين رطلاً . وحفر عن قطعة في معدن بنوروي وارسلت
الى متحف كوبنهاجن فكانت زنتها خمسمائة وستين رطلاً وقيمتها الفا
وستمائة وثمانين ليرة . وكانت آتية الفضة في سنة ١٣٠٠ نحو الاقداح
والملاعق تعد في بلاد الانكليز من الاسراف * اما معدن الحديد فيستخرج
منه في كل سنة اكثر من ثمانمائة الف طن . ويقال انه اول ما عرف
وجود الحديد كان على جبل ايدى (١٧) في سنة ١٤٣٢ قبل الميلاد . وزعم
اليونانيون انهم اول من عثروا عليه كما ان اهل فينيقية اول من عثر على
الزجاج . إلا انا نعلم من التوراة ان طوبال قاين هو اول من كان الحديد
وقال آخر : « ان تجارة الحديد في بلاد الانكليز كما هي الان من ابداع
هنري كورت من كوسنورت . لانا قبل سنة ١٧٨٣ كنا نحلب جل لوازمننا
من الحديد المصنوع من سواحل الباطق ولم تكن طريقة لصنع هذا
الجوهر الذي يصنق عليه ان يسمى جوهر الجواهر سوى طريقة بالمطارق
الضخمة الثقيلة بعد اجائهم في فرن الفحم وهو اسلوب قديم يجري مع قديم
ايام الحرافات وما عدا ما كان يتبعه من التعب والكلال فكان يلزم له اجم
كثيرة لتفي بالوقود اللازم لاجائهم . وحيث لم يكن عندنا منها ما يكفي كان
لابد لنا من استجلابهم من الروسية وسويدن حيث الاجم كثيرة والحديد

يسهل صنعه فيها بالنسبة إلى هذا الصقع وإلى سعرة فيه فكانت معادننا
الجزيلة تبقى معطلة لا تنفع إلا لتعريضها للبيع في البلاد الأجنبية إلى أن
قام هنري كورت المذكور وأعمل فكرة الشاقب في ابتكار طريقة جديدة
تكثر بها منافع هذا المعدن وتقل الصعوبة في صنعه . فاداه الاجتهاد
والخبرة إلى أحداث فرن هواء بواسطة لهيب النار المنبعث من فحم الحجر
نبدلك يحمي الحديد الذي ويصفى ثم يجعله قضباناً مسبوكة بدون فحم
ولا مطرقة . ولكن لم يتهيا له انتقان ذلك إلا بعد أن انفق عليه عشرين
الف ليرة ومذ ذلك الوقت استغينا عن حديد سويدن ونوروى . ثم لم
تقص أربع عشرة سنة حتى صار ما يصنع منه في بلادنا قدر ما كنا نجلبه
من البلطيق ثم صار ما يصنع منه على هذا المنوال موازياً لما تقي الف طن منها
خمسون الفاً ترسل إلى الخارج . وهذا القدر هو ما كنا نفتقر إليه قبله . فابقا من
البلاد الأجنبية . وفي سنة واحدة من هذه السنين المشاهدة صنع منه في معمل واحد
في والس أكثر مما كان يصنع منه في المملكة كلها بصنعين . فاعظم به من اختراع يعد
من اعظم الاسباب الموجبة لثروة أهل هذه البلاد واستقلالهم بأشغالهم . لأن استعمال
الحديد في إنشاء السكك والمراكب وغيرها لا تخسر منافع . فهو لنا بمنزلة ابرة
المغطيس لكشف الدنيا الجديدة . فليت شعري كيف كان يتهيا إنشاء السكك
لولا هذا الاختراع . فما اجدر بأن يحسب هذا المخترع من انبؤاد واط (١٨) وما
أخلق بلادنا بأن تظهر كونها ممنونة له على الدوام » إلى أن قال : « ومع أنه انفق
في هذا العمل الجليل عشرين الف ليرة ومهد لبلادنا طريقة فاقت بها على
جميع الممالك لم تجازة على ذلك بل عاملته بالكثود . وقد تحقق أن ما
أكسبها من الفوائد باختراعه هذا تبلغ قيمته ستمائة مليون ليرة وأفاد مائة
ستمائة الف نفس من الصانع » اه . وقد كان الرومانيون في الزمن القديم
يصفحون قعور سفائنهم بالرصاص وكان ثمنه اذ ذاك أغلى مما هو الآن
باربعة وعشرين ضعفاً . وأحسن صبغ للشعر هو ما اتخذ من الرصاص وهو
في نفس الامر سم * اما الفحم الحجري فذكر في ابجدية الاوقات أن أهل
بريتانية الاقدمين كانوا يستعملونه وأن لم يذكر الرومانيون فيما ذكروا

من احوال هذه الجزيرة . واول كشفه . كان في نيوكاسل بانكلترة سنة ١٢٨٤ . وزعم بعض انه قبل هذا التاريخ . وكان اولا قد منع من استعماله بدعوى انه مضر بالصحة حتى ان الحدادين كانوا لا يوقدون الا المخطب . وفي سنة ١٣٨١ اتخذ كانه صنف للتجارة فصارت الناس تجلبه من المحل المذكور الى لندرة ثم عم استعماله فيها وذلك في سنة ١٤٠٠ . فاما في جميع انكلتيرة فلم يعم قبل سنة ١٦٢٥ . وفي نورثمبرلند معدن منه في سهل فسيح امتداده سبعمائة وثلاثة وعشرون ميلا مربعا ونحو منه سائر الاماكن . والموجود منه في جنوب والس فقط يكفي انكلتيرة على المعدل الذي ينفق منه لان الفي سنة . والنافذ منه في بريطانيا في كل سنة خمسة وعشرون مليون طن . وفي سنة ٥٧ وصل الى مرسى لندرة الف واربعمائة واربعه واربعون سفينة مشحونة بالفحم وبلغت كمية ما ورد بحرا وبرا من هذا الصنف اربعة ملايين وثلاثمائة وثمانية وستون الفا وسبعمائة وثمانية اطنان * والمستخرج منه من درهام ونورثمبرلند يبلغ في السنة اربعة عشر مليون طن يصرف منها ستة ملايين في لوازم لندرة ومليونان ونصف اللوازم البلاد الخارجية وقدر ذلك لاجل الغاز والباقي في مهمات اخرى (١٩) . ويوجد في انكلتيرة واولندة اربعة آلاف ميل مربع تحتوي على معادن الفحم مما لم يحفر بعد ومسافة جريب واحد سمكه ثلث اقدام يوازي ما يخرج من الف وتسعمائة واربعين جريبا من الاجم والفايض * ومعادن الفحم المفتوحة لان في دربي تبلغ مائتين واربعين معدنا يعمل فيها عشرون الف نفس . وفي يوركشير ثلاثمائة وثلاثة واربعون معدنا مفتوحا * وقيل ان اول استخراج الفحم كان في باجميك في سنة ١١٩٨ ثم عرف في انكلتيرة بعك بقليل . ويخرج من هذه خمسة مقادير من الفحم اكثر مما يخرج في غيرها من اي ارض كانت ويقال ان الحاصل من مسافة الف ومائتين وخمسة وسبعين كيلومتر مربع من فحم الحجر في باجميك يبلغ خمسة ملايين طن والحاصل في فرنسا من مسافة الفين وخمسمائة كيلومتر مربع لا يزيد على الاربعة ملايين وستمائة الف طن . وفي سكوتلاند ايضا معادن كثيرة منها محفور ومنها غير محفور .

وكان المصروف من القمح في فرنسا في سنة ١٧٨٠ اربعمائة ألف طن وفي سنة ١٨٢٥ بلغ ستة ملايين * أما القصدير فوجودة في بلاد الانكليز من قديم الزمان واول من تاجر فيه معهم اهل فينيقية لانهم اول من عرف خاصية ابرة المغنطيس . وقبل ان غزا يوليوس قيصر هذه الجزيرة كان الرومانيون واليونانيون يسمعون بوجود جزيرة في جهة الشمال توجد فيها معادن هذا الصنف وكانوا يسمونها « كستيريدس » اي جزائر القصدير . وبقيت هذه التجارة مقصورة على الفينيقيين احقاباً عديدة . فكان اليونانيون كثيرا ما يبعثون اليهم جواسيس ليعرفوا اي بر ينزلون فلم يقدروا . والذي يبعث من هذا الصنف الى البلاد الخارجية يبلغ في السنة الف وخمسمائة طن غير مصنوع . وثمان المصنوع والصفائح يبلغ اربعمائة الف ليرة * ولتختم الكلام على المعادن فنقول : انه وجد في معدن الماس في برازيل حجر زنته الف وثمانمائة وثمانون قيراطا وارسل الى ديوان البورتوغال فقوم بمائتين واربعة وعشرين مليوناً (من الريال) وقومه بعضهم بخمسة وستين مليوناً لا غير . وزنته حجر الماس الذي هو عند سلطان الروسية مائة وثلاثة وتسعون قيراطا ويعد ملك فرنسا حجر زنته مائة وستة قيراط . وفي سنة ١٨٥٠ جلب الانكليز حجرا من الهند زنته ثمانمائة قيراط الا انه لجهل الفينيقي الذي قطعه نقص حتى جاء مائتين وتسعة وسعين قيراطا شكله كالبيضة وقيمتها مليوناً ليرة ثم قطع مرة ثانية . وفي هذه الايام الاخيرة جلب حجر من برازيل زنته مائتان واربعة وخمسون قيراطا وثلاث قيراط يذهب نصفه في القطع * اما استعمال ابرة المغنطيس في هداية السفن فلا يعلم في اي عصر ابتداء . وانما يعلم ان خاصيته في جذب الحديد والفولاذ كانت معروفة لقدماء اليونانيين وان استعماله في السفر كان معروفا لاهل الصين من عهد بعيد . فانهم كانوا يهتدون به في اسفارهم الى يافان والهند وجزيرة العرب . ولا يسعد ان اشتهار في اوربا كان كاشتهار صناعة الطب والحساب في كونه اخذ عن العرب لانهم لم يعرف شانه فيها الا بعد ان فتحوا هونكي في اسبانية . ولكن لم يكن العلم به تاما . ويحتمل انهم هم اخذوه عن اهل الصين . ويقال

أن معرفة هؤلاء به في ارجح الظن كانت في سنة ٢٦٣٤ قبل الميلاد . وهنا
 محل للبحث إلا أن اليسوعيين الذين جعلوا دابهم الثقيب والتقيرون عن علوم
 أولئك القوم وعن عادياتهم وكذا كلابروت النمساوي العالم البارع
 ومستردافس كلهم حكوا العبارة التي تدل على استعمالهم هذا الحجر في التاريخ
 المذكور . ولما كانت لافرنج تسافر إلى بلاد المسلمين في الحرب الصليبية كانوا
 يذكرون وجود هذا السر الغريب في تلك البلاد . ومن جملتهم الكردينال
 هتري وثسنت ديوفاي . وكانت العرب تهتدي به في البر . ولم تشهر معرفة
 استعماله في أوربا إلا في سنة ١٢٦٩ . فاما الانتفاع به فلم يشهر إلا في القرن
 الرابع عشر . وأول من أجرى ذلك فلافيو جيوييا من نابلي * وقال آخر
 لم يشهر ذكر المغنطيس في كتب الانكليز قبل أيام ادورد الثالث وكان
 يسمى حجر السفر . وفي سنة ١٣٣٨ سافرت سفينة يهدايتيه . وقال الأول :
 اما رسم النقط فلم يعلم مخترعه . وزعم الفرنسيون انه من مخترعاتهم وان رسم
 النقط الرابع الاصلية انما هو رسم عما يقال له « فلور دلي » اي زهر السوسن .
 ولكن هنا بحث فان زهر السوسن انما هو رسم عما يسمى بالعريته موسالا
 (لعلها مسلة) وكانت العرب تستعملها لدلالة الابرة * وقال بعضهم ان
 أول من اخترع الكمباس البحري (٢٠) مركوس بولوس من فينيس (اي
 البندقية) وذلك سنة ١٢٦٠ . وبعضهم نسبته إلى فيلافيو جيوييا المذكور . وزعم
 بعض انه كان معروفا في الصين سنة ١٢١٥ قبل الميلاد والظاهر ان ذلك سهو .
 نعم انه كان عندهم آلة تتحرك بنفسها مصوبة إلى الشمال لهداية المسافرين
 بجرا وبرا فظنها الناس انها هي الالة المعروفة . ثم ان جيوييا هو الذي
 استنبط تعليق هذه الابرة كما نراها الان وذلك سنة ١٣٠٢ . فاما وضع الصندوق
 لها وكيفية تعليقها به فهو من مخترعات وليام بولو احد قسيسي الانكليز
 وذلك في سنة ١٦٠٨ * اما مصلحة انشاء سكك الحديد في بلاد الانكليز
 فهي اعظم المصالح التي شغلت خواطر الاغنياء والمحترفين وذوي الاستنباط
 فان مجموع راس المال الذي وضع فيها يبلغ مائة مليون ليرة ومجموع راس
 المال الذي وضع في اشغال القطن يبلغ اربعين مليونا وفي اشغال الصوف

ثمانية عشر وفي الحديد احدا وعشرين وفي الحرير ستة عشر* ويحكى عن رجل في بلاد الانكليز انه كان في الاصل بزارا خاملا فتعاطى اشغال ذلك السكك ونجح وما زالت حاله ترتقى فيها حتى استغنى غنى لم يذكر مثله في تواريخ العالم قط فيقال انه صار يتولى اشغال خمسين الفنا من الصناعات يعملون تحت يده . واشهر من ذكر بالغنى في التواريخ القديمة كاسيليوس اريديوروس في رومية قيل انه لما مات ترك اربعة آلاف ومائة وستة عشر عبدا وثلاثة آلاف وستمائة ثور ومائتي الف رأس من البهايم وثلاثة ملايين من الليرات ولكن حيث تسمع بان واحدا من الناس غنى جدا فاحكم على كثيرين بانهم فقراء جدا (٢١)* ثم انه لما نشم الناس في انشاء سكك الحديد ولهج بها المحترفون لم يكن احد يصدق انها تفصل الى ما وصلت اليه . فقد كتب في بعض صحائف الاخبار منذ عشرين سنة ما نصه : اما هؤلاء الذين يخيل لهم ان ينشئوا سكك الحديد في جميع اقطار المملكة حتى يستغنى بها عن الفلك والعجلات والعوادل والحامل وغيرها مما يركب الناس فيه بحرا وبراً فانما ننزلهم وتصوراتهم هذا التي هي اصغيات احلام منزلة ما هو غير جدير بان يشغل به الخاطر* واول سكة وضعت في هذه البلاد كانت في جهة نيوكاستل في اوائل القرن السابع عشر ولكن كانت قضبانها من خشب وكان المقصود منها نقل الفحم عليها الى المرفأ . ثم انشئت سكة من حديد في هوايت هافن وذلك في سنة ١٧٣٨ . واعظم سكة وضعت بعدها كانت في كلبروك دال في سنة ١٧٨٦ . ثم كان اعظم السكك واطولها سكة ليفربول ومنشستر بدي بها في سنة ١٨٢٦ وفتحت في سنة ١٨٣٠ . ومنذ ذلك الحين شرعت جماعات كثيرة في انشاء سكك شتى في انكلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها . وفي سنة ١٨٢٤ كان صنف من الارتنال يسمى « الناقل » يسافر ستة اميال في الساعة . وفي سنة ١٨٢٩ سافر صنف آخر يسمى « الشاروخ » خمسة عشر ميلا في الساعة . وفي سنة ١٨٣٤ سافر صنف يسمى « طيار النار » عشرين ميلا في الساعة . وفي سنة ١٨٣٩ سافر صنف آخر يسمى « نجم الشمال » سبعة وثلاثين ميلا . ولان صار الناقل

يسافر سبعين ميلا في الساعة . وكان يتفد عليها في مبادها من الفحم اكثر مما يتفد لان بخمسة اضعاف وقس على ذلك سائر المصاريف . وقد علم من خلاصة مجلس المشورة الذي مرجع اقرار هذه المصاحبة منوط به ان المحصن لاصلية وما يلحقها من الاستقراض الخاص بجميع جماعات سكك الحديد الكائنة في بريطانيا بلغ ثلثمائة وستة وثلاثين مليون ليرة . وبلغ عدد المسافرين في انكلترة واربدة وسكوتلاندة في مدة ستة اشهر خمسة ملايين وثلثمائة وسبعة وستين الفا واربعمائة مسافر تحصل منهم وما اخذ ايضا على الهائم والمكاثيب خمسة ملايين واربعمائة واربعة وعشرون الفا وستمائة وخمس ليرات وعدد مجموع سكك الحديد في بريطانيا مائتان واثنان وعشرون سكة تجري اسلاك الموجى في ثلثيها . وفي سنة ١٨٥٠ تحصل من ايراد سكك الحديد في جميع اوربا ثلثة وعشرون مليون ليرة وثلثمائة الف . وكان نحو نصف المبلغ ايرادا من سكك انكلترة واربدة وسكوتلاندة . وهذا جدول اطوال السكك المعروفة في الدنيا (٢٢) :

في بريطانيا	٧٨٠٣ ميل الى سنة ٥٤	في بلجيكا	١٠٩٥ ميل الى غاية ٤٨
في اميركة	٣٨٠٠ » الى غاية ٤٨	في فرنسا	٢٢٠٠ » » » »
في ايطالية	١١٥٠ » » » »	في كوبا	٨٠٠ » » » »
في الدنيمرك	١٠٦ » » » »	مستعمرات الانكليز	١٠٠ » » » »
في جرمانيا	١٥٧٠ » » » »	في روسيا	٥٠٥٢ » » » »
في هولاندة	٢٠٠ » » » »	في الهند الشرقية	٥٥٠ » » » »

ثم وجدت بعد ذلك في صحف الاخبار ان طول سكك الحديد في مملكة بروسيه بلغ في سنة ٥٩ ثلثة آلاف ومائة واثنين وستين ميلا وان راس المال الذي عين لذلك بلغ اربعة واربعين مليونا وثمانين الف ليرة فيكون كلفة كل ميل ثلثة عشر الفا وتسعمائة واربعين ليرة وبلغ عدد المسافرين في السنة المذكورة ما عدا العساكر تسعة عشر مليونا ومائتين وتسعة وسبعين الفا وستمائة وثمانية وستين مسافرا ومقدار البضائع التي نقلت فيها احد عشر بليوناً وتسعمائة واربعة ملايين وسبعمائة واحد وستون الفا واثنى عشر طناً ومقدار

ما تحصل منها خمسة ملايين وثلاثمائة وتسعة وتسعون ألفا واربعمائة واربعون ليرة اعنى ألفا وسبعمائة وسبع ليرات من كل ميل * وفي سنة ٥٦ امتدت سكك الحديد في بريطانيا وارلندة الى ثمانية آلاف واربعة وخسين ميلا انفق فيها مائتان وستة وثمانون مليون ليرة ومنها اكثر من خمسين ميلا تحت القبو . ومساحة هذه الاميال خمسمائة وخمسون ياردا مكعبا (٢٤) ولهذه السكك خمسة الاف مزجية وهي التى يقال لها « انجن » . وفي كل سنة تسير لارتال ثمانين مليون ميل . ومصروف المزجيات في كل سنة من الفحم مليونان . وفي خدمة الجماعات القائمة بهذه المصاحبة تسعون ألفا مابين رئيس ومرووس . وفي سنة ٥٤ سافر في سكك الحديد احد عشر مليون من الناس واستفيد منهم ثلثون مليوناً ومائتان وخمسة عشر الف ليرة وهو نحو نصف ايراد الدولة تقريبا . وبلغ الحاصل من جميع سكك الحديد في مملكة بريطانيا اربعة وعشرين مليون ليرة وكان راس المال ثلاثمائة مليون (٢٥) . والحاصل في سنة ٥٧ ثلثة عشر مليوناً وهو عبارة عن فائدة اربعة في المائة في العام . ويصرف في كل سنة على تبديل القضبان وتصليح الادوات عشرون الف طن حديداً ويقطع نحو ثلثمائة الف شجرة لاجل ما ذكر . وكل رتل يحمل في مجمل الحساب مائتى شخص . وصرف نحو سبعين مليون ليرة لاصحاب الاراضي تعويضا لهم عما رزوا في اموالهم في انشاء السكك . واسلاك الموحى ممتدة سبعة الاف ومائتى ميل يلزم لها ستة وثلثون الف ميل من السلك الحديد . وعدد المستخدمين في الموحى ثلثة الاف وكل واحد من خمسين من اهل انكلترة متوقف معاشه ومصاحته على سكة الحديد * وقد سمعت من غير واحد ان اعظم سكة في انكلترة هي التى يسافر بها من لندرة الى بوستول . فانه انفق في انشائها نحو ستة ملايين ليرة وايرادها في كل شهر مائة وخمسون الف ليرة والرتل الذى يقف في عدة مواضع يسير في الساعة نحو عشرين ميلا . فاما الرتل المخصوص فانه يسير في الغالب اكثر من خمسين ميلا وهو يمر كالبرق الخاطف فاذا رايت هالك مرة وربما وقفت له لارتال البطيئة خشية المصادمة .

والمحسوب ان جعل كل ميل في المحل الاول ثلثة بنس وفي الثاني
اثنان وفي الثالث واحد . ومنشئوا هك السكك هم جماعات يخرجون مسالا
من ملكهم كل على قدر طاقته ويتشاركون في دخلها وخرجها فاذا اراد احد
ان يبيع سهمه فيها اشتراه اخر . ولباس المستخدمين فيها كلباس الشرطة
او العسكر بل احسن . وفي طول السكة يقيمون رجالا يتعهدون التفتيش
ويحافظون على تنظيف الطرق . فقد يتفق ان بعض الاعداء يقطع قصيبا
منها فيكون في ذلك هلاك نفوس شتى . ومما ينبغي ان يلاحظ هنا ان
الارتال الفرنسية اقل عرضة للمصادمة والخطر من الارتال الانكليزية .
فكل يوم تسمع في بلاد الانكليز عن عطب عرض لاحد الارتال وقتل حدوث
ذلك في فرنسا . ولهذا كانت الشيوخ والعجائز من الانكليز ينفون من
السفر فيها ويوثرون السفر في بعض مراكب البر على قديم عادتهم . وسبب
كثرة هك الاخطار عندي هو ان مباشري آلة النار من الانكليز هم كثيرهم
من ابناء جنسهم في لانهماك في شرب المسكرات فيشربون وهم مباشروا
الآلة حتى يغرب عنهم الرشد والصواب . ففي سنة ٥٦ هلك في بريتانية
في هك السكك ٢٨١ نفسا واصيب ٣٩٤ وذلك ما بين مجروح وارب . وقس
على ذلك خطر السفن . ففي السنة المذكورة تلف لهم على سواحل بريتانية
الف وتسعمائة وتسع وخمسون سفينة . والمعروف في جمل الحساب انه
يفقد لهم في كل شهر مائتا سفينة . والظاهر ان الانكليز اذا عملوا شيئا فانما
يراعون فيه وجه التكسب والمصلحة فقط والفرنساوية يضيفون الى ذلك
راحة المسافرين ورونق المحل وكسب الشاء . فان المحل الثاني في
الارتال الانكليزية لا يكون إلا مقاعد من خشب فاذا قعد عليها الانسان
يضع ساعات الم غاية الالم ولا سيما في الشتاء . فاما عند الفرنسية فانها
تكون شبه الاربكة يقعد المسافر عليها ما قعد ولا يمل . وقس على ذلك
سفن النار . ومواقف الارتال في فرنسا احسن منها في انكلترا وابسج . وفي
بعضها تكون مطاعم عظيمة يجدد الانسان فيها كل ما يشتهي بخلاف
مواقف الانكليز . فان كل ما يكون فيها للاكل والشرب فانه كريه ردي

ولاسيما القهوة فانها عبارة عن حسا القطاني . واذا كان اكثر المسافرين من الانكليز يتزودون من بيوتهم ما يلزم لهم مدة السفر وياكلون وهم قاعدون في العواجل وقل منهم من يتعدى في اطعم . وما ارى الحق الا معهم قال تلك الطعام فضلا عن غلاتها ربما اورثت الاكل هيضة تمنعه عن السفر . وفي كل من هذه المواقف يكون محل للحاجات التي يتساها المسافرون هناك للعجلة او الذهول فتبقى هناك محفوظة حتى اذا علم صاحبها ردت عليه في الحال .
 • والا ابقيت سنتين ثم تباع ويفرق ثمنها على خدمة الموقف ولاسيما الذين اصابوا في ابدانهم . واتفق مرة لرجل ان نسي كواغدا مالية بمائة وست وخسين ليرة ولما عرف اسمه ردت عليه . واتفق ايضا لي اني كنت نسيت خرجا في كالس ولم استقر بي المقام في بلاد الفلاحين تفقدته وشعرت بانهم بقى هناك فكسبت لي مدير الموقف فيها اخبره بذلك فلم يلبث ان ارسله الي * ويحسن هنا ان نذكر ما يناسب المقام مما اورده البخاري في باب اللقطة من صحيحه قال : حدثني محمد بن بشار حدثنا شندر حدثنا شعبة عن سلمة قال سمعت سويد بن غفلة قال لقيت ابي بن كعب رضي الله عنه فقال اخذت صرة فيها مائة دينار فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم اتيت فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم اتيت فقال احفظ واءعا وعددها ووكاءها فان جاء صاحبها والا فاستمتع بها . ويزوى « استمتع بها » بحذف الفاء * قال ابن مالك في التوضيح فيه : « حذف جواب ان الاولى وحذف شرط ان الثانية وحذف الفاء من جوابها فان الاصل » فان جاء صاحبها اخذها وان لا يجي فاستمتع بها » والتعريف ذكر الصالة واللقطة وطلب من يعرفها . انتهى ملخصا من شرح شواهد التحفة الوردية للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي * فيكونوا مديروا المواقف على هذا آخذين بسنة النبي صلعم غير ان في الامر بتعريف الصالة من الفضل والكرم ما فاتهم * اما خلق الانكليز فغالبا على الرجال الشقرة وتوسط القامة مع الصلابة والقوة وشدة العصب وزرقة العيون وصغر الانوف . والظاهر ان الشقرة لا تتوقف على البرد وحل

وانما اخس بواضعها الدم . فان اهل جيل لبنان ليس لهم صفاء هذا اللون الذي يرى في هذا الجيل . والغالب في علبتهم امتداد القامة والرشاقة . ثم ان الحسن في الرجال هنا منقسم الى ثلاثة اقسام لاول في العسكر فانهم ينتخبون ممن حسن وجهها واعتدل قدا ويلحق بهم الشرطة . الثاني في خدام الكبراء والامراء فان السيدات يتنافسن في العسائي ولا يتناولن شيئا الا من يد مليح . الثالث في الكتاب الذين تستخدمهم التجار المثرون واصحاب العصفرات والمثابات الحافلة . حيث يكثر تردد الحوائن لشراء ما يلزمهن فان ذلك ادعى الى جاهل على الاسراف . وما عدا هذه الانواع الثلاثة فقل ان تبصر مليحا . فاما في باريس فلم الحظ ذلك الا في ذكاكين النجامين حيث تنساب الخوامد لشراء اللحم . والذي يظهر لي في الجملة ان رجال الفرنسيين اخس من رجال الانكليز ونساء هؤلاء اجل من نساء اولئك . ومن العجيب ان الانكليز قد يبالغ احدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا في راسه ولا في عارضه . وانما يغلب عليهم في هذه السن الدم والذرد وهو سقوط الاسنان . والظاهر ان اعظم اسباب الشيب هو الهم والاصر والخوف من ظلم الولا وذوي السيادة كما هو الواقع في بلادنا وكذا في كل بلاد يقل فيها الامن والسلامة . فان احد الانكليز اذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش من ملكه او اسيره ان ينفسا عليه بذلك بل يعتقد ان غناه وغنى امثاله موجب لغنى دولته فيتباهى به ما شاء . ولا يخشى ايضا ان يتناول عليه في حقوقه احد ممن هو اعلى منه . فان الجميع في الحقوق متساوون وان القاضي والمجرنال عبيدان لكل من الغني والضعفك والنيير والخاصل . فقد قرات في بعض الاخبار ان بعض باعة الخبز اقام دعوى على دوك كميريج وهو ابن عم الملكة فما وسعه الا المحصور بين يدي القاضي * ثم الغالب عليهم ايضا الكلوح والعبوس ولا سيما اهل القرى الصغيرة وان يكن جوع اصفى من جو اهل المدن . وذلك لان في المدن كثيرا من الملاهي والملاعب ومن الغازفين بالآلات الطرب فمتى سمعت الام الموسيقى اخذت طفلها حالا ورقصته او غنت له فيدرب بذلك فيغرس فيه حب السماع والحننة والبشاشة .

فاما البلاد الحالية من ذلك فلا بد من ان ترى وجوه اهلها هابسة بأسرة وطباعهم بليدة * اما النساء فلونهن البياض المشرب بحمرة وعيونهن شهل أو زرق وشعرهن في الغالب اسود وإن اشتهر خلافه إلا في حواجهن . واستأنهن احسن مما يظن في من روي من لداتهن في غير البلاد . وقد زين بشطاط القوام والذلف (اي صغر الأنف) والبلج وامثلة الساعدين ولطف اليدين ومشق الاصابع وبالعنق ورقة الشفتين واسالة الخد . وشعر اهداهن وحواجهن لا كثير لا قليل . ولا مزية لهن في الصلوة على غيرهن وهن احسن نساء الافرنج جميعا صفاء لون ونعومة بشرة وأعضاءا وثرائب واعناقا . وقد ذكرت كثيرا من الغرباء في ذلك فكلهم فضلهم على سائر النساء اللاتي شاهدوهن في غير البلاد . غير انهن جد وطويلات الاقدام وغير سود الاجفان واحداقهن غير مركبة فوق زبق كما اشار اليه ابو الطيب . وسبب الاول عندي تعرضهن للبرد في الصفر . وفي الجملة فلم اري شيئا يصدق على نساء هذه البلاد اكثر من قول صاحب القاموس « الشوها الجميلة والعابسة ضد » وفي ذلك نظر . وجميع التكثير يعجبون بحسن الاسنان واول ما يذكرونها من صفات الحسن ويشبهونها كما يشبهنا نحن بالدر . ومن ابدع في تشبيه الاسنان بالدر ابن النسيب بقوله من قصيدة يمدح بها السلطان العادل :

« وما كنت ادري قبل لولو شعرها * بان نقيسات اللاء لي صغارها »
وكرر هذا المعنى بقوله :

« ولم ار قبل مبسمة * صغير الجوهر المشمس »
ولكن لا يحصون الفلج بالاستحسان ولا يشبهون العيون بالسيوف بل بالماس ولا الجيد بجيد الغزال وانما يصفونه بالامتلاء والاستدارة . ولا يتغزلون بالجمال على ان النساء يصنعن احيانا ولا بالهزلة في الخد وانما يستحسنون النونة في الذقن . ولا يشبهون المرأة بالشمس والقمر بل بالنجم وعندي ان اشوق شيئا في الوجه الثم والعينان لانهما يتحركان ولا ارى الحق مع من قال « احب منها الأنف والعينان » ولعل الرواة بدلوا الفم بالأنف . ولا حسن

ما قاله الآخر « ياليت عيناها لنا وفاها » . والنساء في بلاد الانكليز من
 اللاتي يباشرن خدمة الديار غالبا اما الرجال فلا يكونون الا عن الكبراء .
 وكثيرا ما ترى تجارية حسنة تامة لاوصافى تخدم سيدها من السعالى .
 واذا طرقت باب احد وخرجت التجارية لتفتح الباب ظنتها هي المخدمة
 وادشك جمال وجهها عن وجه ما تسالها به . وللنساء في بلاد الفلاحين
 خصلة ذميمة وهي انهن يشرقن بنخامتهن ولا يزال ذلك داب المرأة حتى
 تنام . وهن تقابل خصلة نساء فرنسا وهي انهن ياحسن اصابعهن بعد
 اكل الخبوا ونحوها ويقابلها من خصال اهل بلادنا التجشو وهو كناية عن
 حباق المعدة . وخصلة الفرنسيات اقل اذى لانها لا تكون الا عقب
 الاكل ومدتها لا تطول . وكل الخوادم اللاتي استخدمنهن في تلك القرية
 كن يلحسن شعورهن ووجوههن وايديهن وسختة . ويفسلن وجوههن
 واهناتهن ويمسحنها بالخرق التي يمسحن بها آيسة المطبخ . والخصلة
 الاولى عامرة رائحتها في لندرة ايضا . وقد سمعت ان نساء فرنسا المتطرفات
 لا يفسلن وجوههن بالصابون لئلا تعجل بشعرتهن وانما يفسلن بماء الخالة
 وهو مطرد مع ان صابون فرنسا احسن من صابون الانكليز * . واول من عمل
 الصابون في اوربا اهل الغال وكان الناس من قبل ذلك يفسلون ثيابهم
 بالماء فقط اما بان يدعكوها بايديهم او بارجلهم ولم يعمل في لندرة الا في
 سنة ١٥٢٤ . والحسوب ان كل واحد من سكان بريتانيا يلزم له سبعة ارطال
 من الصابون في العام فعلى هذا يلزم لاهل لندرة وهدم تسعمائة طن . وجميع
 الافرنك (٢٦) لا يفسلون ايديهم بعد تناول الطعام غير ان الكبراء منهم
 يفعلون اصبعهم في صحاف صينية يضعها الخادم امامهم على المائدة ثم ينشفونها
 من دون صابون وربما تقصصوا والقوا الماء فيها من افواههم بمحضرة الصوف
 وكذلك تفعل النساء وهو اقبح من عدم الفسل . ومما يكره في النساء ترمية
 اطفاهن حتى تاخذ حدها في الطول وتترك شعورهن في القفاء منشفة مشعشة .
 فتنى نزع احداهن غطا راسها زابت شعرها كشعر المشعر . وان احداهن
 لتاعب بكلب او جرو بمحضرة الناس وربما ترا عليها ولحسن ترائبها

ووجهها وهي تلمس عليه بيدها ، ونساء الاكابر يستصحبن كلابهن في
 العواجل وغدهن صنف من الكلاب يقعدنه في احضانهن ويسمى كلب
 الحصن . واحد من نساء الافرنج عموما ومن نساء الانكليز (٢٧) خصوصاً انهن
 لا يستعملن الصبغ ولا التزجيج فكما خلقهن الله يبدون ولا يتباهين بكثرة
 الحلي والجواهر وغاية تصنعهن انما هو في تصفيف شعورهن وتغيير ملابسهن
 بحسب الزى المستعمل . ونساء الفرنساوية اكثر زهوا وعجبا من نساء
 لافرنج جميعا . وقد كانت النساء هنا يرخين سوائف مجمدة على طلاهن تفعل
 ذلك منهن الطويلة الشعر زهوا وعجبا فصرن لان يسوينه منسرجا على افواذهن
 اقتداءً بالملكة إلا ما ندر ومثل هذه العادة في العلة عادة المرافد . وللنساء على
 الرجال مرتتان علوية صيفية وسفلية شتوية فالاولى اتخاذهن الظلل وقاية
 لهن من الشمس او لبرانيطهن ان تنصل الوانها فانها عبارة عن ظلل والثانية
 اتخاذهن القباقيب في الشتاء فتراهن يخصص بهن الحول والثلوج وهي
 مصلصلة تحت احذيتهم . وغطاء رؤسهن هي البرنيطة وذلك مطرد في جميع
 البلاد بخلاف نساء فرنسا فان لكل نساء اقليم فيها غطا مخصوصا . واكثر
 ما يمتنعن من اللباس الجوارب والاحذية فاما الثياب فالغالب انها من
 الشيت (٢٨) ومع ذلك فاذا كان المراه اربعة قفاطين منه فهي الخطية . والحق
 يقال ان نساء الانكليز على غاية ما يكون من التقشف والقناعة فلن اقل
 شئ من الملابس يرضيهن ومن الطعام يكفيهن ولا يستعملن الدخان ولا
 النشوق كبعض نساء الفرنساوية ولا هن مثلهن ايضا في كونهن ينكرن مزية
 الرجال على النساء فهما تكن المراه شريفة من الانكليز تعترف بان الله تعالى
 خلق الرجال قوامين عليهن . واذا اهديت احداهن منديلا او حذاء ونحو ذلك
 استعظمت الهدية وبالغت في وصف محاسنها وكررت الشاء عليك حتى
 تنوهم انك صرت رابعا لحاتم الطائي وهم بن سنان وكعب بن عامر . فاما
 اذا نظرن شيئا من الجواهر النفيسة سواء التحفن به او لا فيا للعجب ويا
 لمنهي الارب . واستعظام الهدية ولو قلت صفة عامة لعليتهم وسفلتهم فقد
 كانت سيدة تكومت علي بست ثمرات من الخرشف فلما قابلتها في اليوم

الثاني شكرتها على ذلك فقالت انى وزوجى اهدينا اليك ذلك فكانها
قالت عليك ان تشكره ايضا كما شكرتنى . والحق يقال ان ذلك في اكثر
الاحوال اولى من سكوت العرب عن نطق كلمة واحدة تنصح عن الشكر .
وقد صكنت ارى من النساء العبل الحسان ذوات البشر الناعم والنفاسة
الرائحة تن تنصب حر وجهها لحر الشمس في الصيف بان تعرق في الحقول
وتحمل الاجال الثقيلة وتحصد وتبذر وتجمع الحصاد وتحطب وما اشبه
ذلك . وفي شهر حزيران حين يقطع الحشيش ترى نساء كثيرة يجمعنه وحين
يحصدن الزرع لا يعملن بنص الثروة في سفر الاخبار فانهن يحصدن الارض
من تحت السنابل . ومع هذا الشقاء فلا تزيد اجرة المرأة على نصف شليس
في اليوم وهو بالنسبة الى غلاء هذه البلاد بقيمة نصف قرش عندنا . فكنت
اقول في نفسي ما ارحس الجمال في هذه البلاد وما اقسى قلوب الرجال
الذين يحجونهن الى هذا الاشدال اولعلمهم يريدون صبغ هذا البياض النقي
بورس الشمس او سحمة الصبا . -

فلو برزت سواعدهن يوما * لشاعرنا لانشد من ذهبول
بربات الحقول يحق لي ان * اشيب لا بربات الحمول
ولو برزت تراتبين ليسان * لصدر الدولة القرم الجليل
لقال خذوا حظايا الكرج عنى * فدى الصلغات عند ذوى الحمول
وفي الجملة فلا شيء ارحس من الجمال في هذه الديار . ثم انه لما كان لون
البياض عاما في الرجال والنساء في هذه البلاد كانت المرأة السمراء محببة
الى الرجال جدا وكان الرجل لاسمر ايضا محببا الى النساء جدا . وهذه الطائفة
المعروفة عندهم باسم الحبسى وهم صنف من نور بلادنا وعجبر مصر لولا دناءتهم
كانت عليه لانكليز تصاهرهم وذلك لسمة لونهم وسواد عيونهم . وقد كانت
احدى نساء دكتور لي من هؤلاء الحبسيات رآها مدة فاحبها لسمرتها واحبته
هي لبياضه فوعدها بان يتزوجها بشرط ان تتهذب في مذهب النصرانية
فاجابته الى ذلك فتاحل بها . - ومن الغريب ان هذا الجيل يعيش في هذه
البلاد عيشة النور في بر الشام سوا حيث ليس لهم مقر معلوم للاقامة فمرة

يسكنون الغياض ومرة الخصاص وبعضهم يابى الى نجر هودج بجرة حصان
 فيجعل فيه رحله واثائه وهكذا يطوف في البلاد . واليه تنسب سرقة
 الدجاج والخيل او في اقل اذناها ولا نباء عن البخت ولهم لسان خياص
 بهم ويقال لشخصهم ملك الا انهم يخالفون نورنا بكونهم غير مولعين بالغنا
 والرقص وما ذلك الا لكونهم مولودين تحت رقيق الانكليز الكالنج ولما كان
 هولاء يعتنونهم في السكنى تنصر منهم كثير . فان قلت كيف يصرون البخت
 والانكليز لا يعتقدون بهك الامور قلت ان عامة الانكليز على غاية من الجهل
 فعندهم من التشائم والتفول ما عند عامة بلادنا كما سايين لك بعد . - قال
 في الابدية : « هولاء الجيسس هم احدى عشائر مصر الذين خلعوا عنهم نير
 الخنوع للترك حين غزوا بلادهم ولما فشلوا تفرقوا في الارض . واول ظهورهم كان في
 جرمانية وذلك نحو سنة ۱۵۱۷ . وحيث كان الناس اذ ذاك على جانب عظيم
 من الوساوس والاضليل وظنوا بهم علم بصير البخت رحبوا بهم في كل مكان .
 وقد نفوا من فرنسا في سنة ۱۵۶۰ ومن غيرها ايضا الا انهم لم يزالوا موجودين
 في كل مملكة . وفي ايلم شارلس الاول قتل ثلاثة عشر شخصا من الالهيين المخلقتهم
 القانون في اختلاطهم بهم واخرى ماؤاهم في نورود في سنة ۱۷۹۷ وعوملوا
 معاملة البطالين التائبين . وقبل سنة ۱۸۰۰ كان منهم في اسبانية اكثر من
 مائة وعشرين الفا ولم يزل منهم في هك البلاد جماعات كثيرة . ومع اختلاطهم
 بغيرهم من الاجيال فانهم باقون على عاداتهم واطوارهم وسكنهم فهم اشبه
 باليهود . ا ه . وقال آخر ان اصلهم من الهند وانهم يتكلمون بلغة من لغاتها وان
 حقيقة اسمهم زنگانيون او جنكانيون . - واعلم ان تحقيق الحسن في السمير او
 السود في عين الرائي لا يمكن الا من قريب فاما البيض فاذا رايت صفا
 منهم عن بعد توهمهم كلهم ملاحا لان البياض كما قيل شطر الحسن . وروى عن
 عائشة رضي الله عنها انها قالت : « البياض نصف الحسن » وروى ابن عساكر
 عن خالد بن سفيان انه قال : « عبود الجمال الطول وبرنسه سواد الشعر ورداءه
 البياض » . قلت فعلى هذا فقد اجتمع في مونث هذا الجميل العمود والبرنس
 والرداء . وقد تحلل بعضهم لان فضل السود يتوزل :

« رب سوداء وهي بيضاء عندي * فهي مسكت ان شئت او كافور »
 « مثل حب العيون يحسبها النسا * من سوادا وانما هي نسا »
 وقال ابراهيم بن سبابة :

« يكون الحال في وجه قبيح * فيكسوه المهابة والجمبالا »
 « فكيف يسلام عاشقها على سن * يراها كلها في العين خالا »
 وهكذا كلها من مغالطات الشعراء والحق ما قاله البها زهير :

« اسمع مقبلا صبا * وكن بحقك عيبوني »
 « ان المليس مليس * يحب في كل لسنون »
 وقول الآخر :

« قالوا تحب السواد قلت لهم * احبه في الشعور والحمدق »
 « قالوا وتهوى البياض قلت لهم * في الوجه والمصمين والعنق »
 ثم لا يخفى انه لما كانت اسباب الفساد في القرى الصغيرة ام تكن
 النساء هنا مائلات الى الفواحش والفسق كما هو شان نساء المدن الحافلة .
 ولهذا كان عيش المتزوج في بلاد الفلاحين من هذا القبيل اجسا من عيش
 المتمدنين . والذي اتحققه ان المتزوجين من الانكليز في كلا الموضعين وان
 لم يكونوا يحتفون بازواجهم ويكرمونهن امام الناس كما تفعل الفرنسيون الا
 انهم اكثر منهم احسانا لقروجهن وافر مودة ووفاء لهن في الحضرة والغيبة .
 هذا في حق الارواح فاما في شان النساء مطلقا فالفرنساوية ارفق واحفى
 فان احدهم ليؤثر راحة المرأة ايا كانت على راحة نفسه . فاذا تبوا مثلا
 مقعدا في سفينة او رتل ودخلت امرأة ولم تجد لها محلا فاضطرت الى القيام
 قام من موضعه واجلسها فيه . وكذا لو وقع منها نحو منديل وغيره باذر
 حالا الى مناولتها اياه . وعندهم كلمة مخصوصة لمثل هذه الافعال . اسبا
 لانكليز فلا يبالون بذلك . وكنت كثيرا ما ارى رجالا منهم يصفطون النساء
 والاولاد حتى يسبقوهن الى موضع يتبونه فاذا دخلت النساء ظللن قائمات
 وحين يسافرون في الارقال او الحوافل يتجهون احسن المقاعد وربما اداروا
 ظهورهم للنساء غلاظة وسوء ادب . نعم ان نساء فرنساوية اكثر تادبا

وكياسة في الظاهر من نساء الانكليز إلا ان هولاء جديرات به من عدة وجوه
وفضلا عن ذلك فقد يقال ان زيادة كياسة اولئك اصلها من زيادة الاكرام
لهن وانما هي خشونة فريزية في طبع الرجال حتى ان النساء اعتدن عليها
ولا يرين فيها نكرا الا اذا عاشرن الاجانب . وهذا هو معنى قول الانكليز
انهم هم خير من غيرهم ازواجا وغيرهم خير منهم عشاقا . والفرنساوية يصفون
نساء الانكليز بانهن سر اي يعملن باليد اليسرى تعريضا بكونهن لسن
صنعا كنساء فرنسا . وهذا القول باعتبار صنعتي القلم والابرة حق فان عامة
النساء هنا لا يحسن الخطاطة ولا التطريز ولا الكتابة واذا كتبت احدهن
رسالة تشحنها بالغلط والخطا مع ان اللغة الانكليزية هينة الساق بالنسبة
الى غيرها . ولكن هن معذورات في ذلك اذ ليس يوجد في القرى مدارس
جيدة او معلمون ماهرين . وربما اجتزي عن المدرسة بان يتعلمن في الكنيسة
يوم الاحد شيئا من اصول الدين وشيئا من القراءة مما لا يعبا به . وفضلا عن
ذلك فان الولد اذا ادرك وهو تحت حجر والديه لم يستغيا عنه لانهما اما
ان يستصحباه معهما الى المزرعة ليعينهما على عملها واما ان يبقى في البيت
ليتهيئ لهما طعامهما ويحفظ راحتهما وغير ذلك . فان يكن والحالة هذه من
لوم على النساء فانما هو على قاطنات المدن والقرى الجامعة . بل الرجال في
هذه الاماكن لا يريدون اشتغال نسايتهم على القراءة والكتابة لئلا يشغض
عليهم كما هو دأب نساء فرنسا . وما احسن ما قيل « ان المرأة الفاضلة هي
التي اذا قرأت خلقتها لا تحسن العمل واذا عملت خلقتها لا تحسن القراءة » .
ويذكر في التيمس انه في سنة ١٨٥٥ تزوج ثلاثة ملايين ومائة وخمسون الفا
واربع مائة وسبعون نفسا فوجد من كل مائة امرأة اربعون قد وضعن علامة الصليب
بدل اسمائهن ومن كل مائة رجل تسعة وعشرون رجلا على تلك الصفة « اه » .
قلت والذين يعرفون ان يكتبوا اسماءهم ينبغي ان تسقط ثائبيهم من بين ذوي
الدراية فان كثيرا منهم وان كتبوا اسماءهم لا يحسنون كتب رسالة . وهذا
ينبغي ان يلاحظ ان عاعة الانكليز يقرأون التوراة والانجيل بلغتهم ولكن قل
منهم من يفهمها . وقد جرى مرة ذكر ذلك بحضرة جامعة ادعوا بانهم لا

يفوتهم شيء من فهم الكتاب الاول وان سعادة بلادهم وغبطة احوالهم انما
تسببت عن ذلك . فقلت لهم : اما السعادة والغبطة فليست اباجتكم فيها ولا
اسلم لكم بانكم اسعد من غيركم فاما الفهم فما اخالكم تفهمون كل ما تقرأون
في التوراة . قالوا : سلنا عن شيء منه . فقلت : على شرط ان لا يسوكم . قالوا
لا نخش من الاساة فان هذه البلاد بلاد الحرية . قلت : ما معنى الحرية
حين طلب شاول من داود ان يمهرا بساتنه غلقة من اهل فلسطين
فمضى داود وقتل منهم مائتين وجاء بغلفهم الى شاول ؟ فقالوا : لا ندري .
قلت : بل لا تدرون ايضا كيف ان الرجل يمهرا المراة وعادتكم بخلاف
ذلك . قالوا : بين لنا ذلك . قلت : ههنا نساء واخاف ان افسر لكم معنى
اللفظة فتنبض النساء . قالوا : اذا كان ذلك كلام الله فلا حرج . ففسرت
لهم حينئذ معناها . فما كان من احدى النساء المتفصحات الا ان اخذت
الكتاب ورمته به الارض وقالت : « معاذ الله ان يكون هذا الكلام كلام
الله » اما الحياطة والوشي فلها تقدم من ان نساء الفلاحين لا يلبسن
سوى الشيت فلا حاجة الى تطريزه . وكل واحدة منهن خياطة لنفسها .
واذا خطن تحت يد تاجر فقلها توفي اجرتهن . وما عدا ذلك فان كثير
من الآلات التي اخترعتها الانكليز صارت تغنى عن اليددين . فاما الطبخ فلا
يتفنون فيه فاحب شيء اليهم منه انما هو الشواء . فطبخهم انما هو النار
وحيث كان وقتهم كله مصروفا في العمل وتحصيل الكسب فلا يرون ضرورة
لصرفه في تعدد الوان الطعام . وفي الجملة فان الانكليز يحق لهم ان يقولوا
ان بلادهم منبت النساء ومعدن الازواج بمعنى ان من تزوج احدهن فقد
هناه العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع لاقتصاد في النفقة
وراحة البال من الاسباب الباعثة على الغيرة * اما اخلاق الانكليز
وعاداتهم فالواجب ان امهد للقول فيها مقدمة وجيزة لازالة الالتباس فيما
يود من بيان ذلك . فاقول ان هذا الجيل ينقسم الى خمس طبقات . الطبقة
الاولى : الامراء والوزراء والاشراف والنبلاء وذوو المناصب السامية والحق
بهم الاساقفة . الطبقة الثانية : الاعيان وهم الذين يعيشون من ارزاقهم

واملاكهم لا من معاطاة شغل او حرفة وليس لهم جلاء . الطبقة الثالثة :
 العلماء والنصاة والفقهاء ويالحق بهم القسيسون والتجار ذووا المراسلات .
 الطبقة الرابعة : التجار اصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون
 الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء
 الوجه . الطبقة الخامسة : اهل الحرف والصنائع والعملة والفلاحون وهم
 الجمهور الاكبر . فعادات اهل الطبقة الاولى مباينة بعض المباينة للثانية
 ولكن ليس بينها وبين الاخيرة من مناسبة املا لما سيأتي . وعادات اهل
 الطبقتين الثانية والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الا ما ندر . اما اهل
 الطبقة الثانية فان بهم من وجه نزوعا الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد
 ومن وجه آخر ينزعون الى الباقي بالنظر الى الجنسية والالفة . والغالب
 على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهاة بما عندهم من الصنائع والاحكام
 والاذعان للقوانين التي بنيت عليها معاملات دولتهم ودواوينهم . وحيث كان
 اصحاب الطبقة الاخيرة هم الجمهور الاكبر كما ذكرنا وهم الحريون بان
 يقال فيهم بريتانيون او انكليز لكونهم بقوا على قديم شؤنهم واطوارهم ولم
 يعرفوا غيرهم من الاجيال لا بالعاشرة ولا بالمطالعة وجب ان نقدم ذكرهم أولا
 فنقول : ان اول خلعة يراها الغريب فيهم هي عدم اكترائهم له ونفورهم منه
 وابتعادهم عنه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعني احد منهم
 بشان جاره ولا يههم امر غير امر نفسه . وكل ذي حرفة يقتصر على الاشتغال
 بحرفته مدة حياته ولا يتطاول الى معرفة شيء غيرها . فالفلاح مثلا لا يعرف
 شيئا الا ما آل الى الحرث والزرع . والقين لا يدري مما يحدث في بلاده
 سوى ما اختص برواج سعر الحديد والطلب على الادوات المصنوعة منه .
 وهم جرا الى المهندس والطبيب . واذا استراح الرجل منهم ساعة قضاهما
 بذكر ما عمل وما سوف يعمل . ويقال ان بهذه الصلصلة استتب عز دولة
 الانكليز وعظمت شوكتها لان الرعية لا تعرض ذوي الامر والنهي في تدبيرهم
 ولا يتطاولون الى معرفة ما تقتضيه ساداتهم واهل شوراها فلذلك قلما يحدث
 عندهم شغب او فتنة . بخلاف اهل فرنسا فان كلا منهم يتطفل على اولياء

الامر وهذا هو السبب في كثرة العساكر هناك وقتلها هنا ، فان جميع ما في بلاد الانكليز من العساكر لا يزيد على خمسة وعشرين الفا فاذا قسمتها على عدد الالهين وهو سبعة عشر مليوناً ونيف كان كانه قطرة من بحر . وانا اقول ان لذلك سببا آخر وهو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يكسبهم القوت الضروري . فان هؤلاء النحل العسالة في خلية الاجتماع الانساني انما يعملون كما قال بعضهم لتسمين الزناوير البطالة . وهم اطوع خلق الله لاولياء اموزهم فلو نهوهم عن ان يناموا مع ازواجهم لانتهاوا . ويمكن ان يقال ايضا انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسنون انفسهم وهم في هذه الحالة اسعد خلق الله وان جميع رسومهم واحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير . وكيف كان فان شقاءهم موجب لسعادة الدولة وفقرهم رائد في غناها فان مصاريف العسكري الواحد هنا تبلغ في السنة مائة وسبعين ريالاً وفي بروسيه اثنين وستين وفي الروسيه ثمانية وستين وفي اوستريا تسعة وسبعين وفي فرنسا مائة وثلاثة عشر وفي ايلات النمسا على انواعها اكثر من بروسيه اما في اميركا فتبلغ مائة واربعه وثمانين ريالاً (٢٩) * فائدة : اكثر ما تجهز من العساكر عند الدول في الاصر السالفة ما كان فيه لدولة اسبانيا مائة وخسون الفا ولبريتانية ثلاثمائة الف وعشرة الاف ولبروسيه ثلاثمائة وخسون الفا وللدولة العثمانية اربعمائة وخسون الفا ولاوستريا خمسمائة الف وللروسيه خمسمائة وستون الفا وفرنسا ستمائة وثمانون الفا وهي في هذا العصر اكثر ، واول من كان عنده جنود قائمة كما يرى الان شارلس الثامن ملك فرنسا وذلك في سنة ١٤٤٥ . وبه اقتدى شارلس الاول ملك الانكليز وذلك في سنة ١٦٣٨ . وحسب ذلك اولا عند الانكليز غير شرعي * وبلغ مجموع العساكر الانكليزية في سنة ١٨٥١ مائة وثمانية وسبعين الفا وستمائة وخمسة واربعين نفراً وبلغت مصاريفهم ثلاثة عشر مليوناً وسبعمائة واحد وعشرين الفا ومائة وثمانين وخسين ليرة * ويقال انه يلزم لكل نفر من عساكر فرنسا وانكلترا رطلان وربع من الطعام في كل يوم منها نحو ثلاثة ارباع خضرة والباقي لحم وخبر فيبلغ ذلك في السنة ثمانمائة رطل

فاذا اصغت الى ذلك مشروبه من الماء والقهوة والشاي والسكرات بلغ الفا وخمسمائة رطل . وكانت العادة قبل هذه الحرب الاخيرة (٣٠) ان يستخدم العسكري الانكليزي طول عمره وكان كثير منهم يقتدون انفسهم وبعد خمس عشرة سنة يدعون بلن لهم حقا في التسريح والان فرض على المشاة اثنتا عشرة سنة وعلى الفرسان عشرون . وفي عساكر الانكليز سبعة آلاف وثلاثة وتسعون هابطا بجامكية وافية وللنفر من حرس الملكة نحو شليين في كل يوم ولكل من الفرسان شلين وثمانية بنس والمشاة شلين . وثمان رتبة امير الالاني في الحرس تسعة الاف ليرة . ومصاريف العساكر البرية تبلغ سبعة ملايين ليرة والبحرية نحوها ومصاريف ديوان المهمات الحربية ثلثة ملايين . وعن طبعهم الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئا من الغريب . بل الكهول ايضا لا يعون ما يلقي عليهم الا بعد الروية والتأمل وشتان ما بينهم وبين الفرنسيات فان الحدث من هولاء يبتدر الى الجواب كانما قد درسه ودراة من قبل سواك اياه . ولو قلت ان البريتاني القح ليس له من نوعي العقل سوى المكتسب ونصف الغريزي لما اخطأت . وتلك صفتهم من القديم فقد روي عن شيشرون (٣١) انه قال ان ابلد الاسرى الذين جعي بهم الى رومية هم الذين اخذوا من بريتانيت والتمس من صديقه اتيقوس الا يشتري فيما بعد منهم احدا وذلك لبلادتهم وعدم اهليتهم لتعلم الموسيقى وغيرها من الفنون . وروي ايضا عن قيصر انه قل: ان اهل بريتانيت جيل جاف متوحش اكثر ما يكون وان معظمهم لم ينظر الخطاة في عمره قط وان قوتهم اللحم واللبن لا غير لباسهم جلود الحيوانات . اه . قلت ليس معنى قوله قوتهم اللحم انهم كانوا يطبخونه بل انما ياكلونه نيئا مملوحا كما يظهر من رواية اهل التاريخ فانهم قالوا انه علم من دفتر مصروف حاكم نورمبرلاند الخامس سنة ١٥١٢ ان اهل البارون كانوا يقتاتون باللحم المملوح فكان جل طعامهم . وكذلك حشمه لم يكونوا ياكلون طول السنة سوى اللحم المملح ونادر معه البقول والحبوب . فمن ثم غلط من زعم ان « البيف ستك » (شواء البقر المشرح) كان مستعملا في

انكثرة من القديم فان هذا الغذاء المري لم يعهد من قبل شارلس الثاني
لانه كان يحب الشواء من طهر الحيوان . اه . قلت والى لان هم يحبون
هذا الشواء غير ناصح وربما قطر دمه في الصحفة ويستطيبنه على سافر
الوان الطعام ولكن من راي اهل جبل لبنان يقطعون الهبر من الصان
وياكلونه نيئا فلا يلوم الانكليز . ومع تكرار ذكر مدن بر الشام على مسامعهم
من المنابر في كل يوم احد ومع كثرة قراتهم للتورات والانجيل فلا يكادون
يعرفون اين موقع دمشق مثلا من الاسكندرية ولا يتذكرون شيئا عن صور
وصيدا وبيروت وجبل لبنان مع انها مكررة في التوراة بما لا مزيد عليه .
والظاهر ان مصر اشهر عندهم وعند الفرنسيات من بر الشام وقد سألني مرة
في اكسفورد رجل له سمت ورأ فقال « من اي البلاد » فقلت « هو » ؟ اي
من ؟ اريد سن تعنى ؟ فقال : « آء من هو » ! معتقدا بان هو اسم البلاد ثم قال :
« اتعرف فيها فلانا » ؟ فقلت : انا لست من مدينة هو وانما انت سالت
ميوالا مبهما يصلح لان يخاطب به اي انسان كان فاذا اردت لان ان
تعرف اسم بلادي فهي سورية . فقال احد الجالوس بعد طول تأمل « هل
سورية مدينة كبيرة » (٣٢) ؟ الا ان بلادتهم هك مقرونة بشي من سلامة
الصدر وخلوص النية كما ان فطنة الفرنسيين مقرونة بالكر والحال وكما
ان عامة الفرنسيات يحسبون كل غريب فيهم من اسبانية ولاسيما اذا كان
اسمر اللون كذلك عامة الانكليز يحسبون كل متغرب بينهم فرنساويا سوا
كان اسمر او اسود او كان على راسه طربوش (٣٣) او طرطور . هذا ولما كانت
خلة الجهل ابدا ملازمة للفظاظة والحشونة كان لهؤلاء القوم الخط الاوفر منهما
فانهم قد يحذقون في وجه الغريب ثم يتبعونه بقهقهة ويسخرون منه
ولاسيما اذا لم يكن يحسن النطق بلغتهم على انهم هم انفسهم لا يحسنون
النطق بها فكلما هم كلمة لحسن وخطا . اما غناهم فلا يمكن لذي ذوق ان
يطرب به . وقد سمعت اغاني الفرنسيات وسافر الا فرنج فوجدت كثيرا
منها يشجي لان فيها ترجيعا ومدا . فاما اغاني الانكليز غير التي يتلقونها من
الاطليانيين والفرنساويين في الملاهي فكلها نبر ودرج . ومن طبعهم انهم

لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض . وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحا في الرابعة كل ذلك حتى ياكلوا الفقع ويشربوا القنقاع . وربما اقام الرجل سنين ولا يعرف جارة . وكذا اهل المدن . وغاية محاورتهم اذا تلاقوا في الطريق ان يقول احدهم « طيب بطرس » فيقول الاخر « طيب يوحنا » وكنت اذا مررت باحد منهم يقول لي « صباح حسن » فاقول له « صباح حسن » . وكنت احسب ذلك تحية لان تحية الصباغ عندهم « صباح طيب » فظننت انهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سألت دكتور لي فقال لي : « ليس ذلك من التحية في شيء وانما هو مجرد اخبار عن الصباغ » . واذا اجتمع المتعارفان منهم تسالا فلا بد وان يتبدي احدهما اولاً بوصف الهواء وصحة او برده ثم يخبره بما عرض له من وجع في كفه او ثللول في رجله او اختلاج في عينه فيقول السامع « يحزنني ذلك » ومتى اجتمعوا للنادمة - وذلك لا يكون غالباً إلا في القرى الجامعة - ملأوا كروبا كبيراً من الجعة وجعل كل منهم يكرع منه كرة ويدخن في قصبة من الطين ثم يصق فيملأون المكان بصاقاً وقذراً . وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبعيا وانما هو عبارة عن قهقهة بلا ادب ثم يعقبها العبوس وما كان الضحك منهم إلا قوة من القوى فهم يكتُمونه ما امكن مخافة ان تخرج منهم * ومن طبعهم ان لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما يهابون عندنا ولا يحن الوالدون ايضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل ابيه وامه كما ياتي بيان ذلك وقد حدث عندهم ايضا مصاحبة الاب ابنته ولكن لم يبلغني ان ولدا ضاجع امه وفي المدن الجامعة قد تنوطا لام وابنتها او لاخت واختها على الفحش والفساد * ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن ان يحولوا عنها مع علمهم بان جميع سكان اوربا قد خالفوهم فيها خلقهم لحامهم وشواربهم حتى ان عساكرهم لم تتحل بها إلا في هذه الحرب الاخيرة التي وقعت بين دولة الروسية وغيرها . فليت شعري كيف يرى وجه الجندي بجفوا متوفيا كوجه المرأة . ثم ليت شعري

اي حسن للشباب أكثر من الشوارب واي حلية وفضل وكمال للشيخ الكثر
من اللحية؟ واغرب من ذلك ان قضائهم واولي الامر منهم اذا جالسوا لفصل
الامور وضعوا على رؤسهم شعرا ابيض عارية وارخوا منه نحو ذنب معقود على
قذلهم . فاخبرونا ايها الناس كيف يكون المحسن والهيبة في ذنب ولا
يكونان في لحيته؟ لعمرى ان الشيخ بلا لحيته وشوارب اشبه بالقرود منه
بالانسان وان الشاب بلا شوارب اشبه بالانثى او الخنثى منه بالرجل .
فانها من علامات الرجولية وما خلقه الله من العائن الطبيعية . وان يكن
من عذر للعامة في حلق لحاهم فلا ارى للتقيسين وغيرهم من اهل الكنيسة
عذرا . فان المسيح ورسله كانوا كلهم ماتحين وكانوا يشربون عين الكاس
التي يشربها هؤلاء فكيف كانوا يفعلون (٣٤)؟ غير اني لا اقول بترك اللحية
على حالها فالاحسن ان تتخوف حتى تكون مستديرة بالوجه . قال
لامام الشريشي: « وكان النبي صلعم ياخذ من لحيته من طولها وعرضها
بالسواء وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته وياخذ ما زاد منها على قبضته .
قال الحسن بن المثنى: « اذا رايت رجلا له لحيته طويلة ولم يتخذ لحيته
بين لحيتين كان في عقله شيء . قال الشاعر:

« اذا عظمت للفتى لحيته * فطالت وصارت له سوته »

« فنقصان عقل الفتى عندها * بمقدار ما زاد في لحيته »

ونظر يزيد بن مزبد الشيباني الى رجل ذي لحيته عظيمة وقد تلففت الى
صدره واذا هو خاضب فقال له: « انك من لحيتك في مثونته » فقال:
« اجل » ولذلك اقول:

لعمرى لو يعطي الامير على اللحى * لاصبحت قد ايسرت منذ زمان
اذن لشفتي لحيته من عصابة * لهم عنده الف والى ماقتان
لها درهم للدهن في كل جمعة * وعاء سر للحناء يتدرا
ولولا نوال من يزيد بن مزبد * لصوت في حافاتهما المالحان
وقال يعقوب الكندي لجارية كان يهاها: « اني ارى فرص لاحتياصات
من التوقعات على طالبي المودات مودنات بعدم الاعتولات . فظرت اليه

لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض . وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحا في الرابعة كل ذلك حتى ياكلوا الفقع ويشربوا الفقع ! وربما اقام الرجل سنين ولا يعرف جاره . وكذا اهل المدن . وغاية محاورتهم اذا تلاقوا في الطريق ان يقول احدهم « طيب بطرس » فيقول الاخر « طيب يوحنا » وكنت اذا مررت باحد منهم يقول لي « صباح حسن » فاقول له « صباح حسن » . وكنت احسب ذلك تحية لان تحية الصباح عندهم « صباح طيب » فظننت انهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سألت دكتور لي فقال لي : « ليس ذلك من التحية في شيء وانما هو مجرد اخبار عن الصباح » واذا اجتمع المتعارفان منهم وتسالا فلا بد وان يبتدي احدهما اولا بوصف الهواء وصحوه او برده ثم يخبره بما عرض له من وجع في كفه او ثالول في رجليه او اختلاج في عينه فيقول السامع « يحزنني ذلك » ومتى اجتمعوا للنادمة - وذلك لا يكون غالبا إلا في القرى الجامعة - ملأوا كوبا كبيرا من المجعة وجعل كل منهم يكرع منه كربة ويدخن في قصبة من الطيسن ثم يصبق فيملأون المكان بصاقا وقذرا . وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبعيا وانما هو عبارة عن قهقهة بلا ادب ثم يعقبها العيوس وما كان الضحك منهم إلا قوة من القوى فهم يكتُمونه ما امكن مخافة ان تخرج منهم * ومن طبعهم ان لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما يهابون عندنا ولا يحن الوالدون ايضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل ابيه وامه كما ياتي بيان ذلك وقد حدث عندهم ايضا مضاجعة الاب ابنته ولكن لم يبلغني ان ولدا ضاجع امه وفي المدن الجامعة قد تتواطأ الام وابنتها او الاخوت واختها على الفحش والفساد * ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن ان يحولوا عنها مع علمهم بان جميع سكان اوربا قد خالفوه فيها حلقتهم لحاهم وشواربهم حتى ان سناكرهم لم تتحل بها إلا في هذه الحرب الاخيرة التي وقعت بين دولة الروسية وغيرها . فليت شعري كيف يرى وجه المجددي جفوا متوفا كوجه المرأة . ثم ليت شعري

اي حسن للشباب اكثر من الشوارب واي حلية وفضل وكمال للشيخ الكفو
من اللحية؟ واغرب من ذلك ان قضائهم واولي الامر منهم اذا جالسوا لفصل
الامور وضعوا على رؤسهم شعرا ابيض عارية وارخوا منه نحو ذنب معقود على
قذلهم . فاخبرونا ايها الناس كيف يكون الحسن والهيبة في ذنب ولا
يكونان في لحية؟ لعصري ان الشيخ بلا لحية وشوارب اشبه بالقرود منه
بالانسان وان الشاب بلا شوارب اشبه بالانثى او الخنثى منه بالرجل .
فانها من علامات الرجولية ومما خلقه الله من الحسن الطبيعية . وان يكن
من عذر للعامة في حلق لحاهم فلا ارى للقسيسين وغيرهم من اهل الكنيسة
عذرا . فان المسيح ورسله كانوا كلهم ملتحمين وكانوا يشربون من الكاس
التي يشربها هؤلاء فكيف كانوا يفعلون (٣٤)؟ غير اني لا اقول بترك اللحية
على حالها فلاحسن ان تتخوف حتى تكون مستديرة بالوجه . قال
لامام الشريشي: « وكان النبي صلعم ياخذ من لحيته من طولها وعرضها
بالسواء وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته وياخذ ما زاد منها على قبضته .
قال الحسن بن المنشي: « اذا رايت رجلا له لحية طويلة ولم يتخذ لحية
بين لحيتين كان في عقله شيء . قال الشاعر:

« اذا عظمت للفتي لحية * فطالت وصارت الى سرته »

« فنقصان عقل الفتى عندها * بمقدار ما زاد في لحيته »

ونظر يزيد بن مزبد الشيباني الى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلففت الى
صدره واذا هو خاضب فقال له: « انك من لحيتك في متونة » فقال:
« اجل » ولذلك اقول:

لعمرك لو يعطي الامير على اللحي * لاصبحت قد ايسرت منذ زمان
اذن لشفتي لحيته من عصابة * لهم عنده الف والى مائتان
لها درهم للدهن في كل جمعة * وءاخر للحناء يتدنان
ولولا نوال من يزيد بن مزبد * لصوت في حافاتهما الجاحسان
وقال يعقوب الكندي لجارية كان يهواها: « اني ارى فرص الاضياع
من التوقعات على طالبي المودات مودنات بعدم المقولات . فطرت اليم

وكان ذا الحية طويلة فقالت: « ان اللحي المسترخيات على صدور اهل
الركاب محتاجات الى المواسي الحالقات » * وكان المامون جالسا مع
ندمائه ببغداد مشرفا على دجلته وهم يتذاكرون اخبار الناس فقال المامون:
« ما طالت لحيته انسان قط الا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته
وما رايت عاقلا قط طويل اللحية » . فقال له بعض جلسائه: « ولا يرد على امير
المومنين قد يكون في طول اللحي ايضا عقل » فينبأهم يتذاكرون هذا
اذ اقبل رجل كبير اللحية حسن الهيئة فاضر الثياب فقال المامون: « ما
تقولون في هذا الرجل؟ » فقال بعضهم: « رجل عاقل » وقال آخر: « يجب
ان يكون هذا قاضيا » فقال المامون لبعض الخدم: « علي بالرجل » . فلم
يلحق ان اصعد اليه ووقف بين يديه فسلم فاجاد السلام فاجلسه المامون
واستنطقه فاجاد النطق فقال المامون: « ما اسمك؟ » فقال: « جدويه » .
قال: « والكنية؟ » قال: « ابو طلويه » . ثم قال: « ما صنعتك؟ » قال: « انا
فقيه اجيد مسائل الشرع » . فقال له: « نسالك مسألة » فقال الرجل:
« سئل ما جدا لك » فقال له المامون: « ما تقول في رجل اشترى شاة من
رجل فلما تسلمها المشتري صرطت فخرج من استها بعة فقالت عين رجل
فعلى من توجب دية العين؟ » قال فنكت باصبعه في الارض طويلا ثم
قال: « تجب على البائع دون المشتري » . فقال المامون: « وما الغلة التي
اوجبت الدية عليه دون المشتري؟ » قال: « انه لما باعها لم يشترط ان
في استها منجنيقا » قال فضحك المامون حتى استلقى على قفاه وضحك كل
من حضر من الندماء وانشد المامون يقول:

« ما احد طالت له لحيته * فزادت اللحية في حليته »

« الا وما ينقص في عقله * اكثر مما زاد في لحيته »

وكانت عايشة رضي الله عنها تنقسم وتقول « لا والذي زين الرجال باللحي »
وجاء انه قسم الملائكة . قلت: وانا اقسم واقول: لا والذي زين النساء
بعند اللحي * انتهى الكلام على اللحية غير انه علق بي منها شيء وهو انه
ورد عن النبي صلعم انه قال: « احفوا الشوارب واعفوا اللحي » . وفي الصحيح

ما نصه : « وفي الحديث انه امر ان تحفى الشوارب وتعفى اللحى فكيف التوفيق بين هذا القول وبين قول الشريشي ان النبي كان ياخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء » * ومن الانكليز من يزد خلا من شعر راسه فوق اذنيه فترى اعينهم بارزة بين قرني شعر وقذالهم يشبه جبهة الثور الناطع * فاما اتخاذ العارية من الشعر لا يرض فاصله فيما قيل ان لويس الرابع عشر كان ردي الشعر فاتخذ له عارية يستر بها عوار راسه وكان اذ ذاك شيخا فاقدمت به امائل البلاد . وسرت هذه العادة الى الانكليز وهم في اكثر الاشياء مقلدون للفرنسيين . وقد وهي استعمالها لان بالنسبة الى الاول الا في دواع معلومة واحوال خصوصية . منها يوم مبايعة الملك او تبريكه او تهنئته . ففي ذلك اليوم تتحلى كبراء دولته بهذه العارية ويقابلونه بها . ومنها وقت جلوس القاضي على كرسي القضاء لتنفيذ الاحكام الشرعية كما هو وفي محال اللعب والملاهي حين يحاكي اللاعبون واللاعبات سن سلف من الملوك والملكات ترى هذه العارية على روس الاحداث من الرجال والنساء وكانها تزيد الحسن حسنا فكانها مصداق على قول الشاعر « كل شي من المليك مليك » ثم لما اخذت هذه العادة في العقم نتج عنها ذرو الرماد الابيض على روس خدمته الاشراف والعظماء . واصل هذه ايضا فيما قيل ان بعض الغنيين كانوا يغنون في موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع فكانوا يمسحون روسهم ليضحكوا الناس . ثم انتقلت هذه العادة كغيرها من العادات من العامة الى الخاصة وذاع استعمالها في سنة ١٦١٤ . وفي سنة ١٧٩٥ جعل عليها ضريبة وكانت حيث قد بلغت التناهي فجعل على كل راس جيني (٣٥) ولم يزل الى الان . والحاصل ان اعظم الاسباب التي تبقي استعمال هذه العادات السخيفة هو حصول النفع منها لخزنة الدولة فانه حيثما وجد الربح وجد السداد والرشاد ولو ان الديوان ضرب طسقا على اللحى والشوارب لما وسع الناس الا ان يقولوا ان يد الرب على قلب الملك * ومن عادة العامة باللاكمة ويقال لها « البوكس » وفي محفوظي ان الشيخ رفاعية ذكرها في قلائد المفخر بلفظة « البوكسة » وذلك اذا تحاجم اثنان او تكافوا

ينزع كل منهما رذاعة ويشمر عن ذراعه ويصوب الى وجه قرنه جمع كفه
وياخذان في الكلام حتى يقلب احدهما . وحينئذ ينهض الغالب المغلوب
وياخذ يلك ويشربان الشراب كالمختارين . والملاكمة للعامة بمنزلة المسابقة
للعلية غير ان هذه محظورة يجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها . وقد كانت
سابقا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للتفرج عليها وفي اواخر القرن الماضي
كانوا يتعلمونها في المدارس . ومن طبع لا تكليز عموما التهافت على الشهرة
والنباة بين اقربانهم باي سبب كان ولا سيما في اسباب المعارف والعلم .
فان من يعرف منهم مثلا بعض كلمات من اللغة العربية ومثلها من
الفارسية او التركية فاذا التى كتابا بلغته ادرج فيه كل ما يعرفه من غيرها
ليوم الناس انه لغوي وما عليه ان كتب تلك الالفاظ على حقها او اخطا
فيها . وفي عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الالقاب لا تحصى .
فيكتب له من اصحاء جمعية كذا . وماخص كتاب كذا . ومحرر نبذة كذا
وخطيب مقابلة كذا . ولم جرا . ولو عصرت كتابه كله لما بللت منه صدق
مسالة . واقبح من ذلك انهم لا ياخذون اللغات عن اهلها ولا يتخرجون من
ان ينسبوا اليها ما ليس منها . انظر الى ريشردصون الذي الف كتاب لغة
في لغته ولغتي العرب والفرس . فاقسم بالله انه كان لا يدري من لغتنا
نصف ما ادريه انا من لغته . بل سولت له نفسه ايضا الى ان ترجم النهر
العربي فخطط فيه ولفق ما شاء فمثل للاضافة بقوله « قدح فضة » و« ملك
كسرى » و« راس امان » و« الغالب عجم » و« غالب عجم » و« كتاب
سليمان » و« نصرا عقبه » وفسرها بانها مثنى مضاف الى العقبة و« نصروا
عقبه » و« النصرا عقبه » و« النصروا عقبه » . واورد حكاية من كتاب الف
ليلة وليلة عن ذلك لاحق الذي قدر في باله ان يتزوج بنت الوزير
فلما وصل الى قوله « ولا اخلي روجي الا في موضعها » ترجها بقوله : « لا
اعطي الحرية لنفسى ابي لزوجتى الا في حجرتها » . وقوله ايضا « ولا ازال
كذلك حتى تتم جلوتها » صحفى « جلوتها » بجلدتها فقال « ولا اكف
حتى يتم ذلها » وعند قوله « حتى يقول جميع من حضر » كتب في الحاشية

« خطر » وحضرة بمنزلة السمو في الانكليزية وقس على ذلك * وإذا ترجم احدهم كتابا رقع بهما عن له وسبكه في قالب لغته . فقد قرأت كثيرا مما ترجموه من كلامنا الى كلامهم وإذا به مسبوك في قوالب افكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط . وقرأت ترجمة منشور صدر من السلطان في الحض على الجهاد من جلسته « ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الآخرة إلا بجهاد الكفار » فانظر ان كان المسلمون يقولون النبي « معبود » وما رايت احدا تخرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر صال الذي ترجم القرآن ومستر لان الذي ترجم حكايات النوى ليلة وليلة ومستر برسطون الذي ترجم خسا وعشرين مقامة من مقامات الحريري . اما الاول فقد ذكر فلتير انه مكث بين العرب سنين عديدة واخذ عنهم علم العربية حتى تهيأ له ترجمة القرآن . ولست من ذلك على ثقة اذ الطاهر من مقدمته للقرآن انه لم يخالط العرب وكيف كان فهو من المحققين . واما الثاني فانه لبث في مصر وعاشر علماءها وادباءها . واما الثالث فانه كان قد سار الى الديار الشامية واستصحب منها الشيخ (٣٦) امين الشميل النحوي لاديب . وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن طلحة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما :

« خذا بطن هرشي اوقفاها فانه * كلا جانبي هرشي لهن طريق »
فان احدهم لا يبالى بان يودي معنى الترجمة بأي اسلوب خطر له فلو قرا احدهم سبا في كتبنا نحو « يحرق دينه » ترجمه ان دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والقنوت بحيث انه يحرق جميع ما هداه من المذاهب اي يغلب عليها فهو الدين الحقيقي كما ورد ان الله نار آكلة . وهكذا فليس لعمرى علم لغتنا عندهم سوى سبب يتوصل به الى غيرها كالعبرانية والسريانية فان هاتين عندهم اهم وانفع . وناهيك ان دخل مدرس العبرانية في كمبرج الف ليلة في السنة ودخل مدرس العربية سبعون فقط . ومتى عرف احدهم شيئا من لغتنا طابقه على غيره من تلك واستخرج منه فائدة تختص بالمطابق عليه . وقد جرى مرة بحضرة دكتور لي ذكر احد النساويين فقلت انه ذو

دعوى لكونه نظم ابياتا في لغتنا وشهرها في كتاب مطبوع وكلها لحن وزخاف
ولو كان ذا ادب لما تكلف للنظم من دون معرفة قواعدة وهو بعيد عليه بل
على جميع لافرنج الذين لم ياخذوا عن العرب . قال : « كيف ونحن نظم الشعر
في اليونانية واللاتينية ولم نخاط اهلها ؟ » قلت : ههنا فرق عظيم وهو ان
هاتين اللغتين لكم كالاصل للغتك فتعلمونهما على صغر اما العربية فهي اجنبية
عنكم . قال : « ان الرجل ليتمكن ان يتعلم اي لغة شاء كما يتعلمها الطفل »
قلت : اما انا فما هذا مذهبي واني اعطي كني كلها لاي افرنجي كان اذا
كان ينظم بالعربية بيتين صحيحين بليغين . قال : « انا انظم لك الليلة ثلثة
ايات » . فلما قابلته في الغد اذا به قد ادى الي رقعة كتب فيها :

« الم ترى انا صاح بهذا علامة » بان صار الاجنبي يجري كرامته
« وان لم يكن هذا عروضاً مصححاً » فلا تعطه اجرا اسفارك عامة
« فان كان ذا اذا صحيحاً وسالماً » ستسلمه اجرا اسفارك رامته
فلما قرأتها قلت له : فيها زخاف وخطا ساينيهما لك . فسكت ساعته ثم
قال : اتدري ما الالف التي في « قفا » مع قول امرء القيس « قفا نبك
من ذكرى حبيب ومنزل » ؟ قلت : هي الف الشنية عند البعض فان
الشاعر خاطب صاحبين له وذلك مستفيض في كلامهم وعند غيرهم انها مقلوبة
عن نون التوكيد . قال : « هذا كله تحل وتعسف وانسا هي مقلوبة عن
الهاء من العبرانية فان اليهود ياحقون الهاء بفعل الامر والنهي دلالة على
الطلب والتوسل » . ثم بينت له بعد ذلك خطا اياته فما كان منه إلا ان
قال ان لغة العرب ليست مطبوعة كساتر اللغات بل هي لغة مصنعة
متكلف فيها كثرة القواعد والضوابط بخلاف لغات اوربا وطفق يبين انه
يجوز في اللغة اللاتينية ان تقام الحركة الطويلة مقام القصيرة نحو ان
تجبرى لفظة « ماد » مجرى « مد » ونحو ذلك ثم سألني بعد ذلك : « كيف
تفعلون بال في قولك « الدين » فانه اجتمع فيها ثلثة سواكن وانت
تقول انه لا يجتمع في العربية ساكنان » ؟ فقلت : اين السواكن الثلثة
هنا ؟ قال : الالف واللام والدال » . وقال لى يومنا : « اتدري من اين

اشتقاق الزنا ؟ فقلت : لا ادري قال : « من العبراني فان زنى فيها
 بمعنى باع فكان الزانية تباع نفسها للرجل » . وسألني مرة أخرى : « اندري
 ما اصل المدة في نحو قولك آمن ؟ فقلت : لا ادري من امرها شيئاً سوى
 انها علامة . فقال : « هي لآلف في السرياني » . وقرا يوماً « قوما بطالين »
 فقال : « البطال عند الصوفية في ثاني مرتبة العابد » . فقلت : قل البطل
 اذا . وقال ايضا ان « يومنا » في قول العرب الى « يومنا هذا » من السرياني
 وهو « يومان » . ودكتور لي هذا كان استاذ العربية في كمبرج وكان ذا اجتهاد
 لا ملل معه . فكان يقعد على الكرسي المطالعة اربع ساعات ولا يتحاحل
 عنه . وما اخال احداً غيره اشتهر بما اشتهر به هو في علم اللغات المشرقية .
 وتوظفه في كمبرج هو السبب الذي حداني الى المحصور الى هذه البلاد
 لان الجمعية لما استاذنت حاكم مالطة بواسطة وزير الامور الخارجية في
 احصاري لاجاور دكتور لي ظننت ان مكثي يكون في تلك المدينة . وهي
 وان تكن لا تشوق احداً للسكنى فيها غير من يقصدها للثقفة في الفنون
 الا انها على كل حال احسن من القرى . وذلك كنت ادريه من قبل الا
 ان البواعث الحالية والدواهي الكونية اوجبت على دكتور لي ان يعدى عن
 وظيفته تلك وان يكون قطع انف عرفة يوم الكلاب سبياً في سجن مستملي
 جان بن بشر قاضي بغداد (٣٧) . ولم يكن شيء يسليني في تلك القرية سوى
 ترقب الشهر الذي يسافر فيه الدكتور المذكور الى برستول لاسافر معه
 حيث قدر علي ان اكون معه في كل مكان وزمان . غير ان المذكور توفي
 وانا في باريس واعفاني الله من السفر معه الى تلك الديار فرحبه الله به
 وكرمه . ثم اني لما سرت الى اكسفورد قصدت ان ارى خزانة الكتب
 فسالته بواب المدرسة من شيخ العربية ليهديني لها . فاخذ يطالع في
 فهرسة المعلم فلم يهتد الى اسمه . فقلت له : كيف وانت ملازم لهم لا
 تعرفهم ؟ فقال ان شيخ العربية لا يعلم ولا يدرس ولكن له قاري فاذا
 قرا القاري شيئاً ياخذ الشيخ في شرحه اي في توجيهه الى وقائع تاريخية
 تتعلق بذلك الموضوع وفي مطابقتها على بعض اللغات كما سابى لك عن

قريب . ثم بعد طول معالجة وبحث انتهيت الى دار الشيخ فتوجهت اليه وسالته ان يريني المكتبة تفصلا وتكرما . فاجاب الى ذلك وسرنا معا . واول كتاب فتحه كان بالخط الكوفي واذا في اول الصفحة لفظة « الا » فقرأها « الآ » وفسرها انها الله . فتعجبت كيف انه انخدع لسمعه لانهم جميعا يلفظون اسم الجلالة هكذا . وسالني مرة استاذ آخر : « اتعرف لم دلت في » على الظرفية ؟ فقلت : لا ادري . قال : « بل انا ادري وذلك لاشتقاقها من الثم الذي اصله فوه » . ولا باس ان اذكر لك مثالا على علم هؤلاء الاساتيد وعلى تطفلهم على ما ليس لهم به من خلاق فتصور مثلا ان قارنا يقرأ على الشيخ قول ابي تمام :

« همة تنطح النجوم وجد » الف للخصيص فهو حضيض »

فيقول الشيخ بلغته ان « النطاح » مختص بالحيوانات التي لها قرون كالنور والتيس والوعل ونحوها ويمكن ان ينسب ايضا الى ما ليس له قرن منها . فقد روى ليناوس الذي قسم جنس الحيوان الى سبعة اقسام ان الحيوانات الجماء تنطاح بجباهها . وقد اطلقت العرب اسم الكباش على آلة من آلات الحرب لما انها تنطح الجدار . و « النجوم » معروفة وقد كانت العرب تهتدي بها في اسفارهم قبل ان عرفت خاصية ابرة المغنطيس . ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في اوربا من يشم لها رائحة . ولما فتحوا اسبانية او جزيرة لانجلس (٣٨) وذلك في نحو سنة ٧٥٠ اخذ عنهم العلوم بعض من اهل البلاد ومنهم سري في سائر بلدان اوربا وكان انقراض الخلافة من قرطبة سنة ١٠٣١ بعد ان دامت العرب اصحاب الامر والسيادة فيها نحو مائتين وخمس وسبعين سنة . اما الالف واللام التي في النجوم فهي اداة التعريف وهي في الطليانية ولاسنيولية والفرنساوية « ال » للذكر و « لا » للمؤنث . واللغة اللاتينية ليس لها اداة تعريف فاما اليونانية ففيها عدة ادوات . ويوجد في لغتنا الفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف منها ما هو عربي وذلك نحو « الكنا » (اي الحنا) و « الكحل » و « القائد » و « الجرة » (الحبر) و « القرآن » و « القلي » و « القرثيم » او « الكرزم » ومنها ما هو لاتيني . فاما

اللغة لاسبينولية ففيها من هذا النوع الفاظ لا تعد . فاما عدم لفظ اللام في النجوم فهو لكون النون من الحروف الشمسية . واول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسير القمر حول الارض ونسبت بعضها الى بعض وعلت المد والجزر والنور والجذبية الفيلسوف اسحاق نيوتون ولد سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧ وكان ذا جد ومثابرة على العلم لا تنظر . اما قوله « جد الف للحصيص » فالحصيص معناه هنا الارض فهو من تسمية الكل بالجزء وفحوى البيت انه ذو عناية بالارض اي بحرثها وحياتها وانشاء المدن فيها وتسوية الاحكام بين اهلها حتى انه اي المدوح صار ارضا وخصبا لقاصده . فاما ان كان هذا الشيخ قد تلهذ لشيخنا الاكسفوردي المشار اليه فانه يقرأ « الحديد » بدل الحصيص فيكون تاويله وجد اى حظ او اب الف لاستعمال السلاح وقهر العدو . وهكذا يمشي على انعكاس المعنى بهذا العصد «و وتلامذته وبعد انقضاء نحو ساعة ونصف على تاويل هذا البيت يقومون وهم سامدوا الروس عجباً وفخراً ويظنون ان شيوخ الجامع الازهر والزيتونى والا موي هم دون هذا التحرير الذى عرف مولد نيوتون ووفاته واستيلاء المسلمين على الاندلس . وقد استبد هولاء الاساتيد بهذه الدعوى بحيث انهم لا يوظفون الغرب في هذه المدارس وانما يسعون له بان يعلم اشخاصا على حديثهم فلا هم يتعلمون حق التعلم ولا ياذنون لغيرهم في ان يعلموا حق التعليم . وهذا الداء فاش ايضا في مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فيها . ولا بد لشيخ العربية من ان يكون عالما باللاتينية حتى اذا جهل شيئا من تلك عمد الى هذه فقور منها رقعة * واعلم ان كمبرج واكسفورد هما مدينتان في بلاد الانكليز كل منهما تحتوي نحو عشرين مدرسة والفى طالب . ففي الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والاهيات وفي الثانية علوم الادب والفقه والمنطق والفلسفة . ولا يمكن التعلم فيهما إلا بنفقة زائدة وما احد يقصدهما إلا اولاد الكبراء والاغنياء ولا سيما اكسفورد فهناك ترى طالب العلم شامخا بانفه مصعرا خده كانما هو طالب ملك الصين والهند . واكثرهم يصرف همه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم طهرىا . فمتى حان يوم الامتحان

عرف ما يريد الشيخ ان يمتحنه به من المسائل اذ هي محصورة معدودة فيجتهد في حفظها وترسمها . فاذا سردها عليه واحسن سردا اجازة بصكت يذكر فيه انه نال مرتبة المعلمين وهي عندهم متنوعة . ولكل من هك المدارس اوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها ويقال لكل منهم « فلو » وربما كان ايضا من غير القسيسين . فان كل من نبغ في علم من العلوم اجري عليه الرزق من الوقف فمنهم من له مائتا ليرة في السنة ومنهم من له اكثر ولكن بشرط ان لا يتزوج . فمتى تزوج انقطع عنه رزقه إلا انهم لا يتزوجون غالبا إلا بعد ان يحصلوا على معيشة من خدمة احدى الكنائس . وفي كل سنة من يوم معلوم منها يحصل نزاع وكلام بين طلبة العلم وبين الاهلين وربما غلبت فيه الطائفة على قلتهم . ويسمونه يوم « اھكتون والتون » (٣٩) وذلك لان الطلبة يلبسون ثوبا اسود كالقبطان ويقال له « كون » والبلد عندهم يقال له « تون » . وفي كل من المدينتين مكتبة عربية غير ان كتب اكسفورد اكثر وفيها في سائر اللغات نحو ثلثمائة الف كتاب . واعظم ما سرني فيها هو نزولي في محل كان يسكن فيه شكسبير (٤٠) كذا قيل لي والله اعلم * وفي مدة اقامتي كلها في كمبرج وهي اكثر من سنة لم ار من اللهو إلا قردا وقرادا يلاعبه وكان القرد يضرب بالدف والنساء والاولاد والرجال يجرون وراءه ولم ار احدا منهم اعطاه شيئا . ورايت مرة اخرى امرأتين تعرضان بآلة الطرب فرميت لهما من الشباك بنصف شيلين فاستكثرتا (٤١) . ثم القائم بخدمة اصحاب هذه المدارس نساء واغلبهن حسان فتاتي المرأة في الصباح الى محل احدهم وهو في فراشه لتوقد له النار وفي الليل تحضر له الشاي . وكنت مرة عند احدهم فاقبلت امرأة كانها البدر الطالع وقالت له : « هل دعوتني يا سيدي ؟ قال : لا . ثم دعاها لتحضر الشاي . فتاملتها على النور واذا هي نور ثان . وقد ذكرت ذلك لبعض المثورعين من اهل المدارس فافر بانهم غير لائق وانما جرت به العادة ولا سيما ان هؤلاء النساء متزوجات ولا يذهبن الى ازواجهن إلا عند نصف الليل . وفي هاتين المدينتين عادة قبيحة في البيع والشراء وذلك ان الباعة يبيعون الطلبة نسيئة ويتقاضونهم

ما هو فوق القيمة فاذا اراد غريب ان يشتري شيئا اقتضوه قيمة النسيء
الا ان يكون الشاري عارفا باحوالهم فيقول « انما شرأي بالنقد » وقل من
يذكر له ذلك . وحيث كان هؤلاء الطلبة من ذوي الايسار والترفة كانت
هاتان المدينتان اعلى من سائر بلاد الانكليز * اما ما عندهم من الطيرة والتفاول
فقد ذكر صاحب الجرنال المسمى اخبار العالم عدد ٦٨٤ ان الانكليز يتطيرون
من لقاء المرأة الحولة ما لم تبادر بالكلام فحينئذ تزول الطيرة -- ومن السفر
يوم الجمعة -- وان يكون المدعو في عيد الميلاد رابع عشر شخصا -- وان يعارض
سكينان وقت الغداء -- وان يمشي احد تحت السلام -- وان تبقى اغصان
الميلاد في البيت بعد عيد « كندلماس » وإلا فان ابليس نفسه ياتي ويأخذها .
قلت اغصان الميلاد هي اغصان يقطعونها ويزينون بها الغرف والبيوت ليلة
عيد الميلاد ويقال لها « ميزلتو » وهي عادة قديمة من عادات اعياد
« الدرويدس » وهم حكماء اهل بريتانيت سابقا وسيأتي ذكرهم . قال واذا
رمي بنعلين باليتين خلف من فصل عن المنزل كان ذلك فالأ بنجاحه
وتوقيفه . وهذا تستعمله خصوصا عليه الناس في بعض البلاد ولاسيما عند
الاعراس -- واذا قص الانسان شعره مدة نمو القمر نمت وجثل -- ويتطيرون
ايضا من روية الهلال من شبك او زجاج ونحوه فاذا رايت في الفصاء فاقب
ما في جيبيك من الدراهم او الفلوس وتمن خيرا في الشهر القابل تنله
-- وان يضع احد ملحاً في صحفة غيره -- وكذا لو قلب احد وعاء الملح على
المائدة . واصل ذلك ان بعض المصورين الطليانيين صور العشاء الاخير (١٤١)
ويهودا مبددا للملح . قلت عادة اهل بلادنا اذا ابصروا الهلال ان يبرزوا له
دينارا ويقولوا « جعلك الله شهرا مباركا » . فاما قلب الملح فانه عند العرب كناية
عن الغدر والخيانة وحفظه كناية عن حقوق المودة والعشرة وقسمهم بذلك
لتعظيمه . قال الامام الخفاجي « وعليه قولي في خائن الاخوان :
« لا يعرف الخبز ولا الملح اذ * ياكل في غيبته لحم اخيه »
كذا نقلته ولعله قال « ياكل لحم الاخ في غيبته » ليتزن البيت -- واذا انقلب
الكرسي برجل عزب كان دليلا على ان الرجل لا يتزوج في تلك السنة وهو

غريب فانهم شبهوا المرأة بالكروسي وهو عين ما عنته العرب بقولهم « قعيدة الرجل امراته » - واذا تاجع لهيب النار وسمع له حس استدل بذلك على فزاع ونقار يقع بين اهل البيت - واذا طارت جرة من النار ووضعتها عند اذنك وسمعت لها طيننا دل ذلك على قبضك دراهم - واذا قطرت الشمعة الموقدة كان دليلا على الموت - واذا بدا حباب في القهوة ونحوها كان علامة على قبلة او قبض دراهم (٤٢) - وروية نحو عكر متقسم الى اجزاء في قدح دليل على سفر طويل ومشاق - ووقوع سكين على الارض دليل على قدوم غريب - واذا عزم انسان على سفر واكل نصف بصلته وترك الباقي كان دليلا على عدم توفيقه - وحك العين اليمنى دليل على البكاء واليسرى على سرور غير متوقع ومعه ضحك - واذا اختلجت الشفة العليا واحكت كان ذلك علامة قبلة - او الذقن فعلى اكل لحم طري (٤٣) - او الزور فعلى اتخاذ منديل - او الاذن اليسرى فعلى مدح يثني عليك به احد - وبعكس ذلك الاذن اليمنى - او الانف فعلى شيء يغيظك ويهيجك - او الكف اليمنى فعلى قبض دراهم - او اخمص الرجل كان علامة على مخاطبتك رجلا اجنبيا - او الكوع فعلى رقودك في غير فراشك - ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها مؤذن بالشوم فالاولى ان يعلق في مسمار او وتد - واذا مات احد وييست اعضاؤه حتى لم يمكن ليها كان الموت مفردا وإلا فلا بد من ان ياتي على آخر - ونباح الكلب تحت شباك دليل على الموت - وكذا اذا حاولت هرة ان تدخل من الشباك او دبت الخنافس على الموقد او وقفت الساعة بحيث تكون نظيفة الالات - واذا عزم احد على ادارة مصالحة وهبت الريح في غد يومه من الشمال فقد فاز ونجح - واذا كسب دينارا كسبا هينيا بصق عليه ووضعه في كيسه - وكذلك يبصق عليه اذا كان اول دينار مكسوب صيحة يومه - واذا اهدى محب الى محبوبته سكين او مقصا فلا يلبث ان يفترقا فلا تقبل ذلك منه الا ان يضعه على مائدة ونحوها او ان تعطيه في مقابلة الهدية فلسا - ووضع المنفخ على كرسي او مائدة مورث نزاع - وازدهار النار مساء دليل على قدوم صاحب المنزل مسرورا - وعشار

انسان وهو صاعد في الدرج يدل على الزواج - ولاكثر من الضحك داعية للبكاء - وصرف دينار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دليل على صرفها عبثا - وسقوط مشاطة شعر النساء في الماء يورث تساقط الشعر بخلاف ما لو وقعت في النار - والنظر في المرأة ليلا مكروه إلا عند الاضطراب وهو مشهور عندنا ايضا - وابتلال ثياب المرأة وهي تغسل تطير بان زوجها يكون سكيما - والشامة في العنق تيمن بالحظ والسعادة - واذا احمر وجه انسان كان علامة على ان احد محبيه يذكره - واذا شرق (٤٤) احد بشيء قالوا له في معرض الكلام « قد ارتكبت سرقة او خيانة » ونحوهما وهذا مستعمل ايضا عند اهل الشام وهو امر طبيعي -- وتاوليهم للحلام قريب من تاولينا فالحلم بكلب دليل على صديق وبخية اماراة على عدو وبامراة سيئة دليل على مصيبة وقس على ذلك * وفي اول ليلة من تشرين الثاني (نومبر) تشتري البنات جلوزا ويشوينه ثم يكسرنه فاذا خرجت اول جلوزة مزوجة استبشرون بالزواج في تلك السنة يفعلن ذلك ثلث مرات وإلا فلا . ونحو منه انهن يشتري رصاصا ويذوبنه في ملققة حديد ثم يفرغنه منها ضمن حلقة مفتاح الى اناء فيه ماء وكيفما تهيات قطعة الرصاص في الاناء استخرجن منها فالأعلى حرفته سن يخطبهن . وفي تلك الليلة يملآن افواههن ماءً ومعه شيء من حب شبيه بالخمص ويمتنعن من الضحك لئلا يخرج الماء ثم يخرجن الى الطرق وأول اسم يطرق مسامعن فهو اسم الشخص الذي يقدم على الزواج وحينئذ يمججن الماء . واذا شاء احد ان يعرف اخلاص قلب انسان عليه يضع مفتاحا في الانجيل ثم يربط الانجيل بخيط على شكل الصليب ويجعل حلقة المفتاح بارزة منه ثم يتلو الايتين السادسة عشرة والسابعة عشرة من الفصل الاول من سفر راعوث فاذا دار المفتاح كان ذلك دليلا على اخلاص قلب الشخص المضمر وإلا فلا . والزواج في شهر ايار شوم . واذا اراد احد ان يفتح دكانا او يتعاطى مصالحة مهمة فلا يبدأ به (٤٥) يوم الجمعة بل يوم الخميس أو السبت وهذا التطير فاش عند جميع رؤساء المراكب . وفي السنة الكبيسة تلبس النساء ثوبا احمر تحت القفطان . وكلما استكثروا

من اصناف الحلواء في راس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها . وفي عيد الميلاد يصنعون نوعا مخصوصا من الحلواء يسمونه « كرسمس بودن » ويثقون منه شوايتة في الصوان تبركا بها . واذا مضى عليهم هذا العيد من دون هلك الحلواء اوجسوا النقص والقلته ستمهم كلها . واذا كانوا غائبين عن بلادهم ولم يقدروا على اتخاذها بعثوا الى اهلهم يطلبون لمأطه منها فيبعثون لهم في كتاب بمثل قلامته الطفر . وفي ليلة ذلك العيد يوقدون شموعا كثيرة ونارا محتاجة ويزينون الغرف بتلك الاعصان التي تتقدم ذكرها ويظهرون الفرح والابتهاج واذا مشت امرأة من تحتها حق للرجال ان يقبلوها . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر ايلول ويسمونه « ميكلمس » اي عيد ميكال ياكلون الوز . وفي السادس من كانون الثاني يصنعون كعكا مخصوصا يسمونه كعك اليوم الثاني عشر (٤٦) . ومن اوهامهم ايضا الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره . وهذا الوهم فاش حتى عند عامة سكان المدين فقد كنت ارى في كل ليلة جعا عظيما واقفين عند احدى المقابر بلندرة لما شاع عندهم من ان روحا تراه فيها لبعض المارين في هيئة بشر بلباس ابيض . فاجب انحشادهم هذا احراق وجه المقبرة بالجير لنفي تردد الروح . او لعله كان حيلة في منع اجتماع الطعام لانهم حينما اجتمعوا اجتمع الشر . وفي لندرة موضع يسمى « هاتن كاردن » فيه عين ماء يزعمون انه يجري منها دم في كل يوم عند نصف الليل ولها قصة طويلة لا يمكن سردها هنا (٤٧) . ومن ذلك اعتقادهم بانه اذا احتضر شخص حضر في منزله روح يسمونه رصد الميت فيسمع له قرع على الباب او الحائط او صوت نحو صوت جر السلاسل او طنين الجلاجل فان سمع ذلك منه ثلث مرات كان الموت بعدها لا محالة . ومن النوادر هنا ان رجلا كان يمشي زوجته في بستان وهما يتحدثان وفيما كان يكلمها احست بكرب وانقباض فقالت له : « تنح بنا عن هذا الموضع فاني اظنه محضورا » . فتخفى عنه ثم سال بعد ذلك عنه فعلم انه عند تحادثهما كان بالقرب منهما رجل يقتل نفسه . وقتل رجل ولدا صغيرا فقضي عليه بالموت ولما سئل عن سبب قتله اياه قال : « كنت اريد ان اتخذ من ججمته

مصباحا ساترا حتى ادخل البيوت ولا يراني احد » . واتفق في بعض السنين ان ظهر في السماء نور ابيض امتد من المشرق الى المغرب خفيف المروكان كانه هباء ثم انتشر في عنان السماء كله وظهرت عقب ذلك حرة في الافق ثم كثر وعظم فطفق اهل الدار التي كنت فيها ييكون ويصجون ويستغيثون فسالتهم عن سبب صحيحهم فقالوا انها آية على المعامع والحروب فقلت « كلا بل هي آية على فساد البطاطة » فانقلب بكاوهم ضحكا . وهذه السنة كانت رابع سنة مشتومة على غلة البطاطة في ارندة فكان الناس في هاجس عظيم لذلك لان جل طعام اهلها بل طعام الانكليز ايضا انما هو منها . ثم اعقب تلك الافة حيات ووباء فمات اناس كثيرون ورثي لهم كثير من الدول فجاءهم امداد منها وامدهم مجلس المشورة بلندرة بعشرة ملايين ليرة * واعلم انه قد يتشأم الانسان من مكان او زمان ويتفأك بغيرهما ويكون ذلك مجرد وهم مثاله ان يكون في محل لم يتفع فيه الا بوعود واماني فيمل منه ويتقل الى آخر فتتحقق فيه امانيه فيرى ان ذلك من يمن الانتقال مع انه لو بقي في الحال الاول لصحت له * وفي بلاد الفلاحين بل في المدن الجامعة ايضا نساء يدعين علم الغيات بطرق مختلفة منها بالتاليف بين اوراق اللعب المزوقة وذلك بان تصف منها ثلاثة صفوف كل صف يشتمل على سبع ورقات ثم صفا رابعا من خمس او خمسة صفوف كل منها يشتمل على خمس ورقات ثم صفا آخر من اثنتين وتضم ان احدى المزوقات الحمر كناية عن امرأة واحدى السود كناية عن رجل اسمر وتنسب لكل من الورقات المنقطة خاصية البخت وضده وتقابلها بتلك المزوقات التي وقع عليها الاضرار ثم تستخرج من تلك المقابلة دلائل على ما يحدث بعبارة لا تخلو من الابهام والتوجيه . وقد اتفق لي وانا مقيم في بيت قسيس من فضلاء الانكليز ان حضرت امرأة من هولاء فقال لي « ها هي الشيطان » وذكر الاسم بالعريية فقالت : « كلا ما انا شيطان بل مبصرة البخت » فسالتهما ان تبصر لي بختي فالت بين تلك الاوراق ثم قالت : « ستكون سببا في تسفير رجل اسمر الى بلاد بعيدة وان زوجتك تاخذ في سفر طويل ويكون حديث في شانك

ومدة وتحصل على هدية من الماس وتذهب الى جامعة عظيمة ويدعوك
رجل من سادة الناس فتسافر اليه ويحصل توفيق لولئك وينال هدية وان
سيدة سمراء تساعدك على نوال اربك وان رجلا اسمر يستدعيك اليه وتعديل
زوجتك من السفر ويحدث لك سفر غير متوقع مع رجل ابيض وزوجتك
تأخذ هدية وان رجلين اسمر وابيض يشتركان في تفسير امرأة وان سيدة
زهراء يكون لها مداخلة في امرك ولك صديقة من النساء سمراء . وقد
حصل ذلك كله إلا هذا الثلث لاختيرة فاني لم اتحققها * وكثيرا ما تذهب
النساء المتهنات بالخدمة والممتحنات بالعشق الى هولاء العرافات ويسالنهن
عن احوالهن ويشبهن نصف ما ملكت ايديهن . واتفق ان امرأة سافر عنها
زوجها وانقطع خبره عنها مدة طويلة ثم بلغها خبر وفاته فتزوجت آخر
فلقيت عرافة فقالت لها العرافة « تعالي اخبرك بما لا تعلمين » ثم ذكرت
لها من جلته كلام ان زوجها الاول حي وانه عازم على الرجوع . فدخل
الرعب في قلب المرأة فالتقت نفسها في النهر . وقدر لها ان بصر بها رجل
كان على الشاطيء فبادر اليها وانجأها من الغرق . واخرى جنت من تهويل
عرافته عليها فكانت تقول في حال جنونها « مبصرة البخت الورق مبصرة
البخت الورق » . ومنهن ايضا من تبصر البخت بروية الكف . وقد رايت
كتبا مطبوعة في علم الكف والهيئة فيها من الاحكام نحو ما في كتبنا . ومنهن
من تدعي احضار الغائب وتشخيصه لعين السائل في مرءاة ونحوها كما في
منديل مصر . وفي اخبار العالم عدد ٦٩٤ « من شاء ان يعلم ما يجري عليه
في المستقبل من الشغل او السفر او الزواج او تعاطي مصلحة فعليه ان يسال
المنجم داود ستلا المقيم في « ادورد ستريت مادن لان » بحيث يوقفه على يوم
ميلاده وعلى جنسه ويرسل اليه اثنين وعشرين طابعا (٢٨) فانه ينبئه بالتفصيل
عن كل شيء سواء كان بالمكاتبة او مشافهة . وفيها « وكذلك المنجم لمفيل
وجوابه عن المسائل يكون نظما وعلى السائل ان يرسل اليه اثني عشر طابعا » .
وفيها « من كان دابه الشغل ومعه بعض شلينات ورام ان يتعلم في اسبوع
واحد حرفته مكسبة فعليه بالمنجم كورتني فانه يهيئ له وجهها للعمل بما عنك

من القليل حتى يمكنه أن يكسب بعد ذلك من ثلث ليرات الى عشر وهو على هيبته وهذه الحرفة هي من اكرم الحرف وقد باشرها النجم منذ سنين وغط بها فلذلك يعرضها على الطالبين بحيث يحرز ثلاثين طابعا . وفي بعض صحف الاخبار ما نصه : « قد صار اهل لندرة لان جديريين بان يكونوا صحتة لاهل الريف لاعتقادهم بالسحر والشعوذة ولم يبق من حاجة الى الذهاب الى بلاد الفلاحين لستمع ان النساء اللواتي لا عيب فيهن سوى الفقر والههم يستطيعن على ان يمنعن البقرة عن الحلب ويعطلن المزارعين عن اعمالهم ويجبررن الراقد من فراشه من غير ان يحس به فلان هؤلاء المدجلات المدلسات يوجدن الان في لندرة التي هي معدن المعارف والنور وليس المترددون عليهن من سفلة الناس . وحسبك دليلا ما جرى منذ ايام في ديوان كلفهال (٤٩) حيث احضر بعض الشرطة امرأة من هؤلاء كوثها كتبت زجاج وعيد وتهديد الى بعض التجار ذوي الشأن قال « ولما دخلت حجرتها وجدت عندها اربع نساء مترديات باللباس الفاخر احسهن من بنات التجار فلما سالتها عنهن قالت انما اتين الي لعلهن باني ابصر البخت » اه . وقال آخر « شكوا بعض الناس الى قاضي صري بان احد معارفه يسمع في الليل صجيجا وصجيجا وضرب مطارق فلا يقدر ان ينام . قال « فلما سرت اليه سالتة عما يقاسي فقال ان الناس يفيضون في حديث فلانة امرأة فلان . قلت : « وما بينك وبين زوجها » ؟ قال « لا شيء الا كلمات دارت بيننا منذ سنة » قلت « وما يصنع بك الان » ؟ قال « يبعث اناسا يضربون بالمطارق ويضجون ويراطون الليل كله فما يدعني اتجمع ولا احدا من الحيران ينام » قلت « اتعرف اسمهم » ؟ قال « نعم ولكن زوج المرأة هو الذي يغريهم بهذه الاذية » قال فاحضرت الزوج واخبرته بشكوى الرجل فقال « جزاء واقل جزاء » قلت « كيف » ؟ قال « لانه ياتي كل ليلة الى بيتي ويخطف امراتي من الفراش ويخرج بها من الشباك ويضبطها عنك الى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ثم ياتي بها منهوكة مدهوكة » قلت « الا تخجل من ان تقول هذا الكلام وانت شيء وانني لما لقيتك

آخر مرة قلت لي انها عليّلة فهل افافت لان ؟ قال « لا مادام الرجل يخطفها فلن تنفيق ابدا » قلت « قل لي ما يفعل وعلى عقابه » قال « واي عتاب لمن له تسعة اعمار كاهن » قلت « هل رايته عيانا ياخذ امراتك » قال « لا لاني اكون راقدا » قلت « هل ربطت يديها الى عنقك حتى تستيقظ عند ذهابها » قال « لن ينفع في هولاء الناس حذر » قلت « ما السبب الذي جلك على سوء الظن بهذا الرجل » ؟ قال « ذلك الرجل المبارك الذي اراني وجهه » قلت « من هو » ؟ قال « هو الذي شفاها بعد ان عجزت عنها الاطباء » قلت « كيف اراك وجهه » ؟ قال « اخذ نعل فرس واجاها حتى صارت كالجمر ثم اغلق الشباك ووضع النعل في ماء قذر وقال لي اي وجه ترى في الدخان واشهد انه كان وجه زوج المرأة » الخ * فاما ما يحدث في بلاد الانكليز من تسميم الأزواج ازواجهن والوالدين اولادهم وقتلهم وبالعكس ومن الانتحار (وهو قتل الانسان نفسه) فامر يهول وشرحه يطول . نعم ان الانتحار يحدث ايضا في غيرها واعظم اسبابه العشق والحمران الا انه بالنسبة الى هذه البلاد لا يذكر . ولنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها * حكى صاحب اخبار العالم ان رجلا ذبح ثلثة اطفال له بالموسى في وقت واحد وكان اصغرهم رضيعا ثم ذبح نفسه . فلما سئلت زوجته عن ذلك قالت « اني غادرت مع الاولاد سليما معافى فلما رجعت وجدتهم ثلثتهم جثثا مطرحة وزوجي الى جانبهم ولا اعلم سبب ذلك » وزعم بعض معارفه انه قتلهم خوف الاملاق . ومنها ان امرأة اشتكى عليها بانها قتلت اصغر اولادها وعند الامتحان علم انها قتلت من قبله سبعة وانه كان الثامن مع انها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى وتذهب الى الكنيسة في كل يوم احد . وتلازم دراسة التوراة ولما سئلت عن ذلك قالت « قد قتلتهم خوف الاملاق » . ومنها ان رجلا كان له امرأة واربعة اولاد منها وكان الرجل واولاده داخلين في جمعية من اصولها انه اذا مات احد من اعضائها يدفع لوارثه خمس ليرات فطمعت المرأة في الدراهم حتى سمت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة وقبضت المال ثم سمت ابنها الاكبر وهو ابن ست

وعشرين سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الثالث وله احدى وعشرون سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الرابع فمرض واستدعى بالطبيب فلما اتى علم انه مسموم وعند ذلك حصل البحث والتفتيش ونبشت جثث اخوته وشرحت فتحقق انهم ماتوا كلهم مسمومين . ومنها ان بنتا سمت امها حتى تستولي على امتعتها ثم احرقتها ولما كانت باركة على صدرها جعلت امها تناسدها ان تبقي عليها فقالت لها البنت « لقد عشت اكثر مما يليق بك ان تعيشي » . ومنها ان قسيسا من اهل الكنيسة المنفرة اسمه فوستر في بلدة دكنهام كان يقضي الفرائض الدينية عند احدى النساء الخدميات من الاعيان فلما رآته غير اهل لوظيفته صرفته فمرض فاخذ الى المستشفى ثم شفي ورجع الى بيته وكان له امرأة وولد سنة نحو ست سنين فقامت المرأة صباحا لتتهيأ له الفطور وتركته الولد مع اميه في الفراش ثم بعد قليل رأت زوجها قد خرج الى الطريق فلما ابطا عليها ذهبت لتنظر ولدها واذا به مذبوح بموسى . ومن ذلك ان رجلا من شستر ذبح ابنته وواراها في حفرة ثم ذبح اخاها وواراه ايضا وظل ياكل بذلك السكين الذي ذبح به ولديه مدة ثم علم امره ولما قضى عليه بالشنق فرج جدا . ومن ذلك ان امرأة من لمبت قتلت طفلا لها وله ثلث سنين ونصف واخوته وهي بنت سنة ونصف . ومنها ان امرأة ذبحت ابنها فلما سالها القاضي قالت « انما قتلته صغيرا لينال سعادة السماء » وهذا كاف . ومن العجيب ان مجلس المشورة بلندرة اصدر امرا بعدم اذى الحيوان غير الناطق وبتاديب سن يرتكب ذلك او تغريمه وبلغ الذين اذوا الحيوانات في العام الماضي اربعمائة واربعة وستين شخصا وبلغت غرامتهم نحو خمسمائة واربعة وسبعين ليرة وارسل منهم عشرة انفار الى دار التاديب من دون ان تقبل منهم غرامة . وروي مرة رجل من نبلاء فرنساوية يغري كلبه بمطاردة هرة فغرمه الحاكم عشرين شلينا . ومع ذلك فلم يهجم خطر بيع السم منعاً لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق . وان الولد اذا اخذ حاجة ليرهنها وهو دون البلوغ او دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرنهون واذا ذهب

آخر مرة قلت لي انها عليته فهل افاقت لان ؟ قال « لا ما دام الرجل يخطفها فلن تنفيق ابدا » قلت « قل لي ما يفعل وعلى عقابه » قال « واي عقاب لمن له تسعة اعمار كالهرة » قلت « هل رايتنه عيانا ياخذ امراتك » قال « لا لاني اكون راقدا » قلت « هلا ربطت يديها الى عنقك حتى تستيقظ عند ذهابها » قال « لن ينفع في هولاء الناس حذر » قلت « ما السبب الذي جعلك على سوء الظن بهذا الرجل » قال « ذلك الرجل المبارك الذي اراني وجهه » قلت « من هو » قال « هو الذي شفاها بعد ان عجزت عنها الاطباء » قلت « كيف اراك وجهه » قال « اخذ نعل فرس واجاها حتى صارت كالجمرة ثم اغلق الشباك ووضع النعل في ماء قذر وقال لي اي وجه ترى في الدخان واشهد انه كان وجه زوج المرأة » الخ * فامسا ما يحدث في بلاد الانكليز من تسميم الازواج ازواجهن والوالدين اولادهم وقتلهم وبالعكس ومن الانتحار (وهو قتل لانسان نفسه) فامر يهول وشرحه يطول . نعم ان الانتحار يحدث ايضا في غيرها واعظم اسبابه العشق والمحرمات الا انه بالنسبة الى هذه البلاد لا يذكر . ولنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها * حكى صاحب اخبار العالم ان رجلا ذبح ثلثة اطفال له بالموسى في وقت واحد وكان اصغرهم رضيعا ثم ذبح نفسه . فلما سئلت زوجته عن ذلك قالت « اني غادرت مع الاولاد سليما معافى فلما رجعت وجدتهم ثلثتهم جثثا مطرحة وزوجي الى جانبهم ولا اعلم سبب ذلك » وزعم بعض معارفه انه قتلهم خوف الاملاق . ومنها ان امرأة اشكي عليها بانها قتلت اصغر اولادها وعند الامتحان علم انها قتلت من قبله سبعة وانه كان الثامن مع انها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى وتذهب الى الكنيسة في كل يوم احد وتلازم دراسة التوراة ولما سئلت عن ذلك قالت « قد قتلتهم خوف الاملاق » . ومنها ان رجلا كان له امرأة واربعة اولاد منها وكان الرجل واولاده داخلين في جمعية من اصولها انه اذا مات احد من اعضائها يدفع لوارثه خمس ليرات فطمعت المرأة في الدراهم حتى سمت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة وقبضت المال ثم سمت ابنها الاكبر وهو ابن ست

وعشرين سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الثالث وله احدى وعشرون سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الرابع فمرض واستدعى بالطبيب فلما اتى علم انه مسموم وعند ذلك حصل البحث والتفتيش ونبشت جثث اخوته وشرحت فتحقق انهم ماتوا كلهم مسمومين . ومنها ان بنتا سمت امها حتى تستولي على امتعتها ثم احرقتها ولما كانت باركة على صدرها جعلت امها تناشدها ان تبقي عليها فقالت لها البنت « لقد عشت اكثر مما يليق بك ان تعيشي » . ومنها ان قسيسا من اهل الكنيسة المتفرعة اسمه فوستر في بلدة دكنهام كان يقضي الفرائض الدينية عند احدى النساء الخدموات من لاعيان فلما رآته غير اهل لوظيفته صرفته فمرض فاخذ الى المستشفى ثم شفي ورجع الى بيته وكان له امرأة وولد سنة نحو ست سنين فقامت المرأة صباحا لتتهيأ له الفطور وتركت الولد مع اميه في الفراش ثم بعد قليل رأت زوجها قد خرج الى الطريق فلما ابطا عليها ذهبت لتنظر ولدها واذا به مذبوح بموسى . ومن ذلك ان رجلا من شستر ذبح ابنته وواراها في حفرة ثم ذبح اخاها وواراه ايضا وظل ياكل بذلك السكين الذي ذبح به ولديه مدة ثم علم امره ولما قضى عليه بالشنق فرج جدا . ومن ذلك ان امرأة من لمبت قتلت طفلا لها وله ثلث سنين ونصف واخته وهي بنت سنة ونصف . ومنها ان امرأة ذبحت ابنها فلما سالها القاضي قالت « انما قتلتها صغيرا لينال سعادة السماء » وهذا كاف * ومن العجيب ان مجلس المشورة بلندرة اصدر امرا بعدم اذى الحيوان غير الناطق وبتاديب من يرتكب ذلك او تعريمه وبلغ الذين اذوا الحيوانات في العام الماضي اربعمائة واربعة وستين شخصا وبلغت غرامتهم نحو خمسمائة واربعة وسبعين ليرة وارسل منهم عشرة انفار الى دار التاديب من دون ان تقبل منهم غرامة . وروي مرة رجل من نبلاء فرنساوية يغري كلبه بمطاردة هرة فغرمه الحاكم عشرين شلينا . ومع ذلك فلم يهتم حظر بيع السم معنا لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق . وان الولد اذا اخذ حاجة ليرهنها وهو دون البلوغ او دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرنهن واذا ذهب

الى دعاوي ليستري سما او مسبتا باغم على ان بيع السم في مالطة وفرنسا
 حطور على اي كان الا باذن من الطبيب فكان العجماوات انفع للدولة من
 بني آدم . وما ادري لذلك سببا سوى هذا لاصل الفاسد الذي يعبرون
 عنه بقولهم حرية التجار او كما قيل لزوم البسم للفلاحين في قتل الهوام كما
 مر ذكره . الا ان مراعاة الجانب الاقوى في الامر الذي يكون منه مفسدة
 ومصلحة الزم واهم . وهذه الحرية في التجار هي التي سهلت للناس ان
 يغشوا كل شيء من الماكول والمشروب وكل ما يصح فيه البيع والشراء كما
 سيأتي بيانه . حتى ان صاحب الذوق السليم يوشى المقام في بلاد الهمج
 بحيث يذوق شيئا منها تنبته لارض على حاله على ان يمكث بين قيم يعلون
 عدد نجوم السماء وزمل البحار وهم مع ذلك ياكلون ما يضر البهائم فضلا عن
 البشر . وكل شيء جاوز القدر اضره . واقع من ذلك انه كثيرا ما يحكم
 القضاة او الجوري على مرتكب القتل بالجنون اعفاء له من القصاص فنذهب
 الحكمة في « ولكم في القصاص حياة » او « القتل انفي للقتل سدى » .
 و « الجوري » هم اثني عشر رجلا يقع عليهم الاختيار فيجتمعون مع القاضي
 لفصل الدعاوي وهم على قسمين خاص وعام . فالخاص يولى من الفقهاء
 وذوي الواجهة لفصل الدعاوي الخطيرة وكل منهم ياخذ ليرة على كل دعوى
 والعالم مولف من اصحاب الدكاكين والحرف لفصل الدعاوي الخفيفة ولا
 ايراد لهم . وقيل ان كلا منهم ياخذ ثلثي شلين بحسب ما تقرر في السابق
 ومن يمتنع منهم عن الحضور لزمه غرامة . واصل الجوري عرف في ايام
 الصكصونيين (٥٠١) وذلك انه كان حدث مرة نزاع بين انكليزي والاسي
 فعين ستة نفر من الانكليز وستة من الوالسين للنظر في امرهما . ثم اثبت
 اقامة الجوري في المجلة التي يسمونها « مكنا كارتا » كانها من اعظم
 اسباب العدل والحرية . وللقاضي ان يشط الجوري عن الاكل والشرب وان
 يمنعهم النور الى ان يتواطوا على حكم . وقد غرم بعضهم لمجرد وجود فاكهة
 في جيبه من دون ان يشب عليه اكلها . وقد انتق مرة ان بعض المسافرين
 في سكة الحديد طلب ارشاه فحكم الجوري بان يعطي ربع بني فانكر عليهم

القاضي هذا الحكم فاعلهم الى النظر فيه فعادوا ولم يتفقوا حتى مضى عليهم اربع وعشرون ساعة لم يطعموا فيها شيئا وبعد ذلك خرجوا وهم يظلمون من الجوع . قال صاحب التيسير « وليس من العدل ان يترك الانسان اشغاله ويأتي لسماع ما يحدث بين الرجل وامراته من الشاقر والتهنات » فقد عرفت ان هؤلاء الذين ياتون لاجراء العدل هم انفسهم مظلومون . وقد يكون حكم هؤلاء المجوري زائفا واذا كان الممدعي عليه خصم من افراد المجوري فله ان يستبدله . فاذا تواطوا جميعا على الحكم يقتل احدهم ودنوا ذلك في صكك قال القاضي المحكوم عليه « قد حكم عليك المجوري الذين هم من اهل بلادك بانك مستوجب للقتل فيموجب شرع هذه الملكة تؤخذ من هنا ويجعل في عنقك حبل وتشنق الى ان تخرج روحك ثم تدفن مع امثالك » (٥١) ويوم شنق القاضي عليه يكون فرجة للنساء فيهرعن صلبها من بيوتهن الى مشاهدته حتى تنص بين الطرق وهو دليل على شدة قلوبهن وجراتهن . وقتل القاتل عندهم لا يكون الا بهذه الصورة . وفي احوال كثيرة يقوم التغريب مقامه كما مر . واذا اذنب احد في بلاد الفلاحين حبسه الشرطي الى ان يمر القاضي بذلك الصقع فيقيم هناك مدة وتوقع اليد الدعاوي وفي انكثرة والاس ستون قاضيا ونحو ستائة دار القضاء وثلاث وثلاثون خزانة او بيت مال . ومن يوم استتبايهم وذلك من سنة ١٨٤٧ صرف على ذوي الوظائف في هذه المحاكم خمسة عشر مليون ليرة . ومنع القصاص بالقتل في بعض الجرائر كان مما قرره بررويرت بيل (٥٢) في سنة ١٨٢٤ . ثم منع على اي جريمة كانت في سنة ١٨٣٧ . قال العلامة كولدسميث في كتابه « فكاراف وكفيلد » (٥٣) انه « يوجد في بلادنا من المجرمين المحكوم عليهم في سنة واحدة اكثر مما يوجد في نصف اوربا فلا ادري هل سبب ذلك كثرة قوانيننا او تعدي اهل بلادنا ولعل ذلك مسبب عنهما كليهما فان احدهما ينتج الآخر » انتهى . وفي بعض صحف الاخبار « انا نرى الجرائم لان قد تكاثرت وسبب ذلك الدفع بالشبهات فان الذين يثبت عليهم القتل وتقب الديار يعاقبون بالنفي لا غير فاذا انقضت مدتهم رجعوا سرا مما كانوا من قبل » . ويبلغ

المصروف على تغريب هولاء المنفيين في كل سنة نحو اربعة وخسين الف ليرة . وعدد اصحاب المجرائر التي دربوا فيها من نحو قتل وسرقة ويسجنون لاجلها يبلغ نحو ثمانين الفا وهو اكثر من عدد العساكر ومصروفهم ضعفا مصروف هولاء . واعلم ان شريعة الانكليز هي اطول الشرائع احكاما واكثرها قولا وقالا واوسع من علم العربية قلبا واعلالا . فقد يستمر بعض الدعاوي التي تستدعي فيها دهاء الفقهاء خسين سنة فاكثر . ومرة صرف على دعوى رجل اسمه بالمرسبعة آلاف وخسمائة واثنان وثلاثون ليرة . وقد وقع بعض تحرير هذا الكتاب ان اقيمت دعوى على شاب من لاغنياء بعدم رشده عن التصرف في املاكه فلزم لاثبات ذلك احضار شهود من الروسية وغيرها فكان مصروف كل ساعة عليها مائة وستين ليرة وبعد ان بلغ المصروف نحو ستين الف ليرة خرج الحكم برشده . ويمكن تقسيم شرعهم الى اربعة اقسام : الاول ما تناقلوه من احكام الرومانيين والفرانجيين والصكصونيين الذين فتحوا بريتانىة . ويدخل في ذلك امور من قبيل السنة والعادة وجل عاداتهم من قبيل الفرض والسنة . وما اجدرهم بان يكون لهم لفظة توافق الدين عندنا فانها بمعنى الديانة والعادة فارى ان اخلعها عليهم سواء قبلوها ام لا : الثاني ما بني على العدل والانصاف ومراعاة المصالح مما لم يرد فيه نص ولم يجز فيه حكم فاذا حدث امر من ذلك احيل على محكمة العدل فيحكم فيه القاضي والجوري بالراي بحسبما يترجح عندهم انه لاصالح : والثالث احكام مجلس المشورة وهي غير متناهية : والرابع احكام ديوان الكنيسة الا انه ليس في شيء من هذه الاحكام ذكر الطاهر والنجس وما يوكل وما لا يوكل او ذكر حيض المرأة ونفاسها وحدادها وعدتها وما اشبه ذلك مما لا بد من ذكره في كتب الفقه الاسلامية ومع ذلك فيمكن ان يقال انه ليس امر من الامور المتعارفة الا وهو مقيد بحكم من هذه الموارد لاربعة . حتى انهم يكتبون في المناصع « اصلح ثيابك قبل الخروج » اشارة الى انه لا يزور سراويله في الطريق : او « لا تعريفات تلصق هنا » . بل اصحاب المطاعم ايضا ينهون الى وضع شيء من الاحكام فتجد

أحيانا كتابة على لوح معناها التسليم عند التسلم أي نقد ثمن لآكل عند وضعه بين يدي آكل : أو « لا يسمح باستعمال الدخان هنا » وما أشبه ذلك ومثل هذا لا يرى في باريس أصلا . وإذا كانت جريرة الجاني صغيرة اجري عليه الحكم في الحال وإذا كانت بين بين حبس إلى أن ينظر فيها وحينئذ يرخص المذنت في أن يستعين بكفلاء يكفلونه فيخرج من السجن ويتعاطى اشغاله ثم يعاد عند فصل الحكم . لأن الدعوي الكبيرة لا تفصل إلا في مدة أربعة أشهر أو خمسة فإن لم يجد كفلاء فيبقى في السجن . وقد يكون حكم الجوري زانغا فيحكمون على امرأة سرقت « هاف كرون » (نصف دورو انكليزي) أول مرة بالحبس مدة اثني عشر شهرا في الأعمال الشاقة . وفي التيمس أن « امرأة اسمها اليصابات جان وود عليها طلعة الحشمة والاعتبار وعلى ذراعها طفل رضيع احضرت للفحاص الأخير حيث اشتكى عليها بانها سرقت هاف كراون في إحدى العواجل فثبت عليها الذنب وحكم عليها بحبس ستة أشهر مع الأعمال الشاقة . وفيه أن « امرأة طاعنة في السن ثبت عليها أنها سرقت ساعة وسلسلة قيمتها خمس ليرات فحكم عليها بحبس ثلاثة أشهر مع الأعمال الشاقة » . ومما يرى منكرا من احكامهم اجازة شهادة الاولاد دون البلوغ حتى على والديهم . إلا أن القاضي يستلهمهم أولا وينبههم على خطر اليمين والشهادة . هذا اذا كان في الدعوي التي لا توجب القصاص بالقتل . والويل ثم الويل لمن وقع في يد أحد من فقهاء الشريعة . فإنهم ادهى خلق الله ولا يعجزهم أن يصيروا الظلام نورا والنور ظلاما . هناك مثالا واحدا على صدق ذلك وهو : أن بعض الناس الذين يدلون بجمالهم دون مالهم عشق بنت أحد لاغنياء وحيث كان يعلم أن الغنيات للغنيين والمقلبات للمقلين خشي من أن يخطبها من أبيها فيفسد فتوسل إلى ذلك باحد هؤلاء الفقهاء ووعدة بصلته حسنة . فقال له « ساترؤ في امرك فإذهب واتنى غدا » فلما كان الغد اتاه الشاب فقال له الفقيه « ارايتك لو شأ أحد أن يقطع انفك ويعطيك عشرين ألف ليرة اكنت ترضى به ؟ » قال « كلا ولو اعطيت ضعفيها » فانطلق الفقيه إلى أبي البنت وسول اليه

ان يزوج ابنته من الرجل فقال له « كيف اناسبه وهو فقير وليس له غير
 جارية » قال « بلى » وعنده ايضا جوهرة اعطي فيها بخصرتي عشرين الف
 ليرة فابى ان يبيعها . وما زال به حتى اغراه بزواج ابنته . والبارع من هؤلاء
 الفقهاء لا يباشر دعوى من الدعاوي الخطيرة إلا اذا قص في كفه ثلثمائة
 ليرة . فاما كتاب الصكوك فلما كان جعلهم بحسب السطور كان أنفسهم مملا
 غاية الامال . مثاله : « باع زيد بن بكر داره الفلانية لخالد بن عمرو بكذا
 وكذا ميعا خاصا مطلقا واقر زيد بن بكر بان داره الفلانية التي باعها بكذا
 وكذا لخالد بن عمرو قد انتقلت من ملكه انتقالا مطلقا وصارت في حوز
 خالد بن عمرو فصارت دار زيد بن بكر في تصرف خالد بن عمرو ملكا
 مطلقا خاصا » . وفي احكامهم يقع كثيرا مثل هذا التغير الاتني : « اذا اخذ
 شخص او اشخاص شيئا او اشياء من محل كذا او محال كذا . وجب القصاص
 على ذلك الشخص او اولئك الاشخاص الذين اخذوا ذلك الشيء او تلك
 الاشياء من ذلك المحل او تلك المحال » . وهو ضد عبارة كسب الفقه
 الاسلامية فانها اخصر ما يكون . وفي بعض البلاد الاسلامية يرى هذا التكرار
 في انشاء كتاب الصكوك والفقهاء الذين يعيشون من كتابتهم . فاما كلامهم
 فانه لما كان موده اصطلاح اللغة وعرف الخطاب رايت من الواجب
 ان اذكره بالتفصيل في فصل على حديثه اعله خاتمة لهذا الكتاب ان
 شاء الله وانما اقتصر منه هنا على نبذة فاقول : ان تحيته هي ان يقولوا صباح
 طيب او مساء طيب ثم يردونها بقولهم « هودو يودو » وترجتها « كيف
 تعملون انتم تعملون » وهو سمع تنبي عن مزيد ميلهم الى العمل دائما حتى
 انه يوجد في لغتهم نحو عشرة الفاظ تدل على العمل وهو اكثر ما عندهم من
 المترادف . ولا يخاطبون بضمير المفرد إلا الباري تعالى او في الشعر . اما
 القرائنوية فانهم يستعملونه في مخاطبة الادلال كان يكلم المحب محبوبه
 او الوالد ولده . وتحية هؤلاء بعد صباح الخير « كيف انتم تعملون انفسكم »
 قال فليس « وكلتا التحيتين لا معنى لهما » ومتى خاطبت احدا من فلاحيه
 الانكليز وهو مصغ اليك ابدى همته عند كل جلته وهي قوله « هم » فكانها

عندهم حرف بمعنى نعم . وعند كل فقرة تقضي بالاعتبار يقول « اه » . وإذا هم خاطبوك نفصوا روسهم ولا يكادون يشيرون بالأيدي . وليس للهجتهم مطلقا نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل أو عالم أو امرأة أو ولد اذ ليس فيها مد ولا حركات طويلة وصوتهم من أزوارهم بخلاف اللغة الفرنسية فانها مستحبة من الجوارى والغلمان جدا وربما طرب لها من ليس يعرفها وان يكن صوتهم من خياشيمهم . ومع ان لغة الانكليز من اللغات المستجدة ولم تشهر إلا واعقبها التمدن والطبع فلكل اهل صقع في بلادهم كلام ولهجة خاصان بهم فلا يكاد احدهم يفهم من اهل الصقع الاخر . ومن عادة النساء اذا كمن احدا من الخاصة ان يتحنن له عند كل سوال وجواب . وعادة الغلمان ان يضعوا ايديهم على روسهم . وكذا هي عادة الخادم مع مخدومه عند كل سوال وجواب حتى القسيسون ايضا يرتاحون الى هذه الدغدغة . وإذا خاطبوا احدا بكلام تويخ وغيظ قالوا له « سر » وهي بمعنى سيد حتى انهم يقولونها عند طردهم كبا ونحوه فيقولون مثلا « اخسا ياسيد » . وقد يستعملونها ايضا لتعظيم المخاطب واجلاله . والرجل يقول عن زوجته « معلمي » والمرأة تقول عنه « معلمي » وإذا خاطب زوجته احد من الخاصة بلفظة « مادام » كان ذلك اشارة الى تنافرها فخطاب الرضى انما هو ان يقول لها « يا محبتي » او « يا عزيزتي » وربما قالوا « يا قلبي » ولا يكادون يفهمون يا روجي ويا عيني ويكثرون من ذكر الشيطان في حالتي التعجب والاستفهام فيقولون « اين الشيطان كنت » وكذلك يضيفون لفظة « مان » اي الرجل الى كل شيء فيقولون « واطرمان » اي رجل الماء و « بورك مان » اي بايع لحم الخنزير و « بوسط مان » وهلم جرا (٥٣) . ومن عادتهم في المكتبة اذا اراد احد من الاعيان ان يكتب الى شخص يجبه له ان يقول « فلان يسلم على فلان ويطلب ان يستخبره عن امر كذا » وفي المرة الثانية يكتب له « سر » وفي الثالثة او الرابعة « دير سر » اي سيد عزيز وإذا خرق حجاب الكلفة بينهما كتب له « مي دير سر » اي سيدي العزيز وإذا استحكمت اللفة كتب له « عزيزي لحواجة فلان » وإذا طالت كتب « عزيزي فلان » ولهم عادة قبيحة حين

يكتبون اسماءهم في اخر الكتاب مما عرف بالامضاء وذلك انهم يكتبونها
مشجعة معملة بحيث لا يقدر احد على قراتها إلا من قرنها عليها . فعلاج ذلك
لمن يجبل الاسم ان يقطع من الكتاب ويلصقه على ظهر المغلف ويرسله
اليه حتى يبينه في المرة الثانية . واصل ذلك ان ين يكتب عندهم خطا
حسنا يزن بانه معلم للصبيان او كاتب عند تاجر او في ديوان فاما من
يعيش من املاكه فلا يلزمه ذلك . ويقابل عندنا قبح عادة الذين يمضون
اسماءهم ويهملونها عن الاعجام . ولا ادري ما سبب هذه العادة الذميمة
الموجبة للابهام والالتباس . والظاهر ان منشأها الكبير ايضا فان المكاتب يظن
ان اسمه قد بلغ من الشهرة والتنويه بحيث لم يحتج الى اعجابه . والدليل
على ذلك انهم يكتبون تحت اسمائهم حرف الميم كناية عن معروف . وبما
ذكرت لك آنفا من اصطلاح الانكليز في افتتاح رسائلهم عرفت انهم لا
ينعتون المكتوب اليه بالاجل والماجد والاكرم والمفخم وغير ذلك إلا انهم
يطيلون غالبا في الامضاء فيكتبون « انا باقى ياسيدي عبدك الاحقر المطيع »
فلان . وقد تكون احيانا نوعا من التهكم وذلك اذا كان الكتاب يشتمل على
التوبيخ او المناقشة . والعرب بخلاف ذلك فانهم يسهبون في افتتاح الرسالة
ويوجزون في الامضاء فاذا كتبت مثلا « الداعي » فلان او « عبدكم » فلان
كفى . وكما اختلفت عادتنا وعاداتهم في المكاتب والخطاب كذلك اختلفت
في الزيارة واللقاء فانك اذا دخلت على احد من اهل البلاد المشرقية احتفى
بك غاية الاحتفاء وان لم يكن بينكما صلة او معرفة وعند الانصراف لا يزيد
على ان يقول لك « في امان الله » وربما لم يقيم لك . واذا دخلت على افرنجي
ارأيت انه مشغول عنك بما هو اهم من الزيارة وسالك ان تسرع في عرض
حاجتك وعند انصرافك من عنده نهض لك ورافقك الى الباب . وعند
الفرنساوية لا بد من ان يكلمك هناك بكلام يوجب وقوفكما ولو دقيقة اشارة
الى انه لم يمل منك . ومآل العادتين واحد وهو الاختصار في الابتداء والاطالة
في الختام . وفي الجملة فليس من الافرنج من يصدق عليه اذا طرقت طارق
قول الشاعر:

« قتلته له اهلا وسهلا ومرجبا * رشدت ولم اقعد اليه اسائله »
او قول الاخر:

« سلي الطارق المعتري يا ام ممالك * اذا ما اتاني بين قدري وبجزري »
« ايسفر وجهي انه اول القرى * وابذل معروفى له دون منكري »
قال النمري « المعروف هاهنا القرى ولا يناس وما شاكلهما والمنكر هاهنا ان يساله عن اسمه ونسبه وبلده ومقصده كل هذا مما يجلب عليه حياء * ثم ان ما عبت الانكليز به من الاخلاق والعادات مبني على اعتبار ما وصل اليهم من الفنون والعلوم وعلى كثرة ما عندهم من الوسائل الجديدة بان تصفي طباعهم عن غلاظة اسلافهم وتقدم بهم الى الكمال . فان ما يطبع عندهم من الكتب وصحف الاخبار وما يلقى عليهم في الملاهي والملاعب لحرى بان يهذب اخشن الاجيال في اعظم المحامد . فاما سن لم تصل اليه هذه الوسائل وبقي على الهجعة والامية فاحرى ان يرثى لحاله وباله من ان يلام عليهما . قال الشاعر الخزومي :

« العيب في الحامل المغمور مغمور * وعيب ذي الشرف المذكور مذكور »
« كفوفة الظفر تخفى من حقارتها * ومثلها في سواد العين مشهور »
وقال اخر في المعنى :

« قد تخفض الرجل الرفيع دقيقة * في السهو فيها للوضع معاذر »
« فكبائر الرجل الصغير صفائر * وصعائر الرجل الكبير كبائر »
وللامام الخفاجي :

« كم من عيوب لفتى عدها * سواء زينا حسن الصنيع »
« فكنته الياقوت مذمومة * وهي التي تحمد في الجموع »
وكل ما انكرته عليهم وافقني عليه سن جال منهم في البلاد الشرقية وتطبع بطباع اهلها . فكلهم يقر بان هذه الاحوال التي اتصف بها عامة الانكليز في هذا العصر عصر التادب والتكيس شين -- واي شين . وانا اختم هذا بالاقرار بان اقول ان عامة الانكليز بالنسبة الى عامة فرانس في معزل عن المعارف والادب . وكما ان جزيرتهم منقطعة عن جميع بلاد اوربا كذلك

هم انقطعوا عن اخلاق اولائك * واقول في الجملة انه معما يظن ان دول
الافرنج تبغي تعميم المعارف لدى جميع رعاياها فليس هذا الظن سديدا اذ
ليس من نفع الدولة والكنيسة ان تكون العامة متكيسة ولا سيما عامة
فرنسا فان معارفهم سبب الى انكار جهل الدولة عليهم * ويعجبني منهم
خلال منها انه ليس عندهم فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من
هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون
لما ياتيهم . فلو راوه مثلا مضطجعا على قارعة الطريق لم يسالوه لاي سبب
تفعل ذلك . بل ربما حسبوا ان اهل بلاده جميعا يضطجعون مثله وان في
ذلك مصلحة له . واذا زارك احدهم وراى عندك امرأة او نساء لم يهتم
ان يسالك عن سبب معرفتك بهن مما لا بد منه في بلادنا . وكذا لو
راوك تمشي امرأة في الطريق فكل منهم مشغول بهمه ومهموم بشغله .
ويمكن ان يقال ان هذه الخلطة صنو اول خلطة ذكرتها من معايبهم في كون
كل واحد منهم لا يهتم إلا بشانه . ولا غرو ان يكون بعض الخلخال مددوحا
من وجهه ومذموما من وجه آخر * ويلحق بذلك الجمد في المساعي وعدم
الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة او لنكاية الخصم في الكتابة
على يد البريد وغيره . ولو كان البريد عندنا على الصفة التي هي عندهم
لكنت ترى في كل يوم اهاجي واحاجي تلقى في المولك ويعث بها كما
يعث بالرسائل . نعم ان عندهم يوما مخصوصا في السنة يتراسل فيه المعارف
برسائل مزجية ولكن ليس منها اذى ولا يعقبها تبعته * ومن ذلك عدم
التهافت على المحسد فاذا راوا عندك مثلا متاعا نفيسا لم يكن عندهم مثله او
دونه لم ينفسوا عليك في جدارة احرازة ولا يقولون يا ليت كان لنا مثله .
ورخصلة النفاسة . والمحسد قلما يخلو منها في بلادنا جسد * ويلحق بذلك
انهم يصبون على ما بهم فلا يتظلمون ولا بجحدفون اي يستقلون عطا الله
ويقولون ليس لنا وليس عندنا . فكل واحد منهم يريدك انه مستغن عنك
ولا تكاد تسمع خادما يطعن في مخدمه او خادمة تعيب مخدمتها وان
كانا يكابدان عندهما . فاما في بلادنا فقلما تجد خادما راضيا عن سيده بل

يعتقد انه هو اولى بالسيادة او ان شرف مخدومه متوقف على بقاءه عنك *
ومن هذا القبيل عدم بخس الناس حقهم فاذا نبغ احدهم مثلاً في فن او
صنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفئ
جذوة قريحته * ورب دوحه نشات عن فرع * بل بالحرى يجد من ينشطه
ويسر له اسباب العلم . اما في بلادنا فاول ما ينبغ احد في شيء يبادره
حاسدوه بقولهم « هو مدع . هو جار . هو متطفل » * ومن ذلك كلامهم في
الغالب بصوت منخفض وهي صفة تكاد ان تكون من خصوصيات نساءهم
وفي بعض البلاد تسمع للنساء زعيقاً كاصوات الجن * ومن ذلك انهم لا
يتشبهون باعقاب الاقاول ولا ياتون النيمة والغيبة الا قليلاً . فاذا سكن
بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون اليه ما سمعوا عنه بل
لا يهمهم ما قيل فيه وانما يعاملونه بما يظهر لهم من حسن سيرته خلافاً
للفرنساوية فانهم مثلنا في التعلق بقال وقيل * ولما كنت في باريس
اجتمعت مرة بالكونت دكرانج رئيس تراجين الديوان فصرت اتردد عليه لما
كان عنك من البشاشة بالغريب ولين الجانب وكان هو ايضا يتردد علي
اذا لزمه ترجمة او انشاء رسالة بلغتنا . ولما كنت اكله ذات يوم في مصالحة
عرضت لي قال لي « اني يعجبني حسن تصرفك فينا ونزاهة نفسك
وذلك مما يدعوني الى اجابة سوالك غير اني اكره منك خلة عرفت عنك
في بلدنا » قلت « ما هي حتى اتجنبها » قال « ان الناس يقولون انك
قدمت الينا جاسوساً من طرف الانكليز فاذا كان ذلك حقاً فلا يسعني
اسعافك بحاجتك » قلت « بودي لو كنت جاسوساً اذن ما كنت لاكلف
احداً بشيء فان جاسوس الانكليز يستغني برزقه عن ان يتوصل باحد الى
نوال اربه . » ولا اشك في ان الموما اليه سمع عني ذلك فان من طبع
الفرنساوية ولاسيما شرطة الديوان ان يتجسسوا احوال الغريب بينهم فاذا
راوا انه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بانه اما ان يعيش برزقه او بسبب
آخر . وحيث كانوا يعلمون اني لم اكن اتعاطى حرفة ولست غنيا استتجوا
من هاتين المقدمتين اني جاسوس . ومثل ذلك لا يشغل به احد من الانكليز

باله فغايتة ما يرومونه من الغريب هو ان يحسن تصرفه ويتقضي دينه .
الآ ان من يسكن عندهم في القرى الصغيرة يلزمه من باب المجاملة
والمخالقة ان يذهب الى الكنيسة في يوم الاحد وان نام فيها فاما في المدن
الجامعة فلا يلزمه ذلك * ومما يدل على عدم اشتغالهم بما لا يعينهم ما ذكر
مرة في بعض صحف الاخبار من ان الملكة اهدت الى احد الجند الذين
كانوا في الحرب منديلا قد كفى بكفى ابنتها الجليلة ولم يعبا بهذا الخبر احد
ولا ظن بها احد سوا ولو كان في بلادنا شهر امر مثل ذلك عن اميرة لبقى
على الستهم اشهرا عديدة * ومن ذلك حسن الترتيب في الاشغال والمصالح
والتوقيت للعمل فكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل . فاذا اتفق ان
زارهم احد حينئذ فلا يتكاشون من ان يقولوا له مثلا « قد انسنا بك ولكن
علينا قضاء ما لا بد منه من المصالح فلا نواخذنا فيصرف عنهم عاذرا لا
عاذلا لانه هو ايضا يعاملهم بمثل ذلك . وعندنا ربما تعطلت مصالح
الانسان بكثرة زوارة حتى يضطر اخيرا الى ان يحمل وسادته ويقول « شفى
الله مريضكم » وهذه الصفة اي حسن الترتيب اخرى ان يتصف بها اهل
الرئاسة والادارة منهم فان رجال الدولة اذا ارادوا ان يباشروا المساعي
الجسيمة فانما يباشرونها بغاية الاحكام والضبط بحيث لا توجب تغييرا ما
في الاحكام ولا ازعاجا بشيء على الرعية . فاذا اضطرت في وقت الحرب الى
تجنيد جيوش وتجهيز سفارين وذخائر فلا يكون ذلك موجبا لاضطراب
الناس وتغيير احوالهم او لانتقال الاسعار . واذا شاءت ان تضرب على
الرعية ضريبة لسد مصاريف الحرب احالت ذلك على مجلس المشورة النائب
عن الجمهور . ومعلوم ان الانسان ليهون عليه ان يودي شيئا على يد نائبه
اكثر من ان يوديه على يد غالبية القاهرة . وفي بعض البلاد اذا شرعت الدولة
في تجهيز العساكر للحرب رايت جميع الناس يوجودون في الاراجيف
وبخوصون في الاحوال فيظلم اذ ذاك القوي الضعيف وياخذ المرء بشارة من
خصمه وتختل اسباب التجارة ويعدم كامن بين المتعاملين فتكون غائلة
الحرب مشعورا بها في داخل المملكة اكثر من خارجها . وقد كانت اقامتي

في هذا البلاد قبل حرب الروس مع الترك وفي خلالها وبعدها فلم يتبين
لاحد فرق في شيء ما أصلا * ويلحق بذلك ان تحصيل لوازم المعاش
يكون في الصيف والشتاء شرعا فلا يتعذر وجود شيء منها باحد الموانع . وفي
غير البلاد متى دخل الشتاء وهطلت الامطار تعطلت الطرق وانقطع المجلوب
من الطعام وغيرة . فترى كل واحد متجحرا في بيته الى ان تيسر له فرصة
الخروج فاذا لم يكن الانسان قد اتخذ مونة في دارة هلك جوعا * ومن اعظم
ما يؤول الى تنظيم الامور ترتيب المولك وضبطه ففي سنة ١٨٤٨ بلغ عدد
المكاتب التي وضعت فيه ووردت اليه ثلثمائة وتسعة وعشرين مليونا
ولعل القدر في هذا السنة ضعفان . وفي سنة ١٨٥٥ وضع في ممالك لندرة
وحدها ستة واربعون مليونا . وارسل اليها من ممالك المملكة في سنة واحدة
مائة مليون كتاب وسياتي ذكر ذلك باكثر تفصيل عند وصف لندرة . ولم
يسمع الى الان ان كتابا واحدا ضاع منها . وجعله اذا وضعت عليه طابعا
بني واحدا ولا فرق في بعد المسافة . واذا بعثت بمالكة الى احد ولم يجك
البريد بحث عنه فاذا علم انه منك رد عليك وإلا ابقى في المولك مدة
ثم يحرق . واذا شئت ان تبعث كاغد دراهم فيه ذهبت الى كاتب المولك
واخبرته به فيجعل على الطرف طابعا آخر انذارا للبريد من ان يطمع فيه
فيفتحه . وهناك طريقة اخرى لارسال الدراهم وهي ان تسليها للكاتب
وتأخذ منه حوالة على المولك الثاني او ان ترسل كواغد المصرف تقسمها
انصافا وتبعث في كل مرة نصفها ضمن الكتاب . فاذا جاءك علم بوصولها
بعثت الانصاف الثانية فيلصقها بالمبعوث اليه بالاولى ويصرفها . واذا
اشتريت من تاجر ما قيمته نصف شلن فقط وناولته كاغدا بخمس ليرات
صرفه لك . وتقليل اصناف النقود اي كون النقود تنصرف على ثلاثة انواع
او اربعة من الاسباب الميسرة للمعاملة * ومن ذلك عدم التعنت على النساء
فيما لا يكون به مثلبة للعرض فاذا كان الرجل مثلا غائبا وجاء منزله فوجد
زوجته تحدث رجلا لا يتناولها بالهراوة او القذع ويقول لها « يا فاجرة
يا خائنة لا يجمعني واياك مكان » من قبل ان يعلم سبب زيارة الرجل

فاما اذا عرف منها الخيانة فلا رحمة بعدها ولا اعذار وهما خطئا اما سكين
واما سم . وكثيرا ما سمعت السيدة تقول للضيف بحضرة زوجها « خذ
يا عزيزي من هذا » * ومن ذلك الامن للمسافر في بلادهم فان الانسان
يمكنه ان يسافر فيها ليلا وهو في امن حال واصفى بال مما لو سافر في
بلادنا نهارا وترى الولد يمشي في المدن الكبار وحده ليلا ولا يخشى شيئا .
ولا هيئة لذوي المراتب منهم او للعساكر او الشرطة عند المارين بهم . وان
البنات التي لم تبلغ العشر سنين لتسعى بعد نصف الليل وتنه ر بالشرطة
كانها مرت على بعض اقاربها فتسالهم ويجاوبونها وتستترشدهم بغير حشمة
ولا انقباض فيرشدونها ويذهبون معها . وليس للشرطي حق ان يدخل
بيت احد واذا كان غريم محقوقا فانما ياخذه من الطريق لا من منزله .
وفي البلاد الشرقية حرسها الله اذا كلمت المرأة احد الشرطة او العسس ليلا لم
يلبث ان يمد اليها يده ويهتك حجابها وهيئات ان ينتقم منه منتقم . وعندي
ان عدم الهيبة والخوف على صغر هو الذي يورث جيل الافرنج جميعا الاقدام
والجرأة على الامور والكلام ويزيدهم بسطة في الجسم والعقل ويطغى بهم عن
الشيء والهزم . فان القاء الرعب في قلب الصغير كلوامح الرياح العاصفة
على الغرس فمقي تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساكن الجلييلة . وما
عدا خوف الحكام والظلام وروساء الديانة عندنا فان الامهات يزرن في
قلوب اطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير والظلام وغير ذلك
فتبت العادتان . ولولا ان اهل الشرق وخصوصا المسلمين من طبعهم التسليم
للمقدور لما رايت منهم احدا تصدق عليه صفة الرجولية . وقد صار الان
كتاب الاخبار هنا يلومون ارباب السياسة على قلته الامن للماشين ليلا في
طرق لندرة وسبب ذلك رجوع اولئك المنفيين كما ذكرنا إلا ان هذا عارض
يرجى زواله . وكذلك فشا اللوم على خيانة البريد بعدم تسليم الرسائل إلا
انه ايضا من الامور الطارئة * ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب
اذا اتمدوه بشيء فاذا احتاج الصغير الى الكبير في شيء قال له « اني ارجو
ان تكون من المحسنين الي بتحويل طلبتي فاكون لك من الشاكرين »

فهذا يغني عن قولنا « يا بدر الكمال . يا بحر النوال . يا من يستجوي اليه
العافون ويحج الى كعبة فضله العائدون . يا من صيته طار في الافاق
وملا الالسن والأوراق . ويا من . ويا من » فيكون جواب الكبير له بغير ملث
« سابدل جهدي في مصاحبتك واخبرك » وهذا يغني عن قولنا « لا بد على الراس
والعين . الخير مشترك . ونفعتك من نفعي . » والحال واحد حالة كون
النية غير منعقدة على العمل . واذا رأى المستول نفسه غير قادر على احساب
سائله ونفعه قال له علانية « ان سولك قوق طاقتي فاقصد غيري » ولكن
متى وعد فلا بد من ان ينجز وعاء فلا محال ولا مطال . ولكن لا ينبغي ان
تفهم من هذا ان الامور الخطيرة عندهم ثبتت في الحال . فان لها من التوقيت
والتعيين ما يعيا به صبر المنتظر اذ لا يبرم عندهم امر من اول وهلة . فعلى
قدر ما يهون عليهم ارتجال المقال يصعب عليهم ارتجال الفعال . حتى ان
ديوان المشورة لا يبت شيئا في الحال . وانما المراد انهم لا يعدون بشئ لا
نية لهم على وفائه كما يحدث في بلادنا . فيبقى الموعد رهين الاماني
يطعم الملت ويسقى الوعد . ثم لا يحصل من ذلك على طائل فينتج منه
التكذيب من قبل الموعد والتكيد من قبل الواعد . وفي الجملة فليس بين
الانكليز عرقوب ولا اشعب وهذا الاختصار هو عندي في احوال كثيرة اساس
المصالح ووسيلة للنجاح . وانا اورد لك مثالا واحدا لتعلم صحة ما اقول وهو
انه اذا كان مثلا احد معطلا عن الشغل وطلب وظيفة من احد الانكليز فانه
يكتب اليه كتابا ويذكر له الشروط فاذا اعجبه ذلك اجابه حالا الى سوله
والا قال له لا يمكنني فيسعى الرجل في تحصيل وسيلة اخرى . اما عندنا
فاذا طلب احد وظيفة قال له المطلوب اليه « يا حبذا انك جدير بها وقد
انصفت في الطلب ولكن امهلني ريثما اقضي وطرا لي » فيربطه بهذا
الوعد ثم تمضي مدة والرجل راكن الى ما وعد به فاذا ساله مرة اخرى
مطله بحيلة اخرى الى ان يقول له اخيرا « قد استخدمت غيرك » . الا
ان الانكليز قد فروا من هذا الاصل فروا لا تناسبه منها انهم يعاشر من
يكون لهم اليه مصاحبة شهورا وسنين فاذا انقطعت اسباب المصاحبة

انقطعت العشرة اصلا وفرعا * ومنها انك اذا اشتريت من احدهم مثلا بالف ريال دفعة واحدة فاذا راك في الغد في غير حانوته لم يلتفت اليك * ومن ذلك اي من الحصول المحمودة الحرص على ما يوتنون عليه فاذا اعطيت احدهم مثلا طرسا فانه يصونه عنك بمنزلة كنز حتى اذا استرجعته بعد سنين اعاده عليك كما اهلك بل ربما ازال منه الوسخ وسلمه اليك نظيفا وقال لك وهو معتذر « قد تجاسرت على ان ازلت الطبع من الطرس وارجو اني لم اسئ فيما فعلت » وقس على هذا سائر ما تاتئهم عليه . وينضم الى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح احدهم كتابا جاءه باسم آخر بل يبذل جهده في ايصاله اليه او رده الى المولك . واذا زارك منهم زائر لا يمد يده ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف . واذا اراد ان يقرأ كتابا لم يلمسه الا بعد ان يستاذنك . اما في بلادنا حرسها الله فاذا اعرت احدا كتابا اعارة هو الى آخر والاخر الى آخر وهلم جرا . فربما لم يعد اليك منه لا عين ولا اثر بل يرى نفسه اولى به وان لم يستفد منه اما لعدم قدرته على فهمه او لكثرة اشغاله . بل القسيسون ايضا لا يتورعون من هذا فاما اذا شرفك بزيارته فاول ما يلمح ورقه على مائدتك او بين يديك مديده وقراها فكانما هو جاسوس جاءك ليطلع على اسرارك لا ليانس بحديثك * ومن ذلك ان اصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة والرشا من احد لتسويل اوبه وان علم من احدهم انه ارتكب ذلك اقتص منه كما يقتص من السارق ولم ينفعه ان يودي الرشوة التي اخذها مضاعفة . ولكن يقابل ذلك من المذام ان المراتب هنا تعطى غالبا بالمحاباة والاستحباب لا بالاستحقاق فان الشريف اذ نوه بشخص من معارفه او اقاربه عند ذي امرة فلا بد من ان تنفذ كلمته عنك . ولو ان شخصا متصفا باحسن الاخلاق والشيم ومتحليا بالعلم والفصل حاول ان ينال تلك الرتبة بنفسه لم يلتفت اليه * ويالحق بذلك ان الفر من العسكر لا يمكن ان يرقى في مرتبة الضباط وان ابدى من المهارة والبراعة ما يقصر عنه قائد الجيش فهو نفر منذ اكتسابه الى زمن خروجه من الخدمة او الحياة . وبعد ان يقضي خمسا وعشرين سنة في

خدمته يعفى منها ويعين له نحو اربعة غروش في كل يوم . ولا مير امير
من يوم ينزل من ظهر ابيه الى ان يركب ظهر النعش ثم يدوم ذكره
كذلك الى ابد الابدين . فكان ترتيب اصناف الناس عندهم بمنزلة
ترتيب اعضاء الجسد بمعنى ان لكل عضو خاصية لا يتعداها ولا تتعداه .
فالراس لا يزال راسا وان سرى فيه الخرف والفقد والعور والصمم والدرد .
والقدم لا تزال قدما وان هي انجته وانجت الجسم كله . * وهذا التخصيص
من وجه اخر سديد رشيد فان ناظر الامور الخارجية عندهم مثلا ليس له
حق في ان يدمق على ناظر الامور الداخلية في شيء وناظر مجلس المشورة
ليس له جدارة بان يحكم على احد الباعة بشيء من محراب صرحه وقص
على ذلك . فاما في بلادنا فان ناظر المدابغ جدير بان ينظر في جلود بني
ءادم ويصبغها بلون الدرة او السوط او يسبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة .
والمحتسب خليف بان يزن اعمال العباد واموالهم في يسوتهم ويروز ما في
عياب صدورهم من الخواطر والافكار . وللاحكام ان يسقط حق المحق لحرف
اسقطه في الكلام . وللصابط ان يبيت الناس في مضاجعهم . وللشرطي ان
يقبض على اي كان . وللصابط العسكر ان يخطر سيفه على اي عنق سخت
له . وللطران ان يحرم اي شخص كان من رعيته حتى لا يعود لاحد من
اقاربه واهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته . والى من المشتكى
واين النصير . فيا ليت شعري متى نصير نحن ولد ءادم بشرا كهؤلاء البشر .
ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا . اتخال ان التمدن معناه ان يكون
الناس في مدينة وفيها ذئاب وسباع . كلا ثم كلا جبر ان اجتماع الحروف
والذئب في مرعى واحد ليجب على اليهود ان يؤمنوا بحجي المسيح * ومن
ذلك تنشيط اولادهم الى الاشغال وتمرينهم على ما يكسبهم وايهم الرزق
الكافي والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل او حقر . فانهم لا
يملون من السعي ولا يرون في الكسل راحة ولا يقول احدهم اني كبرت
عن تعلم شيء فلا يزالون دائسين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك . ومع
كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم احدهم او سقط شرفه فاهون شيء عليه

نحر عنقه وذلك عندي من بعض الافعال المتناقضة في الطبع البشري *
وجل سعيهم في شبابهم هو لتحصيل ما يهنتهم في شيخوختهم حتى يمكن لهم
تربية اولادهم فلا يحتاجوا الى التكفف او الى ملازمة المستشفيات والملاجي
المعدة للعاجزين . وكل منهم يعمل بقول الشاعر:
« قليل المال تصالحه فينمى * ولا يبقى الكثير على الفساد »

فاما قول عروة بن اذينة :

« لقد علمت وما لاسراف من خلقي * ان الذي هو رزقي سوف ايايني »
« اسعى له فيعنيني تطلبه * وان اقامت انا اني لا يعنيني »
فانه يعد عندهم من الاماني الفارغة الباشعة على السواني . غير ان حب
التناهي غلط فان تعليق العبد توفيقه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من
ازراء بعناية المولى . وفيه من وجه اخر تنقسية للقلب فان الانسان
والحالة هك يهون عليه ان يفارق وطنه وسكنه لاجل المال . وهذا الداء
فاش ايضا عند الثرين والموسرين هنا اذ الغني منهم قد يكون له ابن وحيد
فيبعثه الى الهند او غيرها طالبا لوظيفة سامية ثم بعد قليل يفجع به . وهذا
يعد من وجه انه ناشي عن كبر همة وسمو مطمح ومن وجه لك ان تعلق
من الحرص والطمع فوق بينهما ان استطعت * ويلحق بذلك ان الشيخ
الفاني منهم اذا اراد ان يني بيتا او ياتي امرا فانما يجعل همة في تحصيل
المنفعة منه في المستقبل اكثر من الحاضر . وفي غير البلاد لا يبالى إلا
بالمنفعة الحالية . ولا يكاد يتجه لهم امر يرجى منه نفع او صلاح إلا وتتجرد
له جماعة فتجريه على وجه مرغوب ونحو مطلوب . وكلما اخترع احد شيئا
في البلاد الاجنبية قصد به احدى هواء الجماعات اثارا لهم على اهل بلاده
لعلمه انهم يوفون اجرة العامل فاعانوه على اجراء مرامه بما فيه نفع لهم وله *
ثم انه وان يكن قد غرس في طبع كل انسان ان يحب وطنه ويفضله على
غيره ولا سيما اذا سافر الى بلد هو دون بلده في طيب الهواء ورغد العيش
حسن الاحكام إلا ان هك الصفة تكاد ان تكون من خصوصيات الانكليز
فهم ايان يتغربوا يظاوا لهجين بذكر بلادهم وما فيها من العاجس واللذات

وقد رايت كثيرًا ممن سافروا الى بلادنا والى مصر والغرب وباريس فأتوا على تلك البلاد بشيء وافق طباعهم منها إلا أنهم عند ختم الكلام يقولون « لا شيء كمثل انكسرة القديمة » وانما يصفونها بالقدم لعدم تحول احوالها وتغير عاداتها كما ان اهل باريس يقولون « ليس إلا باريس » . ومع ذلك فانك لا تزال ترى الانكليز طوافين في جميع البلاد وراكبين متني البحر والبر معا . ولكن لا تكاد ترى احدا منهم يسافر الى البلاد الاجنبية لاجل ان يعلم التصوير او الموسيقى او الرقص والغناء كعادة غيرهم من الافرنج وانما جل ضررهم في الارض للتجارة . فاما الامراء والاغنياء فانهم يسافرون للتنزه واثيانا لاجل تخفيف المصاريف فانهم مهما يصرفوا في غير بلادهم فلن يبلغ ذلك نصف ما يصرفونه وهم في اوطانهم . ورب وليمة واحدة عندهم ينفق فيها اكثر من مائتي ليرة . فترى منهم في كل قسبة من بلاد اوربا الوفا . ومتى رجع الانكليزي الى بلاده قال مع الشاعر :

« فبشرت امالي بملك هو الوري * ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر »
ولا شيء يعجبهم مثل ان تمدح بلادهم وعاداتهم * هذا وان من طبع الناس عموما اذا احتاجوا اليك ان يعزوك ويحتفوا بك ويروك اهلا اكل مكرمة واذا انت احتجت اليهم استخفوك وراوا فيك العجز والذل . إلا ان هذه الخلقة غالبية على الانكليز جلته وتفصيلا فمن رام ان يكرم نفسه عندهم فيظهر لهم انه مستغن عنهم ولا يعرض لهم في طلب شيء ولا في استعارته . وبناءً على ذلك يصاحبون من يصاحبون اياما وشهورا وسنين ولا يسالونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون ان يسمعوا ذلك منه اذا ذكره ومتى حلت هذه العقدة انقطع الحب فذلك عندهم من السر الذي لا ينبغي افشاؤه إلا عند الضرورة . وكذلك لا يسالونه عن معتقده ومذهبه وعندنا متى تعرف احد بذى مقام فاول ما يشنف سمعه به من المسائل هو ان يقول له « من اي ملته انت » . فاذا لم يكن المستول من ملته السائل يسقط من عينه الشريفة او يبقى فيها كالقذى ان بقي محتاجا الى عشرته . فاما « سائل الاخوان والعشراء فاولها « كم دخلك » وثانيها « كم خرجك » وثالثها

« كم مرة تعترف في السنة » ورابعها « هل تأكل البيض يومي الاربعاء والجمعة » الى اخره * ومن طبع الانكليز انه متى وثق احدهم بالناس وعرف منه الجدد والاستقامة والامانة ياتمنه على زوجه وعلى بناته فيذهب معه ليلا ونهارا بلا مانع . ومن يحضر الى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه من بعض اهلهم وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه ولكن بشرط المحافظة على ذلك الاصل وهو اظهار التشبع والاستغناء . فاما اذا كان ذا بسطة في الجسم ومسحة جال في الوجه فلا يشينه شائش . ومتى دخل احد تحت حاية امير منهم فقد دخل في ذمة السموول وفي حمى كليب فهو يحامي عنه بكل ما اطاق . فهذا الداب من جهة يعد من المناقب ومن جهة اخرى لا يخلو من ذام . وذلك ان من اعتقد منهم بصدق الموصى به ثقة بالموصى ولم يغير فيه اعتقاده وان سمع عنه ما يشينه فقد ترجم بفعله هذا عن صمته ومحالته وقوع الغش عليه فيما قرر عليه رايه حتى لا يحتاج بعده الى ناصح ينصحه ومنبه يرشده فاسترسل في هواه الى ما يعرضه لطعن الغائبين وفقد المنكرين . واللييب من الناس من لا يركن الى هواه بل يشك في نفسه ويسترهبا حتى ايديه هذا الشك الى الاهتداء لليقين . وبعد فهب ان ذلك الشخص الموصى به كان جديرا بالمراعاة والاجادة وهو في بلاده فقد يحتمل انه عند مشاهدته الانكليز على هذه الاحوال التي لم تكن تخطر بباله قط تتغير اخلاقه ويتلبس بصفات لا تشاكله . فقد عرفت كثيرا ممن قدم اليهم من البلاد الشرقية وعليهم سمت لاستقامة والنزاهة فلما راوهم على هذه الحال من التشوف الى معرفة بلادهم ومن اتئمانهم الغرباء على بناتهم واکرامهم الغريب من اجل الوصية التي قدموا بها وغير ذلك اتخذوا لهم ريشا غير الذي جاءوا به واتحلوا لانفسهم صفات ومآثر لم يحملوا بها من قبل قط . فبعضهم قام في الناس خطيبا يحكي ما عرفه من احوال بلاده وبعضهم طمح الى ان يتزوج من يكون عندها من المال ما يشري به املاك اهل بلده او قريته وبعضهم اخذ في التاليف وحشر نفسه في زمرة علمائهم وكلهم ظن ان الانكليز طعمته لئلاهم ولقمة لئلاهم .

وأول ما يخطر ببال الدخيل فيهم إذا كان عربا إنما هو أن يشزوج إحدى بنات الأعيان الأغنياء ويستغنى برزقها عن الهم والنصب . وفي الحقيقة فقد صدق فيهم ما قاله مولف حاجي بابا وهو أن الانكليز إذا تعرفوا بأحد غريب فلا بد من أن يرفعوا شأنه لئلا يلحقهم من تعارفهم به وصمة تشينهم فربما انتحلوا له لقب اميز أو سيد حتى يتوهم الرجل أنه في الواقع كذلك * ومن طبع الانكليز ولا سيما كبارهم أن ينفروا من الرخيص وأن يكن نفيسا ويتهافتوا على الغالي وأن يكن خسيسا . وعلى ذلك ورد في بعض الأخبار أن رجلين كانا يتحدثان في هذا المعنى فقال أحدهما لصاحبه « الا اني فاعل بهؤلاء القوم امرا يسخر منه . كل من سمع به » ثم عمد الى كيس وجعل فيه دنائير من ذهبهم وقعد على قارعة الطريق وجعل ينادي « من اعطاني شلينا اعطيتنا دينارا من هذه الدنائير بدلا منه » فجعل المارون يتصاحكون منه ويقولون « لعمر الله ما قصد بذلك الا غشنا » فطفق يصرخ بأعلى صوته ويقول « يا ايها الناس هاوكم الذهب بدل الفضة عليكم بالجهمبذ » فلم يكتوث له احد * واعرف بعض الجهملة كان يقرأ النحر على رجل من ذوي القناعة والنزاهة ثم يعلم جماعة من الانكليز ويتقاضى كلا منهم على تعليم ساعة واحدة نصف ليرة . فكان الناس يهرعون اليه ويعرضون عن معلمه لانه كان يتقاضاهم ربع هذا المبلغ تذكما وتورعا . واذا كان احد متوظفا مثلا في وظيفة عالية وقصدوه ان يقضي لهم حاجة أعطوه اصعافا ما يعطونه من ليس له شغل الا قضاء تلك الحاجة بعينها . ومن كان يعيش من حوفة له وان كانت تلك الحرفة عقلية لا يدوية فليس له عندهم مقام من ليس له حرفة وان كان خرقا . وعلى هذا قال العلامة كولند سميث « ان الناس من شأنهم ان يستحقوا بالمعارف التي يكون منها معاش صاحبها » . وقد يتفق ان يكون مثلا طبيب نطاسي وآخر متطبب فاذا كان لهذا عاجلة ودار رحية وخدم اقبلت عليه جميع الامراء والعظماء واعرضوا عن ذلك لكونه ممن يمشي على رجليه ما لم يولف كتابا ويظهر فيه براعته . فكم من ملكات نفيسة تبغى في زوايا الخمول بسبب هذا الترجيح للزائغ . وسيتاني ذكروا ثنائهم على

الألقاب ، والمحق يقال ان زيادة شلين واحد ونقصه في ثمن المتاع عندهم
يوجب فرقا عظيما إلا انه ليس من العدل ان تقاس الناس بالبياعات فكم
من عالم وليس عنك كتاب وجاهل ولديه اصابير من كتب نفيسة * ومن
طبع الخاصة منهم ان يتجنبوا معاشرة العامة ما امكن . ولذلك سببان
احدهما وهو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقتين في الاطوار
والاخلاق . فان العامة في هك البلاد ما برحوا متسكعين في مهامه الجمل
والفاظاظه كما مر بك . ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم ترضي احدا من البشر
ممن كان ذا ذوق سليم وطبع مستقيم . فالواباشية ظاهرة عليهم في كلامهم
وحركاتهم وتخبرهم للالوان وفي تصرفهم وغنائهم وضحكهم . ومعلوم انه سن
يكون قد قرا ودري يستنكف من امثال هؤلاء الرعاع . والسبب الثاني
وهو ما خطر لي ان عليه الناس هنا اصلهم من اجيال مختلفة . فان الذين
فتحوا هك الجزيرة انما كانوا من فرنسا وشمالى اوربا . ومعلوم ان هؤلاء
الفاتحين هم الذين استولوا على الارض وعلى المراتب والألقاب الشريفة وان
الانكليز بقوا بينهم مسودين مروسين وبقي هذا الفرق في اعقابهم . قال
فلشير « انه بعد وفاة الفريد ملك انكلترة وذلك في سنة ٩٠٠ اختلت امور
المملكة وتضعفت اركانها فكان القتال مستمرا بين الصكصونيين وهم اول سن
غزوها وبين الدانيزيين (٥٥) ولما كان هؤلاء اعز واوى من الانكليز لم يكن
لهؤلاء بد من ان يودوا اليهم ثمانية واربعين الف ليرة لينصرفوا عنهم وذلك
في حدود الالف . ثم ان كانت ملك الدنيمرك جار في حكمه على
الانكليز وبغى وطغى وفي سنة ١٠١٧ اعناهم تحت حكمه وعاملهم معاملة
الاسرى فكان الدانيزي اذا مر بالانكليزي يقف هذا الى ان يمر ذلك .
فلما انقرضت ذرية المذكور عادت الى الانكليز حريتهم فملكوا عليهم ادورد
الصكصوني وكان يلقب بالقديس المعترف وانما قيل له ذلك لانه اعتزل
زوجته كراهة ولم يعقب . فلما توفي قام وليم ديوك نورماندي يدعي بان
له حق الولاية عليهم مع انه لم يكن له حق بولاية النورماندي . الا ان
حقوق الولاية والملك حيثذ لم تكن في اوربا كما هي الان . وكان من

دعواه انه قال « اني لما سافرت الى جزيرة انكلترة اجتمعت بالملك ادورد فجعلني وصي عهده واني انقذت الملك هرلد من سجنه فوعدني ايضا بان ينقل الملك الي » . ولما عرض ما نواه على اهل نورماندي وقع بينهم الخلاف في شأنه فمنهم من ابي ان يمده ومنهم من راي في ذلك صلاحا . ومن جملة هؤلاء ديوك يقال له فتراثبورن فانه جهز معه اربعين سفينة وامسك ايضا حوزة الكنت فلاندر بمال وكذلك البابا اعانه وحرّم كل من يمانعه فسافر حتى بلغ ساحل صاكس فلقية هرلد ملك الانكليز بالجيوش ونشبت الحرب بين الفريقين فقتل هرلد واخوه وانهزمت الانكليز امام وليم فزحف بجيشه نحو لندرة وهو ناشر علما كان قد باركه له البابا فدخلت الاساقفة في طاعته واقبلت اليه القصة بالتاج (٥٦) . فلما استوى على سرير الملك اذل الدانيزيين واهل الجزيرة وقهرهم اي قهر وطفى باهل نورماندي الذين اعانوه ووهب لهم ارازاوا وقطعهم اقطاعات جمة . فمن ثم كثرت هناك عيال النورمانديين الذين لم تنزل ذرايرهم او اسماءهم معروفة بين الانكليز وكان دخل هذا الملك اربعمائة الف ليرة وهي تبلغ بحساب قيمة الدراهم في زماننا هذا خمسة ملايين من ليرات الانكليز . قال : « والظاهر ان في هذا المقدار مبالغته فان دخل انكلترة وسكوتلاندة وارلندة الان هو دون هذا اذا استقطنا ما يدفع في مقابلة دين الامة » . قال : « ثم ان الملك المشار اليه ابطال شرائع الانكليز وامر باجراء احكام النورمانديين مكانها واجبر اهل الدعاوي على ان يتداعوا بلغة قومه . وكذا كتب الصكوك والاحكام فبقيت لغتهم مستعملة الى عهد ادورد الثالث . وكانت تلك اللغة فرنساوية مختلطة بالدانيزية بعيدة عن الفصاحة بائنة عن البيان . وكان مما سئم الملك على الانكليز اطفاء مصابيحهم في الساعة الثامنة من الليل وذلك عند سماعهم صوت الجرس إلا ان هك العادة كانت جارية عند غيرهم من سكان البلاد الشمالية وكان البادي بها اهل الكنيسة » اذ . فقد علمت مما تقدم ان عليّة الانكليز هم من الغرباء الذين فتحوا هذه البلاد . فان قلت « اذا كان ذلك كما قيل فما بالهم يخالفون عاية فرنسا والديمرك في الطباع

وفي كونهم كما سبقت الإشارة اليه كالزيت لا يختلطون بغيرهم انفت
وتكبرا ، قلت : وما بال جو الانكليز لا يشبه جو فرنسا وغيرها . فينكر
احد ان للهواء تائيرا في الخلق والمخلوق سواء كان في الحيوان الناطق او غير
الناطق . فلو جئت ايها الهش البش الطلق المحيا الباسم الصالح المتهق
الى هذه البلاد وبقيت فيها شهرين وثلاثة لا تبصر الشمس إلا من وراء
حجاب لا غناك الخبر عن الخبر * وحيث قد ترفعت الكبرياء من الانكليز عمن
هو دونهم من اهل بلادهم وصار ذلك دابا لهم وطبعا يرثه الولد عن والده
والمخلف عن سلفه جروا على ذلك ايضا مع الغرباء ما لم يتبين لهم انهم نظراؤهم
في الهمة والمعالي . فمتى اعتقدوا ذلك منهم لم يانفوا من معاشرتهم . والحق
يقال انه لا مناسبة بين عليّة الانكليز وسفلتهم بخلاف سائر الناس . فلن
الامير عندنا مثلا لا يفاضل الناس إلا بامارتة لا باخلاقه وآدابه ومعارفه .
فان جميع الناس في ذلك متساوون غير ان عامة الانكليز لا خلاق لهم من
ذلك راسا . وايضا فحيث كانت القاب الشرف عندهم قديمة وعزيرة
كان لها عندهم اجلال وتعظيم يفوق الحد حتى ان اعظام اللقب هنا اكثر
من اعظام الملقب به . فان الشريف اذا مشى مثلا في الشوارع مع عامة
الناس لم يكتسب له احد ولم يقد له قاعد وقد يسوغ الطعن فيه والتشديد
بمعاييمه ولكن لا يسوغ ازدياء منصبه وجلالته لا بالنطق ولا بالكتابة . وما
احد من الانكليز ينكر انه بمجرد اتصاف الانسان بجلالة يجب له التعظيم
والتكريم . ومن اعظم شاهد على ذلك نصب صابط البلد فانه قد يكون
من اهل الحرف والصنائع فمتى حصل على هذا الجلاء صار مساويا للاشراف
والسادة حتى ان سائر الوزراء والامراء يتغدون عنك ويجانسونه وما ذلك
إلا لمرعاة جلالة ومقامه ومتى عزل رجع الى حاله ولم يتغد عنك احد منهم
ولو جاء بالملوك والسلوى . والكلام على كيفية نصبه سنذكره في وصف لندرة
ان شاء الله تعالى * وما احد هنا يرتقي الى درجة سامية عن صفة إلا هذا
الصابط فاما الوزراء ورجال الدولة فكلهم اشراف او من جلة الناس بخلاف
بعض الدول فان صبي الخلاق والجزار في البلاد المشرقية ربما صار في مرتبة

وزير * والشاهد الثاني ان بعض جر بلادنا او غيرها يقدم عليهم وعليه برزعة لقب فيكرمونه غاية الاكرام ويوونهم بدل الاسطبل مبوا اسنى ومقاما اعلى وهو مع ذلك لا يدري ان ينهق بمدحهم ولا يهجوهم * اما الفرنسيون فانهم يكرمون اللقب اذا كان يليق باللقب ومن كان ذا معارف وصفات جيدة عندهم اغناه ذلك عن حلس الجلاء . ولا شك ان الفضل بغير جلاء خير من الجلاء بغير فضل * وقد كنت ترجت نبذة من نحو لغتنا وبعض محاوره لاجل ان يطبعها بعض الدرايين فلما انتهى طبعها كتب في صفحة العنوان انها من تاليف فلان مدرس اللغة العربية بمالطة سابقا ومترجم جميع اسفار التوراة والانجيل ومولف كتاب الفارياني الى اخره . فقلت له « ما الموجب الى ذلك كله » فقال « ان الانسان هنا انما يعتبر بالقاب لا باتباعه وخلوا من تعديد الالقب لا يباع الكتاب » * وكل عيلة شريفة من هولاء الروس لباس مخصوص بخدمتهم وخدمتهم ولهم لائحة مخصوصة فيها للجامعة في الكلام او كما يقال رخاوة حنك حتى ان اللائين في الملاهي يحاكونهم ويسخرون منهم . ولهم ايضا تنطس زائد في مراعاة جانب العرض فانهم لا يقبلون في مجالسهم من علم انه عائش مع امرأة على وجه المتعة او السفاح وعند الفرنسيين لا حرج فيه . وكذا في الصدق ايضا فانهم اذا عرفوا من احد الكذب ولو مرة واحدة سقط اعتبار بشريته من اعينهم وهم مع ذلك اكثر الناس عرضة للتدجيل * ومنها ان معاشرتهم لازواجهم اشبه بمعاشرة الاجانب فلا يانس احد بشيء من الدالة بينهما . فبينهما من التحشم والتكاف ما بين الغريب واحدهما . ولا يمكن للسيد ان يقول عن امراته « زوجتي او قرينتي قالت كذا » بل يقول « قالت السيدة » ولا يفتح رسائلها التي ترد باسمها ولا يتطالل الى معرفة احوالها . واذا اتاه زائر رجلا كان او امرأة جلس معها من دون مشاهدة السيد . واذا كانت في حجرتها لم يدخل عليها الا بعد ان يقرع الباب . واذا ارادت الخروج فلا تستاذنه . ولها ان تستخدم من شاءت وان تذهب الى بعض الملاهي مع احد من معارفها سواء كان السيد صحيحا او عيلا في الفراش . واذا زارهم احد من

معارفهم او اصحابهم ياتمنونه على بناتهم ونسائهم فيخرج معهم ليلا ونهارا
والغالب ان يكون خروجهما اولا الى الكنيسة ليفتح لها كتاب الصلوة والانجيل
والتوراة ثم يعقبه الخروج الى الملاهي ليفتح لها باب الخدع ثم الى المتزهات
ليفتح لها باب الطريق او باب العاجلة . وهكذا تتوالى الفتوح . وليست
هذه الخصلة عند الفرنسيين فانهم لا ياتمنون على اناتهم ذكرا وقها تخرج
المخدرة هناك وحدها او تركب الخيل وتسابق الرجال كما تفعل مخدرات
الانكليز . ولعل ذلك هو بعض الاسباب الذي من اجله تراهن ممشوقات
مهفهفات فقل ان ترى فيهن بادنة . هذا ما عدا كشف صدورهن في
الولائم ورقودهن في النهار دون الليل الذي جعله الله سكنا وراحة للبدن *
واذا تزوج رجل امرأة وكان عليها دين قبل الزواج وجب عليه الاداء ولكن
يكون ولي مالها وملكها . واعلم ان الرجل في عرف الشرع هنا هو ولي امر
المرأة ولا يصح لها ان تتعاطى امرا خطيرا من دون اجازته الا ان عرف
العادة والاستعمال يوجب للمرأة كثيرا من الحقوق والامرة على الرجال فان
اختصاص النساء في كل مكان وزمان امر صعب ولا سيما في المدن الكبار التي
يباح لهن فيها الخروج والزيارات فلا يسع الزوج الا المياسرة والملاينة لامراته *
وعادة النساء عند السلام اول مرة ان لا يسلن باليد بل باشارة من الراس وفي
المرة الثانية تمس الانامل فقط وفي الثالثة بنصف الاصابع وهلم جرا . وينبغي
لمن اكرمه الله عز وجل بزيارة احد هؤلاء الاجساد والماجدات ان لا يذهب
إلا في وقت الزيارة المعلوم وهو في الغالب بعد الضحى وان يكون دائما
جميلا باللباس الفاخر نظيف الثياب حائقا شعر وجهه باردا اظايرة ماسحا
نعليه بالارندج ساترا كفيه بجلد ابيض . فان قولنا « المرء باصغريه » و « لا
تكلمك العبأة وانما يكلمك صاحبها » و « رب حر ثوبه خلق » لا محل له من
الاعراب عندهم . ولا يحق فيما يراه من المتاع والاثاث ولا يمسه باصبعه
فان كل ما يكون بجلسه حرم . ولا يتدبره بالخطاب ولا يكن سائلا فاذا كلمه
مولى الدار ثلث كلمات اجاب بثلاث وان زاد فليزد . ولا يلز في المجلس
وان من كوءه فصلوة الاستغفار . ويستحب المشي على بساطه قدرا . ومن

الغيب ان يذكر الانسان بحضرتهم اسم رجله او ساقه او ظهره . واقبح
من كل قبيح ان يقول بطني حتى ان لفظة البطن بلغتهم مستهجنة ومثله
الفتح حتى من الحيوان وفي بعض البلاد قد تقول المرأة اذا دعوتها للاكل
بطني ملان ولا تستحي . ولا ينبغي له ان يحك بحضرتهم موضعا من جسمه
ولا يبصق ولا يسعل ولا يخط ولا يفتخر ولا يتجشأ - والعياذ بالله - ولا
يتكهن وان لا يشم منه . رائحة التبغ . واعرف سيدة كانت اذا شمت
رائحته في ثياب زوجها مما دخن هو او غيره اجبرته على نزعها * وقد كان
دعاني بعض فضلائهم الى ان ازوره وامكث عنده اياما وقال لي « قد جئتك
من مكان سحيق قصد ان تنزل عندي لاسمع منك الكلام العربي ولك
علي كل ما يرضيك » فقلت له لكن ينبغي ان تعلم اني اتعاطى الدخان
وان نساء الانكليز لا يسحن به » فقال « ان حول الدار بستانا فمتى اردت
ان تدخن تمضي اليه » فقلت في نفسي هذا اول المباحث على العنت ثم
قلت له « اذا طلبته في الليل فهل اقوم . من فراشي واجل الحافي الى البستان »
قال « بل تدخن في حجرتك وتغفل ما تريد » . فاجتته الى ذلك وسافرنا معا
فلما بلغنا منزله سلمت علي زوجته فكان اول ما خاطبتهني به ان قالت لي
« طب نفسا من جهة تعاطي الدخان فانا ننظف الحجرة منها كل يوم فلا
اذى منه » فاستدللت من ذلك انه كتب لها قبل سفرنا في هذا الامر
الجليل * واذا زارهم احد اول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بد من ان يعطي
الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيدة في صحفة من الفضة
او البلور . ولا يكاد ان يدخل عليهم زائران في وقت واحد . وقد يكون عند
البواب دفتر يكتب فيه اسماء الزائرين في كل يوم * وفي الجملة فان
معاشرة هؤلاء الروس تنعب الرأس والرجل وتضيع كثيرا من الوقت والمال
وربما دعاك احدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة اغدية *
ومما يحمد من هؤلاء لاشراف انهم لا يضعون في اردبتهم سمات الشرف
ويطوفون بها في الطرق تهويلا على العامة كما تتغل اشراف فرنسا وانما
يلبسونها في اوقات معلومة . وكذلك الخواتين لا يتخلين بالخلي والجواهر

إلا في الولائم والسهريات ونحو ذلك . ومن ذلك خطاياهم خادميهم بالرفق واللين وإن اظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها إذا امرتها بأن تناولها شيئا « هات هذا الشيء إن أعجبك » وبعد أن تأخذ منها تشكرها . وربما تباخلت عليها في الأكل والشرب وأرضتها بمنزل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها . ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة بعيدة عن خادمتها مظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء . وإذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب كان تقول لها مثلا « يا فاجرة - يا بنت الكلب » كما تقول نساء بلادنا أو أن تحرق عليها أسنانها . والعادة عندنا بخلاف ذلك فإن المخدومة تلعن الخادمة وتشتتمها بحضرة الناس ثم تلقمها وتغلفها وتنسبط معها في الكلام * ويحمد أيضا من عاداتهم أنهم إذا استخدموا شخصا لسنة وأرادوا صرفه لغير ذنب نهبوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر . وعند الفرنسيين ينهبونه قبل بثمانية أيام . كذا في غلياني . فاما إذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع واحد أو ادوا إليه اجرة الشهر . ومن يستخدم في الميري أو عند جعية وأبلى في خدمته كان على تلج من أن يزاحه عليها آخر ولو باجرة أقل . وكل هك الحامد معدومة في بلادنا فإن المخدوم يطرد خادمه بلا ذنب ولا مكافأة * وكبراء الانكليز طبع غريب لا أدري إلى أي شيء أنسبه وهو أنه إذا باشر لهم أحد عملا لم يخطر بباله أن خدمته له إنما هي عن حاجة المجاتمة إلى اخلاق ديباجية فيأتي عليه حين من الدهر من غير أن يسأله هل أنت محتاج إلى الدراهم أو لا . ولكن اسمح لي أيها المخدوم لأعز أن أترجم لك عن هذا الطلياني الذي يعلمك الأحسان وعن ذاك الفرنسي الذي يعلمك الرقص والتصوير وعن ذلك النمساوي الذي يعلمك فلسفة اللغات . فاني أخشى أن الأول يضيف إلى كل كلمة من لغتك حرف علة والثاني ينقص منها الحرف الصحيح والثالث يبدل ويقلب فانه يرى أن لغتك فرع عن لغته فلا يبالي كيف يؤدي اليك المعنى . بل دعني أن اكلمك بلسان عربي مبين حتى يكون كتابتي كلمة من نفس واحد وما

على صماحك اللطيف من حروفه الخالية من باس . فاقول « اي لذة ترى
لعملك منهم في مجيئه اليك تحت المطر والتلج من مسافة ساعة فاكشر
فيحوج الى اداء ثلثين جعل الحافلة (٥٧) والى ان يضط بين القاعدتين فيه
ثم بعد ان يخرج منه سالما يمشي ربع ساعة فيوسخ الوحل نعليه وتكسر
الريح ظلته ثم ياتي فيقرع الباب فيخرج الخادم اليه وينظر اليه كالمستخف
به اذ يرى نعله قد ابتلت وظلته مفتوحة فانه قد نقل عنك بالاسناد ان
كل من يعيش بيديه ويمشي على رجليه لا يكون « جتلت مان » اي متخصصا
بمصفى بصفات الخاصة - ثم يعرض عليك ما اقدمه اليك من دون ان
يذكر اسمه وانما يذكر صفاته وحينئذ تامر بان ياذن له في الدخول . فامعن
النظر هداك الله يتبين لك ان من كانت هذه حاله كان جديرا بان ياخذ
اجرتهم وحقق عرق جبينه او قرقرة امعائه من البرد في غاية الشهر . لعمري
ليس هذا داب جيرتك الفرنساوية فانهم وان لم يودوا اجرة العامل لهم كما
تودي انت إلا انهم لا يغفلون عنه فيعرضون عليه ما يلزمه قبل اللزوم او
عند وقته * واقبح من ذلك انه اذا سال العامل الموعول له من هؤلاء السادة
اجرتهم انقبض منه واقشعر ولاسيما اذا كان المبالغ قليلا * وهنا ينبغي ان اذكر
ان الناس ما زالوا يروون عن الانكليز انهم اذا استخدموا مثلا معلما او عاملا
لا يسألونه عن اجرتهم اولا وانما يسألونه اخيرا ويودونها اليه كما يطلب
وانهم يوفونها اكثر من سائر من عداهم . وان العامل اذا اشتغل لهم بشيء
ما ساعة من النهار اغتنه عن التعب يوما او يومين فينبغي ان تعلم ان الانكليز
كانوا من قبل اختراع سفن النار انسخى واسخى منهم لان . فان بجئ
الغرباء الى بلادهم كان نادرا فكانوا يحتاجون الى ان ياخذوا عنهم ما ليس
عندهم منه . وكثير ممن جاءهم في ذلك الوقت مخرق عليهم وليس فرجع
غانما . فاما الان فما برحت الغرباء تتوارد اليهم من كل فج وصاروا هم
ايضا يجولون في كل البلاد ويطلعون على احوالها ويشهرون معلوماتهم فيها
في الكتب وصحف الاخبار . فاصبح لا يخفى عنهم ما يناله الغريب في
بلاده واصبحوا يشارطون ويستحطون من الطلب ويشتهون . وصار عندهم

كثيرون من الفرنسيين وغيرهم وربما رضي احدكم بان ياتخذ على شغل ساعة شلينا واحدا وما بين ذهابه وايابه يضع ساعة فاكثر * وهذا الطمع في الاستغناء من الانكليز قد غر كثيرا من الناس فاستغفروا من ديارهم حتى قاسوا في هذه البلاد من المجهد والعناء ما رضوا به من الغنيمة بالاياب . حتى ان اهل ايرلندة مع قربهم من الانكليز ومخالطتهم لهم يتركون بلادهم ويقصدون احدى مدن الانكليز وعدتهم تلك الاماني الفارغة * ويحكى عن احدهم انه جاء اندرة على نية ان يصيب فيها الخطوة والسعادة وكان فقيرا جدا . فاتفق يوم دخوله ان يتر بدينار مرمي في الطريق فالتقطه ووضعه في جيبه ثم لم يلبث ان اعترضه فقير وساله شيئا فاعطاه الذهب وقال « خذ فاني لا ارجو ان اجد من صر به كثيرا » * ولاهل ايرلندة حكايات كثيرة متناقضة يرويها عنهم الانكليز تهكما عليهم منها : ان امرأة قالت لرجل اراد ان يقعد على كرسي « لا اقدر ان استغني عن واحدة من هذه الكراسي الفارغة لانها جميعها مشغولة » * وسال رجل منهم رجلا آخر « هل رايت انحل من هذه المرأة قط » . فقال « كيف لا وقد رايت واحدة لو انها جعلت مع هذه ومع اخرى معها لكانت انحل منهما معا » * واشترى رجل ساعة بثمان غال فساله بعض اصحابه عن ذلك فقال « ان لهذه الساعة فوائد عظيمة منها اني اذا اردت ان اقوم في الليل جذبت حبلها فتطن فاسمع صوتها » (٥٨) * وقيل مرة لرجل « قد اخترع كانون يخف به نصف المصروف من الفحم » قال « اذا اشتري كانونين ليخف المصروف كله » * ويحكى عن اهل ايرلندة حكايات كثيرة مضحكة تدل على حقهم وسخافتة عقولهم * ويالحق بما تقدم ان احدهم - اي احد هؤلاء العلية - قد يكون مثلا مديونا لشخص فيسافر الى بلاد بعيدة من غير ان يوديع حقه . وقد يكون له وكيل او صديق ولا يوكله عنه في قضاء حقه . فاذا سال الرجل وكيله عن سبب سفره قال « قد كان يريد ان يراك قبل ذهابه ولكن العجلة اضطرته الى ذلك وقد صعب عليه ما جرى » . وهذه المصلحة اعرفها منهم في مالطة ايضا ليست ناشئة عن طمع في اكل الدين اصالة وانما هي عن عدم مبالاة

واكتراث وعن اعتماد على صدقهم ووفائهم وعلى مقتضيات «الجهلانية» ولكن ما معنى «صعب عليه» هنا أو «حزن» أو «كسده» أو «اكتاب» أو «ترج» أو كل مرادفها وهو لا يدري متى يعود من غيبته والرجل يحتاج الى اجرتة او ثمن حاجته * ومن طبعهم ايضا ان لا يسمعوا نظم الغريب من احدهم ولا سيما اذا كان المتظم دون المتظم منه وان كانوا يعلمون لهذا سابقة في الشطط على بعضهم . واذا استلخوا من الشكوى نورا يريهم ان كل بشر مظنة للخطا والقصور فانما يكون ذلك في جهة الشاكي لا المشتكى عليه وهذه المصلحة من جهة هي صنو تلبيهم في اللوم على ما تقدم ومن جهة اخرى هي من قبيل التعصب والزيغ * ولهؤلاء الكبراء حب للسمعة يقضي الى قسوة القلب فان احدهم قد يهون عليه مثلا ان يعطي الجمعيات الدينية ثلثمائة ليرة في السنة واكثر وان كان لا يعلم باي وجه من وجوه البر تصرف او لاي مقصد تستعمل واذا مرت به امرأة فقيرة حافية تحصل رضيعين وعلى وجوههم سمة الذل والجوع لم يختلج قلبه لان يجود عليها بدينار واحد حيث يعلم ان المرأة لا دفتر لها تكتب فيه اسمه وتنتشره على الملا كما تفعل الجمعيات * ومن طبعهم وطبع العامة ان لا تذكر لهم عيوبهم وشين عاداتهم ومنكر احوال بلادهم وانما ينبغي ان تنتظروهم حتى يخوضوا هم في ذلك . ولا شئ اسوأ لهم من ان يفصل الغريب عن بلادهم وفي قلبه شئ عليهم . والسيدات هنا نفوذ كلمة بليغ ولا سيما في الامور التي يشم منها رائحة الديانة . والذريعة الى امالتهن وارضائتهن لمن حاول ذلك هي ان يقول لهن «لله ما اعجب ما ارى من احوال نساء هذه البلاد المباركة وما هن عليه من حسن الاخلاق والفصائل الباهرة فان نساءنا يجهلون القراءة والكتابة ولا يعرفن ما يجب عليهن لله وللعباد فمن اجل ذلك لا يحظين عند بعولتهن فبيشة الرجل مع زوجته عندنا عيشة خصام ونقار ونقص وكمد الا ليتكن تتعطفن عليهن وتنشثن لهن مدارس لتربيتهن وتهذيبهن فتكسبن بذلك الثواب من الله والثناء من الناس» وما اشبه من الكلام الحامل لهن على الاعتقاد بافضلية انفسهن . فينظرون الى ذلك

القائل نظر الشفيق الرفيق وينزل من منزلة رسول من الله لا نقاذ نساء بلاده من ورطة الغم والجمل ويقتصدن انه متى رجع الى وطنه اذاع بين الناس محامدهن . وهو قائل في نفسه « الا ما اهوون خدعكن طلي مع وجود اصابير كتب متنوعة في خزائنكن . ان جميع ما عندكن من التحف والاسفار لا ينفعكن من دهأي شيئا فلن اللذآء ملكة غريزية في الانسان لا تؤخذ عن الكتب » . وهكذا يتوهن باسمه ويصبح عندهن معززا مكرها تدعوه واحدة للصنوح واخرى للغبوق . وكذلك لو التقى مثل الحديث على احد من اهل الكنيسة فان بين القسيس والمرأة لا يعدم الانسان هتا ان ينفذ مخاديعه واذا اجتمعا له كان ذلك من سعده . واذا كان في خلل اطرائمه هذا يشهد ويرفر وتغرغريناه بالدموع كان النجج والبع . ثم ما عليه بعد ذلك ان يهقه او يخبش فان للضحك وقتا وللكاء وقتا . وهذا التدجيل لا يغني عند الفرنسيين نقيرا .

مطلب في الكبر

هذا واني سمعت من كل سن عاشرتيه وقد عاشر الانكليز ان يصفهم بالكبر والعجرفة ولكن قبل اثبات هك الدعوة ينبغي ان تعلم ان الكبر على انواع : الاول ان يكون ظاهر سحنة الانسان منفرا عنه ناظرة لعدم طلاقة وجهه فيظن الناظر اليه انه لا يتكلف لمخاطبة . ومنها عدم قبوله النصيح والافئآت برأيه وقوله . ومنها ان يكون طلق المحيا لين الجانب يرغب في مجالسة الناس ولكن لول ما يسط بساط الحديث بينك وبينه يقطع يعدد عليك فضائله وقواصله وجآثره ومناقبه فاذا كان حثريا قال « اني انفق في الشهر كذا - واتصدق على الفقراء بكذا - وكنت بالامس مارا في طريق كذا فسألني فقير شيئا وحيث لم يكن معي فلوس بذلت له دينارا - واني لا يبلى عندي شيء مما البسه فاني اخلعه على هذا وذلك - وان عندي من المتاع كذا - وكل يوم اكل كذا واصيف اناسا واقرهم الطرف التي يعز وجودها في هك البلاد فان لي عمالا في البلاد الخارجية يعثونها الي في كل عام » . وان كان جيلا قال « ان فلانة هامت في هواي وترك اهلها حبا

بي وَاَلتَ لِصَبْحَتِي اَوْ تَمُوتُ - وَاِنْ زَوْجَتِي فَلَا اُهْدِي اِلَيْكَ مِنْ التَّحْفِ
كَذَا وَاَرْسَلْتُ اِلَيْكَ مِنَ الرِّسَالِ وَالرِّسَالِ كَذَا - وَاِنْ ابْنَتِي فَلَا اُهْدِي اِلَيْكَ
اَنْ اُخْطِئَ بِهَا وَهِيَ تَمْلِكُ كَذَا وَلَمْ اُجِبْهَا وَلَا اَدْرِي كَيْفَ يَنْتَهِي الْحَالُ بِهَا وَاِنِّي
مَشْفُوقٌ مِنْ اَنْ يَلْمَ بِهَا عَارِضٌ مِنَ الْجَنُونِ هَاكُونِ اَنَا سَبَبُ ذَلِكَ » وَهُوَ مَعَ
كُلِّ هَذَا لَا فِجَاسَ وَالْجَزَافَ بِكَذَا مَقْبَلٌ عَلَيْكَ وَيَزِيدُكَ اِدْنَاءً مِنْ جَنَابِهِ
لِكَيْ لَا يَفُوتَكَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْفَوَائِدِ الَّتِي يَلْقِيهَا عَلَيْكَ . وَاِذَا كَانَ قَدْ قَرَأَ بَعْضَ
اَشْعَارٍ وَسَمِعَ مِنْ اَهْلِ الْعِلْمِ مِثْلًا اَنْ الشَّعْرَ مُنْقَبَةً سَنِيَةً تُصَدَّى اِلَى نَظْمٍ اَي
كَلَامٍ كَانَ . فَاِذَا رَأَى طَائِرًا فِي الْجَوِّ نَظَّمَ فِيهِ قَصِيدَةً وَاِذَا تَوَفَّى اَحَدٌ فِي بَلَدٍ
قَالَ « قَدْ غَاصَ بِحُورِ الْكَرَمِ وَدَكَتْ اَرْكَانُ الْعَالِي وَذُوبَتْ اَزْهَارُ الْفَضَائِلِ وَافَلَ
نَجْمُ الْهُدَى وَخَسَفَ بَدْرُ الْحَمْدِ وَكُتِفَتْ شَمْسُ الْفَضْلِ » ثُمَّ لَا يَزَالُ يَطْلُعُ
فِي عَجَلَةِ النَّبِيِّ الْيَاسِ حَتَّى يَصِلَ اِلَى الْفَلَكَ لَا تَأْخِرُ وَيَعْدُدُّ جَمِيعَ مَا هُنَاكَ
مِنْ النُّجُومِ وَيَنْتَرِعُ مِنْهَا كَفَتَا لِمُوتِهِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا حَتَّى يَقَالَ عَنْهُ اَنْهُ شَاعِرٌ .
وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا حَفِظَ نَادِرَةً اَوْ حِكَايَةً اَوْ مَسَآلَةً تَرَاهُ يَتَشَدَّقُ بِهَا فِي كُلِّ مَقَامٍ
وَيَصْغُطُهَا بَيْنَ كُلِّ مُورِدٍ وَمُصَدِّرٍ حَتَّى يَقَالَ عَنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا
اطْلَعَهُ عَلَى غَلْطِهِ اَوْ مَا اَلَيْكَ بِرَأْسِهِ وَقَالَ « قَدْ فَهِمْتُ قَدْ فَهِمْتُ » فَتَقُولُ لَهُ
« كَيْفَ تَكْتُبُ الْمُرَّةَ الْاَلَيْتِي » فَيَقُولُ « لَا اَكْتُبُ غَلْطًا » فَتَقُولُ « وَلَكِنْ بَيْنَ لِي
كَيْفَ تَكْتُبُهُ » فَيَقُولُ « اَكْتُبْ مَا يَكُونُ صَحِيحًا » فَتَقُولُ « اَبْلَغِيهِ » فَيَقُولُ
« حِينَ اَكْتُبُ اعْرِفْ مَا يَقَالُ » وَلَا يَزَالُ يَحَاوِلُكَ بِمِثْلِ هَذَا اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا
حَتَّى تَعْمَلَ مِنْهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَزُورُكَ وَارِثًا مَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْمَكَانَ يَأْخُذُ فِي اَنْ
يَشْكُرَكَ مِنْ كَثْرَةِ مَعَارِفِهِ وَيَتَأَفَّفُ مِنْ كَثْرَةِ مَا يَدْعِي اِلَى وَلَا تَهْمُ وَمَرَاقِبُهُمْ
وَيَتَسَخَّطُ عَلَى الْوَلَايَةِ وَالْمَوْلِيَّةِ مَعَ اَنْهُ لَمْ يَحْضُرْ عَلَى مَعْرِفَةِ « هَوْلِ الْمَعَارِفِ إِلَّا
بَعْدَ اسْتِعْمَالِ وَسَائِلَ لَا تَحْصِي وَهُوَ يَقُولُ فِي قَلْبِهِ « اِدَامَ اللَّهُ هَذِهِ الْمَادَدِ
وَالْعِلْمِ شَانَ الْاَدْنَى فَاِنِّي اِذْهَبُ اِلَيْهِمْ وَاَنْتَ اَنْتَ مِنْ اَطْلَابِ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ
وَاَمْخَرَقِي عَلَيْهِمْ فَتَارَةً يَصْحَكُونَ مِنْ خُزَعِلَاتِي وَتَارَةً يَجْذُبُونَنِي فَارْجِعْ اِلَى
بَيْتِي خَالِي الْيَالِ مُتَلَابِي لَامَعَاءَ » . وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ لَهُ قَفْصٌ خِذَامٌ فَيَدْعُوهُ
اِلَى اَنْ يَجُورَ بِهِ وَيَلْبَسُهُ نَعْلَهُ بِحَضْرَةِ النَّاسِ وَاَنْ يَجْعَلَ قَلْبَهُ وَدَوَانِهِ وَجِبَتَهُ

وصاه ويمشي ورآة كانما هو جار يحمل وذلك حتى يقول الناس ان السيد ذو خدم وحشم . ومنهم من يتواضع لمجلسه وسامعه بان يقول « لا تاخذني يا سيدي بما تسمع مني من اللحن فاني لم اخذ العلم عن احد قط ولم يطاوعني الوقت على ان اتعلم اللغة كما يجب وانما عرفت ما عرفت بالدربة والممارسة » وهو عند ذلك ينتظر من سامعه ان يقول له « هاش لك ان تالحن في شيء وانت العلم المشار اليه بالعلم والبيان وتالله انه لم يطرق مساعي شيء ابلغ من كلامك فانت قس الفصاحة وسبحان البلاغة وانت الذي تروى عنه نوابغ الكلم وتوخذ عنه جوامع الحكم فيا ليت لنا في بلادنا نفرا ياخذون عنك هك البدائع كيلا يصيب العلم من بيننا فادام الله وجودك ومتعنا ببقائك آمين » . ومنهم من يقول « ان عاني يا جماعة الخير ان لا ارى علي لاحد ديناً او لوما او منة ولو بت وعلي لاحد دينار واحد لم تاخذني سنة ولا نوم وقد حاولت ان اغير طبعي هذا بطبع من طباع الناس فلم اقدر » وهو مع ذلك يترقب جماعة الخير ان تقول له « نعم هذا الطبع - لك سجاياك ما اكرمها وخلاتك ما اعظمها فيا ليت الناس جميعا يقتدون بك » . ومنهم من اذا كتبت اليه كتابا تساله عن شيء من عليك يجوابه اذ يراك غير اهل له . ومنهم من اذا راك قد فتحت فاك للحديث معه او مع جلس آخر ابتدر الى قطع حديثك المفيد بان يحكي عن نفسه او عن اهله وخادمه حكاية سخيفة . ومنهم من يماريك في الحق الصريح ولا يذعن لبرهانك وان كان يعلم انه دونك في المجدال وآخر الكلام بينك وبينه هو ان يقول لك « هكذا كان رأيي وهذا هو قصدي » فيوهلك بذلك انك انت كنت من الزائفين . ومنهم من يجادلك فيما لا يورثه فخرا ولا يكسبه ذكرا ولكن لمجرد اظهاره اياك غالطا فاذا سالك مثلا « كيف انت » وقلت له « بخير وعافية » قال لك « ما اراك تدري ما العافية فاني لا ارى اثرها عليك » فتقول له « كيف وانني والحمد لله متمل بصحتي ويمررتني ما اكل واشرب ويهتني منامي وجلوسى » فيقول « ما هذا معنى العافية عند المحققين وانما هي ان تمشي منتصبا غير لاوعلى شيء تراه عن يمينك وشمالك موازنا لخطواتك شامخا

بانفك ، الى آخره - ولو جنته بجالينوس والفيروزابادي ليطلعاه على حد
العافية وتعريفها لم يقنع منك . ومنهم من اذا غاب يوما عن وطنه قال لمن
يجعل نسبه : ان ابي كان رئيس المنشئين في الديوان وعمي كان وزير
الامير وخالي سميرة وانني انما قدمت بلدكم للتزهر والفرح . وما اشبه ذلك .
ومنهم من اذا لم يجد مجالا في نفسه للمدح والمباهاة افتخر بابيه او جده
او عمه او بدارة او ببلدته . وقد سمعت مرة واحدا من هك الزمرة يقول
« قد جرحت اصبعي بالامس فخرج منها دم فان اعجب جميع الحاضرين » .
ومنهم من يروعك بخطته الشديدة فتظن ان المكان تزلزل منها او بتجشته
الذي تسمع له صدى . ومنهم من اذا حييته في الصباح شجر وزجر وقتل
شاربيه وزفر . وقس على ذلك من يزكي حرفته ويتفخر بصنعه الى ما لا
نهاية له *

فماذا قد تقرر ذلك فاعلم ان كبرياء عليته لانكليز انما هي
من النوع الاول وهو انك تنظر فيهم لانفة وكنوح الوجه ولكن متى خاطبت
منهم احدا تبين لك انه لا فخور ولا فياش . ومن كان دخله منهم في
العام مليون ايرة يومك انه مثلك اذا كنت مثلي ذاهم في معيشتك ونصب .
ومن يكن عنك الفا كتاب فاذا قلت له مثلا ما اكثر كتبك قال لك « لعلني
مسرف في شرائها وما كان ينبغي لي هذا » مع انه لو قال لك « اني قادر
على شراء ضعفيها » لكان من الصادقين . ومن كان منهم يحكي البدر جالا
كقول شعرائنا لن يتبس بكلمة تدل على انه فتن امرأة بحسنه . ومن يكن
مضطلعا بالعلوم والفنون فاذا سألته عن شيء لم يجبك الا بعد الشروي
ولا ينسب اليه حل المشاكل واستخراج المجهول . واذا سألته عن شخص
يدي العلم ويولف ما لا يرضى به العلماء قال « لعله يستعجل فيما افه ولم
تمكنه مراجعته وقد يكون مع المستعجل الزلل » ولا يعيا عن ان يجد له عذرا
يستر به عيبه . ومن يكن في اعلى المراتب لم يستكنف ان يجيب من
يسالنه ايا كان . فقد تبين لك ان كبر لانكليز انما هو في وجوههم اكثر منه
في الستهم وقلوبهم وان رسم الناس اياهم بالعجرفة مطلقا ليس في حله . الا

أثني لا أنشي عنهم لأنصاف بعزة النفس وترفعها عن أن تذلل لأحد وهي
من الخلائق المحمودة . فاما كبر السفلة فهو ابتداء العبوس أيضا مضافا اليه
عدم التاديب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقاء
والمصرف وهلم جرا . ثم انه كما شهر عن الانكليز الكبير كذلك شهر عنهم
الصدق ولكن ينبغي ان تعلم ايضا ان الكذب على انواع احدها نبي مائع
وهو الذي اتصف به اهل البلاد المشرقية - كان يعد الانسان بالحضور في
البهاعة الفلاطية ثم يخلف - او يعدك بقضاء حاجة وفي قلبه ان لا يقضيها
- او ان يسافر الى اسلامبول ويقول ان مولف كتاب الساقى على الساق قد
صفط بين عاجلين فمات - او ان تكون قد ارسلت له كتابا فينكر وصوله
- او ان يقول لك « قد اطريت عليك البارحة عند فلان فهو يبلغك السلام
ويدعوك الى منزله » حتى اذا سرت اليه وجدت الامر بالعكس - او ان
يقول « نويت السفر غدا الى المشرق » ثم يسافر الى المغرب وغير ذلك مما
لا يجدي نفعا ولا يوصل فائدة . والثاني كذب مطبوع جامد وهو ما تستعمله
الافرنج وخصوصا تجارهم فيكتبون مثلا على بضائعهم انها من انفس الاشياء
وانها صنعت باختراع آلات جديدة احدثت عن طول تحرر في علم الهندسة
- وان لحمه هذا الثوب من الهند وسداه من الصين - او انه سلطاني او
ملكي او اميري او مولوي او وزيرى ونحو ذلك . فهذا الشعار لا تانف
لانكليز ان تتردى به لجر منفعة به اليهم وهو المراد عندهم من التمدن . ومتى
علما ان جيلا امهر منهم في شئ نسبوا اليه ذلك الشئ الذي يصنعونه هم
ويريدون بيعه . والثالث كذب متبل محرق وهو التغرير والتميمة والافساد
بين محبين او خليلين لوما وحسدا وهو يكاد ان يكون من خصوصيات
الشرقيين . ثم ان الغني وان يكن مثله ان يجتذب اليه قلوب الناس في
جميع الامصار والاعصار وان التجل باللباس يورث المرء هبة وجلالا حينما
كان - وعلى ذلك قول بعضهم « لقد اجتهدت في ان انظر الى الغني بالعين
التي انظر بها الى الفقير فلم اقدر » - او كما قال العلامة كولدسميث ان
الغني مرادف الحرية في كل مكان - إلا ان الغني عند الانكليز شعار على

المجدارة والاستحقاق لكل شيء . فالغني عندهم يمكن له ان يرفع دعواه الى مجلس المشورة ويطلق امراته لعلته الرئاء حقيقة او ادعاءً والفقير لا يمكنه . وله ايضا جدارة بان يكون ضابط البلد - ومن اعضاء مجلس المشورة المؤلف من نواب الاقاليم - وان يشتري وظيفة من الديوان في العساكر البرية فيكون قائد مائة او الف او عشرة آلاف - وان يدخل في المتدييات اي الاكليس (٥٩) وهناك يجتمع بالعظماء وذوي الشرف - فاذا راوه على تلك الحالة لم يلبثوا ان يدعوه الى منازلهم - فان كان عزبا خطب اليهم احدى بناتهم او اخواتهم او كان متزوجا زوج ولك منهم او من بناتهم - فاستقطن باننيق ديمارة دمهم الشريف في دن نسبه - ويا لها من غبطة - وله ان يتوصل الى نجي صاحب الملك بالهدايا والطرف فيستنزل له وعلا جلاء شريف من شرفه ولو كان يهوديا - وله استطاعة على ان يستعمل امهر فقهاء الشريعة في تبرئته ان كان مهيبا او مدعى عليه او استخلاص حقه ان كان مدعىا فيصيرون له النور طلاما والظلام نورا - وان يستخدم كتاب الحوادث فيشيدون بذكره وينوهون بمناقبه - وان يستخدم احذق الاطباء لحفظ صحته العزيرة - وان يحضر طعامه وشرابه من جميع البلدان القاصية انهاء في بدنه وتصفية لذهنه - وان يصنع اولاده في احسن المدارس الى غير ذلك من المنافع التي لا يستفيدها الغني في بلادنا . ومن ليس له غنى في هذه البلاد فلا يحسب نفسه من الناس . هذا وقد جرت العادة في كل مكان بان السعيد الغني لا يزال يبدوا للناس فتى فاذا مات وهو ابن خمسين سنة مثلا اسفوا عليه وقالوا « واخسارناه فقد مات صطبة ولعل بعض حساده قد سمع » وكذا لو تزوج في ذلك السن او سافر استحسنوا فعله ولو انه لحقه كان يصيف في مشى ويشتو في مصيف مدة طويلة ثم جعل المصيف مشى والمشتى مصيفا لقال الناس « ان راي هذا السعيد ما زال رشيدا فان الزمان قد انقلب والحال حال » فكل شيء يليق به . بخلاف الفقير الشقي فانه اذا مات وهو كهمل قالوا « لا بد لمثله ان يموت » واذا سافر لو تزوج عرض نفسه لاستهزاء الناظر والسامع به . ثم ان ما قلته في منافع الغني هنا

لا ينبغي منافع العلم على الإطلاق فان من برع عندهم في علم وان كان ضيع
النسب فلا يعدم ان يرى من يرفع من خوله ويستفيد بعلمه . غير ان
العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف او بنظم قصائد وانما
هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة ادبيتهما ومعرفة التاريخ والفلسفة
والهندسة والرياضيات . فمن حصل ذلك فقد قبض على مفتاح الرزق ومن
اخترع شيئا مفيدا فقد استغنى به وذلك اما ان يبيعه لاحد من الاغنياء
ليجعل وافر واما ان يستبد بصنعه . فلذلك كان العلم في اوربا دائما مورد
الاستباط والابتكار . بل كثير منهم يحوزون به لقب الشرف ومن عادة
الشرفاء والنبل ان لا يورثوا جلاهم واملاكهم الا لابن البكر فان شاء اعطى
اخوته وان شاء حرهم . ففي هذه الحالة يلتزم الاهلون بان يقوموا بكفائتهم
واذا كان البكر مسرفا فبذر اموال ابيه اشترى له اصحابه او اهل البلاد ولاخوته
وظائف من العيلة او تبعهم الدولة الى البلاد الخارجية (٦٠) . والمحكمة في
توريث البكر دون غيره هو ابقاء الجلاء في العيلة وصون ناموس البيت .
واذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب والوراثة . هذا اذا كان التراث مقارا
فاما اذا كان حصص مضاربة مثلا او اشياء متنقلة قسم بين الاخوة . ومما
يحمد من الشرفاء ومن ذوي المراتب السامية هنا انهم لا يتدخلون في
التجارة ، ومن منكر عاداتهم انه اذا دخل احد على جماعة من هؤلاء العلية
ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الا عليه ما لم يعرفهم صاحب
ويقول له في شأن كل منهم هذا فلان . الا ان هذا التعريف لا يلبث ان
يصير تنكيرا فان من تعرفه في المجلس لا يلتفت اليك اذا رايتك في الغد
في محل آخر . فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم احدا فلا يحيي
مطلقا . بخلاف عادة الفرنسيات فان من يدخل على جماعة ايا كانت
يضع يده على راسه او ينزع برنيطته احتراما لهم . وكذلك اذا خرج وان
لم يكن يعرفهم . ومن تعرف عند الانكليز باحد افراد العائلة مثلا وتردد عليه
فان لم يعرفه بابيه وامه واخوته فلا يسلم عليهم اذا رآهم داخلين فلا يلام على
تركهم ولا يحمد على فعله . واذا استخدم احد جاريتة ولقي ابناها وامها لم

يسلما عليه . وقد تقدم ان الغني يمكن له ان يطلق امراته برفع دعواه الى مجلس المشورة فان الطلاق من الامور الصعبة هنا ولا يمكن رفع دعوى مثل هك إلا ببصاري فافرة لا تنقص عن اربعائة ليرة . إلا انه بعد تحرير هذا الكتاب ايسح الطلاق للعامة من دون مصاري فان مجلس المشورة راي ذلك اصلح للريفة وهو الراي الاسد * وبقي هنا ان نقول ان روية الزوج زوجته مع رجل اجنبي في حجرتها تكشف عندهم في اكثر الاحوال لاثبات الزنا من دون « روية الميل في المكحلة واربعة شهود عدول » كما يقتضيه شرع المسلمين . وهذا من هذا الوجه شديد فان الطلاق لما كان في الشريعة المحمدية مباحا ضيق على الرجل في اثبات الزنا على زوجته وحيث كان محظورا في شرع النصارى إلا لاجل الزنا فسمح للرجل في اثبات الزنا عليها بمجرد خلوتها مع الرجل . ومن الغريب هنا انه قد جرت العادة عند العامة بان يبيعوا نساءهم تبعا لعدم امكن طلاقهن وصوته انه اذا شتر الرجل بان زوجته تحب آخر عرض عليها الانتقال اليه . فاذا تراضيا اخذها وباعها لعاشقها بحضور شهود وقبض منه ما يؤذن بصحة البيع وتخلص بعد ذلك من تبعها . وفي اخبار العالم ما نصه : « رجل باع زوجته في حانته لرجل بخمسة شلينات ونصف وقبض الثمن بحضور شهود وذهب بها المشتري فلما كان الغد ندم زوجها على ما فعل واستقال في البيع فلم يقل (في ١١ ث ٢ سنة ١٨٤٩ عدد ٣٢٠ صفحة ٢ جدول ٥ تحت اسم يورك شير) * وذكر ايضا فيه « ان توماس داي تزوج امرأة في سنة ١٨٤٩ فاساء عشرتها فتركه وعلقت برجل من سكوتلاندة اسم زوبرنسن ففاوض زوجها على ان يشتريها منه فاجتمعا ذات يوم في حانته وباعها له الزوج بحضور شهود بنصف « بنت » من الجن (٦١) تقاسومة جميعا » * وفيه ايضا « ان توماس ميدلpton باع زوجته ماري ميدلpton لفيليب روستنسن بشلين وربع من الجعة وتراضيا على الافتراق الدائم ما دامتا حيين شهد بذلك س : ه : س : طون - في ورشستر » . وهك العادة وان تكن غير مباحة في احكام الدولة إلا انه ممكوت عنها كما سكت عن اباحة الزنا للموسسات فان الزنا

هنا معلوم لارباب الاحكام لكنه غير مباح . وكثيرا ما يقوم السم مقام هذا
البيع فان التخلص من الازواج به اكثر منه بالطلاق او البيع . ومن
عادتهم في الزواج ان البعت لا تتزوج الا سن كان مساويا لها في السن او
كان اكبر منها بستين او ثلاث وفي ذلك شطط اذ لا يخفى ان المرأة متى
بلغت الاربعين سنة لم يبق فيها من القوة والنشاط ما يبقى في الرجل
ولاسيما اذا كانت متافا (٦٢) فهم ان النساء هنا لا يعجل فيهن الهرم فان
من يكون منها ثلاثين سنة تبدو كمن سنها عشرون في بلادنا غير ان هذه
الصفة ترمى في جهة الرجال ايضا . وفي بلادنا لا تشرب على سن بلغ
الاربعين ان يتزوج بنت عشرين . وهذا يندر هنا جدا الا لسبب عظيم .
وذلك كان يكون الرجل اشرف من المرأة واغنى فترغب فيه لتشاركه في
شرفه وغناه اذ كانت هاتان الصفتان عند الانكليز افضل من جميع المناقب
ولاسيما اذا روي في ذلك مصلحة تربية الاولاد . وفي هذه الحالة فلا مانع
ايضا من ان يكون الزوج شيخا فحلا لعلها ان حرارتها لا تلبث ان تذهب
مبرودته فتستولى على الميراث . واذا خطب احد امرأة ثم بدا له ان يعدل
عن الزواج لغير موجب شرعي غرم لها مبلغا عظيما . ولا حرج على اليهود ان
يتزوجوا من النصارى . وللاب ان يجبر ابنته على الزواج بسن شاء اذا لم
تبلغ حد الرشد وهو عندهم احدى وعشرون سنة ويعك ليس له عليها من
امرة الا بالمعروف والنصيحة . ولكن كثيرا ما تهرب البنت من تحت
حجابها وتتزوج سن شاعرت وان خرمها من الميراث . واذا خرجت من
حجرة بعد بلوغ وشدها لم يبق لوالديها استطاعة على ردها . ووصية الموصي
قبل بلوغ ذلك السن لا يعمل بها . ولذا ان يعقد الزواج عند بلوغ اربع
عشرة سنة وللبنت عند اثني عشرة . وما دام الولد دون سن الرشد فعلى
الوالد ان يقوم بتفقتهم وبعد ذلك لا يلتزم بها وسن الرشد عندهم احدى
وعشرون سنة . وعندى ان اصل ذلك هو ان عدد السبعة عند جميع الاجيال
والامم كان يعتبر عددا تاما وعلى ذلك عدت الايام سبعة وكذا السماوات
والارضون والكواكب السيارة واقاليم الارض والبحار والانعام وسعدت الثلاثة

ايضا كان مانوسا به ولعل اصله من تثليث الزوايا في الشكل البسيط ومن تثليث لاقانيم عند النصارى . فاذا ضربت الثلاثة في السبعة حصل احد وعشرون هذا ما خطر بالبال . واذا تزوج الولد قبل هذا السن فلا يبيح ان يحرمه من ميراثه . ومتى تزوجت المرأة انتقل جميع ملكها الى حوز بعلمها ولكن لها ان تستدين على اسمها ويجبر هو على وفاء دينها . ولا يحل للرجل ان يتزوج اخت زوجته . وقد كان لرجل زوجة وله منها عدة اولاد فلما حضرها الموت اقسمت على زوجها ان يتزوج اختها بعد موتها لتربي اولادها فتزوجها فلما علم ذلك في ديوان الحكم فرق بينهما . فصالت سن اخبرني بذلك عن سبب هذا الحظر لانه غير مبني على مصلحة وقلت « ان كان تحريمه ورد في التوراة فقد ورد فيها تحريم امور كثيرة استحلتها النصارى فلاي سبب اضربتم عن تلك وتمسكنم بهذه فقط - فقال : « المصاحبة في ذلك هو ان لا يتوصل رجل واحد الى احراز جهازين من بيت واحد » فقلت . ولكن الفقراء يتزوجون من غير جهاز ولا ميراث . فقال : « ان الشرع هنا ماحوط فيه مصلحة الكبراء » . ولا بد من ان تشهر الخطبة في الكنيسة ثلث مرات متوالية في ايام الاحاد واذا مست الحاجة الى الزواج بدون اعلانها غرم الرجل ضعفي النفقة وهي في الغالب خس ليرات (١٣) . اما في سكونتلاندة فان الزواج يتوقف على شاهدين فقط . فلذلك كان كثير من الانكليز يذهبون الى هناك ليتزوجوا ثم يرجعوا . ويقال ان مجلس المشورة بهم بان يعين اقامة احد وعشرين يوما هناك قبل الزواج تقريبا من استعمالها . ومن تزوج امرأة زوجها هي غرم ونكل . والمرأة المتزوجة عند الانكليز احترام اكثر من غيرها وان تكن اصغر سنا من غير المتزوجة . فاذا خرج من مجلس الى موضع لاكل مشيت المتزوجة قبل تلك واجلست في احسن موضع . ولا بد للمتزوجة ان تلبس خاتم الزواج في بنصر يدها اليسرى . ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وان كان لها خسة بعول « ومن الغريب انه عند عقد الزواج يلقي القسيس الرجل ان يقول للمرأة حين يضع الخاتم في اصبعها . « بهذا الخاتم اتزوجك وبجسمي اخدمك » ولا معنى للباء في قوله

« بهذا » لان الخاتم ليس آلة للزواج . ولفظة « اخدمك » لا يفهمها احد من العامة بهذا المعنى . وعند تناول طعام العرس تلبس العروس ثيابا بيضا . وتتلفف النساء على المائدة وعليهن برانيطون (٦٤) . وعادة الاغنياء منهم ان يمتثل الرجل هزوزا بعد عقد الزواج فيقيم معها شهرا في خلوة عن المصنع والاهل والاصحاب وتسمى هذه المدة عندهم « قمر العسل » . ولا يكاد المصري يتزوج الا متزوجة عذراء . واذا تزوج الرجل امرأة ووصفت عندك بعد شهر الزم بجسمي الولد وتربيته وان يكن من غيره . وكذلك لو علم انه عاقش مثلا مع موصية وولدت ولدا . وتكن ثبت عليه انه اقض بكرة فولدت منه لغيره على ان يودي فيها في كل اسبوع شلطين ونصفا في الاقل الى ان يبلغ الولد تسع سنين . اما الاغنياء فقسرا فيعاقب عليه بالتفريب والنهي . وكان يعاقب عليه في عهد ولیم الاول بسجل العينين وفي عهد المصكرونيين بالموت . ومن العجيب ان الوالدين من الانكليز اذا كانوا قبيحين ثاني اولادهم حبلاها فادام هذا الاسماع بحبته فلا يرى فيهم بعد من قبيح . والظاهر انهم احسن تربيته للاولاد من غيرهم فانهم يغسلونهم بالماء البارد في كل يوم اذا كانوا اقوياء او بالقاتر اذا كانوا ضعفاء ولا يقططونهم حتى يستعروا من الحركة كما يفعل في بلادنا وايضا يحدونهم بحزام فقط وبعد نصف سنة يعودونهم على الاكل الخفيف مع اللبن فلا تاتي سنة على الطفل الا وهو يلقم كل شيء . ولا يكاد طفل يحدث في غيابه او يفهم من البكاء كما يكون عندنا لغير اني كثيرا ما رايت الامهات هنسا يستقين اطفالهن المزر او خروبا غير لينتهم ويطعمهم الفاكهة والدم ويدخلن بهم في الزحام واماكن الضجاء والكلام . وما يجدن تربيتهن انهن يكلمنهم بالكلام المتعارف من دون لغة ولا كسر ولا كما تفعل نسائنا . بل ربما حكين لهم حكايات وهم لا يفقهون ويخطبونهم بها يخطبون به من يفهم ويلقنهم اشياء كثيرة تعودهم على الفهم من صغر . والذي ظهر لي ان اطفال الانكليز اذكى وازكى من اطفالنا وبعكس ذلك المراهقون . وفي الحقيقة فان الام في بلادنا لا تربي الا ولدها البكر والباقيون تربيتهم اخوتهم الاكبر فالاصغر .

وفي الجملة فان نساء الانكليز مناتيقي جدا . واتفق ان امرأة ولدت اثني
خمس توائم وثمانية فذوذ . قال في ابجديته الكروقات « قد يحدث غير مروت
ان امرأة تلد اربعة اولاد بطنا واحدا فلما ولادة خمسة فلم يحدث الا مرتين
احدهما في اوستراليا سنة ١٧٧٣ والثانية في لندن سنة ١٨٠٠ . قال « وفي
سنة ١٧٠٠ جعل شبه ضريبة على ولادة الاولاد فكان على الدول اداء ثلثين ليرة
وعلى احد العامة اداء ثلثين » اهـ . ويعجبي لطف الاولاد هنا ولا سيما حين
تصكون ثيابهم قصيرة وسيفانهم طاهرة في اوان البرد . وعلايتهم في الجبازة ان
يقوا الميت اسبوعا في الميت قبل دفنه سوعند اخراج جنازته يشيخها رجال
يلبسون على رؤسهم مناديل سوداء معقودة فوق برانيطهم (٦٥) . ولكل ميت حداد
معلوم ولكل دفنة سعر ولكن لا يخمشون عليه وجهها ولا يشعشعون شعرها . واذا
اقيمت الجبازة في محل عند المقبرة ليلة واحدة ادى عليها خمسة ثلثين زيادة
على الرسم المعتاد . فقلت لمن طلب مني ذلك ان الحي مرقند على اغراض
وتبر ليلة ويوسخه ولا يودي اكثر من ثلثين واحد فكيف تطلب على
طفل في ثلثين خمسة . فقال « ان بين الحي والميت فرقا » . اما الكبراء
فانهم يقولون جنازتهم اكثر من اسبوعين اسطرة الى انه غير جدير براح
يفارق هذه الدنيا . ومن الغريب انه اذا مات احد منهم غويلا فلا بد من
ان يعيدوه الى وطنه ليدفن فيه . فيا ليت شعري ما نفع الميت لبلاده او
ما نفع بلاده له . ولا يقف ميت الا بشهادة الطبيب الذي عاجله او اجهز
عليه وذلك لكثرة ما يقع عندهم من القتل بالسم . والمواقع ان الفرنسية
تكثر احترام الجنازات من الانكليز فانهم يشعشعون يراها اما كانت وهم
خلعون حاسر الروس وحين تكون في الميت يوقدون حولها الشموع ليلا
ويجعلون لها حارسا (٦٦) . ومن عادتهم في العيادة ان يستصلوا داء المريض
لاجله ايا كان ويلقوا في قلوبهم الرعب بقولهم مثيلا « ان فلانماضي بهذا
الداء منذ ايام فبات داءه معضل ولا سيما في هذه الايام » فكنت
كثيرا ما اذكر ما يحكي عن ذلك الرجل وقد مرض فعاده بعض اصحابه
وقال له « ما تشكي » قال « وجع الركبة » قال « انها والله كانت علة ابي

فمات منها . وإذا أصيب أحد بما يخاف منه العدو فلا يعودونه أصلاً .
وقد كان لي طفل أصيب بالسعال فلما كنت اذهب الى منزل دكتور لي على
عادتي كانت زوجته تتجنب مواجعتي . فسأني ذلك أولاً حيث لم يكن
يخطر ببالي ان السعال يحمل من المبتلي وينقل الى صدور الجيران فلما
علمت عنوم ذلك هان علي مع ان الذكورية المذكورة كانت على غاية من
التدين والورع . والظاهر ان جميع الافرنج يجزعون عند المصيبة ولا يفوضون
امرهم الى الله وان تلبسوا بالعبادة واتصفوا بالجرأة على انهم لا يكادون يفجعون
بموت احد إلا ويتناسونه . فالاستسلام لقضاء الله انما هو من خصوصيات
المسلمين وكفى بلفظ الاسلام دليلاً عليه . وفي هذه القرى لا يوجد اطباء ولا
عقاقير . وانما يكون ذلك في بعض البلدان الجاورة لها حتى ان ما يوجد
هناك منهم ان هو إلا نفاية . فلو سكن احدهم في احدى المدن الجامعة لما
نال بعله رغيماً وعادتهم في المادب ان تجلس الصيوف على المائدة وتجلس
سيدة الدار في الصدر وتأخذ في ان تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة وتناول
الصحفة للخدمة فتضعها الخادمة امام الاكل . ولو حصل لك خس حصص
من تلك الشرائح لما شبع . ولا كثر من اكل الخبز عندهم مظنة الهبة .
وقد ادبت مرة عند احد اعيانهم فلما جلسنا على المائدة اخذت الفوط
وضعتها على هجري وكانت كسيرة الخبز مضمخة فيها فوقعت واننا لا ادري
واستحييت ان اطلب غيرها وهم طنوا اني تنكرت في بلادهم . فلما تحركنا
للقيام اذا بالكسيرة لاصقة بعلي فتذكرت حينئذ قصة ذلك السائل الذي
طرق باب بخيل فومى له بكسرة خبز اخذت كسرتي هناك التي اتعتها
فاخذها وتناولها ثم طرق الباب مرة اخرى فقال له صاحب الدار « قد
اعطيتك فلم لا تصرف » قال « قد اعطيتوني هذا الدواء ولم تنقولوا لي
كيف استعمله » . واذا كان على المائدة لوان من الطعام او ثلثة كان يكون
مثلاً خواء من البقر ودجاج خبزتك السيدة ايهمما تريد . فاذا تناولت من
لون سقطت شفتك من الثاني . ونذر ان تعطيك منهما كليهما . ولا يمكن
ان تعطيك شيئاً او بالخرى من شيء إلا اذا استطاعت رايتك فيه أولاً . ولا

يمكن للمدعو ان يمد يده الى زجاجة الخمر ويصه منها في قدحه بل لا بد من ان يتظر السيد او السيدة ان يعرضا عليه . وكذلك سائر الماكول والمشروب . ويحزني ان اقول اني كثيرا ما رايت صاحب المنزل يتقطع للضيوف اللحم ثم يستكثره عليهم فيضع في صحفته ما استكثره فرما امتلات من تلك القطع . وكنت ارى المدعويين معي يتكفون لاكل تكلفا ويتبافون بما لا يكاد يكفي الصبي فيبقى ثلثة ارباع الطعام كما هو . واذا برد عندهم اللحم المطبوخ فلا ينفون من اكله كذلك اسبوعا . فلهذا ترى الحضر على المائدة كثيرا بالنسبة الى مقدار الاكلين وكمية اكلهم . وقد سالت يوما المرأة التي كنت نازلا عندها فقلت لها « نشدتك الله إلا ما صدقتني هل انا من الاكاليين المفرطين » قالت « لا » قلت « قد دعيت غير مرة ورايت المدعويين معي جميعهم لم ياكلوا قدر ما اكلت انا مرتين » فقالت لي « ان المدعويين ياكلون في بيوتهم قبل ان يحضروا المائدة » فاخذني العجب من ذلك وطفقت افكر في مخالفتهم لعادتنا فان المدعويين عندنا كلما اكثروا من الاكل زاد سرور الداعي بهم لاعتقاده انهم احبوا طعامه . هذا عند الوسط من الناس فاما عند العظماء والرعماء فان الخادم يطوف على الحاضرين بأنية الشراب ويخيرهم اي نوع يشربون وربما شربوا المزر اولا ثم قليلا من الخمر حتى اذا فرغوا من الاكل قامت النساء وانفردن في مقصورة وبقيت الرجال على المائدة وحينئذ تداول كؤوس الشراب والمناقلة على النقل بغير محاشاة . وربما قضت الرجال ساعة او ساعتين على الشرب والنقل وساعة من قبلها على الطعام . وانما تنقم النساء خوف ان يتهمل احد الجلوس في الشرب فينطق بما لا يليق . ولا بد في الموائد الحافلة من وضع السمك المسلوق اولا فاما الشوربة فهي عبارة عن حسا الفلفل . وقد رايت على هذه الموائد البطاطة باتون بها في صحاف مفضضة وتحتها فوط من الكتان الرفيع فلم ادر ما المراد بهذا الاحتفال والتنطس فان الخسيس خسيس حيثما كان « والكلب كلب وان طوقته ذهباً » . واذا فرغ الاكل مما لديه ولم يرد الزيادة وضع السكين والشوكة متوازيين . واذا شرب الشاي وضع المعلقة في

الفنجان . وعند صف ادولت الشاي تقوم السيدة ايضا وتجلس في الصدر
وتسال من حضر « هل تريد ان تشرب شايًا » فيقول « نعم ان شئت » فتقول
« انشربه مع السكر » فيقول « نعم ان شئت » فتقول « وضع الحليب » فيقول
« نعم ان شئت » فتقول « وتساكن نصف هذه الكعكة » فيقول « ان شئت »
فتقول « ورابع هذه الفالوذة » فيقول « ان شئت » وكلما اكرم بلحدى هذه
المرسكيات قال « اني اشكرك » . وبالجملته فان الدعوة عندهم ضروب من
الاسرة . وقد ادبني او ادب ظربوشي احد الوجوه في كمبرج الى ان اشرب
الشاي معه فقال « هل لك في ان تشرب الشاي معنا في الحدى الليالي
ولكن بعد ثلاثة اسابيع » قلت « نعم » حتى اذا سرت اليه لم اجد على المائدة
غير الصنف المعتاد منه مع اني كنت اظن ان توقيت تلك المدة انما كان
لجلبه من بعض البلاد . واذا كانوا مجتمعين في مجلس وارادوا الخروج الى محل
المائدة اخذ الادب بذراع زوجة غيره واجلسها على الكرسي واخذ غيره بذراع
زوجة الادب . واذا بقيت واحدة بغير زبون كان ذلك داعيا للجلبها .
ومن عادة النساء على الموائد ان يكشفن عن صدورهن واكتافهن وانصاف
اعضادهن وهذه المواضع احسن ما يرى فيهن . ومن عادة العجائز ان يتزين
بما لهن من الحلي والجواهر والشعر العارية وليس ذلك من عادة البنات
قول زواجهن . فترى البنت الباهرة بجانب امها السعلة عطلا وتلك متبججة
بالقلائد والخواتم والاسورة والسلاسل الا انهن في غير الولاثم والسهريرات لا
يتطين بشيء . ومن الادب عندهن ان ياكلن واكفهن مستترات بالجلد
لا يرض (٦٧) ويبيضن ما ياكلنه مضغا خفيا فان فتح الفم للالتقام وشدة لوك
المقتم من اكبر العيوب . والذي يظهر لي ان نساء الريف بالنسبة الى
برودة قطوهم وصحة ابدانهم قليلات لا كل جدا ومع ذلك تراهن مبلا
سمنا بخلاف نساء لندرة . وكلما تاكل احداهن شيئا من دون شراب معه
او تشرب من دون اكل . وربما تعدى احدهم بغير شراب فاذا فرغ شرب
الشراب وحل . وعامة الانكليز يطبخون طعامهم بلا ملح وانما يماخونه عند
الاكل مويكسرون من الابازير متتهني الاكثار ولا سيما الفلفل والفلفل فليس

أحدهم ليضع في صحفته ملققة من كل منهما . والفلاحون ياكلون الخبز
قبل الطبخ فهم في حلة كالترك ويشربون الحليب بالملح والفلفل وبعضهم
يخط الدقيق بقليل من السكر ويأكله * وقد دعاني بعضهم الى ان اشرب
معه القهوة وكان يأكل معها فجلا ورشاد . فعرض علي فايت فتعجب من
ذلك . ومع افتقار هؤلاء الفلاحين وشدة احتياجهم الى اشياء كثيرة للدفع
مما نستغني عنه في بلادنا وكذلك كايقاد النار للاصطلاء مدة ثمانية اشهر
في السنة وكبس الجوارب والشعار من الصوف فقد القوا شرب الشاي الفة
شديدة حتى لم يعد ممكنا لهم ان يستغنوا عنه . فيقال ان مصروفهم منه في
العام يبلغ نحو ثلاثين مليون رطل ومصروف جميع الممالك يبلغ نحو اثنين
وعشرين مليونا . وقد جاب منه في العام الماضي سبعة وثمانون مليون رطل .
مطلب في الشاي

اول ما عرف هذا النبات في اوربا كان من اهل هولاندة فانهم جلبوه
من الهند وذلك في سنة ١٦١٠ . وكان استعماله اولاً في غاية الندرة فكان
يباع الرطل منه من ست ليرات الى عشر . ثم لما استقرت جمية الهندي في
تلك البلاد صاروا يجلبونه منها فرخص سعرة وكثر استعماله . وضرب المكس
عليه في اميركا حين كانت ملحقه ببلاد الانكليز كان من بعض الاسباب
التي هجعت الاهلين الى النزاع والحرب . وقد حاول الافرنج تنبيته في
بلادهم فلم يتهيا لهم . وجميع اطباء يقولون ان شرب الشاي غير نافع بل
مضر ضررا بليغا بمن في عصبهم استرخاء . ولا شئ اقر لعين صاحبة العيلة
من الانكليز من ان تشرب الشاي مع اولادها بقرب الموقد ولا سيما اذا كانت
مغللة الماء تغلي ويسمع لها نثيش والبخار صاعد من بلبتها . وهذا هو اوفر
الهناء الذي يعبرون عنه بلفظة « كمفورت » * ثم ان الانكليز عموما يفتخرون
« بالهسيتاليتي » وهي قري الضيف وبر الغريب . والحق يقال انهم في
ذلك اكرم من الفرنسيين وخصوصا اهل الرستاق دون اهل المدن الجامعة
فان همهم بتحصيل الكسب شاغل لهم عن الكرم . إلا ان مآدبهم منقصة
بكثرة التخم والتكلف الذي لا معنى له كما تقدم * وقد جرت العادة في

المآدب المحافطة ان يشربوا الشراب على ذكر مشاهيرهم وزعمائهم او كما يقولون « على صحتهم » او بالحرى يشربون صحتهم . قال فلتير الظاهر انا نشرب الشراب لاجل صحتنا لا لاجل صحة غيرنا . وكانت عادة اليونانيين والرومان ان يشربوا ويقولوا كلاما يكون داعيا لان يشرب غيرهم معهم لا ان يقولوا « انا نشرب على صحة فلان » وكانوا يشربونه في الاعياد تذكارا لاحدى الخطايا . ومن هنا جرت العادة عند الانكليز الذين يحبون تجديد كثير من عادات الرومان ان يشربوا على ذكر احدى الخواتين . ويقال لها « طوست » وقد يقع الجدال بينهم والمناقشة هل تلك السيدة جديرة بذلك او لا . ومن الامور المهمة عندهم ان يشربوا على ذكر ولي العهد الذي له حق في الملك فان ذلك دليل على كون الشاربين من حزبه . قال برون استق كورك وكان ممن يكرهون الملك وليم : « بودي لو كنت اسد جميع تلك الزجاجات التي شربت لمجد هذا الملك » . وفي سنة ١٧٠٢ كتب منشورا الى اهل ايرلندة يعلن فيه بان الشرب على ذكر الملوك معصية كبيرة ولا سيما بعد موتهم لان ذلك مناقض لامر المسيح بقوله « اشربوا هذا لذكري » . وكذلك يراين البرسيثاريان (٦٨) الف كتابا كبيرا نهى فيه عن الشرب على ذكر احد المسيحيين . وحذا على حذوة كثيرين من اهل انكلترة وفرنسا غير ان مؤلف يوحنا غزى (٦٩) في هذا الباب لا يعلو عليه مؤلف . قال « وذلك كله من العبث » . اه . قلت وكانت العادة انهم اذا شربوا على اسم امرأة طرح الشارب شيئا من ثيابه فيلتزم جميع الحاضرين ان يفعلوا فعله . فلما كان ذات يوم شرب احد الامراء على اسم محبوبته وطلب من الخلاق ان يقلع له ضرسا نخرا فاضطرت اصحابه ان يقتدوا به (٧٠) . وفي بعض صحف لاخبار حكاية عن رجل فرنساوي انه قال « قد حضرت انا ورفيقي الى الغداء ان صح ان يقال لتلك الصحاف غداء اما اولا فلانه لم يكن معه شوربة . ثم ترادفت علينا قطع من لحم البقر وقدر من لحم الضأن . ثم وضعت البطاطة امامنا على طبعها وعلى حالها وعوضا عن التوابل . وكان لكل من الجلس صحفة فيها سمن مسلي فشق علي هذه الحال التي

رايتها اول دخولي بلاد الانكليز وقلت في نفسي الا ان هؤلاء الغوم لحيون
ما يعرضون إلا اللحم . ثم جالت الافكار والخواطر في راسي وقلت ليت
شعري ما سبب تفردهم بخصال لم يشاركهم فيها غيرهم من النفخة التي
تظهر فيهم ومن عدم دريهم في الرقص وغلاظة اصواتهم في الغناء والتخاطب
وكلوح سحتهم الناعسة وعن ذلك كله كنت اقول في الجواب « انما هو
لحم بقرة - انما هو لحم ضأن » قال : ثم دعيت الى لون من الطعام نوهوا به
باسم « بست لك » وهو اسم طالما طرق مسامع اهل بلادنا . وكنت متشوقا الى
ان اعرفه فلما كشف الغطاء عنه ونظرت اليه اذا هو لحم مشرح شرائح
رقيقة ومتبل بالبصل فصرخت متعجبا لعمرى ان هو إلا الذي نسميه « بف
تك » فلما قلت هذا تضاحكت المجلس ولا سيما واحدة من الخواتين كانت
تتكلم بلغتنا ثم قالت ان اسم هذا اللون معناه « بحث آكله » تقننا في التسمية
لا في المأكول . ١٠ (٧١) . وقال آخر « ما شيء باعجب من روية ولا تم
الانكليز التي تذكر الناظر بالولاتم التي ذكرها اميروس اذ ترى قطعاً جزيلة
جدا من لحم البقر المشوي وشاة باسرها على طبق وجيتانا صحماما على مائدة
طويلة ملانة من القناني والاقداح والظروف فتجلس الضيوف وعليهم
التياب السود وهم رزان ساكتون متحملون كأنهم حول جنازة ووراء الزعيم
رجل يقال له « طوست ماستر » وهو الذي عليه ان يفتح الكلام حتى اذا
ناجاه الزعيم قال بصوت جهير « ايها الكرام اني عمدت الى طوست ولا اشك
انكم تنعمون بقبوله » فتتحرك المجلس من صمدتهم ويقومون باجمعهم
كما تحرك شيئا بالآلة ويحييون دعوته فاذا شربوا بزر ثلاث جوارى
كاشفات عن ترائبهن من وراء حجاب وياخذن في العزف بالبيانو . ولا
يزال الطوست يدور ويعاد الى ان يحل محله « (٧٢) * ومن العجيب ان
جيلا متقدما في المعارف والصنائع كالانكليز لا يعرفون ان يطبخوا اللحم
بالقول وانما يطبخون كلا منها على حدته . اما القول فانما يسلقونها سلقا
وهي عبارة عن الفت والكرنب والجزر وشيئا آخر من هذه النباتات الريحية .
وسلطان المائدة انما هو البطاطة اذ لا تشم آدابهم إلا بها . وربما اجتزأ الفلاحون

بها عن كل ما مداها حتى عن الخبز . وقد يحشون بها رقائق الخبز ويطبخونها في الفرن فتسد مسد كل شيء . واهل ايرلندة يتخذون منها خبزا . اما اللحم فاهب شيء اليهم منه الشواء . وهذا من وجه يصلح لمن الف لاسفار لان المسافر حيشا كان في الارض يجد لحما ونارا . بخلاف من سافر منا وقد الف الواناشي من الطبخ فلا يزال لهجا بهذا وذلك فيتنفس عيشه وعلى ذلك قولي :

كنايني انا والليل صنوان فـرقا * سوى انشي ضرب وذلك بادن
فان له نابا يحسن لاجلـه * واني لسني كل حين لحائن
الا ان اللوم موجه على المستوطنين واصحاب المطاعم والفنادق الذين يجلبون من انواع الطبخ ما يعرفه افقر الناس في البلاد الشرقية حتى انهم لا يعرفون ان يقلوا البيض بالسمن ولا يطبخون العدس ولا الحمص ولا الفول ولا غير ذلك من القطاني الا الرز فانهم يسلقونه سلقا ثم يصبون عليه الحليب . واكثرهم يتقزز من الزيت ولا يدري ما طعمه على انهم ياكلون الدم مخلوطا بالشحم ويتخذون منه ايضا نوعا من النصيد * ومن العجيب انهم لا يعافون من اكل اللحم المتسن وغيره فان الارنب والفزال لا ياكلونهما الا بعد خنقهما بنحو ثلاثين يوما . وقد دعيت غير مرة الى موائد الموسرين وشملت فيها جحش الارنب . وعلى ذلك قولي من قصيدة

وياتون بالارنب المبطر صحيحا كما كان يطمر طمرا
بازنابه وباسنانه وباطفاره وهو ينفخ ثغـرا
وقي وجهه كل الضيوف له * ذنب شائل فوق دبر تعرى
ووالله بالله تناله انـسي * شملت له جحرا ليس حزرا
وكذلك الفراخ والطيور لا يطبخونها الا بعد خنقها بايام ويقولون انها اذا بقيت اياما كثيرة بعد خنقها يزيد لحمها مراة وطيبا . والدليل على ذلك ان لاكل منها يكفيه قليل بخلاف ما لو اكلت وهي طريئة . والحق يقال ان لحم البقر عندهم لا يؤكل الا بعد ذبحه يوم او يومين وذلك لكثرة دمه . ولا جرج على بيع المتسن من اللحم والسك والفح من الاثمار والفاسد من كل

شيء وهندهم صنف من الجبن يستطيعونه على غيره لكونه مدودا . وكنت
ذكرت يوما لاحد فضلائهم قضية الكلب لارنب متنا فقال « لا تعد تذكر
لفظة متن فانها قبيحة تشتمز منها السامع » فقلت ما دتم انتم تأكلون
المتن ولا تشتمزون منه فلست بمنفك عن ان اذكرك وهذا كتحشمكم من
ان تذكروا في كتبكم ضخام ارداف المرأة مع ان نساءكم النخيفات يعظمن
عجائزهن بما لا مزيدا عليه من الحشايا والمرافد مما لو فعلته الفواجر عندنا
لنحجلن فانتم حييون من الاسم ووقحون على الفعل ان هذا لغريب . وقالت
لي مرة احدى النساء المخدمات « ما اطيب العيش في بلاد النمسا لولا
اني اكره شيئا من طبخهم » فقلت ما هو وقد توقعت ان تقول اكلهم
لارنب متنا واذا بها قالت « انهم يطبخون الفراخ بعيد ذبحها » . وشكوت ذات
يوم لسيدة طول استمراري على صنف واحد من الطعام فارسلت الي خادمتها
في اليوم القابل يقول ان سيدتي تدعوك الى الغداء . فلما توجهت قالت
لي « اني سمعتك بالامس تشكو من الطعام فصنعت لك اليوم ما يعجبك »
فلما هيت المائدة قدم عليها ارنب بأذانه وذنبه وايابه متن ذفر يملأ ذفوه
الحياشيم . فعودت بالله وقلت ما قال ذلك الطريف « ان عمر هذا الحيوان
بعد موته اطول منه في حياته » (٧٣) . والظاهر ان الانكليز يحبون اكل
لارنب وصورته ايضا فقد دخلت مرة دار الصور في كمبرج مع دكطر لي
فكان اول ما وقع نظري عليه صورة ملكة من ملكات اسبانية على هيئة
الاضطجاع عريانة وثمنها اربعة آلاف ليرة والى جانبها صورة ارنب
وصياد . فجعلت انظر الى صورة الملكة وجعل هو ينظر الى صورة لارنب
ويستدعيني الى ذلك * ثم انه ما عدا جهل الانكليز بالطبخ واقتصارهم على
لوتين او ثلثة من الطعام فان الانسان لا يجد عندهم شيئا من الطعام والشراب
خالصا . اما الخبز فانهم يخمرونه بنوع يستخرجونه من المزر ويخلطونه
بالبطاطة والرز والفول والهرطمان والذرة والشب وفي كل رثيف يوجد نحو
عشرين حبة من الشب وبملح الصفر وبالطين وجبس باريس وبسحق
العظام وبجرتين اخرين . وفي بعض صحف الاخبار ان رجلا اكل جينا

فمرض فاستدعى بالطبيب فلما حضر عرف ان الرجل مسموم وان الجبن كان ملونا بالاناثو وهذا الاناثو خلط بشيء من القرمز وهذا ايضا خلط بالسيلقون (٧٨) ، واما القهوة فيخلطونها بالهندبا والقمح والهرطمان ودقيق البطاطة والفول وبهرق السكر وعكر القهوة واللفت وجذر الفوة وبجزئين اخرين . واما السكر فخلوط بالرمل والطين ودقيق القمح والبطاطة والنشا وباجزاء اخرى من جلته هامة يقال لها « اكارى » . واما الحليب فنصفه او ثلثاه ماء كذا وجده دكطر هلياك وملون بالاناثو المذكور . وهذا الصنف مركب من القلي وملح الصفر والملح والبرنج وبسته اجزاء اخرى . وعند تدقيق النظر فيه ترى فيه منخ الشاة والجبس والدقيق والنشا وصغير اللوز والصمغ وجزئين اخرين . واما المزج فخلوط بخمسة وعشرين جزءا من جلته لافيعن والملح والرب والسكر والفول وملح الطرطير ومحرق قشر لاترج والزنجبيل ولافستين والعسل وملح الحديد وملح الكبريت ومحرق السرطان واما الخمر فخلوطه باكثر من خمسة عشر جزءا من جلته الماء والعرق وزوج القمح وشواب التفاح وعود برازيل ومحرق السكر والرصاص . واما التبغ فخلوط بالزيت والملح والرب والسكر والماء والراوند والبطاطة والكرنب والنطرون والرمل وبسته وعشرين جزءا اخرى بعضها لطعمه وبعضها للونه . واما البيض فينقعونه في الصيف حين يكون ثمنه رخيصا في برميل يملا جيرا وماء ثم يخرجونه في الشتاء ويبيعونه بسعر الغريض فياتي مسيخا ويتولد فيه دمع جيري . وعلامة المنقوع منه ان يكون ابيض ناصعا لكنه خشن الملمس . واما اللحم فينقعونه في الدم . وقس على ذلك النشوق والخردل والزيت والصابون والحل مع ان هذا الاخير يستقطر من نوع من الشجر وقيل من المزج . فهؤلاء الناس الذين حكمهم كحكم سائر الناس في كونهم « ترابا الى التراب يعودون » قد خالفوهم في انهم ياكلون التراب ويشربونه . فحيا لاله عصا المحتسب . وهذا الطمع لقمهم ان يتخذوا نيذا من جميع الفواكه من اشهورة نبيذ التفاح . وقد كان عندهم في السابق بمنزلة الخمر في التنافس فيه فكانوا يسقونه الضيوف كما تسقى الصهباء ثم

أعبد فأقول أنه لا غرو أن يستطيع هؤلاء القوم ما الفوه فإن « العادة - كما يقال - خامس طبيعة » أو ليس أن هنود لوزانيا يأكلون نوعا من العراب لا يبيض بالملح بدل الخبز وهنود أرنوكوكو (٧٥) يأكلون أيضا نوعا من الطين اللزج الأبيض والزنج يستطيعون نوعا من الثمر على الخبز . أما الامراء ولا فقهاء من الانكليز فانهم يستخدمون طباطخين فرنساويين ويتلذذون بأنواع من الالوان . ويعجبني من ماكلهم طبخ الفاكهة الطريفة واليابسة في العجين وذلك غير معروف لاهل مصر والشام وهو من بعض ما تعلمته الانكليز من الفرنسيين حتى صار عاما لغنيهم وفقيرهم . واكثر اسماء الطبخ عندهم منقول من اللغة الفرنسية . وعندى ان اشتهار لاطعمة الفاخرة في الشام انما عرف في زمن معاوية فانه كان يتأنق في الطعام ثم نقلت اليهم الوان كثيرة من العجم كما يظهر ذلك من بقاء اسمائها عندهم . ثم ان من رسوم الكنيسة المتأصلة ان تقام الصلوة فيها يوم الاحد ساعتين في الصباح وساعة ونصفا في المساء وان لم يحضر فيها غير ثلاثة نفر . فتسمع في خلال ذلك من تكرير لاذعية والابتهالات ما يذهب بالصبر وبعد ذلك يقوم القسيس ويخطب فيهم . واكثر الفلاحين يذهبون الى الكنيسة حياء من جبرتهم او خوفا من القسيس لان قسيسى هذه الكنيسة لهم سطوة نافذة على الرعية . ومتى قامت الصلوة نكسوا او تناكسوا . وقد بلغني ان احد هؤلاء الخطباء لما شرع مرة في الوعظ التفت فرأى الناس نائمين فغضب لذلك وقال « بنس السامعون انتم لكلمة الله انكم ان لم تسمعوها فستمحسون بها » ثم رفع التوراة من امامه وضرب بها بعض النائمين حتى انتبهوا . وفي يوم الاحد لا يعملون ادنى عمل حتى ان اكثرهم لا يطبخ . ومنهم من يخرج من خلق شعرة فيه او من كتب رسالة . وقد اردت مرة ان انزل في بيت عمجوز فاول ما اشتربت علي به كان عدم الطبخ يوم الاحد . وعندى ان اصل ذلك البخل منعاً للزيارة والاجتماع . ويحكى عن رجل انه سرق بقرة فتقف يوم الاحد فقال للشرطي « لولا حرمة هذا اليوم لما اعياني التماس من يدك » . وهذا اليوم في جميع البلاد الكاثوليكية الرومانية هو يوم الحظ والتزاور وفي هذه

البلاذ هو يوم الانقباض والكآبة . وهو في سكوتلاند اكثر قبضا وكآبة . ولا بد من ان يكون في كل بيت توراة وانجيل وكتاب صلوات فيقعد رب البيت ويحمل بعض اولاده على القراءة منها . ويقضون النهار كله في القراءة والترتيل من الزبور وغيره وفي سماع الصلوة في الكنيسة . ولا يكاد صاحب عيلة يجلس على المائدة للطعام من دون ان يصلي اولاً او يجعل بعض اولاده يتلو صلوة ما - وكذلك عقب الطعام . وسن امكنه ان يستعمل في هذا اليوم عانية وطروفا غير التي يستعملها في سائر الايام حد ذلك من الاحترام والتوقير . والغالب على الانكليز عموماً مراعاة الفروض الدينية اما عن تعبد او لمصاحبة . فان الطبيب مثلاً اذا علم منه انه لا يحضر الصلوة او ليس عنك كتب دينية في بيته او كان قليل الاحترام لاهل الكنيسة فضلاً عن هكونه يجادلهم قل اعتباراً عند ذوي الوجاهة وقل نفعه من حرفته . وجل المؤلفين من الانكليز يستشهدون بكلام من التوراة والانجيل ترويحاً لبيع الكتاب حتى ان المؤلف « بلير » (٧٥) بنى معظم اساليب البلاغة والبيان في كتاب المعاني على عبارات من التوراة . وهذا الرياء والتدليس قل ان يوجد في الفرنسية فان سن كان منهم قليل الدين انقطع عن الكنيسة اصلاً . والمؤلف منهم اذا كان غير ذي اعتقاد لا يستشهد بها في شيء ولا يكون ذلك باعثاً لبوار حرفتهما * اما اهل الكنيسة المتفرعة فهم اشد تحمساً وتصلباً من اولئك فقد يعطون الناس في الطرق والمحطول ويوزعون في البيوت كتباً ورسائل دينية . وكذلك يفعلون في المدن الغناء . وربما منعهم الشرطة من الوظ علانية لئلا تجتمع عليهم الاوباش فيكون من اجتماعهم ما يوجب النزاع . ويذهبون الى كنائسهم ثلاث مرات في يوم الاحد ولا يعوقهم عن ذلك برد ولا ثلج ولا مطر . والقاطنون منهم في اماكن منفردة يقصدون الكنائس القريبة . وجيع القسيسين في بلاد الانكليز يكلفون خدمتهم وضيوفهم الى حضور الصلوة في ديارهم صباحاً ومساءً . وقبل تناول الطعام وبعده لابد من تلاوة صلوة او دعاء وان غاب القسيس قامت امراته في ذلك مقامه * واعلم ان الكنيسة المتصلة بمولفة من مطرانين احدهما مطران

كثربوري ودخله في الغام خمسة وعشرون ألف ليرة . وهو ثاني صاحب الملك في الرتبة والمنزلة . والثاني مطران يورك ودخله خمسة عشر ألفا (٧٦) ومن خمسة وعشرين استقفا وطيفة كل منهم من اربعة آلاف ليرة فصاعدا . ومتى عجز احدثهم عن القيام بخدمته رتب له الف ليرة . وقد كان لا سقف برهام ستة عشر الف ليرة فلما انزوى في قصرة عين له نصف المبلغ . وتحت ذلك مراتب متعددة الاولى « تشانسلر » (٧٧) ثم « الدين » ثم « الارشديكن » اي رئيس الشمامسة ثم « البريندري » ثم « القانوني الاكبر والقانوني الاصغر » ثم « الفيكار » ثم « الركطر » وعدتهم بموجب آخر تعريف بلغت اثني عشر الفا وثلثمائة وسبعة وعشرين . وعدة كنائس البروتستانت بلغت في سنة ١٨١٨ احد عشر الفا وسبعمائة واثنين واربعين . وفي القرن السابع كان للاكليروس كلمة نافذة حتى على الملك . وفي سنة ١٨٥٤ بلغ ما جمع لنفقة كنائس انكلترا وحدها في سنة واحدة ثلثمائة الف والفا وخسمائة واربعين ليرة ولمساعدتها مائة واربعة وستين الفا وسبعمائة واحد وسبعين فتكون الجملة اربعمائة وستة وستين الفا وثلثمائة واحد عشر ليرة * وفي سنة ١٦٠٤ استغنى منهم الفنان من وظائفهم كراهية ان يمسوا اسماءهم على كتاب الصلوات المشتمل على تسع وثلثين عقيدة (٧٨) * ولهيك الكنيسة حق ان تاخذ العشر من سائر الكنائس بل من اليهود ايضا . وطالما نظلم اهل الكنيسة المتفرعة من اداء العشر لها فلم يجد ذلك نفعا . ولا يسمح للكنيسة المتفرعة او غيرها بوضع اجراس . واذا اضطر احد من المتفرعين الى زواج مثلا او معمودية او غير ذلك من الفرائض الدينية وطلب من قسيس المتصلة ان يقضي له ذلك حاله كونه قسيسه غائبا لم يجبه الى مطلوبه * وقد بلغني ان رجلا مات وكان حال حياته مذبذبا في عقيدته فتنازع قسيسا الكنيستين على ايها يدفنه وطال ذلك بينهما حتى اروح الميت * ويمكن ان يقال ان الكنيسة المتصلة هي ديوان من بعض دواوين الميري فان كلمة وكطر القرية ابلغ نفوذا وفعالية من كلمة ضابط البلد . وليس شرطي الديوان في قريته إلا من بعض اتباعه واذا زاره احد الفلاحين

فلا ياذن له في الجلوس فهو على هذا جدير بان يقال له دهقان القرية او شيخ البلد . وربما بلغ دخله الف ليرة فترى له احسن الديار وعنى خدمة وعاجلة فاخرة وخادما يسوقها وعلى برنيطة شريطة من ذهب كخدمة الامراء . ثم اذا صعد المنبر وعظ المساكين المحتاجين الى القوت الضروري بالزهد في الدنيا وتجنب شهواتها * ولا يمكن اقامة دعوى في ديوان احد الاساقفة إلا بمصروف وافر . فلهذا يتأتى ان يعيش الرجل مع امرأة عيشة المتعة والسفاح إلا اذا صدر له حكم من ديوان الاستقف من دون نفقة وذلك نادر * وهذه الكنيسة هي مثل الدولة في انها لا ترمم تغيير شئ من رسومها وترتيبها واحكامها . فان قسيسها يتلون فيها كتاب الزبور وبعض فصول التوراة والانجيل وهي مخالفة لما في ايديهم لان منها وذلك لان كتاب الصلوات جرى استعماله عندهم قبل ترجمة التوراة فلما شرعوا في ترجمتها وجدوا ان ما ادرج فيه كان مخالفا للاصل فابقوه على خله . ومن يوم شرعوا في التاليف تجد اسم يسوع على نسق واحد في جميع كتبهم وكلامهم وهو « جيسس » إلا في موضع واحد من كتاب الصلوات المذكور فانه فيه « جيسو » فكانه في اللاتينية مجرور . وكلما طبعوا نسخة من هذا الكتاب حذفوا السين في ذلك الموضع * ولا بد من ان يكون في كل قرية في بلاد الفلاحين كنيسة للمتصلة وان لم يكن فيها دكان لبيع اهم ما يكون من الماكول والملبوس * ولا بد ايضا من ان يكون لها برج يلزقها لوضع الاجراس فمنها ما يكون له اربعة ومنها ما يكون له ستة او اثنا عشر جرسا . وضريرهم بها مطرب ولا سيما على بعد . وهم يدعون بانه ليس من يجاريهم في هذه الصنعة فانهم اتقنوها غاية الاتقان حتى انها تكاد ان تعد من فنون صنعة الايقاع * واكبر جرس في الدنيا جرس « كرميلين » او « كرميلان » وهي قلعة مدينة المسكوب (اي موسكو) زنته اربعمائة وثلاثة واربعون الفا وسبعمائة واثمان وسبعون رطلا وقيمة جوهرة ستة وستون الفا وخمسمائة وخمس وستون ليرة ولما شرع في سبكه تبرع كثير من الناس بالفضة والذهب فخطا معه . ثم يليه جرس كنيسة صانت ايفان في المدينة المذكورة زنته مائة وسبعة

وعشرون الفا وثمانمائة وستة وثلثون رطلا . وجرس كنيسة رومية زنته ثمانية عشر الفا وستمائة رطل وسبعة اربطال وجرس قصر فلورانس زنته سبعة عشر الف رطل ونحوه جرس اكسفورد . وزنته جرس كنيسة صان بول بلندرة احد عشر الفا واربعمائة واربعة وسبعون رطلا . وفي هذا السنة وضع جرس في برج مجلس المشورة بالمدينة المذكورة زنته ستة وثلثون الف رطل (٧٩) * قال فليشر « ان بلاد الانكليز هي بلاد المذاهب والتحل فالانكليزي يذهب الى السماء من اي طريق شاء . ولكن وان يكن ممكنا لكل واحد منهم ان يعبد الله ويخدمه على الوجه الذي استحسسه إلا ان دين الدولة هو الوسيلة للتمول ونوال الوظائف والمراتب السامية فلا يمكن لاحد ان ينال وظيفة في انكلترة وارلندة ما لم يكن على مذهب الكنيسة الاسقفية . وهذا الخطر جعل جل ذوي الوجهة والنباهة من حزبها . ثم ان الكيروس هذا الكنيسة قد اقتدوا بالكنيسة الكاثوليكية في سنن كثيرة وخصوصا في اخذ العشر من الرعية وفي النهم الى التامر عليهم . لان ركظر القرية ان هو إلا بابا لو استطاع . اما في اخلاقهم وادابهم فانهم اكثر حشمة وعفة من قسيسي فرانسوا وخص اسباب ذلك هو كونهم يتربون في اكسفورد وكمبرج بعيدين عن فساد المدن الكبيرة . قلت لعله حين كتب ذلك كان اكليروس فرنسا على غير ما نراهم عليه في هذا العصر فانهم لان قدوة في الفضائل والمحامد . وهكذا يوجه قوله « بعيدين عن الفساد » فان هاتين المدينتين لان فيهما من البغايا ما يكفي اهلها وغيرهم معهم . ولو قال ان اخص اسباب ذلك هو كون قسيسي الانكليز يباح لهم الزواج لكان اولي . قال « ولا يتدبون الى رتب الكنيسة الا اذا بلغ احدهم من العمر ما لا يكون له فيه نهم » قلت حد القسيس ان يكون بالغاً من العمر اربعا وعشرين سنة ومتى عرف فضله وعلمه بعد ذلك يرقى الى درجة الاسقفية من دون تعيين سن * وهنا فليفرح الوادون وليكمد الشامتون فان دكتور لي عزم على التوجه الى برستول ليقضي فيها وظائفه الكنائسية مدة شهرين ولكن ليس بعد ما نعيته الى القارئين والسامعين (٨٠) ومن ثم

وجب علي ان الحق به . ففصلت من تلك القرية المشتومة الى لندرة
ومنها الى المدينة المذكورة فبلغتها في نحو خمس ساعات في خلالها وقف
الرتل في عدة مواقف . وكان قد اخبر صاحبة العجل بقدمي وحالي واوصاها
بان تطبخ لي طبخا فرنساويا اي ان يكون كثير البقول قليل اللحم . فلما
كان المساء احضرت لي طعاما مطبوخا من دون ملح على عادتهم لكنها
احتفلت بي غاية الاحتفال حتى استحيت من ان اذكر لها الملح .
وفضلا عن ذلك فان فرحي بروية لاسواق والديار والعواجل انسانية . ثم
لما قابلت دكطر لي في الغد سألني عن الطعام فقلت له انه كان بغير ملح
قال « كيف لم تحضر لك ملحا على المائدة فلم لم تملحه انت فانها
خشيت ان تضع فيه ما تعافه » فقلت « لو احضرت لي اللحم نينا لكنت
اطبخه بانفاسي واملحه بدموعي وكان خيرا من عاداتكم هك المنصتة »
قال « لا بأس بين لها المرة الثانية قدر ما تريك من الملح تفعل » ثم لم
صاحبة المنزل على طبخها الطعام غير مملوح فقالت « هذا دابنا - ارايت
تملك المثقفة التي اكلتها البارحة - لو انك اعطيت زوجي خسين ليرة لما
اكلها مع انها كانت خسا بالحل » . ثم بينما كنت ذات يوم جالسا معهم
على المائدة اذ دخل طفل لها وهو وسخ الثياب والطلعة فقال لها زوجها « لم
تغادرين الولد وسخا هكذا » فقالت « قد غسلته هذا الصباح ولكن طبعه ان
لا يدع شيئا من ثيابه نظيفا » . ثم لجأ في الكلام فما اشعر إلا والسيدة قامت
وجاءت بالمكنسة لتضرب زوجها فهرب من قدامها فاقبلت تجري وراءه
وهو هارب فلما لم تالحقه غشي عليها من شدة الغضب فتداركها الرجل
بالعرق وبغيرة حتى افقت مع انها كانت من اهل الصلاح وكان زوجها
بمنزلة نصف قسيس * ثم ان برستول هي من المدن القديمة لا بهجة لها
ولا رونق وهي ضيقة الطرقات قذرتها . وليس لها ماشي رحبة ولا ساحات
فسحة ولا مقاعد ولا منزهات ولا محال للقهوة او الحظ سوى ملهى واحد
وعدد اهلها مائة وخمسون الفا . وكل فيها وجود غريب . وبيوتها الجديدة
حسنة فاما القديمة فلا تصلح لشيء فان صفحتها زاوية منفرجة يبدو

منه تسنم سطوحها . وتجد بين البيت والبيت من فوق خلاء تنبؤ عنه العين . ونسأوها يشبهن نساءً الفرنسية في استدارة الوجه . ولها نهر صغير فيه مراكب نار وغيرها مسافته نحو سبعة اميال ياتيه الجزر والمد في اليوم مرتين ومنه تسافر سفن النار الى والس وقد شرع في بناء جسر عليه من حديد ولم يتم لكثرة مصروفه . وعند هذا الجسر كانت محلة للرومانيين لما افتتحوا جزيرة بريتانىة . وقد بقي من آثارهم حائط كانوا يترسون به . قال مولف ابجدية الاوقات « كان بناء برستول في سنة ٢٨٠ قبل الميلاد وكانت تعد من المدن المحصنة واسمها في القديم « كايبر برىتو » اي مدينة البريتانيين » (٨١) * واتفق بعد نزولي في المحل لن قدم القاضي ونزل فيه وفي الغد حضر نحو اربعين رجلا من شرطة البلد واصطفوا لدى الباب ووقف اثنان ينفخان في ابواق من فضة . ثم جاء ضابط مترديا بلباس احمر وكان القاضي قد لبس ايضا لباسا احمر وعلى راسه شعر عارية ابيض فدخلا في عاجلة نفيسة وقف عليها رجلان لابسان كسوة مزركشة بالذهب كما هي عادة خدام الامراء . ثم دخل معهما رجل حامل سيفا طويلا في كعبه صورة تاج . وله ثلثمائة ليرة في العام لحمل هذا السيف . ثم ذهبوا الى دار الحكومة وكان عن شمال العاجلة ثمانية من الشرطة يحملون عصيا من فضة روسها كالباهر واثنان يحملان مزاريق قد غشيت اعاليها بالفضة . وفي كل سنة يحتفلون به هذا الاحتفال فان القاضي لا يستقر في البلدة وانما ياتي اليها اربع مرات في السنة لفصل الدعاوي الخطيرة في ايام معدودات وفي مدة غيابه ينوب عنه اناس في فصل غير المهم * وفي برستول كنيسة للطائفة المعروفة بالكويكرس - والسين علامة الجمع - وهم صنف من النصارى إلا انهم لا يعتقدون بالمعمودية ولا بالقربان ولا يقرؤون الانجيل في كنائسهم ولا صلوات معينة وليس لهم شعائر معلومة ولا قسيسون كما للنصارى وانما اتقياءهم هم المتقدمون فيهم ومعابدهم عبارة عن بيوت لا فيها فرش ولا بحاريب ولا مذابح ولا كتب ولا صور ولا منابر ويقولون ان التدين لله لا يكون مرضيا إلا بالروح دون التعبد بالبدن

فجميع الرسوم والتكليفات والفرائض عندهم لغو . ويقولون ان المسيح نفسه كان كويكرا وانه لا يجب تداية العصور لروساء الكنائس وبيقون ساكتين الى ان يوحى الى احد منهم في زعمهم فيلقي ما اوحى اليه في بضع دقائق وهو واقف فاذا فرغ قعد واستراح * وقد ذهبت مرة الى معبدهم فاجتمع فيه نحو مائة وعشرين نفسا جلست النساء في الجانب الايمن على ذلك عليها زرابي وجلست الرجال على الایسر على ذلك متقابلتة من دون زرابي وجلس في صدر العهل اربعة رجال وثلث عجائز على دكة عالية وجلس دونهم خمس عجائز وثلثة رجال وبقوا كذلك صامتين نحو ساعة . ثم قام رجل من اصحاب الدكة العليا الذين كانوا اقرب الى الوحي والقي على الناس كلاما وجيزا نحو خمس دقائق معناه ان رضوان المولى هو بان يكون عقل العبد منجذبا اليه وانه ستاتي ايام يعين فيها بعض الناس بعضا بالارشاد والهداية وان جزاء كل انسان منوط بعماله وما اشبه ذلك ولم يذكر في كلامه اسم المسيح ولا اسم روح القدس . وبعد نحو ربع ساعة قامت عجوز من اصحاب الدكة الثانية فقام جميع الحاضرين وحسرت الرجال عن رؤسهم فانه لا حرج على من ظل مقلنسا في المعبد واخذت تصلي بصوت مرتعش مختلج نحو خمس دقائق فذكرت اسم المسيح ولم تذكر روح القدس ثم انفضوا * وشعار هذه الطائفة هو ان رجالهم يلبسون جبههم مشية على اعناقهم من دون اطواق وان النساء يلبسن برانيط طويلة من قدام حتى تغم وجوههن وخصوصا العجائز . وهي غالبا من الحرير وثيابهن بهيم اي من لون واحد . ومن مذهبيهم انهم يجتنبون مواضع الحظ واللعو والسكر وان لا يحلفوا يمينا ما ولو في مجلس القاضي . ولا يرون في الحرب خيرا وحسبك بالسفراء الذين ذهبوا منهم الى سلطان الروس عند ابتداء الحرب دليلا . ومن شانهم لاقتصاد في النفقات وان يساعد بعضهم بعضا . وقد كانوا في الزمن القديم عرضة للاضطهاد والطرود ولكنهم لان آمنون . ولهم بعض خصائص منها اذا تكلموا مع شخص ايا كان خاطبه بلفظ المفرد بخلاف عرف اللغة . واذا حضر احدهم مجلس الملك

حضر بكسوته الاعتيادية من دون وضع شعر عارية ولا ينزع برنيطته بيك
وانما ينزعها عنه آخر . ويخاطبون كل واحد بلفظة يا صاحب او يا حبيب
ولا يتنافسون في الالقاب والنعوت ولا يجودون بها على احد ولا يحذون
على ميت . وعندهم ان النساء في الفضائل والمناقب كالرجال . وعدد هذه
الطائفة في برستول اكثر من عشرة الاف نفس ولا يكاد يوجد بينهم فقير *
قال الفيلسوف فلتير لطائفة الكويكيرة معابد كثيرة في لندرة اعظمها الموضع
المسمى « منيومنت » (٨٢) زرته مرة مع مضيقي فاجتمع فيه نحو اربعمائة رجل
وثلاثمائة امرأة وكانت النساء ساترات وجوههن وعلى روس الرجال برانيط
كبيرة والجميع سكوت فجرت بينهم ولم يرفع احد طرفه للنظر الي . وبعد
صمت نحو ربع ساعة قام احدهم وحسر عن راسه ثم بعد ان ابدى بعض
زفرات بعضها من فيه وبعضها من متخريه القى على الحاضرين جلا مشوشة
مضطربة زعم انها من الانجيل . فلا هو ولا احد غيره فهم منها شيئا فلما فرغ
من ذلك انصرفت الجماعة فسالته مضيقي « ما بال حكمائكم يرضون
بهذا الهذيان » فقال « انا مضطرون الى ان نرخص فيه لانا لا ندري هل
الشخص الذي يقوم للخطبة يكون قيامه بوحى من الروح او الحماقة
فنصغى الى ذلك ونحن صابرون مرتابون بل نرخص ايضا للنساء في الكلام
وقد يتفق ان يوحى الى اثنين او ثلاثة في وقت واحد فمن ثم يقع ضحيج
ولغط في بيت الله » فقلت « اليس فيكم اذا قسيسون » قال « لا وانا لنجد
انفسنا بدونهم في حال احسن » ثم تلا من كتاب ما معناه ان الله تعالى لم
يرض ان نخصص احدا لقبول روح القدس في ايام الاحاد اخراجا لسائر
المؤمنين منه ثم قال « الحمد لله على انا نحن دون سائر الناس لا قسيسين
لنا ولم نترك ولدنا عند مرضع اذا كان عندنا لبن يغذوه » . قال الفيلسوف
المذكور « وانتشار مذهبهم كان في انكلترة سنة ١٦٤٢ وذلك عند ما ظهر فيها
ثلاثة مذاهب او اربعة اضرمت فيها نار الحرب بين الالهيين تعبدوا لله
تعالى فقام اذ ذاك رجل اسمه جورج فوكس من كورة يقال لها « ليسستر »
وكان ابن رجل نساخ للحزير فاخذ يعط الناس وهو ابن خمس وعشرين

سنة وكان اميا جيد السيرة لكنه كان معتوها فكان يلبس جلدا من راسه الى قدمه ويطوف من قرية الى اخرى مقبعا على الحرب وعلى اهل الكنيسة ولو انه ذم العسكر وحدهم لما لقي ما يخاف منه إلا انه لما كان ذمه موجها الى روءاء الدين لم يلبث ان قبض عليه واحضر بين يدي قاضي دربي وهو على ذلك الزبي وقلنسوته المجلد على راسه فبادره احد المجند بكلمة على خك وقال له « قبحا لك الم تعلم انه ينبغي لك ان تحضر بين يدي القاضي حاسر الراس » فادار له فوكس خده الثاني والتمس اليه ان يلكمه كلمة اخرى حبا بالله . ثم تقاضاه القاضي يمينا قبل ان يساله فقال « ادي لن اتخذ اسم الله بالباطل ابدا » فغاط ذلك القاضي حتى ارسله الى دار العجائين في دربي ليجلد فصار وهو يحمد الله على ذلك فلم يال المامورون بجلده جهدا فكان فوكس يتضرع اليهم ان يزيدوه من هك النعم لصالح نفسه فما ردوا طلبته ولكنهم عجبوا منه فاخذ يحطهم وينذرهم فتصاحكوا منه اولاً ثم اصغوا اليه وارتاحوا لقوله وصدقهم كثيرون منهم . ثم لما اخرج من السجن جعل يطوف في البلاد ومعه اثنا عشر رجلا ممن تمذهبوا بمذهبه وهو يذم اهل الكنيسة فعرض نفسه ايضا للجلد مرة بعد مرة . فلما اخذ يوما الى موضع النكال القى على المحاضرين خطابا بغاية الحماسة فهدى منهم الى مذهبه خمسين نفرا واستمال الباقيين الى محاماته حتى انقذوه من تلك الورطة وجعلوا بدله القسيس الذي تسبب في معاقبته . ثم استمال ايضا بعضا من جند كرومول (٨٣) فانكروا الحرب وابوا اليمين فامر بان يقبض عليهم اذ لم يكن يريد فرقة من الناس لا تحضر على القتال فقبض عليه وملئت السجون من حزبه . إلا ان شان الاضطهاد ان يزيد في عدد الدخلاء فزادوا ثباتا في معتقدهم وآمن لهم السجن ايضا . والذي زاد في هك الشيعة فضلا عما ذكر هو ان فوكس كان يعتقد بان له سرا يمكنه من التكلم بما يخالف عادة البشر فاخذ يرجف ويرتعش ويتلوى ويكظم نفسه ويتنفس الصعداء فلم يلبث ان صار له دربة بالوحي عظيمة حتى لم يعد يقدر على الكلام إلا به . وكانت هك اول منحة افادها لتلاميذه فاسرعوا في محاكاة امامهم في تغيير

المسحنة ولا ارتعاش عند هبوط الوحي عليهم جهد المستطيع ومن ثم سموا
 « كويكرس » اي مرتعشين . واتفق مرة ان قال فوكس لاحد القضاة جهرا
 بحضرة جع كبير « احذر لنفسك يا صاح فان الله يعاقبك سريعا على
 اضطهادك لا طهار » وكان هذا القاضي مولعا بالشراب وكان يسكر في كل
 يوم فاعتراه بعد يومين فالج اودى به وكان بهم اذ ذاك بان يمضي حكما
 بحبس بعض الكويكرس . فخلج قلوب الناس ان موته كان مسيبا من
 اضطهاد الرجل الطاهر لا عن ادمانه على الشرب فصار هذا الموت الفجائي
 سببا في اجتذاب كثير من الناس الى مذهب الرجل اكثر من الف
 موعظة والف لية . فلما راي كرومول عددهم يتزايد في كل يوم رغب في ان
 يستميلهم اليه فعرض عليهم المال فابوه فقال يوما « لعمرى ان هذا الدين
 هو الدين الوحيد الذي لم نستطع ان نغلبه بالمال » . ثم صاروا ايضا عرضة
 للاضطهاد في عهد كرلوس الثاني ليس لاجل الدين ولكن لامتناعهم من
 اداء العشر للاكليروس ولخطابهم القضاة والحكام بانث ولا امتناعهم من اليمين
 التي يوجبها الشرع . وفي سنة ١٦٧٥ قام رجل من اهل سكونلاندة اسمه
 روبرت باركلي وقدم للملك معذرة عن الكويكرس وهي من احسن ما كتب
 في هذا الباب اذ لم يرتكب فيها شيئا من التعبد والاطراء على الملك
 وانما اودعها الكلام الحق والضح السديد وكتب في آخرها « انك قد ذقت
 الحلو والمر والنعيم والبوس فانك طردت من البلاد التي ملكت فيها وشعرت
 بثقل الظلم فكان ينبغي لك ان تعلم ان الظلم مقيت عند الله والناس فان
 كان قلبك لا يلين بعد تلك المحن والخيرات ونسي الله الذي لم ينسك في
 بوسك فان اثمك يكون اعظم وهلاكك اشد فاياك من الاصغاء الى ما يطريك
 به اهل ديوانك بل اصغ الى صوت الضمير الذي ليس من شأنه الاطراء
 ولا التمليق . من صاحبك الامين واحد رعيته روبرت باركلي » . واعجب
 من ذلك ان هذه الرسالة مع كونها صدرت من رجل حامل الذكر فقد
 نجعت في قلب الملك حتى كف الاضطهاد عنهم . وفي هذه الاثناء ظهر
 وليم بن النيه وبث مذهب الكويكرس في اميركا الى ان قال « وليس

لاهل هذا المذهب في انكثرة ان يكونوا من اهل مجلس المشورة ولا ان يتولوا المناصب العمومية لامتناعهم من اليمين مما لا بد منه في الامرين فجل كسبهم المال انما هو من التجارة . وحيث كان جاء الاولاد انما هو من كد والدهم فقط كان لهم مطمح الى كسب الشرف والازرار والقفازين ويستحيون من ان يقال لهم كويكرس فيذهبون مذهب البروتستانت ليكونوا في عداد اهل السمات والطراز الخ (٨٤) * وفي برستول ايضا كنيسة الليونيتاريين ومعناها الموحدون يعتقدون بوجود اله واحد فقط وان عيسى المسيح انما كان بشرا وانه انما قيل له ابن الله من قبيل التعظيم كما قيل ايضا لسليمان ابن داود وهم في البلد اصحاب وجاهة وثروة . وفيها ايضا زمرة تسمى شيعة سويدنبرغ اعتاقدهم ان الله واحد واحد وابنه طهر في انسانية المسيح وان جسم المسيح هو المراد بقولهم الابن وان اللاهوت هو الذي يقال فيه انه الاله الخالق وبالجمله فان المسيح هو عندهم الابن وروح القدس ومظهر اللاهوت . ومنشي هذا المذهب رجل نمساوي ظهر منذ ستين سنة تقريبا (٨٥) . ومن شططهم انهم يؤولون كل لفظة وردت في التوراة بمعنى غير الظاهر منها فيؤولون لفظة سوريتة مثلا بالعلم والمعرفة وخيل مصر بالمنعة والجبل بالحماية وقد الف سويدنبرغ في ذلك مولفا ضخما لا يكاد الثاري يختمه في بضع سنين * ومن كلامه لما كان للكلمة استعمالات كثيرة وكان المسيحيون الاولون سدجا يفهمون كل شيء على ظاهرة فرقوا اللاهوت فجعلوه ثلثة اقانيم فاعتقد به كذلك من خلفهم الى ان يقولوا ، لانه ما احد يدخل السماء وهو يعتقد بثلثة الهة * وفي برستول مرقب فيه مقصورة عالية مظلمة لها كوة في اعلاها امرأة يقع عليها نور الشمس فتزسم به ضواحي المدينة وما فيها على مائدة لها قرص مجوف فيرى الناظر فيها النهر والشجر والرجال والنساء والماشية فيخيل له انه بينهم . وقيل ان رجلا رأى في هك المائدة زوجته تماشي رجلا وهو يقبلها فعرفها فلما رجع الى داره خاصمها خصاما اوجب الفراق بينهما * وكانت صاحبة الحبل الذي نزلت فيه مولعة بالمزمرية وهي امرار اليد على وجه انسان حتى يغيب عن الادراك . وهي نسبة الى

رجل نمساوي اسمه مزمر فاشتقوا منه فعلا يقال مزمره اي عاجله بامرار اليد
وذلك انهم يعتقدون ان في بعض الاجسام خاصية تؤثر في غيرها على مقتضى
ما ينويه الموتر . وقد سمعت من السيدة المذكورة ان بعض اطباء مزمر
خادمة لها حتى خثرت نفسها ثم لمس من راسها مبعث الانفة والمدافعة
وقال لها انت دميمة » فقالت « لا بل انا احسن خلق الله وجهها » ثم لمس
مبعث الكرم فقالت « بالباب مسكين خذوا هذا الدرهم واعطوه اياه » ثم لمس
مبعث النضب فجعلت تهيج وتشعث شعرها . فاراد ان يرجعها الى حالتها
وارتاب في استطاعته على ذلك فلم يقدر . وبقيت الجارية كذلك هائجة
مضطربة . وذلك لانك اذا اثرت في شخص واحلته عن حالته ثم شئت
رده اليها لزمك ان تعتقد اعتقادا يقينا بانك مستطيع عليه . فلما تبين له
عجزه استدعوا بطبيب آخر فحاول ان يخرجها من قوة تاثير الاول بواسطة
الامرار فلم يتم له ذلك بالكليته وانما اضعف منها اثر الاول اضعافا فباتت
على تلك الحالة . فلما اصبحت خف ما بها ثم شفيت . ويقال انه اذا
امر الشخص الموتر فيه بقتل انسان قتله او بقضاء حاجة قضاها دون تلبث
حتى انه ليفعل ما فيه ضر نفسه . وانه يدب على اشخاص واماكن لم
يكن رآها من قبل ويسميها كما هي » واتفق ان جارية السيدة المذكورة
اصابها ورم في وجهها عن وجع ضرر فاجلستها على كرسي ومزمرتها حتى
غشيها سبات ويست جوارحها فاخذت سيدتها تنفخ عليها وما زالت بها
حتى شفتها بالمرّة . ومرة اخرى اجلستها امامي ثم لوت يديها الى صدرها
ثم امرت يديها على وجهها فما لبثت ان غمضت عينيها . فامرتها ان تمشي
من ذلك المحل الى غرفة فمشت وعيناها مغمضتان وسيدتها ممسكة بها
خيفة ان يصدم راسها شيء . فلما وصلت قالت الخدومة « ايسن تريدين
التعود على الكرسي ام على الاريكّة » فقالت « بل على الكرسي » فقالت لها « لك
ذلك » فجلست . فسالتها عن اي شيء اشتغل به انا اذ ذاك فقالت « هو
ناظر الى ساعته » قالت « كم الساعة الآن » قالت « الحادية عشرة وربع
فنقلت اصبعها الى موضع آخر من دماغها وقالت « اخطأت » فقالت « بل

خمس دقائق بعد الظهر » . ثم امرتها بالغناء فغنت ثم بالصحك فضحكت
ثم سألته عن خادمتها لها كانت قد ذهبت صباح ذلك اليوم الى امها ماذا
تضع . فقالت « انها لان تكلم امها في شأنك وتطلب منها ان تكلمك
لتعفيها عن الزمرة وانها تمنى ان تراك مرة تمزجين احدا » فلما رجعت
الخادمة في الغد سالناها عن ذلك فاجابت بما ذكره . ثم انها نفخت
عليها وامرت عليها يديها صعدا فافاقت * . وهكذا الخاصية قد شهرت في
فرنسا جدا واشد الناس انكارا لها اهل الكنيسة والاطباء . فان الاعتقاد بها
يوجب الشك في النبوة ويصدق المرضي عن الاطباء . وساذكر في وصف
باريس ما جرى بيني وبين احدي هؤلاء النساء وفي هذا القدر لان
كفاية (٨٦) * . ثم سافرت من برستول قصد ان ارى بعض جبال والس
فينشرح صدري لان بلاد الانكليز كلها كما ذكرت سابقا عبارة عن حقول
ومروج وهي وان تكن ناضرة إلا انه لا شيء يبعث على ادارة الفكر
واجالة الخاطر كروية الاماكن المختلفة نحو ان يكون فيها سهل وجبال
واكام وادنية وغياض فكلما تعددت المناظر للعين كثرت الخواطر في الذهن
وتنوعت الهواجس في الصدر . فسافرت في سفينة النار فبلغت فرصة
تسمى « نيوبورت » اي المرسى الجديد في نحو ساعتين ونصف فبت هناك
تلك الليلة وفي الغد سالت عن اقرب الجبال فقيل لي « اذا طلعت هذه
العقبة ظهر لك » . فطلعتها ودللت على جبل يسمى « لندوغو » وهي كلمة
والسية لانه لا يوجد في لغة الانكليز اسم ينتهي بحرف الواو - فسرت
اليه ماشيا اذ لم اجد راحلة تبلغني اليه . فكنت اسال المارين عن
مقدار بعده فكان بعضهم يقول سبعة اميال وبعضهم خمسة وبعضهم ستة .
فسالت عن بلدة استريح فيها فدللت على قرية بعضهم يسميها مدينة
وبعضهم قرية وبعضهم بلدا . وهي عبارة عن ستين بيتا . فسالت عن مطعم
فدللت على بيت مشهور عندهم فاردت ان اكل ايضا لعدم وجود اللحم
والسمك عندهم فقلت لصاحبة المحل « اني اريد بيضا » فقالت « لاي
سبب » قلت « للاكل » قالت « ما ثم بيض في هذا الاوان » مع انه كان

في الصيف . فالحجت عليها فبعثت سن طوف في القرية حتى جاء
بيصتين بعد الجهد . فقلت « اقليهما بالسمن » فلم تفهم فاعدت عليها
الكلام فقالت « تريد ان تكسر البيض في السمن » قلت « نعم » قالت
« فما يكون هذا اغلاء » قلت « بل هو قلي » قالت « هذا مما لم افعله في
عمرى قط فصفه لي » قلت « تضعين المقللة اولا على النار ثم تفسين فيها
السمن حتى يذوب ثم تكسرين البيصتين فيه وانا اتولى بعد ذلك امرهما
قالت « فالاولى ان تتولا من لان وتقليهما كما تشاء » . وانما اوردت هذه
الواقعة اشعارا بجهل هؤلاء القوم ادنى انواع الطبخ . والمتفنون منهم يقلون
البيض بمائه ومن تحته لباب الخبز * ثم ان هذا الجبل وان يكن منظره
في الحقيقة مما تسرح فيه العين وينشرح به الصدر بالنسبة الى بلاد
الانكليز المحسنة إلا انه بالنسبة الى بلادنا يعد دكا او اكمة * واعلم ان
اهل والس هم اهل شجاعة وبسالة وهم الحريون بان يقال لهم بريتاينون
فانهم لم يبرحوا في منعة واستقلال ولهم لغة خاصة بهم . إلا ان كبراءهم
واغنياءهم يتكلمون بالانكليزية . وكثرة مكاتب الانكليز فيها لان اقبلوا على
تعلم هذه اللغة غير ان لغتهم الاصلية لم تنزل معتملة وهي تشتمل على
بعض حروف الحلق كاللغات المشرقية . ويقال انها تشبه لغة اهل بريتان
من فرنسا او انها هي بعينها . والتمدن والشادب عند الفلاحين هنا اقل
منهما عند فلاحى انكلترة . وقد كانت في الزمن القديم مستقلة بنفسها فالحقها
بحكومة الانكليز الملك ادورد الاول وذلك في سنة ١٢٨٢ عند موت اميرهم
« لويلن » (٨٧) . لكنهم بقوا بعدها يحاولون لاستقلال الى ان رزق الملك
المشار اليه ولدا في سنة ١٢٨٤ فسماه من دهائه امير والس (٨٨) وبقي
هذا اللقب خاصا بولي العهد في بيت الملك . ويقال ان الملك حين سمى
ابنه امير والس حمله على ذراعيه وقال لروساء والس بلغتهم « اخ دين » ومعناه
هذا بلديكم وملاكم فصارت هذه الكلمة شعارا يكتب على ترس امير والس الى
يومنا هذا (٨٩) * وفي ابجدية الاوقات ان اهل والس كانوا يسمون قديما
« صلس » وهم اسلاف البريتانيين وكانوا اول سن سكن بريتاينة ولغة

« بريتانيت » تشمل انكلترة وسكوتلاند ووالس وكانت تسمى « البيون » وهم
الى الان يانفون من ان يقال لهم انكليز * فاما ايرلندة فان الحاقها بانكلترة
كان في سنة ١٨١٠ ثم اتحدت والس بانكلترة وعدت منها بامر مجلس
المشورة وذلك في سنة ١٨٣٥ * ثم اني رجعت الى برستول وتعرفت باحد
افاضل الانكليز الذين اولعوا بحب اللغات لا للتفاخر ولا للتكسب ويقال
له دكتور جون نيكلسن . وانما لقب بدكتور لانه كان درس الفلسفة في بلاد
النمسا ونال هك الدرجة فان لفظة الدكتور يوصف بها كل من الطيب
والرباني والفيلسوف على حد سوى (٩٠) . وكان قد تعلم ايضا لغتنا ولكن لم
يكن سمعها قط من اهلها فلما كنت انشده منهم كان يطرب غاية الطرب .
فدعاني الى ان ازوره في محله الكائن في بلدة بنريث من شمالي انكلترة
فلما رايت ان مسامرتهم غنم واجابته حتم وعدته بذلك . ثم لما فرغت مدة
دكتور لي من برستول عزم على الرجوع الى القرية المشهورة فساغر قبلي
بايام . فسرت لارى بلدة باث فبلغتها في نحو عشرين دقيقة . فاول ما
دخلتها رايت امرأة تغني وعلما يضرب بالسنتير المعروف عندنا ولكن على
الحانهم . فسالت بعضا عن اسم الالة فلم يعرفها فسالت العازف به فقال
اسمه « دلسمر » وهو من اللاتينية مشتق من الحلاوة (٩١) * وباث هذه
بلدة طريفة بناوها من الحجر وموقعها بين اودية ناضرة وتلال بهيجية وهي
مشهورة بماء معدني يستحم فيه ولهذا سميت باثا اي حماما . وهي مقر
الكبراء والاعيان ولاسيما المتقاعدون من الضباط وغيرهم ممن كانوا في الهند
واهلها ينفرون من الغريب ويسلقونه بالسنتهم وكذا هي سائر بلدان
الانكليز غير المطروقة من الغرباء * ثم رجعت الى برستول وسافرت الى
جلتنام فبلغتها في ساعتين . وهذه المدينة معدودة عند الانكليز من اطرف
المدن لحسن بنائها فانه من الحجر ولنظافة طرقها وكثرة الاشجار في
ضواحيها ولكن ليس فيها محال للهو والقهوة ولا مطاعم حسنة . وقد اردت
ان اتغدى في الظهر فلم اجد شيئا عتيذا فاضطرت الى الشواء من الضان
واشترط علي ان لا ادخن . ثم اردت ان اسافر الى اكسفورد فقبل لي انه

لا يمكن ذلك إلا إذا رجعت الى كلوستر . فعدت ولما دخلت البلد اذا
بزحام وخلق كثير فسالت عن سبب ذلك فقيل لي انه عيد استيجار
الخدّامين والخدمات . وذلك ان الخدم يستاجر خديمه الى اجل فلا يمكن
للاحير ان يخليه إلا لاسباب . ومع هذا الزحام والصحيح فلم يكن من
شيء يرئى اليه إلا بنتا كانت تمشي على خشبتين . وهك البلدة هي محل
صنع الحديد وهي قديمة قذرة كاظمة للقلب . ثم اجتزت بعدة بلدان
منها استورد فيها معامل الجوخ ثم الى اكسفورد وقد تقدم ذكر ذلك ثم
الى القرية . وكنت قد استاجرت بيتا فيها يشتمل على اربعة مساكن
وفرشته على قدر ما اقتضى الحال على « متمكن غير امكن » واستخدمت رجلا
يزرع في مقلته ما لا بد منه من البقول اولها البطاطة . واخذت انشاغل
بذلك تنفيسا للرب وتسلية للهم . فلم البث ان فجعت بوليد لي وحيث
لم يكن في القرية ولا فيما يليها طبيب يوثق بعلمه - فان المتطبين في بلاد
الفلاحين انما هم نفاية اطباء المدن - اشغقت على الباقي فرحلت من القرية
قاصدا لندرة وغادرت البيت كما هو . وكان علي بادي بدئي ان اكلم
كاتب الجمعية واخبره بما اصابني فلما فابلته غلبني الخيب والبكاء حتى
انقطعت عن الكلام . فاستعظم ذلك مني على سني فان لانكليز قلما يكون
على فائت . ثم لما اعلمته بالسبب وشكوت له ما لاقيت في القرية واني
اخشى ان اموت قبل نجاح الترجمة راي ان لابقاء على حياتي هو الصواب
وان لاوفق لي وللبثورة ان امكث في كمبرج لاكون غير بعيد عن دكطر لي
واتفق مدة مكثي هك في لندرة ان وقع ضباب كثيف دام سبعة عشر يوما
حتى احتجنا في بعضها الى ايقاد المصابيح نهارا لتهدي ايدينا الى افواهنا .
فرايت الجلاء اجلى واولى فعن ثم سرت باهلي اليها (كمبرج) فبلغتها بعد
نحو اربع ساعات . وهك المدينة لا ملهى بها ولا حظ سوى مشاهدة المدارس
والاساتذة والمتعلمين وهم من التكبر والصلف بمكان اخوانهم طلبة العلم في
اكسفورد . وبعد وصولي يوم جرى النزاع والكلام ما بين اهل المدارس واهل
البلدة كما جرى في اكسفورد . وفيها تعرفت ببعض فضلاء لانكليز ممن

عنوا بالعربية منهم الفاضل مستر وليمس الذي هو الآن مدرس فيها والفاضل
مستر برسطون الذي ترجم خسا وعشرين مقامة من مقامات الحريري الى
الانكليزية (وقد تقدم ذكره) . ومنهم الفاضل مستر جون برطون قرا علي
جزءاً من المقامات . وكان الذي عرفني به يهوديا كان يعلم لغته وانه
غاب عنه مدة فسالني عنه تليذه ذات يوم فقلت « لا ادري اين هو وانما
لاح لي من سيماء وجهه حين جاءني ان في اماقيه لشرا » ثم لم يلبث
ان شهر عنه في البلد انه كان يضاجع بنته وهي دون العشر سنين وكان
ذلك دابه معها مدة مديدة فحكم عليه بالنفي الموبد * وقد اذبت عند
احد اعيانهم وهو احد اعضاء مجلس المشورة العام النائب عن اقليم كمبرج
واذ كنا واقفين في المجلس نتحدث لحت من بين القيام شخصا بهم بان
يدنو مني ليكنني فدنوت منه فقال لي « قد طالما اردت ان اسالك عن
شيء في بلادكم فهل تمن علي بالجواب » قلت « ما هو » قال « اذا بركت
المجلد يستطيع ان يقوم وحده » قلت « لو سالتني عن الطعائن لاخبرتكم
فاما المجلد فلا ادري » . ثم لما حان وقت تبديل المدارس قبل عيد الميلاد
تذكرت ما وعدت به صديقي دكتور نيكلس فمن ثم سافرت الى لندرة
ومنها الى دارنكطون فبلغتها بعد نحو اثنتي عشرة ساعة قاسيت فيها
من البرد والتعب ما لم اقاؤه في عمري كله * وهنا ينبغي ان يلاحظ ان
السفر في سكة الحديد وان يكن اسرع واسهل إلا انه في بلاد الانكليز معنت
مكمد لان الغريب لا يجد من الركاب من يدل عليه بجرمة السفر والتعب
فيكلمه . فترى كل واحد بيده صحيفة الاخبار يطالعها مسافة سفره كلها .
واذا وقف الرتل لا يجد شيئا من الماكول والمشروب ما يفشا تسخطه وليست
القهوة عندهم إلا ماء دخن . ولهذا كان اكثر الانكليز يسافرون النهار كله
ولا ياكلون شيئا من حوانيت المواقف وانما يتزودون الطعام والشراب من
ديارهم وهو في الحقيقة اولى . فاما مواقف فرنسا فان فيها كل ما الفه
لانسان في بيته على ان باعة الماكول والمشروب في بلاد الانكليز اشد
خلق الله شظطا فانهم يتقاضون على فئجان قهوة الدخن نصف شلين * ثم

سافرت من دارنكطون في الساعة الثامنة صباحا فوصلت الى بنريث في
الحادية بعد الظهر . ومررنا في خلال ذلك بعدة قرى ومدن من اعظمها
برسطون سكانها نحو مائة الف نفس وهى مدينة شغل وتجر شهيرة بملقنى
الارتال فيها يمر بها في كل يوم اكثر من مائتي رتل - وهو عبارة عن صف
عواجل متناسقة بعضها الى بعض على نحو قطار الابل . وكان البرد وقشذ
هارما والتج متساقطا . فلما بلغت بنريث سالت عن مقام دكطر نيكسون
فارشدت اليه لكونه شهيرا في البلد . فلما رآنى ترحب بي غاية الترحيب
وانزلني في داره خير منزل واكرمني بما لا مزيد عليه فجزاه الله عني خيرا *
ثم ان اقليم بنريث حسن جدا لانه يحوي جبالا واودية واعظم جباله
هل ثلث ارتقاعه نحو ثلثة آلاف قدم وهو مخصوص ببعادن الفحم واهل
البلد نحو سبعة آلاف . وفي اول يوم من ابريل حشدت الناس في الطرق
ومعهم اعلام وءالات طرب فسالت صديقي عنها فقال ان جعية هنا تسمى
جعية الاد (٩٢) من شانهم ان يجتمعوا في كل ثلاث سنين مرة لمواساة بعضهم بعضا
فيصنعون وليمة في هذا اليوم ويتلون ما تقرر عندهم من الترتيب ثم ينصرف
كل منهم الى محله . ومثل هذه الجمعيات في بلاد الانكليز لا يعد ولا يحصى .
واهل ذلك الصقع يشحفون بشملة على اكافهم للتدفي ونعال فلاحهم من
خشب كفلاحي فرنسا ويعيشهم اجهد من عيش غيرهم وانحسهم من يعمل في
المعادن * ثم عن لي ان اسافر الى سكوتلاندة لارى قاعدتها وهي ادنبورغ
اذ كنت غير بعيد عنها فودعت مصيقي وسافرت الى ليفربول فوصلت اليها
بعد سفر نحو ست ساعات وهذه المدينة هى من اعمر مدن انكلترة بعد لندن
ومنشستر فلا يزال مرساها مشحونا بالسفن وسفنها مشحونة بالبضائع ومنه
تسافر الى جميع الاقطار وهي تقابل مرسيليا في فرنسا كما ان منشستر
تقابل ليون في كونها ذات معامل للخز والنياب ولندن تقابل باريس وفي
ليفربول عدة ملاه وملاعب وجوانيت بهيجة وابنية حسنة من اعظمها المحل
الذي يقال له قاعة البلد واهل المدينة لا يسخرون من الغريب وذلك
لكثرة اختلاطهم بالغرباء . وكان افتتاح سكة الحديد بينها وبين لندن في

سنة ١٨٣٨ وطول قبوتها ميل وربع وكانت في الزمن القديم محل صيد
للمسك ثم صيرها الملك هنري الثامن محلة لاجتماع العساكر وتجريدهم
منها لفتح ايرلندة * ثم سافرت منها الى منشستر فبلغتها في نحو ساعة وذلك
المدينة اشهر مدينة في الدنيا بكثرة المناسج والانوال وعدد الصانع فيها نحو
ثمانين الفا فاذا اعتبرت ان معظم آلات يدور بالبخر ظهر لك ان هذا
القدر يقوم مقام اربعمائة الف * قال العلامة ماكولي ان منشستر هي اعظم
مدينة لاشغال القطن والنساجة وكان القطن مذ خمسين سنة يجلب اليها
من ازمير وقبرس وجلة ما ورد اليها في غاية القرن السابع عشر لم يبلغ
مليون رطل اما لان فان هذا القدر لا يكفي لعمل ثمان واربعين ساعة
فانظر الى هذا الفرق العظيم الذي نشأ عن قوة البخار حتى انه جعلها
تفوق في الثروة والغنى على قواعد اوربا جميعا وذلك نحو برلين ومدريد
ولسبون . وكان اهلها اذ ذاك نحو ستة آلاف ولم يكن فيها مطبعة ولا
عاجلة ولان فيها مائة مطبعة وعشرون صانعا للعجلات اه . قلت وقد
جلب اليها في السنة الماضية ستة وخسون الف عكم او بالة من الحزير
ومن القطن مليونان ومائة الف عكم . ويقال ان جميع محصول الدنيا من هذا
الصنف لاخير يبلغ اربعة ملايين في السنة سبعة اجزاء منها تحصل من
امريكا والجزء الثامن من سائر البلاد . وجلة المعامل الموجودة في بريتاينة
بموجب خلاصة حديثه العهد خمسة آلاف ومائة وسبعة وسبعون منها اربعة
آلاف واربعمائة واثنان وثلثون في انكلترة والاس وخسمائة وثلثون في
سكوتلاندة ومائة وخمسة وخسون في ايرلند . وعدد ما يدار من الانوال
البخر مائة الف وسبعة وثلثون الفا وسبعمائة واحد عشر وما يدار بالماء
ثلثة وعشرون الفا وسبعمائة واربعة وعشرون . وجلة عدد المستخدمين
فيها من الذكور مائتا الف وثلثة وسبعون الفا ومائة وسبعة وثلثون ومن
الاناث اربعمائة الف وتسعة آلاف وثلثمائة وستون فالجملة ستمائة
الف واثنان وثمانون الفا واربعمائة وسبعة وتسعون . وفي جميع المملكة
اربعمائة وستون معبلا للحزير واربعمائة وسبعة عشر معبلا للكتان وخسمائة

وخسة وعشرون معملا للحبك والى وخسمائة وخمسة معامل للصوف والفان ومائتان وعشرة للقطن . وفيها اى فى معامل القطن من الصناع وغيرهم ثلثمائة الف وتسعة وسبعون الفا ومائتان وثمانية عشر وفى معامل الصوف تسعة وسبعون الفا واحد وتسعون وفى معامل الحبك سبعة وثمانون الفا وستمائة واربعة وتسعون وفى الكتان ثمانون الفا ومائتان واثنان وستون وفى الحرير ستة وخمسون الفا ومائة وسبعة وثلثون . وفى سنة ١٨٥٦ بلغ قيمة المبعوث من بلاد الانكليز فى مدة اءد عشر شهرا مائة وخمسة ملايين وثمانمائة وخمسة واربعين الف ليرة زاد على سنة ١٨٥٥ عشرة ملايين وبلغ ثمن ما ارسل من هء البلاد من منسوجات القطن فى ثلث سنين اءدا وثلثين مليوناً ومن الصوف عشرة ملايين . فاما قيمة جيع ما ارسل من بلاد الانكليز فقد بلغ فى سنة ١٨٥٦ نحو مائة وستة عشر مليوناً وقيمة ما يبعث من فرنسا فى كل سنة من اللامعة المصنوعة والمصوغة تبلغ مائة مليون . وقيمة جيع ما يخرج من مملكة بريطانيا من اللوازم التجارية وغيرها يبلغ فى العام نحو خمسمائة مليون واثناء عشر مليون ليرة . ويوجد محل فى ارلندة يخص اءد الانكليز فيه اربعة آلاف شخص مستخدمين فى عمل القمصان يصنعونها باءوات النار وهذا القءر بمنزلة سبعة آلاف شخص . وقءد صارت منشستر تمد جيع اءطار الدنيا بمصنوعاتىا وتكسو الناس والحيوان والءيار بمنسوجاتىا بعد ان كانت تبعث الثياب الى هولانءة لتصبغ هناك وتعاد اليها لتبيعىا وبعد ان كانت تنتظر اءد الفارين من فرنسا وغيرها ان ياتى اليها ويبعث فيها صنعة من الصنائع . فان هذا الءيباج الذى يسمونه « داماسك » (٩٣) اصل صنعه كان فى ءمشق ثم حاكام فيه اهل هولانءة وفى سنة ١٥٧١ هرب منهم جماعة بسبب ظلم حاكمهم وجورة عليهم فجاءوا الى بلاد الانكليز وصنعه فيها * قال مولف المآعرات العجيبة : « اما صنعة النسيج فقد كانت معروفة فى بلاد الصين من قبل ان عرفت فى اوربا بءهر طويل . والغزل عنءهم والنسيج والصبغ انما هو من شغل النساء . واول من صنع ثياب الصوف فى بلاد الانكليز رجلاان قءما من برابان . ثم قءم من

هولاندة صباغون وبزازون وصناع للحريز وشهروا هك الصنائع بين الالهين وذلك في سنة ١٥٦٧ . واذا نظرنا الى احوال انكلترة مذ الفي سنة وجدنا ان ملابس اهلها انما كانت من جلود الحيوان وان ثياب زعماتهم لم تكن الا من الكربلس الخشن كانما هو مسح حتى ان الفرسان الذين تنوء بهم التواريخ كانوا اذا نزعوا عنهم الدروع الهامة يشف عنها ثياب الجلد . فلما عرف النسيج في العصر المتاخرة كان الغزل كما لا يخفى من صنع النساء . وبقي الحمال على ذلك دهرًا طويلا الى ان قيض الله اركريت والنقي في روعه استنباط آلة للغزل تكون دائمة الحركة فوفق الى ذلك ونجح ما امكن . * وقال آخر « ولد اركريت في سنة ١٧٣٢ . وبقي الى سن ٣٦ من عمره حامل الذكر مشغولا بالخلاقة ولا يكاد يحصل من حرفته شيئا زائدا على قوت يومه الا انه كان ذا فكر ثاقب في جر لا ثقال فما زال يعمل فكرة في اختراع آلة الغزل حتى تسنى له ما قصك ولكن بعد صعوبات شتى . فلما اشتهر مخترعه اجازت له الدولة ان يستبد بمنافعه الى مدة مديدة فانشا معملًا في دربي ولم تمض عليه مدة حتى احرز اموالا طائلة وطار ذكره بين الناس . فحدث باستنباطه هذا في اشغال النسيج تغيير عظيم من تنقيص الصناع وترخيص سعر الثياب » (٩٤) اه * وحكي عنه حكاية غريبة وهي انه ذهب الى بعض اعمال انكلترة واوهم اهلها ان الدولة جردته لان يقص شعورهم ليسلوا من عدوى البلاء الذي كان فشا بين جيرانهم . فانقادوا له فلم يبق الا من قص شعرة واتحفه به . فاخذ تلك الخصل وصبغها وانفع بها انتفاعا جزيلا . قال بعض العلماء لولا استنباط اركريت لما استطاعت دولة الانكليز ان تقاوم نابوليون الاول مدة خمس وعشرين سنة حتى قهرته في آخر الامر وقصرته في جزيرة صنت هيلان * . واول من اتقن صنعة نسيج الحرير في انكلترة جماعة هربوا من فرنسا الى لندرة وذلك سنة ١٢٨٦ . واصل جلب الحرير المصنوع الى بلاد اليونان كان من بلاد فارس وذلك في سنة ٣٢٥ قبل الميلاد وعرف في رومية في ايام طيباريوس وحرم على الرجال دون النساء . واول من لبس ثوبا منه هليوغابالوس (احد قياصرة الرومانيين)

وذلك في سنة ٢٢٠ للميلاد وكان ثمن الحرير اولا في قيمة الذهب وزنا
بوزن . وكان يظن انه ينبت من الارض كشجر القطن . وفي القرن
السادس جلب دود القز من الهند الى اوربا . وفي سنة ٧٨٠ اهدى شارلمان (٩٥)
حلة منه الى انى ملك مرسية . وفي سنة ١١٣٠ حرص روجر ملك صقلية
وعيته على عمله فكانوا يربون دود القز ويغزلون الحرير وينسجونه . ثم
اشتهرت صنعتهم في ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا وذلك في سنة ١٥١٠ .
وفي سنة ١٥٨٩ كثر هنري الرابع دودة وشجرة في جميع المملكة . وفي سنة
١٢٨٦ لبس بعض نساء الاشراف من الانكليز حبرا منه * وقسال فلتير ه لم
تقم امة قوية في التجارة والحرب بعد انقراض قرطاجنة كما قامت
دولة فينيس حتى صارت قدوة في ذلك . نعم ان دولة البورتوكال جازوا
الى الهند من عند الرجاء الصالح وطلوا حينا من الدهر ولاية سواحلها واولي
شوكة في اوربا . وان الولايات المتحدة صارت ايضا دولة بحاربة رغما
عنها حتى عادت دول اوربا . وان فينيس وامستردام وقرطاجنة حازوا من
قبلهم من العز والمنعة ما شغل الالسن بالمدح والثناء . إلا انهم جميعهم عملوا
كما يعمل الناس في عصرنا هذا اغني انهم بعد ان حصلوا الثروة بالتجارة
اشتروا ضياعا واملاكا واجلدوا الى الرفاهية والراحة . فما احد ابتدا ان
يكون بحاربا حتى يكون في اخرته تاجرا إلا الانكليز فهم وحدهم المجدديرون
بهذا النعت فانهم حاربوا احقابا طويلة من قبل ان يعرفوا الحساب ولما
انتصروا في وقائع اغنيكورت وكرسى وبوتيروس لم يكونوا يعلمون انهم
يقدرون بعدها على تجارة الحبوب او صنع الجوخ العريض فان ذلك لهم
انفع من تلك النصر لاجرم انه لا شئ يغني الامة ويشيد عزها كعرفة
الصنایع والتجارة اذ لولا التجارة لما كانت لندرة تقضل باريس في السعة
وكثرة السكان ولما قدروا على ان يثوا في البحر مايتي سفينة حربية ويجروا
الرزق الغيم على الممالك المتواطئة معهم . الا ترى ان لويس الرابع عشر
لما البقى العرب في قابو اهل ايطالية واستولت جيوشه على صافوى
ويدمنت وكادوا ان يستولوا ايضا على طورين لم يكن بد للامير يوحين

من ان يتوجه الى اطراف جرمانية لانجاد دوك صافوى . ولكن لما لم يكن له مال يمكنه من ان يفتح بلدا او يضبطه اضطر الى الاستعانة بتجار الانكليز فاجابوه الى ذلك فورا واقضوه في نصف ساعة خمسة ملايين فرنك . فاستخلص بها طورين وكبت الفرنساوية وردد هم عنها مقهورين ثم كتب الى الذين دانوه : « ايها السادة - اني قد تسلمت منكم مالا وقد انفقته فيما يرضيكم » . فكان كلامه هذا حاملا للانكليزي على الكبر والافتخار وله علي ان يتزل نفسه بمنزلة روماني وهو به خليف على ان اصغر اولاد سيد المملكة عند الانكليز لا يانف من ان يكون تاجرا . فان اخا لورد طونسند آثر ان يكون تاجرا في السبي على ان يقلد وظيفة في الديوان . ولما كان لورد ارفورد متوليا تدير المملكة كان اخوه منشي معمل في حلب ولم يشأ ان يرجع الى وطنه بل مات هناك . وهذا الداب الذي اخذ لان في الدور كان بعد عند امراء جرمانية من المنكرات فلم يقدروا ان يفهموا كيف يكون ابن سيد المملكة داخلا في سلك التجار مع انهم هم كلهم سادة . ولكن كم قد راينا منهم من سيد يوصف بلقب السمو وليس له ملك ولا ثروة غير هذا الجلاء والكبر الاميري . اما في فرنسا فان كل واحد يمكنه ان يصير مركيزا وكل سن يقدم اليها من البلاد الاجنبية وآخر اسمه ينتهي بحرفي « اك » او « ايل » وعنده مال ينفق منه فان له ان يقول ليس لي من نظير وما احد من بابتي وينظر الى التاجر بعين التهانن ولاحتقار . فاذا سمع التاجر ان الناس يعجبون حرفته ويشيئونها اغترأه الحجل ولكن ليت شعري اي الرجلين انفع لدولته اسيد يعرف بالتفصيل متى يقوم ملكه ومتى ينصرف الى مرقدة ثم يتخذ لنفسه مظهر عظمت وابهة وهو مع ذلك يرضى لنفسه خطة ذل وعبودية بانتظار الوزير في قصره ام تاجر يقعد في مخدعه ويث منه اوامر الى سورات وحلب ليفني بنلاذه ويسعد اهلها » (١٦١) . قلت ومدح فلنير التجارة ليس قدحا في العلوم والمعارف وانما هو تحريض على اتساع دائرة التمدن . وشتان ما بين تجار الفرنسيين وبين تجار البلاد الشرقية فان هؤلاء لا يحسنون الكلام إلا في

المكيول والموزون ولا يعرفون ان يكتبوا سطرًا واحدًا من دون غلط فهذه الحال ينكرها فلتير وكل ذي ذوق سليم * ثم ان منشستر هذه كانت في القديم مقاما للدرويدس وكان لهم فيها هيكل ومذبح قيل له باللغة القديمة « مين » اي حجر وصارت قبل الميلاد مقرا للبريتانيين فبنوا فيها قلعة سميت « منسيون » اي مضرب الخيام ثم تصفحت على المتأخرين فقالوا للمدينة « منشستر » . وهؤلاء الدرويدس كانوا في القديم كهان جرمانية وفرنسا وبريتانية وحكماءهم وكانوا في هذه لآخرة يتخبون من اكرم العيال فكانوا يشتغلون بالعلوم ومعرفته الفرائص الدينية ويعبرون كلام الالهة ويفصلون الدعاوي الخطيرة ويتولون تدير الجيش . ولما غزا قيصر هك الجزيرة قابله بالجيوش والسالة ذبا عن الوطن فنقم عليهم ذلك بعض ولاية الرومانيين واستاصل شافتهم * وفي هذه المدينة اسواق طريفة وحوانيت بهجة وفيها تعرفت بالفاضل الكرم السيد عبد الله الادلبي قنصل الدولة العلية ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حرة راسينا . فانه اول ما راى طربوشي اقبل الي متبسما باشا ودعاني الى منزله من دون ان ابرز اليه كتاب وصاة على عادة القوم . ولم يكتف بهذا حتى اخذ عنوان مقامي في كمبرج قصد ان يبعث الي بهدية من طرف المدينة وقد فعل جزاء الله خيرا . وله مساع عند الدولة المشار اليها بمحمودة وذكر حسن عند اهل البلدة وعند اهل الشام ايضا * وفيها رايت الموحى المعروف بالتلفراف وهو على نوعين . الاول المتعارف وهو شبه الساعة الدقاقة في وجهها ابرة من فولاذ موضوعة تحت قضبي حلقة وفوقها مسماران صغيران من عظم قد رسم فوقهما الحروف الابجدية . والغالب ان يكون في كل صفحة ابرتان - فتقى حركت الابرة السلك المتصل بها من وراء الصندوق طرقت على كل من الوتدين ولكل حرف طرق معلوم فالالف مثلا لها طرفتان على وتد واحد والباء ثلث اثنتان على وتد واحدة على آخر وهلم جرا . والثاني وهو ما اخترع بعده فكان اوفق واسهل وهو آلة كالدولاب فيها قلم دقيق من فولاذ مركب من اجزاء كيميائية ويمر من تحته سير دقيق من ورق مركب ايضا فيرسم عليه

خطوطا سودا هي في عرفهم حروف . وهناك ايضا ءالة كمنوال الحائك ذات اسنان دقيقة بارزة منه يمر من تحتها الورق فترسم عليه خطوطا . وقيل انه يعجد ءالة ترسم الحروف المكتوبة كما يرسمها كاتبها سواء حتى لو كتب احد بالعربية شيئا ادته كما هو وهذه الالة لم ارها . واكثر الالات استعمالا في بلاد الانكليز انما هي الابرة وفي بلاد امريكا الدولاب . وبكل منهما يصل الخبر من لندرة الى ايدنبرغ وهي مسافة ثلثمائة ميل في ثانية وسواء كانت المسافة طويلة او قصيرة فالتأثير واحد . فاما تحريك الاسلاك فانه ينشا عن الخاصية المجاذبة من وضع صفحة من النحاس وقطعة من التوتيا توضعان في الماء فيخرج منها روح يسري في السلك المماس لهما ومنه الى الاسلاك التي ترى عيانا في الطريق . وقد تراها ممتدة في الهواء بجانب سكة الحديد وربما كانت ثلثة او ستة فاكثرو ربما بلغ الخبر بعضها الى مكان وبعضها الى مكان ءاخر وسواء كانت سافلة او عالية او على خط مستقيم او منحرف فلا يتخلف حكم الخبر بها . وقد ثبت بالتجربة انها تصح تحت الماء كما تصح في الهواء . وهذه المصاحبة يتكفل بها جماعة على حديثها والفائدة منها عامة للجميع ولا سيما الدولة والتجار . فانه اذا اريد الاستخبار عن امر مهم علم في دقيقة واحدة واذا هرب القاتل من بلد الى ءاخر عرف مكانه قبل وصوله . وجعل نحو صفرين كلمة نصف ليرة . ثم لما قرىبي المقام في لندرة طلبت من مدير الموحى ان ياذن لي في رواية الالات وموضع النحاس والتوتيا فورد الي الجواب منه بانه يكره من ان يريها الغرباء ولا سيما الاجانب كل الكراهية ولكن اذا كتبت اليه الجمعية في ذلك يرصني حتى اذا فعلت بعث معي من ارانيها جلية وتفصيلا . فاول ما رايت هو الموضع الذي فيه التوتيا والنحاس وهو عبارة عن موضع مظلم كالنفق فيه موائد كثيرة من خشب ذات بيوت صغيرة مقسمة تشتمل على هذين الجوزين وقد غمرت بالماء ومعهما ملح الكبريت وسلك الحديد وهذا السلك متصل بالسلك الظاهر في الهواء كما تقدم ءانفا . اما التوتيا فتدخل على طول المدى وتلاشتي واما النحاس فيزيد . ثم

أريت موضعا في الحائط مغشى بالخشب يشتمل داخله على احزاء وخارجها على نحو مسامير بارزة منه ، فجاء الرجل بتطعنين من النجم والدمع من مسمار واذا بنور بهي ساطع اخرج من طرفيهما . ومن هذا التقابل في المجاذبية تخرج ألوان عديدة زهية يبدونها احيانا في الملاهي بما يقصر عن وصفه القلم . ولما وضعت اصبعي على مسمارين منها احسست بارتعاش وجاذبية اخذت مفاصلي فرفعتهما حالا * ثم سعدنا الى الموضع الذي نتلقى فيه الاخبار من كاتب ديوان الوحي وذلك انه اذا اراد احد ان يبعث خبرا كتبه وسلمه للكتاب او املاه عليه مشافهة فيدونه الكاتب في رقعة ويجعلها في طرف ويسد اغلاه ثم يضعه في نحو صندوق فتدفعه القوة الكهربائية الى موضع يكون عنده غلام واقف فياخذه ويسلم الرقعة الى قيم الالة المعدة لتبليغ الخبر فان كان يراد توجيهه مثلا الى باريس سلمه الى قيم آلة باريس وعلم جرا * ثم دخلنا موضع الآلات وهي على الصفة التي رايتها اولا غير اني رايت التبليغ هنا على يد النساء لا الرجال . وكيفية ذلك ان تقعد المرأة على كرسي وتمسك بيدها مقبضا من خشب وتحركه حركات مطابقة لاصطلاح الحروف فيتحرك السلك المشرب من روح التوتيا والنحاس فيحرك الالة في المحل المبلغ اليه الخبر على حسب حركات اليد ، وترى البنت تحرك هذه الالة كما يحرك العازف يده على آلة الطرب بغاية ما يكون من الخفة * وبينما كان الرجل يكلمني امام الالة اذ راينا الالة تطرق على المسمارين ثم حركت البنت المقص وسكتت ثم تحركت الالة ايضا وكان ذلك باسرع من ان ينطق المتكلم بعشر كلمات . فقال لني الرجل « اتدرى ما سبب حركة الالة مرتين » قلت « لا » قال « قد ورد خبر من فيني يراد تبليغه الى ليقربول فبلغته البنت وجاءها خبر بوصوله » فبقيت مدهوشا متحيرة واخذت افكر تفكيراً متغلغلا في كيف ان هذا العلم الحري بان يدعى من العلوم الالهية لكونه غير متناه لم يكشف سره من قبل لان حين كان النحويون يميزون ستة عشر وجها في الصفة المشبهة ويمنعون وجهين ويختلفون في وجه وجين كان العمر يضاع في التعليل والاعتراضات

التحويين الترجيح كما اشار اليه العالم الاديب الشيخ احمد المسيري بقوله يندح عزيز مصر على انشاء مدارس للعلوم الرياضية :

« فهذا الفخر في وجه المعالي * وليس بضرب زيد وجه عمرو »

اذا لصرف خواطر القوم الى الاشتغال بما هو اهم وانفع فان وصول الخبر من قاعدة مملكة اوستريا الى ليبربول في اقل من ثمانية انفع من تجويز عشرين وجها في مسالة واحدة (٩٦) وهذا هو سر الكيمياء الذي يتعلمه الافرنج لان لا تحويل الحديد ذهباً او لآنك فضة فان شئت ان تسميه بالاكسير فانت صادق * والحاصل ان الخبر يبلغ بهذه لالة مسافة الف ميل كما يبلغ مسافة ميلين على السواء . وعدة آلات في هذا المحل نحو خسين وعدة المستخدمين فيه مائة وثلاثون * قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة « لم يكن يخطر ببال احد من المتقدمين انه يمكن ايصال فكر من بلد الى آخر مسافة مئات من الامال في ثوان قليلة وان سن يكون واقفا في لندرة يمكنه ان يخاطب اخر في ايدنبورغ ويتلقى منه الجواب كأنهما جالسان في غرفة واحدة مع ان بينهما مدى ثلثمائة ميل . فلا جرم ان الموحى انما هو اكبر العجائب التي كشفت في عصرنا هذا . فان السارق مثلاً يذهب في احد الارقال السريعة وهو مسرور بسرقة وفراره من يد الشرطة ويطمع في انه اذا بلغ الى احدى المدن الغناء يخفي اثره عن متتبعه ويضيع خبره في تغلغل بين الناس فيعمد الى رتل يمر مسافة خسين ميلاً في الساعة ويكون خبره قد تقدمه في السلك الذي يراه بعينه مرة من يمينه . ومرة عن شماله ويكون الشرطي قد عرفه بسمته وسمته وصفاته وعرف الرتل الذي سافر فيه فما يكاد يخرج منه إلا وهو (اي الشرطي) أخذ بتلاييه فيبقى اللص مدهوشاً مبهوراً لا يدري اين يقصد . ثم تقتش صناديقه واوعيته ويستخرج منها المسروق ويرسل هو الى الحبس . فمن ثم كانت فوائد هذه الاسلاك من اعظم الاسباب الوبيدة لاقامة الحق وتشديد سنن الشرع وتنفيذ احكامه . ولو كان ايصال الخبر على هذا الوجه قد عرض على مسامع اهل القرون الحالية لعدوه من الخزعات المقتلة . إلا ان هذا

العلية لم تنشأ عرضاً او بقتة بل بعد اعمال فكر وجهد روية في مدد متعاقبة . واصل ما ادى اهل المحكمة والفلسفة الى هذا الاستنباط كان استعمال فرنكلين لاميريكاني للطيارة المعروفة ومذ حينئذ خطر ببال المتبحرين في العلوم انه لا يبعد عن الامكان ايصال خبر بواسطة اداة الى بعض الاماكن الشاسعة . قلت ولد فرنكلين المذكور في مدينة بوسطن من اميركا في سنة ١٧٠٦ وكان في مبدا امره حامل الذكر ثم اشتغل بالعلم وحسنت حاله وما زال يترقى في المعالي حتى صار من اهل السياسية وذهب الى باريس وحظي عند رجال الدولة حظوة عظيمة حتى انهم لما بلغهم خبر وفاته لبسوا عليه الحداد وله مولفات عديدة فاما خبر طيارته فهو انه صعداها في الهواء في يوم ذي دجن وكان قد ربط مرستها الى وتدين واناط بها مفتاحا فلما غشيها الغمام وجد ان بعض خيوطها قد تنفش وتجافى عن بعض منتصبا فادنى برجته من المفتاح فاحس بشرار البرق اه . قال وفي سنة ١٧٨٧ اجرى لوموند السكوتلاندي عملية تقرب من هذا الكشف وفي سنة ١٧٩٤ نصب ريزر موحى يمكن استعماله وان كان اقل نفعا واتقاناً من المستعمل لان فكان التبليغ فيه خاصا بالسلك والعمل كله للشرارة الكهر بائية . وكان السلك يجعل في موضع مظلم وحوله صفائح من القصدير عليها حروف مرسومة وقد ركزت على صفائح من زجاج فاذا طار الشرر على هذه ليجهري في السلك اضاء الصفائح فتمكن به قراءة الحروف . ثم قام فولتى وحسن هذه العملية بعض التحسين ثم روفالدس من همسميث وارستد من كوبنهاغن وشويجر وموينك ودافيس واراغو وغيرهم وكل منهم زاد شيئا وحسن شيئا . وفي سنة ١٨٣٧ قام دكتركوك وويتسطنون واخذوا رخصة من الدولة لاجراء هذه العملية . وفي سنة ١٨٣٩ استعمل الموحى كما نراه الان في سكة الحديد المسماة السكة الغربية الكبيرة وهو الذي يبلغ الخبر بواسطة طرق الابرة على المسامير . واخبرني من يعرف ويتسطنون انه هو الذي اخترع آلة الطرب المسماة « كشتوتينو » وآلة اخرى من نوع النظارات . ثم اخترع دكتر سطنبيل من مونيخ آلة تقط الحبر على ورق وعلى قدر ترتيب النقط يكون فحوى

المنقوش . وفي سنة ١٨٤٠ اخترع ويستون هذا المنوال الذي يدور ويرسم
 الحروف . وفي سنة ١٨٤٢ نصب مسترود لاسلاك على دعائم وكانت
 من قبل تحت الأرض وهي غير مماسة لها بل نافذة من حلق من الفخار
 وبذلك سهل نصب اسلاك غليظة من الحديد بدل النحاس فنقصت
 لمصاريف نحو النصف * . وهناك لاسلاك تجري في ثلثي سكك الحديد
 الممتدة وليس من بلد عامر إلا وتصل اليه الاخبار بها . ا هـ . وقال صاحب
 البجدية الاوقات « اول من خطر بباله انشاء الموحى المعروف لان كان
 دكطرهوك وذلك في سنة ١٦٦٤ . وقيل ان موسيو امتونس هو ايضا مخترعه
 في ذلك التاريخ إلا انه لم يجز استعماله إلا في سنة ١٧٩٣ . وقيل ان موسيو
 شاب هو اول من اخترع الموحى الذي استعملته الفرنسيون في تلك السنة .
 وفي سنة ١٧٩٦ نصب سلكان فوق ديوان الاميرال . ا هـ . قلت كانت ولادة
 روبرت هوك في سنة ١٦٣٥ ووفاته في سنة ١٧٠٢ . ويقال انه هو اول من
 اخترع آلة لتقويم حركة الساعة واتقن كثيرا من الآلات الهندسية
 وفكر في المجاذبية الارضية واستنبط في الرياضيات والفلكيات والطب
 والكيمياء اشياء كثيرة . وكان شرسا جسودا نازع نيوطون انفس مخترعائه *
 ثم سافرت من منسستر الى ايدنبورغ قاعدة سكوتلاند وهي مدينة بهيجة
 جدا مبنية من الحجر الصلب على عدة نجوات . وهي شطران احدهما
 جديد والثاني قديم . اما القديم فان دياره عالية جدا فقد تشتمل الدار
 على ثمانين طبقات إلا ان فيه ازقة قذرة ضيقة جدا . واما الجديد فانه
 يشتمل على طرق واسعة وديار حسنة وحوانيت عظيمة ومبايت للمسافرين
 رحيمة . وفيه مدرسة جامعة تحوي نحو ستمائة طالب وهي شهيرة بعلم
 الطب وفيها مكتبة موقوفة تحوي ثمانين الف كتاب ما عدا كتب خط
 يد . وهناك قبة جليلة فيما تسمال سرد لطر سكوت شاعروهم الشهير ولها
 مرقب عال مطل على الخليج الداخل من البحر وسعته عدة اميال . وهذا
 لمطل يكاد ان يكون كمطال جبل لبنان . وقد كان الفاصل بين الشطرين
 خليجا ولان جعل ممرا للارتال * اما ارض سكوتلاند فهي دون ارض انكلتر

في الخصب والريع وذلك لكثرة الجبال فيها إلا أن أهلها اصحاب جد وداب
في الصنائع وشأنهم التغرب في جميع البلاد فهم كاهل جلب في الشام وكل
سنة يهاجر منهم أكثر من ثمانية عشر الفا . وهم أكثر شقرة وصهوبة من
الانكليز وعدتهم نحو ثلاثة ملايين ولهم لغة خاصة بهم غير أن لغة الانكليز
غلبت عليهم الآن . وحاكمهم منهم ولكنه تحت طاعة الدولة . وهم اشد
فحمسا في الدين من الانكليز فان اصحاب الفنادق يضعون في كل غرفة
للمسافر كتاب العهد القديم والجديد وكثيرا ما ترى نساء يعن الفاكهة
في الطريق وبين ايديهن كتاب الانجيل . وقد طالما حاولت اساقفة
الانكليز اقرار كنيستهم فيها وجعلها الاصل كما فعلوا بارلاندا فقابلهم الاهلون
بانشد الاباء والتمنع مع ان اهل ارلاندا أكثر من سبعة ملايين . وسبب
ذلك انه لما اتحدت سكوتلاندا بانكلترا وذلك في سنة ١٧٠٧ كان من جملة
الشروط التي اشترطوها ان تبقى رسوم كنيستهم ومناسكها كما كانت فافترتهم
الدولة على ذلك الى يومنا هذا . وهم مثل الانكليز في كونهم يشفتون الغريب
فاني حين كنت امر في الطريق كان يجري وراي جع غفير من الرجال
والنساء والاولاد ينظرون الى طربوشي ويتعجبون حتى اضطرت مرة الى
ان اتواري منهم في دكان * وقد رايت في هك المدينة القصر الذي كانت
تسكنه الملكة ماري استوارت المشهورة بالجمال والتجاجة وهو في خضم من
الارض وفيه شاهدت صورتها وسريرها الذي كانت تنام عليه وصورة
الطلياني الذي اتهمت بحبه وهو يقاربها في الجمال . وصورته باقية في
الموضع الذي قتل فيه غيلة وسنيه فيما قيل انه لما كان يعزف لها بالكثارة
ذات ليلة اذ هجم عليه زوجها من باب خفي فقتله عند الباب الخارج
ولم يزل اثر الدم على الحشب القريب من العتبة . ثم رايت صورتها ايضا
في القلعة التي حبست فيها بعد ان اتهمها حسادها بالفحش وهي اجمل
من صورتها في القصر . ولما كانت محبوسة هناك اخذها الطلق فولدت
جاسر الاول وهو الذي صير ملاكتي سكوتلاندا وانكلترا ملكة واحدة .
وشاهدت ايضا في القلعة تاج الملك والسيف والصولجان والنيشان وخاتما

من ذهب فصد ياقوتة اكبر من الفولة والشباك الذي تدلت منه فنجت وهو عال جدا . وفيها ايضا كنيسة صغيرة يقال انها اول كنيسة اقيمت فيها فرائض النصرانية في تلك البلاد وكانوا حينئذ يرقونها . وهذه القلعة مبنية على صخر ارتفاعه ثلثمائة قدم * فاما ما كان من امر الملكة ماري ففي محفوظي انها بعد ان يتست من الملك بعد وقائع طويلة جرت بينها وبين اعدائها فرت من دار الملكة وكتبت الى ابنة عمها وقيل اختها الیصابت ملكة الانكليز تستجير بها . فكتبت اليها ان « اقدمي علي ولك الامان » . فلما قدمت عليها اضمرت لها شرا حسدا لها على جالها ومحاسنها . فصدق المثل حيث قال « ان من الحسن لشقوة » ثم تجنت عليها امورا كثيرة من جلستها انها قتلت زوجها فاودعتها السجن . ثم خفرت ذمتها معها ونقضت عهدها وعقدت عليها مجلسا حكموا بقتلها فقتلت * ومع ان الانكليز ينوون باسم الملكة الیصابت لاجارتها مذهب البروتستانت فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذي رضيته لنفسها بعد التامين . فهو طبع يصدا به ذكرها على مر الدهور * وسن قرا قصة الملكة ماري وهي مسجونة وما لقيت من الضر والنكد فلا يملك عبراته عليها . ولعمري انه لم يشقني شيء الى روبة سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر ايامها * قال بوليت ان ماري ملكة سكوتلاند هي بنت يعقوب الخامس ملك سكوتلاند وادت في سنة ١٥٤٢ ومات ابوها بعد ولادتها بثمانية ايام . وفي سنة ١٥٥٨ تزوجت دوفان (٩٧) فرنسا . ثم صار ملكا باسم فرنسيس الثاني ومات عنها بعد سنة ونصف فرجعت الى سكوتلاند . إلا ان تمسكها بديانة الملة الكاثوليكية جعلها بغیضة لدى لاهلين . وفي سنة ١٥٦٥ تزوجت ابن عمها هنري لمجرد جالنه فقط وكان يغار عليها من داود ريزيو الطلياني كاتب سرها فقتله بمرأى منها . وفي سنة ١٥٦٧ هلك هو فاتهمت به . وبعد ثلاثة اشهر تزوجت الكونت بوثوا ، ولم تتدبر في العواقب حيث كان قد اتهم بانها اجهز على زوجها . فشغب عليها فعلها هذا اهل الملكة والزموها ان تعدي من مذهبا ففرت والتجأت بابنة عمها الملكة الیصابت وذلك في سنة ١٥٦٨ . وحيث كانت

اليصابات تحسدها على جمالها القتها في السجن ثماني عشرة سنة . ثم تجنت عليها انها غاوت جماعة من الكاتوليكيين على اهلاكها فقضت عليها بالقتل فماتت وهي متجلدة . وكانت توصف في عصرها بالكياسة والطرافة والفصاحة وبانها اجل النساء . وعند وداعها فرانسوا قالت كلاما بليغا * قلت وجدت في بعض التواريخ انها نظمت في هذا المعنى ابياتا بالفرنساوية وترجتها كما ياتي : « وداعا يا فرنسا الانيقة - يا بلادي التي هي عندي الاعز والتي رشحت صباي . وداعا يا فرنسا - وداعا يا ايامي الغراء فيها .. ان الفلك الذي فصل حبي لم يحمل الى هنا سوى شطري ولقد بقي لك الشطر الاخر ملكا لك وساتركه لمودتك حتى يتذكرك الاخر » * وقال آخر : قتلت ولها من العمر اربع واربعون سنة وشهران . ولما قدمت الى بلاد الانكليز كان سنها خسا وعشرين سنة * وقال بولية : وماتت عن ولد ملك على سكتولاند باسم يعقوب السادس وعلى بلاد الانكليز باسم يعقوب الاول . وقد الف العالم شلر على قتلها تشيلة من ابلغ ما يكون . اه * ومما ذكر عن هذه الملكة على سبيل الاسهاب هو ان الملكة اليصابات كانت قد حسدتها على صيتها وجمالها فاصمرت قتلها فمن ثم امرت احد كتابها المسمى داريصون بان يكتب امرا بذلك . وكان الامير ييل من اشد الناس عداوة للملكة ماري فصار اليها لينذرها ان تستعد للقتل فقالت له « ما كنت اظن ان اخي الملكة اليصابات تامر بقتلي حالة كوني لست من رعيته ولكن اذا كان رضاها في موتي فاهلا به . الا وان نفسا لا تسمح لجسمها بان يتحمل ضربة جلاد لغير جديرة بان تتمتع بنعيم الاخرة » . ثم طلبت ان تفاوض قسيسها وكان قد منع من رويتها فاشار عليها بعض النبلاء بان تفاوض احد اساقفة البروتستانت فامتنت فقال لها امير كنت وكان متحمسا في مذهب هؤلاء « ان حياتك موت لديننا وموتك حياة له » ثم ذكر لها ما جرى من تفاوي بانطون فانكرت مواطانها له في شيء . ثم لما انصرف الامراء من عندها امرت باحضار العشاء سريعا ليتمكن لها انهاء علائقها وامورها . فلما حضر تناولت منه قليلا على عادتها فجعل خدمتها وحشها يكتبون وجعلت

من ذهب فصد ياقوتة اكبر من الفولة والشباك الذي تدلت منه فنجت وهو عال جدا . وفيها ايضا كنيسة صغيرة يقال انها اول كنيسة اقيمت فيها فرائض النصرانية في تلك البلاد وكانوا حينئذ يرقونها . وهذا القلعة مبنية على صخر ارتفاعه ثلثمائة قدم * فاما ما كان من امر الملكة ماري ففي محفوظي انها بعد ان يتست من الملك بعد وقائع طويلة جرت بينها وبين اعدائها فرت من دار الملكة وكتبت الى ابنة عمها وقيل اختها الیصابت ملكة لانكيز تستجير بها . فكتبت اليها ان « اقدمي علي ولك الامان » . فلما قدمت عليها اضمرت لها شرا حسدا لها على جالها ومحاسنها . فصدق المثل حيث قال « ان من الحسن لشقوة » ثم تجنت عليها امورا كثيرة من جلاتها انها قتلت زوجها فاودعتها السجن . ثم خفرت ذمتها معها ونقصت عهدها وعقدت عليها مجلسا حكموا بقتلها فقتلت * ومع ان لانكيز ينوون باسم الملكة الیصابت لاجارتها مذهب البروتستانت فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذي رضيه لنفسها بعد التامين . فهو طبع يصدا به ذكرها على مر الدهور * وسن قرا قصة الملكة ماري وهي مسجونة وما لقيت من الضر والنكد فلا يملك عبراته عليها . ولعمري انه لم يشقني شيء الى روية سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر ايامها * قال بولية ان ماري ملكة سكوتلاند هي بنت يعقوب الخامس ملك سكوتلاند وادت في سنة ١٥٤٢ ومات ابوها بعد ولادتها بشمانية ايام . وفي سنة ١٥٥٨ تزوجت دوفان (٩٧) فرنسا . ثم صار ملكا باسم فرنسيس الثاني ومات عنها بعد سنة ونصف فرجعت الى سكوتلاند . إلا ان تمسكها بديانة الملة الكاثوليكية جعلها بغیضة لدى لاهلين . وفي سنة ١٥٦٥ تزوجت ابن عمها هنري لمجرد جاله فقط وكان يغار عليها من داود ريزيو الطلياني كاتب سرها فقتله بمرأى منها . وفي سنة ١٥٦٧ هلك هو فاتهمت به . وبعد ثلاثة اشهر تزوجت الكونت بوثوا ، ولم تتدبر في العواقب حيث كان قد اتهم بانها اجهز على زوجها . فشغب عليها فعلها هذا اهل المملكة والزموها ان تعدي عن مذهبها ففرت والتجأت بابنة عمها الملكة الیصابت وذلك في سنة ١٥٦٨ . وحيث كانت

اليصابات تحسدها على جمالها التتها في السجن ثماني عشرة سنة . ثم تجت عليها انها غاوت جماعة من الكاثوليكين على اهلاكها فقضت عليها بالقتل فماتت وهي متجلدة . وكانت توصف في عصرها بالكياسة والطرافة والفصاحة وبانها اجل النساء . وعند وداعها فرانسوا قالت كلاما بليغا * قلت وجدت في بعض التواريخ انها نظمت في هذا المعنى ابياتا بالفرنساوية وترجتها كما ياتي : « وداعا يا فرنسا الانيقة - يا بلادي التي هي عندي الاعز والتي رشحت صباي . وداعا يا فرنسا - وداعا يا ايامي الغراء فيها .. ان الفلك الذي فصل حبي لم يحمل الى هنا سوى شطري ولقد بقي لك الشطر الاخر ملكا لك وساتركه لمودتك حتى يتذكرك الاخر » * وقال آخر : قتلت ولها من العمر اربع واربعون سنة وشهران . ولما قدمت الى بلاد الانكليز كان سنها خمسا وعشرين سنة * وقال بولية : وماتت عن ولد ملك على سكتولاند باسم يعقوب السادس وعلى بلاد الانكليز باسم يعقوب الاول . وقد الف العالم شلر على قتلها تشيلة من ابلغ ما يكون . اه * ومما ذكر عن هذه الملكة على سليل الاسهاب هو ان الملكة اليصابات كانت قد حسدتها على صيتها وجمالها فاصمرت قتلها فمن ثم امرت احد كتابها المسمى داريمون بان يكتب امرا بذلك . وكان الامير بيل من اشد الناس عداوة للملكة ماري فصار اليها لينذرها ان تستعد للقتل فقالت له « ما كنت اظن ان اخي الملكة اليصابات تامر بقتلي حالة كوني لست من رعيها ولكن اذا كان رضاها في موتي فاهلا به . الا وان نفسا لا تسمح لجسمها بان يتحمل ضربة جلاد لغير جدية بان تتمتع بنعيم الاخرة » . ثم طلبت ان تفاوض قسيسها وكان قد منع من رويتها فاشار عليها بعض النبلاء بان تفاوض احد اساقفة البروتستانت فامتنعت فقال لها امير كنت وكان متحمسا في مذهب هؤلاء « ان حياتك موت لدينا وموتك حياة له » ثم ذكر لها ما جرى من تفاوي بابنطون فانكرت مواطاتها له في شيء . ثم لما انصرف لامراء من عندها امرت باحضار العشاء سريعا ليتمكن لها انهاء علائقها وامورها . فلما حضر تناولت منه قليلا على عادتها فجعل خدمتها وحشمها يكون وينتخبون وجعات

هي تطيب خواطرهم بالكلام وتسليهم وهي تقول « كفوا عن النواح وافرحوا
بانطلاقي من هذا العالم عالم الشقاء » ثم التفتت الى طبييها وقالت له
« نأشدتك الله اما وجدت لان قوة الحق عظيمة الا ترى انهم قالوا اولا
اني استوجبت الموت لكوني غاوية على قتل الملكة ولان قال لي امير
كنت انه لا سبب لقتلي سوى خوفهم مني على ديانتهم . لكنني اعلم ان
بعضا من هؤلاء الناس قد تحروا منفعة انفسهم خاصة بدعوى الديانة » .
ثم انها عند الفراغ من العشاء شربت على اسم خدمتها رجالا ونساء فشربو
هم معها وهم جاثون على ركبهم وقد مزجوا الشراب بالدموع وطلبوا منها العفو
عما فرط منهم من التقصير والاهمال فعفت عنهم واستعنتهم هي ايضا . ثم سم
كثبت وصيتها وقراتها عليهم ووزعت حليها وجواهرها وكثبت رسائل وصاة
الى ملك فرنسا في حق خدمتها . ثم ذهبت الى الفراش فنامت قليلا
وقضت سائر الليلة بالدعاء والاستغفار . فلما كان الغد لبست افخر ثيابها
التي كانت تلبسها في الاعياد ودعت خدمتها جميعا وامرت بقراءة وصيتها .
ثم حضر احد الامراء وطلب منها ان تستعد للخروج فخرجت على الفور
وعليها سمة التجلد والخمر والعجد والبشاشة والبشر وعلى رأسها غطاء من
كتان مسدل الى الارض ويدها مسجتها . فلما بلغت مقبلها استقبلها جماعة
من النبلاء والامراء وخادميها ملفن وهو يتنحب ويتحسر فقالت له « رويدك
يا ملفن لا تتنحب فانك عما قليل ترى ماري استوارت معنوقة من قيد
الهموم . فقل لاهل سكوتلاندي اني اموت على ديني واني باقية على عهدي
ومودتي لكل من سكوتلاندي وفرنسا . اللهم اغفر لمن ظمئ الى دمي كما يظما
لايل الى الماء . اللهم انك تعلم اني طالما قصدت ان تكون سكوتلاندي
وانكثرة مملكة واحدة فبرئني عند ابني والهمه اني لم آت شيئا يشين مملكة
سكوتلاندي ووقفه الى ان يسلك مع ملكة انكثرة مسلك صداقة ومودة » .
ثم ذرفت مدامعها وودعت ملفن الوداع الاخير فاندفع في البكاء والتحيب
ثم التفتت الى الامراء ورغبت اليهم في ان يحسنوا الى خدمتها ويساعدوهم
على احراز ما اوصت لهم به وان ياذنوا لهم في ان يقوموا حولها عند قتلها ثم

يرسلوا الى بلادهم . فرضوا بطلبها الاول وابي امير كنت ان تتقف خدمتها
لديها لوسواس خامرة فقالت له « لا تحش باسا من هك النفوس البريئة
اذ ليس لها غاية سوى ان تتملى مني بأخر وداع ولا ريب ان اختي
اليصابات لا تمنعني هك الطلبة اليسيرة - كيف واني اقرب سن انتسب
اليها وابي هنري الثامن وزوجي مات ملكا على فرنسا وانا نصبت ملكة على
سكوتلاندا ، فسحروا لها حيثذ بما طلبت . ثم تقدم امامها الامراء وخادمتها
ملقن رافع لظرف رداها حتى انتهوا الى الموضع وكان عليه كرسي اسود عليه
مخدة سوداء فلما استوت على الكرسي وهدات الاصوات قرا ييل الامر بقتلها
فاستمعت له مصغية . ثم حاول بعض سن حضر من اساقفة البروتستانط
ان يميلها عن ديانتها فقال له « اني اموت على الدين الذي ولدت فيه .
فطلب منها الامراء ان يصلوا معها فقالت لهم « اني اشكركم اذا صليتم لاجلي
فاما صلاتي معكم وانتم على غير مذهبي فائم علي » ثم اخذ الاسقف
البروتستانطي في الصلوة فجثت واخذت تدعو وتصلي باللاتينية فتابعها
خدمتها . فلما فرغوا قالت بلسان الانكليز كلاما مضمونه الاستغفار عن الملكة
اليصابات وتوفيق ابنها الى طاعة الله وصرف غضبه تعالى عن جزيرة انكلترا وما
اشبه ذلك . ثم تقدم الجلاذ وطلب منها المساحة فساحت . ثم نزع عنها خوادنها
رداءها الاعلى واخذن في النواح والنحيب فقبلتهن واحدة فواحدة وطلبت
منهن ان يكفنن عن النواح . ثم التفتت ايضا الى الخدمة وطلبت منهم مثل
ذلك وودعتهم . ثم غطت وجهها بمنديل اسود واستوت على الحشبة وجعلت
تنشد فصلا من الزامير ثم اضطجعت وجعلت تقول « رب اني في يديك
اضع روحي » فتقدم الجلاذ وضرب عنقها فقطع راسها بضربتين فصرخ ذلك
الاسقف « هكذا تهلك اعداء الملكة اليصابات » فقال امير كنت « آمين » .
ثم صبرت جثتها ونقلت بالاحتفال ودفنت في كنيسة بيتربرو بانكلترا
وصنع لها ايضا ماتم حافل في باريس وكتب عند قبرها « هذا صريح ماري
ملكة سكوتلاندا بنت ملك وزوجة ملك ونسيته لملكة انكلترا كانت زينة
عصرها ونورا للملك ساطعا وقد حازت من المناقب اعلاها ومن المزايا اسناها

هي تطيب خواطرهم بالكلام وتسليهم وهي تقول « صفوا عن النواح وافرحوا بانطلاقي من هذا العالم عالم الشقاء » ثم التفتت الى طبيعتها وقالت له « نأشدتك الله اما وجدت لان قوة الحق عظيمة الا ترى انهم قالوا اولا اني استوجب الموت لكوني غاوية على قتل الملكة ولان قال لي امير كنت انه لا سبب لقتلي سوى خوفهم مني على دياتهم . لكنني اعلم ان بعضا من هؤلاء الناس قد تحروا منفعة انفسهم خاصة بدعوى الديانة » .

ثم انها عند الفراغ من العشاء شربت على اسم خدمتها رجالا ونساء فشرابوا هم معها وهم جاثون على ركبهم وقد مزجوا الشراب بالدروع وطلبوا منها العفو عما فرط منهم من التقصير والاھمال ففعلت عنهم واستعفتهم هي ايضا . ثم كتبت وصيتها وقراتها عليهم ووزعت حليها وجواهرها وكتبت رسائل وصاة الى ملك فرنسا في حق خدمتها . ثم ذهبت الى الفراش فنامت قليلا وقضت سائر الليلة بالدعاء والاستغفار . فلما كان الغد لبست افخر ثيابها التي كانت تلبسها في الاعياد ودعت خدمتها جميعا وامرت بقراءة وصيتها .

ثم حضر احد الامراء وطلب منها ان تستعد للخروج فخرجت على الفور وعليها سمة التجلد والخفر والجد والبشاشة والبشر وعلى راسها غطاء من كتان مسدل الى الارض ويدها سجنها . فلما بلغت مقبلها استقبلها جافة من النبلاء والامراء وخادما ملحن وهو يتحجب ويتحسر فقالت له « رويدك يا ملحن لا تتحجب فانك عما قليل ترى ماري استوارت معوقة من قيد الهموم . فقل لاهل سكوتلاندي اني اموت على ديني واني باقية على عهدي ومودتي لكل من سكوتلاندي وفرنسا . اللهم اغفر لمن ظمى الى دمي كما يظما لايل الى الماء . اللهم انك تعلم اني طالما قصدت ان تكون سكوتلاندي وانكثرة مملكة واحدة فيروني عند ابني والهمه اني لم ات شيئا يشين مملكة سكوتلاندي ووقفه الى ان يسلك مع ملكة انكثرة مسلك صداقة ومودة » .

ثم ذرفت مدامعها وودعت ملحن الوداع الاخير فاندفع في البكاء والنحيب ثم التفتت الى الامراء ورغبت اليهم في ان يحسنوا الى خدمتها ويساعدوهم على احراز ما اوصت لهم به وان ياذنوا لهم في ان يقوموا حولها عند قتلها ثم

يرسلوا الى بلادهم . فرضوا بطلبها الاول وابي امير كنت ان تثقف خدمتها
لديها لوسواس خامرة فقالت له « لا تخش باسا من هك النفوس البريئة
اذ ليس لها غاية سوى ان تتملى مني بأخر وداع ولا ريب ان اختي
اليصابات لا تمنعني هك الطلبة اليسيرة - كيف واني اقرب سن انتسب
اليها وابي هنري الثامن وزوجي مات ملكا على فرنسا وانا نصبت ملكة على
سكوتلاند » فسحروا لها حيثذ بما طلبت . ثم تقدم امامها الامراء وخادمتها
ملقن رافع لظرف رداها حتى انتهوا الى الموضع وكان عليه كرسي اسود عليه
مخدة سوداء فلما استوت على الكرسي وهدات الاصوات قرا بيل الامر بقتلها
فاستمعت له مصغية . ثم حاول بعض سن حصر سن اساقفة البروتستانط
ان يميلها عن ديانتها فقال له « اني اموت على الدين الذي ولدت فيه »
فطلب منها الامراء ان يصلوا معها فقالت لهم « اني اشكركم اذا صليتم لاجلي
فاما صلاتي معكم وانتم على غير مذهبي فائم علي » ثم اخذ الاسقف
البروتستانطي في الصلوة فجثت واخذت تدعو وتصلي باللاتينية فتابعها
خدمتها . فلما فرغوا قالت بلسان الانكليز كلاما مضمونه الاستغفار عن الملكة
اليصابات وتوفيق ابنها الى طاعة الله وصرف غضبه تعالى عن جزيرة انكلترة وما
اشبه ذلك . ثم تقدم الجلاذ وطلب منها المساحة فساحت . ثم نزع عنها خوادنها
رداءها الاعلى واخذن في النواح والنحيب فقبلتهن واحدة فواحدة وطلبت
منهن ان يكفنن عن النواح . ثم التفتت ايضا الى الخدمة وطلبت منهم مثل
ذلك وودعتهم . ثم غطت وجهها بمنديل اسود واستوت على الحشبة وجعلت
تنشد فصلا من الزامير ثم اضطجعت وجعلت تقول « رب اني في يديك
اضع روحي » فتقدم الجلاذ وضرب عنقها فقطع راسها بضربتين فصرخ ذلك
الاسقف « هكذا تهلك اعداء الملكة اليصابات » فقال امير كنت « آمين » .
ثم صبرت جثتها ونقلت بالاحتفال ودفنت في كنيسة بيتربرو بانكلترة
وصنع لها ايضا ماتم حافل في باريس وكتب عند قبرها « هذا صريح ماري
ملكة سكوتلاند بنت ملك وزوجة ملك ونسيته لملكة انكلترة كانت زينة
عصرها ونورا للملك ساطعا وقد حازت من المناقب اعلاها ومن المزايا اسناها

وانها طالما طلبت مراعاة حقوقها الملكية غير ان الجور البربري الغامض إلا ان هذا الشاب لم يلبث ان ازيح من موضعه فبقي قبرها غفلا * اد * قال بعض من شاهد ايدنبرغ وكلاسكو من الانكليز ان للقيسين ولتقهاء الشرع في ايدنبرغ يدا طويلة وكلمة نافذة فان الناس تنقاد لهم في اكثر الامور . ولا يكاد الناظر يترسم البيع والشراء إلا في حوانيتها بخلاف كلاسكو ومن يقم فيها فكانما هو مقيم في الريف وذلك لصفاء هوائها عن الدخان . ومن كل جهة منها يستنشق نسيم البحر وهي مبنية من حجارة مبنية باقية على الدهر . ويمكن ان يقال انه ليس في الدنيا كلها مدينة مثالا على هذا الوضع الانيق . اما اهلها فما برحوا يحافظين على عاداتهم ورسومهم القديمة وهي مخالفة لعادات الانكليز جدا * اما كلاسكو فانها اعظم منها في التجارة فانها كلها عبارة عن معامل للثياب المنسوجة وغيرها . وهي وان تكن اقل تجارة من منشستر إلا ان في حكا بيوتنا كثيرة ومحترفات عديدة تخصص بتلك اما تجارها واشغالها في الحديد فعظيمة الى الغاية . واما في انشاء المراكب والالات من الحديد فمن الطراز الاول فانك ترى حولها اثنتين عديدة لا تزال متاججة حتى كان ذلك القطر قطر جحيمي وحتى يخيل للناظر ان خاطر الانسان يوتاح الى النار والدخان والى طقطقة المطارق ارتياحه الى المكث في صفع عذو من ايطالية والى روية الرياض واستماع اصوات العيدان وكان هولاء الدخانيين لا يحسدون احدا سواهم ممن يسكن في الريف المربع ولا يبالون بما تقولهم الشعراء من وصف المروج الناضرة والمجداول المترقفة وغير ذلك من مسارج النظر الانيقة فما قاله ملطون حكاية عن الشيطان حين هبط الى دركات الجحيم واستسلم الى ما قدر عليه ورضي بما طرا عليه هناك من شواغل حياته الجديدة وهو « كن يا شرلي خيرا » انما هو صفة هولاء الناس لا تتعداهم فانهم يتسبحون بكثرة موافدهم وتكاثف دخانهم وكان المدينة حالة كونها تنقى بعدد من النار ليلا وبعدد من الدخان نهارا تذكر تذكر الناس بخروج بني اسرائيل من مصر . ولا شيء اعجب هنا من ان يرى الراي تعدد اللواح فوق حوانيتها وهي التي

تكون عنوانا على اسم التاجر وحرقته فان التاجر في لندرة يكتفي بوضع لوح واحد فوق حانوته فاما الطبقة التي فوق الحانوت فانها تكون غالبا مقرا لعياله . اما في كلاسكو فانت ترى حانوتا فوق حانوت ومخزنا فوق مخزن بل اعظم الحوانيت هي التي تكون فوق الطبقة الاولى وقد تكون الدار كلها عبارة عن مخزن بضائع وايضا تذهب لتشتري شيئا يقل لك اطلع فوق * قال واني اكره شيئا من قيسي سكوتلاند وهو انهم لا يزالون يطوفون في البلاد مجتدين بدعوى انهم ينفقون ما يجمعونه في وجوه البر وانشاء الكنائس وجل سن يقع غرضا لهم ذوات الثروة من النساء اذ * ثم عدت الى كمبرج وبعد ان انهيت ترجمة التوراة وذلك في اقل من عشرين شهرا سرت الى لندرة وفاوضت كاتب الجمعية في ذلك فقال « ان كنت تقيم في هذه البلاد فان الجمعية تعين لك شيئا في مقابلة تصحيح الطبع » فقلت « على شرط ان اقيم بباريس وبيعت الي المطبوع الى هناك فاصححه فاني طالما هممت بان اتعلم اللغة الفرنسية لما اري في كتب الانكليز جلا وعبارات منها مما يحرض على تعلمها » فقال « لك ذلك » فمن ثم كتبت الى كاتب حاكم مالطة اخبره بانني عدلت عن الرجوع اليها ثم تاهبت للسفر الى باريس واعدت خيشومي للغة وخلصي للفتنة ودرهيماتني للحننة . وهنا اودع القاري وعبراتني متحددة وزفرائي متصاعدة واعدته وعند سن يراي قديم الصبابة ويحفظ اكد القربة بانني اصف له بباريس عند استقرارها فيها اتم وصف من دون اسهاب ولا حذف فاني جعلت هذه الرحلة مرتبة على الاوقات واخليتها في الجملة عن الاستطرادات ولكن ينبغي قبل ذلك ان افيده فائدة تتعلق بالتوراة مما يعز وجوده في غير هذا الكتاب * فاقول ان اول سن ترجمها من اللغة العبرانية الى اليونانية هم الاثنان والسبعون خبرا في عهد بطولومي فيلادلفيوس بالاسكندرية وذلك في سنة ٢٧٧ قبل الميلاد قيل واتوا ترجمتها في اثنين وسبعين يوما وكان كل اثنين منهم في ضوعة وعين على كل منهما ترجمتها باجمعها فلما فرغوا منها وجدت جميع النسخ لم تختلف احداها عن الاخرى لا في كلمة ولا في حرف

واقدم توراة بيد النصارى هي الموجودة في الفاتيكان برومية كتبت في القرن الرابع وقيل الخامس ونشرت في سنة ١٥٨٧ والثانية هي الموجودة في متحف الانكليز المسمى برتيش ميوزيوم اهداها احد بطاركة الروم الى شارلس الاول وقيل انها نسخت في حدود التاريخ المتقدم ذكره . واقدم توراة عند اليهود هي الموجودة في توليدو باسبانية وذلك نحو سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد وجلة ما في التوراة من الاسفار ثلاثون ومن الفصول ٩٢٩ ومن الايات ٢٣٢١٤ ومن الكلمات ٥٩٢٤٩٣ ومن الحروف ٢٧٢٨١٠٠ وقد تكررت فيها الواو العاطفة ٥٣٥ مرة والعدد الحادي والعشرون من الفصل السابع من سفر عزرا يشتمل على الحروف الابجدية كلها . وجلة ما في الانجيل من الاسفار ٢٧ ومن الفصول ٢٦٠ ومن الايات ٧٩٥٩ ومن الكلمات ١٨١٢٥٣ ومن الحروف ٨٣٨٣٨٠ وقد تكرر فيه حرف العطف ١٠٦٨٤ مرة * وكان طبع التوراة باللغة الاسبانيوليه في سنة ١١٤٧٨ . والنمساوية في سنة ١٥٢٢ والانكليزية في ١٥٣٤ . والفرنساوية في ١٥٣٥ والمسكوبية في ١٥٨١ . والرومية في ١٦٣٨ والتركية في ١٦٦٦ . والبرتوكيزية في ١٧٤٨ والطليانية في ١٧٧٦ . والفارسية في ١٨١٥ . ووجدت في بعض الكتب ولست منه على ثقة ان التوراة ترجمت الى العربية في القرن الخامس - * ثم اني ركبت الباخرة اي سفينة النار التي تسافر من لندرة الى بولون بعد نصف الليل الواقع في السادس من كانون الاول وكنت ارجو انها تقفل في تلك الليلة فوقع الضباب الكثيف حتى تعذر السفر الى الصباح . فلما دنونا من المدينة المذكورة صادفنا الجزر في البحر فانتظرنا نحو اربع ساعات حتى جاء المد فبلغنا المدينة في الفجر . فاخرجت امتعتنا وفتحت في ديوان المكس وكان معي عدة صناديق من جلتها صندوقا كتب فلم ياخذوا عليها شيئا . وسمعت بعضهم يقول هذا مرسل اي قسيس مبعوث من طرف الانكليز لهداية بعض الضالين . إلا انهم وجدوا في اهداها رطلا من الشاي فقالوا « اما ان تودي عليه شلنين ونصفا واما ان تتركه هنا » فقلت « لا بل اودي عليه ما تطلبون » وفرحت بذلك غاية الفرح لاني كنت موجسا من انهم

يتقاضون على الكتب كثيرا لاسيما وان كثيرا منها كان جديدا كما جده
 المجلد . وهنا نصيحة او شبه نصيحة لاخواني من المسافرين وهي ان تن
 تصدى منهم الى فتح صندوقه اولا يلقى المفتش في عرام نشاطه وطماشه
 الى ان يجد عنده حاجة جديدة فيضبطها منه اظهارا لمخذه في صنعة
 التفتيش . فاما سن ياتي آخر القوم فانه يلقاه قد كل وصجر فاول ما يفتح
 الصندوق ويتلسمه يطبقه . وربما اجتزا عن ذلك بسؤال واحد يلقيه عليه
 كان يقول له « هل عندك شيء يودى عليه مكس » ولا بد بالضرورة ان
 يكون الجواب بالسلب . غير ان جل الناس يحبون التقدم والتصدر في
 كل شيء فنراهم يتزاحون على فتح صناديقهم واخراجهم وعيابهم كأنما هم في
 حلبة السباق . وفي يولون هذه وفي سائر فرض فرنسا المهابلة لانكترة يزدهم
 الجمالون وخدام المطاعم على المسافرين ولا ازدحام حارة مصر . وهناك ترى
 النساء حالات يغطين شعور روسهن بمنديل فيبرز من تحتهم شعيرات
 من عند افواههن على زي نساء اليهود وسجنهن كسجن الرجال . واقعج منهن
 النساء اللاتي يصطدن السمك او يبعنه فلا يكاد الناظر يعرف منهن علامة
 الانثوية . واعلم ايضا انه تن يدخل فرنسا وغيرها من بلاد الافرنج فلا بد
 له من ان يبرز جوازه في الثغور (اي الباسپورت) وإلا فلا يدعونه يدخل .
 واقعج من ذلك انه لا يمكن للغريب ان يخرج من بلاد فرنسا إلا اذا
 ادى في ديوان الجواز عشرة فرنكات . اما سن يقدم الى بلاد الانكليز فليس
 عليه ان يبرز الجواز كما ان الخارج منها ايضا ليس عليه ان يدي شيئا (٩٨)
 ولذلك يقال ان بلاد الانكليز بلاد الحرية . وسيد عندي والله اعلم ان الانكليز
 لما كانوا في الزمن القديم متخالفين عن سائر الافرنج في اسباب التمدن والعلوم
 كما مر بك من جملة مثل ولاسيما في الكلام على منشستر احتاجوا الى ان
 يتساهلوا مع جيرانهم في اشياء تمتيلهم الى زيارتهم . وذلك ان اول ظهور
 التمدن والفنون في اوربا انما كان في اسبانية حين كان المسلمون مستولين
 على الاندلس . يقال فليشر : « وكانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطباء
 من العرب واليهود والتزم البابا يوحنا الثامن ان يدفع للمسلمين في كل سنة

خسنة وعشرين ألف رجل من الفضة وذلك سنة ٨٧٧ . وقد دخلوا ايطاليا ونهبوا كنيسة مار بطرس وفتكوا بالجيوش الفرنساوية الذين كانوا ساروا الى رومية لاجارة اهلها تحت راية القائد لوتاريوس . وفي القرن الثاني عشر كان المسلمون مستولين في اسبانية على احسن البلدان منها بورتوغال ومورسية ولاندلس والنسية وغرناطة وطرطوسة وامتد ملكهم حتى الى وراء جبال قسطل وسيرقوسة . اما دار الخلافة فكانت في قرطبة وفيها بنوا المسجد العظيم المشهور بقبة مرفوعة على ثلاثمائة وخمسة وستين عمودا وهو من مرمر غريب الصنع بديع الاثقان ولم يزل معروفا الى الان باسم « مسكينة » (اي مسجد) مع انه حول كنيسة . وكانت الصنائع والفروسية والابهة في عهدهم في مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللغو . اما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن إلا في قرطبة دون غيرها من سائر المدن حتى ان صانكو ملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى ان يسافر اليها لياخذ الطب عن رجل كان مشهورا في عصره . فلما استدعى به الملك اجابه مع الرسول قائلا « ان كان الملك حاجة الي فليقدم علي » (٩٩) * وقال بعض المؤلفين ان المسلمين ملكوا من البلاد في مدة ثمانين سنة بعد الهجرة ما لم يملكه الرومانيون في مدة ثمانمائة سنة * وقال فلتير في موضع آخر : « واول ساعة دقاقة عرفت في فرنسا هي التي اهداها هارون الرشيد الى شارلمان » * . وقال في البجدية لاورقات : « علم الحساب انما اخذ عن العرب في اسبانية - ووافقه على ذلك فلتير وانكره بعض المؤلفين العصريين من الفرنساوية - وذلك في سنة ١٠٥٠ ثم شهر في انكلترة في سنة ١٢٥٣ » * وقال صاحب معجم الجغرافية : « ان البابا سلستروس الثاني - وكان يعرف اولا باسم جبريت - سار الى لاندلس واخذ العلم عن العرب . وكانت ولادته في سنة ٩٣٠ وانتخب بابا في سنة ٩٩٩ وكان ماهرا في علم المساحة وجرا الاتقال والفلك وهو الذي بث رقم الحساب العربي في اوربا واول من عمل ساعة ذات رقاص » * وقال فلتير : « اول من اخترع هك النظارات للعيون اسكندر سينا وذلك في اواخر القرن الثالث عشر . وكذا اخترع طواحين الريح

كان في ذلك العهد * واصل اختراع الفخار كان في فيانترمي . اما زجاج
الطين كان معروفا من قبل ذلك الا انه كان نادرا وكان يعد من الاسراف
وكان اشتهار صنعتهم في بلاد الانكليز في سنة ١١٨٠ من بعض الفرنساوية وكان
يتنافس فيها * واول من ابدع مرايا الزجاج اهل فينيسيا وذلك في القرن
الثالث عشر * وكان استعمال الساعات معروفا في ايطالية ولكن على ندرة
ولم يكن في اوربا كلها من المدن ما يضاها فينيسيا وجينوى وبولونيا
وسيانا وبيزى وفلورانس * ولم تكن البيوت في مدن فرنسا والنمسا وانكثرة
كما هي الان وانما كانت ستوفها من التبن المطين وبنائها من الخشب
ولم يكن عندهم هذه المواقد المعروفة الان لايقاد النار وانما كانوا يوقدونها
في نحو كانون يجعلونه في وسط البيت فيجتمع حوله المصطلون والدخان
متصاعد منه . وكانت اغطية الموائد من الكتان عند الانكليز نادرة جدا ولم
يكن النبيذ يباع الا عند العقاقيرمته وكان الركوب في مركب ذي عجلتين
في طرق باريس الوسخة اسرافا حتى ان فيليب الملقب بالازهر منع النساء
من ذلك وكان اهل بولاند يقتلون اولادهم اذا جاءوا ناقصي الخلقة وكذا
يقتلون الذين اسنوا وعجزوا وقس على ذلك سائر سكان البلاد الشمالية . واول
سن احيا صنعتهم نقر التماثيل برونلشكي من مدينة فلورانس وكان غيوتو نبها
في التصوير وبوكاشيو في اللغة والادب * واول من اخترع مقامات الموسيقى
على ما عرفت لان فيدودارتزو واشهر من برع في النظم والتاليف بتراكت
ودانتي ولم يكن اذ ذاك في البلاد الشمالية سوى الجبل الفاحش والتفاخر بالفتك
والقتال . ا ه . (١٠٠) قلت وحيث جرى في معرض ما اوردناه ذكر الساعة
فلا بد من استيفاء الكلام عليها ثم ارجع الى ما كنت بصده * قال مواف
كتاب الاختراعات العجيبة : « ذكر المورخون من الفرنسيين ان اول ساعة
عرفت في بلادهم كانت الساعة التي اهداها الخليفة هارون الرشيد الى
شارلمان سلطان فرنسا وذلك في سنة ٨٠٧ وكانت بدعا في ذلك العصر حتى انها
اورثت رجال الديوان حيرة وذهولا والظن انهما كانت من كالات التي
يديرها الماء المنحدر وكان لها اثنا عشر بابا صغيرا تنقسم بها الساعات فكلما

مضت ساعة انفتح باب وخرج منه كرات من نحاس صغيرة تنع على
جرس فيطان بعدد الساعات وتبقى الابواب مفتوحة وحينئذ تخرج صور
اثنى عشر فارسا على خيل وتدور على صفحة الساعة * قلت بودى لو اعرف
اسم الساعة في ذلك العصر فاني انكر هذه اللفظة واهل الغرب يقولون
منكالة وهي انكر * قال وكان الفرد الكبير ملك الانكليز يامر باتخاذ شمع
طول كل شمعة اثنتا عشرة اصبعاً ويعلم كلا منها بعلامات متساوية منقسمة
الى اربعة وعشرين قصماً كناية عن الليل والنهار فكان يامر بايقادها متعاقبة
ليلاً ونهاراً ويجعلها في قرن رقيق شفاف صونا لها من الريح ولم يعلم عمل
الساعات الدقاقة الا بعد موته بقرون عديدة . اما تقسيم اليوم الى اربع
وعشرين ساعة فمعروف من قديم الزمان . قلت وفي محفوطي ان العلامة
الفهمي صاحب المفتاح ذكر ان اهل الحساب اصطاحوا على الاربعة
والعشرين فيراطاً لكونه اول الاعداد التي لها انصاف وارباع واثمان
وثلث سائلة فلعل هذا هو السبب في تقسيم اليوم والليلة الى هذا العدد
وذكر هيرودوتس ان ميقاتية الشمس كانت معروفة عند اليونانيين وهم
اخذوها عن البابليين فاما الميقاتية المائية التي تدل على الاوقات على نسق
الرملية فكانت معروفة عند الكلدانيين وعند قدماء الهنود فكانوا يحذرون
الماء فيها من اناء الى آخر كما يحذر الرمل في الزجاجية وبذلك يستدلون
على اوقات التحكيم الا ان عدم تساوي انحدار الماء وتخالف الهواء كان
يجعل حسابهم غير مطرد * اما شكلها فغير معروف بالتفصيل وغاية ما يعلم
من امرها ان الماء كان يتحدر في وعاء فيها قطرة قطرة فاذا امتلأ الاناء علم
مقدار الوقت المفروض * واول من اتقن الساعة المائية حتى صارت من
الادوات العلمية دون كرلوس فالي احد الرهبان البانديكين وذلك سنة ١٦٩٠
وزعم بعض انها من مخترعات مرتيني الطلياني . قيل واول مولف ذكر
اسم آلة تدل على الساعات دانتى الشهير ولد في سنة ١٢٥٦ ومات في سنة
١٣٢١ وشهر ذلك في انكلترة في سنة ١٢٢٨ وكان ايضا مشهورا عند غيرهم وفي
زمن ادورد الاول صنعت خراطة على اصحاب الجنايات لاجل عمل ساعة

دقاقت في غرفة وستمينستر لكي يسمعها الذين في الحكمة . وفي زمن هنري الخامس كان لها شان عظيم حتى ان الملك وكل محافظتها وتعهدا الى وليم واربي ديس كنيسة صانت اسطفاً وعين له في مقابلة ذلك نصف ملين في كل يوم من ديوان الخزانة . وفي سنة ١٣٣٤ ابرز يعقوب دوندي ساعته المشهورة فكانت تدل على الساعات وعلى سير الشمس في منطقة البروج وعلى مواقع الكواكب السيارة ولقب بهورولوجيوس . وفي اواسط القرن الرابع عشر وضع في كنيسة استراسبورغ ساعة من اكثر آلات تركيا وتالفا فان صفحتها كانت تبدي الكرة السماوية وسير الشمس والقمر والارض والكواكب ومحاق القمر ونموه وتقويما يدل على اليوم الواقع من الشهر . وكان ربع الساعة الاول يطرقه واحد بتفاحة والثاني شاب بسهم والثالث رجل براس صا والرابع لآخر شيخ بعكاز . وعند مرور كل ساعة يفتح الباب ملك وينحني مسلماً على مريم العذراء ثم يطرق الجرس . وبقربه ملك آخر يحمل ساعة رملية يقلبها عند انتهاء الدقات الاربع . وكان بها ايضا ديك من ذهب يصفق بجناحيه عند اقتراب كل ساعة ويمد عنقه ثم يصقع مرتين (١٠١) وفي اواخر القرن المذكور صنع رجل من جينوى اسمه دروز (١٠٢) ساعة دقاقت ذات حركات غريبة وكانت تشتمل على تمثال رجل اسود وراع وكلب فكان الراعي عند طلق الساعة يعزف على الناي ستة اصوات فيذنو منه الكلب ويحرك ذنبه متملقا . ولما عرضها على ملك اسبانية تعجب منها غاية التعجب فالتمس اليه دروز ان يعد يده ويأخذ تقاقت من سلة الراعي فلما فعل انبعث اليه الكلب ينبج نباها عاليا حتى صار كلب الملك ينبج ايضا . قيل وكان اذا سنل الاسود عن الساعة اجاب بالكلام الفرنسي ليفهمه المحاصرون * واول من وضع الرقاص في الساعة الدقاقت ريشارد هارس الانكليزي وذلك في سنة ١٦٤١ . اما الساعات الصغيرة التي توضع في الجيب مختصرة عن الكبيرة فالجزء بمعرفته صاحبها صعب والارجح انها من مخترعات هوك . اه * وقيل ان اصل اختراع الساعات كان في نورمبرغ في سنة ١٤٧٧ . وحقق البعض

ان روبرت ملك سكتلاند قد كان له ساعة وذلك في سنة ١٤١٠ . وكان استعمال الساعات في الارصاد الفلكية في سنة ١٥٠٠ . وقال بعض ان الامبراطور كركلوس الخامس هو الذي كان عنده ما يصدق عليه اسم الساعة وذلك في سنة ١٥٣٠ . واصل جلب الساعات الى بلاد الانكليز كان من جرمانية في سنة ١٥٧٧ . اما الساعات التي توضع في الجيب فمن الناس من نسب اختراعها الى دكطر هوك واهل هولاندة نسبوه الى هيكنس . وكيف كان فان دكطر هوك هو الذي اخترع الساعة الدقاقة ذات الرقاص وذلك في سنة ١٦٥٨ * . وقيل ان ساهة الماء عرفت في رومية في سنة ١٥٨ وان البابا بولس الاول اهدى بابان ملك فرنسا ساعة مائية في سنة ٧٦٠ . وقيل ان اصل اختراع الساعة الشمسية كان في سنة ٥٥٠ قبل الميلاد . وقيل انها عرفت في رومية سنة ٢٩٢ من التاريخ المذكور . وفي سنة ٦١٣ نصبت في الكنائس * . وفي مدة احد عشر شهرا من العام الماضي جلب الى بلاد الانكليز من هذه الساعات مائتان وخسة عشر الفا واربعمائة واربع وسبعون ساعة * . فقد عرفت مما تقدم ان المحدثين في البلاد الافرنجية بدا اولاً في اسبانية بالنظر الى العلم وفي بلاد ايطالية بالنظر الى الصنائع ثم انبثت منها الى فرنسا . واول اشتهارها فيها وبناء قصر فنتنبلو وقصر صان جرمان وتهذيب اللغة الفرنسية كان في ايام الملك فرنسوي الاول كانت ولادته في سنة ١٤٩٤ ووفاته سنة ١٥٤٧ . ثم لما انتشر مذهب البروتستانت في فرنسا وكانت الدولة تضطهد المتمدنين به كانوا يهبطون الى الفرار الى البلاد الاجنبية وحسبث يوم مار برتولاموس دليلا . ولما قام لويس الرابع عشر - وكان هو ووزيرة الكردينال ريشليو اشد الناس بغضة لاهل هذا المذهب - فر كثير منهم الى بلاد الانكليز وكانوا ذوي معارف وعلم وبشوا فيها ذلك . وطاب للانكليز ان يضيفوا من التجا اليهم وان يفهم من المجاز وبقيت الحال على هذا المنوال * . ثم ان بولون هي مثل غيرها من فرض فرنسا المقابلة لانكلترة في كونها موردا للتجارة بين المملكتين واكثر ديارها منازل للسافرين وثلاث سكانها انكليز . واحسن ما فيها متحفها فيه من غرائب انواع الطير والسمك

وسائر الحيوانات ومن الجواهر المعدنية وأنواع الورق الذي كانوا يكتبون عليه في الزمن القديم ومن الصور وآلات الطرب لجميع الأمم ما هو عسرة للمعتبر . ومن رأى عظام السمك والوحوش الضخمة فلا يكذب شيئا مما قاله لاولون * ثم سافرنا منها فبلغنا باريس ليلا فدهشت لما رايت فاني وجدت جميع الحيوانات مفتوحة في الساعة التي لا يفتح فيها شيء في لندرة غير حانوت المزهر . وحين مررنا بالبلغار راينا من الانوار في الديار من فوق وفي محال القهوة من تحتها وفي فوانيس الطرقي من بين الاشجار وفي فوانيس العواجل الواقفة عن اليمين والشمال ما خيل لي اني في جنات النعيم . فقلت في نفسي بخ بخ ان هك مدينة بهجة وانوار تنفتح فيها اكمام المعاني في رياض الافكار . وتنجلي بها عرائس القصاد في اخدار الاشعار . فلاجعلن دابي النظم فيها الليل والنهار . وكلما ارتج علي شيء جئت الى البلغار * ثم لبثنا اربعة ايام في مييت الى ان تيسر لنا استيجار محل في دار على حدته وكان الضباب في خلالها كثيفا والبرد شديدا . اما البرد فلا ينقص من برد لندرة فقيرا بل هو اشد وانكى . واما الضباب فكان ابيض بخلاف ضباب لندرة فانه يقع اسحم . فطفقت اشكو من الانتقال من ضباب الى ضباب فقل لي احد اصحابي « ان هذا الضباب انما قدم الينا معك من لندرة فان باريس ليس مصيبة ووقوعه فيها نادر جدا » . لكني وجدت قوله بعد ذلك غير الحق فانه وقع ايضا في السنة الثانية وانا مقيم فيها من دون ان يعلق باذيالي من قطر آخر . الا انه لا يدوم هويلا كما يدوم ضباب لندرة * وقد حان لان ان اشرع في وصف باريس واهلها ولكن لما كان العالم الاديب الشيخ رفاعه الطحاوي قد الف كتابه النفيس المسمى بتلخيص الابريز في تلخيص باريس وسبقني الى هذا المعنى كان لا بد لي هنا من ان استاذنه في ذكر ما احرب منه بالكلية او اشار اليه اشارة فقط مما استغربه منه ثم اجعل ذلك مقياسا للقاري يقيس عليه باريس ولندرة . ولكن قبل الكلام على باريس خصوصا ينبغي ان ابتيدي بالكلام على فرنسا عموما فانها حرية بذلك وخصوصا اني قد اجملت القول في اول

هذا الكتاب على انكثرة . فاقول ان فرنسا كانت تسمى في الزمن القديم بالغال ثم سميت بهذا الاسم المتعارف لان نسبة الى الفرنك الذين فتحوها وهم قبائل من البلاد الشمالية . وارض هذه المملكة خصيبة ينبت فيها جميع الاشجار والبقول والحبوب غالبا . وكانت ارضها منذ نحو سبعين سنة مهملية اما الان فقد بذل الجهد في حرثها وتنبيت الغلال فيها حتى صارت قيمة محصول الارض وغلالها تبلغ في العام خمسة آلاف وثلاثمائة وسبعة وثمانين مليوناً ومائة وثمانية وسبعين ألفاً فرنكاً يصرف على ذلك ثلثة آلاف وخمسمائة واثمان وخمسون مليوناً فيكون الفائض الفا وستمائة وخسة وثمانين مليوناً ومائة وثمانية وسبعين ألفاً فرنكاً . وهي كثيرة المعدن يوجد فيها معدن الذهب لكن على قلة ويكثر فيها الفضة والحديد والرصاص والنحاس والتوتيا وغير ذلك . وعدد اهلها في سنة ١٨٤٥ كان اثنين وثلثين مليوناً ونصف مليون منهم مليونان وثلث بروتستانت ويهود . وبلغت قيمة الحبوب الى فرنسا في سنة ١٨٤٣ ثمانمائة وستة واربعين مليوناً وستمائة وستة آلاف وتسعمائة واربعين فرنكاً وقيمة الخارج منها ستمائة وثلثة واربعون مليوناً وتسعمائة واحد وستون الفا وستمائة وسبعة وسبعون فرنكاً . وفي مدة ثمانين عشرة سنة وذلك من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٨٤٣ كان من جملة اهلها مائتا ألف مجنون في المارستانات وثلثة آلاف قتلوا انفسهم ومائة ألف نفس بهم علل واخذوا الى ديار المرضى (اي المستشفيات) وثمانمائة ألف يعيشون من الصدقات ومائة ألف نفس في السجون لاجل جنبايات مختلفة . وقال ، آخر وبلغ عدد الاكليروس في سنة ١٨٤٣ اربعة وعشرين الفا منهم ثلثة كردينالات واربعة عشر مطرانا وسبعة وستون اسقفا ، ويضاف اليهم نحو ثمانمائة ألف وخمسمائة من المترشحين للكنيسة . وعدة اديار النساء ثلثة آلاف وعدد الراهبات اربعة وعشرون الفا . وبلغ عدد الاكليروس في زمان الفتنة مائة واربعة عشر الفا من جملتهم اثنان وثلثون ألف راهبة . وبلغت جملة ايرادهم اثنين وسبعين مليوناً ، وبلغ العشور الذي يستوردونه سبعين مليوناً فجملة ذلك مائة واثمان واربعون مليوناً ، وبلغ ايراد الكردينالات

والاساقفة مليوناً وسبعة عشر الفا . وجلة المصاريف على الديانة الكاثوليكية اربعة وثلاثون مليوناً ومائتان واحد وخمسون الفا وعلى البروتستانت مليون وثلاثة وثلاثون الفا وعلى اليهودية تسعون الفا * وفي سنة ١٨٤١ بلغ عدد المسافرين في فرنسا ٦٣٣ مليوناً منهم ١٤٣ مليوناً سافروا في سكة الحديد . وفي سنة ١٨٥٥ بلغ عددهم بليوناً (اي الف مليون) منهم مليون وثلاثمائة واثنان وسبعون الفا سافروا في لارتال . وبلغ ايراد الكوركت في سنة ١٨٥٦ مائة واثنين وثمانين مليوناً ومائتين وستة وتسعين الفا وسبعمئة وثمانية وتسعين فرنكاً . وفي سنة ١٨٥٧ بلغ ايراد الدولة نحو سبعين مليون ليرة انكليزية فكان نحو ايراد دولة لانكيز بل اكثر * وفي السنة المذكورة كان لها من العساكر البرية نحو خمسمائة الف وامكر، لها في اي وقت شأحت ان تجهز من الجيوش البحرية نحو سبعين الفا . والمحروث من ارضها لا ينقص عن اثنين واربعين مليون هكتار وملاكها نحو سبعة ملايين من روس العيال * وقرات في بعض المجلات ان الجلوب الى بلاد اوستريا في سنة ١٨٥٧ بلغت قيمته مائتين واحداً وثمانين مليوناً وتسعمائة واثنين وخمسين الفا وتسعمائة واثنين وعشرين فرنكاً والخارج منها مئتان واحد وثلاثون مليوناً ومائة وثمانون الفا ومائة وتسعة فرنكات والعشر على الجلوب تسعة عشر مليوناً ومائة وتسعة وسبعون الفا ومائة وسبعة وسبعون فرنكاً وعلى الخارج اربعمائة واربعة وتسعون الفا وسبعمئة وسبعة عشر فرنكاً وبهذا يظهر لك الفرق *

وصف باريس

كانت مدينة باريس في سنة ٣٨٠ تسمى باريس وكان عرصة لنهب النورمان وفي سنة ١٤٢٠ استولى عليها لانكيز وبقيت تحت يدحم خمس عشرة سنة . وفي سنة ١٤٣٨ رزنت بالطاعون والجماعة فمات بهما اكثر من خمسين الفا فكانت الذئاب تدخل اسواقها وتقتال من تقتال وفي سنة ١٨٤٠ حصنت بسور طويل يحيط بشاطئ النهر وبقلع متفرقة وذلك مسافة خمسة عشر فرسخاً وربع فرسخ بديء به في كانون الاول سنة

١٨٤٠ ونجز في شهر اذار سنة ١٨٤٦ وبلغت نفقتد مائة واربعين مليون فرنك
او خمسة ملايين ليرة (بل خمسة ملايين وستمائة الف) * قلت قد جرى
ذلك كما قصده نابوليون وهو في جزيرة صنت «يلانة» * قال ولما ذنت
منها الاعداء في سنة ١٨١٤ تبادر الناس الى انشائه على عجل لكنه كان
غير محكم ثم اكمل وجعل حوله اربعة عشر برجاً * وقال آخر كانت
باريس تدعى في القديم «لوتس» سميت بذلك في احد الاقوال باسم
«لوكوس» موسسها والذي عليه لاتفاق انها من اقدم مدن الغال . ولما
غزا قيصر بلادهم كان يقال لها باريسي ولم تكن حينئذ إلا عبارة عن خصاص
مهيئة كالجزيرة في نهر السين مع انه لما اراد فتحها قاومه اهلها مقاومة
شديدة لم تكن تخطر بباله حالة كونهم خالين عن اسباب التمدن . ثم
اخذت في التصحر والاتساع في عهد ملوك كثيرة ولا سيما في زمن يوليانوس
وكلوفيس واعظمهم فيليب اغوسط في سنة ١١٨٤ . ثم قام لويس الملقب
بالصغير وانشا فيها مدرسة فاقبل الناس اليها لطلب العلم حتى صار عدد
الطلبة اكثر من اهل الصقع الذي بنيت فيه . وهو الذي احاط بها سورا
وصروحا . ثم قام فرنسيس الاول وانشا فيها اللوفر فقام هنري الرابع وغير
فيه تغييرات جمة . وفي زمان لويس الرابع عشر صارت كانها مدينة جديدة
وما قصده نابوليون الاول في تحسينها وتنظيمها استحسنته عائلة البوربون .
وزاد عليهم اجمعين لويس فيليب فانه ظن ان حفظه ذكر ايام نابوليون
يكون ادعى لاستمالة خواطر الناس اليه فمن ثم اتم ما ابتدا به نابوليون
فانشا السور واتم الازج او القنطرة المسماة «ارك دي تريونف» (اي
قوس النصر) ونصب تمثال نابوليون مرة اخرى على همود فندوم . وفي عهده
دفنت جثة نابوليون * قلت وفي زمن نابوليون الثالث كسيت من
الرونق والبهجة ما لا مزيد عليه . وقمال غالياني في كتابه الذي سماه
المُرشد الى باريس طبع سنة ١٨٤٤ : « اول من ملك فيها من ملوك
النصارى كلوفيس وذلك في سنة ٥٢٤ واول من بشر فيها بالانجيل كان
ماردينيس وذلك سنة ٢٥٠ واول كنيسة اسست فيها فيما علم كانت

كنيسة ماراسطفانوس في الموضع الذي ترى فيه الآن كنيسة « نوطردام »
(اي سيدتنا والمراد بذلك مريم اسم عيسى) وفي سنة ٨٥٧ أحرقها النورمان
ثم بنيت . وقسمت المدينة الى اربعة اقسام ومن ثم يقال لكل جهة منها
« كارتيه » . وفي زمن لويس السمين كان ايراد الباب الشمالي اثني عشر
فرنكا لا غير . وهي تبلغ بحسابنا الآن ستمائة فرنك . وفي القرن الرابع
عشر انشي فيها مدارس للعلم . وفي عهد فيليب اغوسط كثرت فيها الابنية
والمغاني والكنائس وبلط بعض الطرق والنزح لاهلين تحصينها . وفي سنة ١٢٥٠
انشا روبرت صوروبون مدارس لم تنزل تعرف باسمه . وفي زمن شارلس
المعتوه دخلها لانكليز ثم طردوا منها بعد ان اقاموا فيها ست عشرة سنة وذلك
سنة ١٤٣٦ . وفي عهد شارلس السابع خربت من القحط والوباء والذئاب
حتى انها صارت في سنة ١٤٦٦ ماوى لاصحاب الجرائر والنقائص من جميع
الاقطار . وفي عهد لويس الحادي عشر بلغ مدد اهلها ثلثمائة الف واكتسبت
رونقا وعمرانا فهدم اللوفر القديم وانشاه منشا حسنا وانشا مدرسته يعلم فيها
كل نوع من العلوم بجانا . وفي سنة ١٥٣٣ شرع في بناء « هوتل دويل »
(اي سرايا المدينة وهي مقر حاكم المدينة والجلس البلدي) وحسنت
عدة من الطرق وانشئت اخرى . وفي سنة ١٥٦٣ انشي التويلري (اي
سرايا التويلري وكانت ككما هي الآن مقر الملك غالبا) . ثم لما قامت
الحروب الدينية على ساق تعطلت اسباب التمدن الى ان اقام باعفاء الملك
والسياسة هنري الرابع فاصلح ذات الين ومد على الناس ظل السلم والرفاهية
وزاد في تبهيح المدينة غاية ما امكن وانشا جلة محال وكبر التويلري *
وفي زمن لويس الثالث عشر انشئت طرق عديدة وانشي قصر اللوكسمبور
وبستان النباتات وغير ذلك . ثم لما قام لويس الرابع عشر اتم ما كان
قصده خلفه وهنري الرابع فانشا اكثر من ثمانين طريقا وحسن القديمة
وانشا ساحة فندوم وثلاثا وثلاثين كنيسة ومارستان السقط ومارستان النغول
والمردد وكبر قصر التويلري ونظمت المماشي وبلط كثير من الرصف
وغرست غيضة شاترلري . وكذلك لويس الخامس عشر لم يال جهدا في

ان افادها نضرة الملك حتى وسعت رقعتها في زمانه ٣٩١٩ فداناً وانشا عدة مدارس وعيونا جارية . وفي ايام لويس السادس عشر انشئت فيها جلته ملاه وكنائس ومنازل مائتة واسواق بهيئة فصارت رقعتها ٩٨٥٨ فداناً . وجعل للسور ستون باباً يؤخذ منها ضريبة على ما يدخل اليها من الخارج ووسعت الطرق واتم « بالي رويال » (اي السرايا الملكية) بمسا فيه من الخواص الطريفة . وفي زمن الفتنة خرب كثير من الكنائس ثم ردمت وانفق عليها اربعة ملايين ليرة . ولما استرد الملك الى لويس الثامن عشر بنى مجلس المشورة العام وانشا اسواقا كثيرة ومستشفيات عديدة ونصب عمود قدوم وانشا خمس عشرة عينا وزين القصر . وفي ايام شارلس العاشر زيدت فيها بحاسن كثيرة جعلها في الكنائس وانشئت ثلثة جسور . فلما قام لويس فليب فتحت طرق جديدة وربع بناءً هوتل دو فيل ونصبت مسلة مصر (ازاء سرايا التويلري في بطحاء فسجة يقال لها « بلاس دي لا كونكورد » اي ساحة الوقف) واتم انشاء كنيسة لامدلين اي البجدلانية وبلاس دولا كنكورد (المتقدم ذكرها) وعمود النصر . انتهى ملخصاً قال وهي على بعد مائة وخمسة فراسخ من لندرة او مائتين واربعة وخمسين ميلاً . ودورتها ثلثة وعشرون الفاً وسبعمائة وخمسة وخمسون متراً او خمسة وعشرون الفاً وتسعمائة وتسعة وسبعون يارداً (اعني نحو ثلثة عشر ميلاً) . واطول ايامها ست عشرة ساعة وست دقائق واقصرها ثمانين ساعات وعشر دقائق . وفيها اكثر من خمسة واربعين الف دار وثلثة عشر الف دكان والف ومائتين وستين طريقاً وثمانية وثلثين مشى واحد وعشرين بلقاراً وتسع وتسعين عرصة او فسحة ومائة وثلث وثمانين سقيفة او معبراً مما يقال له « باساج » وسبعة وثلثون رصيفاً . وسطح طرقها يبلغ ثلثة ملايين ومائتين الف ذراع مربع وطولها اربعمائة وثمانون الف ذراع او مائة وعشرون فرسخاً . ومصاريف تنظيف الطرق تبلغ خمسمائة وخمسة وثلثين الف فرنك . ومن قبل سنة ١٧٢٨ كانت الطرق غطاة بالاسماء ثم بعد ان رقت غيرت مراراً عديدة . وفي سنة ١٨٤٢ بلغت مصاريف تبليطها وتوسيعها سبعمائة وخمسين الف فرنك . قلت

جميع الطرق كانت من قبل مبلطة فلما صار لاهلون وقت الشغب والفتنة
يتخذون حمارتها متاريس امر لان بان تصير رضاضا . ومن سنة ١٨٥٣
الى سنة ١٨٥٧ بلغت مصاريف المدينة ثلثة وتسعين مليوناً صرف منها في
البناء وتجديد الديار سبعة واربعون مليوناً وفي الماء وتصليح الطرق ثلثة
وثلاثون مليوناً وعلى بوى دوبرلون خمسة ملايين . وجل هذه المصاريف مما
يرد من المدينة . ولم يصرف الميري من عنده اكثر من ستة ملايين . اه *
وقبل ايام لويس السادس عشر لم تكن تنور الا مدة تسعة اشهر في السنة
وذلك عند غياب القمر فامر بان تنور في كل ليلة . وعدة ما فيها من
القناديل ثلثة عشر الفا ومائتان واحد وعشرون قنديلا اكثر من نصفها
ينور بالغاز . وفي سنة ١٨٤١ ولد فيها تسعة وعشرون الفا وتسعمائة وثلثة
وعشرون طفلاً ومات ستة وعشرون الفا وثمان وعشرون نفساً وتزوج ثمانية
آلاف وتسعمائة واثنان وستون زوجاً وكان عدد النول تسعة آلاف وثمانمائة
وثلاثين نفلاً وفيها نحو ثمانين الف خادماً * وقال آخر كان اهلها في
سنة ١٨٥٦ مليوناً ومائة واحداً واربعين الفا وثلثمائة وست عشرة نفساً .
وفيها من الحرس السلطاني تسعمائة وسبعة عشر حارساً من جلتهم ثمانية
وعشرون ضابطاً . ومصاريف ديوان الشرطة تبلغ في السنة خمسة ملايين
وثلثمائة وخمسة وثلاثين الفا ومائتين وخمسة وتسعين فرنكاً * وقال الاول
ولا يزال في مستشفياتها خمسة عشر الف نفس . وقدر سن يدخل فيها
ويخرج منها ستون الفا . وفيها تسعة آلاف من فقهاء الشرع وهم اهل علم
ودراية ولهم موضع مخصوص لنصح الفقراء مجاناً وذلك في يوم السبت .
ومائة واربعة عشر كاتباً للذكور والعقود . وتسعة سجون احدها للمقتضى
عليهم تبلغ مصاريفه مليوناً ومائة وخمسة واربعين الف فرنكاً . ويعاملون
فيه بغاية ما يمكن من الرفق والشفقة . وعدها ثيرة عشرة . وفيها احدى
وعشرون مدرسة ملكية فيها من الطلبة عشرة آلاف وتسعمائة وخمسة
وسبعون طالباً وايرادها منهم ثلثمائة وثلثة وثمانون الفا وخمسمائة واربعة
واربعون فرنكاً . وثلثمائة وسبعة عشر مكتبة مما يقال له « كومونال » فيها

من المتعلمين اثنان وعشرون الفا وخمسمائة وثمانية وثمانون متعلما وايرادها مائتان وسبعة وعشرون الفا وستمائة وثلاثة وتسعون فرنكا ومائة واحد عشر معلما يقال لها انستيتوسيون فيها ثمانية آلاف وثلثمائة وثمانية وسبعون طالب علم وايرادها مائتان وخمسون الفا وستماية وعشرون فرنكا والفا وسبعة مراب ويقال لها « بنسيونات » فيها ثلاثة وعشرون الفا وخمسمائة وثمانية وثلثون نفسا وايرادها اربعمائة وثلاثة وسبعون الفا وسبعماية وثلاثة وسبعون فرنكا . وفيها اربع وخمسون جمعية للعلوم وفعل الخير وبث الديانة ما عدا مواضع اخرى . قلت ان كثيرا من هذه المدارس والمكاتب يديره القسيسون فلا ياخذون من المتعلم إلا نصف المصروف عليه فيمكن للوالد ان يضع ولده في احدها بمصروف ثلاثين فرنكا في الشهر فمن اجل ذلك ترى جميع الاولاد هنا مترشحين للعلوم والصنائع . وللأخوات اللاتي هن من جنس الراهبات فصل عظيم مشهور في تربية البنات وتقرض الرجال والنساء في بيوتهن او بيوت المرضى حتى ان بعضهن يداوي وبعضهن قوابل . وقد يسافرن الى البلاد البعيدة في فعل الخيرات ولهن لباس مخصوص يعرفن به على تنوعه . فهذه الطريقة انفع من طريقة الراهبات عندنا اذ يحتجبن عن الناس في الدير فلا ينفع احدا من الناس . وهاتان المزييتان اي التعليم على الوجه الذي ذكرنا والاعتناء بالمرضى لا توجدان في لندرة على ان التداوي في مستشفيات باريس هو على طرف التمام وفي لندرة يحتاج الى ذرايع ووسائط . قال وفيها ستة وثلثون مارستانا . وقد علم من خلاصة صدرت في سنة ١٨٤٢ ان هذه المارستانات تلقي بمائة اثنى عشر الفا من المرضى والعاجزين رجالا ونساء . وفي كل سنة يدخلها نحو ثمانين الفا . وان مصاريفها في السنة المذكورة بلغت اربعة عشر مليونا ونصف مليون لكن ايرادها اكثر من المنصرف وهو يتحصل من ضرائب على الملاهي ومن العقار الذي يشتري للقبابر وغير ذلك . ويصرف فيها اي في هذه المستشفيات من اللحم مليونان وخمسمائة وستون الفا ومائتان وخمسون رطلا ومن الزبدة ثمانية واربعون الفا وثمانماية كيلوغرام ومن اللبن خمسمائة وثلثون الف لتر . ويوجد

ايضا ما عدا ذلك مواضع عديدة لاغائة الفقراء وتشغيل البطالين . قلت
وقد علم من كتاب طبع في سنة ١٨٥٥ ان هذه المستشفيات تقوم بموتة اكثر
من اربعة عشر الف مريض يعالجون فيها واقدامها المارستان المسمى « هوتل
ديو » يتداوى فيه في مدار السنة احد عشر الف مريض وتخدم فيه
ستون راهبة وعدد اطبائه اثنان وسبعون طبيبا * وقال آخر المحسوب ان
نصف اهل باريس صناع وعملت وليس فيها اكثر من الف نفس ممن
يحسبون اثبات كونهم سكانا في باريس سلفا عن خلف من عهد لويس
الثالث عشر * وقال آخر ان ثلثي سكان باريس لا يقدرون على مصروف
الجنابة . وكل واحد من ثلثة آلاف يقتل نفسه ومن كل ثلثة مواليد يكون
نفل . وان منهم ثلثين الفا من غير الذين يعيشون من الصدقات يقومون في
الصباح ولا يعرفون من اين يحصلون غداهم . ومنهم سبعة عشر الفا سكارى
منهمكين في القبايح (١٠٣) * وقال آخر وفيها تسعة اسواق كبار للمأكولات
وخمسة مجازر بلغت مصاريف بنائها وتنظيمها ستة عشر مليونا وخمسمائة
وثمانية عشر الف فرنك . وثم المساكن والمدابغ العديدة وعدد الجزارين
اكثر من خمسمائة . وفي كل يوم يذبح في احدها وهو المسمى بجزر مونت
مارتر تسعمائة من الثيران واربعائة من البقر وستمائة وخمسون من
العجول وثلثة آلاف وخمسمائة من الصان * والموتة السنوية من الماكول
والمشروب وما هو من قبيل ذلك تبلغ ثلثمائة وخمسين مليونا منها تسعة
واربعون مليونا ثمن خمر واثنى عشر مليونا ثمن لبن وثمانية وسبعون
مليونا ثمن شمع وسكر وبن اي قهوة وما اشبه ذلك ومليونان ثمن ملح
وثمانية وثلثون مليونا ثمن خبز واربعون مليونا ثمن لحم وخمسة عشر مليونا
ثمن بقول واربعمائة واربعة واربعون الفا ثمن فحم . والموتة من البطاطة
في السنة تبلغ ثلثمائة وخمسة وعشرين الف كيلوغرام . وبلغ ما يباع
فيها من التبغ في كل سنة سبعماية الف وثمانية آلاف وسبعماية وثلثة
وتسعون كيلوغراما . وموتهم في كل يوم من الخمر ونحوه مايتا الف كيلوغرام
وكل يوم ياتي اليها عشرون عجلة مشحونة بالفصة . وفي بعض

الايام يباع فيها من الدقيق ما قيمته خمسة واربعون الف فرنك . ويرد اليها من الخارج في السنة اثني عشر الف قارب مشحون بالفاكهة والقمح * وقال ءاخر ومن جلة اسواق الماكولات بباريس السوق المعروفة بالهال اول حجر وضع في اساسها وضعه الامبراطور في سنة ١٨٥٢ تباع فيها البقول والخضرة والفاكهة على انواعها فيرد اليها في كل يوم ثلثماية وعشرون عجلة مشحونة بها وفي اوان الفاكهة يستخدم في نقلها اربعماية وعشرون عجلة ونحوها . ويباع فيها في العام من صنف واحد من البقول مما يتخذ للسلطة بليون فرنك ونصف مليون ومن صنف من محار البحر يسمى الزويتير بنحو مليون وسبعماية الف فرنك * قلت والفاكهة والبقول في فرنسا تعظم للغاية كما في انكلترة . فقد يصنعون من قشر ثمر الجوز شبه حقة للنساء تحوي مقصا وابة ونحو ذلك * قال ويباع فيها في سوق الزبدة بنحو ستة ملايين ومن البيض بنحو خمسة ملايين وستماية الف فرنك * قلت ومن هنا يعلم ان ما ذكره الشيخ رفاة يلك من ان اهل باريس يقطعون من البيض بخمسة ءالاف فرنك سهو والظاهر انه اراد خمسة ملايين كيف لا وقد قال انهم يخلطونه في نحو ثلثماية صنف من الطعام * وفيها اي في باريس خمس مشبخت كبار اي الاكاديميات من جلتها الاكاديمية الفرنسية للنظر في تهذيب اللغة وتنقيح اصولها وفروعها فكل من الف كتابا بديعا في التاريخ والادب ينال منها جائزة * وفيها ديار كتب عديدة اكبرها واعظمها المكتبة العمومية فيها مليون من الكتب المطبوعة وثمانون الف كتاب بخط اليد ومائة وخمسون الف ميدال اي نيشان ومليون واربعماية الف مفيحة منقوشة وثلثمائة الف راهنامج وفيها رسائل محفوظة من لويس الرابع عشر وكليبر وكلمبرت وكتاب واحد من اللورد بيرون . ومن جلة تلك الكتب كتب مطبوعة من عهد فوست وسوفر . وما من ديوان او محترف ميري إلا وفيه الوف من الكتب . وجلة الكتب المطبوعة الموجودة في المكتاب ما عدا المكتبة المذكورة اكثر من مليون وما يقى الف كتاب (١٠٤) . والتي بخط اليد عشرة ءالاف ما عدا ديارا اخرى على حديثها بعضها يحوي

عشرين الفا وبعضها اقل وهو كاف في بيان ما لهذا الجيل من الحرص على العلوم * وفيها مطبعة سلطانية من تاسيس فرنسيس الاول فيها حروف متنوعة يطبع بها كتب باحدى وخمسين لغة . ويطبع فيها في ليلة واحدة ثمانمائة صفحة من قطع الربع . وعدد المستخدمين فيها من ثمانمائة الى تسعمائة . ومصاريفها ثلثة ملايين * وعلى نهر المدينة سبعة وعشرون جسرا منها سبعة معلقة وثلثة من الحديد والحجر وواحد من الخشب والباقي من الحجر من جلتها جسر دولاكنكوردي بدي به سنة ١٧٨٧ ونجر في سنة ١٧٩٠ . وبلغت مصاريفه مليوناً ومائتي الف فرنك طولها ٤٦١ قدماً وعرضه ٦١ . وآخر يعرف بجسر لويس فيليب بلغت نفقته مليون فرنك . وآخر اسمه جسر روابيل طولها ٤٣٢ قدماً وعرضه ٥٢ وآخر يسمى بون دزاراي جسر الصنائع طولها ٥٦٦ قدماً وعرضه ٣٠ ومصاريفه تسعمائة الف فرنك . وقد اجري اليها الماء في قني من جلتها قناة مسافتها اربعة وعشرون فرسخا بلغت مصاريفها خمسة وعشرين مليوناً واخرى انفق فيها اربعة عشر مليوناً ومائتا الف فرنك * وقال آخر يوجد فيها سبعمائة وسبعة وعشرون من وكلاء الدعاوي . والاف واربعمائة وستة وخسون من الاطباء والجراحين . واربعمائة وسبعة وتسعون من باعة الادوية اي الكيماويين . وثمانمائة واحد عشر من البنائين . واربعمائة واثنان واربعون من المصورين . وثمانمائة وثمانون من النقاشين على الحجر والحديد ونحوهما . وستمائة وتسعة وثمانون من الخبازين . واربعمائة وسبعة وثمانون من الجزارين . وستمائة واثنان وستون من الصيارفة . والاف ومائة وستون من التجار بالكومسيون . والاف وثمانمائة وخسة واربعون من باعة الشمع والصابون والسكر ونحو ذلك . وستمائة وثمانون من صناع الساعات . وثلثة الاف وتسعمائة وتسعة وسبعون خارا . ومائتان وستون من باعة الشريط والقطان ونحوهما . وسبعمائة وثمانية وثلثون من صناع الزهر من الورق . ومائة وستة وعشرون من المصورين على نور الشمس . ومائة وسبعة عشر من الحمامات السخنة . ومائتان واربعون معملا للورق . وخمسمائة وثلاثة

وعشرون موضعا للاكل . والف وخمسة وثلاثون موضعا للقهوة . وثلاثة وثلاثون
محترفا لاشتهار الاعلامات . ومائة وثمانية وعشرون موضعا للتصميم والتعهد .
وفيها سبعة مواقف لسكة الحديد وسبعة وعشرون ماوى المجند من جلتها
ماوى يسع خمسة الاف وثمانمائة رجل وثمانمائة فرس . وفيها اثنا عشر
حوضا وثمانية وعشرون ملهى اي ثيابا ولم يكن فيها في ايام لويس الرابع
عشر سوى ثلاثة * وفي سنة ١٧٩١ صدرت اجازة للاهلين من اهل المجلس
المعروف بالاسامبلي بان كل من استطاع منهم ان ينشئ ملهى فهو غير
معارض فبلغت ثلاثة واربعين . وهناك ايضا محال اخرى للغناء والسهرات
والحظ مما يطول شرحه * قال والملهى الطلياني يرد اليه امداد في السنة
من خزنة الدولة بمائة الف فرنك . وان كثيرا من الانكليز والنمساويين
بل الروس يقصدون ملاهى باريس ليسروا فيها من التمثيل ما لم يروا في
بلادهم الا غير كامل . وكلهم يقر بافضليتها على غيرها . وامداد الاوبرة
الفرنساوية سبعمائة وخمسون الف فرنك ما عدا مرتبا اخر لها قدرة مائة
وثلاثون الف فرنك * قلت في اول المرفع وفي نصف الصيام يصنعون في
هذا الموضع رقصا فتعشده اليه الرجال والنساء بلباس السخريه بحيث لا
يعود الرجل يعرف زوجته ولا بنته ويبقون هكذا الى الفجر (١٠٥) . وهذا
الموضع يشتمل على نحو خمسين ثريا او نجفة وعدد لا لايتى فيه يفيق على
خمين * قال وامداد الاوبرة كوميك اي ملهى الضحك مائتان وستة
واربعون الف فرنك . وفيها عشرة متدييات مما يعرف بالكلب وثمانية
مراقص اصلية من جلتها مرقص يختص بطلبة العلم فاما المراقص التي تكون
مجتمعا للدون فغير جديرة بالذكر . وفيها احدى واربعون كنيسة كبيرة
ونحو منها المعابد . واقدام الكنائس واشهرها كنيسة « نوتردام » اول حجر
جعل في اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث وذلك في سنة ١١٦٣ ولم يتم
بناؤها الا في عهد شارلس السابع . طولها مائة وستة وعشرون ذراعا وكسور
وعرضها ثمانية واربعون وارتفاعها ثلثة وثلثون وطول برجها ثمانية وستون .
وفيها خمسة اسواق للزهر على اجناسه وانواعه . وفيها سوق للكلاب يعرض

فيها للبيع في كل يوم احد مائتان وثمانون كلبا . واخرى للخيل والحمير طولها
اربعمائة وثمانون ذراعا وعرضها ثمانية وثمانون . وفيها ساحة للخمر وسعها
ستة وعشرون الف ذراع مربع يرد اليها في كل يوم الف وخمسمائة برميل
وهي تسع منها خمسة واربعين الفا . قال كالنياني : وبلغ ايراد الخزينة
من الدخان سبعة ملايين . وبلغ مكس باريس الوارد اليها مما جعل على
الاسواق والحوانيت والمجازر والمخازن والعيار والدفن وغير ذلك خمسين
مليوناً ، وبلغ المصروف عليها خمسة واربعين مليوناً من جلتها مصاريف
الابنية والمستشفيات وديوان الشرطة والمكاتب والمتاحف والماشى والزينة
في الاعياد . وبلغت مصاريف الدواوين الميرية ١٧٢ ٢٠٨ ٢٣٨٩ فرنكا
اعظمها مصاريف ديس الخزنة للامة وديوان الحرب . وبلغ ايرادها
١٢٤٦ ٨٨٠ ٣٣٦ . ودين الامة يبلغ ٩٠١ ٩١٦ ١٩٥ . وبلغت مصاريف العسكر في
سنة ١٨٤٤ . ٣٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠ (١٠٦) والوزراء هم وزير الامور الخارجية ووزير
الدواوين الميرية ووزير المهمات البحرية والمستعمرات ووزير المصرف
والايراد ووزير الزراعة والتجارة ووزير الامور الداخلية ووزير الابنية
الميرية ووزير الشرع والعدل ووزير التعليم والمدارس . ومن هلاء الوزراء
ومن مجلس المشورة الخاص والعام ومن صاحب الملك تتالف دولة فرنسا *
وعدد المستخدمين في دواوين الوزراء الفان وثلثمائة وثمانون مستخدما
ووظيفتهم في السنة ستة ملايين فرنك . وعدد المستخدمين في ديوان الشرطة
نحو الفين وهو من ترتيب لويس الرابع عشر . قلت وجميع هذه المقادير
والاعداد قد زادت لان زيادته رايته * وقال آخر وفي باريس توزع
المكاييب سبع مرات في كل يوم وذلك من الساعة السابعة ونصف صباحا
الى الساعة التاسعة مساءً . واول من رتب البريد لويس الحادي عشر وفي
سنة ١٧٩٢ اطرد ترتيبه كما نراه لان * وقد حان لي هنا ان اقول ان
باريس تشبه لندرة في كونها شطرين يفضل بينهما نهر إلا ان نهر باريس
صغير لا يسع المراكب الكبيرة . وتخالفها في احوال كثيرة : احدها ان ديار
باريس من الحجر فلا يزال ظاهرها ابيض انيقا بخلاف ديار لندرة فانها

مبنية من الاجر فلا يأتي عليه سستان او ثلث إلا ويسود من كثرة الدخان والصباب بل المنازل المبنية فيها من حجر تسود ايضا * الثاني ان ديار باريس متناسقة الارتفاع في الغالب متناسقة الظاهر فانها كلها بـيصاء متناسقة وضع الشبايك . اما ارتفاعها فان بعضها يشتمل على سبع طبقات وربما ارتقى فيها الانسان مائة وثلثين درجة حتى يصل الى غرفته فهي من هذا القليل متعبة . ولكل طبقة فانوس يشعل بالغاز . ولكل دار رتاج كبير لا يزال مفتوحا الى نصف الليل وبواب يتبوا كنا بالقرب منه . فاذا خرج احد السكان اعطاه مفتاح غرفته . ومتى رجع اخذه منه . واذا غاب بعد نصف الليل اطن الجرس فيقوم البواب من فراشه ويفتح له . ولا بد وان يعطيه شيئا في مقابلة ذلك . هذا اذا كان ساكنا في دار مفروشة فاما اذا اكثرت شقة من دار تشتمل على مبيت ومتعد ومطبخ فله ان ياخذ مفتاحه معه . وعند ذلك يحتاج ان يستخدم امرأة لتصلح له مسكنه او يستأجرها ساعة او ساعتين في النهار . وربما كانت هك المرأة اجيرة عدة اشخاص فتذهب الى كل منهم في ساعة معلومة . ولا يمكن لغريب بل لاهلي ان يستأجر د'را من بابها بجميع مرافقها وذلك لكبرها وغلائها . فكل دار في باريس عبارة عن قصر . فاما ديار لندرة فلا تزيد غالبا على اربع طبقات ثلاث ظاهرة وواحدة تحت الارض للفحم ولغسل الثياب وما اشبه ذلك وهي غير متناسقة فبعضها عال وبعضها سافل وبعضها كبير وبعضها صغير فمن ثم يمكن لكل واحد ان يستقل بدار على حدتها وما اشبه ذلك * الثالث ان درج ديار باريس متين جدا . ومبطل الغرف التي بنيت من عهد حديث من خشب متين جلي بهي ومبطل الديار القديمة من الاجر الاخر . وفرش المبلط بالبسط او الزرابي غير مطرد وانما يجترئون عن ذلك بنحو سجاداة يجعلونها امام الموقد . اما في لندرة فان جميع المساكن مفروشة بالبسط ولذلك سببان احدهما ان البسط فيها رخيصة . وفي باريس غالية والثاني ان خشب المبلط في لندرة قبيح وسخ فكان لا بد من سترة * الرابع ان جميع طيقتان باريس تفتح على مصراعين كالباب فيسهل غسلها وتظيفها باهون سعي وطيقتان لندرة

لا يفتح إلا نصفها الأدنى معدا ويبقى لأعلى مطبقا فلا يمكن تنظيفه فيكون لابد من استخدام رجل ينظفه من الخارج وهو معنت شاق * الخامس ان مواعد ديار باريس هي في موازاة المبلط ولا يمكن طبخ شيء عليها ، وجل وقودهم انما هو الحطب لا الفحم المعدني فانهم يكرهونه غاية الكراهية لرائحته وتوسخه الثياب ولا يطبخون عليه اصلا . وحسن كنا نوقده للاستدفاء على عادة الانكليز كانت خادمتنا تتأفف منه وغير مرة غشى عليها منه . وفي بعض الغرف والداكين يوقدون ما اطفى من الفحم او الفحم مع الحطب في كوانين عالية من الحجر القيشاني الطريف او من الحديد . وقد تكون متصلة بقصبة من حديد نافذة في الحائط ليخرج منها الدخان وقد لا تكون . وفي الجملة فان مواعد لندرة احسن فانها بجعولة لان يوقد فيها من فحم الحجر قدر ما تشاء . ولان يطبخ عليها وذلك لارتفاعها عن المبلط . هذا في الديار الصغيرة فاما في ديار الكبراء فتكون ايضا في حيز المبلط كما هي في باريس والحكمة في ذلك عندهم وعند اولئك ايصال الحرارة الى الارجل فانها احق للاعضاء بالدفء . والحاصل ان الشتاء داخل الديار في لندرة انها واهون وذلك لاهتائهم بفرش المساكن والدرج وبكون المواعد قابلة لوقيد الفحم كما مر وانت خير بان بناء الحجر يحدث رطوبة اكثر من الاجر * السادس ان لكل طبقة من ديار باريس مرحاضا ووراءه مصب للماء وفي ديار لندرة لا يكون إلا مرحاض او اثنان فهي من هذا القبيل انظف وادنى الى الصحة * السابع ان مداخن باريس الخارجة من السطوح تكون غالبا من الحديد وفي لندرة من الخنزف فتلك ابهج منظرا * والحاصل انه لما كان النظر في امور المدينة والديار بباريس موكولا الى ارباب السياسة كانت الديار وحدها تودن بابهة المكان وجلاله فضلا عن الداكين والدواوين الملكية . فكم فيها من رواشن حديد مذهبة ومن جدران مزخرفة وابواب موزجة مما يستوقف المجتاز . وكذلك الداكين فانك تراها وصيئة بهجة والمحاجات فيها زهية ناضرة فيود لانسان لو يشترى كل ما فيها . فكان في رقع المدينة نورا يلقي شعاعة على المزيئات فيكسبها بهجة

وطلاوة وكان القاعد على كرسي في بيته انما هو قاعد على شوك القتاد ابدا
يتجامل ويتحرك للخروج ليرى الديار والحوانيت مما يشوق ويروق *
اما ائمة الديار وفرشها فالغالب انه في باريس انفس واغلى . واكثر ما
يحصل على العجب منها سرهم التي يرقدون عليها فانهم ينصدون عليها عدة
من الفرش حتى انهم يصعدون اليها على درج وذلك مطرد للغني والفقير .
وتغلبها في الغالب من النوع الذي سماه الشيخ رفاعة الكابلي . ويجعلون
فوقها اطارا من خشب مذهب على هيئة التاج وهم يسدلون الناموسية .
ولا بد وان يكون في البيت امرأة كبيرة وساعة دقاقة يضعونها فوق درف
الموقد * وتفصل باريس لندرة ايضا في كثرة العيون الجارية في الطرق
وفي كثرة الحمامات . واذا شاء الانسان ان يستحم في بيته اوصر الى قيم
الحمام في ان يبعث له بمطس وماء جيم . وهذا يكاد ان يكون معدوما في
لندرة . ومن ذلك الكتابة التي تكون فوق الحوانيت والرواشن . فنان
يجلها مكتوب بماء الذهب وفي لندرة جلها بالحبر واذا كان بماء الذهب فلا
يلتئ ان يسود . ومن ذلك ابواب الدكاكين والقضبان الفاصلة بين الواح
الزجاج فانها هنا اكثر رونقا . فاما من حيث السعة والبحجة فدكاكين
لندرة اعظم * ومن ذلك الوصف التي على جانبي نهر السان فانها مبلطة
نظيفة بحيث يمكن للانسان ان يقعد عندها ويسرح ناظرة في النهر . وهو
يمتثل على عدة حمامات ومغاسل كالبيوت تغسل فيها النساء ثياب السكان *
ومن ذلك وجود دكاكين اخرى في الطرق للغسالات فانك في كل طريق
تجد منها واحدا او اثنين وذلك نادر في لندرة جدا . وانما يغسل النزيل
ثيابه عند شمالة الدار التي يسكنها سواء كانت نظيفة او وسخة وهن غالبا
في الريف . ومن الغريب ان غسالات باريس يغسلن الثياب بالمطارق
وصكل منهن راض * ومن ذلك انه يوجد في باريس مواضع يتخلى فيها
لا انسان لقضاء الحاجة . ولا يخفى ان وجود ذلك في المدن الغناء ضروري
فان من يخرج من دارة ويضطر الى قضاء الحاجة لم يمكنه الرجوع اليها .
وذلك في لندرة معدوم . بل مواضع البول فيها على قلتها قدرة رديئة ما عدا

مما صنع فيها حديثنا في طريق استراند وهو برن فهي تعز عن النظير واجدر
بهذه الحاجة ان تكون في باريس من المصالح وفي لندرة بالتعريف *
وما احسن ما قيل في الفرنسية من انهم « يجعلون كل مقصد حرفة وكل
حرفة مقصدا » * وتفصل باريس لندرة من حيث النظر لا من حيث
الفائدة بكثرة العساكر فان فيها وفي ضواحيها نحو مائة وخمسين الفا فلا
تزال تسمع منهم الموسيقى وتظهر منهم الملابس الحسنة وهي احسن من ملابس
عسكر الانكليز . وقد جرت العادة بان يكون مع العساكر نساء للخدمة
يتبعنهم وهن متزديات بلباسهم * اما المعيشة فحيث كانت المطاعم عندهم
كثيرة وكل ما يشتهونه من المأكول والمشروب يجدونه فيها لم يكن احد
يتكلف الطبخ في بيته . اما اصحاب العيال الذين يكون لهم مطبخ وحمل
للخدمة في منازلهم فلا يتأبون تلك المطاعم إلا في الاعياد . وهي نظيفة للغاية
واول ما يجلس المستطعم ياتيه الخادم بدفتر فيه اسماء الطعام وبفوطه فيختار
ما يشاء * اما في لندرة فحين يجلس احد في مطعم ياتيه الخادم ويصرخ في
في اذنيه « شواء لحم بقرة » - « شواء ضأن » - « كرنب » - « جزر » - « بطاطة » .
وهنا تنتهي الفهرسة . ولا يقدم له فوطه . واي مطعم دخلت في باريس
رايت فيه الرجال والنساء والاولاد . ولا بد من ان يوضع امام الاء كل نبخات
من الكبريت لاشغال السيكار واخلة لتنظيف اسنانه * والخاصة من اهل
باريس ياكلون مرتين فقط الفطور او الغداء وهو في الساعة الحادية عشرة
والغداء او العشاء في الخامسة . ويقطرون على شواء الضأن والمحار . والعامه
ياكلون ثلث مرات * اما طعامهم فانه وان كانوا يتفننون فيه كثيرا فلا
يستطيعه إلا سن الله . وذلك لانهم يسلقون اللحم اشد السلق ليتخذوا منه
نوعا من الرعيد ثم يطبخونه بالشحم بدل السمن فياتي مسيخا . وقد قلت
في ذلك :

رب قوم يستمرثون طعاما * فيه شحم الخنزير والدم يهيم
وانا ان اكلت منه لما ظا * بات شحم الخنزير ياكل شحمي
وفي الجملة فانه الذ من طعام الانكليز كما ستعرف ذلك في بابي . غير ان

الشواء عند الانكليز الذ منه عند الفرنسيين * وهناك طريقة اخرى للمعيشة وهي ان بعض الديار يصنعون مائدة عمومية يسمونها « تابل دوت » اي مائدة الصيوف فمن شاء ان ياكل فيها لزمه ان يذهب في ساعة معينة ولعلها ارخص من المطاعم العمومية والطيب . وثمن الغداء في هك نحو فرنك ونصف وثمن العشاء نحو فرنكين . وهو يبتدي غالبا بالشوربة ويختتم بالمشقة اي السلطة ثم بشي من الحلو او الفاكهة . وفي البلغار مطاعم لا يتناها الا الاغنياء والمسرفون فان ثمن العشاء فيها اربعون فرنكا او خمسون * اما القهوة فاذا دخلت محلها جاءك الخادم بكوب سميك كالذي يوكل فيه الشوربة وبسكر جزيل وصب القهوة بمرأى منك ثم اتبعها بالحليب المسخن . وقد رايت كثيرا من ذوي السمات والرواء يصنعون نصف السكر في الفنجان ويختبنون النصف الاخر * والمطاعم ومحال القهوة في هك المدينة لا تحصى كثرة . وهناك محال للقهوة تغني فيه الرجال والنساء يدخلها الناس جانا ولكن بشرط ان يشربوا شيئا يقوم عليهم قيمة شيتين * ومما يعجب منه في باريس الدكاكين التي يباع فيها المربيات والشراب وذلك لنظافتها وانوارها وربما كانت سقفوها من مرايا . وعندهم من اصناف المربيات والمربيات والمعجنات والحلويات ما يزيد على ما عند الانكليز عشرة اصعاف الا انهم مثل الانكليز في ان حلوياتهم جميعها معمولت بالسكر لا بالعسل * واعلم ان ارباب السياسة هنا يتعهدون صحة الرعية فيما يباع من الماكول والمشروب فلا يسعون للباعه بان يبيعوا شيئا فاسدا او مضرا بالابدان او مفسوشا . وكان الخمر مستثناة من ذلك . فلهذا كان كل ما يوكل ويشرب هنا الذ واذكى مما يوجد بلندرة . بل البقول والفاكهة هنا الطيب والذ . فمن ذلك الخبز وهو الزم ما يكون للمعيشة فانه في غاية الطيبة وهو من محض الحنطة غير مخلوط بشي من الشب او البطاطة كخبز الانكليز . وقد يصنعون منه . شكلا في طول قامته الرجل . واللحم على ان الانكليز يدعون بان لحمهم طيب . ويعبني هنا نظافة دكاكين اللحامين فلا يمكن ان تشم منها رائحة كريهة بخلاف دكاكين لندرة . وهم يقفلون دكاكينهم قبل

ان يوقدوا الغاز فانهم يقولون انه يغير طعم اللحم . ومن ذلك الزبدة
والجبن وبحار البحر على انواعه والزيت والخل والمخلل واللين . وقد يصنعون
منه الرائب والقريشة كالموجود في بلادنا سواء . وكذا الصابون والشمع
بل الكبريت وحطب القود هنا احسن مما يوجد بلندرة . وعندهم كثير من
البقول والفواكه مما لا وجود له في تلك . فاما جعتهم فغير طيبة ولكن هم
قلما يشربونها لاستغنائهم عنها بالخمر * اما الهواء فبرد باريس ولندرة صنوان
غير انه لما كانت الديار كلها مبنية هنا من الحجر وكانت مواقدتها غير
صالحة لوقود الفحم المعدني كما مر كان البرد اشق وابلغ وزد على ذلك
توالي الامطار شتاء وصيفا . وقد شاهدت جماعة غفيرا حضروا من باريس الى
لندرة وسالتهم عن الهواء فكلهم اجاب بان المطر لم ينقطع مدة اقامته وكان
فيها بلندرة صحوا إلا ان الناس لا يشعرون في باريس بعنت المطر او الثلج
لكثرة ما فيها من السقائف والمتزهات ومحال القهوة مما يذهب بالكرب .
اما في لندرة فلن يجد الانسان من ذلك مهربا إلا في بيته وهذا حسب *
وفي باريس عدة مواضع لا نظير لها في الدنيا بأسرها . فان ابندرتي لتقطع
علي كلامي بان تقول « وهل رايت الدنيا كلها حتى تحكم بذلك » قلت
اني لم ار الدنيا بل رايت تحاريت عقول اهل الدنيا اعني اقلام المؤلفين
ممن طوفوا وساحوا في مناكبها فكلهم حكم لهذه المواضع بالاحسن والافضل .
احدها البلغار وهو طريق واسع طويل ممتد يحيط بباريس كالمنطقة للخصر
كلا جانبيه محفوف بالشجر المتوازي الوضع وبالدكاكين الطريفة والديار
الشاحقة ومواقع القهوة الانيقة المحافنة . فلا تنزال ترى امامها الوفا من
الكراسي يجلس عليها الرجال والنساء وهناك يقرأون صحف الاخبار
ويتفاوضون في ادارة المصالح والاشغال فهي عندهم بمقام المصر اي بورس
وقد تكون حيطان المحل كلها مرآة وسقفه كسقف الكنائس مزخرف
منقوش . وفيها متكات ومقاعد وموائد نفيسة ولا تنزال غاصت بالناس الى
نصف الليل . وقد يكون لها رواشن او مشربيات فيها مقاعد يرى الانسان
منها جميع ما يمر في الطريق . واكثر الملهي هناك من جلستها موضع للغنا

واللعب . وفي ختام اللعب تضعف انواره ويبرز في حراجه نساء لابسات
بزاً رفيعاً على هيئة الجسم ولونه فيجسهن الناظر عرايا وييقن كذلك في
اوضاع مختلفة من دون حركة فان برزت احداهن رافعة يديها بقيت
كذلك الى ان تدور بهن المائدة التي تبرزن عليها دورتين ثم يسبل الحجاب
وترجع لانوار ثم تضعف ويبرزن بهيئة اخرى . وذلك كله يدوم نحو ربع
ساعة . ويقال لهذا المنظر « تابلو فينان » اي الصور الحية * واحسن محل
في هذا البلقار العجل الذي يقال له بلقار الطليان فتم ترى النساء يخطرن
والديبايح والاستبرق والشيلان الكشميرية والعنمل والحز الرفيع وهن متلعات
شافئات والرجال رانين اليهن بافخر اللباس واحسن السميت وشم اطرف
المحال للقهوة وفي طرف البلقار عمود شاهق من المرمر في قنته تمثال ملك
من نحاس واقف على كرة وهو يلعب في مقابلة الشمس له كانه ذهب ويقال
للملك ملك الحرية وعلى العمود اسماء الذين قتلوا من كبار الامة في سجن
باستيل مكتوبة بالذهب وتحت حوض يستقي منه وكان انشاء البلقار في
سنة ١٥٣٦ * الثاني الموضع الذي يقال له « بالي روايال » اي القصر الملوكي
وانما سمي كذلك لمجاورته قصرا كان مقر الملوك وهو عبارة عن صفى دكاكين
متقابلين فوقها منازل ومطاعم وحمامات ومحال للقهوة وبينهما اشجار وحوض
ومقاعد ومماشى للناس ففي الدكاكين ترى احسن الملبوس وانفس الجلي
والتحف من المعادن والجواهر وهي وان كانت دون دكاكين البلقار في الكبر
إلا ان حسن تنضيد ما فيها وبراعة ترصيفه وبهجة ذلك المكان يكسبها
سعة في النظر ومن رأى كثرة الجواهر والماس في هذا الموضع وفي غيره ايضا
حكم بان اهل باريس اغنى من اهل لندرة إلا ان الجوهريين من لانكيز
لا يبرزون ما عندهم من الجواهر في صفحة الدكاكين وانما يخبئونها في خزنة
فلهذا لا يكاد الناظر يرى عندهم من خارج الدكان غير الذهب والفضة .
وفي تلك المطاعم جميع ما تشتهي النفس فاذا قعدت للغداء رايت الرجال
والنساء والاولاد يبرحون في تلك الروضة وصفة الحمامات صفته المطاعم
وفي الروضة ايضا موضع قهوة عنده كراسي عديدة بعضها عند الحوض وبعضها

تُحْت الشجر وثم تضرب العسكر بآلات الطرب ثلث مرات في الأسبوع وطول هذه الحديقة سبعمائة قدم وعرضها ثلثمائة وكان انشأ هذا المحل البديع في سنة ١٦٢٩ * الثالث الموضع المسمى «شانزلى» أي روضة الاصفياء وهو غيضة طويلة ذات شطرين طولها إلى حد الأزج أكثر من ثمانمائة ذراع وعرضها في الأقل مائة وستون ولها مقاعد من خشب وكراسي طول جهتي الطريق وبين الشطرين طريق واسع لمرور الخيل والحوافل والعوادل ففي أيام الأعياد ترى هذا الممر ملآن من تلك المراكب فإن أهل الثروة يذهبون إلى هناك متفاخرين بما فوقهم من اللباس وبما تحتمهم من المركوب . وترى النساء في العوادل المفتوحة متكئات كأنما هن على نمارق وفروش والعجب والتهيه يلعبان من جنبهن وكثيرا ما تراهن واكبات على هذه الصفة ودخان التبغ خارج من أفواههن . ومن العجب أن أهل باريس يخرجون إلى هذا الموضع وإلى «بوى دبولون» من جمعة الألام قصد المباحة والمفاخرة فيما يلبسون ويركبون فهي عندهم موسم الشانق والتظرف ومع ذلك فإن الجزارين يخرجون من بيع اللحم يوم الجمعة أما احتراماً له أو حياءً من الناس . وفي هذه الغيضة «جردان مابيل» وهو بستان بهيج تشابه الرجال والنساء للرقص فيه خمسة آلاف نور وبستان الشتاء ولا يمكن أن يكون في العالم بستان أجمل منه على صغره فإنه راموز الجنة وفيه عين فوارة يصعد الماء منها علو قامات . وفيها قصر للزهور وموضع واسع ترمح فيه الخيل وخيام لا تحصى يباع فيها الشراب والنقل والحلواء . وفيها زمر شتى كزمر باب الرميلة بمصر فمن بين مشعوذ ومغن وعازف ومحدث ومحبش وغير ذلك . وفيها ثلث قباب مزخرفة ذات بهجة وانوار يجلس في كل منها ست نساء أو خمس من القيان الحسنات ويغنين على آلات الطرب وهن كاشفات عن الصدور والاكتشاف ولكن لا يكون ذلك إلا في فصل الصيف فمن شاء أن يتعد على كرسيه ويسمع الغناء لزمه أن يشرب شيئاً من محل القهوة ودفع ثمنه ضعفين وإذا انتقل من كرسيه إلى غيره وجب عليه تجديد الشرب ومن وقف يستمع فلا تكلف عليه * وهناك من الحياض والتمائيل والملاعب

والملاهي والصروح والاعلام ما ينسى الغريب وطنه . وكان غرس هذه الغيضة في سنة ١٦٧٠ ويقال ان في باريس ثلثة عشر الف شجرة من غرس سنة الى عشر سنين وعشرة الاف شجرة من عشر سنين الى ثلثين سنة وأكثر من اربع وثلثين الفا من ثلثين سنة فصاعدا وغالبها من شجر الميس * الرابع الساحة المسماة « بلاس دلا كنكورد » وهي بين الغيضة المذكورة وبين حديقة التولرى يجوز الناس من هذه الى تلك ومن تلك الى هذه . وفي هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدما وفيهما تماثيل من نحاس تقذف بالماء صعدا فيقع على شبه جرن عليه تماثيل اربعة اولاد وبطة يتخرج الماء من افواهها فيلتقي كلا المائتين ويتحدران الى الحوض وبينهما عمود جلب من مصر عليه حروف بلاسان قدام مصر . قال غاليلاني هذه المسلة انتزعت من موضع بمصر امام هيكل طيبس بمصر الذي بنى سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد واسمها « لكسور » محرفة عن القصر وكانت احدى اثنتين جاد بهما محمد علي باشا على دولة فرنسا تذكارا لالفتهما ومودتهما . والثانية لم تنزل في موضعها ولا بد من انها تجلب وقد انشي لنقل الاولى سفينة مخصوصة في طولون وذلك في سنة ١٨٣٠ وفي سنة ١٨٣٦ نصبت بحضرة الملك لويس فيليب وآله واهل المناصب وبحضرة مائة وخمسين الفا من الاهلين وفي مدة نقلها ونصبها لم يحدث ادنى خلل ولا اذى طولها اثنتان وسبعون قدما ووسعمائة من اسفلها سبع اقدام ومن اعلاها خمس اقدام وكسر وزنتها خمسمائة الف رطل وآخر ما صرف على تحسين هذه الساحة بلغ تسعمائة الف فرنك * وقال آخر انشئت هذه الساحة في سنة ١٧٥٤ ونصب فيها تماثيل لويس الرابع عشر على جواد وعلى قاعدته تماثيل القدرة والحزم والغدل والسلم ولم تكدر هذه الساحة تنم حتى حصل فيها نائبة عظيمة في يوم عرس لويس السادس عشر ملك فرنسا وهي هلاك مائة واثنين وثلثين نفسا في الزحام . وفيها اي في هذه الساحة قتل الملك المذكور وزوجته ماري انطوانت ومدام رولاند وشارلت كوردي وغيرهم . قلت كان لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر وتزوج بنت ملكة اوسثريا المسماة ماريان ترازيا

واتهمه الفرنسيون بأنه كان ذا صلح عليهم مع النمسا فتحزب جمهورهم عليه
وحكموا عليه بالقتل فلما جيء به الى مقتله قدم غير جزع ولا وجل وكلم
الناس بصوت جهير قائلا: «الا يا ايها الفرنسيين اني اموت بريئامن
الذوب التي تجنيتم بها علي واني اسامح جميع اعدائي واتضرع الى الله
تعالى ان تكون فرنسا العزيزة علي» فما كاد يتم قوله هذا الا وصرخ
رئيس اهل الفتنة ويعرف باسم «صانتر» بان تضرب الطبول ويضرب عنقه
فلما صعد المكان الذي اعد لقتله صج القسيسون وهم يصرخون «يا ابن مار
لويس اصعد الى السماء» ثم بعد ان ضربت عنقه جلت جثته ودفنت في
قبر مليء جيرو وجعل حرس عند قبرة الى ان بليت بالمرّة . وفي هذه الساحة
نحو خمسة وعشرين عمودا لها قبب في اعلاها وهي مصلعة مذهبة ولكل
منها جناح ينقل فانوسين مذهبين وهي تظهر للناظر في الليل كأنها ابراج
نجوم . وطول هذه الساحة مائتان وثمانية واربعون ميترًا وعرضها مائة
وتسعة وستون . فاما حديقة القصر السلطاني فلا يحكم لها بالفضل لسعتها
وعظمتها وان تكن انيقة زينة وانما لكونها مجتمعا للناس فتراها مشحونة
بالكراسي والمقاعد ينتابها المتكيسون والمتكيسات عند العصر وخصوصا في
الاعياد وفيها تماثيل عديدة وحمل ينال فيها الطعام والشراب . ولهذه الحديقة
درازين من حديد جلي يطيف بها روس رماحه مذهبة . وقيل ان
الكراسي التي فيها مضمنة بمائة الف فرنك في العام . فاذا لم تقصد هذه
الحديقة لتسرح ناظرك في محاسنها فذلك دليل على فساد مزاجك *
الخامس عمود نابوليون الاول صنع على مثال عمود تراجان في رومية من
الف ومائتي مدفع من نحاس كان قد غنمها السلطان المشار اليه من عساكر
النمسا والروس . وقد نقش خارجه بصور الوقائع التي انتصر فيها وصور
الات الحرب يصعد الناس الى اعلاه لروثة المدينة في مائة وست وسبعين
درجة . وفي قنته تمثال نابوليون طوله احدى عشر قدما وارتفاع العمود
مائة وخمس وثلاثون وزنته ثلثمائة وستون الف رطل . ويقال لهذه الساحة
« بلاس فندوم » باسم دوك فندوم ابن الملك هنري الرابع لزينة بدئي بها

في ايام لويس الرابع عشر . وفي يوم ميلاد نابوليون الواقع في الخامس عشر من ااب تأتي الناس باكاليل من زهر ويضعونها على الدرابزين المطيف بالعمود تذكارا لماثرة . ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية مدينته باريس كان من مهم بادي بدء ان يزيحوه فلم يقدروا . وكان من قبله تمثال من نحاس للويس الرابع عشر فازيح في سنة ١٧٩٢ . قيل وكان اعظم تمثال صنع فان زنته بلغت ستين الف رطل * السادس اليمقائف او المعابر المسماة « بالباساج » وهي اسواق مسقفة بالزجاج ومباططة بالرخام وعلى كلا الجانبين دكاكين بهية متناسقة الوضع يوجد فيها للبيع اغرب التحف واعجب الطرف والغالب ان ما يباع فيها يكون اغلى مما يباع في غيرها . ومنها ما حيطانه مرصعة بالمرايا فيرى المار فيها شخصه ذات اليمين وذات الشمال . وفي زمن الشتاء تنص بالرجال والنساء فهي ملطاهم من المطر والبرد * السابع الغيضة المسماة « بوى دبولون » وهي عبارة عن ندحة من الارض واسعة ممتدة كلها شجر وحياض وفيها طرق رحبية للعواجل يخرج اليها اهل الثروة والجمال في عواجلهم الفاخرة ولا سيما في الاحاد والاعياد والايام الثلاثة التي مر ذكرها في جمعة الالام . وفي هذه الغيضة حلت عساكر الانكليز عند فشل نابوليون . واعلم ان الغيضة في مفهوم الفرنسيات هي الارض التي تكون اشجارها متماسة الرووس بحيث انك اذا جلست تحتها وتلك من المطر والشمس . فاما عند الانكليز فهي قطعة من الارض يكون فيها شجرات معدودات ومرج تمرح فيه الماشية * فاما ما في باريس من الصروح الفلخرة والمباني السنية فمما لا يعد ولا يحصى ولكني اذكر منها اشهرها فمن ذلك القصر المسمى « بالوفر » وهو منقسم الى عدة اقسام . الاول للتصاوير وهو يشتمل على الف واربعمئة وست صور من صنع اهل ايطاليا واسبانيا وفرنسا وهناك محل آخر يحوي اربعمائة وستا واربعين تصويرة من صنع مصوري اسبانيا خاصة . ومن تلك التصاوير ما يبلغ طوله اكثر من عشر اذرع ومنه ما هو بديع الصفة حتى لا يمكن للنظر ان يكف عن الرنو اليه وجميع سقوف هذه المحال مزخرفة منقوشة . وترى هناك كثيرا

من الرجال والنساء يصورون عن بعض الصور المشهورة . وقسمه بخطواتي فكان طوله نحو سبعمائة وثمانين خطوة معتدلة وقسمت ما يشبهه بلندرة فلم يزد على مائتي خطوة ولم ار هناك إلا مصورة واحدة . القسم الثاني للرسم وهو يشتمل على الف ومائتين وثمانية وتسعين رسما . الثالث للاشياء العادية وهو يشتمل على الف ومائة تمثال وصنم . الرابع للثايل الحديثة . الخامس المنقوشات . السادس للادوات الحربية كالسفن والمدافع وترى كل سفينة موضوعة في بيت من زجاج على مائدة من خشب نفيس وهناك صور مدن وقلاع بارزة مجسمة . السابع للدراهم . الثامن متحف لبدائع مصر . التاسع متحف لاثوريين . العاشر متحف لبدائع اميركا . الحادي عشر متحف لبدائع الجزائر . ورايت من جملة تلك الغرائب ملابس الملوك وسلاحهم من جملةها عدة اردية مطرزة وغير مطرزة كان يلبسها نابوليون الاكبر وسروج خيله منها سرجان عريبان كان يركب عليهما بمصر . ومن ذلك كتاب في الهندسة كان يطالع فيه دائما وهو بلا جلد وادوات فكان يستصحبها في اسفاره . ومن جملة هذه الغرائب ايضا سيف كان لشارلمان وطست غريب الصنعة جيء به من بلاد المسلمين . وكان هذا الموضع في الزمن السابق مقرا لهنري الرابع المشهور بحسن السياسة والتدبير وقبل ان ولي الملك كان على دين البروتستانت فلما راه اهل باريس انه يصلح للملك لمأثرة الجليلة وانه لا يقوم باعباء الملك غيره اختاروا توليته بشرط ان يدين بدين الكنيسة الرومانية فاجابهم الى ذلك وقال « لعمرى ان باريس تساوي قداسا » . ومع كونه كان بمنزلة والد لاهل فرنسا اجمعين وفي ايامه نسّم الناس الراحة ورغد العيش لم يعدم سن تصدى لقتله . وكانت ولادة هنري الرابع في سنة ١٥٥٣ ووفاته في سنة ١٦١٠ . وخلفه في الملك ابنه لويس الثالث عشر . وهذا القصر كان دائما منفردا عن قصر الملك المسمى بقصر التولري وكان في عزم الملك لويس فيليب ان يصله به فلم يتهيأ له الى ان قام نابوليون الثالث فجعلهما متصلين * قال في معجم الاوقات هذا الصرح الشهير كان مقرا للملك داغوبرت في سنة ٦٢٨ وفي عهد فرنسيس الاول وضع اساس المحل الذي

يقال له لان اللوفر القديم وذلك في سنة ١٥٢٢ وفيه وضع احسن ما امكن
جعه من الصور والتماثيل وتحف الصنائع المعروفة في الدنيا وجعلها جلب
من ايطاليا حين كان نابوليون مستوليا عليها ولكن رد منها كثير على اهل
ومن ذلك قصر التولري وتفصيل ما فيه يغني عنه قولنا انه مقر لسلطين
فرنسا وانه فيه سرر مرفوعة واصكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي
مبثوثة ومبطه كله من خشب الجوز المحكم الصنعة والاصاق بته كاثارين
دمديسي واتمه لويس الرابع عشر ثم سكنه لويس السادس عشر في
سنة ١٧٨٧ وفي سنة ١٧٩٢ اقتحمه الناس والسلاح بايديهم ليقدموا عرضا
للملك وهم على اهبة الفتنة فافضى الامر اخيرا الى ان قضا عليه بالقتل
كما مر . ثم تبواه نابوليون قبل ان لقب سلطانا وبعده ايضا ثم عائلته
البربون ولما كان لويس العاشر قارا فيه هجم الناس عليه وغلبوا على عساكره
والجأوه الى النفي وذلك في سنة ١٨٣٠ . وفي سنة ١٨٣٠ هجموا فيه على
لويس فيليب والجأوه الى الفرار فالحق باسلافه . وهو آخر من ملك من
البربون ودام ملكه ثماني عشرة سنة . وقرات في بعض الاخبار انه لما هجم
الناس عليه وجدوا في نفق دهليز القصر المذكور خمسة وثمانين الف زجاجة
مملوءة من الخمر الفاخر * ومن ذلك قصر « لوكسمبور » بني في سنة ١٥٩٤ وهو
وان لم يكن بناؤه بديع الصنعة إلا انه متين مهندم . وكان مقرا للويس
الثامن عشر ثم جعل في زمن الفتنة سجنا ثم جعله نابوليون مجلسا خاصا
وهو لان كذلك ويحضره السلطان بنفسه . وعنده حديقة عظيمة ينتابها
اهل تلك الناحية وهي اكبر من حديقة السلطان . وفي طرفه رصد الكواكب
بني في سنة ١٦٦٧ وحديقة صغيرة تجتمع فيها الرجال والنساء في الصيف
للرقص . وهذا الموضع وان يكن عاما إلا انه يعرف بحل طلبة العلم ولاجلهم
يباح فيه للنساء ان يتخلصن ويتفككن في الرقص وفي غيره يحضرهن الشرطة .
ومن ذلك « هوتل دو فيل » انشيء في سنة ١٦٠٥ على عهد هنري الرابع ولكن لم
تكمل بحاسنه كما هو لان في سنة ١٨٣٦ . ومن ذلك قصر « كاي درصي »
كان لويس العاشر يريد ان يجعله معرضا لبدائع الصنائع وكان نابوليون

يريد ان يجعله مقرا لسفراء الدول وهو لان ديوان الحسابات ولم يتم بناؤه قبل سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته اكثر من اثني عشر مليون فرنك وبجانبه قصر آخر بني في عهد لويس الخامس عشر وهو من ابهج قصور باريس * ومن ذلك مجلس المشورة العام ابدي به سنة ١٧٢٢ وكان اول ما نهب في دولة البوربون . ثم جعل مجلسا لنواب الاقاليم وعدتهم خمسمائة . وفي سنة ١٨٢٩ عرض لان يباع بخمسة ملايين ونصف . وجلة ما صرف عليه الى غاية سنة ١٨٤٠ بلغت اربعة وعشرين مليونا ومائتين وثلاثة واربعين الفا وثلاثمائة واثنين وتسعين فرنكا * ومن ذلك القصر المعروف بقصر الصنائع الظرفية والمحكمة الكبرى بني منها قسم من عهد صان لويس ثم زيد فيها مباني كثيرة حتى صارت من احسن ما يرى اليه طولها مائتان وست عشرة قدما وعرضها ثمانين وعشرون . ودار مجتمع العلماء ويقال له « لانسيتيو » اسمه الكردينال مازارين ووقف عليه مكتبة عظيمة ورزقا يبلغ في كل عام خمسة واربعين الفا . وهؤلاء العلماء هم الذين ينقحون كتب اللغة والحو وينكرون المردول من الكلام ويشتون الفصح فان للفرنساوية اعتناء عظيما بفن الادب بخلاف الانكليز . ومن ذلك دار السكة اتم انشاؤها في سنة ١٧٧١ وهي تحوي اثني عشر دو لا با زنة كل منها ثمانون الف رطل وتضرب في كل دقيقة ستين دينارا وثمانين ريالا . وفيها دنانير من عهد جميع ملوك فرنسا وفيها ايضا يطبع على المصوغات من الفضة والذهب * ومن ذلك قصر في « شانزلزي » بني في سنة ١٧١٨ وكان مقرا لسيدة من عائلة البوربون ثم سكنه نابوليون * ومن ذلك المصر اي مجتمع التجار طولته احدى وسبعون ذراعا في عرض تسع واربعين او مائتان واثنتا عشرة قدما في عرض مائة وستة وعشرين يخطط به ستة وستون عمودا ونصف سقفه من بلور وهو مقبب وصحنه كله مبلط بالرخام يسع الف رجل بدئ به سنة ١٨٠٨ وبلغت نفقته ثمانية ملايين ومائة وتسعة واربعين الف فرنك وهو من المباني البديعة * قال مولف فرنساوي انه من داخله روشن يتشابه الناس ليشاهدوا منه التجار الذين يجتمعون في الساعة الثانية بعد الظهر للتعاقد والتبايع فاذا سمعهم احد ظن

انه بين فمور تهمهم * ومن ذلك المصرف اي البنك وانشي في سنة ١٨٠٣ قيمة ما فيه من الكواغد التي بالف فرنك وبخمسائة مائتان واربعة وثلثون مليوناً . والحاصل في خزنته مائتان وثمانية وعشرون مليوناً . وكان راس المال الذي وضع فيه اول انشائه خمسة واربعين مليوناً * قلت لم تتداول الكواغد التي قيمتها اقل من ذلك القدر إلا بعد الفتنة وقرات في بعض الاخبار في هذه السنة ان المخزون في البنك بلغ اثني عشر مليوناً وتسعمائة وثمانين الفا وسبعمائة وخسين فرنكاً . والكواغد المتداولة خمسمائة وخسة وثلثين مليوناً وستمائة وثلاثة وتسعين الفا وستمائة فرنك * ومن الازاج العظيمة لازاج الذي يقال له « اركت دتريونف » اي قنطرة النصر او الظفر صور عليه الوقائع التي انتصر فيها نابوليون وبلغت نفقته تسعة ملايين وسبعمائة وثلاثة وعشرين الفا واربعمائة فرنك وفرنكين . وءآخر امام قصر الملك من جهة اللوفر بلغت نفقته مليوناً واربعمائة الف . وفي البلفار وغيره ءازاج كثيرة اصربنا من ذكرها * ومن الكنائس العظيمة كنيسة « نوتر دام » اي سيدتنا وقد مر ذكرها طولها ثلثمائة وتسعون قدماً وعرضها مائة واربعة واربعون وارترافها مائة وقدمان وعطو صومعتها مائتان واربع فيها ارغن ارتفاعه خمسة واربعون قدماً وعرضه ست وثلثون يشتمل على ثلثة ءالاف واربعمائة واربعمة وثمانين قسبة . وهي ام كنائس باريس وفيها تتوج الملوك . واول حجر جعل في اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث في سنة ١١٦٣ ولم يتم انشائها إلا بعد ثلثة قرون * ومن ذلك كنيسة « لامدلين » اي المجدلانية وهي كنيسة ذات بهجة ورونق وصنع بديع داخلها مزخرف بالنقش والعهد من المرمر النفيس ومبطنها من الرخام وسطحها من حديد ونحاس طولها مائة ذراع وعرضها اثنتان واربعون ويحيط بها اثنان وخسون عموداً ويصعد الى بابها في ثلثين درجة . وكان في عزم نابوليون ان يسميها هيكل الفخر تذكاراً لفخر فرنسا وان يصور على اعمدتها جميع الذين حاربوا معه من الابطال المظفرين ولذلك بنيت على شبه هيكل اليونانيين ولم يبق نقاش ولا مصور في المدينة إلا واشتغل بها . وقال ءآخر اول حجر وضع في

اماسها وصغر لويس الخامس عشر . وكان في قصد نابوليون ان يخصصها
للعسكر ولم تتم الا في ايام لويس فيليب وهو الذي خصها ببريم المجدلانية
بعد ان كان الناس يظنون انها تخصص لجويتر * ومن ذلك الكنيسة التي يقال
لها « البنيون » بنيت في سنة ١٧٦٤ على اسم صانت جينيثيف ثم جعلت
مدفنا لمشاهير الفرنسيات في العلم او الحرب وفيها دفن فلتير وجان جاك
روسو وغيرهما ثم حولت كنيسة في داخلها مائة وثلاثون عمودا وبخارجها نحو
من ذلك وبلغت مصاريق نقش قبتها مائة الف فرنك ورقي ناقشها الى
مرتبنة بارون ودورتها اثنتان وستون قدما ودورة الكنيسة كلها ثلثة آلاف
وامائتان وست وخسون قدما مربعة وطولها مائتان وثمان وثمانون * ومن
ذلك كنيسة « سان صليب » وهي في حارة النبلاء يقال ان كراسيها مضمنة
بستين الف فرنك في العام بنيت في سنة ١٦٤٦ ولها صومعة عالية جدا *
ومن ذلك كنيسة « نوتر دام دلوريت » بلغت نفقتها مليونين وخمسين الف
فرنك ووظيفة قسيسها في السنة ثلثون الف فرنك وقس الباقي على ما ذكرنا *
واهل باريس يذهبون الى الكنائس صباحا وفي المساء الى الملاهي وهو عند
لانكليز من اعجب العجب * ومن المواضع المشهورة المقصودة مارستان
السقط (١٠٧) بني في ايام لويس الرابع عشر وهو يحوي ستة آلاف نفر ما
بين مرضى وخدمته وتخدم فيه خمس وعشرون راهبة ويسع عشرة آلاف
نفس وهو مخصص بالعساكر وكل من قضى في الخدمة العسكرية ثلاثين
سنة فله حق ان يدخله وظيفة مديرة اربعون الف فرنك ويعين لمن فيه
في كل يوم رطل من اللحم ولتيز من الخمر طول حديقته الف واربعمائة
واربعون قدما وعرضها سبعمائة وثمانون وعنده مدافع غنمها الفرنسيات من
بروسيا والجزائر وعنابة وطول المارستان ستمائة واثنى عشرة قدما وفيه مكتبة
نفيسة وكنيسة طويلة نصبت على مشرفتها جميع الوايات التي اخذها
نابوليون من جيوش الدول التي انتصر عليها احسبها تبلغ المائتين ومن
جملتها عدة رايات من عساكر المسلمين . قال وكان في الكنيسة اربعة آلاف
وايتم وسيف لفريدرك الكبير فلما دخلت عساكر الدول المتفقة الى باريس

صدر امر من وزير الحرب عن لسان يوسف بونا بارتنه بان تحرق الرايات
ويكسر السيوف فخشى المامورون تبعته ذلك فلم يحرقوها إلا بعد ان راجعوه
في امرها ثلث مرات . قال وفي هذه الكنيسة دفن نابوليون وامراء عسكرة
ووضع على قبره تاجه ونيشانه وسيفه وصرف في القبر مليون ونصف .
قلت لا يخفى ان نابوليون لم يمت في باريس بل مات في جزيرة صانت
هيلان غير ان دولة فرنسا في ايام لويس فيليب استاذنت دولة الانكليز
في نقل جثته من هناك فاجابت الى ذلك فارسل الملك ابنه في بارجة
اسمها « بل بول » ونقلوا جثته اليها وذلك في السادس عشر من اكتوبر
سنة ١٨٤٠ وفي الخامس عشر من ديسمبر دفنوها في كنيسة هذا المارستان بغاية
ما يكون من الاحترام والاحتفال مما لم يشاهد مثله في فرنسا قط . وحضر
جنازته مليون من الخلق ومائة وخمسون الفا من العسكر والملك وءاله
وجميع الامراء والنبلاء والعظماء مع ان جميع اقارب نابوليون كانوا غايابا فمنهم
من كان منفيا ومنهم من كان مسجوناً . وكانت ولادة نابوليون في الخامس
عشر من اغسطس سنة ١٧٦٩ وقد صار هذا اليوم عيداً تتخذة الدولة في كل
سنة . وكانت وفاة نابوليون في الخامس من شهر ماي سنة ١٨٢١ في تلك
الجزيرة ولم يخلق الا ولدا ولد له في سنة ١٨١١ ولقب اولا « ملك رومية »
وفي سنة ١٨١٥ لقب امبراطورا باسم نابوليون الثاني مع انه لم يكن وقتئذ
في فرنسا لانه نقل في الحادثة التي وقعت قبلها الى بلاد اوستريا وبقي
هناك الى ان مات وذلك في ١٨٣٢ . والفرنساوية يخرجون الى قبر نابوليون
كحج المسلمين الى الكعبة * ومن ذلك بستان النباتات تنبت فيه جميع
النباتات وتحفظ فيه سائر الحيوانات وهو يشتمل على عدة مواضع : الاول
للنبات فيه بيوت من زجاج لتنبئت ما لا ينبت في البلاد الباردة . الثاني
مشرفيات فيها اشياء عديدة تعين على علم حياة الحيوان المسمى عند الافرنج
تاريخ الطبيعيات . الثالث مشرفية للتشريح . الرابع مريض الحيوانات ومحل
موتها . الخامس مكتبة تشتمل على كتب في تاريخ الطبيعيات . السادس
محل يلقي فيه التدريس في العلوم يسع عشرة آلاف ومائتي شخص . وجلة

انواع النبات التي في البستان اثني عشر الف نوع والتي في المشرفة خمسة آلاف . وعدد الطيور ستة آلاف . وعدد السمك خمسة آلاف . وعدد الاعضاء للتشريح خمسة عشر الفا . وجملة النباتات المجففة المحفوظة خمسة وثلاثون الفا . ومن الشجر والحب اكثر من اربعة آلاف . ولما دخلت عساكر الدول لاجنيية باريس كان من هم الدولة ان تحميهم من غوائلهم فبقى مصونا لئلا ان كثيرا مما جلب اليه من البلاد الخارجية رد على اصحابه وفيه شجرة من ارز لبنان اهداها طبيب انكليزي اسمه . غرلنسون . الى الدولة . وقد رايت فيه . عظام حيوانات عادية طول الواحد منها نحو عشر اذرع وجثة سمكة - وكانها هي الذي يقال له بلغت الجمل - طولها من الراس الى الذنب نحو خمس وعشرين ذراعا وفي ظهرها سبع واربعون فقرة كل واحدة كانها رفش ولها ثلث عشرة ضلعا عند راسها كانها تراتبها طول كل ضلع نحو اربع اذرع من كل جانب ورأسها نحو قارب وفي فكها لاستقل من كلا طرفيه ثلث وعشرون سنا قدر كل سن كاللوزة * وغاية الكلام ان باريس تفضل لندرة في المباني والمطاعم والمتنزهات وبحال العلم فهي معدن العلوم والذات ولذلك ترى الوفا من عيال لانكليز لا غنياء ياتونها مستوطنين وما احد من اغنياء الفرنساوية يذهب الى لندرة ليأخذها له وطنا وانها يذهب اليها اهل الحرف والصنائع تحصيلاً لمعيشتهم * ومن مواسم الحظ والفرج عندهم ثلاثة ايام في المرفع وهي التي يسمونها الكرنفال وقد ذكرناها في الكلام على مالطة فلا ينبغي اعادتها وانما نقول هنا انه في هذه الليالي يدومون في المراقص حتى الصباح وفي يوم خيس السكارى يطوفون بشور مسمن واماء طائفة الجزارين بلباس السخريه ويغطون الثور بثوب مزركش وعلى راسه اكيل من الزهر . وكانت العادة سابقا ان يقعد على ظهره ولد يسمونه ملك الجزارين ويمسك باحدى يديه سيفاً وبالاخرى صولجاناً فاما لان فانه يقعد في نحو محفة ويتبع الثور بلا سيف ولا صولجان * ومن ذلك عيد راس السنة وهي ثلاثة ايام ترى فيها جانبي البغار مشمولاً بالحياض لبيع التحف والطرف التي يتهدى بها . وترى ايضا غيضة شانزلري

مشحونة بظلال وقبب واخسبة فيها جميع انواع الطرب والشعوذة والرقص على
 الجبال . وتترى من بدائع المصنوعات والمخلوقات ما لا تراه في المملكة كلها
 وقد رايت مرة امرأة جميلة ذات لحية وشوارب وعلى قفاها وذراعيها من الشعر
 ما لم يكن على رجل . وكانها هي التي ذكرها صاحب المعجم حيث قال
 ارسلت امرأة الى باريس لها لحية كيفية وجيع بدنها مغشى بالشعر . قال
 وقد علم ان نساء كثيرة لهن شوارب ولحي وشعر مسترسل على اكتافهن
 وسواعدهن من جلتهن امرأة اتني بها الى حضرة بطرس الاكبر وكانت لحيتها
 فحو ذراع ونصف . وفي الخامس عشر من اغسطس تصنع الدولة عيداً حافلاً
 يحشد اليه مئات الوف لروية الانوار وشعب البارود . وفي الجمعة فان
 ايام باريس كلها مواسم وامداد وان ليلاً ابهج من نهارها * هذا وعلى قدر ما
 في باريس من العجاس الفاتقة والارناة الشائقة فان صواحيها ابهى واشهى
 فمن ذلك « صان كلو » وهو على بعد نصف ساعة من باريس فيه قصر يصيف
 فيه السلطان وفيضة خصمة انيقة دورتها اربعة فراعخ . وهذا القصر كان
 اشتراه لويس الرابع عشر وسكنه نابليون الاول وشارلس العاشر بتى في
 سنة ١٥٧٢ واثاثه اجد من الثالث قصر « فرصاي » وفي الفيضة مياه خسارة
 ولعلها هي الشلالات * وبالقرب منه قصر فرصاي الذي كان مقراً للويس
 الرابع عشر وهو يشتمل على تصاوير بدیعة لا نظير لها من جلتهها صور جميع
 ملوك لافرنج سن مات منهم ومن هو حي وصور وقائع نابليون وصور سائر
 الملوك والسلاطين . وفي الشقة التي كان يسكنها الملك تحف غريبة كان
 يستعملها هو والاه وسرير فراشه وهو نحو صفة . وفيه ملهى كان اذا امر الملك
 باجراء التمثيل فيه ينور بعشرة آلاف شمعة ويعصرف اليه في تلك الليلة
 مائة الف فرنك . وفي القصر ديوان فسيح كان يجتمع فيه رجال دولته ولم
 يكدهم رجة يسعهم . وبعد ان تنقضي فرجة الناس من القصر وذلك نحو
 الساعة الرابعة تطلق مياه الفيضة صعداً وتضرب آلات الطرب فيتعبد الناس
 على الكراسي للسماع والنظر وهو منظر مسحر فان الحديقة ناضرة زاهية
 والعيون غزيرة . ووسع الفيضة الكبرى عشرون فرسخاً وقد انشق على حوض

فيها مليون ونصف . فاما جلته ما انفق في بناء القصر وفروشه وفي الغيضة فقد اختلفت الاقوال والذي صح انه بلغ نحو اربعين مليون ليرة انكليزية فاما بلد فرساي فانه كان قبل الفتنه عامرا فكان اهل مائة الف نفس والان ليس فيه اكثر من ثلثين الفا . ومن ذلك صان جرمان وهو على بعد خمس فراسخ من باريس او سفر ساعة في سكة الحديد . وهي بلدة مشهورة من القديم لها غيضة فسيحة ناضرة في ربوة من الارض يسرح الناظر منها في مدى مديد كله خضرة ما بين كروم وبساتين وغياض ورياض وقصور واعلام حتى يود لو يرى في جلتها ضخرا من صخور مالطة . وفي هذه البلدة قصر كان في الاصل مقرا لفرنسيس الاول وكان هنري الرابع يستطيب المقام فيه وكذا لويس الثالث عشر والرابع عشر . وفيه اقام جامس الثاني ملك الانكليز ديوانه اثنى عشرة سنة ثم صار في زمن الفتنه محلا للعساكر ثم جعل لان سجن لهم . وهذه المواضع يقصدها اهل باريس في ايام الاحاد والاعياد في ارتال لها مقاعد في سطوحها مكشوفة فتري وانت في رتل منها عدة ارتال سابقة ولا حقة . ولا يمكن استيناء الكلام علي هذه المحاسن من دون رويتها عيانا . وكل ما تراه في باريس وضواحيها من المحسنات والمتنزهات فانما تم بعناية صاحب الملك لا بعناية جماعات على حدتها كما هي العادة في لندرة فان الملك هنا لا يغفل شيئا مما يوول الى ابيهة الملك وشرف المدينة ورونقها . واذا علم مثلا ان في بعض الشوارع ديارا قديمة متهدمة اشتراها من اصحابها من دون غبن وجدد بناءها . وفي ايام ساطانها لان هدمت حارة كبيرة برمتها ثم بني في مواضعها ديار حسنة شاهقة تضاهي ديار البلغار * فامسا في لندرة فان جميع الانشاءات والتنظيمات موكولة الى جماعات من الاهلين وليس على الدولة الا ضرب المكس والطسق وتجهيز الجيوس * امسا ملابس اهل باريس فانها في الجملة وضيئة فاخرة واكثر انواع الثياب التي تباع عند البزازين ولا سيما الحرير احسن مما يوجد بلندرة الا الكتان . فامسا الملابس المخيطة فليس اعمرى من مناسبة بين ما يباع هنا وما يباع في لندرة . فان من يشتري ثوبا مخيطا في هذه يلزمه

ان يستاجر معه خياطا ليصاحبه له في كل يوم . ولاهل باريس تنطس زائد في اشياء كثيرة مما لا يعبا به الانكليز الا ان نساءها اللواتي يقشن من كد ايديهن يلبسن احذية كاحذية الرجال وذلك منكر في لندرة واذا خرجن في الاوقا خرجن من دون برنيطة ولا شال وهو ايضا من المنكر عند الانكليز . وللاكتفاء عن البرنيطة سببان لاول الزهو والعجب فانهن يعرضن شعورهن واعناقهن للرنو والتعجب والانساني غلاء سعرها حيث كانت اجرة اللاتي يصنعنها كثيرة . فان صناع باريس تكسب اكثر من صناع لندرة وبعكس ذلك الرجال وهاتان الصفتان من المنكر ايضا عند نساء لندرة . ولنساء الفرنسيين نظافة زائدة على الملابس والمفروش فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى ان يبلى ولكن ليس لهن من الطهارة نصيب . ولهن ايضا هناية بليغة بتخصيص اثاث البيت وبهن تليق الاعمال وفي الواقع فانهن ازكن والقرن من سائر نساء الافرنج . وما من امرأة في باريس الا وتعرف شيئا من المداواة . ومن طبعهن التذكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة فان الغالب عليهن الكسل والتواني ولاصحاء في النوم . ولهن ايضا حرص على تربية اولادهن وتنظيفهن فلا تكاد ترى في اسواق المدينة اطفالا يمشون وحدهم او يطوفون في الليل ويعرضون انفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة وهن اللاتي يتولين الدخول والخروج فلا يمكن لاحد ان يشتري شيئا من الماكول والمشروب ما عدا الخمر الا من ايديهن وان تكس بعولتهن حاضرة * ولهن مزينة مشهورة بين الناس في النطق بالمغيبات كما يزعمون واذا استنطقت واحدة منهن لزمت ان تغطيها عشرة فرنكات ولم اسمع عن نساء لندرة هك الدعوى الشائعة عن نساء باريس * حكاية * وقد اتفق لي مرة ان سرقت لي كرايس من كتاب الفتح وعزمت على عدم افشائه فقلقت لذلك كل القلق ثم رد علي بعضها من لندرة فاخذني الدهول . فلما اطلعت بعض اصحابي على ذلك قال لي عليك بالسدة ببول * فذهبت معه الى واحدة من اعرهن وكان هو ايضا يريد ان يسالها عن حاجة مهمة له وتبعنا آخر لم يكن له مارب سوى الامتحان

فقط فلما سالناها حضرت امرأة اخرى وجلست بين يديها وامسكت يدها اليمنى ثم جعلت فيها كرة صغيرة من بلور وجعلت تحديق النظر في المראה وبعد عدة دقائق غمضت المستولة عينها ثم تنفست الصعداء و اشارت الينا بالجلوس وعيناها مطبقتان فناولتها حبة طعنة من الورق واخبرتها بما جرى من السرقة فشمتها وقالت « هك القطعة ارسلت اليك من بلاد بعيدة مع اوراق اخرى يخالف لون بعضها بعضا واصل شرائها كان من تلك البلاد » قلت نعم ولكن اريد ان اعرف من سرقها قالت « اين كان مسكنك حين سرقت » قلت في رولاندش قالت « نعم في الطبقة الثالثة وقد سرقها رجل كان كثير التردد عليك » قلت من هو وكيف هو قالت « ليس هو بفرنساوي بل غريب مثلك » قلت ما زيه قالت « ليس كزينا ولا كزيك وانما يلبس رداءً طويلا » قلت ما سنه قالت « في حد الثلاثين » قلت بل اكثر من ذلك بشماني سنين ففكرت هنيهة ثم قالت « لست اراه الا كما قلت لك » فكانت صادقة في كل ما قالت الا في السن ويمكن ان يقال ان ذلك الشخص لم يكن يظن فيه ناطرة انه جاوز الثلاثين . ويقال ان هولاء المنبتات انما ينبثن كما يضمره السلؤل فاني كنت اصمرت شخصا كان على تلك الصفة وكان يتردد علي كثيرا وجزمت بانه هو الذي فعل الفعلة . ثم تنصت لحس معدتي فقالت « ان هذا الشخص الذي سرق الورق صديق لمطران حاول مرة ان يسمك باطلاع ثلثة رجال معه » ثم اني وضعت يدها خصلة شعر من شعر امرأة وكانت وقتئذ مريضة بداء الخفقان وقد قاست من الالوجاع والاطباء ما يطول شرحه فاخذت الشعر وشمته وقالت « هذا شعر امرأة مريضة واصل مرضها في المعدة والقلب وقد مس هذا الشعر امرأة اخرى » قلت صدقت ولكن لا اعلم ان امرأة اخرى مسته قالت « بلى قد لمستنه وان صاحبتها صارت عرضة للاسقاط والولادة تسع مرات وهي ذات نشاط وحدة فاذا غضبت تخرج عن العقول ويخشى عليها من الهم فينبغي ان تداريها وتحوطها وتستعمل لها العلاج الفلاني » . ثم سالها صاحب القلق بعد ان ناولها اثرا من المستول عنه فقالت له « انك تقيم في باريس سنتين بعد ثم تسافر

الى بلادك وكذا وقع له . اما الثالث فانه سالها عما في جيبه فقالت له ورق قال على اي شيء يشتمل قالت « انا لا احسن القراءة حتى انبئك بما اشتملت عليه » قال منذ كم قدمت الى باريس وما اشبه ذلك قالت « قد استحوذ علي صداع » ولم تجاوبه باكثر من ذلك وخرجنا من عندها وهي على تلك الحالة . ثم انى لما رجعت اخبرت المريضة بما وقع فقالت اما الشعر فقد لمسته الخادمة واما للاسقاط والولادة فكما قالت . ويقال انه حين تكثر السئال على المسترلة تضعف قوتها ويخدر ادراكها . ثم انه لما كانت هذه الحرفة مضادة للديانة وللطب كان القسيسون والاطباء اشد الناس مقاومة لها . ولقد عجبت كيف ان الدولة تسوغ معاطاتها ان لم تكن حقا فانا اذا اعتقدنا بصدق ما نقوله هولاء النساء لم يكن بينهن وبين الانبياء من فرق إلا ان نقول ان انبياءهن غير وارد في الالهيات وان يكن تدجيلا وتمويها فلم لم تمنعهن من غش الناس واختلاس اموالهم وتحكم بخروجهن من الجماعة اخذا بنص التوراة . على ان بعض المتفلسفين في باريس يدعون ايضا بان في الانسان خاصية او جاذبية تسري منه حتى الى الجماد فيثفل بها فضلا عن تائيرة في انسان نظيره وعلى ذلك شاعت الاخبار بان الموائد تמיד بلبس عدة رجال لها وان الكراسي تمشي والشكاكين ترقص الى غير ذلك . والذي يخطر لي على قدر ما ادركه انه كان ينبغي امتحان هولاء النساء وبعد ذلك اما ان يحظرون او يقررون على منعهن . وقيل انهن امتحن فوجدن صادقات في امور كثيرة حتى لم يمكن حظرهن وانه انما رخص لهن في التنبئ رجاء ان تظهر وسيلة اخرى لاتقان هذه الحرفة حيث لم يستبعد ذلك على تمادي الزمن . اما ما قيل من بوسكو فلم ار من شعوراته ما يصدق كلام الناس فيه فان كل ما منعه امام الناس لم يصنعه إلا بادوات . وقد شاع عن روبرت « وذن انه كان عنده زجاجة وكان يسال الناس اي شراب ييغون منها فكان كل يقترح عليه شيئا فيسقيهم كلهم منها . ثم رايت هذه الفتاتي تباع بثمان غال ولا ادري شانها والله اعلم » اما اخلاق الفرنسيات فالكلام عليها يستغرق زمنا طويلا لان الطبيعة البشرية فيهم

لحمتهما من نوع وسداها من نوع . امسا اولاً فلان يستخفهم وبينة اجسامهم
متفاوتة جدا فاهل جنوب فرنسا سمر كاهل البلاد الحارة واهل شمالها يضر
شقر . والثاني ان ما يظهر منهم للغريب اولاً انها هو الانس وحسن المعاشرة
فاذا راي ذلك منهم اول وهلة ظن انهم يزدادون من مواسسته والفتنة وان
هذا الانس لا بد وان يتبعه ككرم وصداقة . ويزيد تعجبه من ذلك على
الخصوص ما اذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقتهم لانتكيز على
حالة الانقباض والعبوس ولكن هيات فان ايسك منهم اليوم اذا رآك
غدا ظنت ان ملائكتكما انما كانت حلما وعلى فرض استمرار الالفه بينك
وبينه فلا يدعوك الى منزله ولا يعرفك باعلمه * ومن ذلك ان اهل البلاد
الباردة كباريس وغيرها تراهم اخف حركة واحمد الى الاشغال من اهل البلاد
الحارة او المعتدلة كبرسيلية ونحوها فلن الناس هنا لا حركة لهم ولا نبض
فمن قدم اليها من باريس وراى بلادة اهلها عجب كل العجب . فباين هم
من اهل الماطة الذين يبادرون الى العمل بادنى اشارة . ومن ذلك ان
كثيراً منهم ولا سيما اهل باريس يعيشون مع النساء عيش المتعة ويأتي لهم
بنون وبنات وهم على هذه الحالة ولا يتزوجونهن زواجا شرعيا فكيف يحب
الرجل امرأة ولا يتزوجها لاسيما وقد وادت له اولادا ورتبهم * وزواجهم الشرعي
هو الذي يعقد في الديوان لا في الكنيسة ومنهم من يعقد في كلا الموضعين
وهم المتدينون العابدون * ومن ذلك انهم مائلون بالطبع الى حب النساء
ومخاطبتهن ومدارتهن ومنع ذلك فانهم يدعونهن يعملن الاعمال الشاقة
ليكسب بعض شئ ويمكن هنا ان يقال ان نساءهم مائلات بالطبع الى حب
الكسب وليست الراحة عندهن الا بتحصيل المال * ومن هذا القيل ان
الرجال من فرط عشقهم يقتلون انفسهم ويرتكبون اقصى الاخطار لارضائهن
ومنع ذلك فليسرا يقيمون على وداهم فتبدلين عندهم اهن من تبديل
اللباس * ومن اعتقادهم بان نساءهم اكيس النساء واطرفهن واحذقهن جميعا
فلا يانفون من زواج الحبشيات وغيرهن * ومن ذلك انك ترى ادباءهم
وكيسهم ابدا يترددون على الملاهي والملاعب ليسمعوا فيها ويروا ما سمعوه

ورادة مرارا وانت خير بان في هذه المواضع يكرر تمثيل الحوادث كثيرا اذ لا يمكن اختراع شيء حديث في كل ليلة ولومهما يكن الشيء الممثل بديعا فاذا اعيد زالت طلاوته . ومن ذلك انك لا تزال ترى الخاصة منهم والعامه يتمشون في الحدائق والغياض ومواقع الفرج والغناء حتى تظن ان اهل باريس كلهم سباهلة لا شغل لهم ولا عمل . ومع ذلك فهم يتناقون في المطاعم والمشروب والملبوس والمفروش فلا ادري في وقت من الاوقات يكسبون المال . ومن ذلك ان لهم عناية بتربية اولادهم اكثر من الانكليز اذ لا يغادرونهم وحدهم في الشوارع والطرق عرضة للاخطار او يميلون تعليمهم حرفة من الحرف تغنيهم عن المكث في المارستان او عن الطر ولاختلاس في المسالك كما هي العادة في لندرة غالبا . ومع هذا فانهم عقب ولادتهم يعنونهم الى الريف ليتربوا عند الراضع ولا تنكيز على خلاف ذلك . ومنها انهم على بلادهم وجنسياتهم اغير من الرجل على امراته فلا يسلمون بان في الدنيا بلادا تشبه بلادهم او جيلا يضارعهم ومع ذلك فانهم يسافرون عنها لغير موجب وحيثما ساروا بشوا وسائل التمدن والعلوم وجادوا بما خصهم الله به من البراعة والحكمة على سن لبثوا بينهم وربما كانوا لهم اعداء . لعمرى اني ارى طريقة سلطان الصين في منعه مخالطة رعيته بغيرهم اولى اوليس ان الدولة حين تنصب الحرب لدولة اخرى تمنع اخراج كل ما يتعلق بالمهمات البحرية من بلادها الى بلاد تلك الدولة فاي الخارجين انفع لها وافضل الرجل ام لاداة . ومن ذلك انهم حين يكونون متغربين في بلاد الناس يختلطون بهم ويحسانونهم ويخالقونهم حتى يصيروا كأنهم منهم واذا تغرب احد بينهم لم يختلطوا به فغايتة ما يخصونه به من الاكرام انما هو ان يسالوه من اين قدمت واين تقصد وكيف اعجبك باريس . ومن ذلك انهم لا يزالون ينقرون عن الحقائق ويودون لو يعلمون كل امر من فسه . وقد حددوا كل علم وبرعوا في كل فن ومع ذلك فتد غرب عنهم اهم الحقائق وهو ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسدود والرئيس والمرعوس ولولسم لهم بان الكيسى واهل المعارف والادب غيرون عنه بما فظروا عليه من

حسن الاخلاق او حسنوا به اعداءهم من مطالعة الكتب لم يسلم بان الرعاع
الذين هم الجمهور الاعظم في كل البلاد غير مقتدرين الى دين يردعهم عن
الشروع والمعاصي ويحثهم على فعل الخيرات ولو لا ذلك لاكل القوي الضعيف
فان قلت كيف ياكله والحكم من ورائه قلت ليس في كل الامور يمكن
استحضار الحكم او الا - تغاثة به الا ترى انه اذا اجتمع مثلا اثنان في مكان
خال وبطش القوي منهما بالضعيف فيكون لصاحب الحكم عين باصرة او ذن
سامعة للقصاص فكم من قضية جرت بين الناس وفانت اجتهد اهل
السياسة والايلة . ولكن اذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن
ويتخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم بذلك اعظم رادع وازرع فانتصاف
امته بعدم الدين من اعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها . ومن ذلك انه
لم يزل دايهم تغيير الحكومة وتبديل السياسة واربابها ولم يخطر ببالهم قط
ان يغيروا هذا الاسلوب السمج الشنيع الذي يجري في عبارات اهل السياسة
والاحكام منهم فان فيه من التكرار والمواربة والحشو ما يشهد عليهم امام الله
والناس فانهم لا ذوق لهم ولا امام بشيء من الادب . ومن ذلك انهم ينكرون
على اهل اللغات المشرقية وخصوصا اللغة العربية كثرة الاستعارات
والكنايات مع ان لغتهم تطفح بهما طفحا ولولاها لصاقت بهم العبارة عن
نادية يكثر المعاني وسياتي الكلام على ذلك بالتفصيل . وانما اقول هنا اني لما
اردت ان اترجم من قصيدي التي مدحت بها السلطان نابوليون قولي *

ولا تخلل وقت توافي عدة * له وانجازها بل فلها ستيلا

قال المصحح ان ذلك لا يكون مفهوما بلغتهم ولو جاء بهذا الاستعارة احد
مواهبهم لحسبت من البلاغة بمكان . ومن طبعهم في التاليف والكلام ان
ينفقوا الالفاظ الجزلة الفخمة يسمون بها سخيف المعاني فسمع منهم قرقعة
ولا ترى طحنا وهذا دائم فاش فيهم اجمعين . ومن ذلك ان نساء عامة
الفرنسيس مع زهوهن واعجابهن اذ الزهو صفة عامة لجميع اناث هذا الجيل
تراهن يتعاطين من الاعمال الخسيسة ما تانف منه اخس نساء الانكليز
وذلك كسكنيس الطرق وعمل الاعمال وتنظيف الاحذية وصيد السمك والمناظرة

على المرائض ونحو ذلك ومع ذلك فلا بد من ان تخاطب كل واحدة من هؤلاء الحسيسات المبتذلات بلفظة « مادام » فاما السيدات المسترفات من هذا الجيل فالعزة لله الواحد القهار فان ما نقص من متزينة سادة الانكليز وجلالهم ومجدهم تلقاه فيهن تاما وافيا فهن نساء صورة وشكلا ورجال امرا ونهيا وحيث قد استوفيت الكلام عليهن في كتاب الفاريق فلا حاجة الى اعادته وانما اقول هنا انهن لا يعترفن بفضل الرجل على المرأة فانهن يقلن ان الله تعالى لم يختص الرجل بمزية إلا وفوض المرأة عنها باخرى فجعل بين ذلك توازنا حتى تستتب الالفة والوفاق بينهما فمما اختص به الرجل القوة والشدة ليتمكنه تحمله المشاق في تحصيل اسباب معيشته فعوض المرأة عنها بالصبر والتجلد لمصالح بيتها وتربية اولادها واختص الرجل ببسطة الجسم والمهابة فعوض المرأة عنها بفتنة الحسن والروع فمهما يكن الرجل متسترعا الى السوء تردعه عنه من نظرات المرأة دوارع واختص الرجل بطول النظر والفكر في العواقب فعوض المرأة عنه بالبدية العتيدة وبسرعة الجواب المقنع واختص الرجل بالشهامة وعزة النفس فعوض المرأة عنه بالتصاوم والحياء وهكذا * ويحكى عن احدى الخواتين انها استاجرت مقعدا في بعض الملاهي حيث اريد اجراء التمثيلة المعروفة « بالبروفات » اي الربي وكان الناس يتزاحون الى رويتها لانها كانت اول ليلة فانفق ان مرض زوجها بغتة فاقبل اليها بعض اصحابها ليسانها التأسف على حرمانها من الذهاب وهي في خلال ذلك تتأوه وتثرك يديها ثم قالت ان هذا المخلوق لم يات في عمره كله إلا ما يعيضي ويشترون لان انه يموت عمدا ليجرمني من الخروج الى الملاهي . اه . وفي الجملة فان كل ما تنعله احدى هؤلاء الخواتين فانه يعجبها واهلها وجيرتها واهل المملكة اجمعين * ولا شيء يعجبني من احوالهم كمعرفتهم لاحوال غيرهم فان هؤلاء الذين يعشقون على الانكليز وينالون من مالهم لو لبثوا بين الفرنسيين سنين لما اكتسبوا بخاريتهم خرقه تستر عورتهم او رغيفا يفتش من جوعهم * واعلم ان امته الفرنسيين امة قديمة مشهورة مشهود لها بالفضل والقدر في المعارف والمساعي العظيمة حتى ان

اهل المشرق اطلقوا اسمهم اعنى الافرنج على سائر سكان اوربا وكما ان بلادهم ولاسيما باريس لم تزل مقصدا للناس في الكياسة والمحصارة كذلك ما برحت الممالك المشرقية متنابالهم ولم تكن دولة من دول الافرنج قبل استعمال سفن النار تذكر بالنسبة اليهم . نعم ان الانكليز اشتهروا في الهند منذ اكثر من قرنين إلا انهم لم يكونوا يجولون في بلادنا ولم يكن يرد اليها منهم غير القناصل ولكن لم تكد خاصية البخار تعرف عند الكيماويين حتى ملأت سفائهم البحار واشتغتهم وبضاعتهم جميع الحوانيت والاسواق وحينئذ عرف انهم ذوا كد واجتهاد فادركوا سن تقدمهم في متقدم الزمن . وقد جرت العادة بان سكان الجزر ابداء يكونون ناشطين الى التجارة والاسفار ضرورة انهم لا يستغنون عن البرور الفسيحة إلا ان الانكليز لا يتطبعون بطباع اهل البلاد التي يتنابونها ولا يتساهلون فيما يجدونه هناك من الاحوال المغايرة لاحوالهم والميانية لطباعهم بخلاف الفرنسيين فان بلاد الله كلها لهم بلاد والذي زاد هولاء ايضا شهرة ونباهة هو نبغ اناس منهم تفردوا في تصوهم بمآثر ومزايا لم يشاركهم فيها جيل آخر . فمنهم شارلمان في العز والسطوة فانه دانت لعه ايطاليا وجرمانيا وكان فيصلا عند جميع ملوك اوربا قيل انه كان سعيدا كغوستوس ومقداما في الحرب كادريانوس وهو اول سن انشا مشيخة للعوام في باريس وكان هو من جلته اعضائها كان مولد سنة ٧٤٢ . ومنهم لويس الرابع عشر في العبد والكرم كان في شهرته بالغرب نظير هارون الرشيد في المشرق ولد في سنة ١٦٣٨ وفي دولته نبغ كثير من العلماء ولادباء والفصلاء وذلك كفينيلون مولف تاليماك خطب في الكنائس وهو ابن خمس عشر سنة ولد في سنة ١٦٥١ وكبوسوى الشهير في التاريخ والفصاحة ولد في سنة ١٦٢٧ وموليسير الشاعر البارح ولد في ١٦٢٢ وبوالو وهو ايضا من الشعراء المفلحين ولد في سنة ١٦٣٦ ورابين وهو بمنزلة شكسبير عند الانكليز ولد في سنة ١٦٣٩ ولافونتين وهو وان لم يحظ عند الملك إلا انه كان من الفصل والعلم بالمكان الاعلى ولد في سنة ١٦٢١ ولاميركوندى جعل قائد الجيش وهو ابن اثنين وعشرين سنة وقهر جيوش اسبانيا والنمسا وهولاندة ولد في

سنة ١٦٢١ ونبع من قبله هنرى الرابع الشهير في التدبير ولاياله وقد مر ذكره ولد في سنة ١٥٥٣ . ومنهم فلتير في العلوم ولاسيما في التاريخ والادب وسعة الاطلاع والعبارة ولد في سنة ١٦٩٤ . وفاني في التاريخ والادب ايضا ولد في سنة ١٧٥٧ وبوفون في الطبيعيات ولد في سنة ١٥٩٦ وذكرنا في الفلسفة ولد في سنة ١٧٤٩ ودولامير في الهندسة . ولد في سنة (١٠٧) ومونتسكيو في الفلسفة والادب عموم والمعارف ولد في سنة ١٦٨٩ . و نابوليون الاول وناهيك باسمه واصفا على ان الانكليز لان يتنافسون في كل شيء يقال فيه انه فرنساوي فاذا اردت التجار منهم ترويج شيء من سلعهم كتبوا عليه فرنساوي وكذلك اصحاب الملاهي يكتبون في اعلامهم ان ما دام كذا تابع الليلة في الملهي وموسيو كذا يحكي كذا وما تكون هك المدام او هذا الموسيو الا منهم وفيهم ولا تكاد ترى شيئا في باريس مروجيا باسم الانكليز . ويمكن ان يقال انه لم تستتب في الدنيا واقعة خطيرة الا وكان للفرنسيس فيها يد فانهم هم كانوا سبب الحرب المعروفة بالصليبية في عهد السلطان صلاح الدين . وذلك ان بعض ضباط العساكر الفرنسية المسمى بطرس الارميت اي الناسك كان قد سافر الى الارض المقدسة في سنة ١٠٩٣ . واجتمع ببطرك اورشليم فشكا اليه البطرك ما تقاسيه الصارى هناك من جور المسلمين فلما فصل عن المكان اصحبه بكتاب الى البابا اوربان الثاني فجرده البابا لان يطوف على الصارى ويحرضهم على القتال فاخذت بقوله وهاجوا لارسال الجيوش . ثم قام من بعك راهب من بريتاني اسمه ارلوان ثم صان لويس . الاولولاهم لم تستقل دولة اميركا بامورها كما تراها لان وتفصيله ان دولة الانكليز كانت قد كلفت المستوطنين في اميركا من العكس والضرائب ما لم يكونوا يعهدونه وكان الحامل للدولة على ذلك ما ركبها من الدين بسبب الحروب التي تقدمت ذلك كما يرد تفصيله . فلما بلغت الاوامر الى بستان او بستان تعصب اهلها على ان لا يدفعوا شيئا مما لم تجر به العادة ثم عقدوا مجلسا عاما وراسوا عليهم جورج واشنطن وفوضوا اليه التدبير والامر . وفي سنة ١٧٧٦ شهرها انفصلهم عن الانكليز وبعثوا بنيامين فرنكلين الى ديوان فرنسا ليعرض

ما استقر عليه رأي القوم واستجدوا بالملك لويس السادس عشر فارسل لهم اثنتي عشرة بارجة من طولون فتوجهت البوارج الى رود وهي جزيرة كانت تدخر الانكليز فيها جهاز الحرب فما كادت تصل الى هناك حتى ثارت عليها الرياح العواصف فبادت عن آخرها . ثم ذهب من فرنسا لاعانة الاميركانيين كثير ممن شهروا بالبسالة والنجدة اشهرهم لافايت . وكان قد بلغ من العمر عشرين سنة لا غير فلما وصل الى هناك حظى عند واشنطنون حظوة عظيمة ووقعت انقشمت دولة فرنسا مع دولة اسبانيا بعد ما كان بينهما من المناظر على اعانة الاميركانيين . ثم امدهم الجزال . روشامو بستة الاف من العسكر لاستخلاص جزيرة رود . ثم استخلصوا ايضا مدينة يورك واستاسروا من الانكليز ثمانية الاف وعندها تم انعقاد الهدنة بين الدول وجرى تحريرها في باريس سنة ١٧٨٢ . انتهى ماخصا من فلتير . قلت ثم اضطربت الحرب بين الانكليز والفرنساوية فقام الاميركانيون مقام من لا ضلع له مع احد الفريقين ثم اشتعلت ايضا بين الانكليز والاميركانيين وذلك في سنة ١٨١٢ فلم تنته الا بعد ثلث سنين . قال في معجم الاوقاف اصل حروب فرنسا التي تغلغل فيها الانكليز نحو مائتي سنة نشا عن امراء نورماندي وهم ملوك الانكليز فانهم كانوا يضبطون هذا الاقليم كانه وقف لثاج فرنسا حتى فتح وليم الاول انكليزية فصارت هذه الولاية ملحقة بها ولكنها انسلخت عنها في عهد الملك يوحنا وذلك في سنة ١٢٠٤ * قال وقد تعددت حروبنا مع فرنساوية وانتصرنا عليهم نصرات متعددة . وفي عهد هنري الرابع طرد الانكليز من فرنسا وبعد ان خرجت من يدهم بقيت الحروب تعاقب المهادنة والمهادنة تعاقب الحروب مددا طويلة فجملة ما وقع من الحروب بيننا وبينهم ثمانين عشرة حربا وقد قضت الانكليز ستا وخمسين سنة في الحرب واثنين وستين في السلم وصرفوا في حرب سنة ١٦٨٨ ستة وثلاثين مليوناً . وفي حرب اسبانيا اثنين وستين مليوناً . وفي الحرب الثانية معهم اربعة وخمسين مليوناً وفي الحرب التي دامت سبع سنين مائة واثنى عشر مليوناً وفي حرب اميركا مائة وستة وثلاثين مليوناً وفي حرب فتنة فرنساوية اربعمائة واربعة وستين مليوناً وفي حرب نابوليون الفا ومائة

وتسعة وخمسين مليوناً فتكون جملة المصاريف في مدة مائة وسبع وعشرين سنة وذلك من وقت الفتنة التي جرت في سنة ١٦٨٨ الى آخر مدة نابوليون في سنة ١٨١٥ الفين وثلاثة وعشرين مليوناً . وقد حسب بعضهم عدد القتلى من الفرنسية في ست وقائع جرت بينهم وبين عسكر اسبانيا فكانت ستمائة الف ومثلها من اهل اسبانيا ومن كان يتحزب لهم وبقيت اقطار البلاد عرضة للتحزيب والمصائب من كل وجه . قلت وقد بلغت مصاريف حرب الهند في هذه الايام لاخيرة تسعة ملايين ونصف مليون * اما نابوليون الاول فانه دان له اكثر ممالك اوربا فقهر بروسيا والروسية والسويد حين تواطوا مع الانكليز على حربه . ودخل مملكة بروسيا منصوراً مظفراً فاجتمعت عليه دول الروسية واوستراليا وبروسيا وغيرهم ثم عنوا لطاعته في مدينته درسد وكانت هذه خامس مرة تواطات فيها الدول على خلعه ثم لم تمض برهة حتى حشد جيشاً عظيماً وتوجه بهم الى الروسية فلم يجد ممانعاً له حتى بلغ مدينته المسكو . فلما اشراف عليها هو وجنده تعجبوا من كثرة ما فيها من الكنائس والقبب المذهبة اذ كان فيها نحو ثمانمائة كنيسة فيها الوف من الاجراس فقال عند رويته ذلك « هذه مدينته المسكوب ثمة تعبك وجهادكم من زمن طويل وهي تكون خاتمة مساعيكم وانعابكم » . ثم انهم دخلوها فوجدوها خالية على عروشها فان ساطانها كان قد اخلاها خذمة فظن نابوليون ان نصرته تحققت وان ساطانها قد استتب فلبث فيها اياماً ثم لم يشعر ذات يوم إلا بالنار تضطرم في اطرافها فاحرقه من ذلك الغشل فاضطر الى اخلائها ولحق به جيش الروس وما كاد يتخلص منهم إلا بعد اخطار شاقة . فلما رجع الى باريس رأى اهل الشورى قد تغيرت خواطرم عليه فاضطر الى ان يتخلع نفسه وسار الى جزيرة كالاب فخلعه في الملك لويس الثامن عشر لكنه ابدى من سوء التدبير ما امال خاطر بعض رجال الدولة الى نابوليون فجرت بينهم المكاتبة والمراسلة ثم لم يشعر الناس بعد مدة إلا وهو يجول في البلاد ويحرض حزبه على قتال العدو وجعل يعدهم ويمتهم فمالت قلوب الناس اليه فما برح سائراً حتى دخل باريس ففرحت به رجال الدولة وفر منه لويس

ثم انه جمع جيشا عظيما وتوجه لقتال الانكليز وبروسيا عند فلورنس فالتصمرو
على جيش بروسيا فقتل منهم اثنين وعشرين الفا الا ان عساكر اعدائه كانت
اكثر عددا من عساكره باضعاف ثم زحف الى قتال الانكليز عند واطرلو وكاد
ان يظفر بهم لولا ان تداركتهم جيوش بروسيا فاحدقوا بعساكره فلم يطبقوا
الشبوت ويومئذ تنقطعت به اسباب الامال فجعل يتلقى رصاص البنادق
والمدافع وهو كاشف صدوره ومع ذلك فلم ينله صير فرجع منكسر الخاطر
مهين الجناح فحكم اهل السورى بخلعهم فعرض عليهم ان يقاتل العدو في
رتبة امير لواء فابوا فصمم على ان يسير الى اميركا حتى اذا سار بشزمته من
حزبه الى رشفورت وكانت سفن الانكليز تطوف هناك امسكوه وتوجهوا به
الى جزيرة صانت هيلان وهناك قضى نحبه . اما الاتحاد بروسيا مع الانكليز
فكان سببه ان نابوليون كان يريد ان يعطي مملكة هنوفر للانكليز في مقابلة
صقلية فهاجت حجة ملك بروسيا على نابوليون وبلغ من غيظ زوجته انها
كانت ترصكب وتدور في شوارع المدينة وتحرض الناس على القتال وهي
متردية بلباس الجند ووقتئذ تواطت الدولتان ودولنا الروسية على نابوليون
الا انه غلب الجميع حيث دخل قاعدة مملكة بروسيا منصورا مظفرا كما تقدم
فاما تواطؤ سائر الدول عليه فانما كان خوفا منه ان يستولي على ممالكهم اذ
كان لا يرده شيء عما نواه وقتئذ سولت دولة الانكليز لملك الدنيمارك ان
يواطئها عليه فابى فارسلت بوارجها الى كوبنهاغن فاطلقت النيران عليها
فهدمت منها ثلثمائة دار واستولت على بوارجها وكانت ثلثا وخمسين بارجة
انتهى ماخصا من فلتير . ومن ابطال نابوليون المشاهير موررو الذي قهر
سلطان النمسا وبدد عساكره حتى اضطر الى طلب المهادنة فاجابه بشرط
ان تنفصل دولة النمسا عن دولة الانكليز فانهما كانتا متواطئتين على فرنسا .
وسياتي ايضا ذكر نابوليون عند ذكر الامير نلسون الانكليزي وغيره في وصف
لندرة . وممن تفرد في البسالة والحماسة من هذا الجيل اي الفرنسيين جان
دارك الشهيرة وكانت في الاصل خادمة في بعض الحانات وكانت تتركب
الخيل بلا سرج لجراتها وقوتها وتدعي انها تقدر على استخلاص فرنسا من يد

الانكليز . فاحضرت بين يدي دوك دورليان في برج ثم بعد ان علم انها بكر وانه كان يوحى اليها فوض اليها ان تقود جيشا وتسير بهم لاستخلاص اورليان وكانت حينئذ تحت حصار الانكليز فلما بلغت البلد القت خطابا بليغا على سن معها من الجيش وحرصتهم على قتال الانكليز فاخذتهم الحمية والحماسة وتقدمتهم الى القتال ويدها رايت فلم تمض ساعات حتى هزمت جيش الانكليز واستنقذت البلدة . قال في ابجدية الاوقات لما كانت الانكليز محاصرين اورليان زعت جان دارك بان الله اوحى اليها ان تطردهم منها فقلدها شارلس الثامن تذيير الجيش فسارت بهم الى الموضع المذكور وذلك في سنة ١٤٢٩ وضايقتهم حتى اضطرتهم الى ترك الحصار واستردت منهم عدة مدن كانت تحت يدهم وهزمتهم في واقعة باتي المشهورة ولم يكن احد يجد فيها محلا للوم والقذف فانها جرحت عدة مرار ولم تسفك دم احدا يدها ولما انتصرت على الانكليز في الواقعة المذكورة دخل الملك اورليان بسمت الظفر تنوع فحضرت جان دارك تتويجه وهي ممسكة بسيف الملك وعليها لباس الكماة . قال ثم استاسرها الانكليز في حصار كومبان في سنة ١٤٣١ ولخزيم حكموا عليها بانها ساحرة فاحرقوها بعد خمسة ايام في روان وهي بنت تسع وعشرين سنة وقيل اثنتين وعشرين . وكانت عادتهم ان يقتلوا المتهمين بالسحر والشعوذة ففي مدة مائتي سنة احرقوا ثلثين الفا من جلثهم « جان دارك » هذه الجميلة الباسلة . وفي سنة ١٨٥١ نصب لها تمثال في اورليان بامر السيدة ماري . اه . — قصة جان دارك ومن غريب ما حكى عن هذه الفتاة على وجه الاسهاب فضلا عما تقدم ما عثرت عليه في تاريخ بلاد الانكليز ونصه : ان جان دارك لما كانت ذات يوم تماشي اباهي في البستان وكان سنهما حينئذ خمس سنين ابصرت حوالها نورا ساطعا فالتفت فرات صورة الملك ميخائيل فاشار اليها ان تكون ملبية ومطبعة لما تندب اليه ولما يجب عليها وان الله تعالى يكون لها واقيا ونصيرا . فلما علم ابوها بذلك وكان رجلا شرسا اخذ يعاملها بالعدو والتسوة حتى اضطرت الى مفارقتها ودخلت في خدمة امرأة ارملته صاحبة فندق . فابدت هناك من صدق

السعي والافدام على الاعمال ما فطرت عليه فكانت تسافر في قضاء حاجات سيدتها من دون خوف وتركب الخيل وتفعل كل ما تومر به مع غاية مسا يكون من العفة . قال المعلم سريس كان على طلعتها سيماء الحياء ولحمة من الجمال والطف واللين مع العزيمة والمضاء وكان كلامها رشيدا والصلاح قرين اعمالها كلها . قال الراوي الاول ثم انها رجعت الى ابسها بعد خمس سنين واستأنفت رعاية الماشية الى ان بلغت ثمانى عشرة سنة وكانت امور فرنسا اذ ذاك على شفا جرف هار من البوار والحراب وكانت الفتاة تسمع بمسا اصاب اهل بلاده من الذل وملتهم من الهزيمة والفشل وفي غضون ذلك وقعت حرب ما بين الفرنسيين والانكليز عند فرنوى فبلغها ما لحق معارفها من البوس والانكسار فآثر فيها الحزن والاسف كثيرا فصارت تبصر روى وتسمع اصواتا علوية اكثر مما كانت ترى وتسمع من قبل الى ان ارجف الناس بان الانكليز استولوا على اورليان بعد محاصرتهم لها . قال فابصرت حينئذ الملك ميخائيل والقديستين كاثرينا ومرغاريت وهم يحرضونها على ان تخصص نفسها لاستخلاص بلاده من الانكليز فقالت اني فلاحه مسكينة ولا دراية لي بهك الامور الخطيرة فحقق لها الملك بان الله يوتيها قدرة وحكمة ودراية وان القديستين المذكورتين تصاحبانها اينما سارت وان كل شيء يتم على وفق المراد وكانت البنت تذكر رواية جرت عند الناس مجرى النبوة وهي ان خراب فرنسا كما انه نشا عن امرأة شريرة وهي ايزابلا من بافاريا كذلك يكون خلاص البلاد على يد بنت بريئة سالمة من العيوب وانها تاتي من جهة بواشسوا . قال ثم كنز ورود الاصوات عليها وحنها اياها على الشروع في العمل اذ كادت امور فرنسا تحتل بالكلية وافادتها بانها هي تلك البنت المعنية فاستحوذ عليها الكرب والكآبة وكانت كثيرا ما ترى باكية عند احتجاب الرويا عنها . وكان ابوها وامها يسخران منها ويكذبانها ولهذا ارادا ان يزوجاها منعا لها من الخروج مع الجند فاعرضت عن عرضهما وقالت لهما اني نذرت بكارتي لله تعالى . واتفق وقتئذ ان جماعة من الانكليز مروا بقريتها فذهبوا القرية واحرقوا الكنيسة ففرت مع والديها ثم لما رجعوا وراث ما حل بالقرية اشتد

غيطها وهاج جاشها فامرتها لاصوات بان تذهب الى بعض ولاه ذلك الصقع
وتطلب منه ان يوصلها الى الملك فاذا مثلت بين يديه تخبره بانها قد
بعثت لكف حصار اورليان ولتسويج الملك في مدينة رام وانها ان لم تفعل
ما امرت به تعديم خلاص نفسها . فقصدت واليا وطلبت مواجعتها فاي ثم
ما زالت تلح حتى اذن لها فلما دخلت عليه ازدرى بها وامر خالها بسان
يعيدها من حيث جاءت بعد ان تجلد تاديبا لها فقالت له على رسلك
ايها الامير ان هذا عمل سيدي ولا بد من انجازة قال ومن سيدك قلت
رب السماء فايقن بانها مجنونة ثم صرفها فلبثت في تلك الجهة متعبدة
ثم جعلت تقول ان لاصوات تلح عليها بالعمل فشاع خبرها في البلد فكان
الناس يهرعون الى مشاهدتها ويتعجبون من تقواها وحسن سيرتها فسمع بها
احد الامراء وكان به مرض فاستدعى بها لتشفيه فارسلت تقول له ان لاصوات
لم تذكر لي اسمك ولم تبثني اليك . قال وفي جميع هذه الاحوال كانت مالكة هوى
ففسها وكانت اقوالها وافعالها على حد سوى فلم تكن تبدي شيئا يخل بها
وكان ذهنها يزداد صفاء وتوقدا فعرض عليها احد الرهبان ان يعصدها بامارة
زعم انها فعلت امورا خارقة للعادة فقالت له لا حاجة لي بها . ثم انهما
صممت على المسير الى الملك وقالت على سماع الناس ما احد يغيث ملك
فرنسا إلا انا على اني لو خيرت في امري لاخترت المقام بداري ابي والغزل
بازاء ابي ولكني قد كلفت هذا الامر فلا بد لي من المسير الى الملك ماشية .
فالح الناس على الوالي بان يجيها الى مطلوبها فاحضرها لديه وامر قسيسا
بان ينضح عليها الماء ويختبرها فلما فعل القسيس ذلك وثبت له انها ليست
ساحرة اخبرها الوالي بنفر من اعوانه فسافرت من عنك في شهر شباط من
سنة ١٤٢٩ وكان الملك عن ذلك الموضع مسافة مائة وخسين فرسخا في
اقطار مشحونة بالحرس والخفراء من الانكليز ومحفوظة بالاهوال والخطوف
فركبت الجواد في زي فارس وتقلدت السيف وسكنت من قلوب السائرين
معها فجابوا تلك النواحي من دون ان يصادفوا احدا من الانكليز فلما اشرفت
على مقر الملك ارسات من تخبره بتقدمها فلما سمع بذلك اندفع في الضحك

مع انه كان وقتئذ في حالة يصدق عليها قول من قال انه يتعلق بحال الهواء ، ثم تشاور وزراء الملك في امرها ثلثة ايام فبعضهم سخر منها وبعضهم اشار بلفاتها والملك مترهيو لا يدري باي الرايين ياخذ الى ان قر الراي اخيرا على ان يقابلها فتزي بزي رجل من العامة والبس احد خواصه ثيابه اختبارا لها فلما اذن لها في الدخول خرقت صفوف الحشم والتبع حتى وصلت اليه وجثت بين يديه قائلة ملاك الله بالعمر الطويل ايها الملك الحليم فقال لها لست انا الملك وانما هو ذاك وأشار الى لابس ثيابه فقالت باسم الملك العليم ليس الملك إلا انت انا جان العذراء ارسلني الله اليك لاغيثك واخلص المملكة وعن امرة ابيس لك انك تلبس التاج في رام فانفرد بها الملك ناحية وبعد ان خاطبها هنيهة قال لوزرائه لعمرى لقد اطلعتني على امور لم يكن احد يعرفها إلا الله تعالى وإلا انا ، اني اول من صدق بان الله بعثها لا تنقذ المملكة (وفي رواية فلتيران الملك سالها عما جرى بينه وبين محبوبته في الليلة البارحة ولعل ذلك تهكم منه على عادته) قال الراوي ثم رأها الناس في الغد على جواد وهي تركضه وقد اعتقلت رمحا وابدت من الفروسة ما حير الناظرين فهتفوا استحسانا لها وتعجبوا منها وكانت مهففة القوام ولها شعر فاحم مسترسل على كتفيها غير ان الملك خامرة الريب في امرها فامر جماعة من الاطباء والعارفين بالالهيئات بان يمتحنوها بالمسائل فالتقوا عليها مسائل مشككة وحلوا ان يعرفوها بالكلام ثلثة اسابيع فلم يجد ذلك نفعاً فانها اصرت على قولها الاول وهو انما ارسلت لكف حصار اورليان ولتزوج الملك في رام ولم تزد على هذا شيئا فاقترحوا عليها آية مصداقا على ما قالت فقالت ارسلوني مع جيش الى اورليان تعلموا صدق قلبي فاستصوبوا كلامها ونضحوها بالماء فبرزت وهي متكئة بالسلاح وقد لبست زي الفوسان واخذت الرمح بيدها ورايتها امامها وكان اهل اورليان قد سمعوا بخبرها وهم في غاية الكرب والبوس فطلبوا من الملك ان يرسلها لاغايتهم في جيش ، ثم طلبت ان تعطى سيفا زعمت انه في قبر في كنيسة القديسة كاترينا التي مر ذكرها فيبحث عنه واخرج وسلم لها فتقلدته وسارت مع جماعة من اعيان فرنسا الى المعسكر

فلما بلغت امرت بطرد النساء المريات منه وامرت الرجال بالشوى والتوكل
على الله ثم سارت بالجيش الى اورليان وسار صيتها بين يديها وكانت تامر
وتنهى على مقتضى امر الاصوات . واتفق مرة انها امرت الجيش بالزحف على
البلد من جهة يمين الشط ثم ركبت في فلك بقصد تلك الجهة غير ان احد
الضباط الذين كانوا يكذبونها اخذ جهة اليسار فثار عليهم ريح عاصفة
احوجتهم الى الرجوع والى ان يتوجهوا الى الجهة التى امرتهم بها . اما اهل
البلد فكانوا على حافة الياس وقد بلغ منهم الضنك والمجوع كل مبلغ فاستقبلوها
بغاية الاحرام واتخذوا لها وليمة فاخرة فابت ان تاكل منها وآثرت ان تتعشى
على الخبز البلول . اما لانكليز فكان قد بلغهم انها قادمة لبحاربتهم فلما
قدمت استخفوا بها لكنهم لما راوا عزيمتها استولى عليهم الخوف لاعتقادهم
انها ساحرة ثم قالوا ان كانت لبشر مثلنا فنحن لا نخشى البشر فاما ان
كانت ساحرة فلا طاقة لنا بها فاجتهدت رساء عسكرهم في ازالة هذا الوهم
من خواطرم فلم يفد ذلك بل صاروا يفرون منها حين تبرز لهم . واتفق انها
زحفت عليهم مرة وهي راكبة جوادها لايض وامامها رايتها البيضاء ووراها
جاعة يغنون ثم نصبت سلال على برج يسمى برج طورنل وارتقت عليه
وهي تدعو لانكليز ان يخلو فشتها اهد امراء الجيش وعبرها رعاية البقر
فقالت لم بشس الفارس انت انما انت مقتول هنا ثم امرت الجند بان
يهجموا هجمة واحدة إلا ان الفرنسيين لما كان من طبعهم التقلب صاروا
يحمسونها وينصرفون عن امرها فواعدوها الى غد وعزموا على ان يزحفوا من
دونها فانصرفت هي لتستريح فما هو إلا ان القتت عنها الدرع حتى نهضت
ولبسته وهي تقول البدار الى القتال فان الاصوات امرتني به فلما اقدمت
راى الفرنسيين مرتدين على اعقابهم اذ كانوا قد هجموا من دون اذنها وقد
هلك منهم كثير فاشتد غيظها وجعلت تحض على صدق الحملة وتقدمتهم
هي بنفسها فصدقوا القتال واستخلصوا بعض القلاع ثم سارت الى برج طورنل
وتهددت من يخالفها بالعقاب فوطاوها موطاة رجل واحد وهجموا على البرج
فمانعها لانكليز اشد ممانعة فزادها ذلك باسا وعزيمة واعلنت ان الله تعالى

سلم لها اعداء الفرنسيس ثم ركزت عليها عند حضيض البرج واخذت في الارتقاء عليه والرفي عليها متواصل فاصابها سهم نفذ لها في الدرع بين صدرها وكشفها فصرعت في الخندق فاهل الانكليز من فرحهم واعتقدوا انها ماتت ثم حلت الى مقدمة الجيش واخرج منها السهم فافاقت وعاد اليها فشاطها فنهضت وهي تقول ليس ما قطر مني دما بل هو ظفر وقد امرتني الاصوات بانمامه ثم استأنفت القتال باشد صولة . فلها بصر بها الانكليز ضعفوا وفشلوا فقتل منهم في ذلك اليوم ستة الاف من جلثهم ذلك الامير الذي سبها وعدة ايضا ممن انبات بهلاكهم . فعقد القائد صفوك الانكليزي مجلس مشورة وفاض اصحابه في امر الحرب فقالوا ان الجيش قد استحوز عليه الرعب فلا يكون فائدة في استمرار القتال فقر رايهم على رفع الحصار فلما كان الغد جمع القائد المذكور جميع الجند واهم انه يعيهم للقتال وهو في الواقع منسحب بهم ثم بعث الى الفرنسيس ان يبارزوه بساحرتهم لكن الفتاة رست على الجند بان لا يتعرضوا له فانتظر القائد بعض ساعات فلما لم ير احدا احرق البرج وما حوله وانسل بعسكره . فاسرعت الفتاة للقاء الملك في بلوى وكان اهل القرى عند مرورها بهم يتراكون لرويتها ويتزاحون لمس قدمها او ثيابها او في الاقل لمس جوارها فاستقبلها اهل الديوان بغاية الاجلال والاكرام وامر الملك لها بمداينة فقالت له ليس الوقت الان وقت القصف واللذات والرقص وما دام الله تعالى قد فسح في اجلي فعلي ان اسعى لفرنسا غير ان هذا الاجل قريب فان الاصوات انذرتني باني اموت بعد سنتين ! ثم التفت منه ان يتوجه معها الى مدينة رام لتخضر ثوبه فيها فسار بمن عنك من الجند حتى اذا وصل الى لوار اراد ان يطرد الانكليز من المعقل والحصون لياسن السير فتقدمت بالجند الى جارجو حيث كان صفوك مخيما بعسكره فماتت عشرة ايام حتى استولت على محله عنوة واستاسرتهم وكانت هي اول من ارتقى في السلم لكنها اصيبت يومئذ بصربة جندلتها في الخندق فصرعت حتى لم تقدر على النهوض وبلغ منها الالم كل مبلغ الا انها لبشت تحضر الجند وهي تقول لهم تقدموا يا رجال ولا تفسلوا فان الله سلهم ليدنا . فدخلت

الجمية في قلوب الجند ثقة بكلامها فمجموا على البلد واستولوا عليه فقتل
من الانكليز يومئذ لثمانية نفس . فلما بلغ الخبر مسامع الامير تلبوت لانكليزي
اخلى جميع البلدان وانصرف الى باريس ثم سارت الفتاة الى باتي فتلبت
جندها هناك لينتظروا مددا فقالت لهم دعوا التلبت واقدموا على العدو فليس
عليكم الا ان تصر بوجههم والله يسلمهم ليدنا ثم . زحفت عليهم فحقاق بهم الفشل
من كل وجه مع ان رماثهم كانوا من اخذق الرماة فقتل منهم في ذلك اليوم
الف ومائتا مقاتل . ثم في الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٢٢٩ سارت الى
رام ومعها امراء العسكر واعيان القواد والضباط وبعد يومين جرى تتويج
الملك فلما انقضى رسم التتويج جثت عند قدميه وعانقتها وهي باكية ثم
قالت اليوم قد تم سعي ونحيز كل ما وعدت به فارجوك ان تسرحني لانطلق
الى بيت ابي واعود الى سيرقي لاولي فابى الملك ان يسرحها اذ رأى ان
نجاة الامة متوقفة عليها وانها قد فعلت في الزمن القصير ما لم يفعله غيرها
في الزمن المديد وكان الناس جميعا قد علقوا آمالهم بها واستبشروا بطيب
العيش والراحة وتمكن اعتقادهم منها حتى كانوا يرون حول رايتهما حيثما
سارت اسرابا من الفراش الابيض البهيج وبهذه الراية كانت واقفة بازاء
الملك عند تتوجه غير انها من تلك الساعة اي ساحة طلبها التسريح تغيرت
احوالها بالكليية فاستحوذ عليها الغم والكآبة وذهب عنها ذلك الراي الرشيد
فكانت اذا طلب منها ان تنقضي امرا اضطربت افكارها فيه وفشلت واذا
امرت هي بشي ارتابت فيه ورجعت عنه فان الاصوات انقطعت عنها
فاعادت الالتماس من الملك وهي جائشة النفس باكية لان يصرفها فابى
واشار عليها بان تلبس سلاحها وكانت قد علقته في كنيسة رام فامتثلت
امرة وبرزت مرة اخرى في زي المحاربين الا ان امراء العساكر كانوا اذ
ذاك قد اضمروا لها الحسد فصاروا يشنعون عليها ويسئون معاملتها واغروا
العساكر بان يبرزوها بالالقاب لا بل حاولوا هتك حجابها ليفضحوها بين
الناس فردتهم اقبح الرد ولم يكن يجالسها سوى النساء المصونات ولا تنام
في الفراش الا ومعها امرأة لتخفها ثم اشارت على الملك بان يتوجه الى

باريس ليستخلصها من يد الانكليز فسار معنا له في مسيرة بلدان كثيرة حتى بلغها فامر بالهجوم على المحلة المعروفة بفوبور صنت اونري تخرجت الفتاة في تلك الواقعة وصرعت عدة ساعات ثم قامت وعلقت درعها وطلبت من الملك الانصراف فايى ووعدا بان يرقيا الى رتبة جليلة ويجري عليها وظيفة الارل وان يعفي قريتها من الخراج فاجابت الى ذلك وفي تلك الاثناء قام راهب يسمى ريشارد ومع امرأة تدعى النبوة وجعلا يحثان الناس على امداد الملك بالمال وطلبا من الفتاة ان تساعداهما على ذلك فابت وقالت انما النجاح على اسنة الراح * وفي سنة ١٤٣٠ ارسلها الملك لطرده لانكليز عن حصار مدينة كامبين وكان عليها دوكت بورغندي فسارت متجلدة متدعة بالاقدام والبسالة على عادتهما الا انها لما ارادت الايقاع بالمحاصرين خذلها اتباعها حتى اذا قاربت البلد رماها بعض الرماة فاصابها فصرعت على الارض واستسلمت للامير فندوم فذاع خبر اسرها في جميع تلك الاقطار فاقبل الناس لرويتها ثم باعها الامير المذكور للكسومبورغ وباعها هذا للانكليز بعشرة آلاف فرنك وخذلها الملك فلم يسمع في افتكاكها لوما منه وكفران نعمة وخذلها ايضا معارفها واصدقاؤها وخاض الناس في حديثها وارتاوا ان تحرق كما تحرق الساحرة وكان اهل باريس اشد الناس اشمئزا من ذكرها حتى انهم احرقوا مرة امرأة لقتولها ان جان رسول من السماء . ثم انه في الثالث عشر من شباط سنة ١٤٣١ اقيمت عليها الدعوى في الديوان فاحضرت فيه ست عشرة مرة والقي عليها التفسيرون والاطباء واهل الاحكام الشرعية وكانوا زهاء مائة كثيرا من المسائل العويصة المعقدة وبذلوا كل ما في طاقتهم من المكر والدهاء ليصيدها بكلمة تدل على ان ما فعلته كان بقوة الشيطان فلم تنطق بشيء مما توقعوا بل اصررت على قولها ان الله تعالى هو الذي قيضها لهذا العمل حتى افحمتهم . ثم سالوها عن الكنيسة فقالت ما زلت مواظبة على العبادة فيها لكني كنت اطيع الاصوات حين كانت تامرني بشيء مخالف لها فحكم عليها اهل الديوان بانها مبتدعة وصوب ذلك اهل مجلس الشورى والساقفة واهل المدارس وحكموا بحبسها فاخذ الرهبان يترددون

عليها وينذرونها هول يومها . ثم اخرجت يوما وجعل الناس يقبحون عليها فعلها
ويشنعون على الملك فشارت حيتها لتبرئة الملك فحكموا عليها بالسجن المؤبد
وبان تنقذ بالحبس والماء فقط ثم اجبرت على ان تحلف بان لا تتردي
لباس الرجال ثم كادوا لها مكيدة وهي انهم كانوا ياخذون ثيابها عند ما تنام
ويضعون مكانها ثياب رجل فكانت اذا رأتها تلبث في الفراش الى ان تضطر
الى القيام فتلبسها ولما كانت ذات يوم في هذا الزي هجم عليها الحرس
واستاقوها الى المحاكم فحكم عليها بانها حنثت في يمينها وانها تستحق ان
تحرق فاعيدت الى السجن وعاودتها الاصوات فامتلات طربا وسجاعة إلا
انها حين اخرجت منه ورات ما اعد لها من العذاب خارت قواها فجلت
تثن وتثاوه . ثم اضمرت النار وادخلت فيها فجعلت تدعو الى الله وتبتهل حتى
ان عدوها الكردينال بوفور لما شاهدها على هذه الحالة لم يطق بعد ان ينظر
اليها فقام عجلا هو وسن كان معه من الاساقفة والدموع متحدرة من مآقيهم .
وكان احراقها في الثلاثين من شهر ايار من السنة المذكورة في موضع يقال
له لا بلاس دولا بوسل اي موضع البكر وذري رمادها في نهر السان ثم بعد
عشرين سنة قام مطران باريس ومطران رام فنقضا الحكم الذي جرى عليها
واثبتا برأتها . اه . قلت وقد وجدت هذه القصة العجزة في تاريخ بلاد
الانكلز فنقلتها بتمامها لغرابتها ثم وجدتها في كتاب آخر مروية بعبارات
مخالفة لما تقدم بعض الخلفى ولا غرو فان لا يكاد راويان يتفقان على
رواية واحدة او على رأي واحد وكيفما كان فان ما جرى على هذه الفتاة التي
تقررت بهذه المزايا الحسنة يبقى معرة وخزيا على اسماء جميع الذين تسبوا
في اهلاكها سواء كانوا من الفرنسيين او الانكلز على ان موتها لم يفد الانكلز
فائدة كبيرة لان اهل فرنسا اذ ذاك كانوا قد تنشطوا الى مغالبتهم ومقاواتهم
بعد ان ذاقوا طعم الفوز والظفر وسرى فيهم روح الحمية للذب عن اوطانهم
وبما ذكر تعلم ان الناس في ذلك العصر كانوا متسكعين في ظلام الجهل
والسواس فكانت الاساقفة واهل المدارس اقل كياسة من عامة هذا العصر
قلت ولو لا نابليون هذا العصر لم يبق للبابا كوسي برومة ولم يقف في

وجه الروس واقف وذلك مستغن عن البيان . ولم يبق احد في بلاد الافرنج كلها من يزرع في اللغتين العربية والفارسية مثل البارون دساسي . ولم تقم امرأة توفى الكتب النفيسة مثل مادام جورج ساند . وليس الآن من شاعر في اوربا يقارب طبقة دولامرتين . ولا من مولف ينظر باوجان سو او الكسندر دوماس . . فهذه بعض دراري جيل القرنيس الغابرة والمحاصرة التي بزغت في افق المعالي ولم يكن لها في عصرها ند ولا مثيل . على انه لا ينكر ايضا ان قد نبغ من الانكليز وغيرهم كثير من الفلاسفة والحكماء والعلماء والادباء ممن اشرق بهم الزمان ولهج بحمدهم اللسان . ثم اقول ايضا انه قد ظهر لي على قدر ما ادركته ان كثيرا من المصالح في باريس احسن استباها وانتظاما منها في لندرة . اما اولافاني مكثت في هذه نحو ثلثين شهرا ولم اسمع عن بيت فيها انه احترق الا مرة فقط . وفي لندرة لا تكاد النار تخدم عن احراق دار او دكان او معمل ونحو ذلك . ففي سنة ١٨٥٦ وقع فيها وفي صواحيها ٩٥٧ حريقه منها ٣٩٣ حريقه كانت متلقية جدا . وبلغ عدد الحرائق في فرنسا كلها في مدة ثلث سنين وذلك من سنة اربع وخسين الى ست وخسين ٢٢٠٣٨ * نعم ان ديار باريس هي من الحجر وديار لندرة من الحجر غير ان اثناهما من جوهر واحد . والثاني انه لا يعرف في باريس تداول نقود زائفة او كواغد بنك ملبسة وفي لندرة كثيرا ما يقع ذلك واذا دفعت الى تاجر فيها قطعة من القصة او الذهب فلا بد وان يخبرها . الثالث ان ارتكاب القتل في باريس بالنسبة الى لندرة نادر جدا لاسيما الان حيث اجازت الدولة للخلعاء والمثقيين ان يرجعوا الى بلادهم بعد انقضاء مدتهم . الرابع نقب الديار والخوانيت والطر والاختلاس من الديار والمحترفات والدواوين ولاسيما المولك فهو على نسبة القتل . الخامس العوارض التي تحدث للمسافرين في الارثال فانها في بلاد الانكليز كثيرة جدا والحق بها ايضا العوارض التي تقع في طرق المدينة بمرور الخوافل والعواجل وسائر انواع المراكب . السادس المضار التي تحدث من بيع السم والسبب والماكولات المنتنة والمشروبات الكريهة فانها في لندرة بليته من بلايا الله

والحق بذلك رخصة العطارين والصنادلة في بيع الادوية من دون وصف الطبيب وبيع المفاتيح لاي ما كان . وفي باريس يجب على المحتسين ان يسعروا الاصناف ويختبروا الحليب والخمر والدقيق واللحم والسمك وما اشبه ذلك على حين غفلة من الباعة فاذا وجدوها مغشوشة او فاسدة غرموهم وشهروهم في صحف الاخبار ولا يباح ايضا بيع الفاكهة فجأة وذلك كله في لندرة موكل الى ارادة الباعة فلا تكاد تجد شيئا خالصا حتى ان الجنازة في باريس مسعرة من الديوان فاقبلها خمسة فرنكات واغلايا ٣٦٧ ٣ كذا في غالنياني . السابع تولية المراتب من يستحقها فان دولة فرنسا لا تولي جاهلا مرتبة الا ما ندر فاما عند الانكليز فتولية المراتب اما تكون بالعبادة والاختصاص او بتعريضها للبيع وهذا الاخير مستفيض في مراتب العساكر البرية وما زال الناس يمتنون انفسهم باصلاح هذا الخلل وما برج كتاب الاخبار ينددون به وينصحون ارباب الامر والنهي لتلافيه . الثامن ترتيب الشرطة حيث يزدحم الناس كالملاهي والمراقص ومواقف سكة الحديد فان اكثر هذه الاماكن في لندرة لا يكون فيها شرطي او يكون وراء الباب فتسرى الناس يضغط بعضهم بعضا عند دخولهم الملهى . وغير مرة رايت نساء يغشى هليهن في الزحام وغير مرة يموت عدة اولاد ومنهم من يستهزئ ومنهم من يضحك وفي داخل الملهى ترى لاوباش يصفرون ويزيطون ولا وازع يردم . فاما في باريس فلا يخلو مكان من احد هؤلاء الشرطة وترى الناس في الملاهي ساكنين منصتين فكانما هم في الكنيسة . ومع ذلك فان الانكليز يفتخرون بقولهم ان « جون بول » لا حاجة له بالشرطة لانه مطبوع على الترتيب وهيئات فان اوباشهم ازل خلق الله . التاسع تعهد المدينة بما فيه حفظ الصحة وبسط النفس وراحة العباد . فيدخل في ذلك ترتيب المستشفيات فهي في باريس احسن وانظف والمعايير فهي هناك لا تكون الا خارج البلد وفي لندرة كانوا يدفنون الموتي في ساحات الكنائس ولم تبطل هذه العادة الا منذ ثلث سنين فقط . ثم المناصع وهي المواضع التي يتخلى فيها الانسان للبول او لقضاء الحاجة فالاولى في لندرة قليلة جدا على رذالتها والثانية معدومة راسا . ثم

تنظيف الطرق فان طرق لندرة عند وقوع الامطار تكون لكثرة المارين وحالة للغاية وليس من يرى في ذلك مشقة ولا شينا . ثم وجود مقاعد يستراح عليها ففي باريس كلما اعيى الماشي وجد دكة او مصطبة يجلس عليها وفي لندرة لا يمكن للانسان ان يقعد إلا في بيته او في محل قهوة وبئس ذلك مقعدا . ثم التطريب بألات الموسيقى ففي باريس تضرب العساكر بهذه الآلات في عدة مواضع وخصوصا في الاحاد والاعياد وفي لندرة لا شيء من ذلك وقد عزف بها بعض ايام في احدى الغياض المتشابكة فابطلها رئيس المطارنة بدعوى انها مناقضة لنص الانجيل . العاشر وجود الدكاكين في باريس في اي موضع كان سواء كانت للاكل او الشرب او غير ذلك وفي لندرة جميع المحارات التي يسكنها الكبراء والاعنياء خالية من الدكاكين فانهم يرسلون خدمتهم الى الاسواق ليشتروا منها ما يلزم او تاتيهم المونة مرتبة من عند اصحاب الدكاكين . الحادي عشر النظرفي امر المومسات فانهم في باريس يمتحن في كل اسبوعين فاذا رأى الطبيب احدا من مريضة بالداء المعروف ارساها الى المستشفى لتداوي هناك فلا تخرج منه إلا بعد ان تمشي . فاما في لندرة فقد تظوف المومسة والداء افسد آراها واحشاها فيمكن انها في ليلة واحدة تعدي جعا . ولا جرم انه حيث كانت هذه المفسدة في المدن الجامعة مما لا يستغنى عنه وكانت هولاء المتهاككات على الدينار وقايد لعرض المحارث كان النظرفي احوالهن يعد من المصالح ولا سيما اذا ابيع لهن الطواف اثناء الليل اطراف النهار كما هو الواقع في لندرة . اما في باريس فلا يباح لهن الطواف في الليل بعد الساعة العاشرة . الثاني عشر اباحت استعارة الكتب من المكاتب السلطانية في باريس فان المعروفين عند ناظر المكتبة يمكن لهم ان يستعبروا كتابا ليطالعوه في بيوتهم ويستفيدوا منه وفي لندرة لا يباح ذلك . الثالث عشر سهولة تحصيل العلم والصنائع اما الاول فلكثرة المدارس وحسن ترتيبها ورخصها بالنسبة الى غيرها حتى ان الانكليز يبعثون اولادهم الى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله في بلادهم ما الثاني فلان لابل اذا شاء ان يعلم ابنه حرفة هنا اتفق مع احد الصنائع

على ان يقيه عنك ثلاث سنين ففي اول سنة يعطيه شيئاً في مقابلة التعليم وفي الثانية يكون شغل الولد مقابلاً لتعليمه وفي الثالثة يتبدي ان يكسب شيئاً . وفي لندرة يلزم المتعلم ان يبقى عند معلمه سبع سنين ومصرفه في خلال ذلك ثقيل على والدك . الرابع عشر الحماية الجنسية فقد اسافت لك ان حاية الانكليز لا تفيد الا لبشراء الاملاك . وهناك امر اخر غير هك تراها في باريس على احسن انتظام وذلك ككيفية تبليغ البريد الرسائل وكيفية ايقاد الغاز وتسمير الماكول والمشروب وترتيب الجمالين مما هو في لندرة مغفل او مضيع . قال بعض الفضلاء التحكم في فرنسا هو خصم المذنب فلا يصح للمفتري عليه ان يصفح عن المفتري وعند الانكليز يلزم المصروف او يطلق الجاني . وعلى كل نوع من الضرب قصاص وعند الانكليز يغرم من دون قصاص . وكل بلد هناك فله صندوق ينفق منه وآخر للايراد وله ديوان مكس على الماكول خاصة فلا تتكلف السكان بشيء . وفي لندرة يجب على السكان اصلاح الطرق وتجهيز الماء والنور وغير ذلك . في فرنسا معاش القسيسين والقيام بمصاريف الكنائس مرتب من خزنة الدولة وهنا موكل الى الرعية . هناك يرتب ديوان للتجار وآخر للجزارين وآخر لحوال متنوعة وهنا ديوان واحد . هناك طبع التجار مائل الى المناقشة والنزاع على اشياء لا طائل تحتها وهنا جل التجار متكبرون شيمتهم الضبط والرشد . هناك ترى الفقراء اعداء الاغنياء وهنا يهابونهم ويكرمونهم . هناك ترى القوانين والاحكام اقوم واحدل الا ان الذين يباشرونها ويجبرونها هنا اصلح وافضل . هناك تقضي الناس سائر اوقاتهم خارج منازلهم وهنا يعكس ذلك . هناك يطعم التاجر الكبير في ربح كثير لقلته تجارته وهنا يجتري بالقليل من الكسب لكثرة تجارته . هناك تحتفظ الاكابر بالاصاغر وهنا كل ينحاز الى شكله ونك . هناك تقتصر الشبان بالفجور وهنا باتونه اضطرارا وفي هذا القدر كفاية . قلت وهنا يخفى لي ان اقول في الانكليز والفرنسيس ما قاله الامذي في ابي تمام والبحري وهو ان الحميد من الانكليز خير من الحميد من الفرنسيات والردي من هؤلاء خير من الردي من اولئك ومآل الكلام ان عامة الفرنسيات افضل وان خاصة

الانكليز اجل وامثل . واعلم ان الفتن والمعاصم التي وقعت في فرنسا ولا سيما
فنتة سنة ١٧٩٣ قد غيرت كثيرا من اخلاق هذا الجيل فما يقال عنهم من
البشاشة والانس والاحتفاء بالغريب فليس على اطلاقه كذلك سمعت منهم .
نعم هم ابش من الانكليز ولكن هم دون اهل ايطاليا والبلاد الشرقية بمراحل .
وحيث كان لا ينكر ان ياتي من الشرخير تسبب عن تلك الفتن تهذيب
القيسين وتحسين املاتهم وقد كانوا من قبل يتطاولون على الرعية ويتسودون
عليهم فلزموا منذ ذلك الحين حدهم واخذوا في السلوك على جادة الفضائل
والماكرم فصاروا لان قدوة في كل الفضل فمنهم العلماء والبلغاء والمؤلفون في
اي علم كان واشهرهم في ذلك طائفة اليسوعيين . ثم اقتدى لان باهل
فرنسا في خفض سلطة القسيسين كثير من الدول فان سلطان الروس عطل
مائة وسبعة وثمانين ديورا ونحوه ملك بروسيا ودون بدرو في برتغال عطل
ثلثمائة دير ودولة اسبانيا الفا وثمانمائة وكذلك دولة سردينية فعسى ان
يكون هذا الامر نصحا مفيدا لروساء الديانة في الشام ومصر وغيرها فيصالحوا
من شانهم ويتداركوا ما فرط منهم من الخلف والاثرة والافتئات اويقصدوا
بتقسيي بلاد فرنسا في تعليم الرعية وتعاهد احوالهم والاقبال على المآثر التي
هم اولى بها من غيرهم لان منع الكنيسة اهلها من الزواج لم يكن الا لغاية
تفرغهم للتعليم والافادة والا فان الزواج في نفس الامر غير معيب لكنا نرى
لان اهل الكنيسة قد تزوجوا التواني والنزاع وتشاغلو به اكثر من تشاغل
الزوج باهله . ومن الشين ان يكون الراس معلا ويحمل الجسم على ساوك
مذهب الصحة والسلامة جبر ان قسيي الفرنسيين والانكليز بالنسبة الى
قسيي بلادنا فلاسفة فان احدهم لا يكتفي بالبراعة في لغته فقط بل يتعم
ايضا حدة لغات وجملة فروع من العلوم فلا تكاد تذكر له اسم كتاب الا
وينتثك عن مولفه وعن موضوعه ومما يحمد منه او يذم وها ان قسيي
بلادنا ليس عليهم الا ان يتعلموا لغة واحدة ومع ذلك فهم لا يحسنون ان
يولفوا فيها كراسته واحدة الا مع اللحم والخطا بل المطارنة ايضا تالحن بما
يالحن به البقال والزيات . لعدي لو ان مطران باريس كتب مثلا منشورا

ماحونا لرايته ثاني يوم منشورا برمته في صحف الاخبار مع انتقاده والتنديد
بجهل مولفه بل ربما اجروه في بعض ما يمثلونه في الملاهي والحاضر.
وحيث ان الناس شرعوا الآن في التمدن والعلم ولا سيما في البلاد الشامية
فاحرى لاهل الكنيسة ان يسابقوهم في هذه الحلبة المفضية الى احراز سبق
الفخر والثناء ولا فان اعتبارهم يسقط من عيون الناس ولا سيما عند الذين
فاقوا عليهم في المعارف والمناقب المتفرعين عن العلم فان العلم اساس كل
محمدة والعالم عند الله والناس افضل من الجاهل . ولعل كلاي هذا ينبج في سن
يقرع الى الحق ولا ينسبه الى الفصول او اساسة الادب فان النصيحة من
الدين * وهذا ولما كنت ذات يوم مفكرا في وحشة الغربة ومقاساة تعلم
اللغة بعد ان ولي عني نشاط الشباب ولاهلية الى الاحتكاك اذا بالليب
اللوزي والفاضل العبقري ذي القسامة والشادة الخوري غبرائل جبارة دخل
علي وفي طلعت من البشر والطلاقة ما يترجم عما انطوى عليه من حسن
الاخلاق فان الخلق كثيرا ما يكون دليل الخلق . ثم بعد ان دارت بيننا
كوس المناقشة قال لي اني - اود ان اذهب الى انكثرة فهل لك ان تكون
لي رفيقا فاني اجهل لغة القوم واحوالهم والان يذهب الناس اليها من جميع
الاقطار لمشاهدة معرض التحف بلندرة وهو المسمى عند الفرنسيين اكسبوزيسيون
فاجبته الى ذلك وسافرنا من باريس الى كالي وذلك في تاسع شهر
جون ومنها الى دوفر * ودوفر هك اول ما نزل فيها يوليوس قيصر حين غزا
بريتانيا وذلك في سنة ٥٥ قبل الميلاد وفيها قلعة قيل انها من بنائه على
خلاف ومدفع يعرف بداغري (من « داغ » طنبجة) جيب الملكة اليباب
اهدته اليها دولة هولاندة وهو مدفع عظيم من نحاس طوله اربع وعشرون
قدما . ويومئذ طلب منا ابراز الجواز وذلك لكثرة الذين كانوا يردون الى بلاد
الانكلير . ثم سرنا الى لندرة فوجدت اجرة المساكن وثمان الماكول والمشروب
على ضعفي ما كنت اعهلك وثاني يوم وصولنا وقع من المطر والبرد ما لا يقع
في الشتاء - حتى زعمنا الغزالة من طول المدى خرفت - . ثم توجهنا الى معرض
التحف وكان سبب انشائه ان الفرنسيين كانوا عقدوا مجلسا في باريس

سنة ١٧٩٨ لاجل عرض بدائع الصنائع ثم تكرر ذلك مرارا حتى اغرى الانكليز
 بعد اكانهم في انشاء موضع تجلب فيه التحف والغرائب من جميع البلاد
 وذلك في سنة ١٨٥١ وكان قد استقر الراي اولا على ان يبنوه من الاجر ولكن
 لما كان مقصودهم به انما هو الى مدة قصيرة ارتأوا ان يبنوه من الزجاج
 فحسبوا ان نفقته تبلغ سبعين الف ليرة اذا كان ينقل ويتفع به وإلا فحوا
 مائة وخمسين الفا فتبرع في العطاء لانشاءه اكثر من مئة الف من الانكليز
 بدي به في جولاي سنة ١٨٥٠ وفتح في اول مايه سنة ٥١ وجعل طوله ١٨٥١
 قدما على مقدار عدد السنين وعرضه ٤٠٨ اقدام . وفي اول شهر مايه دخلته
 الملكة وزوجها . وقد جعل نصفه لبضائع بلاد الانكليز واربعة وسكوتلاندة
 والنصف الثاني لسائر الدول وكان يعطى لكل وكيل دولة موضع وهم يعنون
 بوضع الاصونة والبخادع لصون بضائعهم وتحفهم واذا اشترى احد شيئا منها
 لم يكن يخرج الا بعد انقضاء المدة . وكان في بنائه من الحديد اربعة الاف
 طن وسبعة عشر فدانا من الزجاج في سقفه ما عدا الف وخمسمائة طاقة
 وبعد انقضاء مدته بيع بسبعين الف ليرة ونقل الى سدنهايم وجمع لتنظيمه
 وتركيبه هناك نصف مليون ليرة ثم زادت حتى بلغت مليونا وكان يشتغل به
 من العملة نحو ستة الاف واربعمائة . وكان احقر موضع فيه هو الموضع
 الذي نضد فيه ما بعث من دولة مصر وسبب ذلك فيما بلغني ان البرنس
 البرت لما ارسل كتابا الى جميع الدول يخبرهم بهذا المقصد وطلب اليهم ان
 يرسلوا من بدائع صنائع بلادهم ترجمت لعزيم مصر لفظة الصنائع بالارض اذ
 كانت صورة الخط فيهما متقاربة تتقاربا في النطق فان مرادف الصنائع
 في الانكليزية « ارتس » ومرادف الارض « ارث » فلذلك لم يبعث من مصر الا
 القطناني وبعض اشياء اخرى لا طائل تحتها . وقد راينا في هذا المعرض حلى
 الملكة من جلتهى ثلثة هجارة من الماس قدر الكبير منها نحو جوزة تبلغ قيمته
 فيما قيل ثلثة ملايين . وكان فيه ايضا صوان لحلى ملكة اسبانيا وتحف
 اخرى بديعة لم ير مثلها قط من جلتهى فرو لسطان الروس قيمته ثلثة
 الاف ليرة ومرةاة لم يصنع اكبر منها في العالم باسرة . واول سن صنع المرةاة

كما هي الآن اهل فينيسيا وذلك في سنة ١٣٠٠ وكانت تصنع قبل ذلك من النحاس ولم تعرف في انكلترة إلا في سنة ١٦٧٣. فانظر الى التمدن كيف يفعل وإلى الايام كيف يداولها الله بين الناس . وكان فيه آلة تصنع الفين وثمانمائة مغلف للكتب مصمغة مطوية في ساعة واحدة وآلة تصف حروف الطبع بنفسها ونحو مائة وسبعين نوعا من التوراة والانجيل . وكان يجتمع في هذا البحل كل يوم نحو ستين ألفا يودي كل شلينا . وكان يوما الجمعة والسبت مختصين بالكبراء والاعيان . ويقال ان الملكة دخلته يوما فاعجبها ثوب مزركش في محل البضائع التركية فسالت قيمه عن ثمنه فقال : عشرون ليرة . فقالت : هذا غال جدا . ويقال ايضا ان الفرنسيات احرزوا قصب السبق في كذا وكذا نوعا من الصنائع . والمشهور عند الناس عموما ان الانكليز في الاعمال القينية امهر منهم والله اعلم * وغاية ما اقول ان كل ما يصنعه الفرنسيين يظهر عليه الرشاقة والمشق والطلاوة وما يصنعه الانكليز يكون جزلا متينا حتى ان هؤلاء في تصويروهم السخري يصورون الفرنسيات نحافا ضعافا واولئك يصورونهم ضخاما جساما . فاما صنعة الطبع فلا شك انها عند الانكليز اتم واحسن . وهم يقولون ان الاختراع من شان الفرنسيات لكن الاتقان والاحكام من شانهم . ومن الديار العظيمة التي فتحت للمفكرين اوان المعرض دار دوق نرثمبرلاند وهي دار عظيمة البناء والفرش والاثاث فيها تصاوير نفيسة وتحف غريبة حتى ان اطرمواقدها كانت من فضة بدل الحديد . واعلم ان هذا المعرض لم يفد الانكليز فائدة مال الغرباء فقط بل افاد ايضا اهل الفظاظ منهن حسن المعاشرة والجمالة نوعا ما فانهم كانوا قبل ذلك على غاية النفور من لحي الغرباء وشواربهم . ثم سرت الى حديقة فمكس هال المشهورة ورايت المنطاد وهو المعروف بسم البلون وهو قبة في كبر النخمة على شكل الاجاص تصنع من الجريد المدهن ببعض الازهار ويملا دخله غازا وذلك بان يجعلوا باسفله قربة من جلد متصلة بانبوبة من حديد يدخل فيها الغاز من موضعه ويجعلون له مثل الشبكة شاملة له وبها ينوطون اكياسا ثقيلة فكلما امتلا جانب منه من الغاز خفضوا الاكياس

حتى يوتقع فمقي امتلا كله زموا فمه من اسفل وربطوا به نحو ناوس من خشب او غيره ليقعد عليه سن يتولى امرة وسن شاء ان يسافر معه . ثم يزيحون الاكياس ويطلقونه فيندفع صعودا ومديره تحته . وربما اقتضى للملحة عدة ساعات فاذا اراد مديره ان يخفضه اداره بحبلين متصلين به هما كاللعنان له فينزلنه حيث شاء اللهم اذا كانت الريح عاصفة تغلبه فربما القته على محل غير مقصود . إلا أنهم لا يصعدونه غالبا إلا في يوم ذي سكون . وما يقال من الناس يصعدون ويسافرون في البالون فليس المراد بذلك انهم يدخلونه فان داخله ملان من الغاز اذا الم به نور او نار تميز كله فاحرق ما حوله وانما المراد انهم يقعدون تحته وربما اخذوا معهم حصانا ونحوه . وقد رايت منطادا آخر انبسط تحته امرأتان وكان راس احدهما تحت قدم الاخرى وقيل انبساطهما على هذه الحالة جبهوما عن اعين الناظرين بنحو خيمة ثم لم نشعر إلا وهما في الجو ونشيران بالمناديل . وقد ظهر في باريس سن ادعى بانه يقدر ان يصنع منطادا من الخشب على شكل سفينة ليكون اوعب للناس واسلم عاقبة وبعد ان تصدى الى ذلك وركب هذه الالواح لم تاذن له الدولة في ان يجرى ذلك فعلا بالقرب من باريس مخافة ان تقع السفينة على الناس فتقطعهم وحيث لم يكن غاز إلا فيما وليها حبط عمله . وقد رايت هذه السفينة وظهر لي ولغيري عدم امكان اصعادها بالغاز طولها وضخامتها غير ان منشئها كان ذا لسان ذلق فكان يموه على السامعين احتمال ذلك واطن ان ما خسره في صنعها ربحه من المتفرجين . واصل انشاء المنطاد كان في فرنسا سنة ١٧٨٣ وكان الناس قد ذكروا من قبل ذلك شيئا يشبهه ولكن هذا اول ما عرف . وفي سنة ١٧٨٥ صعد فيه رجلان على ان يسافرا من بلون الى انكلترة فاحرق فهلكا . ومن هذه الادوات ما يصعد في الجو مسافة ثلثة وعشرين الف قدم ومنها ما يدوم في الهواء ثمانى عشرة ساعة . واول سن صنع المنطاد في انكلترة السنيور لونا ردي وذلك في سنة ١٧٨٤ وكانت مادام بواتشيان تصعد تارة وهي قاعدة على ثور على شال اوربا وتارة على جواد فكرة بعض الناس منها ذلك لكونه من ظلم الحيوان وهو ممنوع فكفت

عنه . فاما كيفية ادخال الغاز في انبوبة المنطاد وكذا في الانابيب التي
توصل الانوار في المدن فهو ان يوقد الفحم في موقد مخصوص ويجعل فيه
قصب من حديد متصلة بالديار والدكاكين فيحصر روح الفحم في تلك
الانابيب فاذا ادنيت نارا من راسها اشتعلت وبقيت كذلك إلا ان تطفئها .
ونورها اشد سطوعا من نار الزيت والنفط والشمع وليس له دخان لکنه
قوي مضر بالعين . وقد ارى ان غاز باريس اشد صمآء وياضا من غاز
لندرة ويمكن ان يكون ذلك لصفاء جوتلك وسياتي الكلام على الغاز ومخترعه
وفوائده في وصف لندرة ان شاء الله تعالى . ثم خطر ببالي ان اطلب من
وزير الامور الداخلية بلندرة حاية جنسية لكوني اقممت في مالطة عدة
سنيين وفي بلاد الانكليز بضعها فكتبت اليه عرضا فجاء الجواب مودنا بان
اكل ذلك الى فقيه من فقها الشرع اذ لا يصح معاطاة امر من الامور الشرعية
إلا بهم كما انه لا يصح معاطاة مصالحة كبيرة من المصالح المتجربة إلا
بواسطة السماسرة . وكان مما لزمني مباشرته في ذلك ان اخرج للفقهاء اربع
شهادات ممن لهم يوت وملك من الانكليز تؤذن بصحة ما اقول ففعلت .
واعلم ان الحصول على نوع هذه الحماية لا يتوقف عند الانكليز على عدد
سنيين يلبثها الغريب في بلادهم وانما هي منته من قبل منحولها ولو ان انسانا
لبث في بلادهم عشرين سنة ولم يكن حسن التصرف والسيرة لم يستحقها
وجل نفعا انما هو تاهيل صاحبها لان يشتري في بلادهم املاكا كالديار
والعقار والسفينة وما اشبه ذلك وعليه ان يحلف ان يتخذ دارهم وطنا له
فاذا استوطن غيرها فللفنصل المقيم هناك ان ينكره . اما حاية فرنسا الجنسية
فتتوقف على عشرينين ولكنها تكون بعد ذلك حاية ورقاية لصاحبها في
كل مكان وزمان . ثم ان التملك في انكلترة على اربعة انواع . الاول ان يكون
شيها بالاجارة الى مدة معلومة من السنيين . الثاني ان يكون الى تسع
وتسعين سنة . الثالث الى تسعمائة وتسع وتسعين سنة . الرابع الى الابد
والثاني هو الاشهر . وهك ترجمة الحماية . اني اشهد ان فلانا المقيم لان
في طريق كذا في خط كذا الكائن في اقليم كذا من اعمال بريتانىة الكبرى

من حيث انه عازم على استيطانها عرض عرضا لي انا سرجورج كوي بارونت
احد رؤساء كتاب الدولة مضمونه انه من بلد كذا ومن رعية الدولة
الفلانية وله زوجة واولاد وحرفة كذا وان في عزمه ان يبقى ساكنا في هذه
المملكة والتمس مني حالة كوني كاتب الدولة هذه الشهادة المذكورة وحيث
اني بحثت عن حقيقة الحال واتاني من البيئة ما اعتقدته ضروريا لاثبات
صدق ما اودع في ذلك العرض فالان بموجب الاستطاعة والسلطان الذي
فوض الي حالة كوني كاتب الدولة في الحكم الفلاني اعطي فلانا المذكور
عند اجراء اليمين المذكور في ذلك الحكم جميع الحقوق والاهلية الخاصة
بمن يكون مولودا من اهل بريتانية ما عدا اهلية ان يكون عضوا من اهل
الديوان الخاص او عضوا من اعضاء مجلس المشورة وما عدا الحقوق والاهلية
الخاصة بمن يكون مولودا بالطبع من اهل بريتانية خارج الممالك المنسوبة
الى التاج البريتانيوي وما يليها . اه . فقد علمت ان اعطاء هذه الحماية لم
يتوقف على سني لاقامة وانما هي لنواله كالوسيلة . ثم اني لما رايت ان
الفقيه لا يقدر على اخراجها الا بعد مدة ولزمني العود الى باريس طلبت
منه انه اذا حان انجاز هذه الطلبة يعلم بها كاتب الجمعية ورجوت من
هذا ان يبعث بها الي في باريس ثم سافرت وبعد ايام ورد الي خبر بقبول
ملتسمي ولزوم حضوري لاجراء اليمين فسافرت الى مدينة هافر فبلغتها
بعد نحو سبع ساعات ومنها الى سوثمبتون وكانت ليلة مشوشة فقد ثار
علينا النوء حتى كانت السفينة تتقلب في البحر كالسمكة مع ان الوقت كان
صميم الحر وكان من همي قبل كل شيء اجراء اليمين . وهكذا ترجمتها . انا
فلان اعد واقسم صادقا بانني اكون امينا ومخلصا الطاعة لسعادة الملكة
فكطورية واحاي منها بغاية جهدي وطاقتي ضد جميع من يتحالف عليها
او يهجم بسوء عليها سواء كان على شخصها او تاجها او شرفها وابذل غاية
جهدي في ان اكشف لسعادتها ولورثتها ولمن يخلفها جميع الخيانات
والخائنين والمتغابين عليها او عليهم واعد بامانة اني ابذل غاية استطاعتي
في ان احفظ واسند واجبر خلافة التاج المعبر عنه في الاحكام بحكم كذا الخ .

ثم عدت الى باريس واتفق حينئذ ان تولى السلطان الانبي ضبط الامور
السياسية وهو يومئذ رئيس مجلس الشورى وقهر مناورته وحاسك فاشار علي
بعض معارفي ان امتدحه بتقصيدة فانه ذو المام بالعربية وله اطلاع على
لغات كثيرة فظمت له هك القصيدة وهي *

من شان اهل الهوى ان يفرطوا الغرلا * قبل المديح والّا يندبوا الطلبلا
اما النسيب فلا حساء تشغلني * اذ قلب ذي الحسن عن حسن الوفاء خلا
بلى انا ناسب وجدا بطيف كرى * ما كنت اعرفه من قبل ان وصلا
اقى على غرة والليل معتكسر * من صبغ هني وما جنح له نصلا
وهتمه غادة جاءت تغورنسى * فحين صحت به مستكرا جفلا
ان لم انم لم يزر ايضا وان هو لم * يزر فما ناظري بالغص مكتحلا
يا حسنه زائرا ما شانك صلف * ولا يرى شانفا كالخود او شكلا
عف نزيه خفيف اللبس يبعك * وكم جيل به خال قد اشتغلا
حلوا الشمازل لا طرفا يمسك ولا * عتبا يدل ولا مستحقا بسدلا
لا يزدنيه ريش حين ترمقه * كانما هو طاووس به رفسلا
ولا يهوج بسر اذ يبس ولا * يكون امعة مع كل من بسدلا
رقت بحاسنه حتى استرق بهما * قلبي وقد جعل التذكار لي شغلا
دعني وشاني فما ذو المجد تشغله * شكوى الهوى انها شغل لمن هزلا
سن رام ماثرة فليمدحن رجلا * بين الرجال يراه وحك الرجللا
لويس نابوليون الراق منزلة * في الملك ما ان يرى الراعي لها مثلا
سن ذا الذي ليس يثني في الانام على * سن في المكارم والعبد السني عسلا
وليت شعري هل في الكون من لغة * تحوي كلاما يوفي حق ما فعلا
لولا باتت فرنسا في معامع لا * تكاد تطفئها هرب ونحر طسلا
لما تفرقت الاراء واجتمعت * نار النوايا وطن الخطب قد عضلا
تدارك الامر لا عيا ولا فشلا * ومن بالعفولا عجزا ولا مللا
وبت بالملك والتدبير مشغلا * وبات حاسك بالياس مشغلا
حق على الناس ان يدعوا له ابدا * فان معروفه كلا لقد شغلا

وديف لا وهي عرش دوله سبب * يدبل في غيرها الاملاك والسدولا
 فكان تديره للارض قاطبة * امنا وهذا الذي كل البوري املا
 وحرمة الدين لولا عزمه انتهكت * وعرضه صار بعد الصون مبتذلا
 فعال من تمسك الدنيا بساعك * والدين خيفة ان يستقبلا زليلا
 يرى من الامور حزما في اوائله * ما غيره عنه في صيورة وهلا
 فما قضى قط الا وهو ذو ثقته * ولا نوى خطة الا وقد فسه لا
 ولا تخلل وعد توافي عهده * له وانجازها بل قلها سئلا
 فانما هو يولي العرف مبتدرا * والعفو مقتدرا والامن مرتجلا
 فما انا قائل ما قال بعضهم * يرتاح عند سئوال العجدي ثملا
 فان ذي شيمته فيه ملازمة * له وما احذ عن شيمه انتقلا
 من بشر طيعته بشرى لناظرة * ومن تقوه توكيدها حصلا
 تلقاه مبتسما والحرب دائمة * ونافلا وسواه لا يمين بسلا
 يزين باريس مرآة وهمتهم * حتى ترى لملوك العصر ذا نيزلا
 وكل ايامها تغدو مواسم اذ * لم يبق حسن بها الا وقد كمللا
 ما لاح من باعث فيه لها دعته * الا وبادته من يومه عجلا
 له الولاية حتما لاعدال اذا * فان خير ملوك الارض سن عدلا
 لئن مضى عنه ذاك الهمام فقد * ظلت معاليه في جيد الزمان حلى
 اكرم بفرع زكا عن دوحته سبقت * كل الى ظلها الممدود قد والا
 لله يوم به مادت عساكرة * من حوله كجبال تنبت لاسلا
 كانه البدر قد حفت كواكبه * به وما من سها من بينهم ضولا
 قد كاد يذهب بالابصار لمع سنا * سلاحهم بيدي النصر قد صقلا
 ما ان ترى فيهم عينك اذ برزوا * الا فتى فارسا او راجلا بطلا
 نالوا من الشرف الاوفى بطاعتهم * ما لم يذر احدا عن اثره عطلا
 ولو خلوعن سمات فاسمهم لهم * مغن فما احد اجلاله جهلا
 في رايه النسر لکن فوق موقعه * من السما رايه المربي على زحلا
 قد كان في دارة المربح حشدهم * لكن لسلم فكل راح ممشلا

فمكنت تسمع من ضرب الطبول ومن * رعد المدافع يوشي صاهلا زججلا
 وزهر فار من البارود قد طلعت * في ليلة ذات دجن نجمها افلا
 يرى العجسي فيها حجة وهدي * على السجود لها اني نعم جديلا
 وادنت زهرا بجعل اسم الامير بهسا * كان جثمانه فيه قد امشيت
 وعاد والخلق قد طابت خواطرهم * وبالدهاء له كل قد امشيت
 والسعد يقدمه والعز يخدعه * والله يعصمه ما سار او قفلا
 فليأتين كل ذي ملك بهنسه * وسن دنى حسدا فليبعثن رسيلا
 وليعلم الناس ان ما خاله جلا * سواه كان عليه هينا جلا
 كن يا امير المعالي كيف شئت فمن * يتصد رضى الله لم يحط له عميلا
 وسن تحرى سبيل الرشيد فاز وسن * اطاع داعي الهوى لم يدرك الاميلا
 هذى الممالك والاملاك غايطة * هذى التواريخ يدريها الذي عقيلا
 فاقند شوارد احوال برمتها * ورض صعاب امور تلقها ذليلا
 وقد يسر الله لي نظم هذه القصيدة في يوم واحد الا انه بقيت الصعوبة في
 تقديمها لاعتساب الممدوح حيث لم تجر العادة عند ملوك الافرنج بل
 يقرأوا قصائد مدح فيهم ولا غيرها ايضا مما يخاطبون به وانما يقرأ ذلك كله
 كتاب اسرارهم وهم يحلوون عنها المخاطب بحسبما يرونه صوابا . وفي
 الجملة فان نظم القصائد سواء بالعربية او غيرها اسهل من تقديمها للمدح
 من ملوك الافرنج . وقد كنت مدحت ملكة لانكيز قصيدة وقدمتها
 لضابط البلد وهو وكل بهسا زوجته لتهدئها الى بعض الخواتين القائيات
 بخدلتها وترجتها ايضا الى لغتهم والى لان لم ياتني منها جواب ولا اعلم هل
 وصلت او لا . وكل سن تعام لغات الافرنج من لية الترك واشرافهم
 سلك هذه الطريقة . فاني نظمت قصيدة في ولي باشا سفير الدولة العلية
 في باريس واخرى في نامق باشا واخرى في محمد علي باشا ولم تنتج
 احداها سليا ولا ايجابا بل ضاعت الاوليان واضاعا علي كراسين من ديواني
 ذهب كل منهما بالكراس الذي اشتمل عليها . ولم يكن مقصودي بهذا المدح
 سوى نهمة الشعراء المعديتة الى تحمير ديوانهم بقولهم وقيل بمدح الملك

وقال يمدح لأمير . ثم انه لا شيء افطع عند الافرنج من ان يروا في قصائد المدح تغزلا بامراة وصفها بكونها رقيقة الخصر ثقيلة الكفل نجلاء العينين سرداء الفرع وما اشبه ذلك فشعرهم كلهم خصي . وافطع منه التشبيب بعلام . واقبح من هذا وذات نسبة شيء من صفات المونث الى المذكر كقول الشاعر - كان ثدياه حقان - * ولما ترجم موسيو دو كات قصيدتي التي مدحت بها المرحوم احمد باشا باي والى تونس وطبعها مع الترجمة كان بعضهم يسألني هل اسم الباشا سعاد وذلك لقولي في مطلعها - زارت سعاد وثوب الليل مسدول - . فكنت اقول لا بل هو اسم امرأة فيقول السائل وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا . وهو في الحقيقة اسلوب غريب للعرب * قال العلامة الدسوقي اعلم انه قد جرت عادة الشعراء انهم اذا ارادوا مدح انسان ان يذكروا قبله الغزل لاجل تهيج القريحة وتحريك النفس للشعر والمبالغة في الوصف وترويح النفس ورياضتها . اه . قلت كما ان الافرنج يتكرون علينا هذه العادة كذلك يتكرون البالغة في وصف الممدوح فانهم اول ما يشتدنون المدح يوجهونه الى المخاطب ويجعلونه ضربا من التاريخ فيذكرون فيه مساعي الممدوح ومقاصده وفصله على سن تقدمه من الملوك بتعديد اسمائهم اما تشبيهه بالبحر والسحاب والاسد والطود والبدر والشفق فذلك عندهم من التشبيه المبثذل ولا يعرضون له بالكرم وبلان عطائيه تصل الى البعيد فضلا عن القريب فهم اذا مدحوا ما وكهم فانه يمدحونهم للناس لا لان يصل مدحهم اليهم ومع علمي بهذه الحال لم يمكني مقاومة نزعة النهضة العربية الى تقديم القصيدة المذكورة ولا سيما لما سمعت بان الممدوح يعرف لغتنا فاجتمعت بالفاضل اللبيب والصدوق لاديب الخواجا وفائيل كحلل وطالعته في ذلك فقال انا اعرف وسيلة لتقديمها ولكن ينبغي ان ترجمهما الى اللغة الفرنسية فان معانيها لا تضيق بالترجمة اذ هي منسوقة على نسقهم لولا الغزل بالطيف لكنه شيء عدي ولا سيما انك اشرت في مطلع القصيدة الى انكار الغزل قبل المديح . فمن ثم ترجمناها واطمنا عليها احد ادبائهم فقال بل لاولى ان ترسلوها غير مترجمة فان السلطان منك تراجيح

يتزجمنونها له فقدمت كما هي وبعد ايام لم نشعر إلا والبريد يطرق الباب
واذا بيلك رسالة من كاتب السلطان باسم الخواجا المذكور وباسمي مضمونها
ان القصيدة بلغت جنابه العالى وحسن موقعها لديه وانه يشكرنا على ذلك
شكرا جزيلا . والخواجا كحلا المذكور اخلاق حسنة وشيم مرضية واطلاع على
لغة القوم حتى انه ينطق بلهجتهم سواء بل طلعته ايضا كطاعتهم . ومن تعرفت
به ايضا من اهل بلادنا في باريس الخواجا حنا الباردي الذي بعثه عزيز
مصر لتعلم اللغة والحساب والادارة وهو ذو مناقب تشهد له بالفضل تعلم
اللغة وبرع فيها ونال عند المشار اليه وجاهة وحظوة . والخوري عبد الواحد
الكلداني وهو مشهور بالكرم وحسن التصرف وله عند مطران باريس منزلة
رفيعة . والخوري نرسيس القازنجي له اطلاع على كثير من اللغات لكنه
غير متمكن منها وقد قضى نحو خمس عشرة سنة في تاليف كتاب جامع لاربعة
لغات او ثلاث والى الان لم يبرز الى الوجود . وقال لي يوما ان فلاسفة
باريس لا بد وان يخترعوا دواء لمنع الموت ولعل امله هذا هو الذي ثبت
عن انجاز كتابه . فاما الخوري زغيب فانه داخل في سلك التجار فلهذا
لم اراه . وفي الحقيقة فان باريس لا يحق لها ان تشكو من معزقي اهل بلادنا
ومن مدجليهم . ثم انه في خلال هذه الاوقات استقل السلطان المشار اليه
بولاية الملك ولقب بالامبراطور فنزغني نازغ اخر من — وقال يمدح
الامير — الى ان اهتم بقصيدة واقدمها على يد رئيس تراجين بابيه
الكنت دكرانج الذي مر ذكره فلما فرغت منها قرأتها عليه . قال ليس من
هذه الصفات التي نسبتها الى السلطان ما هو مختص به وحك فانه يصلح
لان يخاطب به اي ملك كان وهي مع ذلك عويصة لا يمكن ترجمتها ولو
قدمتها كما هي لما استحس منها غير الخط والشكل فقط فلهذا اضربت عن
تقديمها وشكرته على نصحه ولكنني لا اضرب عن قيدها هنا حتى يتفتح بها
بطن هذا الكتاب وهي هك *

للويس نابوليون حق السورود * والملك اذ هو في المعالي اوحده
فلتقدم لاملاك داعية له * بالتهنئات وشانه فليجمدوا

بشري لذي ملك يزور نديسه * ولمن ينبا عدله فيقلد
 ولمن يبايعه ويشري نفسه * بولاته فجزاء مد يد يد
 نظر الزمان بسعيه ابطاءه * من قبل فاستحيا فاقبل يحفد
 فجلا لنا في ظرف عام منه ما * لم يجمله للناس دهر سمرمد
 امن الورى في ظله وتنعما * والى الترفه والتترف اخلدوا
 حتى خشوا ان البلاهة من دوا * عيها باهنية وعيش ارغمد
 يتهمجد العافون امنا وهو من * شفق على اغفائهم يتهمجد
 اصحى لهم من بعد انواء العنا * عيش بطالع سعل لا يهمجد
 تنسي الثواكل حزنهم فعاله * فهي التي ما بينهم تعدد
 ضبط الامور بحزمه واقتدها * فيما حباننا اليوم ياتينا غمد
 قيد الاوابد رايه ما حادث * عنه يند ولا قديم يرشمد
 وضجيعه الفكر المنير يريه ان * اصحى فينهض للامور يفرمد
 ما بعد ان ظهرت مكارمه يري * احد يلوم لغانت او يكند
 عن حلمه تروي الشهود لغائب * وبفضله كل البرية تشهد
 هذي المآثر فاهدوا بمنارها * يا ايها الثقلان ثم به اقتدوا
 هذي المفاخر فاتنا بمثالها * يا سن مديح ملوك صرحت تنشد
 يستسهل الراون مطلع صاعد * شرفا ولكن ما كذا من يصعد
 ويروق مخر المنشئات لناظر * ما خاض لج اليم وهو يهدد
 قل المشبه قد غويت فهاتنا * بنظيره ان كنت ممن يرشد
 لا تدرك الابصار لولا الشمس ما * جرم الهباء ولا يراها ارممد
 هبنا اسمه حتى نجل سميته * حبا به ولنا اليه تورد
 فات الملوك فخارة فرضوا بان * يدعوا ببعض صفاته كي يسعدوا
 ولربما حاكي السراب الماء عن * بعد واطما سن اتاه الموردد
 يا سن تولى عرش عز صانعه * ذو العرش وهو بما جباك مويد
 شرفت تاج الملك حين رضيته * وازداد وهو عليك فخرا يخمد
 فجلت فرنسا طلعت كانت لها * ايام عملك عبك المستعبد

ما زال مذ عرف الورى املاكهم * يطا الممالك من جهاها سيد
 فاسلم فقي يملك غبطة املها * وبعزها الارضون طرا تنجسد
 دم افقا قدرا ورايك ارشيد * ومسابقا فخرنا وجدك اسعد
 وفي غضون ذلك شرعت في تاليف كتاب الفاريان الذي نشر طبعه الخواجا
 وفائيل كخلا الموما اليه وبعد ان طبع منه عدة صحائف اقتضى لانجازه
 سبك حروف جديدة فانتظرت مدة حتى اذا قنطت او كذت اقنط من
 ذلك وكأنت نفسي قد تاقث الى ققع لندرة وقعاها سافرت على نكط
 فتعرفت حينئذ بالخراجا مهايل الخلع فقد كان قدم الى لندرة لمعاطة التجارة .
 ومما اعجبني منه كرمه وسعة اطلاعه فقلما يزد ذكر شاعر الا ويروي عنه
 او نكتة ادبية الا ويسردها - اقام في لندرة عاما ونيفا وسافر عنها وهو يدري
 جميع احوالها . وقد اهداني نسخة من كتاب كلستان الذي ترجمه اخوه
 من الفارسية الى العربية فلما تصفحه وتاملته حق التامل طهر لي ان خبره
 دون مخبره اذ لم اجد فيه من المعاني المبكرة ما اوجب احتفال العجم به
 هذا الاحتفال العظيم فانه عندهم بمنزلة مقامات الحريري عندنا غير ان
 عريته فضيحة . فلما قابلته المرة الثانية وجرى ذكر هذا الكتاب قلت له
 لقد طالما سمعت بذكر كلستان غير اني لم اجدك يستحق هذه الشهرة وقد
 حدثني نفسي بان انشي كتابا على نسقه التزم فيه الهزل قال فافعل فانفدت
 في اليوم القابل هذه الحكايات لاثية ولما قرانها عليه وقت الاجتماع قال قد
 افطرت في تخديده وعوفوق ذلك واني الا التنويه به . هذا ولما كان باب
 الانشاء قد ارتج علي بلندرة لكثرة قعقعة العواجل والحوافل فيينا بحيث لا
 يمكن لسماعها ناء الليل والطراف النهار ان يجمع افكاره او يشكر معنى حسا
 حق لي ان اتبجح بان اثبت هنا ما كتبت محاكيا لصاحب كلستان وهو
 - حكاية - رايت قوما يشاقبون حشدا . ويتزاجون حفدا . فمن
 بين ضابط جاره . ومهطع كانه يشن الغارة . فقلت تالله ما اجتمعت هذه
 الجماعة الا لامر عظيم . ولا قصدت الا مقصد خير عظيم . ثم قلت في نفسي .
 بعد استصواب حدسي :

أنهض الى المكرمات مستبقا * ولا يهـ ذلك عائق عنهما
وان تجدد عصبة سعت جهة * فاسع اليها ثم استغد منها
فجاريتهم وانا اظن اني اكون اول الفائزين * ومقدام البارزين * فلما
بلغت حلقة الرجال * وكانوا ما بين حزقة وطويل وطوال * خرقت صفهم *
وحزقت مصطفهم * واذا في وسطهم خطيب * كنت اعرفه مذ * يد غير
قريب * فاول ما وقع عليه الطرف * وأنست منه الطرف * قلت له
السلام عليك يا خطيب يا امام * فاجابني بديها وعليك السلام *
- حكاية - بينما كنت اطيوف في مدينة القاهرة * وانظر ما فيها من
الحاسن الباهرة . واحدق في وجوه الشوافن * في الرواشن * اذ لحت في
روشن غادة فاقت النساء بالطرف والجمال * والصباجة والدلال * فقلت
منشدا * وانا على غير هدى :

بالله رقي لمعــــــــــــــــرم دنف * قد اسلمته الى البلي عينه
تصدقي بالوصال علك ان * تشفيه فلقد دنا حينه
ثم غشي علي من شدة اللوعة * ثم افقت طمعا ولم ابرح اسير الهوى
وطوعه * وناديتها بلسان مبين * الا اني اليك من التائقين العاشقين
الخاصعين * فقالت واني لك لمن السافقين الصافعين *
- حكاية - كنت امشي في اسواق الاسكندرية * وعرضني لالسنه
الناظرين الي كالدريه * اذ كنت لابساً نعلا بالية وثوباً صفيقا * وقد
انحل حزامي فكان يكس البلد طريقاً فطريقاً * فصادفت عجوزاً تاحظني
فقلت علام القوم يصحكون * وفيهم بينهمكون * فقالت وقيد قهقهت *
وعن انيابها التهمشمة جلقت * من مكنتك هذه الحرير * وطورك الذي
لم ير له نظير * فقلت :

سن اجب المعروف فيكرم الصبيـف يابناسه وابلاغ سوله
ليس يبغي قرى ولا بذل مال * منتهى ما يوم في تاهيل
فقالت اما ان شئت ان نقول لك اهلا وسهلا * فانت ادنا موهل ومسهل ولا
فلا * ثم هرولت عني وعن عيني اخفت * فانتعها اللعة التي بها التخت *

- حكاية - قصدت الرشيد * لما فيها من الحظ العتيد * والحدائق
الناصرة * والمسارح السارة * فلما دخلتها لاح لعيني غلام كالقمر * يخجل الحور
بالحور * فتفألت بنصرتة * وعجبت من عدم شهرته * فانشدت بمسمع منه *
لبعض الناس فعل دون ما اسم * وبعضهم له اسم دون فعل
واردت ان افصح معكم الكلام * فاستدلت منه على الحمام * فقال لي
بلمجة فصيحة * وعبرة صحيحة * انت جنب مذ خروجك من البيت
او في الحال فقلت

ان كان يملكك امطناعي عاجلا * فافعل ولا تسال عن الاسباب
فلربما اخرت معروفنا ومــــا * قدمت غير مساة لاصحاب
فدلني عليه فاذا ابوه قيم فيه افنوه عنده بي * واثني على ادبي * فلما خرجت
من ذلك النعيم * كخروج آدم من الجنة وهو مليم * بش بي الرجل وادبني
تلك الليلة الى طعامه . فلبيت دعوته واجرلت له الشكر على انعامه . وسرت
اليه وفي امعالي وقوب . وباضراسي القشم رقوب . فلما حظيت بانسه .
وحصلت في مجلسه . وضع الخوان . وهو يمد من الطعام بالوان . فاكلنا
وشربنا . ولعبنا وطربنا *

- حكاية - ما زلت مذ عرفت حلو الاستراط . وممر السراط . اتشوف
الى روية دمياط . لما بلغني عنها من كثرة سمكها واطيارها . ورخص اسعارها .
وكان بي نهم الى اكل السمك شديد . وقرم الى العصفور ما عليه من مزيد .
وقد قال في الاول سن اجاد القول جد او هزل

ما ان ندمت على شراء الحوت في * وقت وان افرغت فيه الكيسا
ان كنت انفق فيه فلسا واحدا * القاه فيه قد استحبال فلوسا
فلم اكد ابليغ ساحلها حتى رايت صيادا قد القى شبكته في البحر . وهو مبتش
ولها وفي طلعتها سمته الصجر . فتقدمت اليه وسلمت عليه فقلت اجذب
الشبكة باسم الله على بختي . وان كنت اعهدك نير دائما من تحتي . فان
اشتملت على حيتان صغيرة . اديت اليك قيمتها موفورة . وان حوت الكبيرة .
كان لي ان انال منها بجانا حصه وفيرة . فرضي بذلك . وقال حسبي الله

الولي المالك . فلما اخرجها اذا بها قد استوعبت من كبار السمك . ما لم يكن عهد منذ درج وسلك . فجاد علي بحصة . وقد اجرضه من الشرط قصّة . فاوقدت جنبه نارا . وبعثت الى السوق من اشترى لي خبزاً وعقاراً . وملحاً وابزاراً . وما زلت اشوي والتقم التفافاً . واشرف اشتفافاً . حتى منيت بالهيمنة والزجير . واستحال علي التقدم والتأخر في الثأب والصير *

— حكاية — * وجدت في صدري صنكا من مجالسة الرجال . ومطارتهم الحديث ولائثال . وقد جبل للانسان على حب التبدل . والتحول والتقل . فيسام النعيم . اذا طال . ويرى في الثائرة الثيور والوبال . وفي الاذمان الدمن والوبال . فحزيت مجالسة الصبيان . والحوض معهم في صار وكان . فلم اكد اخرج من غرقتي حتى رايت زمرة منهم يلعبون باللائال واللاتاد . ويضجون ضجيج الناس في يوم الجراد . فتوهمت ان بي صمما لو لما حتى لم اسمعهم على قريبهم من الغرفة . ولظهم على تلك الصفة . فدعوت احدهم فحشد الي حفزا . وكلني ركزا . فسكن روعي عند سماع نغمة الرخيمة . وايقنت ان حاسة سمعي بقيت في سليمة . فحمدت الله تعلى على لطفه بي . وزاد في مشرة الاولاد اربي . — اه *

ثم ورد الي كتاب من الخواجا روائيل كحلا يودن باستسباب حروف للفارياق فسافرت الى باريس ولما علت ان طبعه لا يتم في مدة قصيرة رجعت الى لندرة وكانت صحف الطبع ترسل الي هنا لاصلاحها ثم اعيدها وهكذا نجح الكتاب . ثم لما فتح معرض التحف في باريس وذلك في ١٥ ايار سنة ١٨٥٥ سافرت ايضا لاشاهدة وهو بناء جليل من حجر لكنه ليس في كبر معرض تحف لندرة ولم يكن يحوى بضائع متنوعة ما حوى ذلك الا ان من حذى فرنساوية انهم ينصدون لامتعة بنوع انها تبدو للعين زائقة فائقة . فضلا عن ذلك فان الناس كان همهم في تلك السنة اتقاء مضار الحرب وفوائدها وكان الذين عرضوا بضائعهم فيه خمسة وعشرين الفا منهم عشرة الاف من الغرباء . وقد رايت فيه حلي السيدة زوجة السلطان

وهي مما يفوق الوصف . ثم عدت الى لندرة ثم سافرت بعدها مرتين الى باريس ثم عدت وكانت عيذتي هذه المئمة للعشرين مرة من زيارتي لندرة . وحيث وجدت نفسي هذه المرة قاراً فيها وجب علي ان اصف ما فيها وما يحمد ويذم وصفا تاما وافيا . وانما لم اطل الكلام في وصف باريس لما تقدم انا . من ان الشيخ رفاة الف رحله فيها ولان البلدة معروفة عند سكان البلاد الشرقية اكثر من لندرة . ويجب قبل الشروع في الوصف ان تعلم ان ما قيمته من الماكول والمشروب فرنك ففي لندرة شلن غالبا وان نفقة السفر من لندرة الى باريس في المحل الثاني من الرتل لا تزيد على احد وعشرين شلينا سواء كان على طريق هافر او دياب او بولون او كالي وذلك في ظرف خمس عشرة ساعة بعضها في سكة الحديد وبعضها في سفينة النار . وهذه السفن التي تجري ما بين سواحل انكلتيرة وفرنسا ليست كذلك التي تجري في بحر الروم فانها قذرة وقل ان تجد فيها فرشاً للنوم فان قصر المسافة بين الارضين قصرها على ان تكون للتجارة اولى من ان تكون للركاب . واقصر المسافات هي التي يسافر فيها من دوفر الى كالي ولكنها اغلى ما يكون . ولا فائدة لمن يجهل احوال لندرة اذا سافر من باريس ان يجعل قدومه اليها في النهار لانه يصعب عليه في الليل وجدان محل يبيت فيه لما ان الحوانيت والبايت كلها تقفل في الساعة الثامنة ليلا فاما في باريس فلا يعدم ان يصادف مبيتا في اي وقت واي منزل شاء . *

الكلام على لندن او لندرة

كان عدد اهل لندن في سنة ١٨٠١ : ٩٥٨ ٨٦٣ وفي سنة ١٨١١ : ١١٣٨ ٨١٥ وفي ١٨٥١ : ٢ ٣٦٢ ٢٣٦ وفي ١٨٥٧ : ٢ ٦٢٥ ٠٠٠ . قال بعض المؤلفين ان دورتها سبعة وخمسون ميلا ونصف ميل وذلك عبارة عن سفر نحو ثلاثة ايام اذا كان يسافر في كل يوم قدر عشرين ميلا وتفصيلها من شسويك الى كنتش تون اثنا عشر ميلا . ومن كنتش تون الى ملول سبعة عشر ميلا ونصف . ومن ملول الى شسويك ثمانية وعشرون ميلا . وقال

آخر ان لندن اصح مدن العالم هواً والدليل على ذلك ما ذكر في تعريفات الموت من انه يموت فيها من كل الف خمسة وعشرون وفي غيرها يموت من الالف من ثلثين الى اربعين . وقال آخر ان لندن اغنى مدن العالم واكبرها زم بعض انها كانت مدينة من قبل الميلاد بالف ومائة وسبع سنين وقبل تاسيس رومية بثلاثمائة واربع وخمسين سنة وانها كانت مقرا للطربونيت والملوكهم قبل الميلاد باربع وخمسين سنة . وفي سنة ٦١ بعد الميلاد كان الرومانيون يسمونها لندينيوم وهو اسم لمقر التجار في ذلك العصر ولسوق المعاملات والبايعات . وزعم بعض انها مشتقة من لود اسم ملك قديم في بريطانيا . ولاصح انها مشتقة من لين دين اي بلد على بحيرة . وزعم آخر انها كانت تسمى في الزمن القديم لندينورغ كما يقال لان لقاعدة سكوتلاندة ايدنبورغ . وقال آخر موقع لندن على نهر تامس على بعد نحو خمسين ميلا من فوهته وقد صدق ما وصفها به ساي بقوله ليست لندن مدينة واحدة وانما هي اقليم مغطى بالبناء . وفي سنة ١٨٤٩ لزم لاهلها من الدقيق مليون وستمائة الف كوارتر (١٠٩) . ومن الغنم مليون . ومن الثيران مائتان واربعون الفا . ومن العجول ثمانية وعشرون الفا . ومن الخنازير خمسة وثلثون الفا . وفي احد اسواقها المسمى ليدن هل بيع من الطيور اربعة ملايين واربعه وعشرون الفا ومن السمك المسمى سمونا ثلثة ملايين . وهذا القدر من الماكول غسل من المشروب بمقدار ثلثة واربعين مليونا ومائتي الف غالن من المزر (١١٠) وبمقدار مليوني غالن من الارواح . وبمقدار خمسة وستين الف قصبة من الخمر (١١١) . وفيها ثلثة عشر الف بقرة للاحتلاب . وثلثمائة وستون الف قنديل يشعل بالغاز ينقد منها في كل اربع وعشرين ساعة ثلثة ملايين قدم مكعب من الغاز . وتبذل لاهلون من الماء بنحو ٣٢٨ ٣٣٨ ١٤٤ غالنا في كل يوم . ويستعمل لاجل اصطلاتهم ولوازم المعامل اكثر من الف سفينة لنقل الفحم فتحمل في العام اكثر من ثلثة ملايين طن . وكثيرا ما روي دخان النار منها على بعد ٣٢ ميلا . وفيها من الخياطين ٢٣ ٧٥١ ومن الاساكفة ٢٨ ٥٧٩ ومن الخياطات وصانعات برايط النساء اكثر

من اربعين الف ومن الخدمة ١٩٧٠ . وقال ءاخر يوجد في لندرة من اهل
ارلاندا اكثر مما يوجد في دبلين قاعدة بلادهم ومن اهل سكوتلاندا اكثر مما
يوجد في ايدنبورغ ومن اليهود اكثر مما يوجد في فلسطين ومن الرومانيين
مائة الف نفس وهو اكثر مما يوجد في روميت ومن الجرمانيين ستون الفا
ومن الفرنسيين ثلثون الفا ومن الطليانيين ستة ءالاف . وقال بعض
المولفين من الفرنسية ان مدينة لندرة في قول اميان مرسلان (١١٢) قديمة
جدا واشتقاقها من لفظة لون بمعنى سفينة وديناس اي مدينة فكانك
قلت مدينة السفن . وذهب بعض الى ان اشتقاقها من لون اي غيصة
ودن اي مدينة فكانك قلت مدينة في غيصة . قال اما موقعها فهو في
اقليم مدلسكس على تسعة وستين الف ذراع من فم نهر تانس وعلى ثلثمائة
وتسعة وسبعين الف ذراع من باريس وهي اكثر مدن العالم اهلا رقتها
مائة الف ذراع مربع واهلها ٢٠١٣٠٠٠ منها ١٠٧٦٩٥٦ ذكور والباقي وهو
٩٣٦٠٤٤ اناث . قلت وقد تقدم ما زادت به من عدد النفوس فينبغي
ان تقيس عليه سائر الزيادات . ويولد فيها في العام نحو خمسة وثمانين
الفا ويموت نحو اربعة وسبعين الفا . والمحسوب انه يولد فيها في الاسبوع
نحو الف وثمانمائة نفس منهم ٩٦٠ ذكور و٨٤٠ اناث ويموت فيها نحو
الف وثلثمائة نفس . ومن ولد فيها من المشاهير ملطون وبوب الشاعران
ولورد بيرون الكاتب الشاعر لاديب ودفن فيها من الشعراء الكبار خمسة
وعشرون . قال وهي تحتوي على ٢٨٨٠٠٠ دار تغل في العام مائتين وعشرين
مليوناً من الفرنك وعلى ١٥٠٠٠ شارع وزقاق وثريعتة . وقد اتسعت من
مدة خمسين سنة اكثر من ضعفين مما كانت في السابق . ويرد اليها
ويصدر عنها من السفائن التجارية نحو خمسة وعشرين الفا في العام فلا
يزال في مرساها نحو خمسة ءالاف سفينة واربعة ءالاف اخرى مستخدمة
لثمانية ءالاف نواتي واربعة ءالاف صانع . ورأس المال الذي اخرج
في عمل لاقنيية والجاري وغير ذلك مما يختص بالغاز بلغ ستة وسبعين
مليوناً وثلثمائة وخمسين الفا من الفرنك . والمصروف على التنوير في العام

يبلغ ستة عشر مليوناً . وفي لندن ثمانية مواقع لسكة الحديد وست
فياض وثلاثمائة وأربعون كنيسة ومعبدًا المتصلة وربما كان المعبد داخل
الكنيسة وثلاثمائة وسبعون معبدًا المتفرعة وثلاثمائة وأربعون مكتبة للتعليم
وأربعة عشر سجنًا وثمانية دواوين للشرطة وأثنان وعشرون ملهى أي
ثياطرا وخمسون سوقا لبيع المأكولات من اللحم والدجاج والبقول ونحوها
وسوق القمح فيها كلف ٩٠ ألف ليرة وعدد ما يذبح من البقر الطعام أهلها
١٩٥٠٠٠ رأس ومن الغنم ٧٧٦ ألفا ومن الخرفان الصغار ٢٥٠ ألفا ومن العجول
قدرها ومن الخنزير ٢٧٠ ألفا يبلغ وزنها في الجملة ثلثمائة وثلاثة وسبعين مليوناً
ومائتين وثمانية آلاف رطل من اوطالهم (١١٣) . فاذا قوم كل رطل بنصف
شلين في اجمال بعضه ببعض بلغ ثمنها مائة وسبعين مليوناً وسبعمائة وخمسة
وخمسين ألف فرنك يخص كل انسان على حدته ١٤١ رطلاً وهو اكثر مما
يخص كل واحد في باريس بصعفت مثله والمصروف من السمك ١٢٠ ألف
طن ومن الزبدة او السمن ١١ ألف طن ومن الجبن ١٣ ألف طن ومن
القمح ٣٦ مليوناً من الكوارتر ومن الفحم ثلاثة ملايين طن ومن اللبن ٤٠
مليون زجاجة ومن الخمر ٦٥ ألف برميل والبرميل عبارة عن ستة اطينان
ومن الارواح ٨٠ مليون لير ومن المزر والجمعة مليوناً برميل . قلت وفيها ٤٥٥٧
حانة يباع فيها المزر وسائر انواع الشراب . قال وفيها ١٦٥٠٠ اسكاف
و ١٤٥٠٠ خياط و ١٣٢٠٠ نجار و ٦٨٣٠ بنائة و ٢٣٢٠ صانعا في الرصاص
و ٥٠٤٩٠ جلفاطا و ٢٦٧٠ صانعا في البرانيط و ٢٦٤٠ في الساعات و ٥٤٠٠ في
الخشب و ١٠٩٩ بائع ادوية و ٢١٤٠ صانعا في البراميل و ٣٧٠٠ طباع
و ١٠٠٠ صانع لعجلات المراكب و ٢١٠٠ حلاق و ٩١٠ من صناع الحلواء و ٤٣٣٠
جزارا و ١٥٩٠ تلجرا في الجبن و ١٠٨٠ في السمك و ١٠٩٠ في التبغ و ٢١٧٠
تاجرا في العواجل والعجلات و ٦٦٠ خبازا و ٤٦٤٠ تاجرا في الشمع والسكر
والصابون ونحوها و ٤٢٠٠ بزازا و ١٠٤٥٠ بائعا للحليب و ٢٨١٠ للجواهر
و ٧٨٠٠ سائق عاجلة وحافلة و ٧٤٢ سفينة نار تجري في نهر تافس كما
تجري الحوافل في طرق المدينة وذلك ما بين رشمند وكرافسند وما حولهما .

واشهر المواضع فيها التريعة المعروفة باسم ترافلكر فيها عمود نلسون مبنيا من
المرمر ارتفاعه مائة وست وسبعون قدما انكليزية وفوق العمود تمثالته وعلى
جانبي الساحة عينان نصاخرتان قبالتهم صورة الملك شارلس الاول من
نحاس . قلت قال بعض ان عمود نلسون هو من حجر جلب من بورتلاند وكان
نصبه في سنة ١٨٤٣ وعليه شرف من نحاس صنعت من مدفع اخذ من
الفرنساوية ولخزي الدولة واهل البلاد بقي غير متمم وقد بلغت نفقته
ثلاثة وثلاثين الف ليرة . ومن تبرع في العطاء لانشائه سلطان الروس
فانه اعطى خمسمائة ليرة وهو اكثر ما تبرع فيه لهذا الانشاء وبنده تمثال
كرلوس او شارلس الاول صنع في سنة ١٦٣٣ هـ . واعلم ان نلسون المذكور
هو الذي ظفر بهما ركاب فرنساوية التي سار فيها نابليون وجنك الى مصر
فاحرقها عند ابي قير وذلك في سنة ١٧٩٩ واتلف ايضا بوارج فرنسا واسبانية
في الحرب المعروفة بترافلكر عند راس فنستير وذلك في سنة ١٨٠٥ . وكانت
سفن الانكليز ثمانيا وعشرين سفينة وسفن الدولتين المذكورتين اثنتين وثلاثين
ويومئذ قتل وهو عند الانكليز معظم الذكر لا يزالون يلهجون بمساعيه البحرية
لهجهم بمساعي الديوك ويلنكطون البرية وكان مولك في سنة ١٧٥٨ . وفي
معجم الاوقات ان نصرة الانكليز في الحرب المذكورة هي اعظم نصرة حازوها
وكان للفرنساوية من البوارج ثمان عشرة وللاسبانيول خمس عشرة وللانكليز
سبع وعشرون وبعد قتال شديد اسر امير البوارج فرنساوية وغيرها وتلف
لهم تسع عشرة سفينة فير ان الاميرال نلسون لاقى منيته يومئذ فقام مقامه
كولن وود وكان اسم سفينته فكطوري اي نصرة وآخر اشارة صدرت من
نلسون قبل الشروع في القتال قوله ان انكثرة تتوقع من كل انسان ان
يقضي الواجب عليه وكان ذلك في الحادي والعشرين من تشرين الاول
سنة ١٨٠٥ * قلت وهذا عندهم من الكلام البليغ ولذلك كتبت هذه الجملة
على العمود * وفي كتاب آخر يسمى تعليقات وسائل ان بعض خدم نلسون
وكان به غفلة قال كان سيدي اذا باشر الحرب يلبس احسن لباسه المنصني
فكنت ابهاه عن ذلك فيقول لي مه فاني اقضي الحرب بافخر لباس لي

فاقول له بل لاأولى ان تلبسه بعد ان تفرغ من الحرب * قال واواني كنت
حاضرا يوم ترافلكر لما اصابه ما اصابه بذلك اللباس الذي ترداه * اه * قال
المؤلف الاول وفيها ايضا عمود اخر بني تذكرة للحريق الذي وقع في لندرة
سنة ١٦٦٦ بلغت نفقته ١٣٧٠٠ ليرة ارتفاعه مائتا قدم وقدمان وهو اجوف
يشتمل على ثلثمائة وخمس واربعين درجة وارتفاع شرفته اثنتان واربعون
قدما * وآخر نصب في سنة ١٨٣٣ عليه تمثال ديوك يورك ابن الملك جورج
الثالث ارتفاعه مائة واربع وعشرون قدما وعلو التمثال اربع عشرة قدما *
قال واعظم كنيسة للبروتستانت كنيسة ماربولس في المدينة المذكورة بنيت
على هندسة كنيسة ماربطرس برومية ابتدي بنائها في سنة ١٦٦٦ ونجز في
خمس وثلاثين سنة وبلغ جلة ما انفق عليها ٣٧٥٠٠٠٠ فرنك جمع ذلك
من طسق جعل على الفحم وطولها خمسمائة قدم وارتفاعها اربعمائة واربعة
اقدام ووسعها ثلثون فدانا * اه * قلت وسياتي ذكر لهذه الكنيسة * ثم ان
هك المدينة شطران يخترقهما نهر تامس * احدهما ليس فيه شيء يرني الناظر
فانه عبارة عن ديار وطرق وحوانيت * والثاني وهو الذي تقيم فيه الاشراق
والايعان يشتمل على اشياء كثيرة بديعة سيمر ذكرها بك ان شاء الله * وهذا
النهر مبني عليه عدة جسور * احدها وهو اول ما يراه القادم الى لندرة الجسر
الذي يقال له جسر لندن طوله ٩٢٨ قدما وهو مبني من حجر صلب ويشتمل
على خمس قناطر علو كل منها سبع وعشرون قدما بديء به سنة ١٨٢٥ وفتح
في سنة ١٨٣١ وانفق فيه نحو مليوني ليرة وعليه فوانيس للتنوير صنعت من
مدفع اخذ في حرب اسبانية ولا يزال مزججا للناس والحيل والحوافل والعواجل
حتى ان تن يشاء ان يمر فيه من جهة الى اخرى يعرض نفسه للخطر
فلزمه ان يسير على سمت واحد ومن ير ازدحام الناس عنك ولم يكن قد
الف احوال البلد يظن ان الناس متاهبون الى الخروج للحرب والقتال اذ
يمر عليه في كل دقيقة نحو ثلثين مركبا ما بين عاجلة وحافلة وعجلة وما
اشبه ذلك وعنك عمود شاهق من حجر وتمثال للملك وليم الرابع من رخام *
الثاني الجسر المسمى صوث ورك طوله ٧٠٨ اقدام وله ثلث قناطر من

حديد بدعي به سنة ١٨١٥ وفتح في سنة ١٨١٩ وبلغت نفقته ثمانمائة ألف ليرة * الثالث الجسر المسمى بلاك فرير بدعي به في سنة ١٧٦٠ وفتح في سنة ١٧٧٠ وهو يشتمل على تسع قناطر طوله ٩٩٥ قدما وبلغت مصاريفه ٨٤٠ ٥٢ ليرة * الرابع جسر واطولو وهو اعظم جسر في المسكونة بدعي به سنة ١٨١١ وفتح سنة ١٨١٧ وبلغت مصاريفه اكثر من مليون ليرة ما عدا القرض الذي اخذ من الدولة وقدره ستون الف ليرة وهو بدعي الصنعة كله من حجر المرمر يشتمل على تسعة طرسمات كل منها مائة وعشرون قدما وارتفاعها خمس وثلاثون وطول الجسر ١٣٨٠ وقد جعل على كل مار به بني فجاء الجموع من ذلك في سنة واحدة ٤٦٧٦ ليرة وعلى بعضهم من عجائب الدنيا * قلت وكانت واقعة واطولو المشهورة في سنة ١٨١٥ * قال بعض المؤلفين زحف نابليون على الانكليز ومعه من الجيش احد وسبعون الفا وكان يرجو ان يفشلهم بكثرة العدد اذ لم تكن عساكرهم تنيف على ثمانية وخسين الفا لكنهم صابروا ودفعوا عساكره من الساعة التاسعة صباحا الى الساعة ليلا فلما راي منهم الجلادة والثبات ابتدأت عساكره ان تتراخي ثم اتصل بالانكليز بولوب ومعه خمسة عشر الفا وحينئذ امر الديوك ويلنكطون بالاطلاق عليهم فاحترمت نار القتال بينهم اي احتدام فقتل من الانكليز مائة وعشرون ضابطا والى وستمائة واحد وخمسون نفرا وجرح اربعمائة وستة وثلاثون ضابطا وخمسة الاف واربعمائة وستة وخمسون نفرا ولكن قتلى الفرنسيين كانوا اكثر ويومئذ اضطر نابليون الى الرجوع الى باريس ليجند جيشا آخر فلم يوافقهم اهل الشورى لانه كان قد تلف معه اربعة جيوش من قبل فاضطر الى ان يخجل نفسه على ما ذكر سابقا (١١٣) * الخامس الجسر الجديد المسمى بالعلق لانه غير مبني على قناطر له ثلث فتحات واسعات جدا وهو اعلى جسر في الدنيا من هذا الطرز بدعي به سنة ١٨١٤ وفتح سنة ١٨١٩ زنة ما فيه من الحديد ٥٥٠٨ اطنان * السادس جسر وستيمنستر بدعي به سنة ١٧٣٨ وتم في سنة ١٧٥٠ طوله ١٢٢٨ قدما وعرضه ٤٤ وله خمس عشرة قنطرة وبلغت نفقته ٣٨٩ ٥٠٠ ليرة ولما شرع في بنائه حسب المهندسون من

احسن جسور الدنيا . السابع جسر فكسهال صنع من حديد صب بدى
به في سنة ١٨١١ وفتح في سنة ١٨١٦ طوله ٧٩٨ قدما وهو يشتمل على تسع
قناطر . الثامن جسر همرسميث طوله مائة واثنان وثمانون قدما وغيـر
ذلك مما ذكره يطول . ومن اعجب ما بني على هذا النهر والآخرى تحته
المجاز المعروف بتامس طنل وهو موضع انشئ تحت الماء طوله الف ومائتا
قدم ارتوى انشاؤه في سنة ١٨٢٥ ثم اغلق لظمو المياه عليه ثم استوف العمل
فيه وفتح سنة ١٨٤٣ بلغت نفقته ٦١٤٠٠٠ ليرة وجملته ما يوخـذ له من
المتفرجين عليه في كل سنة نحو خمسة آلاف ليرة وينزل اليه في نحو مائة
درجة من حديد ويدفع على ذلك بني واحد انشائه جماعة تعرف بجماعة
الطنل ومعنى الطنل القبو او السرب او النفق ويقال ان نقر ذراع واحد منه
في بعض المواضع انفق فيه الف ومائتا ليرة وبعضه ١٢٠ ليرة . والفائدة من
انشائه مرور الناس فيه من جهة لندرة الاولى الى جهتها الاخرى فهو
بمنزلة الجسر إلا اني ذهبت اليه غير مرة قلم ارفيه إلا المتفرجين . وقيل
ان الغرض منه ذكر شرف للدولة وتري سفن النار تجري منحدره وصاعدة
في هذا النهر مشحونة بالرجال والنساء كما تجري الحوافل والعواجل في
الطرق وحين تمر تحت القناطر تميل قصب الحديد التي هي مداخنها
ليمكنها الدخول فاذا جاوزتها اعادتها كانها قطعة واحدة . وعدة المراكب
المنسوبة الى هذا النهر بلغت في سنة ١٨٥٠ -- ٢٧٣٥ وعدة سفن النار ٣١٨
يستخدم فيها ٣٥٠٠ نفس من الرجال والصبيان وفي سنة ١٨٤٨ ورد الى
مرساة ٤٢ سفينة ورد من المكس عليها الى ديوان المكس ٧٠٧ ١٩٣
ليرات وكانت قيمة الخارج منه ١١٠٠٠ ليرة . وعدة مراكب البر التي تسير
في المدينة ما بين كبيرة وصغيرة نحو سبعة آلاف وعدة الصنف الاسمنى
هكني كرج ٣٥٠ * وعلى الحافلة الكبيرة وهي المعروفة باسم امنيسوس تـرى
اسماء الحارات والاماكن التي تسير اليها ولا بد وان يكون مكتوبا عليها اسم
البنك فانها كلها تمر به إلا ما قل وكل منها يسع اثني عشر شخصا بداخلها
وتسعة بخارجها . ومن هذه الحوافل نحو ستمائة حافلة اشترتها جمعية واحدة

مع لوازمها من الخيل والعدد باربعمائة الف ليرة فتكون كل واحدة منها
 بنحو سبعمائة ليرة وهي بالنسبة الى حوافل باريس معتتة من وجوه . احدها
 بانه ليس في داخلها شيء يتمسك به الانسان فاول ما يدخلها يستمر سائقها
 في السير فيترنج الداخل يمنة ويسرة وربما وقع على بعض الجلوس وكثيرا
 ما يعجل البواب الى اطاق الباب على يد الداخل وكثيرا ما ترد شكوي
 الركاب في هذا الى القضاة فمنهم من حصل ارشا ومنهم من خاب . الثاني
 انه اذا كان بين هولاء الستة رجالان سمينان ضاق الموضع بالباقي اذ لا يكاد
 ينسع هذا العدد إلا باللز والتضام وقد وقع غير مرة نزاع افصى الى الشرع ما
 بين هولاء السواق وبين الرجال السمان فان السائقة يابى ان ياذن
 للسمين في ان يتبوا موضعين ويدفع عليهما اجرة واحدة فاما في باريس فيبين
 كل قاعدتين فاصل من قضيب نحاس فالقاعد فيها مقعدا لا يكاد يمس جازة
 وكانما هو قاعد على كرسي بداره . الثالث انه قد يتفق ان يكون اليوم باردا
 ويتندر احد الجلوس الى فتح احدى طيقانه من دون ان يسال جارة هل
 يستطيع ذلك اولا فان كل واحد من الناس عموما ومن الانكليز خصوصا
 يرى ان في صلاح نفسه صلاح غيره . الرابع ان الداخلين لا يدفعون الجعل
 عند الدخول كما يفعل في باريس بل عند الخروج فيدفع الخارج لاجرة الى
 السائق وينهب في خلال ذلك الوقت عشا ما بين تصريف الدراهم والقال
 والقييل والبواب هنا ابدا معرض راسه للمطر والشمس اذ لا جنة تنقيه بخلاف
 لبواب في باريس . ولبوابي حوافل باريس شريط من قضيب على اطواق
 ملابسهم وصفحة على صدورهم تودن بمهنتهم ومتى وجد احدهم موضعا فارغا
 عند باب الحافلة قعد فيه وافاض في الحديث مع جارة وعد نفسه من جملة
 الركاب بلا محاشية . وهناك فرقان اخران بين حوافل لندرة وباريس وهو
 ان حوافل باريس ليس لها مقاعد على ظهرها فكل ركبها يقعدون في داخلها
 فلهذا كانت اطول واسع من حوافل لندرة وهي اشق على الخيل غير ان
 الفرنسيين لما كان دابهم ولعهم التبديل والتغيير صاروا لان يصنعون حوافلهم
 نحواول الانكليز في الصغروفي جعل مقاعد لها على ظهرها . وسواق العواجل

في لندرة ذرو شطط وجفاء فانهم يتقاضون الغريب اكثر من المرسوم لهم من الميري وحيث انهم يعلمون ان اصغر القضايا لا تفصل الا بحضرة القاضي بعد قال وقيل وانه ليس كل احد يروم التشرف بمجلس الاحكام فلا يالون جهدا في غبن الراكب واخذ شيء منه زائد على المرتب . ومن لومهم ايضا انهم قلما ينهون الماشين في الطريق قبل ان يدركوهم واذا تكلفوا لذلك نبههم بنوع من الشتم . اما في باريس فان للسواقين شيئا في كل خط فمتى حصل بين احدهم وبين المستاجر نزاع فصله الشيخ ومتى دخلت العاجلة اعطاك السائق ورقة مطبوعة فيها عدد عاجلته لتهديك الى معرفته عند الاقتضاء والجعل على المضمار في باريس بعيدا كان او قريبا نحو شلين ولا فرق في عدد الركاب فاما في لندرة فعلى كل ميل نصف شلين اذا كان راكب واحد ولكن اذا كانت المسافة مثلا ميلين وادى السائق انها ثلثة لم يفصل بينك وبينه غير الباس والبطش فان رءاك اضعف منه الزمك ثلاثة فاما اذا اكتريت بالساعة فسير ساعة في لندرة جعله شلينا وفي باريس افرنكان غير انه يوجد في هك عواجل مفتوحة تشبه عواجل الامراء والكبراء وربما جرها حصانان وفي لندرة لا وجود لها . ومن الغريب ان الحوافل التي جعلها في لندرة اعلى تكون ابدا مشحونة بالركاب والرخصة يعرض عنها . وعن بعضهم ان هك العواجل الكبيرة هي من مخترعات الفرنسيات في زمن فرنسيس الاول ولكن لم يكن منها حينئذ الا اثنتان وفي سنة ١٥٥٠ كان منها ثلث وواحدة لهنري الرابع ولكن من غير سيور ولم تتقن الا في عهد يوحنا دولا فال فانه لعظم جشته لم يكن يقدر ان يسافر الا بها وكانت ملوك فرنسا من قبل ذلك تسافر على الخيل والملايكات في محفات والخواتين يركبن وراء الامراء . واول عاجلته رويت في انكلترة كانت في زمن الملكة ماري وذلك سنة ١٥٥٣ وفيه نظر . قال وكان سير مراكب البر في انكلترة بطيئا جدا حتى ان احد المؤلفين قال ان الخوري آدم على ترهله كان يمشي اسرع منها وكانت كثيرا ما تشب في الوحل وتقرقع . وقال اخر لم تكن الحوافل من قبل سنة ١٨٢٨ معروفة عند الانكليز فقدم اليهم في

التاريخ المذكور رجل من فرنسا اسمه شليبير فاستعملها عندهم ولأن يوجد لها جمعية ايرادها نصف مليون في العام ورأس مالها نحو ثلثة ملايين وعدد الحوافل التي لها رخصة ثلثة آلاف وكل حافلة في لندرة يلزم لها عشرة روس من الخيل وعلف الحصان يقوم في اليوم نحو شليني . ويوجد ايضا في لندرة ست وسبعون جمعية لضمان الحريق والغرق والمعيشة وغير ذلك وقل ان توجد دار عظيمة او حانوت كبير او شيء آخر نفيس من دون ضمان . وصورتها اذا خاف انسان على دارة او سقيته او امتعته من النار او السرقة ذهب الى جمعية منها والزم نفسه ان يدفع لهم في المائة شيئ معلوما الى اجل مسمى فاذا هلك ماله غرمت الجمعية قيمته . فاما ضمان المعيشة فهو ان الانسان يلزم نفسه ان يدفع في كل سنة شيئا حتى اذا مات قامت الجمعية بمونة عياله ولكل سن مبلغ فان الشاب القوي المظنون تعميرة يدفع اقل مما يدفع الطاعن في السن وقبل تدوين اسمه في دفتر الضمان يكشف الطبيب عن بدنه ليعلم هل فيه داء خفي او لا فان علم ان به علة لم يقبل او يكلف دفع مبلغ وافر . والميري ايضا شيء مما تاخذة الجمعية اذ لا يصح انعقاد جمعية شرعية او احداث شيء شرعي في بلاد الانكليز من دون غرم للخرقة وفي المحترفات الكثيرة والديار العظيمة يتخذون اصوننة من حديد لصون المال والحلي وكواغد المصرف وغيرها وعن بعض المؤلفين لم تعقد جمعية ضمان الحريق من قبل مائة وسبعين سنة فكان من يرزا بالنار يجمع له مدد من الناس الى ان انعقدت الجمعية المسماة اليد باليد في سنة ١٦٩٦ ثم اقتدى بها جعيتان اخريان فلما ان نجحت مساعيها تابعتهم على ذلك اخرى حتى بلغت الان في المملكة اربعا وسبعين . وفي سنة ١٨٠٥ قومت الاملاك التي ضمننت من خطر الحريق بمائة واحد وثمانين مليون ليرة وفي سنة ٥٥ بلغت ٩٢٧ مليون . وقد اطلقوا في سنة واحدة ٣٩٠ حريقا وانجوا سبعين نفسا . وفي لندرة ثمانية وثمانون محلا للسيارفة ولكن لا ينبغي ان تفهم من لفظة الصيرفي هنا ما تنهمم منها في البلاد الشرقية فتظن انه يصرف الليرة مثلا بشلينات وتأخذ عليها فلسا

أوفلسين وإنما الصراف هنا هو سن تاتمنه لا غنياء والكبراء على أموالهم
فيدفعونها إليه وياخذون منه فائدتها في العام وكل واحد من هؤلاء الصيارفة
عند عدة جماعة عظيمة من الكتاب والحساب والخدمة فحسرتة عبارة عن
ديوان يدخل فيه الناس أفواجا أفواجا . وفي لندرة من المواضع المنشأة للبر
وقعل الخير ما يصعب على ويعسر حله . قال بعض المطربين على الانكليز
وأظنه امرصون الأمير يكانني المشهور أن الانكليز أكثر الخلق فعل خيرات
وأظن ذلك يصدق عليهم من دون مرأى وأنا أبين لك بوجيز من القول
عظم ما تفعله هذه الأمة من البر والاحسان فإذا سمعته فاقص لنفسك بما
تراه الحق . فأقول أن في لندرة مارستانات للجانين والمجذوم وناقصي الأعضاء
والمرضى والجرحى والسقط والصم والبكم والعمي والمحتاجين والاشقياء ولسائر
من حلت به نكبة وفدحته فصيبة وللعمومين من الرزق وللعاجزين
من الشيوخ واللائيم وللغول وللغرقى والارامل ولارشاد الضالين وتحرير
الريق والرفق بالحيوان ما عدا محال التعليم والعبادة ونشر الكتاب المقدس
وغير ذلك مما يبلغ مئتين . ففي مارستان صان برثولوي ٥٨٠ فراشا وتوزع منه
أدوية وغيرها على سبعين ألف شخص في كل سنة منهم أربعة آلاف
بداخله . وفي مارستان آخر ٥٣٠ فراشا وتوزع منه أدوية وغيرها قدر ما
يوزع من ذلك . وفي مارستان صان جورج ٣١٧ فراشا ويوزع منه أدوية
وغیرها على كثير من المرضى والزمنى . ويوجد مثلها ستة أخرى وأخرى غيرها
لشفاء الأمراض والجراح ومارستان آخر لتربية الغول يربي فيه نحو أربع مائة
ولد وآخر لاجل تربية أولاد العساكر البحرية وأولاد أهل سكوتلاند وآخر
لتربية أولاد العساكر البرية فيها ألف ولد ومحال أخرى لللائيم أكثر من
أن تعد . هذا وللجمعية البشرية مساع جيدة لاستنقاذ الغرقى فانها تستخدم
اناسا لاستخراج الغارقين بآلات مخصوصة وتبذل جهدها في مداواتهم
وشفايتهم وتجود بالجوائز على كل من ينقذ اخاه في البرية وكذلك يوجد
جمعية لاغاثة الذين يصابون بالنار وفي كريست هسپتال يربي أكثر من
ألف ولد وكل كذلك في الباقي . اه . قال صاحب الكتاب الذي منه نقلت

جلمة المارستانات والمنشآت الخيرية من عند لندرة وما يليها الى حد غريتش
وهي على عشرين دقيقة من لندرة لا تنقص عن اربعمائة واحد وتسعين محلا
وتفصيلها كما ياتي *

عدد ١٢

مارستانات عمومية

٥٠

موزعات مخصوصة لادواء كالجذري والسل ونحوهما

٣٥

موزعات عمومية (وهي المواضع يعطى منها الدواء)

١٢

جمعيات ومنشآت لحفظ الحياة والادب وحسن السيرة

١٨

جمعيات لمنع الجرائم والشر

١٤

جمعيات لاغاثة الذين هم في الضيق والفاقة على العموم

١٢

جمعيات نظيرها على الخصوص

١٤

جمعيات لمساعدة ذوي الكد والكدح

١١

جمعيات للصم والبكم والعمي

١٠٣

مدارس ومارستانات ومحال للصدقة على العاجزين من الهرم

١٦

جمعيات خيرية تجري ارزاقا عمومية وهو عند العامة علوفة

٧٤

جمعيات خيرية خاصة بطبقات من الناس مخصوصة

٣١

مارستانات للايتام ولغيرهم من الاولاد المخدولين

١٠

محال للتربية والتعليم

٠٤

محال اخرى مثلها

٤٠

جمعيات للمدارس والكتب الدينية ومساعدة الكنائس وعيادة المرضى

٣٥

جمعيات للكتاب المقدس والمرسلين

تبلغ مصاريفها في وجرة مساعيها المتنوعة في كل سنة ٧٣٣ ٧٧٤ ليرة يجمع

منها اكثر من مليون من المتطوعين لفعل الخير . وايراد المستشفيات الكبار

وعدتها اربعة عشر من الوقف . وبلغ ما جمع لهم في لندرة في عام واحد

١٣٦٠ ٤٦٤ * ويقال ايضا ان جلمة ما فرق على الفقراء في بلاد الانكليز من

سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٩ بلغ مائتي مليون ليرة . وفي مارستان صان برتولري

يصرف في كل سنة نحو ثلثمائة ليرة ثمن خمر للمرضى ونحو الف رطل

من زيت الخروع ومائتي غال من لافواح ثمن الغالن سبعة عشر شلينا
واثنا عشر طنا من بزر الكتان والـف رطل من السنا وسبعة وعشرون قنطارا
من الملح و ٥٠٠٠ يارد من البفت للرباط و ٢٩٧٠٠ علقـة وطن ونصف من
الرب وخمسون رطلا من العشبـة في كل اسبوع وقس على ذلك . ومصرف
مارستان كريتـش في السنة عشرون الف ليرة . وفي هـذا السنة صرف على
التعليم في بريـتانية ٢٢٣ ٥٤١ ليرة وعلى العلوم والفنون ٨٥٥ ٧٣ . ولما سنت
الانكليز تحرير الرقيق في سنة ١٨٣٨ قطوعوا بعشرين مليون ليرة تعويضا
لمواليهم . وجميع هـذا الجمعيات تنال مددا من الملكـة ومن زوجها . وعلى قدر
هـذا الزمـر المتواظفة على البر والاحسان فاذا رايت الفقراء في لندرة توهمت
ان ليس احد فيها يعمل الخير فانك ترى نساء يمشين على الثلج حافيات
باخلاق ثياب يظهر منها مواضع كثيرة من ابدانهم وكثيرا ما تراهم يلتقطن
الجذور من الطرق ونفاية ما يرمى به من الطعام من الديار . وفي سنة
١٨٤٨ كان منهم في المارستانات ٥٦ ٣٢٣ منهم ٩٥٨٧ غلبا امهاتهم في
المارستان و ٤١٧٥ امهاتهم في الخارج . ولا يباح للفقير هنا ان يتسول واذا
وجك اهد الشرطة ماذا كفـه اخذ واودعه السجن غير ان بعضهم لا يتخرج
من ذلك ليلا اذا علم ان الشرطي لن يبصره واكثر من يفعل ذلك النساء
وخصوصا نساء ارلندة فهن يجرين مع المارين ويأخفن في الطلب الخاف
الغريم فاذا لم تنل احداهن شيئا من غريمها لعنته وانصرفت . وكذلك لا
يباح لاحد ان يكسب مالا بغير الوجه الذي يوهله الى ذلك فلا يسوغ
مثلا لاحد ان يتعاطى الطب وهو جاهل به او صنعة من الصنائع من
دون ان ياخذها عن آخر ويشهد له استاذة بانه اتقنها ولكن هم في ذلك
اقل ضبطا وتحزرا من الفرنسيـس واكثر عرضة للتدجيل والخرقة . وبقي
لي هنا ان اقول ان زي الاولاد الذين في المدارس والمارستانات الخيرية
بهـذا المدينة من اقبـح ما يكون فان الاولاد الذين في بلوكوت سكول اعني
مدرسة الرداء الكحلي وهي من اشهر المدارس يلبسون اردية من هذا
اللون طويلة الى اوساط سوقهم ويتحزمون بالجلد كالرهبان ولهم جوارب صفر

ولا تزال روسهم مكشوفة صيفا وشتاء مع انهم من ابناء الوسط فاين هم من اولاد مدارس باريس الذين يلبسون لباس ضباط العسكر فتحسب كلا منهم ضابطا او ضابطا ، ويقال ان اللون الكحلي في بلاد الانكليز كان في السابق خاصا بالخدمة والصبيان فلم يكن احد من الخاصة يمثليقه لنفسه حتى استعملته ضباط العساكر البحرية اولا فصار مرغوبا فيه ثم استعمله الوكس وهم فرقة من الاشراف من اهل المجلس فصار لان خاصا بالعظماء والنبلاء . وذكر مولف ابجدية الاوقات جماعة تعرف بجمعية البيل قال من شأن هذه الجمعية في فرنسا وانكثرة جمع الاموال بمقاصد خيالية على اي وجه من السمح كان وغير مرة تنقع في العنت وسوء العاقبة وقد انتهلت بانكثرة في هذه الايام في راس مال بلغ ثلثمائة مليون ليرة . اه . والحاصل ان في لندرة جميعات كثيرة للخير والشر وكل ما يدار فيها من المصالح الجسيمة والمساوي الجميلة فانه يكون بواسطة جماعة لا بواسطة الدولة بمختلف مصالح باريس كما سبقت الاشارة اليه . واقدم جمعية للتجارة هي الجمعية المسماة ستيل يارد كان انعقادها في سنة ١٢٣٢ واقدمهن في المساوي المدنية جمعية انشاء المعارف المسيحية كان انعقادها في سنة ١٦٩٨ وفي السقي وحدها احدى وتسعون لجنة اي كومانية لاصناف التجارة والمبايعه منها اثنا عشرة لجنة تنعت بالهونورابل اي المكرمة . وفي لندرة نحو سبعة آلاف شرطي وهم يتناوبون على المدينة ليلا ونهارا وفي كل طريق شرطيان منهم في كل طرف واحد وهم على غاية من النظافة والوصاء ولا يكون مع الشرطي سلاح بخلاف شرطة باريس وانما يكون بيك عصا قصيرة عليها صورة التاج فاذا عصاه احد من ذوي الشرور القاها عليه ايجابا للطاعة فلا يمكن بعدها الخلاف ويكون معه فانوس مصلع فاذا اراد ان يتعرف شخصا عن بعد اذاره فوقع النور على وجهه حتى يراه كانه بجنبه . ولا يسمح للشرطي بان يتعاطى الدخان في حال مباشرته الخدمة خلافا لشرطة مرسيلية وغيرها ولا ان يلطأ من المطر او الثلج ولا ان يرفع فوق راسه ظله تقيه منهما او من الشمس . ومن هولاء الشرطة من يتزيا بزى العامة حتى لا يكون

معروفا ويسمى الثقافة ويجب على كل منهم ان يتعهد ابواب الديار والجوانيت ليلا يعلم هل هي محكمة القفل او لا فاذا رأى احدها غير مقفل نبه مالكم عليه وان ينظر الى انوار الغاز في المواضع المذكورة وينبه على اطفائها بعد فوات الوقت وان يمنع من رمي المياه القذرة وغيرها من الشبايك ويسر المرور في الطرق للهاشين والراكبين وان يبذل جهك في فض الجموع ومنع الخصام في الطرق وفي ازالة كل ما يخل بالحياء والادب وليس له ان يدخل البيوت إلا باستدعاء سكانها وقد يدخلها في بعض الاحوال بامر رئيس الديوان وذلك عند التفتيش على اشياء مهمة واذا طلب منه احد ان يدلّه على طريق او دار فلا يالوجهدا في ارشاده ويجب عليه ان يتعرف اهمل الشرور والمساوي ويراقبهم ولا سيما اذا اجتمع منهم اثنان او ثلثة . واذا اراد احد مثلا ان يشتري شيئا من حانوت او يستكري عاجلة فاستمع مالك الشيء من بيعه او اكراته للشرطي ان يلزمه بذلك نفيا للعبابة ويجب حصور واحد او اكثر من الشرطة في جميع العحال التي يكثر انتهاب الناس اليها منعاً لما عساه ان يحدث من الجلبته والخصام . اما في باريس فسان الشرطي يتنوا موضعاً في داخل المحل واما في لندرة فانه يقف خارجاً او في دهليز المحل وربما دخل ايضا للتفرج كاحاد الناس ولكن حاك في ذلك معروف عند المتسابقين . ويجب على الشرطي ايضا ان يمنع الفقراء من التسكف في الطرق او من الاضطجاج امام الابواب وفي الاماكن المطروقة . واذا وجد ولداً نائها عن ماواه ارشك اليه فان لم يعلم له ماوى آواه في ديوان الشرطة وكتب اسمه وصفته في صحف الاخبار حتى ياتي احد ينشك واذا بلغه احد الاهلين شكوى عن لص او ذى عدوان تتبع اللص والمتعدي حتى يتقهما فاذا وجد المذنب ساقه الى الديوان برفق إلا اذا كان شراً فحينئذ يستدعي بشرطي اخر لاعتقه . ويكون معه ائلة يصوت بها لاحتصار من استدعى به وعليه ايضا ان يرى الكلاب مقيدة ولا سيما في زمن الصيف وان يمنع الرعيه من حمل السلاح طاهراً او خفياً ومن اذي الحيوانات وتحميلها ما لا تطيق . ويجب على كل منهم ان يكون معه كتاب فيه اسماء الطرق

المسلوكة والمواضع المشهورة وحد اجرة العواجل حتى يفصل ما بين الغريبين
وان يعرف قدر المسافة من طريق الى غيرها . وفي كل يوم صباحا ينظر رئيس
الشرطة في ملبوس المستخدمين في هذا الديوان وفيما يلزم ابقاؤه نظيفا فاذا
راى احدا منهم قد اهل نظافته شي او تصليحه غرمه على ذلك وفي يوم
الاربعاء يكون تفتيش عام على الملابس . وجمكية الشرطي في لندرة من مائة
عشر شلينا في الاسبوع الى خمسة وثلاثين واكثرهم يموت بداء الصدر من طول
الوقوف وهم انفع طائفة للمدينة والناس . وفي الجملة فان شرطة لندرة خير
من شرطة باريس فان جل هولاء من الفلاحين وهم على غاية من النظافة
والتكبر ولا سيما الذين يلبسون برنيطة نابليون . وفي سنة ١٨٤٨ بلغ عدد
الشرطة في انكلترة والاس ٢٧١٦ جلهم في انكلترة وبلغت مصاريفهم ١٦٣ ٩٤٤
ليرة منها ١٣١ ٢٠٢ مرتب وظائف لهم و ٣٢ ٧٤٤ لدواع اقتصتها الضرورة
و بلغت مصاريفهم في سنة ٥٦ - ٥٨ ٣٤٠ لكن عددهم زاد على ما تقدم .
وفي لندرة نحو ثلث كئاتب من المشاة وكئينان من الفرسان وهولاء الفرسان
نخبة من جميع المملكة فهم على غاية من الجمال والاعتدال فاذا رايت منهم
نفرا حسبتهم رئيس عسكر ولهم سراويل من جلد ابيض وجزم طويلة ثقوت
ركبهم وعامة نساء لندرة من السفلة يذهبن معهم بجانا . وفيها ثمانية عشر
ملهى وهو المسمى عندهم ثياطرا اعظمها الملهى الكائن في هاي ماركت يقال
انه اكبر ملهى في الدنيا ومثله او اكبر منه ملهى بيلان في ايطاليا يسمى
لاسكالا . وكان بنا الملهى الاول في سنة ١٧٩٠ عن رسم رجل من النمسا ثم غير
بعض التغيير في سنة ١٨١٨ واكري بعض اكنانه العليا ثمانية آلاف ليرة
وبعض مقاعك في الحضيض باربعة آلاف . ومن ذلك الاوبرة الطليانية
الملوكية في كوفنت كاردن اسس في سنة ١٨٠٨ وفتح في سنة ١٨٠٩ واقتضى
لانباتهم ونهيتهم مبالغ وافرة . وبلغ مصروف محل الغناء في سنة ٤٨ - ٣٣ ٣٤٩
ليرة ومحل الرقص ١٠٥ ٨ ليرات ومحل الموسيقى ١٠ ٠٤٨ ليرة ومصرف على اللائحة
٧٠٠٠ ليرة واستخدمت فيه امرأة لاعبة من الفرنسية على ثمانية اشهر
بببلغ ١٢ ٥٠٠ ليرة واجارته في العام سبعة آلاف ليرة وحسب ان نفقتهم في

كل ليلة بلغت ٨٤٥ ليرة قلت وقد احترق لان ثم بني . واقدم ملهى بلندرة
هو المسمى دروري لان ثياطر ولكن بناءه غير قديم فانه احرق مرتين وهدم
مرة واحدة واخسها المحل المسمى فكتوريا ثياطر كما ان فكتوريا بارك هو
اخص الغياض وفكتوريا كفي هوس اخص مخال القهوة . واكثر مواضع اللهو
هنا تشرف بحضرة الملكة وحينئذ يمكن للغني والصلوك ان يواها وزوجها
واولادها إلا ان الغالب انه متى ذهبت الى ملهى ما تنافس الناس في
الذهاب اليه فتغلق المقاعد بحيث لا يعود يتواها إلا اهل الاستطاعة وربها
ارخيت ستارة المحل الذي تقعد فيه وليس حضورها بمانع مما الفه اللاعبين
والمتفرجون فقد شاهدت مرة بحضرة زوجها واولادها زمرة اللاعبين مقبلين
بعضي عليها اصناف كثيرة خسيصة من جلستها زوج نعال ، واعلم ان التمثيل
في الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ والادب واعادة الحوادث والوقائع
الماضية فتصير كأنها مشاهدة بالعيان وفيه تنشد الاشعار الرائقة والقصائد
البليغة ويقع من المحاورات لادبية جدا ومزلا ما يسري به عن الشكلى
حزنها وكل ما يقال فيه فهو من الكلام الفصيح الذي تستعمله علماءهم وادباؤهم
فان اعظم شعراء لافرنج الفوا فيه وما من خطيب مصقع او اديب بارع إلا
ودون شيئا من هذه المحاورات . ومن طريقة اللاعبين فيه ان يخصصوا
كل شخص منهم بحال فمن كان مديد القامة جبير الصوت ابتغى خصموة
بان يمثل الامور التي فيها الحماسة والوعيد والتذمير وسن كان لطيفا رخصا
خص بما شانته الاستشفاع مثلا والملاطفة والتملق وسن كان حزقة خص
بالامور السخرية المضحكة وقس على ذلك ولو عرفت قدر ما يسرده هولاء
اللاعبون عن طهر القلب لاعظمته جدا فان كلا منهم يحفظ من القصص
والنواد ما يكون اكبر حجما من ديوان المتنبي ولا يكاد احدهم يتلثعهم في عبارة .
وقد يوارون شخصا يملك الكتاب الذي تحفظ منه تلك الحكايات في مكان
حتى اذا ذهل المتكلم عن شيء رده ولكن وقوع ذلك نادر . ويقال ان هولاء
الفصحاء في ملعبهم اولوا عي في غيره . وفي هذه المواضع من اللات والادوات
والمناظر ما يحير الناظر لانه على قدر اختلاف الوقائع والحوادث ينبغي ان

يكون اختلاف الادوات اللازمة لتشييلها . مثال ذلك اذا اريد تمثيل ما جرى بين السمول وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه ان يسلمه الدروع التي كان اودعها عنك امرء القيس نصبوا مكانا شبيها بالقلعة وجاوا بدروع وسيوف وشخصين مثلي امرء القيس والسمول فيكون هذا لباسا لباس الملازم لبيته المشتغل بامور نفسه وذاك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر ويشرع الشخص الممثل لامرء القيس في ان يخاطب الاخر بانه قام له هم في النفس اضطره الى مفارقة الوطن ومباينة السكن فسان المعالي لا تدرك إلا بجهد النفس والخطورة واذالت المصون من الفئاس والرغائب وما اشبه ذلك من الكلام الحكمي وينشد في خلال ذلك ابياتا يتمثل بها كقول المتنبي مثلا

تريدون ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النحل
او قول الاخر

يغوص البحر سن طلب اللاء لي وسن رام العلى سهر الليالي
ويتاوه في اثناء الخطاب ويحرك راسه وينظر نظر المبتسئ الشافن الى ان يفرغ من الانشاد والناس منصتون لا تسمع لاحد منهم نامة ثم ياتي بالادرع والسلاح ويسلمها للسمول فياخذها منه وبعد ان يتوادعا وينشد كل منهما ابياتا دعاء لصاحبه على ما يقتضيه المقام يدخل السمول حصنه ويرضى الحجاب . وبعد قليل يرفع ويأتي الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته ومعه جند واعوان شاكي السلاح ويطلب الدروع من السمول وهو متهدد له ومتوعد ويتمثل بابيات تدل على شدة بطشه وسطوته بين اقرانه كقول الفرزدق مثلا

وكنا اذا الجبار صعر خسل ضربناه حتى تستقيم الاخادع

او كقول المتنبي

الحيل والليل والبيداء تشهد لي والرمح والسيف والقرطاس والقلم
فيجيبه السمول من حصنه بالمنع وينشد ابياتا تدل على وفائه وصدق نيته وشرف نفسه ثم تدور بينهما المحاورة الى ان يقط الحارث من اخذ الدروع

فيعد الى ابن السمول فياخذ ويذبحه بمراي منه وهنا يرخى السجف .
ثم بعد قليل يظهر السمول وبيلك الدروع فيذهب بها الى اقارب امرء
القيس ويسلها لهم وينشد ابياته المشهورة وهنا يتم الفصل * وهذا التمثيل
على نوعين . الاول تمثيل عما يحزن من نحو الحروب واخذ النار ويقال له
عندهم تراجدي والثاني وهو عكسه ويقال له كوميدي . وكلاهما يعدان من
الادبيات غير ان النوع الثاني يكثر فيه التوريات والمواريات والتجنيس .
ولغة الانكليزية فيما اظن اطوع على ذلك من غيرها وان اللغات في هذه الملاعب
وان اختلفت وفصل بعضها بعضا إلا ان الحركات والاشارات جميعها واحدة .
واشهر اللاعبين عند الافرنج اهل ايطالية ولعل ذلك بالنظر الى الانشاد
والغنا فان اللغة الطليانية اطوع على ذلك من غيرها لكثرة ما فيها من الحركات
وهم اول سن احيا طريقة التراجدي وذلك القرن السادس عشر ولكنهم كانوا
يحفظون النغم عن ظهر القلب كما هي العادة عندنا لان ثم اقتدى بهم اهل
فرنسا لكن الحلق وقتئذ كانت مثل العقول غليظة جافية . واول سن الف
في هذا الفن من اليونان اورويديوس وذلك قبل الميلاد باربعمائة وثمانين
سنة . فاما في تمثيل الحزنان ونحوها وفي خفة الحركات واللباقة فالرزية
لاهل فرنسا والانكليزية تبع لهم . فاما في المضحكات فهؤلاء هم المتبوعون وذلك
لسعة لغتهم كما مر . ومن العجب هنا انه معما يظهر في وجوه الانكليز من
العبوس والانتقاض فان لسانهم ادعى الى البسط والضحك من السنة سائر
الافرنج . ومن الطليانيين سن ينشد في هذه المواضع ابياتا بل قصائد على
البديع بان يختار احد الحاضرين لفظة يجعلها قافية ويقول للاعب انشد
ابياتا على هذا الروي فينشك دون توقف وقد سمعت احد الانكليز ينشد
ابياتا زعم انه مرتجلها وذلك بان يصف مثلا احد الحاضرين بانه لابس
لباسا بلون كذا او ان يبك عصا او انه متكئ وعند التحقيق علم انه انما
كان راويا لها فقط على ان ارتجال الشعر عند اي جيل كان من الافرنج هين
لان كلامهم كله مجزوم اي خال عن الاعراب وليس بين الكلام المتعارف عند
خاصتهم وبين كلام الكتب من فرق كبير إلا ان يقال ان مهابة الجمع تقحم

الشاعر غير ان سن الف روية المجموع في كل ليلة تساوى عندهم قلوبهم
وكنهم فمقله كمثل العائم في البحر يمشي عنك قاموسه وصحاحه وعلى
كل حال لهم المزية الكبرى في كثرة الحفظ وفي حسن الاداء . ثم انه كما
يتعلم من هذه المشاهد كثير من العمامد والمكارم والفصاحة والخطابة كذلك
يتعلم المترددون عليها ولا سيما النساء كثيرا من الحيل والاسباب الموصلة الى
الوصال وتبديل البعولة بالعشاق لما يرين من فتور الزوج وحرارة العاشق
المثليتين نصب اعينهن وخصوصا تكلف العجب والتهيب من اللاعات على
الرجال فانهم يبدون من هذه الحركات والصفات ما يغري كل امرأة بهكاتها
وكذلك اللاعبون يبدون من الحماسة والتجبر ما يشوق كل امرأة الى ان
يكون لها بغل او عاشق نظيره ولا سيما حين يلبسون الديباج ويتقلدون
السيوف ويأمرون وينهون . واعظم ما يعجب النساء من تلك المناظر هو
ان يرين الرجال يتصارفون بالسيوف ونحوها او ان ياخذوا ثراهم من
افخرى على حرمهم . وقد تلبس الرجال في هذه الملاعب ملابس النساء والنساء
ملابس الرجال واحسن ما تبدو المرأة به ما اذا لبست لباس الكمي وعلى
راسها خوذة وفي المواقع فان كل ما يلبس هناك يلقى بهن . ومن اعجب
ما يرى من احوال هؤلاء اللاعبين واللاعات هو ان الشيخ منهم يتفق في
زيمه واطواره وكلامه حتى لا تحسبه الا فتى والفتى يتشبه بحيث تحسبه
هما هرما فلو ظهروا في المرة لاثية ما عرفت منهم احدا بل يغيرون ايضا اصواتهم
ولهجهم وسحتهم وشعورهم ويتخادبون ويتعارجون ويتمازحون ويتناومون
ويتعامون ويتساكرون ويتباكون ويتضحكون ويتحامقون ويتجانسون
ويحاكون الملوك والسلاطين والقضاة والعلماء والاطباء والفقهاء والمخذلقين
والحقى وكل صنف من الناس . ومن اعظم ما اضحكني من محاكاة الشاوب
تمثيلهم اميرا من امراء باريس قد قدم الى لندرة واستوخم هواها فكان كلما قل
كلمة تشاب وتناقص اشارة الى ان هوا البلاد قد ثقل عليه وان جميع الانكيز
ذووا وجوه كالحة . ومن يرههم اول وهلة فربما حسدهم او تمنى ان يكون في
زمرتهم اذ يراهم مغازلين للنساء الحسان ومترددين باللباس الفاخر وربما اكلوا

في الملعب الطعام القدي وشربوا الشراب اللذيذ الا انه عند التروي يعلم
ان حرفتهم لمن اشقى الحرف لان اللاعب يلزمه ان يعيد لعبته عدة ليل
مستالية كما هي وكذا المغني والمشد والشئ اذا تكرر تكرر وربما لزمهم في
الليالي الباردة ان يلبسوا الثياب الرقيقة. وفي الصيف عكس ذلك . وبعد
فانهم يعلمون من انفسهم انهم ان هم إلا مستاجرون وان استبرقهم إلا عارية
وهي عار . وحيث قد جرت العادة بان ابتداء اللعب يكون غالبا في الساعة
السياسة وختامه بعد المحادية عشرة كان كثير من العابهم سخيفا فلو قصروا
الوقت واجادوا اللعب لكان اولى . وهذا كاللزام بعض المؤلفين عندهم لنوع
يسمى نوفل ان يجعلوا الكتاب ثلثة مجلدات فيفسفون ويدنقون ويأتون
بالغث والسمين . وقد رايت غير مرة امرأة تبرز في ثياب رثة ثم تغسل
وجها وتمشط شعرها والناس يغربون من ذلك في الضحك واهرف اناسا
كثيرين يحرمون انفسهم من لذة الاكل والشرب حتى يمكنهم مشاهدة هذه
الملاهي ولا يملون من ان ينظروا تمثيل واقعة واحدة عدة مرار . وفي الواقع
فان نصف تمثيلهم انها هو جزء بالمتزوجين . وكذلك اكراه من تمثيلهم انهم
يجعلون المرأة الضعيفة الصوت تشد اشعارا فيها حاسة ووعيد وكذا يجعلون
الانسان مشتركا اي يحدث نفسه فيقول المحب مثلا وقد اعيتته الحيلة في
وصال محبوبته « كيف افعل لان وقد سدت علي مداخل الامال فلم يبق
لي الا هذه الوسيلة وهي كذا وكذا » . وكذلك استحمق بروز المرأة مثلا في
الملعب ويدها كنارة او آلة اخرى للطرب ولا تعزف بها وانما يعزف عنها
بعض العازفين من تحت الملب وهي مع ذلك تمر يدها على الآلة وتوهج
الناس ان الصوت خارج من آلتها . وبودي لو كانت العرب نقلت عين
اليونانيين شيئا من هذه المحاورات كما نقلوا عنهم الفلسفة او انهم القوا فيها
ولا يبعد عندي ان شعراء العرب حين كانوا يتلشدون لاشعار في عكاظ كانوا
يجرونها على وجه يكسيها حوكا في النفوس مع اقترانها بالحركات والاشارات
ولا شك ان في هذا التمثيل معها يكتسب كلام الشاعر رونقا اكثر مما لو بقي
في الكتب او انشد مجرد انشاد . ولا شك ان مبدا الملهي عند اليونانيين كان

مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها فان جميع العلوم والفنون بل الاديان نفسها تكون في مبداءها ضعيفة . ومن انواع هك كالعاب اللعب الذي يقال له بنطوميم وهو لعب بالاشارة والحركة من دون محاورة ولا يلعب فيها الرجال والنساء الا بما يضحك ويسر . والواقع ان للاشارات شجونا وفنونا اكثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي الى مدى . واحسن هك الاصاحيك ما موقع بعد عيد الميلاد وصفتها ان يبرز رجلان او اكثر بلباس سخريه وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم ونساء بايديهن شبه عصا الساحر وهن بلباس الرقص فكلها ضربت المرأة بالعصا على الحائط خرج منه شيء او انشق او على صندوق انفتح واستحال الى هيئة اخرى . وقد جئ مرة بقفص كبير فيه صورة ديكن فصرته امرأة بالعصا فاذا هو قد استحال الى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها . وربما انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه واثائه فاستحال بيتا بديع للاستحكام وربما رأت كل ما فيه يدور ويتحرك او يصعد في الجو ويغيب عن النظر . ومن احسن ما رايت في هك المواضع على كثرة ترددي اليها تمثلهم فتح الاسبنيوليين مدينة ييرو في اميركا واجتماع اهلها في هيك لهم يسمى هيك الشمس للاستغاثة بها على العدو فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس ولها شعاع يهي وبنين يديها مذبج عليه شعلت نار سنية ثم قام كاهنهم يحصهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون للشمس ترتيلا مطربا وكانوا جمعا عظيما حتى كاد المكان يتزلزل لاصواتهم ثم جعلوا محلا ياتي عليه ضوء القمر وجاء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكماة وعلى روسهن اكليل وكان يرى لهن ظل في ضوء القمر ثم اطلعوا شجرة تحل من وسط الملعب ثم رمت بما كان يرى في جتها شبيها بالسعف فصارت كالشرايط فامسكت كل جارية بشرطة وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابير والتزواج والانفراد وبكل شكل من الاشكال بما يدهش الناظر . ومن ذلك انه برز في الملعب مئة وثلاثون جارية بلباس الرقص الشفاف وبعد ان رقصن هنيئة ارخي الحجاب ثم فتح واذا بهيكل سنيع يتلالا بالانوار الملونة البهجة الساطعة

وقد وقف عشر جوار من هذا الجانب وعشر من الجانب الآخر باثواب من الخز شفافة بلون القرنفل وبدت روس ست جوار من فوق حيز فصفت الناس تعجبا واستحسانا ثم اصعدت هولاء الستة وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلعب وعدتهن اثنتا عشرة جارية فزاد تعجب الحاضرين فلما تكامل الاعداد اذا بالجواري الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان ثم اصعد ثلث جوار ووقفن بين الصنفين بلباس مذهب وبايديهن صوالج تلعب ثم زادت الانوار تدبجا وسنا وزاد تعجب الناس ثم اصعدت ثلث خوار اخر ووقفن فوق الصف الثاني وبايديهن صفائح لماعة ثم ادلي ثمان جوار من كل جانب اربع فكن يدرون متديلات في الهواء المسير وبعضهن اعلى من بعض ثم اصعدت جاريتم واقفت على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتالق كأنها الثريا التي تعلق في السقف وهي في داخل الهيكل ويدها صولجان فكانت اعلى من الجميع وكانت ثيابها تتالق تالق القبة وكان على حائط الهيكل صورة امرأتين ايضا بصفة هولاء الجواري فلم يمكن الناظر يميزهما من النساء وحينئذ بلغ العجب اقصاه واخذ اصحاب البطوميم يلعبون والنساء على تلك الحالة . وقد يصعدون النساء ولاشجار من اسفل الملعب اصعادا وينزلونهن من السقف انزالا ويجعلون جميع العجب والحيطان تتحرك بنفسها ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والجبال والصابا والثلج والمياه وسائر المخلوقات والمصنوعات . ومرة اخرى راينا سفينة في بحر او شيع شبيه بالبحر ثم اخذت الامواج ترتفع وتتلطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها اصلا . ويطلعون قبا منجهة مخوفة بالانوار المتالقة والبرق يحفها ثم تنشق عن روس نساء ثم تاخذ في النزول والنساء في الظهور الى ان تغيب القبة بالكلية وتبرز النساء في الملعب ويلبسون الرجل هيئة ديك والمراة هيئة دجاجة وترى شيئا يستحيل طائسا يمشي وآخر بقرة تتحرك وغير ذلك بما يقصر الوصف عنه . ومما اعجبني تمثيل عرس بعض ملوك الهند بان زينوا فليين احدهما كبير والاخر صغير وعلى كل منهما قبة مزخرفة فدخل الملك في قبة الفيل الاكبر ودخلت الملكة في قبة

مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها فان جميع العلوم والفنون بل الاديان
نفسها تكون في مبداهها ضعيفة . ومن انواع هك الاعاب اللعب الذي يقال
له بنطوميم وهو لعب بالاشارة والحركة من دون محاورة ولا يلعب فيها
الرجال والنساء الا بما يضحك ويسر . والواقع ان للاشارات شجونا وفنونا
اكثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي الى مدى .
واحسن هك الاضاحيك ما موقع بعد عيد الميلاد وصفتها ان يبرز رجلان او
اكثر بلباس سخريه وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم ونساء
بايديهن شبه عصا الساحر وهن بلباس الرقص فكلمها ضربت المرأة بالعصا
على الحائط خرج منه شيء او انشق او على صندوق انفتح واستحال الى
هيئة اخرى . وقد جئ مرة بقفص كبير فيه صورة ديكين فضربت امرأة
بالعصا فاذا هو قد استحال الى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها . وربما
انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه واثائه فاستحال بيتا بديع للاستحكام
وربما رات كل ما فيه يدور ويتحرك او يصعد في الجو ويغيب عن النظر .
ومن احسن ما رايته في هك المواضع على كثرة ترددي اليها تمثلهم فتح
الاسبينوليين مدينة ييرو في اميركا واجتماع اهلها في هيك لهم يسمى هيك
الشمس للاستغاثة بها على العدو فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس
ولها شعاع يهي وبين يديها مذبح عليه شعلة نار سنية ثم قام كاهنهم
يحصهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون للشمس ترتيلا مطربا
وكانوا جمعا عظيما حتى كاد المكان يتزلزل لاصواتهم ثم جعلوا محلا ياتي عليه
ضوء القمر وجاء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكماة وعلى روسهن
اكليل وكان يرى لهن ظل في ضوء القمر ثم اطلعوا شجرة تحل من وسط
الملعب ثم رمت بما كان يرى في جتها شبيها بالسعف فصارت كالشرايط
فامسكت كل جارية بشرطة وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابير والتزواج
والانفراد وبكل شكل من الاشكال بما يدهش الناظر . ومن ذلك انه برز في
الملعب مئة وثلاثون جارية بلباس الرقص الشفاف وبعد ان رقصن هنيهة
ارخي الحجاب ثم فتح واذا بهيكل سنيع يتلالا بالانوار الملونة البهجة الساطعة

وقد وقف عشر جوار من هذا الجانب وعشر من الجانب الآخر باثواب من الخز شفافة بلون القرنفل وبدت روس ست جوار من فوق حيز فصفت الناس تعجبا واستحسانا ثم اصعدت هولاء الستة وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلعب وعدتهن اثنتا عشرة جارية فزاد تعجب الحاضرين فلما تكامل الاصعاد اذا بالجواري الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان ثم اصعد ثلث جوار ووقفن بين الصفيين بلباس مذهب وبايديهن صوالج تلعب ثم زادت الانوار تدبجا وسنا وزاد تعجب الناس ثم اصعدت ثلث خوار آخر ووقفن فوق الصف الثاني وبايديهن صفائح لماعة ثم ادلي ثمان جوار من كل جانب اربع فكن يدرن متديلات في الهواء النير وبعضهن اعلى من بعض ثم اصعدت جاريته واقفت على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتالق كأنها الثريا التي تعلق في السقف وهي في داخل الهيكل ويدها صولجان فكانت اعلى من الجميع وكانت ثيابها تتالق تالق القبة وكان على حائط الهيكل صورة امرأتين ايضا بصفة هولاء الجواري فلم يمكن الناظر يميزهما من النساء حينئذ بلغ العجب اقصاه واخذ اصحاب البطوميم يلعبون والنساء على تلك الحالة . وقد يصعدون النساء ولاشجار من اسفل الملعب اصعادا وينزلونهن من السقف انزالا ويجعلون جميع الحجب والحيطان تتحرك بنفسها ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والمجال والصاب والشج والمياه وسائر المخلوقات والمصنوعات . ومرة اخرى راينا سفينة في بحر او شبح شبيه بالبحر ثم اخذت الامواج ترتفع وتتلاطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها اصلا . ويطلعون قبا مذهبة مخوفة بالانوار المتالقة والبرق يحفها ثم تنشق عن روس نساء ثم تاخذ في النزول والنساء في الظهور الى ان تغيب القبة بالكلية وتبرز النساء في الملعب ويلبسون الرجل هيئة ديك والمرأة هيئة دجاجة وترى شيئا يستحيل طائسا يمشي وآخر بقرة تتحرك وغير ذلك بما يقصر الوصف عنه . ومما اعجبني تمثيل عرس بعض ملوك الهند بان زينوا فيلين احدهما كبير والاخر صغير وعلى كل منهما قبة مزخرفة فدخل الملك في قبة الفيل الاكبر ودخلت الملكة في قبة

الاخر وامام الفيلين ووراءهما جمع لا يحصى . ومرة أخرى مثلوا حالة المتزوج مع امراته بعد عقد الزواج بيوم واحد وذلك ان رجلا غضوبا تزوج امرأة مثله وكان كل منهما يعلم حال صاحبه وكان في نوبة غضبه يركس من امتعة البيت ما يمكن ركسه ويكسر ما يمكن كسره والرجل يدعو خادمه ويعبث به ويؤذيه وكذلك المرأة تفعل بخادمتها فلم تات عليهما ليلة إلا وقد اتلفا جميع ما في الدار فكنا نرى اوراق الكتب تتناثر في الجو والقماش يمزق والكراسي والموائد تركس وكان مرة أخرى يوتى لرجل آخر غضوب بطبق فيه طعام فيري به في الملعب فحيث انتهى الطبق يطلع رأس انسان من كوة في الملعب ويدخل فيه . واعلم ان الرقص في ذلك المملهي مخالف للرقص المعهود في التراقص فانه هنا اكثر خفة وصنعة وموازنة فقد ترقص المرأة على روس اصابعها عدة دقائق وتمشي كذلك القهقري وقد تتخلع وتتفكك تخلع التراقصات في بلادنا تقريبا بحيث لا يبدن شيئا مخلا بالحياء إلا انه كثيرا ما يرفعن سيقانهن في وجوه الناس وحين يدرن دورا متابعا يرى الرائي افخاذهن المستورة تشفى من الخزومع ذلك فلا يعد هذا مخلا بالحياء وكذا التقليل فان الرجل يلثم المرأة في فمها وخديها ولا حرج . وتعلم الرقص في بلاد الانكليز اصله من بلاد ايطاليا وذلك في سنة ١٥٤١ * ونقلت من كتاب معجم الاوقات ان مبدا هذه التمثيلات في بلاد الانكليز كان لاشياء روحية دينية واول تمثيلة اجريت متقنة كانت على عهد الملكة اليبابت وان اول تمثيلة اجريت متسقة ومنظمة كانت في رومية بحضرة البابا ليو العاشر وذلك سنة ١٥١٥ * اه * وفي لندرة اثنان وعشرون موضعا يرى فيها صور البلاد والمدن والاشخاص من وراء الزجاج ويقال لها بانورامه . اعظمها المحل الذي يسمى كولسيوم يصعد الى قبة في درج او في قبة صغيرة مزخرفة على شكل بيوت الصين لا تسع اكثر من اثنين فاذا استقروا فيها حركت بألة من تحتها كألة سفينة النار فتنبعث صعدا فاذا بلغ الانسان القبة وهي ذروة المحل راى صورة لندرة او باريس بكل ما فيها من الديار والطرق والانوار والمواضع المرتفعة والمنخفضة حتى يظن ان المرئي شيء محسوس

ويخيل له ان المسافة التي بينه وبين اطراف المدينة بعيدة كمسافة
المصور ويرى ايضا القمر يسير والنجوم تنقص وتزهر والنلج يتساقط ويسمع
زمزمة الرعد وغير ذلك مما يدهله * ومن المواضع الشهيرة دار الاختبارات
العلمية وهو موضع يشرح فيه خواص الاشياء وكيفية العلوم والصنائع والالات
فيها جرس كبير ينزل الناس فيه في حوض ماء وهناك ماء رايت الناس
يغمسون فيه اصابعهم وينزعونها بعجلة لان فيه خاصيته الارجاف الكهربائية .
واعظم بناء في لندرة بل في الدنيا كلها مجلس المشورة دام بناؤه عشرين سنة
وساحته اكثر من ثمانية جريان فيه اكثر من ١١٨٠ حجرة و١٩ ديوانا و١٣٦
مرقى وهو يشبه كنيسة لكنه من دون كوى وعلى مدار حيطانه زجاج ملون
عليه صور ملوك الانكليز اول حجر وضع في اساسه كان في السابع والعشرين
من نيسان سنة ١٨٤٠ وطول مجلس الامراء فيه سبع وتسعون قدما وعرضه
خمس واربعون وارتفاعه كذلك فيه عرش تجلس عليه الملكة وكريسيان عن
يمينه وشماله احدهما لزوجها والثاني لولدها وارتفاع مجلس نواب الاقاليم
خمس واربعون قدما وعرضه كذلك وطوله اثنتان وستون وهو يفتح في شهر
شباط ويغلق في تموز فتكون مدة انعقاده ستة اشهر وقبل الشروع في المذاكرة
والنظر في المصالح تقام الصلوة وكذا هي العادة عند الانكليز قبل كل امر ذي
بال ولا سيما قبل القتال وحين تحضر الملكة لفتحه او لاغلاقه يقدم لها احد
ارباب المناصب الشريفة خطابا وهو جاث على ركبتيه فتأخذه منه وتتلوه
ايذانا بما ذكر وقبل حضورها بساعتين تقتش اسرابه ودهاليزه جريا على
العادة من سنة ١٦٠٥ وذلك ان اهل مجلس المشورة حين كانوا مجتمعين يوما
وكان دين البروتستانت قد استتب حديثا حاول بعض من الكاثوليكين ان
يحرق المجلس واهله ببارود كان قد خزنه تحت اسمه فانتبه لهك المكيدة
بعض الحاضرين وفست على الرجل حيلته . وقد فرضت كنيسة الانكليز
المتصلة صلوة معينة لذلك اليوم وهو الخميس من شهر نوفمبر وفيه يخرج
رعاع الناس بتساوير وتماثيل كثيرة يثلون بها ذلك الرجل والبابا وغيرهما
من يحسبه الانكليز عدوا لهم وبعد ان يطوفوا بها المدينة بضجة وزاط

يحرقونها عند برج لندن ويسمون هذا اليوم كي فكس . واعلم ان اهل المجلس ينقسمون الى سادة ومسودين ويقال للاول مجلس السادات والثاني مجلس العامة وهؤلاء السادة قد يكونون من اصحاب الوظائف العالية سواء كانت دينية او دنيوية وعدتهم اربعمائة واثنان وستون منهم ستة وعشرون من مطارنت الانكليز واربع من مطارنت ايرلندة وثمانية وعشرون من اشرافها وما حكم به هؤلاء السائدون لا ينقضه اصحاب المجلس الادني الا في امور مخصوصة ولكل منهم ان يحتج عن نفسه حين تقام عليه الدعوى ويؤدي لاسباب التي يستصوبها خطأ واذا لم اثبات ما قرره ينكتفى منه بمجرد قوله على شرفي وفي غير ذلك يحلف واذا قضى اهل المجلس الادني بشي فلا بد وان يعرضوه على المجلس الاعلى والمملكة ان تبطل حكم المجلسين ولكن قلما تجرأ على ذلك ولكل من الوزراء ٥٠٠٠ ليرة في السنة ولاحد الدواكات من رزقه في كل يوم الف ليرة وكان للملك ثمانية آلاف ليرة ودار يسكنها وعدة اهل المجلس الادني ستمائة وثمانية وخمسون ينتخبهم اهل اقالم انكلترة وهي اثنان وخمسون اقليبا واهل المدن والمدارس ولا بد من ان يكون لنائب لاقليم ايراد ستمائة ليرة في العام من رزقه ولنائب المدينة ثلثمائة والحكمة في ذلك ان يكونوا قادرين على التفرغ للنظر في مصالح الرعية . واول مجلس مشورة عرف للانكليز كان في عهد هنري الثالث سنة ١٢٦١ وفي سنة ١٣٤٠ انقسم الى عال ودون كما تقدم ومصاريف المجلس تبلغ في السنة نحو ١٢٢٣ ١٦٢ ليرة منها مصروف الطبع يبلغ ٩٥٤ ٧٥ * وعروض المجال التي تقدم لمجلس المشورة يبلغ عددها في السنة نحو ١٠٠٢٨ ٥ وعدد النواقيع او الامضاء ٩٣٣ ٦٨٧ ١ * ومن المباني العظيمة في لندرة المتحف البريتاني وهو الموضع الذي فيه المتحف الغربية ولاشياء العادية والحجارة المعدنية ويقال له بريتش موزيوم بني من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٥١ واصل انشائه ان رجلا من الاشراف اسمه هائس سلون توفي سنة ١٧٥٣ واوصى بعشرين الف ليرة لمشتري تحف توضع في محل مخصوص للتفرج عليها فاعجب ذلك مجلس المشورة وفي ذلك التاريخ جمع ٣٠٠ ٠٠٠ بامر المجلس لانشاء ذلك الموضع . وفيه من الغرائب

حجر يقال انه سقط من الجو في ولاية السالك حين كان الامبراطور مكسيميليان عازما على ان يوقع بالجيش الفرنسي وذلك في سنة ١٤٩٢ فحفظ في كنيسة انسخهم الى اوائل هوشة الفرنسية ثم نقل بعد ذلك الى مكتبة كمار زنته مائتان وسبعون رطلا انكليزيا . ويوجد فيه ايضا حجارة اخرى سقطت من الجو بعضها سقط في سنة ١٧٩٠ وبعضها بعد ذلك باربع سنين وبخمس . وفيه جميع الحيوانات مصبرة وصور تماثيل وكسى اهل البلاد الاجنبية وآلات طربهم واثاثهم والعصافير المصبرة والطيور والوزغ والاسماك والاصداف والعظام والقرون والجماجم واسنان الفيلة والبيض . ومن هذه الحيوانات ما انقرض نسله من جلتها ساحفة جلبت من الهند وقد دفع في ثمنها الف ليرة . وفيه موضع آخر لجميع اصناف الجواهر المعدنية واخر لاصناف الدراهم والدنانير القديمة رايت في جلتها دنانير ضربت على عهد هارون الرشيد بالخط الكوفي وهي كبيرة رقيقة . وفيه موضع آخر للكتب تبلغ اكثر من ٤٦٠.٠٠٠ كتاب واذا اعتبرتها بحسب الاجزاء تبلغ اكثر من سبعمائة الف وهذا القدر يساوي مقدار كتب برلين ويني ولكن دون القدر الموجود في باريس ومونيخ . وهذه الكتب موضوعة على رفوف تشغل مسافة خمسة عشر ميلا من جلتها خزائن الكتب التي كانت للملك الانكليز تبرعوا بوقفها على الحل المذكور منها كتب مجلدة بالمخمل كانت للملكة اليبابن والجامس الاول ولشارلس الاول وغيرهم وكتب كانت لجورج الثالث وهي ثمانون الفا . واعظم موضع في هذه المكتبة هو ما وقفه الملك جورج الرابع يبلغ ثمنه ١٣٠.٠٠٠ ليرة فيه توراة قديمة طبعت في منستر سنة ١٤٥٥ وخرافات لقن الحكيم طبعت في ميلان سنة ١٤٨٠ واول نسخة طبعت من اشعار اوميروس طبعت في فلورنس سنة ١٤٨٨ ونسخة اشعار فرجيل في فينيس سنة ١٥٠١ وفيها اصوننة قيمته ما فيهما من الكتب ربع مليون . وهذه المكتبة يدخلها الناس باذن من ناظرها لاجل المطالعة والمراجعة وفي كل نصف سنة يتجدد الاذن ولا يؤذن للمطالع ان ينسخ كتابا منها برتمه وانما ينسخ منه جلا ولا ان يستصحبه ولا ان يطلب كتابين في تذكرة واحدة وقد بلغ عدد المطالعين في سنة واحدة

سبعين الفا وعدد كتب الخط ثلثون الفا وثمان خزانين منها فقط ٢٥٠٠٠ في جملتها كتاب توراة كتب لشارلمان وكتاب صلوات الملكة اليبابت غيشاوة من صنع الابرمة عملته بيدها . وقد ضمن بعض الكتب بلندوة بثلاثة الاف ليرة ويبت نسخة من بوكانشيو بالفين ومائتين وستين ليرة وقومت نسخة من توراة سكلن بخمسمائة ليرة وكسور . وفيها ثلثمائة وسبعة عشر كتابا باللغة السريانية . قلت لم يذكر المؤلف عدد الكتب العربية جريا على عادة اهل بلاده من عدم المبالاة بلغتنا وان يكن قد دون بها من العلوم والفنون ما لم يدون في لغة شرقية قط وحين كنت اذهب الى هذا الموضع المطالعة لم يتهيا لي ان اعرف اسماء الكتب العربية بجملتها لان اكثرها مكتوب بالحروف اللاتينية ومعلوم ان الاسم العربي لا يظهر بها حق الظهور . ومما رايت فيها من الكتب الجليله ادب الكاتب لابن قتيبة والنوابغ للمرخشري ومدح الشيء وذمه للجاحظ وديوان ابي تمام وهو يقارب ديوان المتنبي . وهذا المتحف هو من بعض ما تمكن رويته بجانا بلندوة يفتح ثلثة ايام في الاسبوع وهي الاثنين والاربعاء والجمعة ويستمر ذلك من السابع من سبتمبر الى اول شهر ماي ولا يدخله من الاولاد من كان سنه دون ثمانين سنين وعند بابيه عسكريان بالسلاح اعتبارا للهل . ومن ذلك متحف آخر يعرف بمتحف الخدمة المتحدة بني في سنة ١٨٣٠ وهو يشتمل على تحف نفيسة من جملتها سيف كان يتقلد اكرامول المشهور وجثة الحصان الذي كان يركبه نابوليون الاول في حرب واطرلو يقال له مارنغوذو اللحية وفيه ايضا صورة تلك الواقعة ولوح من وجه السفينة التي انتصر فيها نلسون . وعماخر يعرف بمتحف خصائص الجيولوجيا بني في سنة ١٨٣٥ وفتح في سنة ١٨٥١ بلغت نفقته ٣٠٠٠٠ ليرة وهو يشتمل على الجواهر المعدنية مما يتكون في بلاد الانكليز وغيرها من البلاد وعلى الآلات المتعلقة بهذا العلم . وعماخر يعرف بمتحف المرسلين يشتمل على اشياء كثيرة مما يتعلق بعلم حياة الحيوان وعلى مشاهير الالهة الوثنيين واشياء اخرى عديدة جليها هولا المرسلون من البلاد التي جالوا فيها . وعماخر يعرف بمدرسة الجراحين بني

في سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته ٤٠٠٠٠ يفتح لأهل المدرسة ولمن يكون له
إجازة من أحدهم وذلك في أيام معلومة من الأسبوع وهو يشتمل على ثلثة
وعشرين ألف قطعة من الأجسام المصبرة ومن الأعضاء والارباب وعلى جثة
جبار من أهل أرنلدة طولها ثمانى أقدام مات وهو ابن اثنتين وعشرين سنة
وذلك سنة ١٧٨٢ ولما مات قيست فكانت ثمانى أقدام وربعا . وفيه جثة
رجل حزقة من صقلية طولها عشرون اصبعاً . قلت ومن مشاهير القصار
فيليطوس الكوسي كان من صغرة اذا خرج يضع في جيبه كرات من الرصاص
خيفة ان تطيره الريح وكان شهيراً ايضا في عصره بالعلم ونظم الشعر . وآخر
يسمى الينوس الاسكندري كان طولها قدما وخمس اصابع ونصف اصبع
وكان له شهرة ايضا بالمنطق والفلسفة . قال وفيه جثة جبار آخر من أرنلدة
طولها ثمانى أقدام وسبع اصابع ونصف وقدر زراع من جثة جبار فرنسوي
كان طولها سبع أقدام وأربع اصابع وجثة فيل جلب من الهند وكان يوزي
الناس لداء اعتراه فكان لابد من قتله برشق من الرصاص ولما اريد قتله
اناخ على صوت فائدة ليصوب بعض المقاتل في جسمه فلم يمت إلا بعد
ان اطلق عليه مئة رصاصة . ثم جثت اجنة اسقاط واختان توامان ولدتهما
امهما وهي بنت سبع عشرة سنة من دون مقاساة الم ولم تنزل اجسامهما
متحدة وفيه شكل احشاء نابوليون مظهره لانتشار الداء الذي اودي به .
وآخر يقال له متحف صون بالقرب منه بني في سنة ١٨١٢ يشتمل على
اربع وعشرين مقصورة فيها تماثيل وتصاوير وجارة ثمينة وغير ثمينة وتحفى
وكتب من جللة تماثيله تمثل احدى الهة المصريين المسمى اريس ثمنه
الفا ليرة وفيه فرد مرصع (طنجية) كان الملك بطرس الأكبر اخذ من قائد
الجيوش التركية في أزوف سنة ١٦٩٦ ثم اهداه السلطان الكسندر الى نابوليون
عند الهدنة التي وقعت في تلسيت سنة ١٨٠٧ واستصحبه نابوليون الى
جزيرة صنت هلين ثم جاد به على بعض ضباطه فانقل الى هنا . ومن
ذلك الموضع الذي يقال له روشن الامة بني في سنة ١٨٢٤ وبلغت
نفقته ٩٦٠٠٠ وهو يشتمل على ثلثمائة وتسعين صورة منها ٢٨ صورة قومت

بمبلغ ٥٧.٠٠٠ ليرة و ١٦ صورة ثمثها ٧٥٠٠ ليرة وهو دون نظرائه في بلاد أوروبا .
ويوجد ايضا مواضع اخرى عدتها خمسة عشر عملا لجماعات للجغرافية والبناء
ومعرفة المعادن والتصوير واللقاء الخطب وغير ذلك . ومن المباني الجميلة
المصرف وهو البنك انشئ في سنة ١٦٩٤ وظيفته ناظرة في السنة اربعة
آلاف ليرة وللوكيل ثلاثة آلاف ليرة ولكل من المباشرين وهم اربعة وعشرون
رجلا الفا ليرة وعدد المستخدمين فيه ١٠١٦ منهم ٨١٤ من الكتاب سنويهم من
الخمسين ليرة الى الالفين فجملة مرتبهم في السنة مائة وتسعون الف ليرة
وايراده من تصريف حوالات ديوان الجباية ولاسقاط على الحوالات المتجربة
ومن فائدة قرض الدولة ومن مصالح اخرى ميرية ورأس ماله الذي يودي
عليه فائدة ٧٧٤.٠٠٠.٠٠٠ ليرة وجملة الفائدة ٢٥.٠٠٠.٠٠٠ ولا يسمح بان كواغد
تزيد على ١٤.٠٠٠.٠٠٠ وقيمة ما يتداول منها في ثلاثة اشهر تزيد على ثمانية
عشر مليوناً واذا اعيد اليه كاغد ابطال واعدم رأساً . ومن هك الكواغد مسا
تساوي قيمة الف ليرة واطن ان اغلى كواغد فرنسا لا يساوي اكثر من الف
فرنك . وفيه سبائك ذهب منها ما وزنه ستة عشر رطلاً وقيمتها ثمانمائة
ليرة . وفيه عدة موازين من جلستها ميزان يزن من سبائك الفضة من خمسين
رطلاً الى ثمانين وءاخر يزن في كل دقيقة ثلثاً وثلثين ليرة وقد جعل بحيث
يوزن الدينار الرائج ويرمي في صندوق والزائف في صندوق ءاخر . وفيه
ءالت لطبع الكواغد ورسم اعدادها من الواحد الى مئة الف بغاية ما يكون
من الصبط والاحكام . وبجانب هذا العمل الدار التي تجتمع فيها التجار
فتحتها الملكة في سنة ١٨٤٤ وبلغت نفقتها ١٨٠.٠٠٠ ليرة وفي وسطها تمثال
الملكة وعلى حيطانها رواميز ما عند اصحاب الصنائع والتجار من الادوات
والتحف وامامها ساحة مبلطة فيها تمثال ويلنكطون من نحاس راكبا على
فرس فوق عمود من المرمر . قال صاحب المعجم كواغد البنك التي تدولت
بين الناس في سنة ١٨٥٥ بلغت ١٩ ٦١٦ ٦٢٧ ليرة وفي بعض الاحايين زادت
على هذا القدر وقيمة السبائك التي فيه بلغت في سنة ٥٣ - ٦٦٢ ٥٢٧ ٢٠ وفي
سنة ١٨٢٨ تقارع عنه في المملكة عدة فروع . ومن ذلك ديوان المكس بني

من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٧ وفي سنة ١٨٤٩ بلغ عدد المستخدمين فيه
الفين ومائتين وثمانية وعشرين يصرف عليهم من الجوامك ما يبلغ في
السنة ٢٧١٢١٣ ليرة ودونه ديوان مكس ليفربول كان فيه من المستخدمين
في ذلك التاريخ الف ومئة واحد واربعون نفسا وايراد ديوان المكس الاول
في العام اكثر من سائر الدواوين وفيه مقصورة طولها ١٩٠ قدما وعرضها ٦٦ *
ونقلت من بعض صحف الاخبار ان الايراد الحاصل منه في العام يبلغ خمسة
وعشرين مليون ليرة وان ما دخل اليه من التبغ اي الدخان في سنة ١٨٤٨
بلغ ١٣٤ ٣٠٥ ٢٧ رطلا ومقدار ما دفع عليه من المكس ٢٣٢ ٣٦٥ ٤ ليرة وعدد
سن ثقفوا مدخلي الصنف المذكور من دون مكس ١١٥ ٢ وفي سنة ١٨٥٠ بلغ
الجلوب منه نحو ثلثة واربعين مليون رطل ونصف مليون * اما اسم التبغ
فيقال انه منقول عن اسم اقليم في اسبانية الجديدة بامريكا . واول ما علم
امره كان في سنة ١٦٩٤ وفي سنة ١٥٢٠ استعملته لاسبنيول في يوكاتان واكثروا
منه وفي سنة ١٥٦٥ جلب الى بلاد الانكليز فكان يصنع فيها اولاً لاجل
ارساله الى الخارج وفي سنة ١٥٨٤ شهر استعماله في ارلنطون ثم منع وفي
سنة ١٦١٤ ضرب عليه اداء على كل رطل نحو سبعة شلينات وفي عهد
شارلس الثاني منع تربيته وغرسه ثم ابيح . وفي لندرة ستة وعشرون مئدي
ويقال لها الاكلب وهي ديار رحية يجتمع فيها اغنياء لانكليز وجلتهم للمذاكرة
والمعاملة والمطالعة والاكل والشرب منها ما يجتمع فيه ثلثمائة ومنها الف
واكثر ولا يدخل فيها احد الا بشهادة بعض من اهلها واداء الدخول من
تسع ليرات الى اثنتين وثلثين ليرة . وفي كل سنة يدفعون ايضا شيئا
لمصاريف خدمتها وفرشها وانوارها وذلك من خمس ليرات الى اثنتي عشرة
ليرة وكلها حديثه عهد بالبناء وهذا الحال لا يدخلها النساء واذا رضي احد
من اهل هذه المواضع عن احد من الغرباء ادخله في زمرتها اكراما له *
وفيها عدة كنائس عظام اقدمها وستمينستراي وكانت في الاصل ديرا للرهبان
البانديكيين اسست في سنة ٦١٦ ثم وسعت وجددت على ما تراها الان في
عهد هنري الثالث وابنه ادورد الاول وفيها تتوج ملوك لانكليز وملكاتهن

من عهد ادورد الملقب بالمعترف الى الملكة فكتوريا وقد جالست على الكرسي الذي تتوج عليه الملوك وهو كرسي عال قديم مغشى بالجلد ككراسي الكنائس والاديار في الزمن القديم خال عن الزخرفة مطلقا وكثير من ملوك لانكلير واشرافهم وعلماهم قد دفنوا فيها من جلستهم هنري الثالث وماري ملكة سكوتلاند وكسراف الشاعر صنع له بها قبر حسن فبلغت نفقته عشرة آلاف ليرة صرفت من هانريته زوجة الدوك (او دتشس) مارلبورو * وفيها قبر لسراسحاق نيوطون كلف خمسمائة ليرة وآخر لشكسبير * ولما سئل بوب البشاعر ان يكتب تابينه كتب ما ترجمته هكذا : اهل بريتاينة يحبونني ويحفظون صيتي سالما من اسم بربر او بنصون . يعني ان هذين الرجاين كانا لا يحسنان الرئاء والتاين مع كونهما كانا يتعرضان له . ومن ذلك كنيسة صان بول (اي ماربولس) وقد تقدم ذكرها اول حجر وضع في اساسها كان في سنة ١٦٧٥ و٤ اخر حجر في سنة ١٧١٠ وذلك بعد خمس وثلاثين سنة في عهد راز واحد واسقف واحد فبلغت نفقتها ٧٤٧ ٩٥٤ ليرة وشليين وتسعة بنس جعت من مكس جعل على الفحم ولذلك يقال انها تردت بلباس اسود كما تراها الان . قلت بل جميع مباني لندرة متردية بهذا الرياش حتى ان مجلس المشورة مع كون البناء فيه متصلا بطنه الناظر قد مضى عليه احقاب من الدهر . قال وشكلها على شكل صليب لاتيني وطولها من الشرق الى الغرب خمسمائة قدم وعرضها مائة وطول صومعتها مائتان واثنان وعشرون قدما وارتفاعها من الحضيض الى ذروة الصليب اربعمائة واربع اقدام وعدد قضبان درابزينها المحيطة بها القان وخمسمائة بلغت نفقتها ١١ ٢٠٠ ليرة وليرتين ونصف شلين ودورتها ثلثة ارباع ميل . قلت جميع التريعات والحدائق والغياص بلندرة ومعظم الديار محاطة بدرايزين من حديد لعل ثمنها يوازي ثمن مدينته باسرها . قال وداخل الكنيسة مبط بالرخام الاسود والابيض وسقفها عقد من دون زخرفة ولها قبة عظيمة دورتها من داخل ثلثمائة وست عشرة قدما واذا طلعت الى اعلى القبة من داخل الكنيسة خطوط ستمائة وست عشرة درجة . ومن شان هذه القبة انه اذا وقف رجل في جهة منها وقف اخر

في جهته المقلبة له واسر اليه كلاما بان يضع فمه على حائط القبة سمعه
الاخر . وفي داخل الكنيسة تماثيل الملوك والمشاهير من الانكليز وابطالهم عندها
تماثيل ملئكة بصورة نساء تتقدم لهم الاكاليل اشارة الى انهم ماتوا شهداء في
سبيل الله وثم ايضا تماثيل نساء بارزة نهودها ولها اربعة ابواب في كل
جهة باب وقدام الباب الاكبر اثنا عشر عمودا من ابل وثمانية في الطبقة
الثانية ولكل من الباقي اربعة اعمدة ولها قبتان متقابلتان في كل منها ساعة
دقاقة وفي يوم معلوم من السنة يهبطون موضعا فيها لترتيل الاولاد فتبايع
نفقته ثلثمائة ليرة وفي اليوم الثاني يزاح هذه الكنيسة هي اكبر كنيسة للبروتستانت
في الدنيا وهي دون كنيسة رومية وتشبه بعض الملاحى في انها لا تفتح الا
في ساعة معلومة من النهار ولا يمكن رؤية جميع ما فيها الا باداء نحو خمسة
عليقات . وفي لندرة كنائس كثيرة منها ثلث عشرة كنيسة يبلغ مصروفها في
في السنة اكثر من عشرين الفا وايراد رئيس اساقفة كستر بوري في السنة
خمس وعشرون الف ليرة وايراد رئيس اساقفة يورك خمسة عشر الفا *
وليس لمطران باريس من الايراد ثلث ما لاسقف لندرة وجملة ما يصرف
على الكنائس نحو ٥٠٠٠٠ ليرة وايراد اسقف لندرة في السنة خمسة عشر
الف ليرة ولكن خليفته لا يكون له الا عشرة آلاف فقط وايراد باقي الاساقفة
من اربعة الى الف ليرة فصاعدا فهم بمثابة وزراء الدولة فان سنوية اول
لورد في ديوان الوزارة البحرية اربعة الى الف وخسمائة ليرة . ثم انه كما
ان هولاء الرعاة المتبتلين الى الله تعالى ماثلوا الوزراء والامراء في اخذ الارزاق
والوظائف كذلك ماثلوا لهم في الرفعة والشان والانفراد عن الرعية فان مواجهة
رئيس اساقفة الانكليز اصعب من مواجهة البونس البرت زوج الملكة وقد
اضطرت مرة الى ان اكتب اليه في امر ما فورد الجواب منه في رقعة قدر
نصف الكف وكان خطابه بضمير الغائب ونفى فيه ما لم يكن يحله النفي
احترازا من ان الكلف بخطاب آخر ولكن اي لوم عليه اذا لم يجاوب
احدا لان رئيس الكنيسة الذي ايراده حسة وعشرون الف ليرة في السنة
ليس عليه ان يجاوب سن ليس له صلدي واحد من كل ليرة تدخل خزانته

الرسولية وقد كان الحوري ميخائيل شاهيات حضر الى هذا الطرف وكتب
ثلاث رسائل احداها الى البرنس البرت والثانية الى اللورد بلرستون والثالثة
الى المطران المشار اليه فجاءه الجواب من الاولين ومن الاخير لم يرد سلب
ولا ايجاب واقسم لو ان يهوديا غنيا من امستردام وفد عليه في حاجلة
ورواء لاحتفل به واكرمه غاية الاكرام ولكن ليت شعري ما معنى كلام
ماربولس بقوله : اما الذين يرومون الغنى فانهم يقعون في المحنة والفخ وفي
شهوات كثيرة سفيهة ضارة تغرق الناس في العطب والهلاك لان حب
المال اصل كل شر وهو الذي اشتهاه قوم فضلوا عن الايمان وطعنوا انفسهم
برزايا كثيرة فاما انت يا رجل الله فاهرب من هذه الاشياء واقتف البر
والتقوى والايمان والنجبة النخ . وبقوله : ومن حيث ان لنا القوت والكسوة
فلنقتنع بهما . وبقوله : اما التقوى مع القناعة فانها مكسب عظيم . اه . ورب
معترض هنا يقول ان الكنيسة لان ليست كالكنيسة في مبدا النصرانية اذ لم
يكن للنصارى وقتئذ دولة ولا سطوة فاما الان فان عزها يرجع الى عز الدولة
وان رئيس الاساقفة لان يلزمه ان يكون من اهل مجلس المشورة وان يزور الوزراء
ويكون مزورا منهم وان يصنع مآدب للاشراف ويتكلف نفقات كثيرة فلا بد
له والحالة هذه من رزق وافر يجري عليه ومن صرح وعاجلة وخدم واواني
فضة ونفيس اثاث . قلت اذا كان الاسقف تزوره ارباب الدولة وتدعوه
الى الولايم مع اقتصاد حاله او بالحوري مع تنقشفه كان ذلك ادعى الى
كرامته وتعظيمه فاما تكلفه للنفقات والولايم وغير ذلك فانه شاعل له عن
اداء ما يجب عليه من تعهد الرعية وتقصد احوالهم وهذا هو اصل معنى
الاسقف . فان قيل ان امور الكنيسة لان قد استتبت وانتظمت فلم يبق
حاجة الى تكليف الاسقف او رئيس الاساقفة بالنظر فيها والتعهد لها قلت
اذن هو اقرار على انفسهم بعدم لزومهم على اني لا اعرض لمثل هذه المسائل
فان لكل كنيسة اساقفة ومطارنة وحيث ان ماربولس قد ذكر اسم الاسقف
فلا بد من وجود مسماه ولكني ارى شيئا على من يعير غيره شيئا وهو متلبس به
فان الانكليز ينسبون الكنائس الشرقية الى العظمة والتبذخ والسرف والشطط

مع ان روية بطاركة انطاكية ممكنة لكل احد ولا يخفى ان انطاكية في الدين اشرف من لندرة . ومن المباني العظيمة بيت الهند اي بيت الجماعة التي بيدها تدبير مملكة الهند بني في سنة ١٧٩٩ وفي سنة ١٨٣٣ حصل فيه تغييرات جمة وحيشذ صدر امر من مجلس المشورة باقرارها على حالها . وفيه متحف واصنام من فضة وذهب جلبت من تلك البلاد وكتب وسلاح ودنانير وغير ذلك . ونقلت من بعض الكتب ان جمعية الهند استتبت للتجارة في تلك البلاد سنة ١٦٠٠ ثم صارت تاجرة ومحاربة معا فطردت الجمعية الفرنسية وذلك سنة ١٧٥٠ حتى تغلبت على اكثر البلاد . وقال آخر ان اول سعي ابدته لانكليز فيما يخص الهند كان تجهيز ثلث سفائن وذلك في سنة ١٥٩١ ولكن لم يصل منها الا واحدة فقط ثم بعد سئثر ثلث سنين رجع الربان في سفينة اخرى لان الملاحين غلبوه على سفينة فلما ان رجع اخبر لاهلين بما جرى له وبما راي فجذبهم الحرص لارسال سفن اخرى تجارية وتم انعقاد ذلك في سنة ١٦٠٠ فجمعوا اثنين وسبعين الف ليرة جهزوا بها اربعة مراكب وفالوا اربهم واستمروا يتجارون ويتاجرون هكذا . وفي سنة ١٦٩٨ عقدت جمعية اخرى ثم التحمت بالاولى فصارتا جمعية واحدة وذلك في سنة ١٧٠٢ ثم بني بيت الهند في سنة ١٧٢٦ وفي سنة ١٧٩٩ وسع وكبر وفي سنة ١٧٨٤ استقر ديوان جماعة الهند * اه * قال فلتير ان براهمته هذا العصر ما زالوا على مذهب اسلافهم الذميم من اغراء النساء باحراق انفسهن بعد موت بعولتهن والعجب ان هؤلاء الناس الذين لا يستحلون دم الانسان او البهيمة يرون ان ابر المناسك هو احراق نسائهم ولكن هذا شان الوسواس والاضاليل ابدا تاتى بافعال متناقضة . ومن زعمهم انهم يقولون ان برهام هو ابن الله نزل الى الارض واتخذ ازواجا كثيرة فلما مات تطوعت احب ازواجه له الى ان تحرق نفسها رجاء ان تالحقه في نعيم السماء ومذ ذلك الوقت سرت هذه العادة السجدة ولكن ليت شعري كيف يتناقى للنساء ان يعرفن بعولتهن وقد صار بعضهم خيلا وبعضهم فيلة وبعضهم يوما وكيف يمكن لهن ان يميزن الحيوان الذي دخل فيه روح الميت غير ان هذا الاشكال لا يعسر على هؤلاء الكهان

فان التناسخ عندهم انما يكون للعامة فقط فاما ارواح الخاصة فمن حيث انها كانت من جلته الملتكة الذين مردوا فلا بد من انها تسعى في التنقي والتطهر وكذا ارواح النساء اللاي يحرقن انفسهن تنعم بالنعيم السماوي حتى يجدن بعولتهن على حال الطهارة والغبطة . وهذا المذهب القبيح قد عرف عندهم منذ اربعة آلاف سنة مع كونهم قوما ودعاء لا يتجراون على قتل المجردة ولكن لا يمكنهم ان يجبروا الارملة على الاحتراق لان سر الشريعة انما هو ان تتقدم المرأة الى ذلك عن طيب نفس والتي تكون اقدم عند زوجها لها ان تاتى الاحتراق وكذا التي بعدها الى الاخيرة (١١٥) ويحكى ان سبع عشرة امرأة دخلن النار مرة بعد موت رجل واحد وكان من الرجاة ثم من بعد استيلاء المسلمين على بعض بلادهم قل استعمال هذه العادة . ثم قلت ايضا بخلطة الافرنج لهم إلا ان هذا المنظر السيئ الحزن قل ان فات واحدا من حكام مدراس وبنديشري فقد قال مسترهلول ان ارملة لم يزد سنها على تسع عشرة سنة احرقت نفسها بمرعى من زوجة لادميرال رسل وكانت بديعة في المحسن ولها ثلاثة اولاد ولم تلتن لدموع الباكين عليها ولم تقبل طلبتهم فاقسمت عليها السيدة المذكورة لتعدلان عنها فوته شفقت على اولادها فما كان منها إلا ان قالت ان الله الذي خلقهم لا يتركهم ثم شرعت في تنصيد الخطب بيديها فلما احتدمت النار دخلت فيها حتى احرقت وهي صابرة متجلدة . وراى احد الانكليز مرة اخرى فتاة حسناء سائرة الى النار فلما كادت تضرمها اجتذبتها قسرا وساعك على ذلك بعض اصحابه ثم سار بها الى منزله وتزوجها فكان ذلك عند الهنود بمنزلة انتهاك المحارم . قال ولكني اقول ما بال الرجال لا يحرقون انفسهم ليأحقوا بازواجهم ولم وقعت هذه القرعة على هذا الجنس الضعيف الهيوب افكان ذلك لان الرواية لم تذكر ان بعض الرجال تزوج ابنة برهام بل ذكرت ان برهام تزوج امرأة هندية نعم ان قدماء البراهمة كانوا يحرقون انفسهم ولكن انما كان ذلك ليتخلصوا من مضض الهرم وطوله بل بالحري ليعجب منهم الناس ولعل كالافوس لم يكن يدنو من النار لولا ان الاسكندر كان ناظرا اليه ولو ان

شرع البراهمة حكم بان المرأة لا تجرق نفسها إلا ومعها واحدة من العجائز
لبطلت هذه العادة من قبل لان * اه * قلت زعم الذين لهم معرفة بلغة
البراهمة ويسمونهم صانسكريت انها افصح اللغات واوسعها اساليب في
التعبير وانها ام للغة اليونان فلا يبعد اذا ان تكون محاسن هذه اللغة هي
التي مهدت الطريق للبراهمة حتى سادوا على العامة فان اهل البلاد الشرقية
ابدا عبيد الفساحة والبلاغة . فاما قول فلتير انهم قوم ودعاء لا يتجراون على
قتل الجرادة فما وقع في هذه الايام الاخيرة يناقضه وهو كثيرا ما يتعصب لهم
ولا اهل الصين ايضا . فاما عدد المسلمين في بلاد الهند فقليل خسته عشر مليونا
وقيل اكثر . قال في الابجدية اول سن كشف السفر الى الهند على طريق
الرجاء الصالح فاسكودي كما وذلك في سنة ١٤٩٧ ثم بعد ان استولت عليه
دولة هولندة صبطته دولة الانكليز ثم رد ثم قر الراي على انه يبقى في ملكها
وذلك في سنة ١٨١٤ * وذكر في تاريخ مصر انه في حدود العشرين بعد
التسعمائة ظهرت الفرنج البرتقاني على بلاد الهند استطرقوا اليها من بحر
الظلمات من وراء جبال القمر بمنبع النيل وغاصوا في ارض الهند فوصل
اذا هم وفسادهم الى جزيرة العرب وبنادر اليمن وجدة فلما بلغ السلطان الغوري
ذلك جهز اليهم خمسين غرابا مع الامير حسين الكردي وارسل معه عسكرا
عظيما من الترك والمغاربة وجعل له جدة اقطاعا وامره بتحصينها الى ان
قال ثم توجه بعساكره الى الهند في حدود احدى وعشرين وتسعمائة فهربت
الفرنج من البنادر حين سمعوا بوصولهم * اه * وعلم من خلاصة حديثه من
مجلس المشورة ان مساحة بلاد الهند تبلغ ١٤٦٦ ٥٧٦ ميلا مربعا لدولة
الانكليز منها ٨٣٧ ٤١٢ وللأهليسن ٦٢٧ ٩١٠ وفرنسا والبرتوغال ١ ٢٢٤
وعدد سكانها ٢٩٧ ٨٨٤ تحت حكومة دولة الانكليز منهم ٩٠١ ٩٩٠ ١٣١
وتحت حكومة الاهلين ٢٤٧ ٣٧٦ ٤٨ ولدولي فرنسا والبرتوغال ١٤٩ ٥١٧ *
وعلم ايضا من خلاصة اخرى ان عدد ضباط الانكليز فيها يبلغ ٥ ٢٤٩ وعدد
عساكر الانكليز وغيرهم من الافرنج ١٤٩ ٤٣ وعدد عساكر الاهلين ومن جناتهم
الشرطة ٥٩٦ ٢٨٨ فاذا اضيف اليهم عدد العساكر القائمة التي جرى عليها شروط

بين الالهين والدولة يبلغ العدد ٩١٨ ٣٩٨ وفي الجملة فكل عسكري واحد من الانكليز خمسة عشر من الهنود . ونقلت صحف الاخبار ان عدد سن دخل في طاعة دولة الانكليز من الهند وما يليها بلغ مئة وثلاثة وستين مليوناً من النفوس وجميع ما فيها من الانكليز خسون الفا منهم ثلثون الفا في الخدمة العسكرية والعساكر المستخدمة في دولة الهند تنيف على مائتي الف وقد زادوا لان بسبب الغيرة من دولة الروسية ففي سنة ١٨٢٧ بلغوا ثلثمائة الف منهم ١٥ ٧٨٢ مدافعية و ٢٦ . ٩٤ من فرسان الهنود و ٢٣٤ ٤١٢ من المشاة منهم ايضا و ٤ ٥٧٥ مهندسا وعدد العسكر الملكي ٢١ ٩٣٤ فجملة ذلك ٣٠٢ ٧٩٧ وان ايراد دولة الهند يبلغ في السنة نحو ١٥ مليوناً وكل عسكري يبعث من انكلترة الى هناك يكلف الدولة خمسمائة ريال وان جميع ادوات الحرب وجهاز العساكر تصنع في انكلترة ثم ترسل الى تلك البلاد وان جاكم الهند له في السنة فائتان وخسون الفا من صنف الروبي ولكل من اهل ديوان المشورة مائة الف وللقاضى خمسة وعشرون الفا ولكل من كتاب الديوان خمسة وعشرون الفا ومثلها لناظر الملح * اه * ومن العجب ان اهل هك الدار الذين يحكمون على هك المبالغ من الناس والبلاد والعساكر ليس يباليون بان يعينوا عسكريا واحدا امام الباب كما يفعل لسائر الدواوين الميرية ولو كانت هك الدار في باريس لكنت ترى عندها جوقا من العسكر يحرسونها ليلا ونهارا (١١٦) . وفي اخبار العالم ان ايراد الدولة من دولة الهند يبلغ ستة عشر مليوناً ومصاريف العساكر تبلغ عشرة ملايين وقدرهم نحو مائتين وخسين الفا . وفيه ان دولة الانكليز متسلطة لان على بر واحد وعلى مئة جزيرة متصلة بالارض وخمسمائة قب او راس والف بحيرة والفى نهر وعشرة آلاف بضيع اي جزيرة غير متصلة بالارض واذا اضطرت الى الحرب جهزت خمسمائة الف عسكري والف سفينة حربية ومائة الف بحري وان دول لاثوريين والرومانيين والفرس والعرب وقرطاجنة واسبانية لم تحصل على هذا العز والبسطة والسعة وانم ليس من اطيلة او اسكندر المقدوني او نابوليون او تيمور او هولاكوسن بلغ ما بلغت اليه من الفخر

والسطوة . قلت في سنة ١٨٥٠ بلغت البواخر اى سفائن النار المختصة ببلاذ
لانكلير وارلندة وسكوتلاندة الفا ومئة واحد وثمانين سفينة وفي سنة ١٨٥٢
بلغ جلته ما دون منها في مراسي تلك البلاد كلها الفا ومائتين وسبعاً وعشرين
سفينة . ثم ان اول سن فكري استنباط اداة لاصعاد الماء بواسطة النار كان
مركيزورسستر وذلك في سنة ١٦٦٣ وهو الذي ينسب اليه ايجاد تبليغ
الاخبار من بلد الى بلد بواسطة خارجية ولكن الظاهر ان فكرة هذا لم يهم
اهل عصره لان يتعلقوا بالاسباب الموصلة اليه . وقال آخر لاشك في ان
مركيزورسستر هو مخترع آلة البخار وذلك في زمن شارلس الاول وفي سنة
١٦٦٤ الف كتابا سماه عصر الاختراع وذكر فيه استنباطات عديدة على سبيل
الاختصار والغموض إلا ان اهل عصره لم يبالوا بذلك وكذلك ذكر بالتدقيق
بعضاً من مخترعاته . واول تجربة اجراها كانت في مدفع وذلك بان ملا
نحو ثلثة ارباع ماء ثم سد خرقة وفمه ثم ادناه من النار اربعا وعشرين
ساعة فانطلق بدفع شديد فدله ذلك على ان قوة البخار هي اعظم ممنا
يدركه الانسان وروي عنه انه قال قد جعلت الماء ينبعث من الجدول
ارتفاع اربعين قدماً والآن الذي فيه بخار يرفع اربعين اناء ملئت ماءً
بارداً إلا ان الناس لم يتنبهوا لذلك إلا في آخر ذلك القرن . ثم اخترع
القطبان صغري آلة لرفع الماء في سنة ١٦٩٤ فهذان الرجلان هما مخترعا
هذه الطريقة وقد نسبت الفرنسية استنباط ذلك الى احد فلاسفتهم المسمى
دكطر بابان وذلك سنة ١٦٩٥ والحق ان عملية لم تجر عندهم الا بعد مدة
طويلة . واول ما اجريت عملية القطبان المذكور كان في معادن كورنوال
ثم قام مستر نيوكومن ومستركين فتزجرالد وهدون بلور وواط وبلطون وبعد
ذلك قام القطبان شانك فانشأ سفينة لتسافر الى كندة في مدة حارب
الاميركانيين ونجح في سنة ١٦٨١ اخترع بابان آلة من هذا النوع ثم
قام صغري فصنع اداة لاصعاد الماء وذلك سنة ١٦٩٨ وفي سنة ١٧٨١ اخترع
واط السكوتلاندي آلة مزوجة ثم قام غيرهم كثيرون وكل منهم زاد شيئاً او
اتقن آلة . وقال الفاضل لارندر انه يمكن اصعاد البخار من طاسقي ماء

بأوثق من الفحم وفي حال تبخيرها تكثر فتصير مائتين وستة عشر غالوناً من البخار فيمكن والمخالة هذه ان ترفع بقوة آلة معها سبعة وثلاثين طنّاً ارتفاع قدم واحد . ويقال ان جملة القطع التي تركب في آلة النار تبلغ ٤١٦ ٥ قطعة . واول تجربة عملت على نهر تاس كانت في سنة ١٨٠١ . واول سفينة نار انشئت في انكلترة كانت في سنة ١٨١٥ وفي ايرلندة سنة ١٨٢٠ . واول سفينة نار سافرت الى بلاد الهند كان في سنة ١٨٢٥ . وكان انشاء سفائن النار الحربية في انكلترة سنة ١٨٣٣ * واعلم ان اول من عرف فن الابحار اي ركوب البحور هم اهل فينيقية وذلك منذ الف وخمسمائة قبل الميلاد . واول سفر طويل عرف منهم كان سفرهم الى افريقية وذلك سنة ٦٠٤ قبل التاريخ المذكور . ثم عرف في الاسكندرية الى ان صار كانه من خصائص الرومانيس . ثم عبر من اهل فينيسيا وجينوى الى اهل البورتوكال واسبانية ومنهم الى انكلترة وهولاندة ولم يكن اليونانيون يعرفون الابحار في بحارهم الصيقة إلا على الطوف وهو عبارة عن خشبات يشد بعضها الى بعض الى ان عرفوا ركوب البحر في السفائن من دأناوس المصري حين قدم عليهم هاربا من اخيه راماسيس وذلك سنة ١٤٨٥ قبل الميلاد . وهذا الطوف الذي يستعمله النوبيون لان هودون ما كان يستعمله اليونانيون فان ذلك كان جمعولا بحيث يمكن تديره وإدارته عند هيجان البحر . واول ما عرف للانكليز مراكب حربية ملكية مرتبة تحت ديوان معين كان في عهد هنري الثامن سنة ١٥١٢ . وكانت عدة البوارج في زمان الملكة الياصبت ثمانيا وعشرين . وفي سنة ١٨١٤ كان لبريتانية الكبرى تسعمائة سفينة . وفي سنة ١٨٣٠ كان لها ٦٢١ سفينة . وفي سنة ١٨٤١ كان مجموع سفائنها الكبيرة والصغيرة ١٨٣ . وفي سنة ١٨٥٠ بلغت خمسمائة من جلثها مائة واحدة وستون باخرة اي سفينة نار . وفي سنة ١٨٥٤ زاد هذا القدر فبلغ خمسمائة وستا وعشرين سفاة عدا سفائن اخرى كانت تستعمل في مصالح اخرى . وفي سنة ١٨٥٥ بلغ مجموعها مئتمائة سفينة وسفيتين . وعسدد ما اتلفت او غنبت من سفائن لدول في فتنة الفرنسية الى غاية سنة ١٨٠٢ كان ٣٤١ من سفن الفرنسيين

ومن سفن هولاندة ٨٩ ومن سفن اسبانية ٨٦ ومن دول اخرى ٢٥ فجمليتها ٥٤١ سفينة . وعدد ما اثلثته او غنمته في حربها مع دولة فرنسا الى غاية سنة ١٨١٤ كان ٥٦٩ سفينة منها ٣٤٢ لفرنسا و ١٢٧ لاسبانية و ٦٤ لهولاندة و ١٧ للروسية و ١٩ للاميريكانيين فمجموع ذلك كله ١١٠ سفن . فاما بوارج فرنسا فيمكن ان يقال انها بلغت اعلى شانها في سنة ١٧٨١ ولكن باد كثير منها في حربها مع الانكليز . وفي سنة ١٨٥٤ بلغ مجموعها ٦٩٧ منها ٤٠٧ سفينة نارية . وفي التيمس ان عدد سفن النار التي سجلت وانشئت من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٥٧ بلغ ١٨٠٥ سفن وفي سنة ٥٧ كان من هذه السفن في خدمة البلاد ومصالح البلاد الاجنبية ٨٨٩ ومن سفن الريج ١٨٤٢٩ سفينة . ووجدت في التيمس بعد فراغ هذا الكتاب نقلا عن جرنال اميركاني ان لدولة الانكليز من بوارج النار التي تحمل من ستين مدفعا الى مائة واحد واربعين وقوتها من مائتي حصان الى سبعمائة

عدد ٥٢

ومن بوارج الريج التي تحمل من ستين مدفعا الى مائة وعشرين ٤٤ ومن فرقيطات النار التي تحمل من عشرين مدفعا الى اربعة وخسين وقوتها من مائة وخسين الى الف

١٩

ومن فرقيطات الريج التي تحمل من ٣٢ مدفعا الى ٥٤ ٩١ ومن اغربة النار التي تحمل من خمسة مدافع الى عشرين وقوتها من خمسين حصان الى ثلثمائة وخسين

١٥٦

ومن اغربة الريج التي تحمل من عشرة مدافع الى عشرين ١٠٥ ومما يسمى كن بوت مما يحمل من ٢٠٠ طن الى ٨٠٠ ويحمل من ثلاثة مدافع الى ستة وقوته من ٢٠ حصانا الى ٣٥٠

٢٠٠

٦٦٧ فالجملة

١٣٨	ومن الصنف الخامس	٣٣	ولدولة فرنسا من الصنف الاول
١٣٨	ومن الصنف السادس	٢٣	ومن الصنف الثاني
٢٠٠	ومن الصنف السابع	٢٨	ومن الصنف الثالث
٦٠٥	فالجملة	٥٤	ومن الصنف الرابع

ولدولة هولاندة من الصنف الاول	١٠	ولدولة اسبانية من الصنف	
ومن الصنف الثاني	٩٠	الثاني اذ ليس لها من الاول	٦٠
ومن الصنف الثالث	٣٠	ومن الصنف الثالث	٠٢
ومن الصنف الرابع	٢١	ومن الصنف الرابع	١٠
ومن الصنف الخامس	٠٧	ومن الصنف الخامس	١٥
ومن الصنف السادس	١٢	ومن الصنف السادس	٢٣
ومن الصنف السابع	٣٦	فالمجملة	٥٦
فالمجملة	٨٩		

ولدولة اوستريا من الصنف الاول	١٠	ولدولة اميريكام من الصنف الثاني	٠٦
ومن الصنف الرابع	٦٠	ومن الصنف الثالث	٠٦
ومن الصنف الخامس	٥٠	ومن الصنف الرابع	١٢
ومن الصنف السادس	١٢	ومن الصنف الخامس	١٢
ومن الصنف السابع	٢٠	ومن الصنف السادس	٢١
فالمجملة	١٤٤	فالمجملة	٥٧

ثم رايت بعد ذلك ان لدولة فرنسا ما ينيف على السبعمائة ولدولة الانكليز ستمائة وتسعون سفينة غير ان بحرية هك اكثر فانها لا تنقص عن خمسة وثمانين الفا وبحرية فرنسا نصف هذا القدر والله اعلم . فاما احداث البارود فكان سنة ١٣٣٦ وذلك قبل استعمال المدافع بعشر سنين ولا يعرف محدثه وانما يظن انه من مخترعات راهب من بروسية اسمه مخائيل شوارتز والحق انه كان معروفا عند اهل الصين من قبل تاريخ الميلاد باحقاب كثيرة إلا ان استعمالهم له كان للصلاح لا للتدمير وذلك كتمهيد الطرق ودك التلال وحفر القني وان يكن قد ظهر من ادوات سلاحهم ما يحقق انه يجعل له إلا انه لم ينقل عنهم انهم استعملوه قط في حرب . واول ما استعمل في الحروب فيما علمناه كان في الحرب التي وقعت بين الانكليز والفرنسيس وذلك في سنة ١٣٤٦ * وقد نبغ في الانكليز عن قريب ضابط من صباط العسكر اسمه ورنر اداة الاجتهاد والتبحر الى ان اخترع شيئا يقدر به على اطلاق

اي سفينة كانت من مسافة ثلثة ارباع ميل من دون مماسة البارود اياها .
وقد جرب ذلك بحضرة مامورين من طرف الدولة عند مدينة بريطون
وصحت تجربته لا بل زعم انه يتلف المركب من مسافة خمسة اميال .
قلت فلا يبعد اذا ما ذكره لوقيان وغالن عن ارشيمدس من انه احرق
مراكب الرومانيين في حصار سيراquose بواسطة الزجاج وذلك قبل تاريخ
الميلاد بسنة ٢١٢ * قال وقد اراد الصابط المذكور ان يبيع هذا السر للدولة
لكنه اشط في الطلب فلم تشتره منه . قال وقد نبغ ايضا شنبين الكيماوي
من برلين في هذا الفن واحداث شيئا يفعل فعل البارود بل اكثر وهو ان
يغمس القطن في اجزاء متساوية من النطرون والكبريت ثم ينشف فياتي
كالبارود في الثقل والدفع واسلم عاقبة منه . وقيل انه باع هذا السر في
بلاد الانكليز باربعين الف ليرة إلا ان دولتي فرنسا وانكلترة اتسا استعمال
القطن في البنادق بدل البارود وذلك لكثرة سخونته فان البندقية اذا ملئت
منه مرات تشتد بها السخونة بحيث انها تنطلق بنفسها من قبل ان تقفس
ويقال انه استعمل ايضا نوع من النبات يسد مسد البارود . وفي سنة ١٥٤٤
استعملت فرسان الانكليز الغادري اي الطنبجة وزعم بعض ان استعمال
المدافع كان في سنة ١٣٣٨ . وزعم آخر انها عرفت في حرب كريسبي وذلك
في سنة ١٣٤٦ . وقيل ان الانكليز استعمالوها في حصار كالي سنة ١٣٤٧ وقيل
نها استعملت في الموضع المذكور في سنة ١٣٨٣ هـ . وقال فلتير ان برنس
اوالس المعروف بالاسود لسواد درعه وريشته انتصر على فليب ثلوى ملك
فرنسا عند نهر سم وكان من اقوى الاسباب التي اعانتته على ذلك استعمال
بعض مدافع كانت مع عسكرة فان المدافع لم يشهر استعمالها قبل تلك
الواقعة إلا بنحو اثنتي عشرة سنة ولم يعلم من كان المخترع لها . اهـ . قلت
فيليب المشار اليه ولي الملك في سنة ١٣٢٨ . واكبر مدفع في الدنيا فيما علم
مدفع نحاس صنع في بلاد الهند سنة ١٦٣٥ . وفي برج في جرمانية مدفع
طوله ثمانني عشرة قدما ونصف قدم ووسع قطريه قدم ونصف ووزن حته
مائة وثمانون رطلا وملتوة من البارود اربعة وتسعون رطلا ويعلم من نقش

رسم عليه انه صنع في سنة ١٥٢٩ . وحبة المدفع الصغير تذهب مسافة اربعمائة يارد وابتعد مدى لها انما من خمسمائة الى ستمائة وهو عبارة عن نصف ميل ومن المدفع الكبير من ميل ونصف الى ميلين * ومن ذلك اي من المباني العظيمة بيت ضابط البلد في السبي ويقال له منش هوس بني في سنة ١٧٣٩ وبلغت مصاريفه ٧١٠٠٠ ليرة وبعض ائانه من مائة سنة وبعض من ستين . وهذا الضابط تنتخبه الجماعة المنوط بها تدبير هذه الحملة في كل سنة وذلك في التاسع من تشرين الثاني ويسمى انتخابه يجعل في الطرق حواجز لمنع مرور الخوافل وتنص المدينة بالزحام فيضبط الناس بعضهم بعضا فلا يبقى احد من اهل البطالة الا ويخرج للتفرج او بالحرى للتلرز فيخرج الضابط من الديوان المسمى كدهال في موكب عظيم ويجلس في عاجلة مذهبة فاخرة تجرها ستة افراس ثمنها في الاصل الف وخمس وستون ليرة وكل سنة يصرف على زيتها مائة ليرة ويجلس معه قاضي القضاة بقبا* اجر وهو متقلد سيفه وشعار سلطنته وتقف في ذلك اليوم شرطة الديوان لمحافظة الطرق وتمشي صفوف شتى وهم يحملون اعلاما مختلفة وآخرون يضربون بالآلات الطرب وآخرون ينفخون في الابواق وآخرون متمكون بالدروع على منوال المجاهدين الاقدمين وتوضع امامهم آلات الحرث على عجلة مزينة مما تثبت الارض وسفينت ذات قلع تجرها ستة افراس ويسير معه اصحاب المراتب السنية والمناصب العلية وضابط البدل المعزول وعند وصولهم الى محل معلوم تلاقية سفراء الدول ووزراء الدولة والقضاة واران مجلس الشورى وغيرهم من ذوي الشأن حتى اذا رجع الى مقرة دعا اولئك النبلا الى وليمة فاخرة تشتمل على الفين وستمائة وسبعة وثلاثين صحفة كبيرة وصغيرة ولا بد من ان يوضع امامه صحفة فيها نوع من السمك الصغير اشارة الى انه ضابط نهر تانس الذي هو عند الانكليز اعز من نهر قنچس عند الهنود . وعلى ذكر الولاية يحسن هنا ايراد ما وجدته مكتوبا في اوراق تسمى تعليقات ومسائل من ان ضابط نرويش من اعمال انكثرة صنع مادبة فاخرة في عهد الملكة الياصايت سنة ١٥٦١ ودعا اليها جماعة من اشراف ذلك الصنع وكبرائه

فلغت مصاريقها ليرتين و ١٣ شلينا و ١١ بنسا فكان ثمن الوجة فيها بثلاث شلين و فخذ الضان بربعة وكذا ثمن الدجاجة و ثمن اثنتي عشرة بيضة و ثمن ستة عشر رغيفا ثلث شلين و ثمن برميل من المجعة شلينا و نصف و آخر صغير شلين واحد و ثمن اربعة ارطال من السكر شلين و نصف و فواكه و لوز سبعة بنس و ثمن كالبين من خر ايض شلين و ثمن اثنتين من الكلارث شلين و قس على ذلك . ثم ان الولايم التي يصنعها اهل الستى تكون فاخرة جدا تشتمل على سحاف من الذهب و اكواب من الفضة و سنوية الضابط ثمانية و الالف ليرة ولكنه يصرف في مدة ولايته اكثر من هذا القدر . و ايراد تلك الجماعة ١٥٦٠٠٠ ليرة يستوردونها من صرائب على الفحم و الاسواق و الديار و السامرة . و هك الجماعة ينتخبهم لاهلون الذين لهم عقار و ديار . و من خصائص الضابط مدة ولايته ان يتولى امور المدينة غير معارض و قد نازع الملك جورج الرابع في هك السلطة و حاول ابطالها غير ان الانكليز كما ذكرنا سابقا لا يحبون تغيير العادات القديمة فمن ثم بقي الحال كما كان . و اذا اتفق موت الملك في ايامه فله ان يجلس في ديوان الشورى الخاص و يوقع قبل اربابه ، و له ايضا ان يعلق باب الموضع المعروف بتبمل بار و هو اول خط المدينة في وجه الملكة حين تذهب الى المدينة ولكن ليس بقصد ردها عن الدخول بل بقصد ادخالها جريا على العادة . و تفصيل ذلك ان صاحب الملك اذا اراد التوجه الى المدينة يصل الى ذلك الباب فيجك مغلقا فينفخ بين يديه رجل في البوق و يقرع الباب و آخر ويقع بينه و بين الضابط محاوراة و كلام هنيهة ثم يفتح الباب و يدنو الضابط من صاحب الملك و يقدم له سيف المدينة فياخذه منه الملك ثم يعيك اليه ثم يدخل معه الضابط سائر بركابه . و هذا الباب هو مبتدا خط الستى بني في سنة ١٦٧٠ و عنك تمثال الملكة اليسانبت و الملك جامس الاول و كرلوس الاول و كرلوس الثاني و هو لا يعلق الا في ذلك اليوم غير ان توجه صاحب الملك الى المدينة لا يقع الا نادرا و ذلك كان يذهب الى كنيسة ماربولس ليهدي الشكر لله على فتح او ظفر بالعدو او ليفتح بناء عموميا كدار يجتمع التجار او دار الصوف و نحو

ذلك . والحاصل ان تدبير هذا الخط الذي يقال له ستي وهو عبارة عن اول ما انشي في لندرة من الابنية والخوانيت والعشرفات مفوض بالاستقلال الى الضابط والى اولئك المديرين ومصاريف محكمة هذا الخط تبلغ ١٢ ١٨٢ ليرة في العام ومصاريف شرطته ١٠ ١١٨ ومصاريف محل فيه اسمه نيوكات ٩ ٢٢٣ ومصاريف الحبس فيه ٧ ٦٠٢ ومصاريف حبس المدينين ٤ ٩٥٥ ومصاريف النهر ٣ ١١٧ وشعار المدينة هوسيف ماربولس وصليب مارجرجس . وفي العام الماضي كان الضابط يهوديا . وقيل ان الضابط الذي نصب في هذه السنة كان نفرا من العسكر . ومن الغريب هنا ان هذا الضابط يعزل في كل سنة وخدمته يبقون الى ما شاء الله وسياتي بقية الكلام على السقي . ومن ذلك كدهال وقد تقدم ذكره وهو ديوان احكام السقي فيه توقيع بخط شكسير الشاعر اشتراه المديرون بمائة وسبع واربعين ليرة وبالقرب منه دار عظيمة ايضا لحتم ما يصاغ من الذهب والفضة فيها الكاس التي شربت بها الملكة الينصابت عند تنويجها . ومن ذلك البرج الذي يقال له تور اف لندن اي برج لندن وهو اعظم برج في بريطانيا وهو حصن للمدينة ومقر لصاحب الملك عند عقد هدنة ونحوها وسجن للجرمين من ارباب الدولة لا يعلم متى كان انشاؤه وانما يظن انه بني في سنة ١٠٧٨ وفيه امتحن كي فكس الذي عمل على احراق مجلس المشورة على ما تقدم ذكره والملكة مريم ملكة اسكوتلاند ويوحنا ملك فرنسا وكارلوس دوكت اورليان وابو لويس الثاني عشر والملكة انتة او حنة بوليان ضرب عنقها سنة ١٥٣٦ والملكة كاتارين هاورد زوجة الملك هنري الثامن والسيدة رشفورد وسرتوماس موز ورئيس الاساقفة كرانفر ورئيس الاساقفة لود وسبعة اساقفة ءآخرون وغير ذلك وقتل فيه هنري الخامس وادورد الخامس وغيرها وهو يشتمل على الدروع والسلاح التي كانت تستعمل في الزمن القديم وعلى مدافع ثمانية من جلتهها مدفع اخذ من نابوليون الاول وكان هو قد اخذ من مالطة وهو بديع الصنعة ومدفعان عظيمان اخذا من البلاد لاسلامية طول كل ثلثة وعشرون شبرا وفيه دروع جامس الاول وهنري الرابع وادورد الرابع والملكة الينصابت وغيرها وتاج يقال له تاج

صنبت ادورد منع لتتويج كرلوس الثاني ثم توارثته جميع الملوك من بعده
وهو التاج الذي يصنعه رئيس الاساقفة على راس صاحب الملك عند المذهب .
وفيه ايضا تاج جديد صنع للملكة وهو شبه طربوش من مخمل احمر يحيط
به اطار من فضة مرصع بالماس زنته رطل وثلاثة ارباع وفي التاج ياقوتة
غير مجلوة يقال انها كانت في تاج الملك ادورد الملعب بالاسود وقيمة التاج
كله ١١١ ٩٠٠ ليرة . وفيه تاج لاميير والس من ذهب غير مرصع بالجواهر .
وآخر لزوج الملكة مرصع بالماس والدر وغيرهما من الجواهر . وفيه صولجان
يسمى صولجان العدل او صولجان الحمامة لان فيه حمامة طوله ثلث اقدام
وسبع اصابع وهو من ذهب مرصع بالماس وغيره . وآخر الملكة عليه صليب
بديع الصنعة مرصع بالماس . وآخر يسمى صولجان الملك عليه تقاصة
مرصعة بالياقوت والزمرد والماس طوله قدمان وتسع اصابع وعليه ايضا صليب
من ذهب مرصع بالجواهر المتنوعة . وآخر يسمى قضيب صنت ادورد من
ذهب مطرق طوله اربع اقدام وسبع اصابع في اعلاه دائرة وصليب ويقال
ان في الدائرة قطعة خشب من صليب المسيح . وفيه ايضا سيوف العدل
الكنائسية والمدنية وركب (جمع ركاب) من ذهب تستعمل يوم تتويج الملك
او الملكة ووعاء الماء المبارك في شكل نسر وملعقة من ذهب للمناولة وقت
التتويج وطست من فضة مذهب يستعمل يوم معمودية ولد الملك وغير ذلك
من التحف مما يطول شرحه . وقيمة ما فيه من السلاح بلغت في سنة ١٦٩٠
٢٤٠ ليرة وقيمة المهمات الحربية في انكلترة وغيرها مما هو تحت حكومتها
ستة ملايين من الليرات . قلت لما رايت هذا الموضع اخبرني الدليل بان
الياقوتة الحمراء التي في مقدم تاج الملكة وهي نحو البيضة الصغيرة تساوي
خمسین الف ليرة وثمن التاج كله مليون وثمان التيجان الاخرى مليونان والله
اعلم . وقد جرت العادة بان تاج الملكة يودع في هذا الحصن وعند الحاجة
اليه يؤخذ منه ثم يرد اليه وقد سرق مرة مع سائر الجواهر وذلك في سنة ١٦٧٨ .
واعجب من جميع ما ذكرت ان هذا البرج لامييري الملكي السلطاني التاجي
لا تمكن رويته الا بعد اداء شلین واحد . وفي لندرة اربعة قصور لصاحب

للملك اعظمها وهو الذي تسكنه الملكة في الشتاء القصر المسمى بأكبرها في
 اصطبله عاجلة اي كروية تساهل نحو ثمانية آلاف ليرة وطول حديقته
 القصر ٣٤٥ قدما ، قال فيه بعضهم قد لزم ليرميه وتصلحه خمسون الف
 ليرة مع انه لا يصلح لسكنى الملوك وبني فيه قنطرة من رخام صرف فيها
 ثمانون الف ليرة مع انه لا يمكن ابقاؤها حيث هي وقبلا صرف على القصر
 ٧٦٣ ٢٢٦ ليرة ما عدا ما لزم له من الفرش والاثاث وقد كان يمكن ان ينشأ
 بهذا المبلغ قصر جديد فاخر من اصله خير من هذا القصر الذي ان هو الا
 عبارة عن مواضع ملفقة وبعد ان صرف ذلك المبلغ المذكور على القنطرة لزم
 لان صرف مبلغ عظيم الى نقلها ، وصرف ايضا على قصرها الذي تسكنه في
 الصيف في وندزر وهو على مسافة نحو اربع ساعات من لندوة عشرة آلاف
 ليرة وذلك لاجراء الماء اليه وثاني مرة صرف عليه ستة آلاف وخمسمائة
 ليرة لبقايتها من النار وقد تبين من دفاتر المصروف انه من سنة ١٨٢٤ الى
 سنة ١٨٣٦ بلغ المصروف على هذا القصر ١٤٩٨ ٥١٦ ليرة فاذا اضيفت الى المبلغ
 اللازم لان بلغت جملة ذلك ١ ٥١٥ ٠٠٠ ما عدا ما يصرف على الغياض والشجر
 الماحقة به وبلغ مصروف الاثاث ٢١٦ ٠٠٠ ومصروف الخيف ٣ ٠٠٠ ليرة *
 ويقال انه يصرف في السنة على ترميم القصور والمباني الليرة ١٧٠ ٧٨٠ قال
 فهذان مليونان صرفا على قصرين هما سخرة وهرة لاهل اوربا جميعا .
 والقصر الثاني ويسمى قصر صان خامس اصله مارستان للبرص ثم صار مقوا
 للملك هنري الثامن ومنه تصدر الان الاوامر الملكية وهو مبني من الاجر وما
 تحت طائل ونحوه الباقي ، وفي تاريخ بلاد الهند انه لما مات هنري الخامس
 احبت زوجته الملكة كاتارين وجلا والسيما من العسكر الذين يجرسون للملك
 اسمه اوين تودمر هنري وجمته سرا فهو ابو ملوكه الانكليز من بعد وكانت وفاتها
 في سنة ١٤٣٧ ولها اولاد وقيل له اولا ادمند اول اف ولهموند ثم عوف بلهم
 هنري السابع . وهذا الملكة المجالسة الان على كورسي الملك اسمها الكمندرة
 فكتورية بنت دوك كنت ولدت في الرابع والعشرين من شهر ايار سنة
 ١٨١٩ ووليت الملك في العشرين من حزيران سنة ١٨٣٧ وتوجت في الثامن

والصهرين منه سنة ٢٨ وتزوج ابن عمها البرنس البرت من صمكس في
العالم من عباط سنة ١٨٣٠ ولها منه ثمانية اولاد اربعة ذكور واربعة اناث وبكر
اولادها هي السيدة فكتورية اديلا حازي لويضة ولدت في ٢١ تشرين الثاني
سنة ١٨٤٠ والثاني البرت ادورد برنس والس وذوك صمكوني وذوك كورنوال
وآول شمعو وكاريك وبارون بفرو ولورد ايلس ولد في ٩ تشرين الثاني سنة
١٨٤١ . ويقال انه لم يقم قبلها ملكات فلن الملك بالاستحقاق سوى اربع .
وكان لاهل هكارية كراهة لتمليك النساء الخدعة حتى انه حين كان يتولى عليهم
ملكته كانوا يصونها ملكا . وآول ملكته هولي لها الولايات في الدنيا سميراميس
ملكته اثور وذلك في سنة ٢٠١٧ قبل الميلاد وهي التي حكمت بابل وكبرتها
حتى صارت اعظم مدينته في العالم . والملكة فكتورية الاخلاق جيدة واحترام
ليوم الاحد عظيم يحكى عنها ان بعض الوزراء ذهب مرة الى قصرها في وتندرز
في ليلة السبت متأخرا وهو عندنا ليلة لاخذ فخرس لها ان معه اوراق مهمة
تتعلق على هذا المعنى قال ولكن لا الخلفك الليلة تصفحها فانها طويلة وقد
فانت الوقت ولكن في صباح غد فقالت له كيف في صباح غد وهو يوم الاحد
قال لانها من مصالح الحكم قالت اجل يجب مداركتها ولكن سأتصفحها
بعد الخروج من الكنيست فلما كان الغد ذهبت الى الكنيست وذهب الوزير
ايضا فلما انقضت الصلوة قالت له كيف اعجبك الخطبة قال لقد اعجبني
جدا فقالت لست اكنم عندك لان افي او طوت البارحة الى القسيس في ان
يحضر الخطبة على محافظة يوم الاحد وقد سمعت ما سمعت ولكن تعال غدا
في اية ساعة شئت قال في الساعة التاسعة قالت من حيث هي اوراق
مهمة كما ذكرت فعلم في هذه الساعة تجدني مستعدة وكان كذلك . اه .
وهذه الساعة باعتبار ايام البلاد هنا باكرة جدا . ومن ذلك عدم الاسراف في
الملابس وعدم التفات الى الابهة فانها لا تتميز بلباسها عن كرائم خوادها .
واسراف الملابس منع في بلاد الانكليز في عهد ادورد الرابع سنة ١٣٦٥ ثم في عهد
اليصابت في سنة ١٥٧٤ . واشهر من عرف فيه سر ولطر والي كانت كموتيه
تساوي ١٦٠٠ ليوة وصحان له دروع من الفضة ولد شيف موهج بالانس

والياقوت والدر وكان دوك باكنهام صفي الملك جامس يلبس حلتهم مرصعة بالماس ترصيعا غير وثيق بحيث اذا شاء ينفضها فتلتقطها خواتين القصر ولا لباس هنا بايراد جملة من الكلام مفصلة نذكر فيها ايراد الممالك ومما خصص للملوكة منها . فنقول ان المرتب للملكة في السنة ثلثمائة وثمانون الف ليرة ولكن لا يدخل في كيسها من ذلك كله غير ستين الف ليرة الباقي يصرف في اية الديوان وملاهيهم ولزوجها ثلثون الفا فاذا لزم لها زيادة مصروف على القدر المذكور اخذ من الخزنة على سبيل القرض الى ايراد العام القابل وهكذا وبلغت وظائف الحشم والخدام وحساب التجار في سنة واحدة ٨٠٠ ٣٧١ وبلغ ايراد الدولة من العكس والضرائب والاتاوة في العام الماضي ٦٦ ٣٤٨ ٧١ والمصاريف ٤٧٧ ٣٠٧ ٨٨ وفي سنة ١٨٤٨ كان ايراد الدولة ٦٩٣ ٩٣٣ ٥٢ ومصروفها ٣٤٠ ٥٦٣ ٥٢ وخرجت خلاصة من مجلس المشورة في مبلغ ما صرف في عاقي الحرب وذلك من ١٢ ادار سنة ٥٤ الى ٣١ ادار سنة ٥٦ مضمونها انه في سنة ١٨٥٤ بلغ الايراد من جميع موارد ... ٩١ ٦٤٠ وبلغ المصروف ٢٣٦ ٠٧٠ ونقلت من كتاب آخر انه في سنة ١٨٤٢ بلغ الايراد من ديوان العكس ٣٧٤ ٥١٥ ٢٣ ومن التبغ والمسكرات ٨٤٧ ٦٠٢ ١٤ ومن المولك اي البوسطة ٥٤٠ ٤٩٥ ١ ومن اتاوة الارض ٤٣٠ ١٢٤ ١ ومن اشياء متفرقة ٤٠٢ ٤٢٠ ١١ فجملة ذلك نحو ٦٤٤ ٢٤٨ ٥٢ * وكانت اتاوة فرنسا على الارض ... ٢٠٠ ٢٣ وسائر الضرائب والعكس ... ٥٠٠ ١٧٠ واتاوة اوستريا ... ٨ ٧٩٥ وسائر الضرائب ... ٧٧٠ * ومن ضمن تلك المتفرقات التي وردت الى خزنة دولة لانكليز في سنة ١٨٥٦ ما اخذ على التركات ٨٧٣ ٢٨٥ وعلى الخيل ٨٩٨ ٣٤٠ وعلى العقود والصكوك ٢٣٤ ٢٢٥ ١ * وفي سنة ١٨٥٢ اخذ على نحو احدى وسبعين مليون رطل من الشاي مبلغ ٤٣٣ ٩٠٢ ٥ ليرة وفي سنة ٥١ اخذ على نحو اربعة وخمسين مليون رطل منه ٦٤١ ٤٧١ ٥ * (١١٧) * ويصرف في كل سنة من خزنة دولة لانكليز على اشخاص مرتزقين لا عمل لهم نحو اربعة ملايين ليرة . وفي بعض صحف الاخبار ان ضريبة الايراد وحصل

تبلغ ستة عشر مليوناً والمراد بالايراد هنا ما يدخل للناس من كسبهم وسعيهم وازقاتهم . وكان ايراد ديوان المكس في ايلم الملكة اليبابت عشرين الف ليرة وفي ايلم شارلس الثاني ثلثمائة وتسعين الف ليرة وكان جميع ايراد الملكة اليبابت ستمائة الف ليرة . وايراد شارلس الاول ثمانمائة الف . وكان ايراد دولة لانكليز في زمان وليم الفاتح ٤٠٠ ٠٠٠ وفي زمان هنرى الرابع ٦٤٩٧٦ وفي زمان الملكة ماري ٤٥٠ ٠٠٠ وفي زمان جامس الاول ٦٠٠ ٠٠٠ وفي زمان شارلس الاول ٨٩٥٨٩ وفي سنة ٥٠٠ بلغ ٥٢٨١٠٠٠ وفي سنة ٥٢ - ٣٠٠ ٨٧١ ٠٦٢ قال فلتير وكانت املاك سليمان بن داود تساوي ١٢٩ ٥٠٠ ٠٠٠ * فقد رايت مما تقدم ان ايراد دولة لانكليز ومصاريفها ياتي نحو ايراد دولتين او ثلاث من الدول العظام فان ايراد دولة فرنسا كان شأنه ان لا يزيد على اربعين مليوناً وايراد دولة اوستريا خمسة عشر مليوناً ونصف مليون ومصرفها يزيد على سبعة عشر مليوناً وايراد الدولة العلية نحو اثني عشر مليوناً إلا ان نصف ايراد دولة لانكليز يذهب في فائدة الدين وجملته على ما ذكر صاحب التيمس سبعمائة وثمانين مليون ليرة . واعلم هنا انه اذا قيل ان دولة لانكليز مديونة فلا تتوهم من ذلك انها ضعيفة فان نفع هذا الدين يؤول الى رعيته حتى ان جل الدائنين لا يريدون استيفاء دينهم مرة واحدة لانهم ياخذون فائدة في كل سنة وهو مامون لهم ما دامت الدولة قائمة . ومعلوم ان غنى الدولة يكون عن غنى رعيته وسعادتها من سعادتهم . والظاهر ان جميع الدول مديونة فدين سلطنة اوستريا يبلغ مائة وعشرين مليوناً وفائدته في كل سنة اربعة ملايين ونصف ودين الدولة العلية يبلغ نحو اربعين مليون ليرة ودين دولة فرنسا لعله زاد لان عما ذكر ضعفين . وهذا الدين على الدول هو من قليل لجام للرعية يكبحهم عن المعامع والفتن فان الدائنين الذين هم بالضرورة وجوه اهل البلاد واغنياؤها لا يرضون بانقلاب الدول مخافة ان يؤول الحكم الى الرعا فيحرموا منه . ونقلت من بعض الكتب ان ملك لانكليز ورائته ولجس المشورة ان ينقله من عيلة الى اخرى وانه بعد ان خلع جامس الثاني نفسه عن الملك وذلك في سنة ١٦٨٨ صار الملك محذور

في الملوك الذين على دين البروتستانت ولما لم يكن لشارلس الاول خلف
نقل الملك الى نسل جامس الاول وهم من البروتستانت ايضا وهذه العيلة المعنوية
الآن هي من نسل صوفيا بنت ملك هنوثر . والواجب على الملك يوم تتويجه
ان يخلف على محافظة ثلثة امور . الاول مبادئه بحسب القوانين والاحكام .
الثاني اجراء الحكم بالرحمة . والثالث اقراره مذهب الدولة وهو ديسم
اليوتستانت . وللملك خصائص ومزايا ينفرد بها عن غيره بحسب ما اوتق
اليت من الشان والشرف منها ان له قدوة على ان ياذن بالحرب والصالح وان
يسحب من قبله سفنوا الى الدول ويرضى بسفرائها وان يحضر عن طريق
الجنايات وان ينص على شأ بالشرف والاعقاب وان ينصب القضاة والحكم
ويولي الوظائف العسكرية برا وبحرا لمن يواف اهلا وان يرفض ما يقدم له
اهل المجلس من الدعاوي والقضايا ليوقع عليها وهو راس الكنيست التي عليها
رجال الدولة وهو الذي يولي الدرجات والمراتب للاساقفة الا انه لا يمكنه
تنفيذ هذه الامور الا على يد الوزراء فهم المطالبون بكل ما يصدر عنه من الاوامر
ولهذا يقال ان الملك لا يخطئ . وله ايها خصائص اخرى منها انه لا يفرغ
شيئا فقد لاهد الامم وان دينه يقفم على دين غيره ولا تقام عليه دعوى
ولكن لكل من الرغبة حق فيه ان يعرض له على يد وزيرة ما يدي به من
الاملاك . وليلة الملك ايضا مزايا اعازت بها فبعض الزوجات ان يقال لها
ملكة وان يحترم مقامها ولو بعد وفاة زوجها ولها امتطاعة على ان تشترى
وتبيع ما تشاء باسمها وان تحيل ما يرد عليها من الدعاوي الى اي ديوان
دولة شأت . ولابن الملك البكر حق من يوم ولادته ان يدي احيار والس
ومن منصبه ان يدي دوك كورن وال وارل شستر . وجميع اولاد الملك يتفقون
بالعنت الملكي فيقال مثلاً جناب الملكي او حضرته الملكية . وفي لندرة ست
غياض اعظمها العيسة التي يقال لها هيدباركث وباركث معلاء ضمتة وهي
ندحة عظيمة من الارض عبارة عن ٣٨٧ فداناً باسفلها قنطرة بلغ مصروفها
٦٩ ، ٢٧ ليرة وباعلاها قنطرة اخرى انفق فيها ثمانية آلاف وكانت اولاف
غيسة صان جامس فنقلت وبلدت مصاريق نقلها احد عشر الفا وفي هك

الفيضة ترى اشراف لندرة وعظماها في احسن المركوب والملبس والحشم
وخصوصا من شهر نيسان الى تموز واكثر النبل يسكنون هناك . قال فيها
بعض الفرنسيون صور لنفسك سهلا فسيجا ذا اشجار وبرك وحقول ومرج
تخرج فيه الثيران والشاء اسرابا اسرابا كانك في اقليم دوفشير الانيق فذلك
صفة هيدبارك . ثم صان جامس بارك وهو المتصل بقصر الملكة ومع ان
الظنون من وصفه ونعته انه يكون ممتاز ذوي الفضل والشان فهو جمع
الخدمة والحرافش والاولاد . ثم كوين بارك - ويريجت بارك - وباترسي
بارك - وفكطوريا بارك وهو احسنها كما ان فكطوريا لياطر هو احسن الملاهي .
وما عدا هذه الغياض فثم حديقتان احدهما لتبنيث النباتات كسنتون
النباتات في باريس غير ان دخولها مقصور على اصحابها او على من يؤذن
له منهم . والثانية للحيوانات الحية واليتة والاداء على دخولها شلين . وفي
ضواحي لندرة ايضا مقترحات يتساها الناس في الصوى وذلك كرتشموند
وكيو وهستد وكرافرندي وهبطون كرويت واحسنها كرتل بالس في سدنم وهو
القصر الذي نقل من غيضة هيدبارك وهو يعز عن النظر وقد جان لان
ان اتكلم على احوال لندرة الخصوصية مبهدا لذلك بمقالة قالها بعض
الفرنسيين ثم اشرح جميع ما يتعلق بها . قلل اما لندرة فلن كل ما فيها انما
جعل للتمتع به داخل الديار واما باريس فان طيب عيشها انما هو في الامواق
والشوارع وان الاولى تحجر الناظر باحتساا لانياب وكثرة ما فيها من الدكاكين
وتعرفه لاشراف والعظماء واسرافهم وان الثانية تسجده بتفنن شونها واختلف
المشاهد فيها وبها يتنعم به اهلها من العيش الذي يحكي عيش الثور المتقنين
من حال الى حال وفي الجملة فلن لندرة تحكي خلية الصل وباريس تحكي
منهلا عذبا لكن وارد وما احسب جود لانكيز الذي يصفهم به اهل باريس الا
من هذه الجملة التي لا تقاربت فيها . له . وقال آخر ليس في لندرة مطامع انفة
ومحال قهوة فاخرة كما في باريس فيلزم الغريب ان ياكل في المنزل الذي
يسكنه او في بيوت لاكل وهي عبارة عن مواضع مظلمة لا تائق في فرشها
ولا في مطابخها واذا دخلت احدها مما يتردد اليه وجوه الناس احصوا لك

الخادم في وقت الغداء خمس صحاف مغطاة باظمية منضمة فتعصب ان فيها شيئا يفتح منك اللهم فاذا كشفت عن احداها ظهر لك الشواء ويليه البطاطسة ثم الخلر على حداثها ثم خسة وفي الخامسة زبدة مذابة مع ءانية الابرار فاذا شئت التفتن احصروا لك سمكا مسلوقا اما الشراب فالجمعة لانك لو اردت ان تشرب الخمر ازم ان يكون دخلك في العام دخل امير في غيرها . اه . قلت قد اشرت في وصف باريس الى بعض ما بينها وبين لندرة من الفرق في السكنى والمعيشة والان استوفى ذلك بناء على ما قال لفرنساوي من ان طيب العيش في لندرة انما هو داخل الابواب وفي باريس بخلاف ذلك . فاقول ان اهل الاستطاعة في لندرة كالتجار وغيرهم يستاجرون بيوتا ويستقلون بها وذلك لصغرها خلافا لديار باريس فلهذا كان صاحب العيلة يؤثر التمتع في بيته مع اهله على الخروج . اما الغرباء الذين ينزلون في الديار فيكون لاحدهم حجرة او حجرتان فيمكنهم ان يتالوا طعامهم صباحا ومساء في منزلهم وذلك بان يشتروا ما يريدون اكله ويامروا الخادمة بطبخه ويعطوها شيئا زهيدا في مقابلة خدمتها وذلك اولى من انهم ياكلون في المطاعم بل هو انظف وارخص وفي هذه المظنة تفضل لندرة باريس فان الغرباء في هك لا ينزلون الا في منازل كبيرة مشاعة فيضطرون وقت الاكل الى الخروج الى احد المطاعم فان الاكل في المنازل غال جدا . وهناك مزبنة اخرى وهي ان النزيل هنا يستاجر الحجرة في الاسبوع وفي باريس يستاجرها مشاهرة وان كان مياومة لزم ان يدفع الضعف ضعفين وايضا فان صاحب الدار في لندرة يعطي النزيل مفتاح دارة ليتمكن ان يدخل ويخرج ايان شاء وفي باريس لابد من قرع الباب بعد نصف الليل ليقف له الباب غير ان النزيل في ديار لندرة لا يمكنه ان يخلو بالنساء في حجرته وفي باريس لا خرج في ذلك وهذا شذوذ عن لاضل المتقدم ان قلنا بانه من طيب العيش الا ان اكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها نساء حسان يغبين النزيل عن الخروج . ولاصحاب هك المنازل غالبا عادة ذميمة وهي انهم يستولون على مفاتيح عديدة متنوعة يفتكون بها صناديق السكان حتى اذا علوا ان ليس

فيها ما يقوم باجرة المسكن انذروهم بالخروج . وهناك طريقة اخرى للسكنى في كلتا المدينتين وهي ان سن شاء ان يمكث طويلا يستاجر حجرة او حجرتين في دار من غير اثاث ويؤثثهما هو كما احب ولكن يلزمه في لندرة ان يفتح الباب لقاصد وينور له في الدرج وفي باريس لا يلزمه ذلك . هذا ولما كان ارباب الحكومة في لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن وتنظيم ديارها كانت ديار لندرة بالنسبة الى ديار باريس حقيرة جدا اذ كل انسان يبنى دارة كما تقتضيه حاله فمنها ما كان مشتملا على طبقتين فقط ومنها على ثلاث طبقات من دون مراعاة رونقها وهندستها ومساواتها ويمكن ان يقال ان الديار هنا لما كانت عرضة للحريق كان هم صاحب الملك بمجرد الانشغال بالبناء دون الزخرفة ونهايك ان في لندرة ٢٦٠ دارا مشرفة على السقوط وما عدا ذلك فان سن يكون قاعدا في حجرة يرى مبلطها يهتز به كلما مرت عجلة من تحتها او مشى ماش فيها . فحاسن لندرة كلها مقصورة على الحوانيت فاذا رفعت نظرك ما فوقها قابلك سواد الحيطان وحجارة الطوب وتفاوت الطيقان وخساسة المداخل البازرة من السطوح من الخزف وصنعة البناء وما اشبه ذلك . واعظم ما يشعر الناظر بهذا ما اذا قدم من باريس فانه يرى الفرق عظيما جدا وخصوصا اذا اتفق قدومه في يوم الاحد حين تكون الحوانيت مغلقة فيحسب نفسه انه في قرية صغيرة . الا ان في داخل الديار هنا مرافق لا توجد في باريس منها حسن المواعد وقد سبقنا الاشارة اليه وكونها مشتملة على صهاريج الماء على طيبة وفي باريس يلزم الساكن ان يشتري الماء من السقائين على رداثة . ومنها قلة درجها وذلك نتيجة كونها غير شاققة ولعل صاحب العيلة اذا استاجر دارا من بابها يهنته العيش هنا اكثر مما يهنته في باريس على كثرة ما يوجد في هك من البدائع فيان الغيور على مرضه لا يهون عليه اذا كان نازلا في الدرج لينحرج الى محترفة ان يرى اخر صاعدا بجوار له . ولهذا نقول الانكليز ان هناء هم جوي وان ديارهم ادعى الى السكون والهناء من ديار غيرهم واذا سكن هنا في الدار اثنان او ثلاثة واتفق تلافيهما في الدرج فما احد يكلم صاحبه واذا زارة

أخوة أو اخته وإطالا المكث عندك الى نصف الليل فما يدعوها الى المبيت عندك . فاما قوله باحتشان حالاتها وبكثرة دكاكينها وبترفعه الاشراق والعظماء فيها فاحتشان حالاتها هو كون جميع الازمنة والامكنة فيها متساوية اما في الازمنة فليس عند الانكليز في ايام السنة كلها يوم للحظ واللهمز فلا تعرف في راس السنة من ذنبها وليس عندهم ايام للبطالة ما عدا ايام الاحصاد سوى عيد ايام الميلاد ويوم الجمعة الكبيرة ولكن يوم البطالة هنا هو يوم الانقباض والاكثاب اذ لا ترى شيئا يقر العين فقد اسلفنا ان جميع الحوانيت تكون يومئذ مغلقة . ومن العجب هنا انه يؤذن لباعة التبغ في فتح دكاكينهم يوم الاحد ولا يؤذن لباعة الخبز والخبز فكان التبغ الزم للمعيشة من غيره . ثم لا مثابة للناس ينسبطون بها سوى التردد على تلك الغياض وهي خالية من المطاعم والمشارب وآلات الطرب على قلته ما فيها من المقاعد وهي في الغالب بعيدة عن سكنى العامة والوسط وانما هي بجعولة لحظ الكبراء القاطنين في الديار المجاورة لها فان كل شيء هنا معني به اسم العلية والسادة وقد سرت الاشارة الى هذا . نعم ان في صباح الاحد في لندرة لذة لا تقدر ولا تنظر بالنسبة الى نحس الايام الاخر وهي قلته قرقعة العجلات وسائر المراكب فقد كنت احسب نفسي في صباح كل احد اني ساكن في الريف فاما في سائر الايام فان توالي هذه القرقة داهية من اعظم الدواهي فمن لم يتعود عليها لن يهتبه نوم ولا قعود ولن يمكنه ان يجمع افكاره في راسه فاذا مشى اثنان في الطريق لزمن المتكلم ان يصرخ باعلى صوته ليسمعه الاخر فاعوذ بالله من ذلك . فاما كثرة الحوانيت فقد تقدم ذكرها في اول الكلام على لندرة وبقي هنا ان اقول ان في جميع حوانيت لندرة تجد ما يلزم للملبوس والمفروش ناجزا عتيدا فاذا دخلت مثلا حانوت اسكافى وجدت عندك عشرة الاف زوج نعال معروضة للبيع فاخترت منها ما شئت وقس على ذلك سائر اصناف الملبوس . ومن شاء ان يفرش صرحا في ثلث ساعات وجد كل ما يخطر بباله من الادوات والاواني ونحو ذلك حوانيت باريس فاين هذا من البلاد التي لا تجد فيها حاجتك الا بعد ان توصي عليها فاذا حضرت وجدتها على غير المراد فنحسك

ذلك وافضى بك الى القيل والقال . واعظم طريق في هذه المدينة هو
ريجنت سركوس ويذكر غالبا باسم ريجنت ستريت وهو على خط منحني
نحو نصف دائرة طوله ١٧٣٠ ذراعاً وهو يشتمل على دكاكين فاخرة بهيمة اكثرها
مشرف بشعار الملك وذلك ان الملكة او احد اولادها اذا اشترت شيئاً من
صاحب الدكان ساع له ان يضع عليه صورة الاسد ووحيد القرن وادى الى
الميري شيئاً عليه في كل سنة وتم ترى الثياب الفاخرة من كل صنف ولون
وموقع ومكان . وقد يكون طول لوح الزجاج في عرض الحانوت نحو ست اذرع
فاكثر وعرضه نحو ذراعين فيكون العرض كله من اعلاه الى اسفله لوحين او
ثلاثة وثمان للوح نحو عشر ليرات . وديار هذا الطريق مبيضة الخارج او يقال
نصفها ابيض ونصفها اسود وتم ايضا ترى نساء لندرة يخطرون بالديساج
والثياب الفاخرة ويجرون اذيالهن على الارض جراً ولا سيما ليلة الاحد وهي
ليلة السبت عندهم فاذا رايت واحدة منهم جازمت بانها اجل سن رايت
ثم ترى اخرى فتجزم بانها اجل من تلك وهلم جرا وكذلك هن في كافيت
ستريت وفي هاي ماركت . والواقع ان هذه الليلة في جميع اسواق لندرة هي
ليلة البهجة والقصوف والفرح وهي ابهج الليالي اما عند العلية فلعلهم ان
اليوم القابل هو يوم الانقباض فينصبون فيها الى اللهو والخلاعة في جميع الاماكن
المقصودة واما عند السفلة والفلة فلكونهم ياخذون اجرتهم في مساء كل
سبت فمتى انصرفوا من المشاغل اقبلوا على الحانات والاسواق لشراء مونة
يوم الاحد فتري جميع الدكاكين فاصمة بالرجال والنساء . وكثيرا ما تنفق
ان الرجل حين يقبض اجرتهم يذهب الى الحانات وينفقها فيها فيرجع الى
اهله صفر اليدين فيقوم التقارب بينه وبين زوجته او ان يعطيها لزوجته
فتذهب هي وتنفقها في المسكرات ففي هذه الليلة ترى النساء يتضاربن
بعضهن مع بعض او مع بعواتهن او مع غيرهم وكذا شان الرجال . وكثيرا ما
رايت النساء يغلبن الرجال ويجررنهم بنواصيهم وكثيرا ما ترى امرأة مشرومة
الانف او ملقوقة العين او مخلوعة اليد او صرعى في الطريق من الخمر او
الضرب كل ذلك من بركات هذه الليلة . ولولا ان اصحاب الحانات مشرعو

عليهم ان يتقبلوا حوائثهم في نصف الليل وسن خالف ذلك يغرم خس ليرات
لبقوا وبقين على الجن والروم والجمعة الى الصباح . والواقع ان العملة من الانكليز
وذوي الحرف اقرب الى مزينة الكرم منهم الى البخل فانهم في تلك الليلة
ينفقون اتفاق سن لا يخاف الفقر ويشتررون قطع لحم كبيرة ويتخذون حلواء
من الفاكهة وغيرها . وفي يوم الاحد يشربون القهوة بفناجين مخصوصة
وبالسكر الابيض المكرر وهلم جرا . واما عند اصحاب الدكاكين فلعلمهم ان
يوم الاحد ليس فيه بيع ولا شراء فيطيلون المكث في دكاكينهم رجاء ان
يكسبوا شيئا زائدا يكون عوضا من بطالة الاحد فهذا ترى للطرق والاسواق
في تلك الليلة بهجة لا تراها في سائر الليالي وكذلك ليلة عيد الميلاد وبعض
ليال قبلها فان الدكاكين تبقى فيها مفتوحة وبعضها يكون مزينا وفيها تسمع
الآلات الطرب من جهات شتى وترى الناس في اقبال وادبار ومرح وارتياح .
ودون الطريق الذي مر ذكره في الغنى والرونق طريق اكسفورد الا انه
اطول واقوم وهو يفضي الى هيدبارك طوله ٢٣٠٤ اذرع وقد ترى في هذا
الطريق وفي غيره عشرين دكانا للبرانيط ومثلها للنعال ومثلها للكشب ونحوها
للخز ولا ترى من مطعم واحد او نصف محل للقهوة . ثم الطريق الذي يقال
له استراند طوله ١٣٦٩ وهو اكثر الطرق ملاهي وفيه فرع من المولك الكبير
عنه جرس ذي مادة كهربائية يدل على اوقات البلدة المعروفة بكريتش
وهليه تضبط مواقف سكك الحديد الساعات والاوقات وفي الساعة الحادية
بعد الظهر يهبط عن مركزة بنفسه . ثم بيكاديلي طوله ١٦٩٤ ذراعا ثم نيورود
اي الطريق الحديد طوله ٥١١٥ ولكنه ليس من الطرق المتشابة ونحوه سقي
رود وطوله ١٦٩٠ . ثم نيوبوند ستريت فيه دكان جوهرى راس ماله خمسمائة
الف ليرة وتحت يك من الصاغة والصائغين ما يزيد على خمسمائة رجل
وهو اغنى جميع صاغة المملكة وكثيرا ما تستخدمه ملوك الافرنج من جميع
الاقطار في صوغ اوانية لقصورهم . ثم هوبرن وهو اوسع الطرق لكنه غير
طويل فيه دكانان للبز والحريز لا ينقص عدد المستخدمين في احدهما عن
مائة نفس . وهلوي ول ستريت وهو مشهور بالدكاكين التي يباع فيها كتب

الفسق وصور النساء وما اشبه هذا . وثم طرق اخرى حسنة ايضا ولكنها ليست نظير هذه . وعدد الطرق المبلطة في لندرة يبلغ ٥٠٠٠ وتتمدد اكثر من الف ميل ويوجد فيها نحو خمسين طريقا باسم كين ستريت اي طريق الملك ومثلها كوين ستريت اي طريق الملكة ونحو ستين طريقا باسم وليام ستريت ومثلها جون ستريت واكثر من اربعين طريقا باسم نيو ستريت . وجميع اسواق لندرة وشوارعها وازقتها تنور بجمال النساء عامة الليل . وناهيك انه في ابرشية واحدة وهي ابرشية ماري لابن من جلته نحو ستين ابرشية يوجد عشرون الف مومسة منهن الغان ومائتان لهن بيوت خاصة بهن . وحيثما تكثر انوار الغاز يكثر ترددهن . وكثرة الانوار في الدكاكين والطرق تكون المدينة في الليل ادفا منها في النهار وكذلك مدينة باريس . والغاز في طرق لندرة يوضع في فوانيس على عمد قائمة من حديد فهي من هذا القبيل احسن من باريس لان كثيرا من فوانيس هك تجعل في الحائط الا انه ليس في طرق لندرة شجر ولا بحال للقهوة على نسق ما في باريس لان الشرطة هنا لا ياذنون لاحد في ان يضع كرسي في الطريق ويقعد عليه . واعلم ان اختراع الغاز هو من اعظم البركات التي يتنعم بها الانسان في الليل ومن اقوى الوسائل المعينة على الامن والسلامة ولا سيما في المدن الكبار فان لندرة منذ مائة سنة كانت مغمية بالصوص والنهاب في مسالكها بعد العتمة حتى ان السالك فيها كان يعرض نفسه اما للقتل واما للسلب وكانت الاولاد تحمل بايديهم مشاعل ويجرون بها بين يدي المارين وياخذون منهم شيئا في نظير ذلك كما تاخذ الان الاولاد الذين ينظفون السكك . وفي ايام الملكة ماري كان العسس يتخذون اجراسا يضربون بها للتنبيه والتحذير وذلك لقلة الانوار وفي سنة ١٧١٢ وضعت الفوانيس واوقدت بالزيت فقلت الصوص . واول من جرب استخراج الغاز قسيس اسمه كلاطون وذلك في سنة ١٧٣٩ الا ان تجربته هك لم يعمل بها . وفي سنة ١٧٩٢ تصدى الى هك العملية رجل من كرنوال اسمه مردوك وفكر في انه اذا صان الغاز المستخرج من الفحم او المحطب في وعاء ثم اجراه في قصب من الحديد يكون مغشيا

من المصباح والشمع . وفي سنة ١٧٩٨ أتم تجربته هك وأجراها في بعض المعامل
في برمنغهام إلا أنه كان يعرض لها بعض الخلل أحيانا . وفي سنة ١٨٠٢ انتبه
الناس الى احكام ذلك وتعميم منفعتهم وبعد هذا التاريخ بسنة واحدة نور
ملهي ليسيوم في لندرة بنور الغاز وفي سنة ١٨٠٤ وما بعدها وسع مردوك
دائرة مشروعه هذا في منشتر . وزعم الفرنسيين انهم هم مخترعوه إلا ان هذا
النور لم يعرف عندهم إلا في سنة ١٨٠٢ وكان ذلك في باريس وقد عرفت
ان مردوك صنعه قبل هذا الوقت بعدة سنين ومن سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٢٢
اشتهر استعمال الغاز واعجب جميع الناس حتى ان راس المال الذي جمع
لتنوير لندرة فقط بلغ مئة مليون ليوة وشغلت قصبات الغاز في ايصال النور
الى محال مختلفة مسافة مئة وخمسين ميلا ثم اشتهر بعد ذلك بسنين قليلة
في سائر مدن المملكة لتنوير الطرق والحوانيت والديار وهو على بقائه وعدم
نقصه خلافا لنور الشمع والزيت ارخص سعرا وأخف كلفة فان رطل الشمع
الدون مثلا يساوي ثلاثة ارباع الشلين ومدة انتقاده لا تزيد على اربعين
ساعة وان غالونا من الزيت يساوي شلينين وينير في ساعة واحدة ما تنير
ستمائة شمعة والشمع العسلي اغلى من الشمع بثلاثة اصعاف والى مكعب
من الغاز يساوي تسعة شلينات فيتحصل من ذلك ان ما قيمته مائة من
الشمع العسلي يكون خمسة وعشرين من الشمع وما قيمته خمسة من الزيت
يكون من الغاز ثلاثة . وبالمجمل فانه من الزم الاشياء ولا يعلو عليه نور
إلا نور الشمس واذا اوقدت نورا منه فلا ينطفئ الا اذا اطفاته وذلك بان
تدير لولبه الى جهة الشمال فاذا اردت ايقاده ادرته الى اليمين وادنيه
النار من فوهته فيبقى كذلك الى ما شاء الله . وكيفية تنوير الطرق في لندرة
هو ان يرتقي الرجل في سلم الى الفانوس وفي باريس يجعل الرجل النور
في عود طويل ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون ان يرتقي اليه ولا
يخفى ان ذلك اسهل واسرع . فاما قوله بترفعه لاشراف والعظماء واسرافهم
فقد سبق لاشارة الى ذلك عند الكلام على اخلاقهم واحوالهم . وانما نقول
هنا ان هؤلاء الاماجد يسكنون في حارات معلومة من المدينة فرارا من الزحام

ومن اختلاطهم بالارباش فترى بقعة فسيحة عظيمة في لندرة ليس فيها سوى
ديار متصافاة متصاقبة وهي بالنظر الى وسط المدينة مظلمة موحشة اذ ليس
فيها حوانيت ولا مطاعم ولا ملاهي ولكنها نظيفة سالمة تكاف الاحوال وضغط
السائرين وقرعة العجلات . ومع ما هم فيه من البجعة والنعيم فيها ولا نفرد فلا يد
وان يكون لكل منهم دار في الخلاء يسكنها في الصيف ففي هذا الصقع الجميل
تسطع انوار السيادة والسعادة من ابراجهم العلوية وهناك ترى الخدم والحشم
والخيل المطهمة والعوادل النفيسة وهناك تميد المواعد بما عليها من الاطعمة
الفاخرة العجوبة من جميع البلدان وهناك تنيه الكلاب على كثير من بني آدم
ممن يتصورون جوعا ويهلكون من الوسخ والبرد والعري ومن اكل اللحوم
المنشنة في ازقة لندرة القذرة فليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بعد
ما بين الجنة والجحيم في الاخرة . وهناك مثالا على سقر لندرة . قال في
بعض الصحف ان مائة وثمانين نفسا ما بين رجل وامرأة وولد يسكنون
في اربع وثلاثين حجرة . وفي اخبار الكون كان يمكث في حجرة واحدة من
اربعة عشر نفسا الى عشرين ليلا ونهارا وفي حجرة اخرى رجلان مع امراتيهما
وارملتان وثلث بنات ورجل عزب وثلثة اولاد فجعلتهم اربعة عشر نفسا قد
جعلوا انفسهم عيلة عيلة كل عيلة ثبوت زاوية من الحجرة . وفي موضع آخر
يسمى ساحة فلنشر جرتان لا تزيدان على سبع اقدام عرضا في مشرطولا
وقد اشتملت على ثمانية وعشرين نفسا ما اجد منهم يعرف القراءة وليس
تحتهم وطاء سوى التبن الا واحدا منهم ولا غطاء لهم في الليل سوى ثيابهم
التي يلبسونها في النهار ومع ذلك فان هذين المحلين اذا قيسا بغيرهما من
السيوت المجاورة لهما كان لهما حرمة واعتبار فانه وجد فيها مائتان وثمانية انفس
من الاولاد المراهقين ولم يدخل منهم المكتب سوى ثمانية وثلثين فقط وهم
غارقون في الفساد والخساسة والقذر والوباء وفي هي هوبرن ثلثون بيتا يسكن
فيها مائة وثلث وثلثون عيلة كل ثلث عيال او اربع في حجرة واحدة وقد
تناهوا في السكر والسفاهة وفي كل نوع من الرذائل . اه . وكثيرا ما ترى
النساء يمشين في الشتاء حافيات ويلتقطن الجذور وفتات الخبز وغير مسرة

وايت رجلا على ذراعاه طفل وامرأته بجانبه صفراء متجردة على عتبة احدى
الديار في اشد ليالي الشتاء بردا . وقد سمعت ان كثيرا من النساء يلدن في
الطرق لعدم ماوى لهن وفي كل سنة يبقى الوف من ذوي الحرف معطلين
ففي سنة ٤٩ كان الف واربعمائة خياط وتسعمائة اسكاف بلا عمل وكان
الف وتسعمائة اسكاف يعملون بنصف الاجرة وكذا الصاغة وصناع الجلود
وقس على ذلك . والحاصل انه لا فقير اشقى من فقير لندرة كما انه لا في
اترف من غنيها . هذا وكما ان طرف لندرة من جهة الشمال موسوم بحضرة
الكبراء كذلك كان طرفها الجنوبي مختصا باهل الضعة والحمول فلا ترى هناك
شيئا يرنيك غير حسن النساء فان الله تعالى جعل هذا النصيب عاما . واما
قول لآخر انه ليس في لندرة مطاعم انيقة فهو في محله إلا انه لم يذكر
سبب ذلك وهو جهل الانكليز بصناعة الطبخ كما تقدم اما في البيوت فيمكن
للو احد ان يعتذر عنهم بقوله انهم لا يتائقون في الطبخ حرصا على الوقت ان
يضيع في الحشو والتكيب وما اشبه ذلك إلا انه لا يمكن الاعتذار عن
اصحاب المطاعم العمومية الذين لا شغل لهم إلا اطعام الناس . وما عدا ذلك
فان المنتقد لم يذكر انه لا شيء في لندرة مما يوكل او يشرب إلا وهو مغشوش
مخلوط مشوب . وليس من العار على اهل هذه المدينة مع كونهم اغنى الناس
واقدرهم واتجرهم ان يرخصوا لواحد من الاجانب في ان يفتح دكانا في اعظم
الطرق ويبيع فيه نحو الجبن ولحم الخنزير والحردل واللبن ولاخر في ان يبيع
الثلوج والحلواء ولاخر في ان يبيع الخل والزيت ولاخر في ان يفتح محل
قهوة تفي فيه نساء بلك ونحو ذلك مما يمكن لكل احد ان يصنعه فهل لهذا
من تاويل ؟ اخر سوى انكم يا اهل لندرة خرق حق او غشاشون غبانون .
وفي الواقع فان كل شيء يصنعه اهل فرنسا هو مفضحة للانكليز فان الحرير
الفرنساوي للسيدات من الانكليز نصف جالهن والنصف لآخر من الشريط
والجوارب والكفوف والقيطان ونحوه ونصف ادبهن هو التكلم باللغة الفرنسية
والنصف الثاني العزف على البيانو . وطباخوا امراء الانكليز انما هم فرنساوية
وكذا شرابهم وجل تحفهم واهل الحوانيت يكتبون على كل شيء انه فرنساوي

كما مر ذكر ذلك فما معنى اتساع لندرة اذا وكثرة دكاكينها وسعة طرقاتها وتعدد
مراكبها وزحامها وضجيجها وجلبتها وليس فيها من يحسن عمل الخردل وليس
في مطاعمها مرقة في الشتاء ولا سلطة في الصيف ولا أرز ولا عدس ولا
جص ولا فول ولا مكرونة وانما هو الشواء والبطاطة والبطاطة والشواء او
شيء من البقل مسلوقة سلقا . ومن الغريب انهم اذا طبخوا البطاطة مع
اللحم سموه اداما اولا نديا وملأوه من الفلفل والابازير حتى يحترق اللسان
عن ان يذوق شيئا بعه واذا جلس احد فيها للغداء رأى بينه وبين جيرانه
حاجزا من الخشب حتى لا يقع التعارف بينهم وهو اشبه بحاجز الحيوانات
التي يجمعونها في بستان النباتات وترى كلا منهم قد جلس للطعام وبسبك
صحيفة اخبار يطالعها واذا اراد اخذ شيء من بين يديك تلقفه من غير
ان يستاذنك فيه كما تفعل الفرنسيات وغيرهم على ان كثيرا من هذا الطعام
قد ياكل الناس فيها وهم وقوف فكانما هم يهود ياكلون خروف الفصح فاما
مجال القهوة فمجتمع الارذل فترى فيها واحدا راقدا وآخر سكران وآخر وسخا
واذا طلبت فنجان فهوة خلطوا القهوة بالحليب والسكر في محل لا تراه وقدموه
لك هكذا فلا تدري ما وضع فيه فيا الف الف ونصف الف الف من الناس
مق تعيشون في هذه الدنيا الصغيرة عيشة مائتين ونصف مئة من سكان
القرى في فرنسا وإيطاليا وبر الشام وبر مصر بان تاكلوا خبزكم غير مخلوط
بالبطاطة والشب وجس باريس ولحمكم طريثا سليما لا من حيوان اصابه
داء فذبح ولا مما يرد اليكم من اميركا موصوعا في الثلج ولا ما خم واتن
فتحشون به المصريين والحوايا . فلعمر الله ان كان هذا الفش نتيجة التمدن
والترقي في العلوم فالجهل خير فان اهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما يعرفون
شيئا من هذه الفنون الكيماوية ولا خلطوا الغير المشايبة التي توجب على
الشاري ان يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى بها تلك الاجزاء
والمركبات فيما يوكل ويشرب في وطنكم هذا السعيد او ما كفى ان هواكم
مخلوط بالدخان وشتاءكم يدوم ثمانية اشهر تقضى بالاصطلاء على نار الفحم
الحجري وما ادراك ما الفحم الحجري وبخوض الوحول واستنشاق الصباب

حتى زدتم على هذا البلاء الطبيعي بلاء صنائعا تغافه الحيوانات فان الكلاب
والسنابير تاتى اكل هذه الجباب التي تحشونها بالحومهن . ثم اقول اولم
يكف ان نسا عليكم وخياطكم واساكتكم وصباغكم وسائر اهل الصنائع منكم
يفشون ويموهون ويلبسون ويدلسون ويشبهون ويصلون ويفغون فما يدرى
الحرير عندكم من القطن ولا الجديد من القديم المصبوغ ولا المخيط من المصق
وان المؤسسات يتناولون هلى الرجال ويشتمهم المسبت ويسرقهم - (المراد
بالمسبت هنا الدواء الذي يقال له كلور وفورم او اثير قيل ان خاصيته
كانت معروفة عند الكيماويين لا قدميين وذلك من سنة ١٦٨١ واول سن عشر
عليه في التاريخ المذكور كنطل واول سن عرف خاصيته في الاسعاط توماس
مرطون من بصلن في امريكا ثم استعمله دكتر سمصون في ايدنبرغ ومن
بعده دكتر جاس روينسون في انكلترة ثم شهر في سائر الممالك ونشا عنه
الموت بعض الاحيان وفائدته تغييب الموضع عن الحس بما يوله حتى انه
يمكن للجراح ان يقطع عضوا منه او يحرقه ولا يشعر به وقد استعملته
الملكة عند ولادتها غير مرة) - وان منهم سن حبت اكثر من مئة مرة ودامت
في السجن اكثر من اثنتى عشرة سنة وان منكم نباشين للقبور يسرقون اكفان
الموت ويسعونها وان الاولاد يختلسون في كل طريق مظلم وفي كل زحام وان
سفائتكم عارون عن الادب والحياء وذا بهم التعدي على الغريب والاساءة اليه
وان كثيرا من بيوتكم القديمة وحيطانكم العهيدة تهدم وتستط على الناس
فتهلكهم وانه قد يمكث الانسان عندكم شهرا ولا يرى الشمس الا مرة او
مرتين وان ربيعكم ابرد من شتائكم وصيفكم امطر من خريفكم وان لا فرجة
عندكم ولا مشهد ولا موسم ولا ملهى الا ويغص باللثام الطعام والاوباش
والاوغاد والسفلة الارذل الم يكف هذا كله حتى عمدتم على افساد ما خلقه
الله من الماكول والشروب طيبا مريئا افليست لكم السنة تذوق هذا الرجز
وتنطق بالحق وحلوق تستبشع ذلك الخبث من الطعام كما تستطع حروف
الحلق فان كان لفتكم وصدفكم عنها هو سبب استطيابكم لهذا الخبيث فمناها
بضعفي ما في لغتنا منها اهكذا علمكم اهل الشرق ان تخبزوا الخبز مخلوطا

باصناف شتى اهكذا علمكم اهل فرنسا ان تطبخوا هك اللحم المنتنة في مطاعمكم وتخفوا فسادها بكثرة الفلفل والافحاء اهكذا علمكم باسكت الرومي في سنة ١٦٥٢ ان تصنعوا القهوة مخلوطة بجميع انواع الحبوب فما معنى كثرة دكاكين الكتب والمولفات التي لا عدد لها عندكم في كل فن وصنعة وانتم لا تحسنون ان تطبخوا بصيعة من اللحم بيويقة من البقل فكل لحم مشوي وكل بقل مسلوق ويا ليت كان ذلك اللحم لحما وذلك البقل بقلًا . فاعجب ايها القاري من ان هؤلاء الناس الذين يملكون ما ينيف على الف ومائتي سفينة نار منها ما هو اكبر من فلك نوح وعندهم اكثر من مئة وستين صحيفة للاخبار منها ما يطبع في كل يوم ومنها في كل اسبوع لا يعرفون ان ياكلوا وليس لهم ذوق يعرفون به الطيب والخبيث من الطعام ويرضون بان ياتيهم رجل من فرنسا او ايطالية ليسيّعهم الخردل والحل والجبن مما يجلبه من بلاده وليس منهم في تلك البلاد احد يعلم اهلها شيئا من صنعة الطبخ فكل شيء دخل في حلوهم طاب استراطه وكل ما عرض للبيع في حوانيتهم هل بيعه وشراؤه بحيث يودى عليه مكس للدولة . واني لاعجب كيف انهم لا يختبزون خبزا من البطاطة وحدها او من الشعير وحك او من الاسماك كما في ايسلاند وكيف لا يتجرون في طين الارض القريية من المسكوب الذي يقال فيه انه يختمر مع الدقيق * وقد حان لي لان ايضا ان اختتم الكلام على لندرة فيما يوول الى الماكول والمشروب واذكر ما فاقت به سائر مدن العالم فيما يطبع فيها من صحفى الاخبار والكتب . فاقول ان اول جرنال في الدنيا باسمها هو الجرنال المسمى تيمس ومعنى هك اللفظة الاوقات ومعنى الجرنال يومية وهي لفظة فرنساوية والمشهور ان هك الصحيفة تحوي جيع اخبار المسكونة الا اني رايت فيها عيبا كبيرا وهو عدم اشتمالها على اخبار البلاد الشرقية وسائر الممالك لاسلامية فاذا كان فيها خبر عنها فانما هو مخصوص بالتجارة واما عدة كتاب وكانب مقدمتها يعد من اعظم ادباء الانكليز وظيفته في السنة اكثر من الف ليرة وهذا الجرنال هو لسان الامية والدولة ويليه الجرنال المسمى مورتن بوسط والهرالد والدالي نيوزوالستار

والغلوب والجرنال المسمى مورنن ادفرتيزر ومعناه معلن الصباح وهو لسان العامة وكانه نقيض الاول . وفي لندرة اكثر من مائة وستين جرنالا للاخبار الطارئة والادبيات والعلوم ووزن ما يطبع منها في كل يوم وكل اسبوع يبلغ في الاسبوع من مئة وثلاثين طنا الى مئة وخمسين . وفي باريس مائة وستون صحيفة للاخبار إلا ان كتابها مقيدون عن الجري في مضمار الكلام فليس لهم حرية كما لكتاب الانكليز فان هؤلاء يشهرون في اخبارهم كل ما استحسنوه واستبقوه وليس فيهم الرخصة لاصحاب جرنالات فرنسا وكذلك يشهرون كل ما حدث في مجلس المشورة من المذاكرات والمفاوضات بان يعث كل رئيس جرنال كاتبه الى المجلس ويكتب ما يقال فيه حرفا حرفا ولهم في ذلك طريقة غريبة يسمونها اليد القصيرة فان الكلام يكتب مختصرا بنوع من الاشارة ولولا ذلك لم يكن ممكنا للكاتب ان يستوعب جميع الاقوال . وكل ما حدث في قصر الملكة طبعوه حتى انهم لا يتحاشون من ان يكتبوا انها جليعة وانها تلد في الشهر الفلاني . وفي بعض هذه الصحف ان الملكة اهدت الى احد العسكر مندبلا من حرير وفيه رقعة مضمونها انه مكفوف بيد ابنتها الكبيرة ولو كان مثل ذلك يشاع في بلادنا لا أصبح مشغلة لللسن وقد سبقنا لاشارة اليه . وافحش ما يكون من تلك الجرنالات المجرنال المسمى يول بري قوات فيه في نمرة ١٦ ما نصه ان كان الله قد قصد ان منحه في هذا الامر تكون غير مستعملة فلم منحنا اياها وان كان انما قصد ان تكون مستعملة من المتزوجين فقط فلم آتاهما غير المتزوجين ايضا ام يقول قائل لا خشية له من الله انه انما اعطانا اياها ليلبونا بها افليس هذا يقضي الى ان نجعل الله امتحنا إلا اني لا ابري المتزوجين في استعمالهم هذه المنح في غير محلها اما الاقتران الطبيعي بين الرجل والمرأة وهما غير متزوجين وليس من عائلته واحدة فحلل وشري والحاصل ان شرائعنا الادبية حائدة عن الصواب وان الفضيلة على ما تفهمها العامة شين وتديس - الى ان قال - فكل امرأة غير متزوجة يحمل لها على مذهبي ان تخالط ايا شاءت من الرجال من دون خوف من ان توسم بالعار والفضيحة او الخروج عن الادب ولو جرت

العادة بان تعيش الرجال مع النساء من دون زواج لا غنايا ذلك عن كثير من الشرور التي تحدث بين المتزوجين كالسقم والقتل ونحوه بل عن كثرة المومسات وعما يقاسين من الموبقات والرزائل فاما حظر المرأة عن التلذذ مع الرجال وعند ذلك ادبا وفضيلة فتدليس وتدجيل . وكتب في بعض الجرنالات من بعض العامة الى كاتب الجرنال ما نصه : اسمح لرجل مسكين ان يقول كلاما وجيزا على امر موجب لشكوى الانكليز فاقول انا معاشر اهل انكلترة ما بوحنا معنيين بما لقينا من مصاريف الحرب لاخيرة ومن المكوس التي لا نطاق ومع ذلك فقد خطر الان يبل بعض اهل الدولة طريقة اخرى لافقار الرعية وهي امداد مملكة اجنبية بمال يسعى جهماز ابنت الملكة وناهيك ان ملكتنا لما تزوجت احضرت الى رعيتهما رجلا لا ثروة له وان ملك باسجيك وتنب له وظيفة تجري عليه من اهل هك المملكة وما ذلك الا لكونه تزوج بنت الملك جورج فصارت بلادنا موردا لصيادي البخت والجدة وانها لتبقى كذلك ما دام جلب المال هينا على طالييه او ليس لملكتنا من الايراد الجريمل ما يقدرها على ان تقوم بمونة ذريتها ولو انها قترت على نفسها قليلا لامكنها ان تجهزهم ان لم يوجد من كرام الناس من يتزوجهم بمجرد المحبة وكيف كان فمن الظلم الواضح ان يكلف اهل بلادنا اغناء بلاد اجنبية الا ترى ان لي زوجة وعشرة اولاد وان ايرادي كلمة لا يزيد على مائة وعشر ليرات اودي منها لتنظيف البلدة شيئا ولاجل الفقراء شيئا وللكنيسة شيئا ولغيرها شيئا فهل اذا اردت ان ازوجهم يجهزهم اهل الشورى عني الخ ، اه . وثمان هك الجرنالات كلها مع ما فيها من الاخبار والفوائد ومع حسن طبعها وورقها لا يفي بثمان الورق فقط لان اصحابها انما يكسبون من الاعلامات التي يطعونها للتجارة وغيرهم فعلى كل مطربين او ثلثة من هك الاعلامات خسة شليات ولا بد وان يكون على الصحيفة طابع الميري وهو كناية عن الرخصة ويودي عليه بني واحد وفي سنة ١٨٥٠ بلغ عدد هك الطوانع في انكلترة ٢٧١ ٦٥٧٤١ وفي سنة ١٨٥١ بلغ عدد الجرنالات المطبوعة في لندرة مائة وتسعة وخمسين جرنالا اشتملت على ٥٦٠ ٨٩١ اعلاما وبلغ عدد جرنالات انكلترة كلها مائتين واثنين وعشرين

اشتملت على ٨٧٥٦٣١ اعلاما وكان في سكوٲلاند مائة وعشرة جرنالات اشتملت على ٢٢٩ ١٢١ اعلاما وفي ارلندة جرنالان ومائة تضمٲت ٢٣٦ ١٢٨ اعلاما والاداء على كل اعلام في جرنالات انكلترة وسكوٲلاند شلين ونصف يدفعها صاحب الجرنال للميري وفي ارلندة شلين واحد . واول طبع بالبخار ظهر في مطبعة جرنال الشمس وذلك سنة ١٨١٢ . واول جرنال طبع في بلاد الانكليز كان في اكسفورد وذلك في سنة ١٦٦٥ وكان ديوان الملك يومئذ هناك لاجل الطاعون الذي وقع في لندرة فلما رجع الى لندرة سمي ذلك الجرنال كازتة وذلك بعد التاريخ المذكور بسنة واحدة وبقي هذا الاسم خاصا بالجرنال المشتمل على اخبار الدولة والمصالح الملكية فلا معول فيها الا عليه فهو بمنزلة المونيتور في باريس . واصل اسم الكازتة هو انه في سنة ١٦٢٠ طبع في صحيفة في فينيس اخبار مختلفة وكانت تشتري بقطعة من الدراهم تسمى كازتة فلزمها هذا الاسم وكان اشتهار الجرنال في فرنسا سنة ١٦٣١ وفي جرمانية سنة ١٧١٥ وفي دبلين سنة ١٧٦٧ واول جرنال اشتهر في هولاندة كان في سنة ١٧٣٢ وفي اميركا سنة ١٧١٩ وعدد جرنالاتها ثمانمائة منها خمسون جرنالا تطبع في كل يوم وجبلة نسخها اربعة وستون مليونا واول ما يصح تسميته بجرنال في بلاد الانكليز لاشتماله على اخبار عمومية هو ما طبع في سنة ١٦٦٣ وبقي كذلك نحو ثلث سنين ثم خفي بظهور الكازتة وفي زمان الملكة اليصابت وذلك سنة ١٥٨٨ شهر ايضا شيء مثله ولكنه لم يكن على هذا النسق . اه . ومن اعجب العجب كثرة اوراق التعريف والاعلام في هذه المدينة في كل موضع يباح فيه الصاقها وقد يستخدم بعض التجار خدمة مخصوصين ليطوفوا بها ويوزعوها على المارين مجاناً وما احد يريد ان ياخذها . ومنها ما يطبع بحروف فاحشة الكبر حتى يمكن قرائتها من مسافة بعيدة . اما صناعة الطبع فقد اختلفت لاقوال في مخترعها فبعض المؤرخين نسبها الى منتز وبعضهم الى استرازبورغ وهارلم وبعضهم الى فينيس ورومية وبعضهم الى فلورنسة وباسيل وفي رواية ادريان جونيوس ان مخترع الطبع هو يوحنا كستر من هارلم طبع على خشب كتابا فيه حروف وصور على وجه واحد وذلك في سنة ١٤٣٨

قال وفي سنة ١٤٤٢ انشا يوحنا فوست مطبعة في منتز وطبع فيها كتابا .
وزعم بعض ان اول كتاب طبعه كان كتاب المزامير . وقال اخر لا شك ان
الطبع على قطع الخشب كان معروفا عند اهل الصين وذلك قبل تاريخ
النصارى باحقاتب عديدة وكذلك كان معلوما عند الرهبان في بلاد الانكليز
وفي غيرها من بلاد اوربا فانهم كانوا ينقلون الكلام من ورقة الى اخرى على
الخشب ولكن كان ذلك قليلا فاما استعمال هذه الحروف مصفوفة واحدا
بعد واحد فلم يعرف إلا في متاخر الزمن . قال ولم يكن احد في الزمن
القديم يشتغل بالعلم وبترجمة الكتب والنسخ إلا الرهبان فهم الذين ادخلوا
التمدن والعارف في بلاد الافرنج وكانت رومية وبلاد اليونان معدن الكتب
والعلوم وكان الصكصونيون آباء الانكليز يسافرون مسافات بعيدة في طلب
العلم وتحصيل بعض تلك الكتب النادرة ويشترونها بثمن غال وعند رجوعهم
يترجمونها الى اللغة الصكصونية وكانت الناس تتنافس فيها لندرتها غاية
المنافسة وكان للاشقف ولغيره نسخة من كتاب الانجيل مكتوبة بحروف
من ذهب على ورق ارجواني فكان يضعها في ضوان من ذهب مرصع بالجواهر
النقيسة وما عدا هؤلاء الرهبان فلم يكن احد من العامة من يحسن الكتابة
غير افراد قليلين وناهيك ان توقيع وليترد ملك كتب على بجلته كان علامة
الصليب وامر كاتبه بان يكتب تحتها ان الملك انما رسم تلك العلامة بدلا
من اسمه لجهله الكتابة قال ولولا تخريب الدانيزيين وتدميرهم لكان العلم
بين الصكصونيين قد تقدم كثيرا إلا ان ملوك البحر اولئك كانوا على جانب
عظيم من الجهل والجفاء وكانوا وهم على اصنامياتهم ينظرون الى الصكصونيين
المسيحيين كأنهم مرتدة لانهم كانوا اولاً مثلهم عبدة اوثان ولهذا كانوا يرون
ان فروض دينهم توجب عليهم اباداة اديار الرهبان وكتبهم وما كانوا يعرفون
شيئا من جهة السماء سوى انهم يشربون فيها المزرة في جاجم اعدائهم
وياكلون من عراق جزيل لا ينقص الاكل منه شيئا مهما اكل فمن ثم اتلفوا
كتبا كثيرة كانت كلفت الصكصونيين اتعابا عظيمة في تحصيلها ولو انها
بقيت لنا لكنا ندرى منها امورا كثيرة نجهلها في تاريخ جيع البلاد . قال

واتفق في القرن الخامس عشر ان شابا اسمه جيمون غانسفيلش ويعرف
بغالبيرغ من مئق سلفيلوش سافر الى استراز بورغ وكانت مشهورة حينئذ بانها
سوق الكتب فاخذ يفكر في احداث طريقة لتكثيرها فخطر بباله انه اذا
صنع حروفا تتركب وتبطل يبلغ بها اربعة ثم رجع الى ماينس واجتمع
برجل اسمه فوسيت فتواطى على ابطال نسخ الكتب لما فيه من المشقة بطريقة
الطبع بتلك الحروف فسيكاهما كما خطر لهما وكان ذلك في سنة ١٤٤٠ الى
ان عملهما هذا لم ينتج فائدة الا بعد عشرين سنين ويظن ان تلك الحروف
كانت من رصاص قد اضيف اليه بعض اجزاء كيميائية لجعلها صلبة قابلة
للعمل المراد ثم دخل في شركتهما بطرس شوفر ثم طبع غالبيرغ عدة كتب
من جلتها التوراة المعروفة لان بتوراة مازرين وقد راجعها واشتهارها كثيرا
حتى انه كان يقال ان طبعها من عمل الشيطان وفي سنة ١٨٣٧ نصب له
مثال على قبرة اكراما له وارسلت نواب من جميع دول الافرنج لتعصر مشهك
ولما تفرق الذين كانوا مستخدمين في مطبعته ذهب بعضهم الى سويلكوفي
ايطالية فاشتهرت هناك الصناعة فيها في سنة ١٤٦٥ ثم سرت الى بلويس
وذلك في سنة ١٤٦٩ وبعد سنة اشتهرت في اسبانية وبعد نحو خمسين سنة
عمت جميع اوربا . ويظهر مما قاله بادان احد مشاهير الطباعين في بلويس
في اوائل القرن الخامس عشر وكذا مما قاله شيكولوكر الانكليزي ان الامهات
واللاهيات في تلك الحروف لم تختلف كثيرا عن المستعمل منها لان وكانت
العادة اذ ذاك ان سبك الحروف مختص بالطباعين فقط وفي سنة ١٦٣٧
صدر حكم من ديوان الانكليز بان لا يزيد عدد الطباعين على اربعة نفر وانه
اذا مات منهم احد لا يقوم آخر في محله الا باذن رئيس اساقفة كتر بوري وفي
سنة ١٦٩٣ حين صدرت المجلة باقرار حقوق الاهلين بطل هذا الحكم . وكانت
الكتب سابقا تفحص وتمتحن قبل ان تطبع ثم يكتب على صفحة عنوانها
تطبع . وفي سنة ١٧٩٥ اطلقت الحرية في الطبع من دون فحص وامر بان
تطبع اسماء الطباعين في اوائل الكتب واواخرها . واول سن يشهر الطبع في
بلاد الانكليز كاستون وذلك نحو سنة ١٤٧٤ وكان قد سافر الى البلاد الواطنة

وحصل معارف كثيرة . واول كتاب طبعه كان تاريخ طروة ترجمه من اللغة الفرنسية وكان جامعا لثلاث خصال جليلة وهي كونه مولفا وطباعا وناشرا وبسعيه ومعارفه حصل له في ادب لغة الانكليز تقدم عظيم . الا ان هك الصناعة الجليلة كانت غير عامة المنفعة عندهم وخصوصا انهم كانوا يشتركون الحروف من بلاد اوربا القارة ولاسيما من هولاندة الى ان قام كسلون في اوائل القرن الماضي وسبك حروفا حسنة وكثر الادوات . وفي سنة ١٧٢٠ استخدمته الجمعية المعروفة بجمعية انتشار المعارف المسيحية في سبك حروف عربية ثم اشتهر صيته في لافانق حتى صار اهل البلاد القارة يستمدون منه فلما مات باعت زوجته ما كان عنده من الحروف لجمعية العلوم في باريس فكانوا يطبعون بها اجل المؤلفات في الادب والعلوم . ثم قام دكطر فري وسبك حروفا في جميع اللغات المشرقية ويقال انه سبك في مسبك برسكيف اربعمائة شكل من الحروف الابدجية وان برونيكائدة رومية مع شهرتها ليس فيها اكثر من ذلك وسبك ايضا في معمل ريد وفي باريس ابداع ما يمكن صوغه من الحروف في العالم باسرة حتى ان بعضها لا يمكن قرائته الا بالزجاجة المكبرة وكيفما كان فان طباعي الانكليز في صرنا هذا لا يعلمون عليهم احد ثم ان احد النمساويين واسمه هوكونك راى ان الطبع البخار غير مستبعد فعرض رايه على اهل بلاده فاعرضوا عنه فقدم الى بلاد الانكليز واسمعتهم جماعة منهم باجراء ما قصده فصنع آلة صغيرة طبع بها الف صحيفة في ساعة واحدة بمساعدة ولدين فقط فلما تحقق صحة استعمالها عزم على اتخاذ آلة كبيرة لطبع الاخبار فراهها صاحب جرنال التيمس فواطاه على ان يصنع له آلتين مثل تلك ولكن اكبر منها . وفي سنة ١٨١٤ طبع في ذلك الجرنال اعلام بانه مطبوع بقوة البخار . ثم قلم جماعة وحسنوا هك الآلة فكان يطبع بها على الوجهين في كل ساعة من ثمانمائة صحيفة الى تسعمائة وكانت الآلة المفردة تطبع على وجه واحد في كل ساعة الفا اربعمائة صحيفة ثم قام مستر لثل واخترع آلة مزوجة يطبع بها في الساعة تطبع من عشرة الاف صحيفة الى اثنتي عشرة الفا . وفي بلاد امريكا مطبعة

في الساعة عشرين ألف صحيفة ما بين جرنال وغيره . وفي الحقيقة فان جميع ما اخترع من الصنائع في هذا العالم هودون صناعة الطبع . نعم ان الاقدمين بنوا امواما ونصبوا اعلاما وشادوا هياكل وحصنوا معاقل وحفروا خاجانا واقتنية للماء ومهدوا مسالك للعساكر إلا ان صناعتهم تلك بالنسبة الى صنعة الطبع ان هي لا درجته ترق فوق درجات الهمجة فانه بعد اشتهار الطبع لم يبق احتمال لاضافة المعارف التي ذاعت وشاعت او لفقد الكتب كما كانت الحال حين كانت تكتب بالقلم وقد قيل ان المعرفة مقدرة فان المتصفين بالمعارف وهم لاقل هم الذين يتولون الامور ويؤسسون الجمهور وهم لاكثر . اه . اما احداث الورق فقال فلتير انه كان في القرن الحادي عشر إلا انه كان مشهورا في الصين من عهد لا يعلمه إلا الله وهو ابيض رقيق يتخذونه من البمو المغلى او من قصب السكر قال وقد عرف استعمال الزجاج عندهم من الف سنة . وقال آخر ان احداث الورق في الصين عرف في سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد وفي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد كان يصنع من القطن وفي سنة ١٤١٩ صار يصنع من الخرق . واول من صنع الورق الابيض الخشن في بلاد الانكليز رجل نمساوي وذلك في سنة ١٥٩٠ وقبل ولیم الغالت كان الانكليز يشترونه من فرنسا وهولاندة فكانوا يصرفون كل سنة في ثمنه مائة الف ليرة فلما تقدم بعض الفرنسيين الى هذا البلاد للاستئمان علوا الانكليز صنعة الورق وكانوا من قبل ذلك يصنعون ورقا خشنا اسمر . وفي سنة ١٦٩٠ صنعوا الورق الابيض باليد واتخاذة بالالة كان من مخترعات لويس روبرت ثم باعها لطباع اسمه ريدو فجاء بها هذا الى بلاد الانكليز ومن ثم شهر استعمالها وفي سنة ١٨٤٠ صنع بها طاحية بلغ طولها ١٣٨٠٠ قدما وعرضها اربع اقدام . اما الورق المنقوش الذي يلصق على الخيطان فكان احداثه في اسبانية وهولاندة في سنة ١٥٥٥ فاما اليابيروس وهو الورق المتخذ من القصب فكان يصنع في مصر والهند الى ان عمل الرق وذلك في سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد وكان بتولومي قد منع اخراجه من مصر وعليه كتب تاريخه يوسينوس وهي نسخة جليظة ثمينة اخذها

ونابوليون من جلة ما اخذ وبعث بها الى باريس وفي سنة ١٨١٥ ردت
الى موضعها . والذي صرف على الطبع والورق لاستعمال اهل انكلترا
بلغ في سنة واحدة ٨٧٥ ٠ ٤٥٠ ليرة *

فصل في السقي

قد تقدم الكلام على هذا الخط من حيث اشتماله على اعظم المباني
الكائنة في لندرة فان المصرف والملك والمصر وديوان الصابط ودارة ودار
الصياغة وكنيسة ماربولص جميعها فيه وهو في الواقع لندرة القديمة وما يني
من بعده فهو حادث وبقي لان هنا ان اقول ان هذا الخط الفريد هو مركز
الاشغال العظيمة والمبايعات الجسيمة لاغنياء تجار الانكليز فما من بناء فيه
إلا وهو مصدر للحركة والعمل وما احد يخطو فيه الا للكسب والشغل ولا
يتحرك به لسان الا للنفع والفائدة ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور
الا للسعي ولا يخرج صدر مخلوق خاطر الا للتحصيل والاقتناء فترى كل
واحد من اهل فاتحا عينيه وفمه لاكل الدنيا وما فيها وكثيرا ما ترى في
مسالكه محدثين يحدثون انفسهم فيما هم فيه من المباشرة للامال فهنا تجد
الغلام شيخا في معرفته الادارة والشيخ غلاما في النشاط والاستعداد والشاب
قيلا وجمهورا وكيفما توجهت واينما سلكت رايت نهم الخلق وحرصهم شاغلا
لحواسهم الباطنة والظاهرة بالحرق والادخار وليس من قطر في الدنيا إلا
ويده اهل هذا الخط بالبضائع والمهمات وهو وان خلا عن الحوائث الربحية
البيهجة مما يرى في سائر شوارع لندرة الا ان الارباح التي تجنى هنا في
يوم واحد لا تجنى في غيره في شهر لان العقود الخطيرة والبراسلات الجزيلة
انما تصدر عن هذا المشغل الحافل ولا يخفى ان التاجر الذي يرسل تجار
البلاد الاجنبية ويبعث لهم ويجلب من عندهم يربح اكثر من التاجر الذي
يعقد في حانوته ويتنظر شاري شقته من التحرير او ثوب من الخبز . ومن
هؤلاء التجار من يكسب في السنة نحو مليون ليرة كذا قيل . ومنهم من له
عدة سفن تجري في البحر من بلد الى بلد ومنهم من يستخدم في ادارة

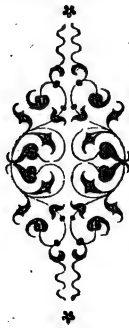
مهالجم مائة شخص وقد ذكرنا سابقا ان واحدا من هولاء لم يحمل في
ارلندة بن اربعة آلاف من الرجال والنساء لعمل القمصان وان تاجروا مات
عن سبعة ملايين ليرة ولا بد لكل منهم من ان يكون له كتاب وحساب
وصيرفي وما اشبه ذلك والغالب ان يكون له محترف يشتمل على ثلث
حجرات احداها للاشغال الخاصة به والثانية للكتاب والثالثة مشتركة لهم
ولوضع الروايز والمتاع ونحوه ولا شك ان تجار لندرة عموما وتجار هذا الصقع
خصوصا اغني من جميع تجار اوربا الا انهم دونهم في الطرف والكياسة
وعبارتهم ركيكة بخلاف تجار فرنسا فانهم مشاركون لذوي العلم والدراية
وعبارتهم وان تكن دون عبارة علمائهم الا انها بالنسبة الى كلام تجار
الانكليز عالية كما ان عبارة هولاء بالنسبة الى عبارة تجار بلادنا في غاية
الفصاحة ولعمري ان تاجرا يكتب لى لا وقمصه اى الامضاء والسالسي اى
الثالثة ومنقول لى مقول واعرض عن هذا الشيء اى عرض هذا الشيء والحصارة
فهندي بحسابا جديدا وبخيرا وعاقبة والساررة وغت علينا وخطوفا على وفولابت
ونحو ذلك لجدير بان يستحي من حرفته . ومن العجيب هنا ان العالم قد
يسهو احيانا ويغلط ومثل هولاء التجار لا يغلطون ابدا في تادية عبارة واحدة
على حقها فقد قرات اكثر من الفى رسالتة وردت منهم فلم ار فيها ولا جملة
واحدة تبدل على فكر لهم ورويتة فامثل هك الحال يدخر قول الانكليز في
التوبيخ الاستحي من نفسك . نعم ان التاجر لا يطلب منه ان يكون
شاعرا او رئيس ديوان الانشاء ولكن هاد عليه ان يصرف ادراكه كله في
معرفة الثوب الجش من الرفيع وان يرتدي بلباس الغفل عن اشرف ما ميز
الله به الانسان عن البهيمه وهو النطق بل ليت هولاء يكتبون كما ينطقون
فاني لا احسب عجزهم في الكلام بالغا الى هذا الحد ولعمري ان صاحب
الذوق السليم يمكنه ان يكتب عبارة راقية من دون ان يدرس كتاب
سيبويه او فقه اللغة للشعالي والمتفصح من هولاء من يخط العربية بالتركية
او الطليانية فيكتبون مركب يالكان وعلام مورد وبرنق وجنابير وماكنته
وبهريمو وياليتهم يكتبونها على حقها فياليت شعري ما سبب هذا العدول من

لغتهم الى لغة العجم وما سبب هذا القصور عن تادية عبارتهم بالفاظ متعارفة
او عن سبك معانيهم في كلام معجب مفصح وما عسى ان يقال في تاجر
فرنساوي يكتب رسالته ويحشوها بالالفاظ القبيحة والاغلاط الفاحشة في
التركيب ورسم الخط وما يكون قدره عند اقرانه ومعارفه وعند اصحاب
المجرنالات وخصوصا ما يطبع منها للضحك والتهكم الا فليحمدوا البلاد التي
خلت عن هذه الصحف وعن رعاية حرمة العلم . ثم ان تنافس الانكليز في
حصولهم في خط السقي سواء كانوا تجارا فيه او كتابا او غير ذلك هو كتنافس
القطب في استخدامهم في القلعة وقد ذكرت سابقا ان جميع الحوافل مكتوب
عليها اسم البنك لانها جميعها ترد اليه الا ما ندر وبهذا تعلم ما يكون ثم
من الزحام والوارد وفي الحقيقة فان دوي المراكب في مسالك هذه البقعة
لما يذهب بالصبر وما اظن احدا من سكانها ان يمكنه ان يعمل فكرة في
شيء الا فيما هو بين يديه من الشغل . وفي هذا المورد الوخيم قدر الله علي
ان اولف هذا الكتاب لا في مروج ايطالية النضيرة ولا في رياض الشام
لانيقة فاخال ان بين كل كلمتين منه دخانا متصاعدا وظلاما متكاثفا
وكنت كلما خرجت من حجرتي الى هذا الموضع اوجس ان يصيبني سوء
اما من تزامم الناس او البهائم او من رداة الطعام الذي يوكل في مطاعمها
فاذا عدت الى منزلي اجد نفسي كاني نجوت من خطر غرق او نار ومن
يخرج من هذا الحبس الى جهة ريجنت ستريت كان كمن خرج من
لندرة الى باريس لانه يرى هناك بعض الناس يمشي على مهل فيستشعر
ان من الخلق من يخرج للفرج والتنعيم وبعضهم يدخن بالتبغ وهو ماش
وبعضهم يتكلم وهو ضاحك او مبتسم وقد يسمع بعض الات الطرب فيانس
بان هناك ما ينفس عن القلب ويؤذن بالسرور وبان من اوقات العمر ما
يخصص للراحة واللذة بخلاف شوارع السقي فان الله تعالى لم يخلقها
الا للسعي والشغل الشغل الشغل ليس الا الشغل العمل العمل ان دين القوم
العمل فهم لا يستريحون منه الا اذا استراح هو منهم وناهيك ان فيه دارا
واحدة تشتمل على خمسمائة محترف وعدة سماء تبلغ نحو الف ومع ان

موقع هذا الخط سافل بالنسبة الى سائر اخطاط المدينة وطرقه ضيقة وبيوته
حقيرة فان اجلاله عند الانكليز جعله ارفع واشرف من غيره حتى انهم اذا
شخصوا منه الى محل اعلى منه يقولون انا نهبط الى موضع كذا وليس في
هذا الخط كله ملهى ولا نزهة ولا شيء آخر يبسط النفس فلن ترى فيه الا
وجوها كالحة وزحام عواجل وحوافل ومحامل وعجلات مقبلتة ومدبرة وطرقا
ضيقة وحلة وجذرانا سودا ومسالك غاصت بالناس *

هذا الكتاب هدية مني الى مولاي مولى الفضل خير الدين
ان كان يقبله فتلك صنيعته تكسو صناعي حلة التزيين
في ٨ ج سنة ١٢٧٩

كان الفراغ من طبع هذا التاليف البديع
في شوال المبارك سنة ثلث وثمانين
بعد المائتين والالف بمطبعة
الدولة التونسية صانها
وايدها رب البرية
ءامين



* بيان ما وقع من الخطا في هذا الكتاب وصوابه *

١	٢	٣	٤
المهمل	المحممل	٠٦	٠٢
ماثورة	ماثورة	١٨	٠٢
المستأنف	المستأنف	١٦	٠٣
والغزلات	والغزلات	٢١	٢٤
اللام	وللام	٠٢	٢٧
اللام	للام	٠٣	٢٧
والغسلات	والغسلات	١٤	٣١
القديسين	القدسسين	١٥	٣٦
اغتيالها	اغتيالها	٢٢	٤٧
الشكلي	الشكلي	١٢	٥٠
تبلبل	تبلبل	٠٦	٥٦
رون	دون	٠٥	٧١
طفي	طغفي	٠٨	٧١
وانحاء	وانحاء	٠٤	٧٨
فينيس	فينيسيس	١٦	١٠١
نزا	نزا	٢٦	١٠٩
الصباح	الصباغ	٠٧	١٢٠
الحامل	الحامل	١٤	١٤٧
سخت	سخت	١٥٠	١٥٥
ادرود	ادرود	٢٠	١٦١
وكشفت	وكشفت	١٠	١٧١
برز	بزر	٢٠	١٨٧
جحزا	جخرا	٢١	١٨٨

١٠	٢٠	٣٠	٤٠
والفج	والفج	٢٦	١٨٨
والقانوني	والقاني	٧	١٩٣
الترحب	الترحب	٧	٢٠٩
المستعمل	المستعمل	١٤	٢١٩
المصاريف	لمصاريف	٥٠	٢٢٠
المتدة	لمتدة	٥٦	٢٢٠
الطب	لطب	٢٢	٢٢٠
اليد	يد	٢٣	٢٢٠
المطل	لمطل	٢٥	٢٢٠
وخايجها	خليجها	٢٦	٢٢٠
خامرة	خامرة	٥٢	٢٢٥
شمعة	شمة	٥٦	٢٣٢
شاذلزي	شاذلزي	٢٦	٢٣٩
تشبه	تشبه	٢٤	٢٤٧
وربتهم	وربتهم	١٦	٢٧١
يعطيني	يفيضي	٢٠	٢٧٤
النصاري	النصاري	١٦	٢٧٦
الجنرال	الجنرال	٥٨	٢٧٧
روشامبو	روشامبو	٥٨	٢٧٧
اما	ما	٢٦	٢٩١
بعكس	يعكس	٢٠	٢٩٢

هذا ما عثرنا عليه من الخطا والتحريف وان فائنا شيء لم ننبه عنه
 فنرجو المسامحة ممن يعثر عليها غيرنا والله يغفر عثرات الجميع *



